تهذيب المنتظم

في تاريخ الملوك والأمم

تأليف
جمال الدين أبو الفرج ـ المعروف بابن الجوزي
(المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠م)

تهذيب وإعداد
دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر بفضلك، الحمد لله الواحد الأحد، المحمود الصمد، الذي لا يفنيه تكرر دور الأحوال، ولا أنواع التغيير والانتقال، وهو خالق الخلائق ومنشئهم، ورازق العباد ومغنيهم، قد كون الأشياء من غير امتثال بأصل، وذرأ البشر من غير اتسام بنسل، ثم شرح منهم صدور أوليائه، حتى انقادت أنفسهم لعبادته، وطبع على قلوب أعدائه حتى ازوارت عن الاكتساب لطاعته، ثم اصطفى منهم طائفة أصفياء، وجعلهم بررة أتقياء، فأفرغ عليهم أنواع نعمه، وهداهم لصفوة طاعته، فهم القائمون بإظهار دينه، والمتمسكون بسنن نبيه ، فله الحمد على ما قدر وقضى، ودبر وأمضى، حمدا لا يبلغ الذاكرون له حدا، ولا يحصي المحصون له عددا.

وأشهد أن لا إله إلا الله، الذي لا إله إلا هو، شاهد كل نجوى، ومنتهى كل شكوى وأشهد أن محمدا عبده المصطفى، ورسوله المرتضى، بعثه إليه داعيا، وإلى جنابه هاديا، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار.

أما بعد: فإن أحسن ما يدخر المرء من الخير في العقبى، وأفضل ما يكتسب به الذخر في الدنيا التقوي.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

أما بعد:

فكتاب " المنتظم في تاريخ الأمم والملوك " لابن الجوزي مليء بالفوائد الجمة التي لا غني للمسلم العادي إليها، فهو تاريخ سهل مبسط يحتاج إليه كثيرا المتخصصون قبل القارئ العادي، وما أكثر الفوائد التي حواها هذا الكتاب.

وما عملته في المختصر لا يخرج في الغالب عن أحد الأمور التالية:

١- استبعاد تراجم الوفيات التي ذكرها ابن الجوزي عقب تناول تاريخ كل سنة من السنوات.

٢- إذا تعددت الروايات التي يوردها ابن الجوزي، تم الاكتفاء بذكر واحدة فقط منها، لاسيما وإن كانت تؤدي الهدف منها دون الحاجة إلي غيرها.

٣- جرى تخريج الأحاديث الشريفة والتعريف ببعض المصطلحات والكلمات المبهمة والغير واضحة التي وردت في المختصر في بداية العمل في هذا المختصر ولكن وجدت أن هذه الإضافة سوف تخرج المختصر من حجمه المستهدف ولهذا اضطررت - آسفا - عدم سلوك هذا الدرب.

٤- الإبقاء ما أمكن على رأي ابن الجوزي في كثير الأحداث والأحاديث والمواقف السياسية.

٥- تجريد المختصر مما ورد به من أمر الإسناد والرواية الكثيرة علي أساس أنه لا يهتم بهذا الأمر كثيرا سوي المتخصصين فقط.

٦- كل ما هو موجود في المختصر من كلام ابن الجوزي إلا ما أضيف له من واو العطف ونحوها لربط الكلام ببعضه.

أسأل الله التواب الغفور أن يغفر لنا ويرحمنا، ونشهده أنا نحبه ونبيه محمد والأنبياء والمؤمنين ونبغض الكافرين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

نبذة عن الإمام ابن الجوزي - رحمه الله

حظي " ابن الجوزي " بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون، وبلغت مؤلفاته أوج الشهرة والذيوع في عصره، وفي العصور التالية له، ونسج على منوالها العديد من المصنفين على مر العصور.

فهو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن عبيد الله ابن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمّد بن جعفر بن عبدالله ابن القاسم بن النضر ابن القاسم بن محمّد بن عبد الله بن القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصديق ☺ القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الحافظ المفسر الواعظ المؤرخ الأديب المعروف بابن الجوزي رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته. وقد عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها، وقيل: نسبة إلى " فرضة الجوز " وهي مرفأ نهر البصرة.

مولده:

ولد العلامة ابن الجوزي " بدرب حبيب " الواقعة في بغداد، واختلف في تأريخ ولادته:

قيل: سنة: 508، وقيل: سنة: 509، وقيل: سنة: 510 هجرية. والأرجح أنه ولد بعد العشرة كما يظهر ذلك في بعض مؤلَّفاته في الوعظ، حيث يقول: إنه بدأ التصنيف سنة: 528هـ، وله من العمر 17 سنة. ولما قيل عنه أيضًا في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار " أنه كان يقول: " لا أتحقق مولدي غير أنه مات والدي في سنة: 514هـ، وقالت الوالدة كان لك من العمر ثلاث سنين ". وعلى هذا تكون ولادته سنة: 511هـ/ 1117م. وكان أهله تجارًا في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: عبد الرحمن بن عليّ الجوزي الصفار.

نشأته:

توفي والده عليّ بن محمّد وله من العمر ثلاث سنين، ولكن ذلك لم يؤثّر في نشأته نشأة صالحة، حيث أبدله الله عمته مربية مخلصة تعطيه كلّ عطفها وعنايتها وتسهر على خدمته وتعليمه، فهي حملته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر، فتلقى منه الرعاية التامة والتربية الحسنة حتى أسمعه الحديث.

وعلى الرغم من فراق والده في طفولته فقد ساعده في توجهه إلى طلب العلم وتفرغه لذلك ثروة أبيه الموسر، فقد ترك من الأموال الشيء الكثير، ولهذا نراه - رحمه الله - يكثر الكلام عن نفسه في أكثر من كتاب، فيبين أنه نشأ في النعيم، ويقول في صيد الخاطر:

" فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى أثر معي مرضًا قطعني عن كثير من التعبد، حتى إني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت يومًا ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات، إن تناوله لطاعة عظيمة، وإن مطعمًا يؤذي البدن فيفوّته فعل خير ينبغي أن يهجر، فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه ".

فلما بلغ ابن الجوزي رشده شعر بنفسه وبال الترف في طلب العلم، فقنع باليسير واستسهل الصعاب متحملاً كلّ الشدائد والمحن فهمته في طلب العلم أنسته كل الترف فانكب على طلب العلم - وهو ألذ من كلّ لذيذ - فيقول عن نفسه: " ولقد كنت في مرحلة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ".

قد عاش ابن الجوزي منذ طفولته ورعًا تقيًا زاهدًا، لا يحب مخالطة الناس خوفًا من ضياع الوقت، ووقوع الهفوات، فصان بذلك نفسه وروحه ووقته: يقول الإمام ابن كثير عند ترجمته له: " وكان - وهو صبي - ديّنًا منجمعًا على نفسه لا يخالط أحدًا ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلاّ للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان ".

حبه للعزلة:

وكان يحب العزلة تقديرًا لقيمة الوقت وابتعادًا عن الوقوع في اللهو. يقول في صيد الخاطر: " فليس في الدنيا أطيب عيشًا من منفرد عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة، لا عن تكلف ولا تضييع دين، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف القناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير بهذا الاستعفاف يسلم دينه ودنياه، واشتغاله بالعلم يدلّه على الفضائل ويفرجه عن البساتين، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم، فإنه إذا اعتزل الجاهل فاته العلم فتحبط ".

ردّه على المتزهدين والمتصوفين:

في موضع آخر من صيد الخاطر عين فصولاً للرد على العزلة العمياء والمتزهدين فيقول: " فكم فوتت العزلة علمًا يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بليته هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب ".

ويقول في ذم المتزهدين والصوفية العمياء: " وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي: كان من السلف من يزن قوته بكربة فينقص كل يوم. وهذا شيء ما عرفه رسول الله ، ولا أصحابه وإنما كانوا يأكلون دون الشبع. وما كانت سيرة رسول الله وأصحابه على ما المتزهدون عليه اليوم.

فقد كان يضحك ويمزح ويختار المستحسنات ويسابق عائشة ♥، وكان يأكل اللحم ويحب الحلوى ويستعذب الماء وعلى هذا كانت طريقة أصحابه، فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة، وكلها على غير الجادة ".

مكانته وثناء العلماء عليه:

لقد أعجب بشخصيته وجهده الجبار علماء أجلاء من بعده فمدحوه وأثنوا عليه. يقول ابن خلكان: " إنه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وفي صناعة الوعظ صنف في فنون كثير " فعد بعض مؤلَّفاته، ثم قال: " وبالجملة فكتبه تكاد لا تعد، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا إنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خصّ كل يوم تسع كراريس ".

وكان ابن الجوزي كثير الاطلاع ومشغوفًا بالقراءة فقد حكى عن نفسه أنه طالع عشرين ألف مجلد أو أكثر، وهو ما يزال طالبًا.

يقول في صيد الخاطر: " سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي تخلفت من المصنفات فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلوّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي به المقتدي ولا صحاب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم ".

فقد استطاع بهذا الاطلاع الواسع أن يتفوق على كثير من معاصريه في المشاركة في عديد من العلوم والفنون، فألف في التفسير والحديث والطب والوعظ وغيرها الشيء الكثير ويبدو أن ابن الجوزي كان ماهرًا في التفسير وفي التأريخ والوعظ ومتوسطًا في الفقه، وأما بالنسبة إلى متون الحديث فهو واسع الاطلاع فيها لكنه غير مصيب في الحكم على الصحيح والسقيم.

يقول الذهبي عند ترجمة ابن الجوزي: " كان مبرزًا في التفسير والوعظ والتأريخ ومتوسطًا في المذهب وله في الحديث اطلاع تام على متونه، وأما الكلام على صحيحه وسقيمه فما له ذوق المحدثين ولا نقد الحفاظ المبرزين ". وقال الذهبي في التأريخ الكبير: " لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه ".

مدرسة ابن الجوزي:

كان له دور كبير ومشاركة فعالة في الخدمات الاجتماعية، وقد بنى مدرسة بدرب دينار وأسس فيها مكتبة كبيرة ووقف عليها كتبه وكان يدرس أيضًا بعده مدارس بغداد.

قال الحافظ ابن الدبيثي عن ابن الجوزي: " كان من أحسن الناس كلامًا وأتمهم نظامًا وأعذبهم لسانًا، وأجودهم دينًا، وبورك في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة وحدث بمصنفاته مرارًا ".

منزلته في الوعظ:

لم يكن جهاده محصورًا في القلم والتأليف إنما كان له شأن عظيم وشهرة كبيرة في الوعظ والخطب والدعوة والإرشاد بين الخواص والعوام.

يقول ابن كثير رحمه الله: " تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه في المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة

شجاعته في إظهار الحقّ:

كان لا يخاف في الله لومة اللائم، وكان يحضر في وعظه الرؤساء والخلفاء، وقد التفت مرة إلى ناحية الخليفة المستضيء العبّاسي، وهو يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت، خفت منك وإن سكتّ خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله، خير لك من قوله: لكم أنتم أهل البيت مغفور لكم.. وأضاف قائلاً: لقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني من عامل ظلم فلم أغيره فأنا الظالم.

وهكذا دافع ابن الجوزي عن الحقّ بدون خوف لومة لائم وحارب البدع والمنكرات والتعصب في المذاهب والتقليد الأعمى، وقد كان يعترف بنجاحه في هذا المجال فيقول: " وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعانني الله عزوجل عليهم وكانت كلمتنا هي العليا ".

محنته في سبيل الحقّ:

وقد امتحن ابن الجوزي رحمه الله، في آخر عمره، وذلك أن الوزير ابن يونس الحنبلي كان في ولايته قد عقد مجلسًا للركن عبد السلام بن عبد الوهّاب بن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه. وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جدّه وسلمها إلى ابن الجوزي.

فلما ولى الوزارة ابن القصاب - وكان رافضيًا خبيثًا - سعى في القبض على ابن يونس وتتبع أصحابه، فقال الركن: أين أنت عن ابن الجوزي، فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر، فهو أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبه في مشورته؟ فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر - وكان الناصر له ميل إلى الشيعة - وكان يقصد إيذاء ابن الجوزي فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأهانه وختم على داره وشتت عياله، ثم أخذه في سفينة إلى واسط فحبس بها في بيت وبقي يغسل ثوبه ويطبخ، ودام على ذلك خمس سنين وما دخل فيها حمامًا.

فالمحنة بشتى أنواعها والصبر عليها والاستمرار على الوقوف في وجه الباطل والظلم والطاغوت من دأب العلماء العاملين والمجاهدين المخلصين. وقد رسم لنا العلامة ابن الجوزي من خلال حياته سلسلة متصلة من الكفاح والجهد الطويل والربط بين العلم والعمل ربطًا وثيقًا.

وقد عقد فصلاً مستقلاً في كتابه صيد الخاطر تحت عنوان: (العلماء العاملون) فمدح فيه من يستحق المدح من أقرانه، وذمّ من يستحق ذلك ثم قال: " فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلسًا مع قوّة الحجة عليه ".

ما أخذ عليه:

رغم وصوله إلى قمة العلم والمعرفة فقد أخذ العلماء عليه مآخذ هامة:

أوّلاً: كان يميل إلى التأويل في بعض كلامه. يقول ابن رجب في الذيل: " اشتد إنكار العلماء عليه في ذلك، وكان مضطربًا في قضية التأويل رغم سعة اطلاعه على الأحاديث في هذا الباب فلم يكن خبيرًا بحل شبه المتكلمين، ويقول: كان أبو الفرج تابعًا لشيخه أبي الوفاء ابن عقيل في ذلك، وكان ابن عقيل بارعًا في علم الكلام ولكنه قليل الخبرة في الأحاديث والآثار لذا نراه مضطربًا في هذا الباب ".

نعم، قد نجد ما يثبت ميله إلى التأويل من ثنايا كتبه حيث ألّف كتابًا مستقلاً يناقش هذا الموضوع باسم (دفع شبه التشبيه) وهو مطبوع أورد فيه بعض آيات قرآنية، وستين حديثًا ورد فيها الكلام عن ذات الله وصفاته ، كالوجه، واليد، والنفس، والساق، والاستواء، فيؤوّلها بما يحتمل التأويل بخلاف ما ذهب إليه السلف من إمرارها كما وردت بدون تأويل ولا تشبيه، ولا تعطيل.

ونجد أيضًا في صيد الخاطر، ينقد نهج السلف فيقول: ".. ولا أقوامًا قصرت علومهم فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعليل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا ".

وقد قام بالردّ على ما كتبه ابن الجوزي مائلاً إلى التأويل عالم معاصر له، وهو الشيخ إسحاق بن أحمد بن غانم العلثي حيث كتب رسالة يردّ فيها على ابن الجوزي ردًّا عنيفًا طالبًا فيها العودة إلى الحقّ وإلى العقيدة السلفية وعلى ما كان عليه إمامه أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث يقول فيها: " وإذا تأولت الصفات على اللغة وسوغته لنفسك وأبيت النصيحة، فليس هو مذهب الإمام الكبير أحمد بن حنبل قدس روحه، فلا يمكنك الانتساب بهذا، فاختر لنفسك مذهبًا حتى قال: فلقد استراح من خاف مقام ربّه وأحجم عن الخوض فيما لا يعلم، لئلا يندم. فانتبه قبل الممات، وحسن القول العمل، فقد قرب الأجل لله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ".

ثانيًا: كثرة أغلاطه في تصانيفه، وعذره في هذا واضح وهو أنه كان مكثرًا من التصانيف، فيصنف الكتاب ولا يعتبره، بل يشتغل بغيره وربما كتب في الوقت الواحد تصانيف عديدة ولولا ذلك لم تجتمع له هذه المصنفات الكثيرة.

ثالثًا: ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه والترفع والتعاظم، وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، والله يسامحه، كقوله في صيد الخاطر: ".. ونظرت إلى علوّ همتي فرأيتها عجبًا " ويقول في موضع آخر: " خلقت لي همة عالية تطلب الغايات " وأمثال ذلك كثيرة.

والحقيقة في علم ابن الجوزي، فلا يخفى كثرة مآثرة ومؤلفاته. ولكن من كان لديه بالعلم والتحقيق العلمي دراية، يعلم أن ابن الجوزي لم يكن من أئمة الفقه ولا الحديث، وإن ألف فيهما ما ألّف. وإنما حصل له ذلك بكثرة اطلاعه وبحثه. قال السيوطي في طبقات الحفاظ (1/480): قال الذهبي في التاريخ الكبير: (لا يُوصَفُ ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه). ورغم كثرة تآليفه في شتى العلوم، فقد ضَعُفَ من ناحية التحقيق في أكثر العلوم التي ألّف فيها، ولا سيما في الحديث. فتجد كلامه مخالفًا كثيرًا لكلام حُفّاظِ الحديث. فالمفترض أن تكون كتبه مراجع يستعملها طالب العلم المتمكن الذي يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ، فلا تُنشر على العامة وصغار المتفقّهة.

قال الإمام موفق الدين عن ابن الجوزي: (كان حافظًا للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها). وقال عنه الموفق عبد اللطيف: (وكان كثير الغلط فيما يصنفه. فإنه كان يخلو من الكتاب ولا يعتبره). ذكر ذلك الحافظ ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث (4/122). فقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (21/378): (هكذا هو: له أوهامٌ وألوانٌ من ترْك المراجعة، وأخذ العِلم من صُحُف). قال الحافظ سيف الدين بن المجد: (هو كثير الوهم جدًا، فإن في مشيخته - مع صِغرها - أوهامًا). وقيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزي؟ قال: (إنما يُتتبع على من قل غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة). قال السيف: (ما رأيت أحدًا يُعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله، راضيًا عنه). وقد عابه الكثير من أهل السنة فأصر على بدعته. وعاتبه أبو الفتح بن المني في أشياء. وقال ابن حجر لسان الميزان (2/83) بترجمة ثمامة بن الأشرس البصري بعد قصة: (دلّت هذه القصة على أن ابن الجوزي حاطب ليلٍ لا ينتقد ما يحدّث به). قلت: فمثل هذا الرجل لا يوثق بنقله ولا بكلامه.

ولعل ما قدم للأمة من القدوة الصالحة والخدمة الخالصة التي لا مثيل لها، تغطي مساوئه، وترفع درجاته. لأن الحسنات يذهبن السيئات. والله واسع المغفرة والكرم وهو عليم بذات الصدور.

وفاته:

بعد أن عاش رحمه الله داعيًا مرشدًا كاتبًا بارعًا زاهدًا مخلصًا، قرابة تسعين عامًا، انتقل إلى جوار ربّه ببغداد. وكانت وفاته ليلة الجمعة (12 رمضان 597هـ) بين العشائين، فغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيرًا جدًّا، وما وصل إلى حفرته إلا وقت صلاة الجمعة، والمؤذن يقول: " الله أكبر "، ودفن بباب حرب، بالقرب من مدفن الإمام أحمد بن حنبل فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته ونفعنا بعلومه آمين.

شيوخه:

وقد ألّف في مشيخته كتابًا خاصًا، ذكر فيه حوالي تسعة وثمانين شيخًا ونرى فيه حسن اختياره للمشايخ حيث تتلمذ على طائفة من خيرة أعلام عصره، ويذكر اهتمامه في اختيار أبرع وأفهم المشايخ في بداية كتابه المذكور، حيث قال: " حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصغر وأسمعني العوالي، وأثبت سماعاتي كلّها بخطّه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب كنت ألازم من الشيوخ أعلمهم وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد المدد لا تكثير العدد ". فمن مشايخه:

١- أبو بكر محمّد بن عبد الباقي بن محمّد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الربيع ابن ثابت، وتنتهي نسبته إلى كعب بن مالك الأنصاري أحد الثلاثة الذين خلفوا. يقول المؤلّف: قرأ عليه، وكان ثقة فهمًا حجّة متفننًا في علوم كثيرة، منفردًا في علم الفرائض، وقع في أيدي الروم أسيرًا فأجبروه على أن ينطق كلمة الكفر فلم يفعل. توفي رحمه الله سنة: (535هـ).

٢- أبو بكر محمّد بن الحسن بن عليّ بن إبراهيم المعروف بالمزرعي، قال ابن الجوزي إنه سمع منه وكان ثقة ثبتًا، عالمًا، حسن العقيدة، وسمع الحديث الكثير من ابن المهتدي، والصيريفيني وغيرهما. توفي رحمه الله سنة: (527هـ).

٣- أبو الحسن عليّ بن عبد الواحد الدينوري، يقول المؤلّف: إنه سمع منه الفقه والحديث، والجدل، والخلاف، والأصول، وهو من أقدم شيوخه وكان يسكن باب البصرة من غربي بغداد. وتوفي في جمادى الآخرة سنة: (521هـ).

٤- أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة شيخه الأوّل أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان عبد الملك صالحًا صدوقًا، سمع جماعة كثيرة وخرج إلى مكة فجاورها. وتوفي في ذي الحجّة بعد رحيل الحجّ بثلاثة أيام سنة: (548هـ).

٥- أبو سعد أحمد بن محمّد بن الحسن بن عليّ البغدادي، يقول ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان خيرًا ثقة وأملى بمكة والمدينة وكان على طريقة السلف صحيح العقيدة حلو الشمائل مطرح التكلف. ولد بأصبهان ونشأ بها وتوفي بنهاوند سنة: (540هـ).

تلاميذه:

كما اختار ابن الجوزي ثلة من خيرة أساطين علماء عصره، كذلك اختاره هو شيخًا، وأخذ العلم والحكمة على يده نخبة من الأفذاذ فورثوا بعده مقتدين بخطواته في التأليف والنصح والإخلاص، فمنهم:

١- الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور. ولد في أرض نابلس سنة: (541هـ) سمع الحديث والعلوم من دمشق والموصل وهمدان، والإسكندرية، وكان حافظًا تقيًا ورعًا، وسمع من ابن الجوزي ببغداد، وألّف كتبًا عديدة، قال يوسف بن خليل: كان ثقة ثبتًا ديّنًا مأمونًا حسن التصنيف دائم الصيام. توفي بمصر سنة: (600هـ).

٢- يوسف بن فرغلي بن عبد الله، أبو المظفر الواعظ، سبط الإمام ابن الجوزي، روى عن جدّه ببغداد، وسمع أبا الفرج بن كليب وغيره، وسمع بالموصل ودمشق، وحدّث بها وبمصر وأعطى القبول، وصنف الكتب العديدة منها: كتاب مرآة الزمان في التأريخ، وشرح الجامع الكبير، واللوامع في أحاديث المختصر، وغيرها. أخذ العلم من ابن الجوزي في بغداد. وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي الحجّة سنة: (654هـ).

٣- أحمد بن عبد الدائم بن نعمة الكاتب المحدّث. ولد سنة: (575هـ) في نابلس، ودخل بغداد، وسمع بها ابن الجوزي وغيره، وسمع بدمشق وحران، وكان حسن الخلق والخلق، ديّنًا متواضعًا، وحدّث بالكثير بضعًا وخمسين سنة، وكتب ما لا يوصف كثرة من الكتب الكبار، متأثرًا بشيخه ابن الجوزي حتى صار هو شيخًا للأئمة الكبار، والحفاظ والمحدّثين، والفقهاء كالشيخ محيي الدين النووي، وشيخ شمس الدين بن عمر، وشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وأمثالهم، رحمهم الله جميعًا. توفي أحمد ابن عبد الدائم سنة: (668هـ).

مؤلّفاته:

لقد فارقنا جسمًا وروحًا ولكن ذكراه وثمرات جهده الجبار المرسومة على صفحات التاريخ لم تزل ولا تزال تحيي حياة طيبة.

وقد أورد المؤرخون من بعده بكل غرابة وإعجاب مؤلّفاته الضخمة في كتبهم فيقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في (أجوبته المصرية): " كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره ".

ويقول الحافظ الذهبي: " ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل ".

ويصفه صاحب البداية والنهاية بأنه: " أحد أفراد العلماء برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، ومجموع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف وكتب بيده نحوًا من مائتي مجلد. وله في العلوم كلّها اليد الطولى، والمشاركات في جميع أنواعها؛ من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه. وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كلّه ما يضيق هذا المكان عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها: كتابه في التفسير المشهور بـ (زاد المسير) وله تفسير أبسط منه - أي أوسع - لكنه ليس بمشهور. وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب (المنتظم في تاريخ الأمم من العرب والعجم) في عشرين مجلدًا، (ويقول ابن كثير) ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخًا:

وقد أورد ابن رجب عن القطيعي في تأريخه، ثبت التصانيف التي كتبها ابن الجوزي بخطّه فذكر فيه حوالي 199 كتابًا. منها:

ثبت تصانيفه المتعلقة بالقرآن وعلومه:

كتاب المغنى في التفسير واحد وثمانون جزءا.

كتاب زاد المسير في علم التفسير أربع مجلدات.

كتاب تيسير البيان في تفسير القرآن مجلد واحد.

كتاب تذكرة الأريب في تفسير الغريب مجلد واحد.

كتاب غريب الغريب جزء واحد.

كتاب نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر مجلد واحد.

كتاب الوجوه النواضر في الوجه والنظائر في مجلد واحد قال ابن الجوزي إنه اختصره من الكتاب السابق.

كتاب الإشارة إلى القراءة المختارة أربعة أجزاء.

كتاب تذكرة المنتبه في عيون المشتبه جزء واحد.

كتاب فنون الأفنان في عيون علوم القرآن مجلد واحد.

كتاب ورد الأغصان في فنون الأفنان جزء واحد.

كتاب عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ في خمسة أجزاء.

كتاب المصفى بأكف أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ جزء واحد.

ثبت تصانيفه في أصول الدين:

كتاب منتقد المعتقد جزء واحد.

كتاب منهاج الوصول إلى علوم الأصول خمسة أجزاء.

كتاب بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد جزء واحد.

كتاب غوامض الإلهيات جزء واحد.

كتاب مسلك العقل جزء واحد كتاب منهاج أهل الإصابة.

كتاب السر المصون مجلد واحد.

كتاب دفع شبه التشبيه أربعة أجزاء.

ثبت تصانيفه في علم الحديث والزهديات:

كتاب جامع المسانيد والألقاب بالخص الأسانيد وهو كتاب كبير رتبه الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بالمحب الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ.

كتاب الحدائق أربعة وثلاثون جزءا.

كتاب نفي النقل في خمسة أجزاء.

كتاب المجتبى في مجلد واحد.

كتاب النزهة جزآن.

كتاب عيون الحكايات مجلد واحد.

ملتقط الحكايات ثلاثة عشر جزءا.

كتاب إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين مجلد واحد.

كتاب روضة الناقل جزء واحد.

كتاب غرر الأثر ثلاثون جزءا.

كتاب التحقيق في أحاديث التعليق مجلدان.

كتاب المديح سبعة أجزاء.

كتاب الموضوعات من الأحاديث المرفوعات مجلدان.

كتاب العلل المتناهية في الأحاديث الواهية مجلدان.

كتاب الضعفاء والمتروكين مجلد واحد.

كتاب الكشف لمشكل الصحيحين أربع مجلدات.

كتاب إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه مجلد واحد.

كتاب أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث جزء واحد.

كتاب السهم المصيب جزآن.

كتاب الفوائد عن الشيوخ ستون جزءا.

كتاب مناقب أصحاب الحديث مجلد واحد.

كتاب موت الخضر مجلد واحد.

كتاب مختصر موت الخضر جزء واحد.

كتاب المشيخة جزء واحد.

كتاب المحتسب في النسب مجلد واحد.

كتاب تحفة الطلاب ثلاثة أجزاء.

كتاب تنوير مدلهم الشرف جزء واحد.

كتاب الألقاب جزء واحد.

ويضيف ابن القطيعي المؤرخ المشهور ما يلي على مؤلفات ابن الجوزي:

كتاب فضائل عمر بن الخطاب مجلد واحد.

كتاب فضائل عمر بن العزيز (مجلد واحد).

كتاب فضائل سعيد بن المسيب (مجلد واحد).

كتاب فضائل الحسن البصري مجلد واحد.

كتاب مناقب الفضيل بن عياض أربعة أجزاء.

كتاب مناقب بشر الحافي سبعة أجزاء.

كتاب مناقب إبراهيم بن أدهم ستة أجزاء.

كتاب مناقب سفيان الثوري مجلد واحد.

كتاب مناقب أحمد بن حنبل مجلد واحد.

كتاب مناقب معروف الكرخي جزآن.

كتاب مناقب رابعة العدوية جزء واحد.

كتاب مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن مجلد واحد.

كتاب صفة الصفوة خمس مجلدات.

كتاب منهاج القاصدين أربع مجلدات.

كتاب المختار من أخبار الأخيار مجلد واحد كتاب القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحلاج (جزء واحد).

كتاب عجالة المنتظر لشرح حال الخضر جزء واحد.

كتاب النساء وما يتعلق بآدابهن مجلد واحد.

كتاب علم الحديث المنقول في أن أبا بكر أم الرسول جزء واحد (في هذا الجزء حاول نفي ذلك وقد حاول عبد المغيث الحربي بن زهير بن علوي المحدث الزاهد أبو العز بن أبي حرب أن يثبت ذلك في كتاب له بعنوان في إثبات صلاة النبي خلف أبي بكر).

كتاب الجوهر.

كتاب المغلق.

ثبت تصانيفه في التواريخ وما يتعلق بها:

كتاب تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير عبارة عن مجلد واحد.

كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم عشر مجلدات.

كتاب شذور العقود في تاريخ المعهود مجلد واحد.

كتاب طراف الطرائف في تاريخ السوالف جزء واحد.

كتاب مناقب بغداد مجلد واحد.

ثبت مصنفاته في الفقه:

كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف.

كتاب جنة النظر وجنة المنتظر وهي التعليقة الوسطى.

كتاب مقتصر المختصر في مسائل النظر وهي دون تلك.

كتاب عمد الدلائل في مشتهر المسائل وهي التعليقة الصغرى.

كتاب المذهب في المذهب.

كتاب مسبوك الذهب في المذهب مجلد واحد في الفروع.

كتاب النبذة جزء واحد.

كتاب العبادات الخمس جزء واحد.

كتاب أسباب الهداية لأرباب البداية مجلد واحد.

كتاب أسباب كشف الظلمة عن الضياء في رد دعوى.

كتاب رد اللوم والضيم في صوم يوم الغيم جزء واحد.

مصنفاته في الوعظ:

قال ابن القادسي له أكثر من مائة مجلدة نذكر منها.

كتاب اليواقيت في الخطب مجلد واحد.

كتاب المنتخب في الثوب مجلد واحد.

كتاب منتخب المنتخب مجلد واحد.

كتاب نسيم الرياض مجلد واحد.

كتاب اللؤلؤ مجلد واحد.

كتاب المذكر مجلد واحد.

كتاب الأزج مجلد واحد.

كتاب اللطائف مجلد واحد.

كتاب كنوز الرموز مجلد واحد.

كتاب المقتبس مجلد واحد.

كتاب زين القصص مجلد واحد.

كتاب موافق المرافق مجلد واحد.

كتاب شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب واسطات العقود من شاهد ومشهود مجلد واحد.

كتاب اللهب جزآن.

كتاب المدهش مجلدان.

كتاب صبا نجد جزء واحد.

كتاب محادثة العقل جزء واحد.

كتاب لقط الجمان جزء واحد.

كتاب معاني المعاني جزء واحد.

كتاب فتوح الفتوح مجلد واحد.

كتاب التعازي الملوكية جزء واحد.

كتاب العقد المقيم جزء واحد.

كتاب إيقاظ الوسنان من الرقدات بأحوال الحيوان والنبات جزءان.

كتاب نكت المجالس البدرية جزآن.

كتاب نزهة الأديب جزآن.

كتاب منتهى المنتهى مجلد.

كتاب تبصرة المبتدىء عشرون جزءا.

كتاب الياقوتة جزآن.

كتاب تحفة الوعاظ مجلد.

تصانيفه في فنون ذم الهوى:

كتاب ذم الهوي مجلدان.

كتاب صيد الخاطر خمسة وستون جزءا.

كتاب أحكام الإشعار بأحكام الأشعار عشرون جزءا.

كتاب القصاص والمذكرين.

كتاب تقويم اللسان مجلد واحد.

كتاب الأذكياء مجلد واحد.

كتاب الحمقى مجلد واحد.

كتاب تلبيس إبليس مجلدان.

كتاب لقط المنافع في الطب مجلدان.

كتاب الشيب والخضاب مجلد واحد.

كتاب أعمار الأعيان جزء واحد.

كتاب الثبات عند الممات جزآن.

كتاب تنوير الغبش في فضل السود والحبش مجلد واحد.

كتاب الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ جزء واحد.

كتاب إشراف الموالى جزآن.

كتاب إعلام الأحياء بإغلاط الإحياء.

كتاب تحريم المحل المكروه جزء واحد.

كتاب المصباح المضىء لدعوة الإمام المستضىء مجلد واحد.

كتاب عطف العلماء على الأمراء والأمراء على العلماء جزء واحد.

كتاب النصر على مصر جزء واحد.

كتاب المجد العضدي مجلد واحد.

كتاب الفجر النورى مجلد واحد.

كتاب مناقب الستر الرفيع جزء واحد.

كتاب ما قلته من الأشعار جزء واحد.

كتاب المقامات مجلد واحد.

كتاب من رسائلي رسائل ابن الجوزي في جزء واحد.

كتاب الطب الروماني جزء واحد.

هذا ما نقله ابن القطيعي من خطه وقرأ عليه وزاد فيه ومع هذا فلأبي الفرج تصانيف أخرى كثيرة غير ما ذكر في هذا الفهرست وقدر علمي أنه صنفها بعد ذلك منها:

كتاب بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب يقع في ستة عشر جزءا.

كتاب الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب وهو عبارة عن تعليقة في الفقه مجلد كبير.

كتاب الوفاء بفضائل المصطفى مجلدان.

كتاب النور في فضائل الأيام والشهور مجلد واحد.

كتاب تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد.

كتاب مناقب الإمام الشافعي.

كتاب العزلة.

كتاب الرياضة.

كتاب منهاج الإصابة في محبة الصحابة.

كتاب فنون الألباب.

كتاب الظرفاء والمتحابين.

كتاب مناقب أبي بكر مجلد واحد.

كتاب مناقب علي مجلد واحد.

كتاب فضائل العرب مجلد واحد.

كتاب درة الأكليل في التاريخ أربع مجلدات.

كتاب الأمثال مجلد واحد.

كتاب المنفعة في المذاهب الأربعة مجلدان.

كتاب المختار من الأشعار عشر مجلدات.

كتاب رؤوس القوارير مجلدان.

كتاب المرتجل في الوعظ مجلد كبير.

كتاب ذخيرة الواعظ أجزاء.

كتاب الزجر المخوف.

كتاب الأنس والمحبة.

كتاب المطرب الملهب.

كتاب الزند الورى في الوعظ الناصري جزآن.

كتاب الفاخر في أيام الإمام الناصر مجلد.

كتاب المجد الصلاحي مجلد.

كتاب لغة الفقه جزآن.

كتاب عقد الخناصر في ذم الخليفة الناصر.

كتاب في ذم عبد القادر.

كتاب غريب الحديث مجلد واحد.

كتاب ملح الأحاديث جزآن.

كتاب الفصول الوعظية على حروف المعجم.

كتاب سلوة الأحزان عشر مجلدات.

كتاب المعشوق في الوعظ.

كتاب المجالس اليوسيفية وهي في الوعظ كتبها لابنه يوسف.

كتاب الوعظ المقبري جزء واحد.

كتاب قيام الليل ثلاثة أجزاء.

كتاب المحادثة جزء واحد.

كتاب المناجاة جزء واحد.

كتاب زاهر الجواهر في الوعظ ويقع في أربعة أجزاء.

كتاب كنز المذكر.

كتاب النجاة بالخواتيم جزآن.

كتاب المرتقى لمن اتقى.

وله أيضا من المؤلفات ما ذكرته كتب أهل الثقة الأعلام.

كتاب كشف النقاب عن الأسماء والألقاب وهو مخطوط بليدن ١٤٨٧ لم يثبت بعد في الفهرس وله أيضا تصانيف أخرى غير هذه وقد اختصر فنون ابن عقيل في بضعة عشر مجلدا.

فهذه هي بعض مؤلّفاته وثمرات جهده الجبار. وتلك هي بعض ملامح ذلك الرجل الفذ الذي له ثقله ووزنه في ميزان العلم والعلماء حتى اليوم.

وأترك القاريء الكريم مع الشيخ الإمام العلامة ابن الجوزي وكتابه الشيق " المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ".

* * *

باب ذكر نبينا محمد وكرمه

ذكر نسبه: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مَناف بن قُصيّ بن كِلاب بن مُرة بن كَعبْ بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النّضْر بنِ كِنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكةَ بن إلْيَاس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدْنان. ولا يختلف الناسبُون إلى عدنان.

ثم يختلفون فيما بعده، فبعضهم يقول: عَدْنان بن أُد بن أدَد بن الهميْسع بن حميل بن النَّبت بن قَيذَار بن إسماعيل بن إبراهيم. وبعضهم يقول: عدنان بن أدد، من غير ذكر: أد.

ومن حديث أم سلمة عن النبي أنه قال: **مَعَدّ، عَدْنَانَ بنِ أعَد بن زنْد بن يَرَى بنِ أعْرَاقِ الثرى.**

قالت أم سلمة فزَنْد هو: الهَميْسَع، ويَرَى هو: نبت، وأعراق الثرى: هو إسماعيل، كذلك حكى الزبير بن بكار. وحكي أيضاً أن أعَرْاقَ الثَرَى: إبراهيم، لأنهم لمَّا رأوه لم تحرقه النار قالوا: ما هو إلاَّ أعْرَاق الثَرىَ. قال مؤلف الكتاب: هكذا ضبطه أبو زيد.

وقد حُدثنا عن أبي أحمد العسكري قال: إنما هو زند بالنون، مثل اسم أبى دلامة.

وقال ابن إسحاق: عَدْنان بن اعُدَ بنِ مُقَوِّم بنِ ناحور بن يَتْرَح بن يَدْرُبْ بن يَشْجُبَ بن أيوب بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم. وقد ذكر بعضهم بين معد وإسماعيل أربعين أباً.

عن عروة قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان. قال عروة: وسمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي، حيثْمة يقول: ما وجدنا في علم عالم، ولا شعر شاعر أحدآ يعرفُ ما وراء معدّ بن عدنان بثبت. وقد سبق نسب الخليل إلى آدم عليهما السلام.

ذكر آباء رسول الله :

قال مؤلف الكتاب: أما عبد الله أبو رسول الله فهو أصغر ولد أبيه، وكان عبد الله، والزبير، وأبو طالب: بنو عبد المطّلب لأم واحدة: واسمها فاطمة بنت عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم.

وروى هشام بن محمد عن أبيه قال: عبد الله، وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير، وعبد الكعبة، وعاتكة، وبرّة، وأمَيمة، ولدُ عبد المطلب إخوة لأمّ، أمهم فاطمة المذكورة.

وقال ابن إسحاق: كان عبد المطلب قد نذَر حين لقيَ من قريش عند حفر زمزم ما لَقِيَ لئن، وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتّى يمنعوه لينحرنّ أحدَهم لله عند الكعبة، فلما تموا عشرة عرف أنهم سيمنعونه، فأخبرهم بنذْرِه، فأطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قِدْحاً، ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ائتوني به. ففعلوا، ثم أتوْه فدخل على هُبَل وقال يعني لقيّم الصنم: اضرب بقداح هؤلاء. وكان عبد الله أصغَر بني أبيه، وكان أحبّهم إلى عبد المطلب. فلمّا أخذها ليضرب بها، قام عبد المطّلب عند الكعبة يدعو الله، ثم ضرب صاحبُ القِداح، فخرج القِدْح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب بيده، وأخذ الشَّفْرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة، فقامت إليه قريش من أنديتها، وقالوا: ما تريد أن تصنع؟ قال: أذبحه. قالوا: لا تذبحه أبداً حتى تُعذِر فيه، انطلق به فآتِ أبه، عَرَّافة لها تابع فسَلْها. فانطلق، فقالت له: كم الدّية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل. قالت: فارجعوا ثم قربوا صاحبكم، وقرّبوا عشرا من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقِداح، فإن خرجت على صاحبكم فزِيدُوا من الإبل حتى يَرْضى ربكم، فإنْ خرجتْ على الإبل فقد رَضِي ونجا صاحبُكم. فقرّبوا عبدَ الله وعشراً من الإبل فخرجت على عبد الله، فزادوا عشرا فخرجت على عبد الله، فلم يزالوا على هذا إلى أن جعلوها مائةً، فخرج القدح على الإبل. فقالوا: قد رَضيَ ربك. فقال: لا والله حتى أضرب عليها وعليه ثلاث مرات. ففعل فخرج القِدْح على الإبل، فنُحرت، ثم تُركت لا يُصدّ عنها إنسان ولا سَبُعُ.

ثم انصرف عبد المطلب بابنه فمرَّ على امرأة من بني أسد يقال لها: أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزّى وهي أخت وَرَقَة. فقالت: يا عبد الله، أين تذهب. قال: مع أبي، فقالت: لك عندي مثل الإبل التي نُحرتْ عنك، وَقعْ عليَّ. فقال إني مع أبي لا أستطيع فراقه. فخرج به عبد المطلب حتى أتى وهبَ بن عبد مناف ابن زُهْرة، وهو يومئذ سيِّد بني زُهْرة نسباً، فزوّجه آمنة، وهي يومئذ أفضلُ امرأة في قُريش نسباً. فدخل عليها، فوقع عليها مكانه، فحملتْ بنبينا محمد ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي كانت عرضتْ عليه نفسها، فقال: مالك لا تَعْرِضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضت عليَّ بالأمس؟ قالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس اليوم، لي بك حاجة. وقد كانت تَسْمع من أخيها ورقةَ ابن نَوْفل، وكان قد تنصر واتَّبع الكُتبَ، فكان فيما ذكر: أنه كائن في هذه الأمة نبيّ من بني إسماعيل.
قال مؤلف الكتاب: فإن قال قائل قد ذكرت في هذا الحديث أن عبد الله كان أصغر بني أبيه، وقد صحَّ أن العباس أكبر من رسول الله .

فالجواب: انه كان أصغر الموجودين يومئذ من وَلَد عبد المطلب، ثم وُلد العباس بعد ذلك.

عن أبي الغيّاض الخثعمي قال: مرَّ عبد الله بن عبد المطلب بامرأة من خَثْعَم يقال لها: فاطمة بنت مُرة، وكانت أجمل، الناس، وأعفَّهم وكانت، قد قرأت الكتب، وكان شباب قريش يتحدثون إليها، فرأت نور النبوّة في وجه عبد الله بن عبد المطلب، فقالت: يا فتى، مَنْ أنتَ؟ فأخبرها. فقالت: هل لك أن تقع عليَّ وأعطيك مائة من الإبل؟ فنظر إليها ثمّ مضى إلى امرأته آمنة بنت وهب، فكان معها، ثمَّ ذكر الخثعميَّة وجمالها وما عرضت عليه، فأقبل عليها فلم ير منها من الإقبال عليه آخِراً، كما رآه منْها أوّلاً، فقال: هل لكِ فيما قُلت لي؟ فقالت: قد كان ذلك مرّة فاليوم لا، فذهبت مثلاً. ثم قالت: أيّ شيء صَنعتَ بعدي. قال: وقعت على زوجتي آمنة بنت وهب. فقالت: إنّي والله لسْتُ بصاحبة ريبة، ولكني رأيت نور النبوّة في وجهك، فأردتُ أن يكون ذلك فيّ، وأبى الله إلاَّ إن يجعله حيث جعله.

وأما عبد المطلب: فاسمه: شيبة الحمد، سمَيَ بذلك لأنه وُلد وفي رأسه شيبة.

وكان إلى عبد المطلب بعد هلاك عمَه، المطلب ما كان إلى مَنْ قبله من بني عبد مناف من أمر السقاية والرفادة، وشرُفَ في قومه، وعَظُم خطره، فلم يكن يُعدَل به منهم أحد. وكان إذا أهلَ رمضان دخل حراء فبقي فيه طول الشهر، وكان يُطعم المساكين، ويُعظم الظلم، وُيكثر الطواف بالبيت.

فصل: قيل له في منامه احفر زمزم:

وعبد المطلب هو الذي أتِيَ في منامه فقيل له: احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قيل: لا تُنْزَحُ ولا تُذَمّ، تَسْقي الحَجِيجَ الأعْظَم، وهي بين الفَرْث والدم، عن نُقْرة الغراب الأعْصم أو هي شرب لكَ ولولدك، وكان غراب أعْصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرْث والدم، فحفرها ثلاثة أيام فبدا له الطويّ، فكبَّر، وقال: هذا طوي إسماعيل. فقالت له قريش: أشْركْنا فيه فقال: ما أنا بفاعل، هذا شيء خُصِصْتُ به دونكم، فاجعلوا بيني وبيْنَكم مَنْ شئْتُم أحاكمْكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد. فخرجوا إليها، فعطشوا في الطريق حتى أيقنوا بالموت، فقال عبد المطلب: والله إنّ إلقاءنا هكذا بأيدينا لعجز، ألا نضرب في الأرض، فعسى الله أن يرزقنا ماء. وقام إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجر من تحت خُفها عين ماء عَذْبٍ، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه وشربوا. وقالوا: قد، قَضَى لك الذي سقاك، فو الله لا نخاصمك فيها أبداً. فرجعوا، وخلوا بينه وبين زمزم.

وكان عبد المطلب قد وجد في زمزم غزالين من ذهب كانت جرهم دفنتهما فيه حين أخرجت من مكة، وأسيافاً وأدرعاً، فجعل الأسياف باباً للكعبة، وضرب الغزالين صفائح في الباب فكان أول ذهب حليتها الكعبة.

وكانت كنْية عبد المطلب: أبا الحارث، كُني بذلك لأن الأكبر من ولده الذكور كان اسمه الحارث.

* * *

ذكر أمهات رسول الله :

أخبر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه قال: أمّ رسول الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وأمها: بَرة بنت عبد العزىّ ابن عثمان بن عبد الدار بن قُصي بن كلاب، وأمها: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب، وأمُّها: برة بنت عوف بن عَبيد بن عَويج بن عَدي ابن كعب بن لؤي، وأمَّها: قلابة بنت الحارث بن مالك بن حباشة، وأمها: أميمة بنت مالك بن غَنْم بن لحيان، وأمها دب بنت ثعلبة بن الحارث بن تميم بن سعد، وأمُّها: عاتكة بنت غاضرة بن حُطيط بن جشم بن ثقيف، وأمّها ليلى بنت عوف. وأمّ وهب بن عبد مناف بن زهرة جد رسول الله اسمها: قَيْلَة، ويقال: هند بنت أبي قيلة، وهو وجز بن غالب بن الحارث بن عمرو بن ملكان، وأمها: سلمى بنت لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وأمها: ماوية بنت كعب، وأم وجْز بن غالب: السّلامة بنت واهب بن البكير، وأمها: بنت قيس بن ربيعة، وأمّ عبد منَاف ابن زهرة جُمل بنت مالك، وأم زُهرة بن كلاب أم قُصي، وهي فاطمة بنْت سعْد ابن سَيَل. قال محمد بن السائب: كتبت للنبي خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله : خَرَجْتُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ مِن نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ

وعن عائشة قالت: قال رسول الله : خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ

حدث الزبير بن بكار قال: ولد عبد مناف بن زهرة وهباً، وهو جدّ رسول الله أبو آمنة، وأمه: قيلة بنت قيلة، واسم أبي قيلة: وجز بن غالب بن عامر بن الحارث وهو غبشان، ووجز هو: أبو كبشة الذي كانت قريش تنسب رسول الله له، لأنه جده من قبل أمه، والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً لا يعرف منزعه شبهه، فلما خالف رسول الله دين قريش قال مشركو قريش ندعوه أبا كبشة لأن أبا كبشة خالف الناس بعبادة الشعرى

وهو أول منْ عبد الشعرى، وكان يقول: إن الشعرى يقطع السماء عرضا ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها، والعرب تسميها: العبور لأنها تعبر السماء عرضاً وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة لم يعيروا رسول الله من نقص كان فيه، ولكن لما خالف دينهم نسبوه إلى خلاف أبي كبشة، فقالوا: خالف كما خالف.

ذكر ما جرى لآمنة في زمان حملها لرسول الله:

حدَث علي بن يزيد بن عبد الله بن وهب بن ربيعة، عن أبيه، عن عمته قال: كنا نسمع أن رسول الله لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي وربما كانت ترفعنيِ وتعود، وأتاني آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأني أقول: ما أدري، فقال: إنك قد حملت بِسيد هذه الأمَّة ونبيها. وذلك يوم الإثنين. قالت: فكان ذلك ممِّا يَقَّنَ عندي الحملَ، ثمَّ أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي أعيذه بالواحد الصمَد من شر كل حاسد، قالت: فكنتُ أقولُ ذلك. فذكرت ذلك لنسائي فقُلنَ لي: تعلقي حديداً في عَضُدَيْكِ وفي عنقكِ، قالت: ففعلت فلم يكن تُرِكَ عليّ إلاً أياماً فأجده قد قُطع، فكنت لا أتعلقه وقال ابن واقد: وحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري قال: قالت آمنه: لقد عَلقْتُ به فما وجدتُ مَشَقَةً حتى وضعته.

عن أبي جعفر محمد بن علي قال: أمِرَتْ آمنة وهي حامل برسول الله أن تسمه أحمد.

ذكر وفاة عبد الله:

قال مؤلف الكتاب: ولد عبد الله لأربع وعشرين سنة مضت منَ ملك كسرى أنوشروان، فبلغ سبع عشرة، ثم تزوّج آمنة فلمَا حملت برسول الله توفي.

ذكر مولده عليه السلام:

قال مؤلف الكتاب: وُلد عليه السلام في يوم الإثنين لعشر خلون من ربيع الأول عام الفيل.

وقيل: لليلتين خلتا منه. وقيل: لإحدى عشرة ليلة خلت منه. وقال ابن عباس: وُلد يوم الجمعة يوم الفيل.

ذكر ما جرى عند وضع آمنة لرسول الله :

روى عثمان بن أبي العاص قال: حدَثتني أمي أنها شهدت، ولادة آمنه لرسول الله وكان ذلك ليلة ولدته قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نورٌ وإنَي لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني، لأقول: لَيَقَعُنَّ عليَّ.

عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله : **رَأت أمّي كَأنّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَام.**

ذكر الحوادث التـي كانت ليلة ولادته :

حدَث مخزوم بن هانىء، عن أبيه وأتت له خمسون ومائة سنةٍ قال: لما كانت الليلةُ التي ولد فيها رسول الله ارْتَجَسَ إيوانُ كِسْرى، وسقَطَتْ منه أربع عشرةَ شرفة، وغاضت بحيرة سَاوَة، وخمدت نارُ فارس ولم تخمُدْ قبلَ ذلك بألف عام، ورأى الموبِذَان إبلاً صِعَاباً تقود خيلاً عِرَاباً قد قطعت دِجْلةَ وانتشرت في بلادها.

ذكر أسماء نبينا:

روى حذيفة بن اليمان، عن النبي أنه قال: **أنا مُحَمَدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالحَاشِرُ، والمُقفّي، ونَبي الرحْمَةِ.**

وروى جبير بن مطعم عن النبي أنه قال: **أنا مُحَمّـدٌ، وَأحْمَـدُ، وَالحَـا شِرُ، وَالمَـاحِي، وَالخَـاتِمُ، وَالعَاقِبُ.**

قال مؤلف الكتاب: ومن أسمائه : نبي التوبة، ونبي الملاحم، والشَاهد، والمبشر، والنذير، والضحوك، والقتال، والمتوكل، والفاتح، والأمين، والخاتم، والمصطفى، والرسول، والنبي الأمي، والقُثم ".

والحاشر: الذي يحشر الناس على قدميه يقدمهم وهم خلفه. والمقفي: آخر الأنبياء وكذلك العاقب. والملاحم: الحروب. والضحوك: اسمه في التوراة وذلك أنه كان طيب النفس فكهاً. القُثَم: من القثم، وهو الإعطاء، وكان أجود الخلق .

ذكر الحوادث التـي كانت في عام ولادته :

عن بَرة بنت تَجْرَاةً قالت: أول مَنْ أرضع رسول الله ثُويبة بلبن ابن لها، يقال له: مسْرُوح، أياماً قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ☺، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وقد ذكرنا أن عبد المطلب تزوج هالة وزوج ابنه عبد الله: آمنة في مجلس واحد فولد حمزة، ثم ولد رسول الله فأرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابنها مسروح أياماً، ولذلك قال رسول الله حين عُرضت عليه ابنة حمزة ليتزوجها: **إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي، أرضعتني وإياه ثويبة.**

وأعتق أبو لهب ثويبة وكانت ثويبة تدخل على رسول الله بعد ما تزوَج خديجة فيكرمها النَّبي وتكرمها خديجة، وهي يومئذ أمة، ثم كان رسول الله بعث إليها بعد الهجرة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر.

قال مؤلفه: ولا نعلم أنها قد أسلمت، بل قد قال أبو نعيم الأصفهاني حكى بعض العلماء أنه قد اختلف في إسلامها.

عن حليمة ابنة الحارث أم رسول الله التي أرضعته السعدية قالتَ: خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن تلتمس الرضعاء بمكة، فخرجت على أتَانٍ لي قَمْرَاءَ قد أذَمَّتْ بالركب قالت: وخرجنا في سنة شَهْبَاءَ، لم تبقِ لنا، شيئاً أنا وزوجي الحارث بن عبد العُزىّ، قالت: ومعنا شَارف لنا والله لم تَبِضَ علينا بقَطْرة مِن لبن، ومعي صبي ما ننام ليلَنَا من بكائه، وما في ثديّ من لبن يُغْنِيه، ولا في شَارِفَنا من لبن يُغَذَيه، إلا أنا نرجو، فلما قدمنا مكة لم يبْق منا امرأة إلأ عُرِض عليها رسول الله فَتأبَاهُ وإنما كُنَا نَرْجُو الكرامة في رضاعة مَنْ نُرضع له من أبي المولود، فكان نبينا ، فقلنا: ما عسى أن تَصْمع لنا أمُّه؟ فكُنَا نأبى، حتى لم يبق من صويحباتي امرأة إلا أخذت رضيعا غيري. قالت: فكرهت أن أرجع ولم آخذ شيئاً، وأخذ صويحباتي، فقلت لزوجي الحارث: واللّه لأرجعنَ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَه. قالت: فأتيته فأخذته، ثم رجعت إلى رحلي. فقال لي زوجي: قد أخذتِه؟. قالت: قلت: نعم، وذاك أني لم أجد غيره. قال: قد أصبت عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً. قالت: والله ما هو إلا أن وضعته في حجري، فأقبل عليه ثَدياي بما شاء من لبن فَشَرِبَ حتى رَوِي، وشرِبَ أخوه حتى رَوِيَ، وقام زوجي الحارث إلى شارفنا فإذا هي ثَجَّاء فحلب علينا ما شئنا فشرب حتى روي وشربتَ حتى رويت.

قالت: فمكثنا بخير ليلة شباعاً رواء. قالت: فقال زوجي: والله يا حليمة ما أراك إلا قد أصبت نَسَمةً مباركةً، قد نام صبياننا، وقد روينا.

قالت: ثم خرجنا فو الله لخرجت أتاني أمام الركب، قد قطعتهم حتى ما يتعلق بها منهم أحد، حتى إنهم ليقولون: ويحك يا بنت الحارث، كفيِ عنا، أليست هذه أتَانُكَ التي خرجت عليها؟ فأقول: بلى والله، فيقولون: إن لها لشأنا حتى قحمت منازلنا من حاضر منازل بني سعد بن بكر. قالت: فقدمنا على أجدب أرض الله. قالت: فو الذي نفس حليمة بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا وأسرح راعي، غنيمتي، وتروح غنمي حُفلاً بطاناً، وتروح أغنامهم جياعاً هلكى، ما بها من لبن فنشرب ما شئنا من اللبن، وما من الحاضر من أحد يحْلب قطرة ولا يجدها. قالت: فيقولون لرعاتهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة. فيسرحون في الشعب الذي يسرح فيه، وتروحُ أغنامهم جياعاً ما لها من لبن وتروح غنمي حُفلاً لَبَناً.

قالت: وكان يشب في اليوم شباب الصبي في الشهر ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة. قالت: فبلغ سنتين وهو غلام جَفْر. قالت: فقدمنا به على أمه، فقلت لها، وقال لها زوجي: دعي ابني فلنرجع به، فإنا نخشى عليه وباء مكة. قالت: ونحن أضن شيء به لما رأينا من بركته . فلم نزل بها حتى قالت: ارجعي به.

قالت: فمكث عندنا شهرين، قالت فبينما هو يلعب يوماً مع إخوته خلف البيت إذ جاء أخوه لم يشتد، فقال لي ولأبيه: أدْركا أخي القرشي فقد جاءه رجلان فأضْجَعاهُ فَشَقا بَطْنَه.

قالت: فخرجت وخرج أبوه يشتد نحوه، فانتهينا إليه وهو قائم ممتقع لونه، فاعتنقته واعتنقه أبوه وقال: مالك يا بني؟ قال: أتاني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني، والله ما أدري ما صنعا. قالت: فاحتملناه ورجعنا به. قالت: يقول زوجي يا حليمة، والله ما أرى الغلام إلا قد أصيب، فانطلقي فلنرده إلى أمه قبل أن يظهر به ما نتخوسْ عليه. قال: فرجعنا به إلى أمه. فقالت: ما ردكما وكنتما حريصين عليه؟ فقلنا: لا والله إلا أنا كفلناه وأدَينا الذي علينا من الحق فيه ثم تخوفنا عليه الأحداث، فقلنا يكون عند أمه. قالت: والله ما ذاك بكما، فأخبراني خبركما وخبره، قالت: والله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره. قالت: أتخوفتما عليه. لا والله إن لابني هذا شأناً لا أخبركما عنه. إني حملت به فلم أحمل حملاً قط هو أخف منه، ولا أعظم بركة منه، ولقد وضعته فلم يقع كما يقع الصبيان، لقد وقع واضعاً يده في الأرض رافعاً رأسه إلى السماء. دعاه والحقا بشأنكما.

وفي هذه السنة: من مولده وُلد أبو بكر الصديق ☺.

ومن ذلك خروج عبد المطلب برسول الله عن منام رقيقة:

عن رقيقة ابنة صفي بن هاشم وكانت لِده عبد المطلب قالت: تتابعت على قريش سنون أقحلت الضَرْع وأدقَّت العظم. فبينا أنا نائمة اللهم أو مهمومة إذا هاتف يصرخ بصوت حَمل يقول: يا معشر قريش، إن هذا النَّبيَّ المبعوث فيكم قد أظلتكم أيامه، وهذا إبان نجومه فحيهلا بالحَيَا والخصب، ألا فانظروا رجلاً منكم وسيطاً عظاماً جسَاماً، أبيض بَضاً أوطفَ الأهداب، سهل الخدين، أشمَّ العرنين، له فخر يكظم عليه، وسنة تهدي إليه فليَخْلص هو وولده، وليهبط إليه من كل بطن رجل، فليسنوا من الماء، وليمسوا من الطيب، ثم ليستلموا الركن، ثم ليرتقوا أبا قُبيس، فليستسق الرجل، وليؤمِّن القوم، فغِثْتم ما شئتم. فأصبحتُ عَلم الله مذعورة، وقد اقشعر جلدي ووَله عقلي، واقتصصت رؤياي، فو الحرمة والحَرَم ما بقي أبْطحي إلا قال: هذا شَيْبة الحمد. فتتامَّت إليه رجالات قريش، فهبط إليه من كل بطن رجل، فسنوا ومسُّوا واستلموا، ثم ارتقوا أبا قُبَيس وطبقوا جانبيه فما يَبْلغ سعيهم مُهْلةً، حتى إذا استووا بذروة الجبل قام عبد المطلب، ومعه رسول الله غلام قد أيفع أو كَرب، فقال: " اللهم ساد الخلة، وكاشف الكربة، أنت معلم غير مَعلم، ومسؤول غير مبخل، وهؤلاء عبادك وإماؤك بغدرات حرمك يشكون إليك سنتهم، أذهبت الخف والظلف، اللهم فأمطرنا غيثا مغدقاً ممرعاً ". فو الكعبة ما زالوا حتى تفجرت السماء بمائها واكتظ الوادي بثجيجه، فلسمعت شِيخان قريش وجلتها: عبد الله بن جُدعان، وحرب بن أمية، وهشام ابن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك أبا البطحاء. أي: عاش بك أهل البطحاء.

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر قال: كان عبد المطلب يوصي برسول الله عمه أبا طالب. وذلك أن أبا طالب وعبد الله أبا رسول الله كانا لأمٍ وأب.

ومن الحوادث: في سنة أربع عشرة من مولده صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: الفجار الأخير قال مؤلف الكتاب: وكان هذا الفجار بين هوازن وقريش، وحضره رسول الله وله أربع عشرة سنة، وقال: " كنت أنَبِّل على أعمامي يوم الفجار يعني: كنت أناولهم النبل وقد روي: أن هذه الحرب كانت ولرسول الله عشرون سنة عن عبد الله بن يزيد الهذلي. وإنما سُمَي الفجار لأن بني كنانة وهوازن استحلوا الحرم ففجروا.

* * *

ومن الحوادث في سنة عشرين من مولده حلف الفضول:

وحضره رسول الله قاله ابن قتيبة. سببه: أن قريشاً كانت تتظالم في الحرم فقام عبد اللة بن جدعان والزبير بن عبد المطلب، فدعوا إلى التحالف على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابوهما، وتحالفوا في دار ابن جدعان. عن أبي عبيدة قَال: كان سبب حلف الفضول أن رجلاً من أهل اليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل من بني سهم فلوى الرجل بحقه، فسأله ماله فأبى عليه، فسأله متاعه، فأبى عليه، فقام على الحجر قال: وقال بعض العلماء: إن قيس بن شبة السلمي باع متَاعاً من ابيّ بن خلف فلواه وذهب بحقه، فاستجار برجل من بنيِ جمح فلم يقم بجواره.

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه، فاجتمعت بطون من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان فتحالفوا على رد المظالم بمكة وأن لا يُظلم أحد إلا منعوه وأخذوا له بحقه، وكان حلفهم في دار عبد الله بن جدْعان. فقال رسول الله : **لقد شهدتُ حلْفاً في دارعبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولو دعيت به لأجبت.**

* * *

ومن الحوادث التي كانت في سنة خمس وعشرين من مولده:

خروجه إلى الشام في المرة الثانية في تجارة لخديجة وتزويجه بها.:

عن نفيسة بنت مُنية أخت يعلى بن مُنية قالت: لما بلغ رسول الله خمساً وعشرين سنة قال له أبو طالب: أنا رجل فقير لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عِير قومك قد حضَر خروجُها إلى الشام، وخديجة بنت خُوَيْلد تبعث رجالا من قومك في عيَراتها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، فأرسلت إليه في ذلك، وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. فقال له أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك، فخرج مع غلامها ميسَرَة، وجَعَل عُمُومَتُه يُوصُونَ به أهْلَ العِير حتى قَدِما بُصْرَى من أرض الشام، فنزلا في ظل شجرة فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه قط إلا نبي، ثم قال لمَيْسَرَة: أفي عينيه حُمْرَة؟ فقال: نعم، لا تفارقه. قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء. ثم باع سلعته، فوقع بينه وبين رجل تلاحٍ فقال له: احلف باللات والعزى. فقال له رسول الله **مَا حَلَفْتُ بِهِمَا قَط. وإنّي لأمُر فَأُعْرِض عنهما**

فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة: هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم، وكان مَيْسَرَة إذا كانت الهاجرة، واشتَدّ الحر يرى مَلَكين يُظلاَّنِ رسول الله من الشمس، فوعى ذلك كله مَيْسَرَة، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، ودخل مكة في ساعة الظهيرة، وخديجة في عُلّية لها فرأت رسول الله ، وهو على بعيره، وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله ، فخبرها بما ربحوا في تجارتهم ووجههم، فسُرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بما قال الراهب نسطور، وبما قال الآخر الذي خالفه في البيع.

وكانت خديجة امرأةً حازمة جادة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومهما كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوا ذلك وبذلوا الأموال، فأرسلتني دَسيساً إلى محمد بعد أن رجع من الشام، فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تَزوَج؟. قال: مَا بِيَدي مَا أَتَزَوَّجُ به قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فَمَنْ هِيَ قلت: خديجة. قال: وكَيْفَ لِي بِذَلِكَ قال: قلت: علي قال: أَفْعَلُ فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن أتت الساعة كذا وكذا. فأرسلَت إلى عمَّها عمرو بن أسد ليزوجها. فحضر ودخل رسول الله في عمومته، فتزوَجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة.

قال الواقدي: هذا غلط والصحيح عندنا المحفوظ عند أهل العلم أن عمها زوَّجها، وأن أباها مات قبل الفجار. وذكر ابن فارس: أن أبا طالب خطب يومئذ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معد، وعنصر مُضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوَاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل، وأمرٌ حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل.

فتزوجها رسول الله ، وكانت خديجة قد ذُكرت أول ما ذكرت للأزواج لورقة بن نوفل، فلم يُقْضَ بينهما نكاح، فتزوجها أبو هالة، واسمه: هند، وقيل: مالك بن النباش فولدت له هند وهالة وهما، ذكران، ثم خلف عليها بعده عتيق ابن عائد المخزومي، فولدت له جارية اسمها: هند. وبعضهم يقدم عتيقاً على أبي هالة ثم تزوجها رسول الله .

قال ابن إسحاق: فولدت له ولده كلهم إلا إبراهيم: زينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم وبه كان يُكنى، والطاهر، والطيب. وهلك هؤلاء الذكور في الجاهلية، وأدرك الإناث الإسلام فأسلمن وهاجرن معه. وقال غيره: الطيب والطاهر: لقبان لعبد الله، وولد في الإسلام. وأما منزل خديجة فإنه يعرف بها اليوم، اشتراه معاوية فيما ذكر، فجعله مسجداً يُصلي فيه الناس وبناه على الذي هو عليه اليوم، ولم يغيره.

عن ابن عباس قال: كان أول ولد ولد لرسول الله بمكة قبل النبوة: القاسم، وبه كان يُكنى، ثم وُلد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبدا لله فسُمَي الطيب والطاهر، وأمهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وكان أول من ماتَ من ولده: القاسم، ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله عز وجل:{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾} [الكوثر: ٣].

عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، قال: مات القاسم وهو ابن سنتين. وقال محمد بن عمر: وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تُقَبل خديجة في ولادها، وكانت تعق عن كل غلام شاتين، وعن الجارية شاة وكان، بين كل وَلَدَيْن لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتُعِد ذلك قبل ولادتها.

وفي هذه السنة وُلِدَتْ فاطمة بنت رسول الله وفيها: مات زيد بن عمرو بن نفيل، وكان يَطْلُب الدِّين وقدم الشام فسأل اليهود النصارى عن الدين والعلم، فلم يُعْجِبْه دينهم فقال له رجل من النصارى: أنت تلتمس دين إبراهيم. فقال زيد: وما دين إبراهيم؟ قال: كان حنيفاً لا يَعْبُدُ إلا الله وحده لا شريك له، كان يُعادي مَنْ عَبَدَ من دون الله شيئاً، ولا يأكل ما ذُبح على الأصنام. فقال زيد: هذا الذي أعرف، وأنا على هذا الدين، فأما عبادة حجر أو خشبة أنْحِتُها بيدي فهذا ليس بشيء. فرجع زيد إلى مكه، وهو على دين إبراهيم، وكان يقول: هذه الشاة خلقها الله، وأنزل من السماء ماء فأنبت لها الأرض ثم تذبحونها على غير اسمه ينكر عليهم ذلك ولقي رسول الله فَقَدَمَّ إليه رسول الله . سُفرةً فيها لحم فقال: إني لا آكل مما تذبحون على أصنامكم ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

* * *

باب ذكر أمارات النبوة:

قال مؤلف الكتاب: ما زالت الأنبياء قبل ظهور نبينا وعُلماء الكُتُب تَعِد بِه، حتى كانوا يقولون: قد قرب زمانه، وفي هذا الزمان يظهر.

عن سلمة بن سلامة بن وقش قال: كان لنا جار من اليهود في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي بيسير، حتى وقف على مجلس، بني عبد الأشهل قال سلمة: وأنا يومئذٍ أحدث من فيه سناً علي بردة مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار. فقال: ذلك لقوم أهل شرك وأصحاب أوثان لا يرون أن البعث كائناً، بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً بأن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها، بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي نحلف به لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا تحدونه ثم تدخلونه إياه، فتطبقونه عليه، وأن تنجوا من بين تلك، النار غداً. قالوا له: ويحك وما آيةُ ذلك؟ قال: نبي يُبعثُ من نحو هذه البلاد. وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إلي وأنا أحدثهم سناً فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمرُه يدركه. قال سلمة: فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله عز وجل رسوله ، وهو حيَ بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا: ويلك يا فلان، ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى وليس به.

عن عاصم بن عمر بن قتاده، عن رجل من قومه قال: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة إيانا وهداه لما كُنا نسمع من يهود، كُنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله عز وجل رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتواعدونا، فبادرناهم إليه، وآمنا به، وكفروا، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات:{وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ} [البقرة: ٨٩]، إلى قوله:{فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ} [البقرة: ٨٩].

* * *

باب ذكر الحوادث الكائنة في زمان نبينا:

ذكر ما جرى في السنة الأولى من زمان النبوة:

قال مؤلف الكتاب: لما تمت له أربعون سنة، ودخل في سنة إحدى وأربعين يوم واحدٌ أوحى الله عز وجل إليه، وكان قد حبب إليه الخلوة، وكان ينفرد في جبل حراء يتعبد.

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سمع أنس بن مالك يقول: بُعث رسول الله على رأس أربعين سنة.

عن عائشة أنها قالت: أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يأتي حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده بمثلها حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء فجاءه المَلَك فيه فقال: اقرأ. فقال رسول الله : ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: " اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان " حتى بلغ " ما لم يعلم " فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: " زملوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: أيا خديجة مالي وأخبرها الخبر، قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلاَّ أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحم، وتُصدق الحديث، وتَحْمل الكَلَ، وتَقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم. اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا بن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ، فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله : أو مخرجيَ هم قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، فإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً. ثم لم يَنْشَب ورقة أن توفي.

وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله فيما بلغنا حزنـاً غَدَا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق، الجبال فكلما أوْفى بذروة جبل كي، يلقي نفسه منه تبدَى له جبريل عليه السلام فقال له: يا محمد، إنك لرسول الله حقاً. فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا بمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة تبدى له جبريل فقال مثل، ذلك. أخبرنا عبد الأول بن عيسى قال: أخبرنا أبو المظفر قال: أخبرنا ابن أعين قال: أخبرنا الفربري قال: حدَثنا البخاري قاله: حدَثنا يحيى بن بكر قال: أخبرنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجثيت منه رعباً، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فدثروني فأنزل الله عز وجل:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١} [المدثر: ١]. قال مؤلف الكتاب: هذا حديث متفق على صحته، والذي قبله.

عن عمر ☺ قال: كان رسول الله بالحجون فقال: اللَهم أرني آية لا ابالي مَنْ كذَّبني بَعْدَهَا من قريش، فقيل له: ادع هذه الشجرة فدعاها فأقبلت تجر عروقها تقطعها، ثم أقبلت تجز الأرض حتى وقفت بين يدي رسول الله ، ثم قالت: ما تشاء؟ ما تريد؟ قال: ارجعي إلى مكانك فرجعت إلى مكانها، فقَال: والله ما أبالي مَنْ كَذَبني مِن قريش.

فأما صفة نزول الوحي عليه : فعن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل النبي : كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله : **أحياناً يَأتيني فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وَهُوَ أشدهُ عليَ فيفْصُم عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وأحْياناً يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رجلاً فَيُكلَمُني فأعي مَا يَقُولُ.**

قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. قال مؤلفه: أخرجاه في الصحيحين.

* * *

ذكر الحوادث في السنة الرابعة من النبوة.

كان رسول الله يستر النبوة ويدعو إلى الإسلام سراً، وكان أبو بكر ☺، يدعو أيضاً مَنْ يثق به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه، فلما مضت من النبوة ثلاث سنين نزل قوله عز وجل:{ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤} [الحجر: ٩٤]، فأظهر الدعوة.

عن عبد الرحمن بن القاسم، قال: أمر رسول الله أن يصدع بما جاءه من عند الله، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، وكان يدعو من أول ما أنزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً، إلى أن أمر بظهور الدعاء.

عن الزهري، قال: دعا رسول الله إلى الإسلام سراً وجهراً، فاستجاب لله من شاء من أحداثِ الرجال وضعفاء الناس، حتى كثر مَنْ آمن به، وكفار قريش غير مكترثين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء. فكان كذلك حتى عاب آلهتهم التي يعبدونها دون الله، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فَشَنِفوا لرسول الله عند ذلك وعادَوْه.

عن عائشة ♥ قالت: قال رسول الله : " كنت بين شر جَارَيْنِ: بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالروث فيطرحانها على بابي، فيخرج رسول الله فيقول: " يا بني عبد مناف، أي جوار هذا! ". ثم يلقيه بالطريق. أو كما قالت.

عن طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله مرتين: " مرةً بسوق في المجاز وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: " يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا " ورَجُل يتبعه بالحجارة قد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوه، فإنه كذاب. قلت: مَنْ هذا؟ قالوا: غلام بني عبد المطلب. قلت: فمن هذا الذي يتبعه يرميه بالحجارة؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى وهو أبو لهب فلما ظهر الإسلام، وقدم المدينة أقبلنا في ركب من الربذة حتى نزلنا قريباً من المدينة، ومعنا ظعينة لنا قال: فبينا نحن قعودُ إذ أتانا رجل عليه ثوبان أبيضان فسلم. فرددنا عليه، فقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة. قال: ومعنا جمل أحمر. قال: تبيعوني جملكم؟ قلنا: نعم. قال: بكم. قلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: فما استوضعنا شيئاً، وقال: قد أخذته، ثم أخذ برأس الجمل حتى دخل المدينة فتوارى عنا قليلاً فتلاومنا بيننا فقلنا: أعطيتم جملكم مَنْ لا تعرفونه، فقالت الظعينة: لا تتلاوموا، فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، فلما كان العشاء أتانا رجل فقال: السلام عليكم، أنا رسول الله إليكم، فإنه أمركم أن تأكلوا من هذا حتى تشبعوا وتكتالوا حتى تستوفوا. قال: فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، فلما كان من الغد دخلنا المدينة فإذا رسول الله قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: " يد المعطي العليا وابدأ بمن تعول ابنك وأباك وأختك وأخاك وأدناك وأدناك ".

عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ذات يوم الصفا فقال: " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ قال: أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ألا تصدقوني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد: قال أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى:{تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١} [المسد: ١] إلى آخر السورة.

وذكر ابن جرير: أن أصحاب رسول الله كانوا إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب واستخفوا من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فذاكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فاقتتلوا فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحْي جمل فشجه فكان أول دم أهريق في الإسلام.

قال ابن اسحاق: ولما نادى رسول الله قومه بالإسلام لم يردوا عليه كل الرد، حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك نادوه واجتمعوا على خلافه، ومنعه عمه أبو طالب فمضى إلى أبي طالب رجال من أشرافهم: كعتبة، وشيبة، وأبي جهل، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم سرى الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، فأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها، وحض بعضهم بعضاً عليه، ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب، إن لك نسباً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا وسفه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى نكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله إليهم، ولا خذلانه، إلا أنه قال له: يا بن أخي، إن قومك جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله أن عمه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال: " والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته ثم بكى رسول الله وقام، فلمَّا ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخي. فأقبل فقال: اذهب فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء، أبداً.

قال ابن إسحاق: فلما عرفت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجمله، فخذه فاتخذه ولداً، وسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفَه أحلامهم، فنقتله فإنما رجل كرجل فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ ! هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال أبو طالب لمطعم: والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك. قال: فجنت الحرب حينئذ وتنابذ القوم ووثب كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله منهم لعمه أبي طالب، وقام أبو طالب في بني هاشم وبني عبد المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه فأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله ، إلا ما كان من أبي لهب، فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم وحدتهم عليه جعل يذكر فعل رسول الله ومكانه فيهم ليسدد لهم رأيهم.

ذكر الحوادث التي كانت سنة خمس من النبوة

من ذلك: الهجرة إلى أرض الحبشة لما ظهر رسول الله بالنبوة لم تنكر عليه قريش، فلما سب آلهتها أنكروا عليه، وبالغوا في إيذاء المسلمين فأمرهم رسول الله بالخروج إلى أرض الحبشة، فخرج قوم وستر القوم الباقون إسلامهم، فكانت أرض الحبشة متجر قريش، فخرج في الهجرة الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نسوة سِراً، فصادف وصولهم إلى البحر سفينتين للتجارة فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم في رجب في السنة الخامسة من حين تنبأ رسول الله ، وخرجت قريش في آثارهم فقاتلوهم، وهذه تسميتهم:

عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله . وأبو حذيفة بن عتبة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام. ومصعب بن عمير. وعبد الرحمن بن عوف. وأبو سلمة بن عبد الأسد، ومعه امرأته سلمة بنت أبي أمية. وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي خيثمة. وأبو سَبرة بن أبي رهم. وحاطب بن عمرو بن عبد شمس. وسهيل بن بيضاء. وعبد الله بن بيضاء. وعبد الله بن مسعود.

فأقاموا عند النجاشي آمنين، فلما نزلت سورة النجم، وسجد رسول الله سجد معه المشركون، فبلغ ذلك أهل الحبشة فقالوا: إذا كانوا قد آمنوا فلنرجع إلى عشائرنا. وكانوا قد خرجوا في رجب، فأقاموا شعبان ورمضان، وقدموا في شوال فلقيهم ركب فسألوهم، فقالوا: ذكر محمد آلهتهم فتابعوه، ثم عاد عن ذكرها فعادوا له بالشر، فلم يدخل أحد منهم مكة إلا عبد الله بن مسعود فإنه مكث قليلاً ثم رجع إلى أرض الحبشة فسطت بهم عشائرهم وآذوهم، فأذن لهم رسول الله في الخروج مرة أخرى إلى أرض الحبشة، فخرج خلق كثير.

فلما استقر قرار المهاجرين إلى الحبشة اجتهد المشركون في كيدهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي بهدايا ليسلمهم إليهم.

عن أم سلمة قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا له هداياهما يستطرف من متاع مكة وأمروهم أمرهم وكان أعجب ما يأتيهم منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية، ثم بعثوا بذلك عمرو بن العاص، وعبد الله ابن أبي ربيعة المخزومي، وأمروهم أمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، فخرجا فقدما على النجاشي فدفعا إلى كل بطريق هديته وقالا لهم: إنه قد صبأ إلى بلاد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه تسليمهم إلينا ولا نكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيباً. فقالوا: نعم. ثم قربا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهم تكلما، فقالا له: إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم إليهم، فهم أعلى بهم وأعلم بما عابوا عليهم. فقال بطارقته: صدقوا فأسلمهم إليهما. فغضب النجاشي وقال: لا وايم الله، إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاورني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، فلما أن جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

فقالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه وقد دعى النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين آخر من هذه الأمم؟ قالت: وكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب. فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، وكنا على ذلك حتى بعَثَ الله تعالى إلينا رسولاً منا نعرف صدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن: الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا: أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاءنا به فعبدنا الله عز وجل وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن يستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال لهم النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله عز وجل؟ فقال له جعفر: نعم: قال: فاقرأه عليَ فقرأ عليه صدراً من " كهيعص "، فبكى النجاشي حتى خضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فو الله لا أسلمكم إليهما أبداً. قالت: فلما خرجنا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً أعيبهم عنده بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً. قال: فو الله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عمَّا يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم، فسألهم عنه؟ قالت: ولم يزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله عز وجل، وما جاء به نبينا، كائن في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ قال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا : " هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. ثم قال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي والسيوم الآمنون من سلمِ عزم، من سلم عزم، من سلم عزم، ما أحب أن أدير ذهباً وإني أذيت منكم رجلاً. والدير بلسان الحبشة: الحبل، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار وخير جار. قالت: فو الله إنا على ذلك فأنزل به من ينازعه في ملكه.

قالت: فو الله ما علمنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك الملك على النجاشي فلا يعرف من حقنا ما كان يعرفه.

قال: فسار النجاشي وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله : هل من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير: أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سناً. قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: ودعونا الله عز وجل للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده، فاستوثق له أمر الحبشة. فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله وهو بمكة.

فصل: وفي هذه السنة توفيت سمية بنت خياط

مولاة حذيفة بن المغيرة، وهي أم عمار بن ياسر، أسلمت بمكة قديماً، وكانت ممن يعذب في الله عز وجل لترجع عن دينها فلم تفعل، فمر بها أبو جهل فطعنها في قلبها فماتت وكانت عجوزاً كبيرة، فهي أول شهيدة في الإسلام.

ومن الحوادث: في سنة ست من النبوة فمن ذلك: إسلام حمزة وعمر: وقيل إن ذلك في سنة خمس.

وأما سبب إسلام حمزة: فروى ابن إسحاق: أن أبا جهل مرَّ برسول الله وهو جالس عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، فلم يكلمه رسول الله ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثم انصرف فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه راجعاً من قنص له

وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان أعز قريش وأشدها شكيمة، فلما مر بالمولاة قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام وجده ها هنا جالساً فسبه وأذاه وبلغ منه، فلم يكلمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب، فخرج سريعاً، فدخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم فضربه بالقوس ضربة شجه بها شجة منكرة وقال له: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرد ذلك علي إن استطعت. وتم حمزة على إسلامه، فعرفت قريش أن رسول الله قد عز، وأن عمه حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون وأما سبب إسلام عمر: ففيه ثلاثة أقوال، سنذكرها في باب خلافة عمر رضي الله.

ذكر ما جرى من الحوادث في السنة الثامنة من النبوة.

ومن الحوادث في هذه السنة: أنه لما أسلم حمزة وعمر ☻ ، وحمى النجاشي من عنده من المسلمين، وحامى عن رسول الله عمه أبو طالب فشا الإسلام في القبائل، واجتهد المشركون في إخفاء ذلك النور، " ويأبى الله إلا أن يتم نوره " واجتمعت قريش واستمرت بينها أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على أن لا ينكحوا لبني هاشم وبني عبد المطلب ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا بذلك صحيفة، وتوافقوا عليها، وعلَّقوها فيِ جوف الكعبة، توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم، فلما فعلوا ذلك انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، وخرج من هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهر المشركين، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين.

وروى الواقدي عن أشياخه أنهم حصروهم في أول سنة سبع من النبوة وقطعوا عنهم الميرة والمارة، فكانوا لا يخرجون إلا من هو منهم، حتى بلغهم الجهد، وسُمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب، فمن قريش مَنْ سره ذلك، ومنهم مَنْ ساءه، وكان خروجهم في السنة العاشرة، وكان هشام بن عمرو بن ربيعة أفضل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعام، فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه، فكلموه في ذلك، فقال: إني عائد بشي بخالفكم، ثم عاد الثانية، فأدخل حملاً أو حملين ليلاً فغالظته قريش وهموا به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه رجل وصل رحمه أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل، كان أجمل بنا ثم أن هشاماً أسلم يوم الفتح.

* * *

واختلف العلماء في سبب نقض حكم الصحيفة على قولين.

أحدهما: أن الله تعالى أطلع نبيه على أمر صحيفتهم، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها، من ذكر الله تعالى، فذكر ذلك رسول الله لأبي طالب، فقال أبو طالب: أحق ما تخبرني به يا ابن أخي. قال: نعم والله. فذكر ذلك أبو طالب لأخوته وقال: والله ما كذبني قط. قالوا: فما ترى؟ قال: أرى أن تلبسوا أحسن ثيابكم، وتخرجوا إلى قريش، فتذكروا ذلك لهم من قبل أن يبلغهم الخبر. فخرجوا حتى دخلوا المسجد، فقال أبو طالب: إنَا قد جئنا لأمر فأجيبونا فيه. قالوا: مرحباً بكم وأهلاً. قال: إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكذبني قط - أن الله عز وجل قد سلَّط على صحيفتكم الأرَضة، فلحست كل ما فيها من جَوْر أو ظلم أو قطيعة رحم، وبقي فيها كل ما ذُكر به الله، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه واستحييتموه إن شئتم. قالوا: قد أنصفت. فأرسلوا إلى الصحيفة، فلما فتحوها إذا هي كما قال رسول الله ، فسقط في أيدي القوم، ثم نكسوا على رؤوسهم. فقال أبو طالب: هل تبين لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة؟ فلم يراجعْهُ أحد منهم، ثم انصرفوا. رواه محمد بن سعد عن أشياخ له.

والثاني: أن هشام بن عمرو بن الحارث العامري. مشى إلى زهير بن أبي أمية ابن المغيرة، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون، ولا يُبْتَاع منهم، ولا ينكِحون ولا ينكَح إليهم، أما إني أحلِفُ بالله: لو كان أخوك أبو الحكَم بن هشام ثم دعوتَه إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك منهم أبداً. قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحد، والله لو كان معي آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً. قال: مَنْ هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثاً. فذهب إلى المُطعم بن عدي فقال: يا مطعم، أقَدْ رَضيت أن يهلِك بَطْنَان من بني عبد مناف وأنت موافق لقريش في ذلك؟ قال: ويحك، ماذا أصنعِ؟ إنما أنَا رجلٌ واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: مَنْ هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثاً. قال: قد وجدت. قال: مَنْ هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البختري بن هشام. فقال له نحواً مما قال لمطعم بن عدي. فقال: فهل من أحد يُعين على هذا؟ قال: نعم. قال: مَنْ هو؟ قال: زهير، والمطعم، وأنا معك، قال: أبغنا خامساً. فذهب إلى زمعة بن الأسود، فكلمه وذكر له قرابتهم. فقال: وهل لك معين؟ قال: نعم. فسمى له القومَ، فاتعدوا خَطْم الحَجون التي بأعلى مكة، واجتمعوا هنالك وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضُوها.

فقال زهير: أنا أبدؤكم. فلما أصبحوا غَدوْا إلى أنْديتهم، وكانت قريش قد تجاوزت الكعبة، فكان شق البيت لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم وتيم وقبائل من قريش ضموا إليهم، وكان ظهر البيت لبني جمح وبني سهم، وكان شق الحجر - وهو الحطيم - لبني عبد الدار، ولبني أسد بن عبد العزى، وبني عدي بن كعب، فغدا زهير فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، إنّا نأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثَّيابَ، وبنو هاشم هَلْكى، لا يباعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظَّالمة. فقال أبو جهل: كذبتَ، والله لا تُشقّ. فقال زمعَة بن الأسود: أنت والله أكذبُ، ما رَضينا كتابتها حين كتبت. فقال أبو البخترِي: صَدَقَ زمعَةُ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقرّ به: فقال المطعم: صدقتُما وكذب مَنْ قال غيرَ ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كُتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضِيَ بليل وتُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان، فقام المُطعم إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرَضة قد أكلتها، إلا ما كان من: **باسمك اللهم**.

وقد كتبها منصور بن عِكرمة بن هاشمُ، فشلت يده. هذا قول ابن إسحاق.

ذكر الحوادث في السنة العاشرة من النبوة

وفاة أبي طالب منها: موت أبي طالب، فإنه توفي للنصف من شوال في هذه السنة، وهو ابن بضع وثمانين سنة.

ولما مرض أبو طالب دخل عليه رسول الله فعرض عليه الإسلام.

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله فوجد عنده عبد الله بن أبي أمية وأبا جهل ابن هشام، فقال رسول الله : " يا عم، قل: لا إِلَـهَ إلا الله، كَلِمَة أشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله ". فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟. قال: فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويقول: " يَا عَم، قُلْ: لا إِلَـهَ إلا الله، أشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله. " ويقولان له: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ حتى قال آخر كلمة تكلّم بها: أنا على ملة عبد المطلب. ثم مات.

فقال رسول الله : **لأَسْتَغْفِرَن لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنك.**

فاستغفر له رسول الله بعد موته حتى نزلت هذه الآية:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾} [التوبة: ١١٣].

* * *

وفاة خديجة:

ومن الحوادث: وفاة خديجة رضي اللة عنها، بعد أبي طالب بأيام.

عن عبد الله بن ثعلبة بن صُعَيْر قال: لما توفي أبو طالب وخديجة، وكان بينهما شهر وخمسة أيام، اجتمعت على رسول الله مصيبتان، فلزم بيته، وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به، فبلغ ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد، امض لما أردت وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالبِ حياً فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت. وسب ابنُ العيطلة النبي ، فأقبَل عليه أبو لهب، فنال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش، صبأ أبو عتبة.

فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب، فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. فقالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم. فمكث رسول الله كذلك أياماً يذهب ويأتي، لا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء عُقبة بن أبي مُعيط وأبو جهل إلى أبي لهبٍ فقالا له: أخبرك ابن أخيك، أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد، أين مدخل عبد المطلب؟ قال: " مَعَ قَوْمِه ". قال: فخرج إليهما أبو لهب وقال: قد سألته، فقال مَعَ قَوْمِه.

فقالا: إنه يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله : " نَعَمْ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى مِثْل مَا مَاتَ عَلَيْهِ عَبْدُ المُطَلِب دَخَل النار. فقال أبو لهب: واللّه لا برحتُ لك عدوّاً أبداً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النَار، فاشتد عليه هو وسائر قريش.

عن محمد بن جبير بن مطعم قال: لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله ، فخرج حينئذ إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة في ليال بقين من شوّال سنة عشر.

قال محمد بن كعب القرظي: لما انتهى رسول الله إلى الطائف عَمَد إلى نفرٍ من ثَقيف - وهم قادة ثقيف وأشرافهم يومئذ - وهم إخوة ثلاثة: عَبْد يالَيْل، ومسعود، وحَبيب أولاد عمرو بن عُمير، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عز وجل، وكلمهم بما جاء له من نُصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه؟ فقال أحدهم: هو يَمرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال آخر: أما وجد الله أحداً يُرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمةً أبداً، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرُدّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله من عندهم وقد يئس من نصر ثقيف، وأغرَوا به سفهاءهم يسبونه ويَصيحون به، حتى اجتمع إليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشَيْبَة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثَقيف مَنْ كان يتبعه، فَعَمَد إلى ظلّ حَبَلَةٍ من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويَرَيَان ما لقي من سُفهاء ثقيف، فلما اطمأن قال فيما ذكر لي: " اللهم إليك أشْكو ضَعْف قُوتي، وقِلَّة حيلتي، وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تَكِلُني، إلى بعيد يتجهّمني، أم إلى عدوٍ ملَّكْتَه أمري، فإن لم يكن بك عليّ غَضَب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وَجْهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تنزل بي غضَبك، أو تحلّ عليّ سُخْطك، لك الرضى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك ".

فلما رأى ابنا ربيعة - عُتْبة وشَيْبة - ما لَقي، تحركت له رحمُهما، فَدَعوا غلاماً لهما نَصرانياً يقال له: عِدَاس، وقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب وَضَعه في ذلك الطَّبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه - ففعل ثم أقبل به حتى وَضعه بين يدي رسول الله ، فلما رفع رسول الله يده قال: " بسم الله " ثم أكل. فنظر عدَاس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة. فقال له رسول الله : " ومِنْ أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ " قال: أنا نَصْراني، وأنا رجل من أهل نِينوى. فقال له رسول الله : من قرية الرجل الصالح يُونُس بن متى "؟. قال له: وما يُدْريك ما يونسُ بن متى؟. قال: ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رأس رسول الله ، يقبل رأسَه ويَدَيْه ورجليه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأسَ هذا الرجل ويدَيه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني، بأمر لا يعلمه إلا نبي.

رجوعه من الطائف ومن الحوادث:

أنه لما رجع من الطائف لم يمكنه دخول مكة إلا بجوار، وذلك أنه لما دنا من مكة علم أن قومه أشد عليه مما كانوا، فأرسل بعض أهل مكة إلى الأخنس بن شريق فقال له: " هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي "؟.

فقال له الأخنس: إن الحليف لا يجير على الصريح.

قال: فأتى النبي فأخبره فقال: تعود؟ قال: نعم. قال: فأت سُهَيْل بن عمرو فقل له: إن محمداً يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلِّغ رسالات ربي؟ فقال له ذلك، فقال: إن بني عامر بن لؤيّ لا تجير على بني كعب. فرجع إلى النبي فأخبره. قال: تعود؟ قال: نعم. قال: إئت المطعم بن عدي فقل له: إن محمداً يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي؟ قال: نعم فليدخل.

فرجع فأخبره وأصبح المطعم بن عدي قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه، فدخلوا المسجد فلما رآه أبو جهل قال: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير، قال: أجرنا مَنْ أجرت؟ فدخل النبي مكة وأقام بها، وكان يقف بالموسم على القبائل فيقول: " يا بني فلان، إني رسولُ الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً " فكان يمشي خلفه أبو لهب فيقول: لا تطيعوه.

وأتى رسول الله كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله عز وجل، فأبوا، وأتى كلباً في منازلهم فلم يقبلوا منه، وأتى بني حَنيفة في منازلهم، فردوا عليه أقبح رد، وأتى بني عامر بن صعصعة، وكان لا يسمع بقادم من العرب له اسم وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده.

وقال جابر بن عبد الله: مكث رسول الله ، بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ، ومَجَنَة وفي المواسم يقول: " مَنْ يؤويني، مَنْ ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟ " حتى بعثنا الله إليه فأويناه وصدقناه.

تزويج رسول الله عائشة :

ومن الحوادث في هذه السنة: تزويج رسول الله عائشة وسودة. وكانت عائشة بنت ست سنين حينئذ.

أخبر أبو سلمة ويحيى قالا: لما ماتت خديجة ♥ جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ قال: " مَنْ؟ " قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً. قال: " مَنْ البكر؟ " قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك عائشة، بنت أبي بكر.

قال: " وَمَنْ الثيب "؟ قالت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول. قال: " فاذهبي فاذكريهما علي ".

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عز وجل، عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟. قالت: أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة. قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي. فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة. قال: وهل تصلح له، إنما هي ابنة أخيه. فرجعت إلى رسول الله فذكرت له ذلك. قال: " ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي ". فرجعت، فذكرت ذلك له، فقال: انتظري. وخرج.

قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي كان قد ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعداً قط فأخلفه تعني أبا بكر.

فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مُصْبي صاحبنا ومدخله في دينك الذي أنت عليه أن تزوج إليك. قال أبو بكر للمطعم بن عدي: أبقَوْل هذه تقول قال: إنها تقول ذلك؟ فخرج من عنده وقد أذهب الله عز وجل ما كان في نفسه من عدته التي وعده، فرجع فقال لخول: ادعي لي رسول الله فدعته، فزوجها إياه وعائشة يومئذٍ، بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة وقالت: ماذا أدخل الله عز وجل عليك من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله أخطبك عليه. قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن. قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه، فحيته بتحية الجاهلية، فقال: مَنْ هذه؟ قالت: خولة بنت حكيم. قال: فما شأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة. قال: كفؤ كريم، ماذا تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذلك. قال: ادعيها لي. فدعوتها، فقال: يا بنية، إن هذه تزعم أن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفؤ كريم، أتحبين أن أزوجكه؟ قالت: نعم. قال: ادعيه لي. فجاء رسول الله فزوجها إياه.

ذكر الحوادث سنة إحدى عشرة من النبوة

بدء إسلام الأنصار مِن ذلك: خرَج رسول الله في المَوْسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع في كَل مَوْسم، فبينا هو عند العقبة لَقِي رهطاً من الخزرج فقال: " مَنْ أنتم؟ " قالوا: من الخزرج. قال: " أفلا تجلسون أكلمكم؟ ". قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعَرَض عليهم الإسلامَ، وتلى عليهم القرآن، وكان أولئك يسمعون من اليهود أنه قد أظل زمان نبيٍّ يبعثُ، فلما كلمهم قال بعضهم لبعض: والله إنه النبي الذي يعدكم به يهود، فلا تسبُقنكم إليه. فأجابوه وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا، وكانوا سِتةً وهم: أسعدُ بن زُرارة، وعوفُ بن الحارث - وهو ابن عَفْراء - ورافعُ بن مالك بن العجلان، وقُطْبةُ بن عامر بن حَديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب. فلما قدموا، المدينة إلى قومهم ذكَروا لهم رسول الله، ودعوهم إلى الإسلام حتى أفشا، فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرُ رسول الله .

ذكر الحوادث في سنة اثني عشرة من النبوة

الإسراء والمعراج فمن ذلك المعراج.

قال مؤلف الكتاب: ويقال إنه كان ليلة سبع وعشرين من رجب.

عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبي الله حدثهم عن ليلة أسرِي به، قال: " بينما أنا في الحَطِيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجع إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة. قال: فأتاني فقدَّ - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه ".

قال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نَحْره إلى شعرته. وقد سمعته يقول: من قصته، إلى شعرته.

قال: فاستخرج قلبي قال: " فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، وحكمة، فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل، وفوق الحمار، أبيض. قال: فقال للجارود: أهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم يقع خطوُه عند أقصى طرفِهِ.

قال: " فحُمِلت عليه، فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمدٌ. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء.

قال: " ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام. فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، قال: ففتح. قال: فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، فقال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما. قال: فسلمت عليهما فردا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة، فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء ".

قال: " ففتح، فلما خلصت، إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه. فسلمت عليِه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح. فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء. قال: ففتح، فلما خلصت إذا إدريس قال هذا إدريس، فسلم عليه. فسلمت عليه فرد السلام قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

قال: " ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل، مرحباً به، ونعم المجيء جاء ". قال: " ففتح، فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. قال: " ثم صعد حتى أتى إلى السماء السادسة، فاستفتح. قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء ". قال: ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى. قال: هذا موسى فسلم عليه. فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. قال: " فلما تجاوزت بكى، فقيل له: ما يبكيك قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها أمتي. قال: " ثم صعد حتى أتى إلى السماء سابعة، فاستفتح. فقيل: مَنْ هَذا؟ قال: جبريل. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمد. قيل أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، ونعم المجيء جاء.

قال: ففتح، فلما خصلت فإذا إبراهيم. فقال: هذا أبوك، إبراهيم فسلم عليه. قال: فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. قال: " ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. فقال: هذه سدرة المنتهى.

قال: " وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ " قال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

قال: " ثم رفع إلى البيت المعمور ".

قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي : أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون منه. ثم رجع إلى حديث أنس، قال: ثم أتيت بإناء من خمرٍ، وإناء من لبن، وإناء من عسل! قال: فأخذت اللبن. قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك.

قال: " ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة ". قال: " فرجعت، فمررت على موسى، فقال: بِمَ أمرتَ؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم وليلة. فقال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني قد جربتُ الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل، أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك.

قال: " فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال: بِمَ أمرت؟ قلت: أمرت بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، فإني جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك قال: " فرجعت، فوضع عني عشراً أخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أمرت؟ قلت: بثلاثين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع لثلاثين صلاة كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ". قال: " فرجعت، فوضع عني عشراً أخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بِمَ أمرت؟ قلت: أمرت بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف ". قال: فرجعت، فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بِمَ أمرت؟ قلت: بعشر صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك عز وجل فسله التخفيف لأمتك ". قال: فرجعت، فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ".

قال: قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلم. فلما نفذت نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ". أخرجاه في الصحيحين.

وبالإسناد قال أحمد: وأخبرنا محمد بن جعفر قال: أخبرنا عوف، عن زُرَارَة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله : **لما كان ليلة أسري بي، وأصبحت بمكة فظِعْت بأمري وعرفت أن الناس مُكَذِّبي** قال: فقعد معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله : **نعم** قال: وما هو؟ قال: **إني أسري بي الليلة** قال: إلى أين؟. قال: **إلى بيت المقدس** قال: ثم أصبحت بين ظَهْرَانَيْنَا؟. قال: **نعم** قال: فلم يُرِ أن يُكذبه مَخَافَةَ أن يَجْحَدَ الحديثَ إن دعى قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك، أتحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله : **نعم** فقال: يا معشر بني كعب ابن لؤي.

حتى انتفضت إليه المجالس، وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومكَ بما حدثتني. فقال رسول الله : **إني أسريَ بي الليلة** قالوا: إلى أين؟ قال: **إلى بيت المقدس** قالوا: ثم أصبحت بين ظَهْرَانَيْنَا؟ ! قال: **نعم** قال: فمن بين مُصَفقٍ، وواضع يده على رأسه متعجباً للكذب زَعَم. قالوا: أو تستطيع أن تنعت لنا المسجدَ - وفي القوم مَنْ قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. فقال رسول الله : فذهبت أنعت، فما زلت أنعتُ حتى التبس علي بعضُ النعتِ ". قال: " فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وُضِعَ دُون دارِ عُقَيْل - أو عِقَال - فنعتُّه وأنا أنظر إليه ". قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، فقال قوم: أما النعُت فوالله لقد أصاب.

ذكر العقبة الأولى.

ومن الحوادث في هذه السنة: خروج رسول الله عامئذ إلى الموسم وقد قدم وفد من الأنصار اثني عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة، وهم: أسعدُ بن زرارة، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، وذكوان بن عبد قَيْس ابن خَلَدة، وعُبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة بن خيزَمة، وعباس بن عُبادة بن نَضَلة، وعقبةً بن عامر بن نابئ، وقُطْبة بن عامر بن حَديدة، وأبو الهيثم بن التَيهان واسمه: مالك، وعُوَيم بن ساعدة.

فبايعهم رسول الله .

فروى عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى ونحن اثنا عشر رجلاً أنا أحدهم، فبايعناه على بَيْعة النساء، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نَسْرق، ولا نَزْني. ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نَفْتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف وذلك قبل أن تُفْرَضَ الحربُ. قال: فإن وَفَيتم بذلك فلكم الجنة، وإن غَشيتم شيئاً فأمركم إلى الله، إن شاء غَفَر، وإن شاء عذب. فلما انصرفوا عن رسول الله ، بعث معهم مُصعب بن عُمير إلى المدينة يفقه أهلها ويقرئهم القرآن، فنزل على أسعد بن زرارة - وكان يُسمى بالمدينة: المقرئ - فقال سعد بن معاذ يوماً السيد بن جدير: ائت أسعد بن زرارة فازجره عنَا، فإنه قد بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب معه ليُسفَه ضعفاءنا. فذهب أسَيْد بن حُضير إلى أسعد وقال: ما لنا ومالك، تأتينا بهذا الرجل الغريب يسفه ضعفاءنا. فقال: أو تجلسُ فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلته، وإن كرهته كُف عنك ما تكره؟ فقال: أنصفتم. فجلس فكلَّمه مصعب وعرض عليه الإسلام، وتلى عليه القرآن، فقال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالا له: تتطهر، وتطهر ثيابك، وتشهد بشهادة الحق. ففعل وخرج، وجاء سعد بن معاذ، فعرض عليه مصعب الإسلام فأسلم، ثم جاء حتى وقف على بني عبد الأشهل فقال: أي رجل تعلمونني؟ قالوا: نعلمك والله خيرنا وأفضلنا، قال: فإنَ كلامَ نسائكم ورجالِكم علي حرامٌ حتى تؤمنوا بالله وحده وتصدقوا محمداً. فوالله أمسى في دار بني عَبْدِ الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً، ولم يزل مصعب يدعو الناس إلى الإسلام حتى كثر المسلمون وشاع الإسلام، ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية.

ذكر الحوادث التي كانت في سنة ثلاث عشرة من النبوة من ذلك:

ذكر العقبة الثانية وخروج رسول الله إلى الموسم، فلقيه جماعة من الأنصار، فواعدوه بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فاجتمعوا فبايعوه.

قال كعب بن مالك: خرجنا في حُجاج قومنا حتى قَدِمنا مكة وواعَدْنَا رسول الله بالعَقَبة من أوسط أيام التشريق فلما فرغنا إلى الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ، لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حزام: أبو جابر، وكنا نكتم مَنْ معنا من المشركين من قومنا أمَرنا، فقلنا: يا أبا جابرة إنك سيد من ساداتنا وشريفٌ من أشرافنا، وإنَا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطباً للنار غداً.

ثم دَعَوْناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا العَقبة. وكان نقيباً، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رِحالنا، حتى إذا مضَى ثلثُ الليل خَرجْنَا من رحالنا لميعاد رسول الله نَتَسلَّلُ تَسَلل القَطا، حتى اجتمعنا في الشعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء بنت عمرو بن عدي وهي: أم منيع، فاجتمعا بالشِّعب نَنتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

فلما جلس كان أول مَنْ تكلم العباس، فقال: يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمداً منَا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممَنْ هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومَنعةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم تَرَوْن أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممَنْ خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذِلوه بعد الخروج إليكم، فمِن الآن فدَعُوه، فإنه في عزٍّ ومَنعةٍ مِن قومه وبلده. قال: فقلنا: إنَا قد سَمِعنا ما قلت: فتكلمْ يا رسول الله وخُذْ لنفسك وربك ما أحببتَ. قال: فتكلم رسول الله ، فتلا القرآن ودعى إلى الله تبارك وتعالى، ورَغب في الإسلام، ثم قال: " أبايعكم على أن تَمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ". قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: والذي بعثك بالحق، لنمنعنَك مما نمنع منه أزرَنَا، فبايعْنَا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحَلْقة، ورثناها كابراً عن كابرٍ.

قال: فاعترض القولَ، والبَراءُ يكلِّم رسول الله ، أبو الهيثم بن التيِّهَان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الناس حبالاً ونحن قاطعوها - يعني: اليهود - فهل عسيتَ إن نحن فَعَلْنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله ، ثم قال: " بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب مَنْ حاربتم، وأسالم مَنْ سالمتم ". وقال: أخرجوا إلَيَ اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم ". فأخرجوا اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وقال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزام: أن رسول الله قال: للنقباء: " أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء كَكَفالة الحواريِّين لعيسى ابن مَرْيم وأنا كفيل على قومي "، قالوا: نعم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبَيْعة رسول الله قال العباس بن عُبادة بن نَضْلة: يا معشر الخزرج، هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حَرْبِ الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكَتْ أموالُكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسْلَمتموه، فمن الآن، فهو والله خزْي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم تَروْن أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال، وقَتْل الأشراف، فخذُوه، فهو والله خيرُ الدنيا والآخرة. قالوا: فإنَا نأخُذه على مُصيبة الأموال، وقَتْل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله، إن نحن وفَّينا؟ قال: " الجنَة ". قالوا: ابسط يدَك. فبَسط يدَه، فبايعوه. فأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال العباس ذلك إلا ليَشدَّ بالعقدِ لرسول الله في أعناقهم.

وأما عبد الله بن أبي بكر فقال: والله ما قال العباس ذلك إلا ليؤخَر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبيّ بن سلَول، فيكون أقوى لأمر القوم. والله يعلم أي ذلك كان. فبنُو النخار يزعُمون أن أبا أمامة، أسعد بن زرارة، كان أوَل من ضرب على يَديه، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهَيْثم بن التَيهان.

وقال كعب بن مالك: كان أول من ضرب على يد رسول الله البَراءُ بن مَعْرور، ثم بايع القوم.

فلما بايعنا رسول الله صرخ الشيطان من رأس العَقَبة، بأنفذ صوت سمعتُه قطُّ: يا أهل الجَباجب، هل لكم في مُذَمَم، والصباة معه قد اجتمعوا على حَرْبكم.

فقال رسول الله : " ما يقول عدو الله، هذا أزبّ العقبة، اسمع أي عدو الله، أما واللّه لأفرغَنّ لك ". ثم قال رسول الله : " ارفضّوا إلى رحالكم " فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق، لئن شئت لنميلن غداً على أهل مِنَىَ بأسْيافنا؟.

فقال رسول الله : " لم تُؤْمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم "!. فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جِلة قُرَيش، حتى جاؤونا في مَنازلنا، فقالوا: يا معشر الخَزْرج، إنَا قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتُبايعونه على حَرْبنا، وإنه والله ما مِن حيّ أبْغَضَ إلينا، أن تَنشَب الحرب بيننا وبينهم، منكم. قال: فانبعث مَنْ هناك من مُشْركي قَوْمنا يَحْلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما عَلِمْنَاه. قال: وصدَقوا لم يَعْلَموا. قال: وبعضُنا ينظر إلى بعضٍ.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حرام: أن قريشاً أتوا عبد الله بن أبي بن سَلول، وذكروا له ما قد سمعوا من أصحابه، فقال: إن هذا الأمر جَسيم، وما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل ذلك، وما علِمته. فانصرفوا عنه.

ذكر أهل العقبة وهي العقبة الثانية:

قال مؤلف الكتاب: ذكرتهم على حروف المعجم: أبي بن كعب أسعد بن زرارة، أسيد بن حُضير، أوس بن ثابت، أوس بن يزيد، البراء بن معرور، بشير ابن البراء، بشير بن سعد أبو النعمان، بهز بن الهيثم، ثابت بن الجذْع، ثعلبة بن عبد ثعلبة بن غنمة، جابر بن عبد الله بن عمرو، جُبار بن صخر، الحارث بن قيس، خالد بن زيد أبو أيوب، خالد بن عمرو بن أبي بن كعب، خالد بن عمرو ابن عدي. شهد العقبة في قول الواقدي وحده. خالد بن قيط بن مالك، ولم يذكره أبو معشر وابن عقبة. خارجه بن زيد، خديج بن سالم، خديج بن سلامة، خلاد ابن سويد، ذكوان بن عبد قيس، رافع بن مالك، رفاعة بن رافع، رفاعة بن المنذر، رفاعة بن عمرو، زياد بن لبيد، زياد بن سهيل أبو طلحة، سعد بن زيد الأشهلي، ذكره الواقدي وحده، سعد بن خيثمة، سعد بن الربيع، سعد بن عبادة، سلمة بن سلامة، سليم بن عمرو، سنان بن صَيفي، سهل بن عتيك، شمر بن سعد، صَيْفي بن سَواد، الضحاك بن حارثة، الضحاك بن زيد، الطفيل ابن النعمان، الطفيل بن مالك، عُبادة بن الصامت، عباد بن قيس، العباس بن عبادة، عبدُ الله بن أنيس، عبد الله بن جبير، عبد الله بن الربيع، عبد الله بن رواحة، عبد الله بن زيد، عبد الله بن عمرو بن حزام، عبس بن عامر، عبيد بن التيهان، وبعضهم يقول: عتيك، عقبة بن عمرو، أبو مسعود، عقبة بن وهب، عمارة بن حزم، عمرو بن الحارث، عمرو بن غزية، عمرو بن عمير، عمير بن الحارث، عوف بن الحارث، ويعرف بابن عفراء، عويمر بن ساعدة، فروة بن عمرو بن ودقة، قتادة بن النعمان، ولم يذكره ابن إسحاق، قطبة بن عامر بن حديدة، قيس بن عامر، قيس بن صَعْصَعة، كعب بن عمرو، كعب بن مالك، مالك بن التيهان أبو الهيثم، مالك بن عبد الله بن خثيم، مسعود بن يزيد، معاذُ بن جبل، معاذ بن عفراء، معاذُ بن عمرو بن الجَموح، معقل بن المُنْذر، معن بن عدي، مسعود بن الحارث بن عفراء، ذكره ابن إسحاق وحده. المنذر بن عمرو، النعمان بن حارثة. النعمان بن عمرو، ذكره ابن إسحاق وحده. هانئ بن نِيار، يزيد بن ثعلبة، يزيد بن جذام، ولم يذكره ابن عقبة والواقدي، يزيد بن عامر بن حديدة، يزيد بن المنذر، أبو يسار بن صيفي أبو عبد الرحمن بن يزيد، وشهدها امرأتان: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

قال مؤلف الكتاب: وقد ذكرناهما في حديث كعب بن مالك.

وقال ابن إسحاق: لُسيبة - باللام - وأختها ابنتا كعب.

قال: وإنما شهدها سبعون رجلاً وهاتان الإمرأتان.

قال: وحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: ونَفَر الناسُ من مِنَىَ، فتبطن القوم الخبر، فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سَعْد بن عُبادة بالحاجر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً، وأما المنذر فأعجزَ القومَ، وأما سَعد فأخَذوه ورَبطوا يَدَيْه إلى عُنقهِ بِنِسْع رحلِهِ، ثم أقْبَلوا به حتى أدْخلوه مكَة يَضْربونه، وَيجْذِبونه بجمَته، وكان ذا شعرٍ كثير.

قال سعد: فوالله إني لفي أيْديهم إذ طَلع علي نَفرٌ من قُرَيش فيهم رجل أبيضُ وَضِيء شَعْشَاع حُلو من الرجال.

قال: قلت: إنْ يكن عند أحدٍ من القوم خَير، فعند هذا؟ فلما دنا مني رفع يدَه فَلَكَمَني لكمةً شديدة. قال: قلت في نفسي: والله ما عندهم بعد هذا خَيْر. قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ ولّى رجل منهم، مِمَّنْ معهم فقال: وَيحك، أما بينك وبين أحد من قُرَيش جوار ولا عَهْد؟ قال: قلت: بلى والله، لقد كنت أجيراً لجبير بن مطعِم بتجارته، وأمنعه ممن أراد ظلمه ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس. قال: ويحك، فاهتف باسم الرجلين فاذكر ما بينك وبينهما. قال: فعلت، وخرج ذلك الرجلُ إليهما، فوجَدهما في المسجد، عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخَزْرج الآن يُضْرَب بالأبطَح، وإنه لَيَهْتِف بكما، يذكر أن بينه وبينكما جواراً. قالا: ومَنْ هو؟ قال: سعد بن عُبادة. قالا: صدق والله، إن كان ليجير تِجَارتنا، ويمنع أن يُكْلِمُونا ببلده. فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم، فانطلق. وكان الذي لَكَمَ سعداً: سُهَيلُ بن عمرو، فلما قدم أهل العقبة المدينة أظهروا الإسلام بها، وبقي أشياخ على شركهم، منهم: عمرو بن الجَمُوح، وكان ابنه مُعاذٌ قد آمن وَشَهِدَ العقبة.

قال ابن إسحاق: وأمر رسول الله أصحابه بالخروج إلى المدينة، فخرجوا إرسالاً، فكان أول مَنْ هاجر من أصحاب رسول الله من قريش: أبو سلمة، كان هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله ، مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً.

ثم كان أول من قدم المدينة من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة معه امرأتُه ليلى بنت أبي حَثْمة، ثم عبد الله بن جحش، ثم تتابعت أصحاب رسول الله إلى المدينة إرسالاً، وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا أخذ وحُبس أو فُتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة، فيقول له رسول الله : **لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً— فيطمع** أبو بكر أن يكون هو فلما رأت قريش أن رسول الله ، قد صارت له منعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، وعرفوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منعةً، فحددوا خروج رسول الله إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره .

باب ذكر ما جرى في سني الهجرة :

ذكر ما جرى في السنة الأولى من الهجرة: هي سنة أربع عشرة من البعثة.

وأول هذه السنة المحرم، وكان رسول الله مقيماً في المحرم بمكة لم يخرج منها، وكان رسول الله قد أمر أصحابه بالخروج إلى المدينة، فخرجوا إرسالاً في المحرم وقد كان جماعة خرجوا في ذي الحجة وصدروا المشركين يحتسبون بالاهتمام بأمره والتحيل له، فاجتمعوا في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه.

عن ابن عباس قال: لما اجتمعوا لذلك واتعَدوا أن يدخلوا دار الندوة يتشاورون فيها في أمر رسول الله ؟ غَدوا في اليوم الذي اتعدوا له، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا: مَن الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجدٍ سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْدمكم منه رأي ونصح. قالوا: ادخل. فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة، من بني عبد شمس: عُتْبة، وشَيْبة ابنا ربيعة. ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب. ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة ابن عدي، وجُبير بن مُطعم، والحارث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار وقصي: النضر بن الحارث بن كلدة. ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البَخْتري بن هشام، وزَمْعة بن الأسود، وحكيم بن حزام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام ومن بني سهم، نبيه ومنبه ابنا الحجاج. ومن بني جُمح: أمية بن خلف. ومن كان معهم، ومن غيرهم ممن لا يُعَدُ من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان نأمَنهُ على الوثوب علينا فيمَنْ قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. فقال قائل منهم: احبسوه في الحديد، واغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين قبله: كزهَير، والنابغة، من الموت. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء الباب إلى أصحابه، فوثبوا عليكم، فانتزعوه من بين أيديكم. فقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلدنا. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل بحي من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فيكم، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رَجلٍ واحدٍ، فيقتلونه، فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دَمُهُ في القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد منافٍ على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعَقْل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال هذا الرجل، هذا الرأي لا أرى لكم غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجتمعون له، فأتى جبريل عليه السلام النبي فقال: **لا تبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه** فلمَا كانت العَتْمة، اجتمعوا على بابه ثم ترصَدوه متى ينام فيثبون عليه: فلما رأى رسول الله مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب ☺: **نـمْ على فراشي وتَسج بِبُرْدي الحضرمي الأخضر فَنَمْ فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم** وكان رسول الله ينام في بُرده ذلك إذا نام.

عن ابن عباس: في قوله تعالى:{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ } [الأنفال: ٣٠].

قال: تَشَاورتْ قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فاثبِتُوه بالوَثَاق يريدون رسول الله وقال بعضهم: بل اقتلوه وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات علي على فراش النبي تلك الليلة، وخرج النبي حتى لحق بالغار فبات المشركون يحرسُون علياً، يحسبونه النبي عليه السلام، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره.

وقال محمد بن كعب القرظي: اجتمعوا على بابه، فقالوا: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتُم بعد موتكم، فجُعل لكم جنانٌ كجنان الأرض، فإن لم تفعلوا ذلك كان لكم فيه، ذبح، ثم بُعثتم بعد موتكم، فجعلت لكم نارٌ تُحرقون فيها.

فخرج رسول الله فأخذ حَفْنة من تراب، ثم قال: " نعم أنا أقول ذلك " فنثر التراب على رؤوسهم، ولم يروا رسول الله ، وهو يقرأ: يس إلى قوله: " وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ". ثم انصرف إلى حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمداً. قال: لقد والله خرج عليكم محمد ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته. فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فَيَروْن علياً ☺، على الفراش متسجيًّا بِبُرْدة رسول الله . فيقولون: " إن هذا لمحمد نائم عليه بُرده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي عن الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا.

وحكى جرير أنهم ضربوا علياً وحبسوه ساعة، ثم تركوه.

ذكر صفة خروج رسول الله وأبي بكر إلى الغار:

قالت عائشة ♥: بينا نحن جلوس في بيت أبي بكر في نَحْرِ الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله مقبلاً متقنعاً في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمْرٌ.

قالت: فجاءَ رسول الله فاستأْذَن، فَأَذِنَ له، فَدَخَلَ فقال لأبي بكر: اخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ. فقال أبو بكر: إنما هم أهْلُكَ بأبي أنت يا رسول الله. قال: " فإني قد أذِنَ لي في الخروج " قال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله. قال: نعم قال: فَخُذْ إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله : بالثمَن قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، ووضعنا لهما سُفرة من جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، ثم ربطت به فم الجِّراب - ولذلك سميت ذات النطاقين - قالت: ثم لحق رسول الله ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب ثَقِفٌ لقِن - فيَدلج من عندهما بِسَحَرٍ، فيصبح مع قريش كبائتٍ، فلا يسمع أمر يُكادُ به رسول الله ، إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فَهَيْرة مولى أبي بكر مِنْحَة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ - وهو لبنُ منحتهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بِغَلسٍ، يفعل هذا كل يوم وليلة من الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وَوَاعده غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما.

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرجا أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم فقالوا: أين أبوك؟ فقلت: لا أدري واللّه أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً - فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا.

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما خرج رسول الله وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر مالَه كله معه - خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم - وانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: إني واللّه لأراه قد فجعكم بماله مع نفسِهِ. قالت: قلت: كلا إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوّة في البيت كان أبي يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: أيا أبت ضَعْ يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إن كان تَرك لكم هذا فقد أحْسَن، وفي هذا لكم بلاغ. قالت: لا واللّه ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

ذكر إقامتهما في الغار وما جرى لهما فيه:

عن أنس: أن أبا بكرٍ حدثه قال: قلت للنبي ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: **أيا أبا بكر**، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ أخرجاه في الصحيحين.

عن أنس قال: لما كان ليلة الغار قال أبو بكر: يا رسول الله، دعني لأدخل قبلك. قال: **ادخل** فدخل أبو بكر، فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً قام بثوبه فشقه، ثم ألقمه الجُحر، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع. قال: فبقي جحر، فوضع عقبه عليه، ثم أدخل رسول الله ، فلما أصبح قال له النبي : **أين ثوبك يا أبا بكر؟** فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي يديه فقال: **اللهم اجعل أبا بكرٍ معي في درجتي في الجنة** أو قال: **يوم القيامة** فأوحى الله عز وجل إليه أن قد استجاب لك.

وقال الواقدي عن أشياخه: طلبت قريش رسول الله أشد الطلب، حتى انتهت إلى باب الغار، فقال بعضهم: إن عليه عنكبوتاً قبل ميلاد محمدٍ، فانصرفوا.

قال أبو الحسن بن البراء: خرج رسول الله من الغار ليلة الخميس لغرة شهر ربيع الأول.

ذكر ما جرى في طريقه إلى المدينة خرج رسول الله من الغار ومعه أبو بكر ☺، وعامر بن فهيرة ووليهم عبد الله بن أريقط الليثي، وكان على دين قومه، فأخذ بهم طريق السواحل.

عن البراء بن عازب قال: اشترى أبو بكر من عازب سرجاً بثلاثة عشر درهماً. قال: فقال: مُر البراء فليحمله إلى منزلي. قال: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت حين، هاجر رسول الله وأنت معه؟ قال فقال أبو بكر: خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فضربت ببصري، هل أرى ظلاً نأوي إليه؟ فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها، فإذا بقيةُ ظلها، فسويته لرسول الله وفرشت له فروْة، وقلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب، فإذا براعي غنم فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش. فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قال، قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم. قال: فأمرته، فاعتقل شاة منها، ثم أمرته فنفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار، ومعي إداوة على فمها خرقة، فحلب لي كثبة، من اللبن، فصببته على القدح حتى برد أسفَلُهُ، ثم أتيت رسول الله فوافيته وقد استيقظ فقلت: إشرب يا رسول الله. فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل أتى الرحيل؟ فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم إلا سُراقة ابن مالك بن جعُشم على فرسٍ له. فقلت: يا رسول الله، هذا الطلب قد بلغنا. فقال: **لا تحزن إن الله معنا** حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين - أو قال: رمحين أو ثلاثة قلت: يا رسول الله هذا الطلب قد بلغنا. وبكيت. قال: **لم تبكي؟** قلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك. قال: فدعا عليه رسول الله فقال: **اللهم أكفنا بما شئت** فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صَلْد، ووثب عنها وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فو الله لأعمينَ على مَنْ ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا، فخذ منها حاجتك. فقال رسول الله : **لا حاجة لي فيها**، قال: ودعا له رسول الله فأطلق فرجع إلى أصحابه.

أخبر عبد الرحمن بن مالك المدلجي: أنه سمع سُراقة يقول: جَاءَنا رُسُل كفّار قريش يجعلون في رسول الله ، وأبي بكر دِيَة كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيْت آنِفاً أسْوِدة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم لَيْسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت، فدخلت بيتي، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، فأخذت رمحي وخرجت به من ظهر البيت، فَخَطَطْتُ بزُجهِ الأرض، وخفضت عالية الرمح، حتى أتيت فرسي فركبتها، فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها، الأزلام، فاستقسمت بها أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره ألا أضرهم، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت ولم تكَدْ تُخْرِجُ يديها، فلما استوت قائمةً، إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره؟ فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع. فلم يرزآني ولم يسألاني، إلا أن قالا: أخفِ عنا. فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله .

ومما جرى لهم في الطريق أنهم مروا بخيمتي أم معبد: عن أبي معبدٍ الخزاعي: أن رسول الله لما هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فُهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط، فمروا بخَيْمَتي أم معبد الخزاعيّة، وكانت امرأة جَلْدَةً بَرْزَة تحتبي وتقعد بفناء الخيمة. ثم تسقي وتُطْعِم، فسألوها تمراً أو لحماً يشترون. فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، فإذا القوم مُرْمِلُون مُسْنِتُون، فقالت: واللهّ لو كان عندنا شيء ما أعْوَزكم القِرَى.

فنظر رسول الله إلى شاة في كِسْر الخيمة، فقال: **مَا هَذِهِ الشاةُ يا أم مَعْبَد؟**— قالت: هذه شاة خلَّفها الجَهْدُ عن الغنم. قال: **هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟**— قالت: هي أجهد من ذلك. قال: **أتأذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبَهَا؟**— قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حَلَباً.

فدعا رسول الله بالشاة، فمسح ضرعها وذكر اسم الله تعالى، وقال: **اللَهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي شَاتِهَا**—.

قالت: فتفاجت ودَرتْ واجَتَّرتْ وأحلبت، فدعا بإناء لها يُرْبض الرهط فحلب فيه ثجّاً حتى غلبه الثُّمالُ، فسقاها فشربت حتى رَويت وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب رسول الله آخِرَهم، وقال: " سَاقي القوْم آخِرهُمْ شرباً " فشربوا جميعاً عَلَلاً بعد نَهَلٍ حتى أراضوا، ثُمَّ حلب فيه ثانياً عوداً على بدءٍ، فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها،

فقلَّما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيلاً عجافاً هَزْلى ما تَسَاوَقُ، مُخّهنَ قليل لا نِقْيَ بهن، فلما رأى اللبن عجب وقال: من أين لكم هذا، والشاة عازبة ولا حَلُوبَةَ في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مُباركٌ كان من حديثه كَيْتَ وكَيْتَ. قال: والله إني لأراه صاحبَ قريشٍ الذي تطلب، صِفيه لي يا أمَ معبد. قالت: رأيتُ رجُلاً ظاهر الوضاءة متبلج الوجه، حسن الخَلْق، لم تَعِبْه ثُجْلة، ولم تُزْرِ بِهِ صَعْلة، قَسِيمٌ وسيم، في عينيه دَعَج، وفي أسفاره وَطَفٌ، وفي صوته صَحَل، أحْوَر أكحل أزجُ، أقرن شديد سواد الشعر، في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه وقار، وإذا تكَلم سَما وعلاه البهاء، كأنَّ مَنْطقه خرزاتٌ نظمٍ يتحدَرْن، حلو المَنطق، فصل، لا نِزرٌ به ولا هَذَر، أجْهَر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تَشْنؤه عين من طُول، ولا تقتحمه عين من قِصر، غُصْنٌ بَيْن غُصنين، وهو أنضر الثلاثة منظر وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره، مَحْفُود محمود مَحْشُود، لا عابس ولا مُفْنِد.

قال: هذا والله صاحب قريش الذي ذُكر لنا من أمره ما ذكر، ولو كنت وافقته يا أم معبد، لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

ذكر تلقي أهل المدينة رسول الله ودخوله إياها.

عن عائشة ♥ قالت: سمعتِ المسلمون بالمدينة بمَخْرج رسول الله من مكة، فكانوا يَغدون كل غَدَاة إلى الحَرَّةِ ينتظرونه حتى يردهم حَرُ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوْفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه، فبَصر برسول الله وأصحابه مُبْيضِين يزول بهم السراب. فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله بظَهْر الحَرَّة، فَعَدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف. فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صامتاً.

قال مؤلف الكتاب: بنو عمرو هم أهل قباء، وعليهم نزل رسول الله .

وعن ابن عباس قال: ولد رسول الله يومَ الاثنين، واستنبي يوم الاثنين، وَرَفَع الحَجَر يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقُبِض يوم الاثنين.

عن أبي بكر الصديق ☺ قال: مضى رسول الله وأنا معه حتى قدمنا المدينة، فتلقاه الناس، فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير، فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمد. قال؟ وتنازع القوم أيُّهم ينزل عليه؟ فقال رسول الله : **أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم ذلك**. فلما أصبح غدا حيث أمِر.

عن أنس: أن النبي مر بجوارٍ من الأنصار وهن يغنين: نحن جوارٍ من بني النجار وحبذا محمد من جار فقال رسول الله : **الله يعلم أني أحبكن**.

* * *

ذكر المكان الذي نزل به حين قدم المدينة

قال مؤلف الكتاب: قد ذكرنا أنه بات عند بني النجار أخوال عبد المطلب.

وبيان الخؤولة: أن هاشماً تزوج امرأة من بني عدي بن النجار، فولدت له عبد المطلب.

* * *

ذكر فرح أهل المدينة بقدومه :

ومن الحوادث: أنه لما قدم لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً.

عن أنس قال: لما قدم رسول الله المدينة لعبت الحبشة بحرابهم لقدومه فرحاً بذلك.

وأقام علي بن أبي طالب ☺ بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدَى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، ثم لحق برسول الله فنزل معه على كلثوم.

وأقام رسول الله بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، ويوم الخميس، وأسَس مسجدهم، ثم خرج عنهم يوم الجمعة. وقيل: مكث فيهم بضعة عشر يوماً.

قال محمد بن حبيب القاسمي: قدم رسول الله يوم الاثنين، فنزل قباء، وكان نزوله على كلثوم بن الهدم، وكان يتحدث في منزل سعد بن خيثمة. وكان أصحاب رسول الله حين قدم قباء قد بنوا مسجداً يصلون فيه، فصلى بهم فيه، ولم يحدث في المسجد شيئاً، فأقام الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وركب من قباء يوم الجمعة إلى المدينة، فجمع في بني سالم، فكانت أول جمعة جمعها في الإسلام، وخطب يومئذ.

قال ابن إسحاق: وركب رسول الله ناقته، وأرخى الزمام، فجعلت لا تمر بدارٍ من دور الأنصار إلا دعاه أهلها إلى النزول عندهم، وقالوا له: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة.

فيقول لهم : **خلُّوا زمامها فإنها مأمورة**.

حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده وهو يومئذ مَرْبد لغلامين يتيمين من بني النجار في حجر معاذ بن عفراء يقال لأحدهما: سهل، والآخر: سهيل ابنا عمرو بن عباد، فلم ينزل عنها رسول الله ، فوثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها ثم رجعت إلى منزلها أول مرة، فبركت فيه ووضعت جرانَها، ونزل رسول الله عنها، فاحتمل أبو أيوب رَحْلَه، فوضعه في بيته، فدعته الأنصار إلى النزول عليهم، فقال رسول الله : **المرءُ مع رَحْلِهِ**.

فنزل على أبي أيوب خالد بن زيد، وسأل رسول الله عن المربد: لمَنْ هو؟ فأخبره معاذ وقال: هو ليتيمين لي وسأرضيهما.

فأمر رسول الله أن يبنى مسجداً، وأقام عند أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه.

عن عائشة قالت: لبث رسول الله في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسِّسَ على التقوى، وصلى فيه رسول الله ، ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناسُ حتى بركت عند مسجد رسول الله بالمدينة وهو يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله حين بركت: **هذا إن شاء الله. المنزل** ثم دعا الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً. فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجداً، وطفق ينقل معهم اللبن في بنيانه.

قال مؤلف الكتاب: انفرد بإخراجه البخاري.

وفيه دليل على أن مسجد قباء بُنِيَ قبل مسجد المدينة.

* * *

بناؤه بعائشة:

وفي هذه السنة: بنى رسول الله بعائشة ♥ في شوال.

وكان تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين.

* * *

بعث النبي إلى بناته وزوجته:

وفي هذه السنة: بعث النبي إلى بناته وزوجته سودة بنت زمعة زيد بن حارثة وأبا رافع، فحملاهن من مكة إلى المدينة، ولما رجع عبد الله بن أريقط إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان أبيه أبي بكر، فخرج عبد الله بعيال أبيه إليه، وصحبهم طلحة بن عبيد ومعهم أم رومان - أم عائشة - وعبد الرحمن حتى قدموا المدينة.

* * *

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وفي هذه السنة: آخى بين المهاجرين والأنصار. عن أنس بن مالك: أن رسول الله حالف بين المهاجرين والأنصار في دار أنس.

قال مؤلف الكتاب: وهذه تسمية الذين آخى بينهم رسول الله ذكرتها على حروف المعجم: واعتبرت الاسم الأول فقط: حرف الألف: آخى بين أبي بن كعب وطلحة بن عبيد الله. وقيل: بين أبي وسعيد بن زيد. آخى بين إِياس بن البكير والحارثة ابن خزيمة. آخى بين الأرقم بن أبي الأرقم، وأبي طلحة زيد بن سهل. حرف الباء: آخى بين بشر بن خالد بن البراء، وواقد بن عبد الله. آخى بين بلال ابن رباح، وبين عبيدة بن الحارث. وقيل: بين بلال، وأبي رويحة الخثعمي. وقيل: بين بلال، وأبي ذر.

حرف التاء: آخى بين تميم مولى خداش بن الصمة، وحيان مولى عتبة بن غزوان.

حرف الثاء: آخى بين ثابت بن قيس، وعامر بن البكير.

آخى بين ثعلبة بن حاطب، ومعتب بن الحمراء. حرف الجيم: آخى بين جعفر ابن أبي طالب، ومعاذ بن جبل. آخى بين جرير بن عتيك، وخباب بن الأرت. حرف الحاء: آخى بين حاطب بن أبي بلتعة، ورحيلة بن خالد، وقيل: بين حاطب وعويمر بن ساعدة. وقيل: بين حاطب، وكعب بن مالك.

آخى بين حارثة بن سراقة، والسائب بن عثمان بن مظعون.

آخى بين الحصين بن الحارث، ورافع بن عنجدة. وقيل: بين الحصين، وعبد ابن جبير.

حرف الخاء: آخى بين خالد بن البكير، وزيد بن الدثية. وقيل: بين خالد، وثابت بن قيس بن شماس آخى بين خنيس بن حذافة، وأبي حبيش بن جبير. وقيل: بين خنيس، والمنذر أبو محمد بن عقبة.

حرف الذال: آخى بين ذي الشمالين، ويزيد بن الحارث بن فسحم. وقتلا جميعاً ببدر. آخى بين ذكوان بن عبد قيس، ومصعب بن عمير.

حرف الراء: آخى بين رافع بن مالك، وسعيد بن زيد بن عمرو حرف الزاي: آخى بين الزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود. وقيل: بين الزبير، وبين طلحة. وقيل: بين الزبير، وكعب بن مالك. وقيل: بين الزبير، وسلمة بن سلامة بن وقش. آخى بين زيد بن حارثة، وحمزة بن عبد المطلب. وقيل: بين زيد، وأسيد ابن حضير. آخى بين زيد بن الخطاب، ومعن بن عدي. حرف السين: آخى بين سعد بن أبي وقاص، ومصعب بن عمير. وقيل: بين سعد، وعبد الرحمن بن عوف وقيل: بين سعد، وعمار بن ياسر. وقيل: بين سعد، ومحمد بن مسلمة. آخى بين سالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن ماعص. آخى بين سعد بن عوف بن الربيع، وبين عبد الرحمن بن عوف. آخى بين سعد بن خيثمة، وأبي سلمة. آخى بين سلمة بن سلامة، وأبي سبرة بن أبي رهم. آخى بين سلمان الفارسي، وأبي الدرداء. وقيل: بين سلمان، وحذيفة. آخى بين سويبط بن سعد، وعابد بن ماعص.

حرف الشين: آخى بين شجاع بن وهب، وأوس بن خولي. آخى بين شماس ابن عثمان، وحنظلة بن الراهب. حرف الصاد: آخى بين صهيب، والحارث بن الصمة. آخى بين صفوان بن بيضاء، وبين رافع بن المعلى.

حرف الطاء: آخى بين طلحة، وسعد بن زيد. وقيل: بين طلحة، وكعب بن مالك. وقيل: بين طلحة، وأبي أيوب. وآخى بين الطفيل بن الحارث، والمنذر بن محمد. وقيل بين الطفيل، وسفيان بن بشر. وآخى بين طليب بن عمرو، والمنذر ابن عمرو. حرف العين: آخى بين أبي بكر الصديق واسمه: عبد الله، وبين عمر. وقيل: بين أبي بكر، وبين خارجة. آخى بين عمر، وأبي بكر. وقيل: بين عمر وبين عويمر بن ساعدة. وقيل: بين عمر، وعتبان بن مالك. آخى بين عثمان بن عفان، وبين عبد الرحمن بن عوف. وقيل: بين عثمان، وأوس بن ثابت.

آخى بين علي بن أبي طالب، وبين نفسه . وقيل: بين علي وبين الزبير. وقيل: بين علي، وسهل بن حنيف. آخى بين العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث. آخى بين أبي عبيدة، وبين سالم مولى أبي حذيفة. وقيل: بين أبي عبيدة، وسعد بن معاذ. وقيل: بين أبي عبيدة، ومحمد بن مسلمة. آخى بين عبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل. آخى بين عبد الله بن مظعون، وسهل بن عبيد بن المعلى. آخى بين عبد الله بن جحش، وعاصم بن ثابت.

آخى بين عمير بن أبي وقاص، وعمرو بن معاذ. آخى بين عمار، وحذيفة. وقيل: بين عمار، وثابت بن قيس. آخى بين عثمان بن مظعون، وأبي الهيثم بن التيهان. وقيل: بين عثمان، والعباس بن عبادة بن نضلة. وقيل: بين عثمان، وأوس ابن ثابت. آخى بين عتبة بن غزوان، وأبي دجانة. وقيل: بين عتبة، ومعاذ بن ماعص. آخى بين عكاشة، والمجذر بن زناد. آخى بين عاقل بن أبي البكير، وبشر بن عبد المنذر، وقيل: بين عاقل، ومجذر بن زياد. آخى بين عامر، والحارث بن الصمة. آخى بين عمرو بن سراقة، وسعيد بن زيد. آخى بين عبيدة بن الحارث، وعمير بن الحمام. آخى بين عبادة، وعامر بن ربيعة. آخى بين عوف بن مالك، وأبي الدرداء.

حرف الفاء: آخى بين فروة بن عمرو البياضي، وعبد الله بن مخرمة.

حرف القاف: آخى بين قطبة بن عامر، وعبد الله بن مظعون. حرف الكاف: آخى بين كناز بن الحصين، وعبادة بن الصامت. حرف الميم: آخى بين مصعب بن عمير، وأبي أيوب. آخى بين مرثد بن أبي مرثد، وأوس بن الصامت. آخى بين مسطح، وزيد بن المزين. آخى بين معاذ بن عفراء، ومعمر بن الحارث. آخى بين محرز بن نضلة، وعمارة بن جرير.

آخى بين مسعود بن الربيع، وعبيد بن التيهان. آخى بين المقداد، جَبار بن صخر، وقيل: بين المقداد، وابن رواحة. آخى بين المنذر بن عمرو، وأبي ذر. آخى بين مهجع، والحارث بن سراقة. وقيل: بين مهجع، وسراقة.

حرف الهاء: آخى بين هشيم بن عتبة، وعباد بن بشر. حرف الواو: آخى بين وهب بن سعد، وسويدا بن عمرو. وقيل: وهب، وسراقة. حرف الياء: آخى بين يزيد بن المنذر، وعامر بن ربيعة.

* * *

أمره بصيام عاشوراء:

وفي هذه السنة: وجد اليهود تصوم عاشوراء.

عن ابن عباس: أن رسول الله قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم: **ما هذا اليوم الذي تصومونه؟** قالوا: هذا يوم عظيم، نجى الله فيه موسى وقومه من فرعون، وأغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه. فقال رسول الله : **فنحن أحق وأولى بموسى منكم** فصامه وأمر بصيامه.

* * *

إسلام عبد الله بن سلام:

وفي هذه السنة: أسلم عبد الله بن سلام.

عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن أتى، فلما رأيت وجهه عرفت أنه وجه غير كذاب، فسمعته يقول: **أيها الناس، أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**.

* * *

رؤية عبد الله بن زيد الآذان في منامه:

وفيها رأى عبد الله بن زيد الآذان فعلمه بلالاً. عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه قال: لما أجمع رسول الله أن يضرب بالناقوس لجمع الناس للصلاة - وهو له كاره لموافقة النصارى - طاف بي من الليل طائف وأنا نائم: رجل عليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس يحمله.

قال: فقلت له: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ فقلت: بلى. قال: تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة، حي على الفلاح حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: ثم استأخر غير بعيدٍ، قال: ثم تقول إذا قمت للصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: فلما أصبحت أتيت رسول الله فأخبرته بما رأيت، فقال: " إن هذه لرؤيا حق إن شاء الله " ثم أمر بالتأذين، فكان بلال يؤذن بذلك ويدعو رسول الله إلى الصلاة،

فجاءه ذات غداة إلى الفجر، فقيل له إن رسول الله نائم، فصرخ بلال بأعلى صوته: الصلاة خيرٌ من النوم. قال سعيد بن المسيب: فأدخلت هذه الكلمة في التأذين إلى صلاة الفجر، فكان بلال يؤذن بذلك.

قال مؤلف الكتاب: فعلى هذه الرواية يكون الأذان قد وقع في السنة الثانية من الهجرة، لأنه ذكر ذلك بعد أن صرفت القبلة. وقد صح أن رسول الله صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً.

ذكر سراياه في هذه السنة:

سرية حمزة بن عبد المطلب وفي هذه السنة: عقد رسول الله لحمزة ابن عبد المطلب لواء أَبيض - وهو أول لواء عقده - وكان الذي يحمله أبو مرثد كَناز بن الحُصين حليف حمزة، وذلك في رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره، وبعث معه ثلاثين رجلاً من المهاجرين، ولم يبعث أحداً من الأنصار، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم، فخرج حمزة ليعترض عيراً لقريش، فلقي حمزة أبا جهل في ثلاثمائة رجل، فالتقوا فاصطفوا للقتال، فحجز بينهم مَجْديَ بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين، فلم يقع قتال، ورجع أبو جهل إلى مكة وحمزة إلى المدينة.

* * *

سرية عبيدة بن الحارث:

ثم عقد في هذه السنة رسول الله في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجره لواء أبيض لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وأمره بالمسير إلى بطن رابغ، وكان لواؤه مع مسطح بن أثاثة، فخرج في ستين راكباً من المهاجرين، فالتقى بأبي سفيان على ماء، وكان بينهم الرميُ ولم يسلوا السيوف، إلا أن سعد ابن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم، فكان أول مَنْ رمى به في الإسلام. وانصرف الفريقان، وفَر من المشركين إلى المؤمنين - أو قال: المسلمين وهو الأصح - المِقْداد، وعتبة بن غزوان، وكانا مسلمين، لكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار إلى المسلمين. هذا قول الواقدي.

* * *

سرية سعد بن أبي وقاص :

بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخَزَار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من مهاجره، وعقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو، وبعثه في عشرين من المهاجرين يعترض عيراً لقريش، وعهد إليه أن لا يجاوز الخَزّار، وهي أبيات عن يسار الحجفة، حين تروح من الجحفة إلى مكة.

قال سعد: فخرجنا على أقدامنا، فكنا نكمن النهار ونسير بالليل حتى صبحناها صبح خمس، فَنجد العِيرَ قد مرَّت بالأمس، ثم انصرفنا.

* * *

ومما جرى في هذه السنة:

عن علي بن حسين قال: كانت امرأة من بني النجار يقال لها فاطمة بنت النعمان لها تابعٌ من الجن، فكان يأتيها حين هاجر النبي فانقض على الحائط فقالت: مالك لم تأت كما كنت؟ فقال: قد جاء النبي الذي حرم الزَنا والخمر.

* * *

ذكر ما جرى في السنة الثانية من الهجرة:

فمن الحوادث فيها: زواج علي بن أبي طالب بفاطمة ☻ أن علي بن أبي طالب ☺، تزوج فاطمة ♥ في صفر لليال بقين منه، وبنى بها في ذي الحجة.

وكانت فاطمة يوم بنى بها بنت ثمان عشرة سنة، وأهديت في بُردين وعليها دملوجان من فضة، وكان معها حمِيلةٌ ومرفقة من أدَمٍ حَشوُها ليفٌ، ومنخل، وقدح، ورحى، وجرتان.

فلما كان بعد أن زَوَجه قال: يا علي إنه لا بد للعروس من وليمة. فقال سعد: عندي كبشان. وجمع له رهط من الأنصار آصُعاً من ذرة، فلما كان ليلة البناء، قال: " لأتحدث شيئاً حتى تلقاني ". فدعا رسول الله بإناء فتوضأ فيه، أفرغه على علي، ثم قال: " اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما ".

قال: وأخبرنا أبو أسامة، عن مجالد، عن عامر قال: قال علي بن أبي طالب ☺: لقد تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش غير جلد كبش، ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، ومالي ولها خادم غيرها.

عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: قال علي ☺: بتنا ليلة بغير عشاء، فأصبحت فخرجت، ثم رجعت إلى فاطمة وهي محزونة، فقلت: مالك؟ قالت: لم نتعش البارحة، ولم نتغد اليوم، وليس عندنا عشاء، فخرجت فالتمست فأصبت ما اشتريت طعاماً أو لحماً، ثم أتيتها به، فخبزت وطحنت، فلما فرغت من إنضاج القدر قالت: لو أتيت أبي فدعوته. فأتيت النبي وهو مضطجع في المسجد وهو يقول: **أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً** قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، عندنا طعام، فهلم. فتوكأ عليَ حتى دخل والقدر تفور، فقال: **غرفي لعائشة** فغرفت في صحفة، ثم قال: **اغرفي لحفصة** فغرفت في صحفة، حتى غرفت لجميع نسائه التسع، ثم قال: **اغرفي لابنك وزوجك** فغرفت، ثم رفعت القدر وإنها لتفيض، فأكلنا ما شاء الله.

* * *

غزوة الأبواء:

وفي هذه السنة كانت غزاة الأبواء.

قال مؤلف الكتاب: وهي أول غزاة غزاها رسول الله بنفسه، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة، وخرج في المهاجرين فقط حتى بلغ الأبواء، يعترض لعير قريش حتى بلغ ودان - ولذلك يقال لها أيضاً غزاة ودان - ولم يلقَ كيداً، فوادع مخشي بن عمرو الضمري - وهو سيد بني ضمرة - على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يعينوا عليه، فكتب بذلك بينهم وبينه كتاباً - وضمرة من بني كنانة - ثم انصرف رسول الله وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

* * *

غزاة بُواطَ:

وفيها كانت غزاة بواط. خرج إليها رسول الله في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة، وحمل لواءه سعد بن معاذ، وخرج في مائتين من الصحابة يعترض عير قريش، وكان فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بُواط - وهي جبال جُهينة من ناحية رضوى وهو قريب من ذي خُشب مما يلي طريق الشام، وبين بواط والمدينة نحو من أربعة برد - فلم يلق كيداً، فرجع إلى المدينة.

* * *

غزوة طلب كرز بن جابر الفهري:

فلم يمض إلا ليالٍ حتى أغار كرز بن رجاء الفهري على سَرْح المدينة، فخرج رسول الله في طلبه، واستخلف زيد بن حارثة على المدينة، ومضى حتى بلغ سفَوان وهو واد، وفاته كرز، فرجع إلى المدينة.

* * *

غزاة ذي العُشَيْرة:

وفي هذه السنة كانت غزاة ذي العشيرة في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، وخرج رسول الله في خمسين ومائة راكب - وقيل: في مائتين - من المهاجرين، ولم يكره أحداً على الخروج، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، ومضى يعترض لعير قريش، وكانوا قد بعثوا فيها أموالهم، فبلغ ذا العشيرة - وهي لبني مُدْلِج بناحية يَنبُع، وبينها وبين المدينة تسعة بُرُد، ففاتته العير، وهي العير التي رجعت من الشام، فخرج لطلبها، وخرجت قريش تمنعها، فكانت وقعة بدر، وبذي العشيرة كَنَى علياً: أبا تراب، لأنه رآه نائماً على التراب فقال: **اجلس أبا تراب**.

وقد روي أن ذلك كان بالمدينة، رآه نائماً في المسجد على التراب.

وفي غزاة ذي العشيرة وادع مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع ولم يلق كيداً.

* * *

سرية عبد الله بن جحش الأسدي:

وفي هذه السنة كانت سرية عبد الله بن جَحْش الأسدي إلى نخلة، في رجب على رأس سبْعَة عشر شهراً من الهجرة، بعثه في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان بعيراً إلى بطن نخلة، وأمره أن يرصد بها عيرَ قريش، فوردت عليه، فهابهم أهل العير، فحلق عُكاشة بن محصن رأسه، فاطمأن القوم، وقالوا: هم عُمار، وشَكوا في ذلك اليوم، هل هو من الشهر الحرام أم لا؟ ثم قاتلوهم فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي فقتله، وشد المسلمون عليهم، فاستأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان، وأعجزهم نوفل بن عبد الله بن المغيرة، واستاقوا العير، وكان فيها خمر وأدَم وزبيب جاءوا به من الطائف، فقدموا بذلك كله على رسول الله ، فوقفه وحبس الأسيرين

وكان الذي أسر الحكم بن كيسان المقدادُ بن عمرو، فدعاه رسول الله إلى الإسلام فأسلم وقتل ببئر معونة شهيداً. وكان سعد بن أبي وقاص زميل عتبة بن غزوان على بعير لعتبة في هذه السرية، فضل البعير بحران - وهي ناحية معدن بني سليم - فأقاما عليه يومين يبغيانه، ومضى أصحابهم إلى نخلة فلم يشهدها سعد وعتبة، وقدما المدينة بعدهم بأيام.

ويقال: إن عبد الله بن جحش لما رجع من نخلة خمس ما غنم، وقسم بين أصحابه سائر الغنائم، فكان أول خمس خمس في الإسلام. ويقال إن النبي وقف غنائم نخلة حتى رجع من بدر، فقسمها مع غنائم بدر، وأعطى كل قوم حقهم. وفي هذه السرية سمى عبد الله بن جحش أمير المؤمنين.

وقال عروة: كتب رسول الله لعبد الله بن جحش كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، ويمضي ولا يستكره أحداً من أصحابه فلما سار يومين نظر فيه، فإذا فيه: وإذا نظرت في كتابي هذا، فَسِرْ حتى تنزل بطن نخلة، فترصَّدْ بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم وأخبر أصحابه، فمضوا معه، ولم يتخلَّف منهم أحد، فنزل نخلة، فمرت بهم عِير لقريش تحمل زَبيباً وأدَماً وتجارة من تجارة قريش فيها منهم عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان، فتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب.

وفي رواية عن جندب بن عبد الله قال: لم يدروا ذلك اليوم من رجب أو جمادى الآخرة.

ثم أجمعوا على الإقدام عليهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم، فقتله واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم، وأفلت نوفل، وقدموا بالأسيرين والعير على رسول الله ، فقال: **ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام** فسقط في أيديهم، وعنَفهم المسلمون، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام. فأنزل الله تعالى:{ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ } [البقرة: ٢١٧] الآية.

* * *

تحويل القبلة إلى الكعبة:

ومن الحوادث في هذه السنة: تحويل القبلة إلى الكعبة.

قال محمد بن حبيب الهاشمي: حُوِّلَتْ في الظهر يوم الثلاثاء للنصف من شعبان. زار رسول الله أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فتغدى وأصحابه وجاءت الظهر، فصلى بأصحابه في مجلس القبلتين بركعتين من الظهر إلى الشام، ثم أمر أن يستقبل القبلة وهو راكع في الركعة الثانية، فاستدار إلى الكعبة ودارت الصفوف خلفه، ثم أتموا الصلاة، فسُمَيَ مسجد القبلتين.

قال الواقدي: كان هذا يوم الاثنين للنصف من رجب، على رأس سبعة عشر شهراً.

عن البراء: أن رسول الله صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يُعْجبه أن تكون قِبلته قِبَلَ البيت، وأنه صفَى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله قِبَل مكَة، فداروا كما هم قِبَل البيت.

* * *

بناء مسجد قباء:

ومن الحوادث: بناء مسجد قباء. عن أبي سعيد الخدري قال: لما صرفت القبلة إلى الكعبة أتى رسول الله مسجد قباء فقدم جدار المسجد إلى موضعه اليوم. وأسَسه بيده، ونقل رسول الله وأصحابه الحجارة لبنائه، وكان يأتيه كل سبت ماشياً، وقال: **مَنْ تَوَضأ فَأَسْبَغَ الوُضُوءَ، ثَم جَاءَ مَسْجِدَ قبَاءَ فَصَّفى فِيهِ كَانَ لَهُ أَجْرُ عُمْرَةٍ**.

وكان عمر بن الخطاب ☺ يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس، وقال: لو كان بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل.

وكان أبو أيوب الأنصاري يقول: هو المسجد الذي أسس على التقوى.

وكان أبي بن كعب وغيره من أصحاب رسول الله يقولون: هو مسجد رسول الله.

* * *

نزول فريضة رمضان وزكاة الفطرة:

ومن الحوادث: نزول فريضة رمضان في شعبان من هذه السنة، والأمر بزكاة الفطر. عن أبي سعيد الخدري، قال: نزل فرض شهر رمضان بعد ما صُرفت القبلة إلى الكعبة بشهرٍ، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجر رسول الله ، وأُمر رسول الله في هذه السنة بزكاة الفطر، وذلك قبل أن تفرض الزكاة في الأموال، وأن تخرج عن الصغير والكبير، والحُرِّ والعبد، والذكر والأنثى: صاع من شعير أو صاع من زبيب، أو مدان من، بُر، وكان يخطب قبل الفطر بيومين فيأمر بإخراجها قبل أن يغْدُو إلى المصلى.

وفي هذه السنة: وُلدَ عبد الله بن الزبير بن العوام بعد الهجرة بعشرين شهراً، وهو أول مولود ولد من المهاجرين بالمدينة، فكبر رسول الله ، وكان المسلمون قد تحدثوا بينهم أن اليهود قد سحرتهم، فلا يولد لهم، وكان تكبيره ، سروراً بذلك.

غزوة بدر:

ومن الحوادث في هذه السنة: غزوة بدر، وكانت في صبيحة سبعة عشر يوماً من رمضان يوم الجمعة. وقيل: تسعة عشر. والأول أصح.

عن عامر: أن بدراً إنما كانت لرجل يدعى بدراً يعني: بئراً.

قال: وقال الواقدي وأصحابنا من أهل المدينة ومَنْ يروي السيرة يقولون: بدر اسم الموضع.

وكان الذي هاج هذه الوقعة وغيرها من الحروب بين رسول الله وبين المشركين قتل عمرو بن الحضرمي. فتحين رسول الله انصراف العير التي طلبها بذي العُشيرة، فبعث طلحة، وسعيد بن زيد يتحسسان خبرها، فلما رجعا وجدا النبي قد خرج، وكان قد ندب أصحابه وأخبرهم بما مع أبي سفيان من المال مع قلة عدده فخرج أقوام منهم لطلب الغنيمة، وقعد آخرون لم يظنوا أن رسول الله يلقى حرباً فلم يلمهم، لأنه لم يخرج لقتال، وكان خروجه يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان وقيل لثلاثٍ خلون من رمضان - على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، واستخلف على المدينة عمرو بن أم مكتوم، وخرجت معه الأنصار ولم يكن غزا بأحدٍ منهم قبلها، وضرب عسكره ببئر أبي عتبة على ميل من المدينة يعرضُ أصحابه، وردَ مَنْ استصغر، وخلف عثمان على رقية وكانت مريضة

وبعث طلحة وسعيداً على ما ذكر، فقدما وقد فاتت بدر، وخلَّف أبا لبابة بن عبد المنذر على المدينة، وعاصم بن عدي على أهل العالية، والحارث بن حاطب رَدَّه من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم، والحارث بن الضفة كُسر بالروحاء. وخوات بن جبير كُسر أيضاً، وكل هؤلاء ضربَ له سَهْمَهُ وأجره، وكانت الإبل مَعهُ سبعين، يتعاقب النفير على البعير، وكانت الخيل فَرَسَين: فرس للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد. وفي رواية: وفرس للزبير.

وقد روى زر عن ابن مسعودٍ قال: كنا يوم بدرٍ كل ثلاثة على بعير، وكان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله ، قالا: اركب حتى نمشيِ عنك. فيقول: **ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**.

قال العلماء: وقَدَم رسول الله عينين له إلى المشركين: بَسبَس بن عمرو، وعدي بن أبي الزَغباء. وجعل على الساقة: قيس بن أبي صعصعة، فلما بلغ أبا سفيان خروج رسول الله ليأخذ ما معَهُ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة ليستنفر قريشاً لأجل أموالهم، فخرج ضمضم سريعاً. وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فأخبرت بها أخاها العباس وأمرته أن يكتم ذلك. قالت: رأيت راكباً على بعيرٍ له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: أن انفروا يا أهل غُدَر لمصارعكم في ثلاث. فاجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينا هم حوله مُثِل به بعيره على ظهر الكعبة يصرخ بأعلى صوته: انفروا يا أهل غُدرَ لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل أرفضت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلت منها فلقة. فقال لها العباس: اكتميها. ثم لقي الوليد بن عتبة - وكان صديقاً له - فذكرها له واستكتمه، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش. فقال العباس: فلقيني أبو جهل فقال: يا أبا الفضل، متى حدثت فيكم هذه النبوة؟ قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة. قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن تتنبى رجالكم حتى تتنبى نساؤكم؟! وقد زعمت عاتكة أنه قال: انفروا في ثلاث فنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يكن ما قالت حقاً فسيكون، وإن مضى الثلاث، ولم يكن من ذلك شيء فنكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فجحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، ثم تفرقنا، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لما قد سمعت؟ فقلت: قد والله فعلت ذلك، وايم الله لأتعرضن له، فإن عاد لأكفيتكموه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه، فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرض له ليعود لبعض ما قال، فأقع فيه، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، فقلت في نفسي: ما له لعنه الله؟ أكُل هذا فَرقاً من أن أشاتمه، وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جُدع بعيره، وشُق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

قال: فشغلني عنه، وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعاً وقالوا: يطن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك. وكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش ولم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهبٍ بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكان أمية بن خلف شيخاً ثقيلاً فأجمع القعوَد، فأتاه عقبة بن أبي معيط بمجمرة فيها نار، فوضعها بين يديه، ثم قال له: استجمر فإنما أنت من النساء، قال: قَبحَك الله وقبح ما جئت به. ثم تجهز وخرج مع الناس، فلما أجمعوا السير ذكروا ما بينهم وبين كنانة، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا. فتبدى لهم إبليس في صورة مالك بن جعشم، وكان من أشراف كنانة، فخرجوا سراعاً معهم القيان والدفوف، وكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً، وكانت خيلهم مائة فرس. وأتى رسول الله الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد فقال: امض يا رسول الله لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون " ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيراً.

قال ابن إسحاق: ثم قال رسول الله : **أيها الناس، أشيروا علي** وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم قالوا حين بايعوه بالعقبة: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع به نساءنا وأبناءنا. وكان رسول الله يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو، فلما قال ذلك رسول الله قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال: **أجل** قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقربه عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى.

فسُر رسول الله بقول سعدٍ ونشطه ذلك، ثم قال: **سيروا على بركة الله**، وأبشروا فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني **أنظر إلى مصارع القوم**.

ثم سار حتى نزل قريباً من بدر، فنزل هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم؟ فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله : " إذا أخبرتنا أخبرناك " فقال: وذاك بذاك؟ فقال: " نعم قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقني الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به رسول الله - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي حدثني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به قريش فلما خبَّره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله : " نحن من ماء " وانصرف.

قال مؤلف الكتاب: أوهمه رسول الله أنه من العراق، وكان العراق يسمى: ماء، وإنما أراد به: خُلق من نطفة ماء.

قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي ابن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر، فأصابوا راوية لقريش فيها: أسلم غلام بني الحجاح، وعرباص أبو سيار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله وهو قائم يصلي فسألوهما، فقالوا: نحن سقاة قريش، بعثوا بنا لنسقيهم من الماء. فرجى القوم أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فقالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، فلما قضى رسول الله صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني: أين قريش؟

قالوا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب العقنقل. قال: كم القوم؟ " قالا: كثير. قال: كم عدتهم؟ قالا لا ندري. قال: أكم ينحرون؟ ! قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. قال: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف قال: فمن منهم من أشراف قريش؟ " قالا: عتبة، وشيبة، وأبو البختري، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله على الناس فقال: **هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**.

وأما أبو سفيان فإنه أسرع بالعير على طريق الساحل، وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا فقال: إني رأيت فيما يرى النائم، أو أني بين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة، وشيبة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية، وفلان وفلان - فعدَّ رجالاً ممن قُتِلَ يومئذ من أشراف قريش - ورأيته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه.

قال: فبلغت أبا جهل، فقال: وهذا أيضاً نبي آخر من بني عبد المطلب، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا.

ولما رأى أبو سفيان أنه، قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً - وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا.

فقال الأخنس بن شريق: يا بني زهرة، قد نجا الله أموالكم فارجعوا ولا تسمعوا ما يقول هذا فرجعوا ولم يشهدها زهريٌّ.

وبلغ أبا سفيان قول أبي جهل فقال: واقوماه، هذا عمل عمرو بن هشام - يعني أبا جهل - ثم لحق المشركين، فمضى معهم فجُرِحَ يوم بدرٍ جراحات، وأفلت هارباً على قدميه، ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل، وبعث الله عز وجل السماء، وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريش منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

فخرج رسول الله يُبَادِرُهُمْ إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به. فحُدثت عن رجال من بني سلمة: أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره، أم هو الرأي في الحرب؟ قال: **بلْ هو الرأي بالحرب** فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما سواه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فنزل جبريل فقال: الرأي ما أشار به الحباب. فنهض ومَنْ معه حتى أتى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه، وأمر بالقلب فَغُورَتْ، وبنى حوضاً على القليب الذي كان عليه، ثم، قذفوا فيه الأنية. فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن سعد بن مُعَاذ قال: يا رسول الله ، أبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه، وتُعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمَنْ وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حُباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله تعالى بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فدعى له رسول الله بخير، وبُنِيَ لرسول الله عريشٌ فكان فيه، ثم أقبلت قريش، فقال رسول الله : **اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها**، تحاربك وتكذب رسولك، **اللهم فنصرك الذي وعدتني**. فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله فيهم حكيم بن حزام على فرس له، فقال رسول الله : **دعوهم**. فما شرب منهم رجل إلا أسر أو قتل إلا حكيم بن حزام، فإنه نجا على فرس له، ثم أسلم، فكان يقول إذا حلف: لا والذي نجاني يوم بدر. فلما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهبِ اللخمي فقالوا: أحرز لنا أصحاب محمد، فجال بفرسه نحو العسكر، ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر القوم كمين، فضرب في الوادي حتى أبعده فلم ير شيئاً، فرجع فقال: ما رأيت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجالاً، فإذا أصابوا أعدادهم فما خير في العيش بعد ذلك، فردوا رأيكم. فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى إلى عتبة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، هل لك في أن لا تزال تذكر بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: تَرْجع بالنَاس وتَحْمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي. قال: قد فعلتُ.

عن حكيم بن حزام قال: خرجنا حتى إذا نزلنا الجحفة رجعت قبيلة من قبائل قريش بأسرها، وهي: زهرة، فلم يشهد أحدٌ من مشركيهم بدراً، ثم خرجنا حتى نزلنا العدوة، فجئت عتبة بن ربيعة، فقلت: يا أبا الوليد، هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل ماذا؟ قلت: إنكم لا تطلبون من محمدٍ إلا دم الحضرمي وهو حليفك، فتحمل بديته، وترجع بالناس، فقال لي: فأنت وذاك، فأنا أتحمل بدية حليفي، فاذهب إلى ابن الحَنْظلية - يعني: أبا جهل - فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك؟ فجئته فإذا هو بجماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسه وهو يقول: فسخت عقدي من بني عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم. فقلت له: يقول لك عتبة: هل لك أن ترجع بالناس عن ابن عمك؟ قال: أما وجد رسولاً غيرك؟ فخرجت أبادر إلى عتبة، وعتبةُ متكئ على إيماء بن رَخَصة، وقد أهْدَى إلى المشركين عشر جزائر، فطلع أبو جهل والشر في وجهه، فقال لعتبة: انتفخ سَحْرُك! فقال له عتبة: ستعلم! فسَل أبو جهل سيفَه، فضرب به متن فرسه، فقال إيماء بن رخصة: بئس الفأل هذا فعند ذلك قامت الحربُ.

عن علي ☺ قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا إنسان إلا نائم إلا رسول الله ، فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح، وما كان منا فارسٌ يوم بدر غير المقداد بن الأسود.

قال ابن إسحاق: وقام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، فوالله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجالاً من عشيرته، فارجعوا أو خلُّوا بينِ محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، فإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تَعَرَضُوا منه لما تريدون.

قال حكيم: وجئت إلى أبي جهل فوجدته قد نَثَل دِرْعاً له من جرابها، فهو يهيئها، فقلت: إن عتبة أرسلني بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سَحْرُه حين رأى محمداً، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمدٍ، وما بعتبة ما قال، لكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلَةَ جَزور، وفيهم ابنه فقد تَخوفكم عليه - يعني أبا حذيفة بن عتبة وكان قد أسلم - ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال له: هذا حَلِيفُك، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعَمْراه فحميت الحرب، وطلب عتبة بَيْضَة يدخلها رأسه فما وجد في الجيش بيضة تمنعه من عظم رأسه، فاعتَجَز ببُرْدٍ له.

وعقد رسول الله الألوية، فكان لواء رسول الله الأعظم، لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، وجعل شعار المهاجرين: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله. وقيل: كان شعار الكل: يا منصور أمت.

وكان مع المشركين ثلاثة ألويةٍ: لواء مع أبي عزيز بن عمير، ولواء مع النضر ابن الحارث، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة، كلهم من بني عبد الدار.

ونزل رسول الله أدنى بدرٍ عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان.

فخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال: أعاهد الله لأشْرَبن من حَوْضِهم، ولأهْدِمنه، أو لأمُوتن دونه. فلما خرج خرج له حمزة بن عبد المطلب، فضربه في ساقه فوقع على ظهره تَشْخُبُ رجله دماً، ثم حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم، يريد أن يُبِر يمينَه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله.

ثم خرج بعده عتبة وأخوه شيبة، وابنه الوليد، فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار عوف ومعوذ ابنا الحارث، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقالوا: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخْرِجْ إلينا أكفاءَنا من قومنا. فقال رسول الله : **قم يا حمزة، قم يا عبيدة، قم يا علي**ـــ فقالوا: أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وهو أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد، واختلف عبيدة وعتبة ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة، فجاءا به إلى أصحابه، وقد قطعت رجله، فمُخها يسيل، فلما أتوا بعبيدة إلى رسول الله قال: ألست شهيداً يا رسول الله ؟ فقال: **بلى**ـــ فقال عبيدة: لو كان أبو طلحة حياً لعلم أني أحق بما قال منه ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: **إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل**ـــ ورسول الله في العريش معه أبو بكر ليس معه غيره.

وذكر ابن إسحاق عن أشياخه: أن رسول الله عدل صفوفَ أصحابه يوم بدرٍ وفي يده قِدْحٌ يعدل به القوم، فمر بسَوَاد بن غَزِية وهو مستنتل من الصف، فطعن في صدره بالقدح، وقال: **اسْتَوِ ياسواداً** فقال: يا رسول الله ، أوجعَتني وقد بعثك الله بالحق، فأقدني. فكشف رسول الله عن بطنه وقال: **استقِدْ**ـــ فاعتنقَه وقبل بطنه

فقال: **ما حملك على هذا يا سَواد**ـــ. فقال: حضَر ما ترى، فلم آمن القتْل، فأردتُ أن يكونَ آخر العهد بك أن يصدقَ جلدي جلدَي. فدعا له رسول الله .

ثم عدل الصفوفَ، ورجع إلى العريش يناشد ربه وما وعده من النصر، فخفق رسول الله في العريش خفقة ثم انتبه فقال: **يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النَقع**ـــ. ثم خرج رسول الله إلى الناس يحرضهم ونفل كل امرئ منهم ما أصاب، وقال: **والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَلُ صابراً مُحتسِباً، مُقْبِلاً غير مُدْبِر؟ إلا أدخله الله الجنة**ـــ.

فقال عُمَيرُ بن الحُمام - وفي يده تَمَرات يأكلهن: بَخْ بَخْ، فما بيني وبين أن أدخل، الجنة إلا أن يقْتلَني هؤلاء! ثم قذف التمَراتِ من يده، وأخذ سيفَه، فقاتل القوم حتى قُتِل، **غَيْرُ التُّقى والبر والرشَادِ**

فلما التقى النَّاس، قال أبو جهل: اللهم أقْطَعَنَا لِلرَّحم، وآتنا بما لا يُعرف، فأحِنْه الغداة، فكان هو المستفتِح على نفسه.

ثم إن رسول الله أخذ حَفْنة من الحَصْباء، فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: **شاهت الوُجوه**ـــ ثم نفخهم بها، وقال لأصحابه: **شُدُوا**ـــ، فكانت الهزيمة، فقتل الله مَنْ قُتِلَ مِنْ صناديد قريش، وأسر مَنْ أسر منهم، فلما وضع القوم أيديَهم يأسرون، ورسول الله في العريش، وسعد بنُ معاذ قائم على باب العريش متوشحاً السيف، في نفر من الأنصار يحرسُون رسول الله يخافون عليه كَّرةَ العدوَ، ورأى رسول الله في وجه سعد الكَرَاهِية لمَا يصنع الناس، فقال رسول الله: **لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس**ـــ، فقال: أجلْ والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقَعها الله بالمشركين، فكان الإثْخَانُ في القتل أعَجَبَ إلي من استبقاء الرجال.

* * *

قتلى وأسرى المشركين.

وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون، فممن قتل: عتبة، وشيبة، والوليد ابن عتبة، والعاص بن سعيد، وأبو جهل، وأبو البَخْتَري، وحنظلة بن أبي سفيان، والحارث ابن عامر، وطعيمة بن عدي، وَزَمْعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث، وعُقْبة بن أبي مُعيط، والعاص بن هشام خال عُمر، وأمية بن خلف، وعليُ بن أمية، ومنبه بن الحجاج، ومعبد بن وهب. وممن أسر: نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وأبو العاص بن الوبيع، وعدي بن الحباب، وأبو عزيز بن عمير، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعبد الله بن أبي بن خلف، وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي الشاعر، ووهب بن عمير، وأبو وداعة بن ضبيرة، وسهيل بن عمرو.

وكان فداء الأسارى كل رجل منهم أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف، إلا قوما لا مال لهم من عليهم رسول الله منهم أبو عزة الجمحي.

أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر، قال: أخبرنا أبو محمد الجوهري، قال: أخبرنا أبو عمر بن حيوية، قال: أخبرنا أحمد بن معروف، قال: أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، قال: أخبرنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا الفضل بن دكين، قال: أخبرنا إسرائيل، عن جابر، عن عامر قال: أسر رسول الله يوم بدر سبعين أسيراً، فكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون، وكان أهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه. وفي رواية الشعبي: وكان زيد بن ثابت ممن علم.

قال ابن عباس: وقال رسول الله لأصحابه يومئذ: **إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً**. فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف، فبلغت رسول الله فجعل يقول لعمر بن الخطاب: **يا أبا حفص، أما تسمع قول أبي حذيفة يقول أضرب وجه عم رسول الله بالسيف**، فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضربن عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً. وإنما نهى رسول الله عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله وهو بمكة، كان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب.

وقال ابن عباس: وكان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو، فقال رسول الله: **كيف أسرته ؟** قال: أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، قال: **لقد أعانك عليه ملك كريم**، وبات رسول الله ساهراً أول ليلة، فقال أصحابه: ما لك لا تنام، فقال: **سمعت صوت تضور العباس في وثاقه**، فقاموا إلى العباس، فأطلقوه، فنام رسول الله.

وقد روى ابن إسحاق عن أشياخه، أن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خلف صديقاً لي بمكة، فلما كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي آخذاً بيده، ومعي أدراع قد استلبتها، فقال: يا عبد الله، هل لك في، فأنا خير لك من هذه الأدراع؟ فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يمشي ويقول: ما رأيت كاليوم قط.

ثم قال لي: من الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: حمزة، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال، وهو الذي كان يعذب بلالاً بمكة على أن يترك الإسلام يخرجه إلى رمضاء مكة فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد، فقال بلال حين رآه: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري، قال: لا نجوت إن نجوا فقلت تسمع يا ابن السوداء، فقال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلا صوته: يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فأحاطوا بنا ثم جعلونا في المسكة وأنا أذب عنه، فضرب رجل ابنه فوقع، فصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انج بنفسك، فوالله ما أغني عنك شيئاً. فضربوهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما. فكان عبد الرحمن يقول: رحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري.

حدث ابن عباس، قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي القبلة، ثم مد يديه يدعو وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: **اللهم أين ما وعدتني ؟ اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض أبداً**، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. وأنزل الله تعالى:{إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾} [الأنفال: ٩] فلما كان يومئذ التقوا، هزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً. فاستشار رسول الله أبا بكر وعلياً وعمر ♦، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله : **ما ترى يا ابن الخطاب؟** فقلت: والله ما أرى مثل ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وأرى إن تمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ابن أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله سبحانه أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد، قال عمر: غدوت إلى النبي فإذا هو قاعد وأبو بكر وإذا هما يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما

فقال النبي : **للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة**ــــ. لشجرة قريبة، وأنزل الله عز وجل:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧]، إلى قوله:{ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ} [الأنفال: ٦٨]، من الفداء ثم أجل الله الغنائم{عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٦٨].

فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم من الفداء فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: {أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ } [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء انفرد بإخراجه مسلم.

ذكر مقتل أبي جهل.

عن عبد الرحمن بن عوف، أنه قال: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار. حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: بلغني أنه يسب رسول الله ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لم يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، قال: فغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فتعجبت لذلك ثم لم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت لهما: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه فابتدراه فاستقبلهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله فأخبراه، فقال: **أيكما قتله؟**ــــ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: **مسحتما سيفيكما؟**ــــ قالا: لا، فنظر رسول الله في السيفين، فقال: **كلاكما قتله**ــــ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح " وهما معاذ بن عمرو، ومعاذ بن عفراء.

قال مؤلف الكتاب: أخرجاه في الصحيحين.

وفي رواية، عن معاذ بن عمرو بن الجموح، قال: ضربت أبا جهل بن هشام ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي فقاتلت عليه يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما أذتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت بها حتى طرحتها. وعاش معاذ إلى زمان عثمان. قال: ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل، فمر به عبد الله بن مسعود، فوضع رجله على عينيه، فقال: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً، فقال: لمن الدائرة؟ فقال: لله ولرسوله، ثم اجتز رأسه، فأتى به رسول الله .

عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله. انتهيت إلى أبي جهل يوم بدر، وقد ضربت رجله، وهو صريع، وهو يذب الناس عنه بسيف له، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، فقال: هل هو إلا رجل قتله قومه؟ قال: فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت يده، فندر سيفه، فأخذته فضربته به، حتى قتلته، قال: ثم خرجت حتى أتيت رسول الله ، كأنما أقل من الأرض، فأخبرته، فقال: **الحمد لله الذي لا إله غيره—** فرددها ثلاثاً قال: قلت الله الذي لا إله إلا هو، قال، فخرج يمشي معي حتى قام عليه، فقال: **الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة—**.

وقتل أبو جهل لعنه الله وهو ابن سبعين سنة.

ذكر نزول الملائكة:

قال علماء السير: جاءت يوم بدر ريح لم يروا مثلها ثم ذهبت، ثم جاءت ريح أخرى، فكانت الأولى جبريل في ألف من الملائكة مع رسول الله ، والثانية ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميمنة رسول الله ، والثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله . وكان سماء الملائكة عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضر وصفر وحمر من نور، والصوف في نواصي خيلهم، وكانت خيلاً بلقاء. وقاتلت الملائكة يوم بدر ولم تقاتل في غير ذلك اليوم، كانت تحضر ولا تقاتل.

وقال ابن عباس: حدثني رجل من بني غفار، قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا الجبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة، فننهب مع من ينهب. فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم، فأما ابن عمي فراع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.

عن أبي داود، وكان شهد بدراً، قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن قد قتله غيري.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف، قال لي أبي: يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

وقال عطية بن قيس: لما فرغ رسول الله من قتال بدر، جاءه جبريل عليه السلام على فرس أنثى حمراء عليه درعه ومعه رمحه قد عصم ثنيتيه الغبار، فقال: يا محمد إن الله تعالى بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى، هل رضيت؟ قال: **نعم قد رضيت—** فانصرف.

ذكر إلقاء رؤسائهم في القليب.

عن أبي طلحة: أن نبي الله أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: " يا فلان، ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا "؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال النبي : **والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً. أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن إسحاق: أن رسول الله لما أمر أن يلقوا في القليب، أخذ عتبة ابن ربيعة فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: **يا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شيء** قال: لا والله يا نبي الله، ولكن كنت أعرف من أبي رأيا وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله بخير ثم إن رسول الله آمر بما في العسكر فجمع، فقال من جمعه: هو لنا، قد كان رسول الله نفل كل امرئ ما أصاب، وقال الذين قاتلوا: لولا نحن ما أصبتموه نحن أحق به، وقال الذين يحرسون رسول الله : ما أنتم بأحق منا.

قال عبادة بن الصامت: فلما اختلفنا في النفل نزعه الله عز وجل من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ، فقسمه رسول الله بين المسلمين على السواء.

فصل.

قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوينا التراب، على رقية بنت رسول الله التي كانت عند عثمان بن عفان، وكان رسول الله خلفني عليها مع عثمان. فأتيت أبي وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة، وشيبة، وأبو جهل، وأبو البختري، وأمية بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج، فقلت: يا أبه أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني.

ثم ارتحل رسول الله فلقيه المسلمون بالروحاء يهنئونه بما فتح الله عليه، فقال رجل: وما الذي تهنئون به، فوالله إن لقينا إلا عجائز ضلعاً كالبدن المعقلة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ، وقال: **لا يا ابن أخي أولئك الملأ**. وكان مع رسول الله الأسارى من المشركين، وهم أربعة وأربعون.

فلما كان بالصفراء أمر علياً بقتل النضر بن الحارث، حتى إذا كان بعرق الظبية، قتل عقبة بن أبي معيط، فقال حين أمر به أن يقتل: فمن للصبية يا محمد، قال: النار، قال: فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.

ودخل رسول الله المدينة قبل الأسرى بيوم، وقال: " استوصوا بالأسرى خيرا ". فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير، فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال له: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها أن تفتديه منك. وكنت في رهط من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية سول الله إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها فيردها علي ما يمسها.

وقال رسول الله للعباس: افد نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو، فإنك ذو مال. فقال: يا رسول الله إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني، فقال: الله أعلم بإسلامك إن يكن ما ذكرت حقاً فالله يجزيك به، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، وكان معه عشرون أوقية حين أخذ، فقال: احسبها لي في فدائي، قال: لا، ذاك شيء أعطاناه الله عز وجل منك، قال: فليس لي مال، قال: فأين المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل، ليس معكما أحد. ثم قلت لها: إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا، قال: والذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، وإني أعلم أنك رسول الله حقاً، ففدى نفسه وابني أخيه وحليفه.

وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع، زوج زينب، وكانت زينب قد آمنت برسول الله، فأقام أبو العاص على شركه معها، فخرج يوم بدر فأسر، فبعثت زينب في فدائه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، حين بنى بها، فلما رآها رسول الله لها رقة شديدة، وقال: **إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه، وردوا عليها ذلك.

وكان قد شرط لرسول الله أن يخلي سبيل زينب إليه، فقدم أبو العاص مكة، وأمر زينب باللحوق برسول الله، فتجهزت وقدم إليها حموها كنانة بن الربيع وزوجها بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، وخرج بها نهاراً يقود بها، وهي في الهودج، فتحدث بذلك رجال قريش، فخرجوا في طلبها فأدركوها بذي طوى، فأول من سبق إليها هبار بن الأسود بالرمح، وكانت حاملاً، فألقت حملها، ونزل حموها فنثر كنانته، وقال، والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فرجع الناس عنه، فجاء أبو سفيان، فقال ويحك قد عرفت مصيبتنا ثم خرجت بالمرأة علانية، فيظن الناس إن ذلك عن ذل منا، ولعمري ما لنا حاجة في حبسها عن أبيها، ولكن ردها، فإذا هدأ الصوت، وتحدث الناس أنا قد رددناها، فسلها سراً فألحقها بأبيها، ففعل وأقام أبو العاص بن الربيع بمكة، وزينب عند رسول الله بالمدينة، قد فرق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً، فلما لحقته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه وهرب، فأقبل تحت الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها، فلما خرج رسول الله إلى الصبح صاحت زينب: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ، أقبل عليهم، فقال: هل سمعتم ما سمعت، قالوا: نعم، قال: والذي نفسي بيده ما علمت بشيء كان حتى سمعت منه ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم دخل على ابنته، فقال: أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له. وقال للسرية التي أصابت ماله: إن تحسنوا قيدوا عليه، وإن أبيتم فهو فيء، وأنتم أحق به—، قالوا: بل نرده فردوه. ثم ذهب إلى مكة فرد ما للناس عنده من مال، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا خوفاً أن تظنوا إني إنما أردت أن آكل أموالكم، ثم خرج فقدم على رسول الله. قال ابن عباس: فرد رسول الله زينب بالنكاح الأول، لم يحدث شيئاً بعد ست سنين. وفي رواية أخرى: ردها بنكاح جديد.

عن عروة، قال: جلس عمير بن وهب الجمحي صهر صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير، وهو في الحجر وكان عمير شيطاناً من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله وأصحابه، وكان ابنه وهيب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن ليس في العيش خير بعدهم، فقال له عمير: صدقت والله أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهن الضيعة لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة ابني أسير في أيديهم.

فقال صفوان: فعلي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أسوتهم ما بقوا، قال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال افعل. ثم إن عميراً أمر بسيف فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فرآه عمر قد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير، قد جاء متوشحاً، قال: **فأدخله علي**. قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، أدن، يا عمير، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله : **قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير**، بالسلام، تحية أهل الجنة، ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لفداء الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: **فما بال السيف في عنقك** قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً، قال: **أصدقني بالذي جئت له**، قال: ما جئت له، قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بلى، **قعدت أنت وصاحبك صفوان بن أمية في الحجر، فذكرت ما أصاب أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعلي عيال لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله عز وجل حائل بيني وبينك**. فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله : **فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا له أسيره**. ففعلوا، ثم قال يا رسول الله، إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم. فأذن له رسول الله ، فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر. وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه، فأسلم على يديه ناس كثير.

* * *

سرية عمير بن عدي:

ومن الحوادث في هذه السنة: سرية عمير بن عدي بن خرشة إلى عصماء بنت مروان، لخمس ليال بقين من رمضان على رأس تسعة عشر شهرا من الهجرة. وكانت عصماء تعيب الإسلام وتؤذي رسول الله وتقول الشعر. فجاءها عمير في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام، منهم من ترضعه في صدرها، فنحى الصبي عنها ووضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها. وصلى الصبح مع النبي بالمدينة. فقال له رسول الله : **أقتلت ابنة مروان؟**ـ، قال: نعم قال: **لا ينتطح فيها عنزان**ـ. فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله.

* * *

سرية سالم بن عمير:

ومن الحوادث: سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك اليهودي في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. وكان أبو عفك شيخاً كبيراً يهودياً قد بلغ مائة وعشرين سنة، وكان يحرض على رسول الله ، ويقول الشعر. فقتله سالم بن عمير.

* * *

غزوة بني قينقاع:

ومن الحوادث: غزوة بني قينقاع، وكان رسول الله قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحداً، وإنه إذا دهمه بها عدو نصروه. فلما انصرف من بدر أظهروا له الحسد والبغي، وقالوا: لم يلق محمداً من يحسن القتال، ولو لاقيناه لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد، ثم أظهروا له نقض العهد.

قال ابن إسحاق: فجمع رسول الله بني قينقاع، وكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، فقال لهم: " يا معشر اليهود، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل "، فقالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فخرج للنصف من شوال، وحمل لواءه يومئذ حمزة، واستخلف على المدينة أبا لبابة، فتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم خمسة عشر ليلة، فنزلوا على حكم رسول الله ، فكتفوا وهو يريد قتلهم، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي، فقال: يا محمد، أحسن في موالي - وكانوا حلفاء الخزرج - فأعرض عنه فأعاد السؤال، فأعرض عنه فأدخل يده في جيب رسول الله

وقال: يا رسول الله، أحسن، قال: **ويحك أرسلني ﷺ**، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالي، أربع مائة حاسر، وثلاث مائة دارع وقد منعوني من الأسود والأحمر، تحصدهم في غداة واحدة، فقال رسول الله ﷺ: **هم لك ﷺ**. ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لهم من مال، فكان أول مال خمس في الإسلام بعد بدر، ثم انصرف إلى المدينة.

* * *

سنة ثلاث من الهجرة:

والكدر ماء من مياه بني سليم، وكانت للنصف من المحرم. خرج رسول الله ﷺ وحمل لواءه علي بن أبي طالب ☺، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وكان بلغه أن بهذا الموضع جمعاً من سليم وغطفان، فسار إليهم فلم يجد أحداً، فوجد رعاء فيهم غلام يقال له يسار، فسأله عن الناس، فقال: لا علم لي بهم، فانصرف رسول الله ﷺ وقد ظفر بالنعم، وكانت خمسمائة بعير، وصار يسار في سهم النبي ﷺ، فأعتقه وكانت غيبته خمس عشرة ليلة. هذا قول الواقدي.

وأما ابن إسحاق، فإنه يقول: هذه الغزاة كانت في شوال سنة اثنتين من الهجرة.

* * *

غزوة السويق:

ومن الحوادث في هذه السنة: غزوة السويق. وذلك أن أبا سفيان حرم الدهن بعد بدر حتى يثأر من محمد وأصحابه، فخرج في مائتي راكب إلى أن بقي بينه وبين المدينة ثلاثة أميال، فقتل رجلاً من الأنصار وأجيراً له، وحرق أبياتاً هناك وتبناً، ورأى أن يمينه قد حلت ثم ولى هاربا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج في أثره في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، واستخلف أبا لبابة بن عبد المنذر على المدينة، فجعل أبو سفيان، وأصحابه يتخففون للهرب فيلقون جرب السويق، وكانت عامة أزوادهم، فأخذها المسلمون، فسميت غزاة السويق فلم يلحقهم رسول الله ﷺ وانصرف إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

* * *

غزوة غطفان بذي أمر:

ومن الحوادث في هذه السنة: غزوة غطفان، وهي ذو أمر، ويقال لها: غزوة. أنمار. وذلك أن رسول الله لما بلغه أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب بذي أمر قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا شيئاً من أصحاب رسول الله ، فندب المسلمين وخرج رسول الله لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول في أربعمائة وخمسين رجلاً، واستخلف عثمان بن عفان، فأصابوا رجلاً من المشركين بذي القصة يقال له حبار، من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله فأخبره خبرهم، وقال: لن يلاقوك إذ سمعوا بمسيرك هوبوا في رؤوس الجبال، فأسلم حبار، ولم يلاق رسول الله أحداً غير أنه ينظر إليهم في رؤوس الجبال، وأصاب رسول الله مطر، فنزع رسول الله ثوبيه وألقاهما على شجرة ليجفا وأضطجع، فجاء رجل من العدو، يقال له دعثور بن الحارث ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ، ثم قال: من يمنعك منى اليوم، قال رسول الله : الله، ودفع جبريل عليه السلام في صدره فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ، وقال: من يمنعك مني؟ قال لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم أتى قومه، فجعل يدعوهم إلى الإسلام، ونزلت:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ } [المائدة: ١١] ورجعوا إلى المدينة، ولم يلقوا كيداً وكانت غيبتهم إحدى عشرة ليلة.

* * *

سرية قتل كعب بن الأشرف:

ومن الحواث في هذا الشهر من هذه السنة: سرية قتل كعب بن الأشرف وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وكان سبب قتله أنه كان شاعراً، فهجا رسول الله وأصحابه، وشبب بنسائهم، وبكى على قتلى بدر، وحرض المشركين بالشعر على رسول الله فقال رسول الله من لي بابن الأشرف؟ فقال له محمد بن مسلمة: أنا فاجتمع هو وأبو نائلة سلكان بن سلامة، والحارث بن أوس، وأبو عبس، وكان أبو نائلة أخا كعب من الرضاعة، فجاءه، فقال له: إن قدوم هذا الرجل كان علينا من البلاء، حاربتنا العرب فرمتنا عن قوس واحدة، ونحن نريد التنحي عنه، ومعي رجال من قومي على مثل رأي، وقد أردت أن آتيك بهم، فنبتاع منك طعاماً وتمراً، ونرهنك ما يكون لك فيه، ثقة، فقال: جئ بهم متى شئت، فاجتمعوا وأتوا رسول الله ، فمشى معهم حتى أتى البقيع، ثم وجههم وقال: امضوا على بركة الله، فمضوا حتى انتهوا إلى حصنه، فخرج إليهم فقتلوه، وأتوا رسول الله .

زواج عثمان بن عفان أم كلثوم.

ومن الحوادث: في هذا الشهر من هذه السنة: تزوج عثمان بن عفان أم كلثوم بنت رسول الله ، وأدخلت عليه في جمادى الآخرة.

* * *

غزوة بني سليم:

وفي هذه السنة: غزا رسول الله بني سليم، وذلك لست ليال خلون من جمادى الأولى. على رأس سبع وعشرين شهراً من مهاجرته، ببحران، وهو بناحية الفرع، وبين الفرع والمدينة ثمانية برد.

وذلك أنه بلغه أن بها جمعاً من بني سليم، فخرج في ثلاثمائة واستخلف ابن أم مكتوم فوجدهم تفرقوا، فرجع ولم يلق كيداً، وكانت غيبته عشر ليال.

* * *

سرية زيد بن الحارث:

وفيها: كانت سرية زيد بن حارثة إلى القردة، لهلال جمادى الآخرة، وهي أول سرية خرج فيها زيد أميراً. والقردة ماء من مياه نجد بين الربذة وغمرة. بعثه رسول الله يعترض عيرا لقريش، فمضى زيد في مائة راكب، فأصابوا العير وأفلت أعيان القوم، وقدموا بالعير إلى رسول الله . فبلغ الخمس قيمة عشرين ألف درهم، وأسر فرات بن حيان، وأسلم.

* * *

زواج حفصة:

وفيها: تزوج رسول الله حفصة في شعبان، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي في الجاهلية، فتوفي عنها مقدم سول الله من بدر، فعرضها عمر على أبي بكر فلم يجبه بشيء، ثم على عثمان فلم يجبه بشيء، فشكى إلى رسول الله ، وقال: يا رسول الله عرضت على عثمان حفصة فأعرض عني، فقال: إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان وكان ذلك متوفى رقية، فتزوجها رسول الله في شعبان، على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة قبل أحد، ثم طلقها فأتاها خلالها عثمان وقدامة، فبكت وقالت: والله ما طلقني رسول الله عن شبع، فجاء رسول الله فدخل عليها، فجلست، فقال: إن جبريل أتاني فقال لي: راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وهي زوجتك في الجنة. قال مؤلف الكتاب: وفي رواية إنه هم بطلاقها.

زواجه من زينب بنت خزيمة.

وفيها: تزوج رسول الله زينب بنت خزيمة، وكانت تسمى في الجاهلية أم المساكين، وكانت عند الطفيل بن الحارث بن المطلب فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة ابن الحارث فقتل عنها يوم بدر شهيداً، فتزوجها رسول الله ، في رمضان هذه السنة. وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشاً، فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت.

وفيها: ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ☻.

* * *

غزوة أحد:

ومن الحوادث في هذه السنة: غزاة أحد. وكانت يوم السبت لسبع خلون من شوال، وكان سببها أنه لما رجع من حضر بدراً من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان موقوفة في دار الندوة، فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان، فقالوا: نحن طيبو الأنفس بأن تجهز بربح هذه العير جيشاً إلى محمد، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معي، فباعوها فصارت ذهباً، وكانت ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم، وعزلت الأرباح، وبعثوا الرسل إلى العرت يستنصرونهم، وأجمعوا على إخراج الظعن معهم ليذكرنهم قتلى بدر فيحفظنهم فيكون أجد لهم في القتال.

وكتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ، فخرجت قريش ومعهم أبو عامر الراهب، وكان عددهم ثلاثة آلاف فيهم سبعمائة دارع، ومعهم مائتا فرس وثلاثة ألاف بعير، وكانت الظعن خمسة عشرة امرأة، فساروا حتى نزلوا ذا الحلمة فأقاموا يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وبات سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير بباب رسول الله في عدة من الناس، وحرست المدينة، ورأى رسول الله كأنه في درع حصينة، وكأن سيفه ذا الفقار قد انفصم، وكأن بقراً تذبح، وكأنه مردف كبشا، فأولها فقال: أما الدرع فالمدينة، والبقر قتل في أصحابي، وانفط سيفي مصيبة في نفسي، والكبش كبش الكتيبة نقتله إن شاء الله، وكان رأيه أن لا يخرج من المدينة

وكان ذلك رأي الأكابر من أصحابه، وطلب فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً أن يخرجوا حرصاً على الشهادة فغلبوا على الأمر، فصلى الجمعة ثم وعظمهم وأمرهم بالجد والجهاد، ثم صلى العصر، ثم دخل بيته ومعه أبو بكر، وعمر فعمماه ولبساه وصف الناس له، فخرج قد لبس لأمته وأظهر الدرع، وحزم وسطها بمنطقة من أدم واعتم، وتقلد السيف، وألقى الترس في ظهره، فندموا جميعاً على ما صنعوا، وقالوا: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك، فقال: **لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه فامضوا على اسم الله، فلكم النصر إن صبرتم**. فعقد ثلاثة ألوية، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى الحباب، وقيل: إلى سعد بن عبادة، ولواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ☺، وقيل: إلى مصعب بن عمير، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم على المدينة، ثم ركب فرسه، وتقلد قوسه، وأخذ قناة في يده، وفي المسلمين مائة دارع، وخرج السعدان أمامة: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، والناس على يمينه وشماله، وعرض من عرض، ورد من رد، وكان فيمن رد: ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، والبراء بن عازب، وعرابة بن أوس، وأذن بلال المغرب، فصلى بأصحابه واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر. وبات بالشيخين اطمأن في طرق المدينة، وكان يهودي ويهودية أعميان يقومان عليهما فسميا بالشيخين لذلك، وأدلج رسول الله في السحر، فصلى بأصحابه الصبح وانخزل ابن أبي في ثلاثمائة وكان رأيه أن لا يخرج من المدينة فقال: عصاتي وأطاع الولدان، فبقي رسول الله في سبعمائة، وأقبل يسوي الصفوف، وجعل أحداً وراء ظهره واستقبل المدينة، وجعل عينين - جبلا بقناة - عن يساره، وجعل عليه خمسين من الرماة، عليهم ابن جبير، واستعمل المشركون على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى الخيل صفوان بن أمية، وقيل عمرو بن العاص، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام، وقال أبو سفيان بن حرب لبني عبد الدار يومئذ: إنكم أضعتم اللواء يوم بدر، فأصابنا ما رأيتم، فادفعوا إلينا اللواء نكفيكم، وإنما أراد تحريضهم على الثبات، فغضبوا وأغلظوا له القول، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة، وحضرت الملائكة ولم تقاتل، وأخذ رسول الله سيفاً، وقال: **من يأخذ هذا السيف بحقه** قال أبو دجانة: وما حقه؟ قال: **أن تضرب به في العدو حتى ينحني**، قال: أنا فأخذه وجعل يتبختر في الصفين، فقال رسول الله : **إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**.

وكان أول من أنشب الحرب أبو عامر الراهب، طلع في خمسين من قومه فنادى: أنا أبو عامر فقال المسلمون: لا مرحباً بك، فترامو بالحجارة حتى ولى أبو عامر، وجعل نساء المشركين يضربن بالدفوف والأكبار، ويحرضن:

فصاح طلحة من يبارز، فبرز إليه علي بن أبي طالب فضربه على رأسه حتى فلق هامته وهو كبش الكتيبة - فسر بذلك رسول الله وكبر المسلمون، ثم شدوا على المشركين، وحمل لواءهم أخوه عثمان بن أبي طلحة، فضربه حمزة بالسيف، فقطع يده، ثم حمله أبو سعد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فقتله، فحمله مسافع بن طلحة فرماه عاصم فقتله، ثم حمله الحارث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ثم حمله كلاب بن طلحة فقتله الزبير، ثم حمله الجلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله، ثم حمله أرطأة بن شرحبيل فقتله علي ☺، ثم حمله شرحبيل بن فارط، فقتله بعض المسلمين، ثم حمله صؤاب غلام لهم، فقتله بعض المسلمين. فلما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح، ووقعوا ينتهبون العسكر ويأخذون الغنائم. فلما رأى الرماة ذلك أقبل جماعة منهم وخلوا الجبل، فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل، وتبعه عكرمة فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم، وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير وانتقضت صفوف المسلمين، ونادى إبليس: قتل محمد، وثبت رسول الله في عصابة من الصحابة أربعة عشر فيهم أبو بكر فأصيبت رباعيته وكلم في وجهه.

وفي الذي فعل به ذلك قولان: أحدها أنه عتبة بن أبي وقاص، قال سعد بن أبي وقاص: كنت حريصاً على قتل عتبة، فكفاني منه قول رسول الله اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله ".

الثاني: أنه ابن قميئة فإنه علا رسول الله بالسيف، فضربه على شقة الأيمن فاتقاها طلحة بيده فشلت يده.

قال السدي: وابن قميئة هو الذي رمى وجه رسول الله بحجر، فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه.

عن أبي بشر المازني، قال: حضرت يوم أحد وأنا غلام فرأيت ابن قميئة علا رسول الله بالسيف، فرأيت رسول الله وقع على كتفيه في حفرة أمامه حتى توارى، فجعلت أصيح وأنا غلام حين رأيت الناس ثابوا إليه، فأنظر إلى طلحة بن عبيد الله، أخذ يحضنه حتى قام رسول الله .

قال محمد بن يوسف الفريابي: لقد بلغني أن الذين كسروا رباعية رسول الله لم يولد لهم صبي فثبت له رباعية.

قال علماء السير: وترس أبو دجانة رسول الله بنفسه، وكانت النبل تقع في ظهره وهو منحن عليه.

ومر أنس بن النضر على عمر وطلحة في رجال من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فما تصنعون بالحياة قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

قال المصنف رحمه الله: وكان أربعة نفر قد تحالفوا وتعاقدوا يوم أحد: لئن رأوا رسول الله ليقتلنه أو ليقتلن دونه عمرو بن قميئة، وأبي بن خلف، وعبد الله ابن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص.

حدث الزبير بن بكار، قال: قتل أمية بن خلف ببدر، وكان أخوه أبي بن خلف قد أسر يومئذ، فلما فدو، قال لرسول الله إن عندي فرساً أعلفه كل يوم فرقاً من ذره أقتلك عليه، فقال له رسول الله : **بل أنا أقتلك عليه إن شاء الله**ــــ، فلما كان يوم أحد وانحاز المسلمون إلى شعب أحد بصر أبي بن خلف رسول الله فحمل عليه فشد عليه الزبير بن العوام، ومع الزبير الحربة، فأخذها منه رسول الله وقال للزبير: دعه وشد عليه رسول الله فطعنه بها، فدق ترقوته، وخر صريعاً، وأدركه المشركون، فارتثوه وله خوار، فجعلوا يقولون: ما بك بأس، فيقول: أليس قد قال: أنا أقتلك، فحملوه حتى مات بمر الظهران على أميال من مكة.

قال مؤلف الكتاب: وعلى هذا جميع أهل التاريخ أن الذي قتله رسول الله : أبي بن خلف، وأن أمية بن خلف قتل يوم بدر.

وقد روى البخاري في صحيحه: أن سعد بن معاذ قال لأمية بن خلف: إني سمعت رسول الله يقول: " إنه قاتلك " فقال: والله ما يكذب محمد، فلما سار الناس إلى بدر أراد أن لا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي فسر يوماً أو يومين، فسار حتى قتله الله ببدر. فيحتمل أن يكون رسول الله قتل أمية يوم بدر، وقتل أبي يوم أحد، ويحتمل أن يكون بمعنى قوله: " إنه قاتلك " أي بقتلك أصحابه. والله أعلم، وقد ذكرنا كيف قتله الصحابة.

قال علماء السير: كان اللواء مع مصعب بن عمير، فقتل فأخذ اللواء ملك في صورته.

عن عبد الله بن الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قال: أعطى رسول الله مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فقتل مصعب، فأخذه ملك في صورة مصعب، فجعل رسول الله يقول له في آخر النهار: " تقدم " يا مصعب، فالتفت إليه الملك، فقال: لست بمصعب، فعرف رسول الله أنه ملك أيد به. قال علماء السير: قتل يومئذ حمزة، وأصيبت عين قتادة بن النعمان، فوقدت على وجنته، فجاء بها إلى رسول الله فردها بيده، فكانت أحسن عينيه.

عن البراء بن عازب، قال: جعل رسول الله على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير، قال: ووضعهم موضعاً وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، قال: فهزموهم، قال: وأنا والله رأيت النساء يشتددن على الخيل وقد بدت أسواقهن وخلاخيلهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ، قالوا: إنا والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى:{وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ} [آل عمران: ١٥٣]. فلم يبق مع رسول الله غير اثني عشر رجلاً، فأصابوا منا سبعين رجلاً.

وكان رسول الله قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة وسبعين أسيراً وسبعين قتيلاً، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟ ثلاثاً، قال: فنهاهم رسول الله أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددتهم لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك فقال: يوم أحد بيوم بدر والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل.

فقال رسول الله : **ألا تجيبوه**، فقالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: **الله أعلى وأجل** قال: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله : **ألا تجيبوه**، قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: قولوا: **الله مولانا ولا مولى لكم**.

قال علماء السير: وقامت هند في نسوة معها يمثلن بالقتلى، يجدعن الأنوف والأذان حتى اتخذت هند من ذلك خدماً وقلائد، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

فلما أراد أبو سفيان أن ينصرف، نادى: موعدكم بدر العام، فقال رسول الله لرجل من أصحابه: **قل نعم بيننا موعد**، فقال رسول الله لعلي: **أخرج في آثار القوم، فإن اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل: فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم**.

قال علي ☺: فخرجت في آثار القوم، فاجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة.

ثم أقبل المسلمون على قتلاهم، فقال رسول الله : **من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟** فمضى رجل فوجده جريحاً بين القتلى وبه رمق، فقال إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت، أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله عني السلام، وقل له: يقول لك سعد بن الربيع: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك السلام عني، وقل لهم لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف أم مات.

وخرج رسول الله يلتمس حمزة فوجده ببطن الوادي، وقد بقر بطنه عن كبده ومثل به، فقال: لو لا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أنا أظهرني الله على قريش، لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، فقال المسلمون: والله لئن أظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله عز وجل:{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ} [النحل: ١٢٦]. وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة، فقال رسول الله لابنها الزبير: **القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها**، فلقيها، فقال لها: يا أمه إن رسول الله يأمرك أن ترجعي، فقالت: ولم، وقد بلغني أنه مثل بأخي، وذلك في الله قليل، فلأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فجاءت إليه واستغفرت له.

قتلى المسلمين يوم أحد :

قال مؤلف الكتاب: قتل من المسلمين يوم أحد حمزة قتله وحشي، وعبد الله ابن جحش قتله أبو الحكم بن الأخنس، ومصعب بن عمير قتله ابن قميئة، وشماس بن عثمان قتله أبي بن خلف، وعبد الله وعبد الرحمن ابنا الهبيب، ووهب ابن قابوس، وابن أخيه الحارث بن عقبة.

وقتل من الأنصار سبعون، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون منهم.

ولما أراد المسلمون دفن قتلاهم قال رسول الله : **احفروا وأعمقوا وقدموا أكثرهم قرآنا**.

وممن دفن في قبر واحد، عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح، وسعد بن الربيع، وخارجة بن زيد، والنعمان بن مالك، وعبدة بن الحسحاس، وكان الناس قد حملوا قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم في نواحيها، فنادى منادي رسول الله : **ردو القتلى إلى مضاجعهم**، فأدرك المنادي رجلاً لم يكن دفن، وهو شماس بن عثمان المخزومي.

عن جابر بن عبد الله قال: قتل أبي وخالي يوم أحد فحملتهما أمي على بعير فأتت بهما المدينة، فنادي منادي رسول الله : **ردوا القتلى إلى مصارعهم**.

قال ابن إسحاق: ولما أمر رسول الله بدفن القتلى، قال: **انظروا عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام. فإنهما كانا متصافيين في الدنيا فاجعلوهما في قبر واحد فلما احتفر معاوية القناة أخرجا وهما ينثيان كأنما دفنا بالأمس**.

ثم انصرف رسول الله راجعاً إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش فنعي لها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله : **إن زوج المرأة منها لبمكان**، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

عن أنس، قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة وقالوا: قتل محمد حتى كبرت الصوارخ في نواحي المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار، فاستقبلت بأخيها وأبيها وزوجها، لا أدري بأيهم استقبلت أولاً، فلما مرت على آخرهم قالت: من هذا؟ قالوا: أخوك وأبوك وزوجك وابنك، قالت: فما فعل رسول الله فيقولون: أمامك، حتى ذهبت إلى رسول الله فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أبالي إذ سلمت من عطب.

قال مؤلف الكتاب: ولما انتهى رسول الله إلى أهله ناول سيفه فاطمة، فقال: **اغسلي عن هذا دمه يا بنية**.

* * *

غزوة حمراء الأسد:

وفي هذه السنة: كان غزاة حمراء الأسد. وذلك أن رسول الله رجع إلى المدينة يوم السبت يوم الوقعة، فلما كان الغد وهو يوم الأحد لست عشرة ليلة خلت من شوال أذن مؤذن رسول الله في الناس بطنب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم، فكلمه جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله: إن أبي كان خلفني على أخوات لي، فأذن لي بالخروج معك ولم يخرج معه ممن لم يشهد القتال غيره. وإنما خرج رسول الله مرهباً للعدو ليبلغهم أنه قد خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، فخرج حتى انتهى إلى حمراء الأسد، ودفع لواءه وهو معقود لم يحل إلى علي بن أبي طالب، وقيل: إلى أبي بكر ☻، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخرج وهو مجروح مشجوج مكسور الرباعية وشفته العليا قد كلمت في باطنها وهو متوهن المنكب الأيمن من ضربة ابن قميئة، ونزل إليه أهل العوالي، فبعث ثلاثة نفر من أسلم روحة في آثار القوم فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد، وهي من المدينة على عشرة أميال، وقيل: ثمانية وللقوم رجل وهم يأتمرون بالرجوع وصفوان بن أمية ينهاهم، فبصروا بالرجلين، فرجعوا إليهما فقتلوهما، ومضى رسول الله وأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد، فدفن الرجلان في قبر واحد، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار فذهب صوت معسكرهم ونارهم في كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم، ووجد رسول الله أبا عزة فقتله صبراً، وانصرف رسول الله إلى المدينة فدخلها يوم الجمعة، وكانت غيبته خمس ليال.

حدث الزبير بن بكار، قال: أسر رسول الله يوم بدر أبا عزة الشاعر واسمه عمرو، وكان ذا بنات، فقال له: دعني لبناتي، فرحمه فأطلقه وأخذ عليه أن لا يكثر عليه بعدها، فلما جمعت قريش لرسول الله أقبلوا إليه وكلمه صفوان ابن أمية، وسأله أن يخرج إلى بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهم حلفاء قريش يسألهم النصر فأبى، وقال: إن محمداً قد أمن علي وأعطيته أن لا أكثر عليه، فلم يزل صفوان يكلمه حتى خرج إلى بني الحارث، فحرضهم على الخروج مع قريش والنصر لهم،

فلما انصرفت قريش عن أحد تبعهم رسول الله حتى بلغ حمراء الأسد فأصاب بها عمراً فقال له: يا محمد عفوك، فقال : **لا تمسح لحيتك بمكة وتقول، خدعت محمداً مرتين**ــــ.

* * *

سنة أربع من الهجرة:

إلى قطن - وهو جبل - في هلال المحرم، وذلك أنه بلغ رسول الله أن طليحة، وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعوانهم إلى حرب رسول الله ، فدعا أبا سلمة، وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلاً، وقال: **سر حتى تنزل أرض بني أسد، فأغار عليهم قبل أن تلاقى عليك خيولهم**ـــ، فخرج فأغذ السير عن سنن الطريق وانتهى إلى أدنى قطن، فأغار على سرح لهم، وأخذوا رعاء ثلاثة، وأفلت سائرهم، فجاؤوا فحذروا أصحابهم، فتفرقوا في كل ناحية، ففرق سلمة أصحابه ثلاث فرق في طلب النعم والشاء، فآبوا سالمين قد أصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة.

* * *

سرية عبد الله بن أنيس:

في يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم إلى سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي بعرنة، وذلك أنه بلغ رسول الله أن سفيان بن خالد قد جمع الجموع لرسول الله ، فبعث عبد الله بن أنيس ليقتله، فقال: صفه لي يا رسول الله، فقال: **إذا رأيته هبته وفرقت منه وذكرت الشيطان**ـــ، قال: وكنت لا أهاب الرجال، واستأذنت رسول الله أن أقول فأذن لي، فأخذت سيفي وخرجت أعتزي إلى خزاعة حتى إذا كنت ببطن عرنة لقيته يمشي ووراءه الأحابيش، فعرفته بنعت رسول الله ، ففال: من الرجل؟ فقلت: رجل من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك، قال: أجل إني لأجمع له، فمشيت معه وحدثته فاستحلى حديثي حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه حتى إذا نام الناس اغتررته فقتلته وأخذت رأسه، ثم دخلت غاراً في الجبل فضربت العنكبوت علي، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فرجعوا، ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله في المسجد، فلما رآني قال: **أفلح الوجه**ـــ، قلت: أفلح وجهك يا رسول الله، فوضعت رأسه بين يديه، وأخبرته خبري، فدفع إلي عصا، وقال **تخصر بهذه في الجنة**ـــ، فكانت عنده فلما حضرته الوفاة أوصى إلى أهله أن يدرجوها في كفنه ففعلوا.

* * *

سرية المنذر بن عمرو الساعدي إلى بئر معونة:

في صفر، وذلك انه لما قدم عامر بن مالك على رسول الله ، وأهدى له فلم يقبل منه، وعرض عليه الإسلام فلم يسلم، وقال: لو بعثت معي رجالاً من أصحابك لرجوت أن يجيب قومي دعوتك، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال: أنا لهم جار إن يعرض لهم أحد، فبعث معه سبعين رجلاً من الأنصار شببة يسمون القراء، وأمر عليهم المنذر، فلما نزلوا ببئر معونة - وهو ماء من مياه بني سليم - نزلوا بها وقدموا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فوثب على حرام فقتله واستصرخ عليهم بني عامر فأبوا، وقالوا: لا يخفر جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية ورعلاً وذكوان، فنفروا معه، واستبطأ المسلمون حراماً، فأقبلوا في إثره فلقيهم القوم، فأحاطوا بهم فكاثروهم، فلما أحيط بهم، خبرنا فأخبره قالوا: اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك منا السلام غيرك، فأقرئه منا السلام، وأخبره جبريل عليه السلام، فقال: " وعليهم السلام " وكان معهم عمرو بن أمية الضمري، فقال عامر بن الطفيل قد كان على أمي نسمة فأنت حر عنها ثم جز ناصيته.

عن أنس: أن رسول الله لما بعث حراماً خاله أخاً أم أنس، وهي أم سليم في سبعين رجلاً فقتلوا يوم بئر معونة، وكان رئيس المشركين يومئذ عامر بن الطفيل، وكان هو قد أتى رسول الله ، فقال: اختر مني ثلاث خصال يكون لك أهل السهل، ويكون لي أهل الوبر، أو أكون خليفة من بعدك، أو أغزوك بغطفان ألف أشقر وألف شقراء، قال: فطعن في بيت امرأة من بني فلان، فقال: غدة كغدة البعير في بيت امرأة من بني فلان ائتوني بفرسي، فأتي به فركبه فمات وهو على ظهره، فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه: رجل من بني أمية، ورجل أعرج، فقال: كونوا قريباً مني حتى آتيهم، فإن آمنوني وإلا كنتم قريباً فإن قتلوني أعلمتم أصحابي بكم قال: فأتاهم حرام فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ، قالوا: نعم، فجعل يحدثهم، فأومأوا إلى رجل منهم من خلفه، فطعنه حتى أنفذه بالرمح، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، قال: ثم قتلوهم كلهم غير الأعرج، كان في رأس جبل، قال أنس: وأنزل علينا وكان مما يقرأ فنسخ أن بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، فدعا النبي أربعين صباحاً على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله ورسوله. أخرجه البخاري.

* * *

سرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي إلى الرجيع في صفر:

روى ابن إسحاق عن أشياخه: أن قوماً من المشركين قدموا على رسول الله ، فقالوا: إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام، فبعث معهم عشرة منهم: عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد، وعبد الله بن طارق، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وخالد بن أبي البكير، ومعتب بن عبيد. وفيمن أمره عليهم، قولان: أحدهما: مرثد، والآخر عاصم. فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل، غدروا بالقوم واستصرخوا عليهم هذيلاً، فخرجوا بني لحيان فلم يرع القوم إلا الرجال بأيديهم السيوف، فأخذ أصحاب رسول الله السيوف بأيديهم، فقالوا للمشركين: إنا والله ما نريد إلا أن نصيب بكم ثمناً من أهل مكة، ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم. فأما عاصم، ومرثد، وخالد، ومعتب فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً، فقاتلوهم حتى قتلوا. وأما زيد، وخبيب، وابن طارق فاستأسروا وأعطوا بأيديهم، وأرادوا رأس عاصم ليبيعوه من سلافة بنت سعد - وكانت نذرت أن تشرب في قحفه الخمر - لأنه قتل ابنيها يوم أحد فحمته الدبر، فلم يقدروا عليه، فقال: امهلوه حتى يمسي فتذهب عنه، فبعث الله الوادي فاحتملته وخرجوا بالنفر الثلاثة، حتى إذا كانوا بمر الظهران انتزع عبد الله بن طارق يده منهم، وأخذ سيفه، واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بمر الظهران، وقدموا بخبيب وزيد إلى مكة فابتاع حجير بن أبي أهاب خبيباً لابن أخته عقبة بن الحارث ليقتله بابنه وابتاع صفوان بن أمية زيداً ليقتله بأبيه، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، ثم أخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما.

وقال قائل لزيد عند قتله: أتحب أنك الآن في أهلك وأن محمداً عندنا مكانك، فقال: والله ما أحب أن محمداً يشاك في مكانه بشوكة وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت من قوم قط أشد حباً لصاحبهم من أصحاب محمد له.

عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله عشرة عيناً وافر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، حتى إذا كانوا بالهدة بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه، فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه، لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم: أيها القوم، أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك ، فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصماً في سبعة من أصحابه ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتار قسيهم

فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة يريد القتلى، فجروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه. وانطلقوا بخبيب، وزيد حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها للقتل فأعارته، فدرج بني لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، فكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيباً فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الجبل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فصلى ركعتين، وقال: والله لو لا أن تحسبوا أن ما بي جزع. لزدت، اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً.

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، وكان خبيب هو الذي سن لكل مسلم قتل صبراً الصلاة.

* * *

ثم كانت غزاة بني النضير في ربيع الأول.

وكانت منازلهم بناحية الغرس وما والاها، وكان سببها أن رسول الله خرج يوم السبت، فصلى في مسجد قباء، ومعه نفر من أصحابه، ثم أتى بني النضير فكلمهم أن يعينوه في دية رجلين، كان قد أمنهما، فقتلهما عمرو بن أمية وهو لا يعلم، فقالوا: نفعل، وهموا بالغدر به، فقال عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة، فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا والله ليخبرن بما هممتم به، وجاء رسول الله الخبر، فنهض سريعاً فتوجه إلى المدينة فلحقه أصحابه فقالوا: أقمت ولم نشعر؟ فقال: **همت يهود بالغدر فأخبرني الله عز وجل بذلك فقمت**، وبعث إليهم رسول الله محمد بن مسلمة إن اخرجوا من بلدي ولا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به، وقد أجلتكم عشراً فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا أياماً يتجهزون، وتكاروا من ناس إبلاً فأرسل إليهم ابن أبي لا تخرجوا وأقيموا فإن معي ألفين وغيرهم يدخلون حصونكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حي فيما قال ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله إنا لا نخرج، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ، وكبر المسلمون لتكبيره، وقال: **حاربتنا اليهود**

فسار إليهم النبي في أصحابه، فصلى العصر بفناء بني النضير، وعلي ☺ يحمل رايته، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فلما رأوا رسول الله في على حصونهم معهم النبل والحجارة، واعتزلهم قريظة، وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ، وقطع نخلهم، فقالوا: نحن نخرج عن بلادكم، فأجلاهم عن المدينة، وولى إخراجهم محمد بن مسلمة وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فقال لهم رسول الله : **اخرجوا ولكم دماؤكم، وما حملت الإبل إلا الحلقه**ـــ فقبض رسول الله الأموال والحلقة، فوجد من الحلقة خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وكان بنو النضير صفياً لرسول الله خالصة له حبساً لنوائبه، ولم يخمسها ولم يسهم منها لأحد، وقد أعطى ناساً منها.

* * *

ثم كانت غزاة بدر الموعد لهلال ذي القعدة.

وذلك أن أبا سفيان لما أراد أن ينصرف يوم أحد: نادى الموعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول نلتقي بها فنقتتل، فقال رسول الله لعمر: **قل نعم إن شاء الله**ـــ. فافترق الناس على ذلك، وتهيأت قريش للخروج، فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج وقدم نعيم بن مسعود الأشجعي مكة، فقال له أبو سفيان: إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي ببدر، وقد جاء ذلك الوقت، وهذا عام جدب، وإنما يصلحنا عام خصب، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترئ علينا فنجعل لك عشرين فريضة يضمنها لك سهيل بن عمرو على أن تقدم المدينة فتخذل أصحاب محمد، قال: نعم. ففعلوا وحملوه على بعير، فأسرع السير، وقدم المدينة فأخبرهم بجمع أبي سفيان لهم وما معه من العدة والسلاح. فقال رسول الله : **والذي نفسي بيده، لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد**ـــ. واستخلف رسول الله على المدينة عبد الله بن رواحة، وحمل لواءه، علي بن أبي طالب ☺، وسار معه ألف وخمسمائة، والخيل عشرة أفراس، وخرجوا ببضائع لهم وتجارات، وكانت بدر الصغرى مجتمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان تخلو منه، ثم يتفرق الناس إلى بلادهم، فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذي القعدة، وقامت السوق صبيحة الهلال، فأقاموا بها ثمانية أيام وباعوا تجاراتهم وربحوا للدرهم درهماً، وانصرفوا وقد سمع الناس بمسيرهم، وخرج أبو سفيان من مكة في قريش وهم ألفان ومعه خمسون فرساً، حتى انتهوا إلى مجنة - وهي وراء الظهران - ثم قال: ارجعوا فإنه لا يصلحنا إلا عام خصب نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن

وهذا عام جدب، فسمى أهل مكة ذلك الجيش جيش السويق، يقولون: خرجوا يشربون السويق، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد نهيتك أن تعد القوم، وقد اجترؤوا علينا ورأونا قد أخلفناهم، ثم أخذوا في الكيد والتهيؤ لغزاة الخندق.

أخبرنا محمد بن أبي طاهر، قال: أخبرنا الحسين بن علي الجوهري، قال: أخبرنا أبو عمرو بن حيويه، قال: أخبرنا أحمد بن معروف الخشاب، قال: أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، قال: أخبرنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا حجاج بن محمد، عن ابن جريح، عن مجاهد:{ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا} [آل عمران: ١٧٣]. قال: هذا أبو سفيان قال يوم أحد: يا محمد موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فقال محمد فانطلق النبي لموعده حتى نزلوا بدراً، فوافقوا السوق فذلك قوله تعالى:{فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ} [آل عمران: ١٧٤] والفضل ما أصابوا من التجارة، وهي غزاة بدر الصغرى.

وفي هذه السنة: أمر رسول الله زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود، وقال: **إني لا آمنهم أن يبدلوا كتابي**ـــ، فتعلمه في خمس عشرة ليلة.

* * *

زواجه أم سلمة:

وفي هذه السنة: تزوج رسول الله أم سلمة في شوال.

عن ثابت، قال: حدثني بن أم سلمة أن أبا سلمة جاء إلى أم سلمة فقال: لقد سمعت من رسول الله حديثاً أحب إلي من كذا وكذا لا أدري ما عدل به، سمعت رسول الله يقول: **لا يصيب أحداً مصيبة فيسترجع عند ذلك، ويقول: اللهم عندك أحتسب مصيبتي، اللهم اخلفني فيها خيراً منها إلا أعطاه الله عز وجل**ـــ قالت أم سلمة: فلما أصبت بأبي سلمة، قلت: اللهم عندك أحتسب مصيبتي هذه، ولم تطب نفسي أن أقول اللهم اخلفني فيها خيراً منها ثم قالت: من خير من أبي سلمة، ثم قالت ذلك، فلما انقضت عدتها أرسل إليها أبو بكر يخطبها فأبت أرسل إليها عمر يخطبها، فأبت، ثم أرسل إليها رسول الله يخطبها، فقالت: مرحباً برسول الله، إن في خلالاً ثلاثاً، أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصبية، وأنا مرأة ليس لي ها هنا أحد من أوليائي يزوجني، فغضب عمر لرسول الله أشد مما غضب لنفسه حين ردته، فأتاها عمر فقال: أنت التي تردين رسول الله بما تردينه، فقالت: يا ابن الخطاب في كذا وكذا

فأتى رسول الله فقال: **أما ما ذكرت من غيرتك، فأنا أدعوا الله عز وجل يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك، فإن الله عز وجل سيكفيكهم، وأما ما ذكرت أنه ليس أحد من أوليائك شاهد فليس من أوليائك شاهد ولا غائب يكرهني، وقال: لابنها زوج رسول الله فزوجه**، فقال: يا رسول الله أما أني لا أنقصك مما أعطيت فلانة، قال ثابت: قلت لابن أم سلمة: ما أعطى فلانة، قال: أعطاها جرتين تضع فيهما حاجتها، ورحاء، ووسادة من أدم حشوها ليف، ثم انصرف رسول الله ثم أقبل رسول الله . فلما رأته وضعت زينب أصغر ولدها في حجرها، فلما رأها انصرف، وأقبل عمار مسرعاً بين يدي رسول الله فانتزعها من حجرها، وقال: هاتي هذه المشومة التي قد منعت رسول الله حاجته، فجاء رسول الله فلما لم يرها في حجرها قال: **أين زناب؟** قالت: أخذها عمار، فدخل رسول الله على أهله، قال: وكانت في النساء كأنها ليست فيهن لا تجد ما تجدن من الغيرة.

قال مؤلف الكتاب: وقد روينا أنه لما تزوجها رسول الله نقلها إلى بيت زينب بنت خزيمة بعد موتها، فدخلت فرأت جرة فيها شعير، ورحاء، وبرمة، فطحنته ثم عقدته في البرمة، وأدمته بإهالة، فكان ذلك طعام رسول الله وطعام أهله ليلة عرسه، فأقام رسول الله ثلاثاً ثم أراد أن يدور، فأخذت بثوبه، فقال: **إن شئت أن أزيدك ثم قاصصتك به بعد اليوم**.

عن عائشة ♥ قالت: لما تزوج رسول الله أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكر الناس جمالها، فتلطفت حتى رأيتها فرأيتها والله أضعاف ما وصفت لي في الحسن والجمال، فذكرت ذلك لحفصة، وكانتا يداً واحدة، فقالت: لا والله إن هذه إلا الغيرة، ما هي كما تقولين، فتلطفت لها حفصة حتى رأتها، فقالت: والله ها هي كما تقولين ولا قريب، وإنها لجميلة، قالت: فرأيتها بعد فكانت كما قالت حفصة، ولكن كنت غيرى.

* * *

سنة خمس من الهجرة:

وكانت في المحرم، وإنما سميت ذات الرقاع، لأنها كانت عند جبل فيه سواد وبياض وحمرة، فسميت بذلك. وكان سببها، أن قادماً قدم المدينة بجلب له، فأخبر أصحاب رسول الله أن أناراً وثعلبة قد جمعوا لهم الجموع، فبلغ ذلك رسول الله واستخلف على المدينة عثمان بن عفان، وخرج ليلة السبت لعشر خلون من المحرم في أربعمائة، وقيل: في سبعمائة، فمضى حتى أتى محالهم بذات الرقاع - وهو جبل - فلم يجد إلا نسوة فأخذهن وفيهن جارية وضيئة، فهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال، فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم فصلى بهم النبي صلاة الخوف، وكان أول ما صلاها.

وانصرف راجعاً إلى المدينة، فابتاع من جابر بن عبد الله جمله وناقته، وشرط له ظهره إلى المدينة وسأله عن دين أبيه فأخبره، فقال: إذا قدمت المدينة فأردت أن تجد نخلك فأذني، واستغفر رسول الله لأبي جابر في تلك الليلة خمساً وعشرين مرة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وبعث جعال بن سراقة بشيراً إلى المدينة بالسلامة.

* * *

ومن الحوادث في هذه السنة غزاة دومة الجندل.

في ربيع الأول، وذلك أن رسول الله بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مر بهم، وكان بين دومة الجندل وبين المدينة مسيرة خمس عشرة ليلة، أو ست عشرة، فندب رسول الله الناس، واستخلف ابن عرفطة، وخرج لخمس ليال بقين من ربيع الأول في ألف من المسلمين، وكان يسير الليل ويكمن النهار، ودليله يقال له مذكور، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم وأصاب من أصاب وهرب من هرب، وتفرق أهل دومة الجندل، ولم يجد بساحتهم أحداً، وأخذ منهم رجلاً فسأله عنهم، فقال: هربوا حين سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه الإسلام فأسلم ورجع رسول الله لعشر ليال بقين من ربيع الأخر، ولم يلق كيداً.

وفي هذه السنة: وادع رسول الله عيينة بن حصن، وذلك أن بلاد عيينة أجدبت فوادع رسول الله على أن يرعى في أماكن معلومة.

وفي جمادى الآخرة من هذه السنة: بعث رسول الله إلى مشركي قريش بمال، وكان قد بلغه أن سنة شديدة قد أصابتهم.

وفي هذه السنة وفد على رسول الله وفد سعد بن بكر.

عن عبد الله بن عباس، قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله فقدم عليه وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد، ورسول الله جالس في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فلما عرفه، قال: إني سائلك ومغلظ في المسألة فلا تجدن في نفسك. قال: **لا أجد في نفسي، فسل عن ما بدا لك**ـــ قال: أنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا تعبد من دون الله، قال: **اللهم نعم**ـــ، قال: وأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس، قال: **اللهم نعم**ـــ، قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة، كما يناشد في التي قبلها، حتى إذا فرغ، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، واجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعاً إلى بعيره، فقال رسول الله حين ولى: **إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**ـــ. قال: فأتى إلى بعيره وأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله ما يضران ولا ينفعان، فإن الله تعالى قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول ابن عباس رحمة الله عليهما: ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة.

* * *

وفي هذه السنة وفد وفد مزينة:

أخبر كثير بن عبد الله المزني، عن أبيه، عن جده، قال: كان أول من وفد على رسول الله من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله الهجرة في دارهم، وقال: **أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم**ـــ، فرجعوا إلى بلادهم.

وروى ابن سعد، عن أشياخه أنه كان فيهم خزاعي بن عبد نهم، وأنه بايع رسول الله على قومه من مزينة، فلما مضى إليهم لم يجدهم كما ظن، فأقام ثم أنهم أسلموا، ودفع رسول الله لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعي، وكانوا ألف رجل وهو أخو المغفل بن عبد الله بن المغفل، وأخو عبد الله ذي البجادين.

غزوة المريسيع:

وفي هذه السنة كانت غزوة المريسيع في شعبان، وذلك أن بني المصطلق كانوا ينزلون على بئر لهم يقال لها: المريسيع، وكان سيدهم الحارث بن أبي ضرار، فسار في قومه ومن قدر عليه فدعاهم إلى حرب رسول الله فأجابوه، وتهيؤوا للمسير معه، فبلغ ذلك رسول الله فبعث بريدة بن الحصيب ليعلم علم ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله فأخبره، فندب رسول الله الناس إليهم فأسرعوا الخروج ومعهم ثلاثون فرساً، وخرج معهم جماعة من المنافقين، واستخلف رسول الله على المدينة، زيد بن حارثة، وخرج يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان، وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ، وأنه قد قتل عينه الذي كان يأتيه بخبر رسول الله فسيء بذلك فخاف وتفرق من معه من العرب، وانتهى رسول الله إلى المريسيع، فضرب عليه قبته ومعه عائشة وأم سلمة، فتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله أصحابه، فحملوا حملة رجل واحد، فقتل من العدو عشرة وأسر الباقون، وسبى رسول الله الرجال والنساء والذرية والنعم والشاء، فكانت الإبل ألفي بعير، والشاء خمسة آلاف، والسبي مائتي أهل بيت، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد.

ولما رجع المسلمون بالسبي قدم أهاليهم فافتدوهم، وجعلت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس وابن عم له فكاتباها، فسألت رسول الله في كتابتها فأدى عنها وتزوجها وسماها برة، قيل: إنه جعل صداقها عتق أربعين من قومها.

وبعث رسول الله أبا نضلة الطائي بشيراً إلى المدينة بفتح المريسيع.

عن عائشة قالت: أصاب رسول الله في بني المصطلق، فأخرج الخمس منه، ثم قسمه بين الناس، فأعطى الفرس سهمين والرجل سهماً، فوقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس، وكاتبها ثابت بن قبس على تسع أواق، وكانت امرأة حلوة لا يكاد أحد يراها إلا أخذت بنفسه، فبينا النبي عندي إذ دخلت عليه جويرية، فسألته في كتابتها فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فكرهت دخولها على النبي وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من الأمر ما قد علمت، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبني على تسع أواق فأعني في فكاكي، فقال: أو خير من ذلك

قالت: ما هو يا رسول الله، قال: **أودي عنك كتابتك وأتزوجك—** قالت: نعم يا رسول الله. قال: **قد فعلت—** وخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أصهار رسول الله يسترقون، فأعتقوا ما كان في أيديهم من نساء المصطلق، فبلغ عتقهم إلى مائة بيت بتزويجه إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

* * *

وفي هذه الغزاة كان حديث الإفك.

عن حديث عائشة ♥ زوج النبي حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله عز وجل، وكلهم حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، ذكروا: أن عائشة زوج النبي ، قالت: كان رسول الله إذا أراد أن يخرج سفراً، أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه.

قالت عائشة فأقرع بيننا في غزاة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ، وذلك بعد أن نزل الحجاب، وأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله من غزوته وقفل ودنونا من المدينة آذن بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شاني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون إني فيه.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن المحلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثه السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت بها منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي فوالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه

حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمت المدينة، فاشتكيت حين قدمنا شهراً والناس يفيضون في قول الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله اللطف الذي كنت أعرف منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله فيسلم فيقول: كيف تيكم، فذاك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو مبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت تسبين رجلاً قد شهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ، ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلها، فأذن لي رسول الله .

فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أماه ما يتحدث الناس، فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: قلت: سبحان الله، أو قد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي ليستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم من نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك، ولا نعلم إلا خيراً وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عز وجل عليك والنساء سواها كثير، وأن تسأل الجارية تصدقك.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكنه احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: لعمرك لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لتقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتبسم رسول الله حين جلس، ثم قال: **أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه**ــــ.

قالت: فلما قضى رسول الله مقالته، فاض دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ، فقال: والله ما أدري ما أقول يا رسول الله ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ، فقالت: والله ما أدري ما أقول يا رسول الله قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، وإني والله قد عرفت إنكم قد سمعتم هذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم، ولئن قلت لكم إني بريئة والله عز وجل يعلم أني بريئة، فلا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة فلا تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: **صبر جميل والله المستعان على ما تصفون**ــــ.

قال: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله عز وجل مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله عز وجل بها، قالت: فوالله ما رأم رسول الله مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سري عن رسول الله وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: **أبشري يا عائشة، أما والله عز وجل فقد برأك**ــــ فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل:{إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ} [النور: ١١] عشر آيات، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات براءتي.

فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل:{وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ} [النور: ٢٢]، إلى قوله:{أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله عز وجل لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ومال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة ♥: وكان رسول الله سأل زينب بنت جحش عن أمري، وما علمت أو ما رأيت أو ما سمعت أو ما بلغك، قالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ، فعصمها الله عز وجل بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلكت.

قال ابن شهاب: وهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط، أخرجاه في الصحيحين.

وغاب رسول الله في هذه الغزاة ثمانية عشر يوماً، وقدم لهلال رمضان

* * *

زواجه زينب بنت جحش:

وفي هذه السنة: تزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب، أمها أميمة بنت عبد المطلب، وكانت فيمن هاجر مع رسول الله ، وكانت امرأة جميلة، فخطبها رسول الله لزيد، فقالت: لا أرضاه لنفسي، قال: **فإني قد رضيته لك**ـــ فتزوجها زيد بن حارثة، ثم تزوجها رسول الله لهلال ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وهي يومئذ بنت خمس وثلاثين سنة.

عن محمد بن يحيى بن حيان، قال: جاء رسول الله بيت زيد بن حارثة يطلبه، وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد، فربما فقده رسول الله الساعة، فيقول: **أين زيد؟**ـــ فجاء منزله يطلبه فلم يجده، وتقوم إليه زوجته زينب بنت جحش، فضل، فأعرض رسول الله عنها، فقالت: يا رسول الله ليس هو ها هنا فادخل بأبي أنت وأمي، فأبى رسول الله أن يدخل، وإنما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها رسول الله بالباب، فوثبت عجلى، فأعجبت رسول الله فولى وهو يهمهم بشيء، لا يكاد يفهم منه إلا ربما أعلن منه: **سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب**ـــ، فجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت عليه ذلك فأبى، قال: فسمعت منه شيئاً؟ قالت: سمعته حين ولى تكلم بكلام لا أفهمه وسمعته يقول: **سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب**ـــ.

فجاء زيد إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، بلغني أنك جئت منزلي فهلا دخلت؟ بأبي أنت وأمي لعل زينب أعجبتك فأفارقها؟ فيقول رسول الله : **أمسك عليك زوجك**، فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم فيأتي إلى رسول الله فيخبره، فيقول رسول الله : **أمسك عليك زوجك**، فيقول: يا رسول الله أفارقها. فيقول: **أحبس عليك زوجك**، ففارقها زيد واعتزلها وحلت.

فبينا رسول الله يتحدث مع عائشة أخذته غشية فسري عنه وهو يبتسم ويقول: **من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله عز وجل قد زوجنيها من السماء؟** وتلا رسول الله:{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ } [الأحزاب: ٣٧]. القصة كلها، قالت عائشة: وأخذني ما قرب وما بعد لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ما صنع الله لها زوجها الله من السماء وقالت: هي تفخر علينا بهذا، قالت عائشة: فخرجت سلمى خادم رسول الله تشتد، فحدثتها بذلك أعطتها أوضاحاً عليها.

وفي أفراد مسلم من حديث ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله لزيد: **اذهب فاذكرها علي**، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب، أرسلني إليك رسول الله يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ، فدخل عليها بلا إذن فلقد رأيتنا أطعمنا رسول الله الخبز واللحم حتى امتد النهار.

وفي سبب زينب نزلت آية الحجاب أخبرنا عبد الأول، قال: أخبر أنس بن مالك. أنه كان ابن عشر سنين يخدم رسول الله ، وكن أمهاتي يواطئنني على خدمة رسول الله ، فخدمته عشر سنين، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله بزينب بنت جحش، أصبح رسول الله بها عريساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي فأطالوا المكث، فقام النبي ، فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن أنهم خرجوا، فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل على زينب إذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ورجعت معه، فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي بيني وبينه الستر، وأنزل الحجاب.

أخرجاه في الصحيحين.

وفي هذه السنة كانت غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب.

قال مؤلف الكتاب: كانت في ذي القعدة، وذلك أن رسول الله لما أجلى بني النضير ساروا إلى خيبر، فخرج نفر من أشرافهم ووجوههم إلى مكة، فالتقوا قريشاً ودعوهم إلى الخروج، واجتمعوا معهم على قتاله، وواعدوهم لذلك موعداً، ثم خرجوا من عندهم فأتوا غطفان وسليم ففارقوهم على مثل ذلك، وتجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب، فكانوا أربعة آلاف، وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة بعير، وخرجوا يقودهم أبو سفيان ووافتهم بنو سليم بمر الظهران، وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس، وخرجت معهم بنو أسد يقودهم طلحة بن خويلد وخرجت فزارة وهم ألف، يقودهم عقبة بن حصين، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة، وخرجت بنو مرة، وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف.

وكان جميع من وافوا الخندق ممن ذكر من القبائل عشرة آلاف، وهم الأحزاب، وكانوا ثلاثة عساكر، والجملة بيد أبي سفيان فلما بلغ رسول الله فصولهم من مكة، ندب الناس، وأخبرهم خبرهم وشاورهم، فأشار سلمان الفارسي بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين وعسكر بهم رسول الله إلى سفح سلع، وجعل سلعاً خلف ظهره، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم. ثم خندق على المدينة، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم عدوهم، وعمل رسول الله معهم بيده لينشطرا، ففرغوا منه في ستة أيام.

عن ميمون، قال: حدثني البراء بن عازب، قال: لما كان حين أمرنا رسول الله بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكينا ذلك إلى رسول الله ، فجاء رسول الله فلما رآها ألقى ثوبه وأخذ المعول وقال: **بسم الله**، ثم ضرب ضربة، فكسر ثلثها، وقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض**، ثم ضرب الثالثة، وقال: **بسم الله** فقطع بقية الحجر، وقال: **الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة**.

قال علماء السير: وخرج رسول الله يوم الاثنين لثماني ليال مضين من ذي القعدة، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة، ودس أبو سفيان بن حرب حيي بن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ويكونوا معهم عليه، فامتنعوا ثم أجابوا، وبلغ ذلك رسول الله، قال: **حسبنا الله ونعم الوكيل**، وفشل الناس وعظم البلاء واشتد الخوف وخيف على الذراري والنساء، وكانوا كما قال الله تعالى:{إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ} [الأحزاب: ١٠].

وبعث رسول الله إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه، وكتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، وإنما كانت مراوضة ومراجعة، فبعث رسول الله إلى سعد بن معاذ، وابن عبادة فأخبرهما بذلك فقالا: هذا شيء تحبه أو شيء أمرك الله به؟، قال: لا بل أصنعه لأجلكم، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فقالا: قد كنا نحن وهم على الشرك، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة، فحين أذن الله بالإسلام نفعل هذا ما لنا إلى هذا حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا قال: **فأنتم وذاك**، فتناول سعد الصحيفة التي كتبوها فمحاها، وقال: ليجهدوا علينا، وأقام رسول الله والمسلمين وجاه العدو لا يزولون غير أنهم يعتقبون خندقهم ويحرسونه، وكان رسول الله يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، وكانوا يخافون على الذراري من بني قريظة وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله مع عشرة من الأنصار يحرسونه كل ليلة، فكان المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار ابن الخطاب يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله ويقدمون رماتهم فيرمون فرمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ بسهم، فأصاب أكحله، فقال: خذها وأنا ابن العرقة فقال رسول الله : **عرق الله وجهك في النار**، ويقال: الذي رماه أبو أسامة الجشمي.

عن عائشة، قالت: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض من ورائي يعني حس الأرض - فالتفت فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل رمحه، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وهو يرتجز، قالت: وعليه درع قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أطول الناس وأعظمهم قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تسبغة له تعني المغفر - قالت فقال لي عمر: ما جاء بك؟ والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون تحوز أو بلاء؟ قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت ساعتئذ فدخلت فيها، قالت: فرفع الرجل التسبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: ويحك يا عمر إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز وأين الفرار إلا إلى الله؟ قالت: ويرمي سعداً رجل من المشركين من قريش يقال له ابن العرقة بسهم، فقال: خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحله، فدعا الله عز وجل سعد، فقال: اللهم لا تمتني حتى تشفيني من قريظ - وكانوا مواليه وحلفاءه في الجاهلية - قالت: فرقأ كلمه وبعث الله تعالى الريح على المشركين،{وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } [الأحزاب: ٢٥].

قال مؤلف الكتاب: العرقة أم حبان بن عبد مناف بن منقد بن عمر وسميت العرقة لطيب ريحها.

قال علماء السير: لما حام الأحزاب حول الخندق أياماً أجمع رؤساؤهم أن يغدوا يوماً، فغدوا جميعاً، وطلبوا مضيقاً من الخندق يقحمون فيه خيلهم فلم يجدوا، فقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها، فقيل لهم: إن معه رجلاً فارسياً فهو أشار عليه بذلك فصاروا إلى مكان ضيق فعبر عكرمة ونوفل وضرار وهبيرة، وعمرو بن عبد ود، فجعل عمرو يدعو إلى البراز، وهو ابن تسعين سنة، فقال علي ☺: أنا أبارزه، فأعطاه النبي سيفه وعممه، وقال: **اللهم أعنه عليه**، فضربه علي فقتله، وولى أصحابه هاربين، وحمل الزبير على نوفل فقتله.

أخبر الزبير بن بكار، قال: عمرو بن عبد ود، وضرار بن الخطاب، وعكرمة ابن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة هم الذين طفروا الخندق يوم الأحزاب، قال مؤلف الكتاب: المزاد، موضع من الخندق فيه حفر، ويليل، واد قريب من بدر.

ولما جزع عمرو بن عبد المزاد دعى البراز، فبرز له علي بن أبي طالب:

ثم دعاه أن يبارزه، فقال له علي: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لقريش لا يدعوك رجل إلى خلتين إلا أخذت إحداهما، قال عمرو: نعم، قال علي ☺: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، فقال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى مبارزة. قال: يا ابن أخي، والله ما أحب أن أقتلك، فقال له علي: لكني والله أنا أحب أن أقتلك فحمي عمرو واقتحم عن فرسه وعرقبه، ثم أقبل فتناورا وتجاولا وثارت عليهما غبرة سترتهما عن المسلمين، فلم يرع المسلمين إلا التكبير، فعرفوا أن علياً ☺ قتله، فانجلت الغبرة وعلي على صدره يذبحه.

قال علماء السير: لما قتل عمرو رثته أمه:

ثم تواعدا أن يأتوا من الغد، فباتوا يعبئون أصحابهم ونحوا إلى رسول الله كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل ما يقدرون أن يزولوا عن مكانهم، ولا صلى رسول الله يومئذ ظهراً ولا عصراً حتى كشفهم الله عز وجل، فرجعوا منهزمين، فلم يكن لهم بعد ذلك قتال - يعني انصرفوا - إلا أنهم لا يدعون الطلائع بالليل يطمعون في الغارة، فمال النبي في ذلك اليوم الذي فاتته الصلاة فيه: **شغلونا عن الصلاه الوسطى**.

عن علي قال: قال رسول الله يوم الأحزاب: **شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة، العصر، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً**، ثم صلاها بين العشاءين، المغرب والعشاء. أخرجاه في الصحيحين.

وحصر رسول الله وأصحابه بضع عشرة ليلة، وقيل: أربعا وعشرين ليلة حتى خلص إلى كل أمر منهم الكرب. ودعى رسول الله في مسجد الأحزاب. ويروى في مسجد الفتح.

حدث جابر: أن النبي دعا في مسجد الفتح ثلاثاً: يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرف البشر في وجهه. قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة، فأدعو فيها فأعرف الإجابة.

قالوا: وكان نعم بن مسعود الأشجعي قد أسلم وحسن إسلامه، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان فخذل بينهم.

قال نعيم بن مسعود: لما سارت الأحزاب إلى رسول الله سرت مع قومي وأنا على ديني، فقذف الله في قلبي الإسلام، فكتمت ذلك قومي، وأخرج حتى آتي رسول الله بين المغرب والعشاء فأجده يصلي، فلما رآني جلس، وقال: **ما جاء بك يا نعيم ؟**ـــ وكان بي عارفاً، قلت: إني جئت أصدقك، وأشهد أن ما جئت به حق، فمرني بما شئت، قال: أما استطعت أن تخذل عنا الناس فخذل قلت: أفعل، ولكن يا رسول الله أقول، قال: **قل ما بدا لك فأنت في حل**ـــ قال: فذهبت إلى قريظة، فقلت: اكتموا علي، قالوا: نفعل، فقلت: إن قريشاً وغطفان على الانصراف عن محمد إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا إلى بلادهم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناء، قالوا: أشرت علينا والنصح لنا، ثم خرجت إلى أبي سفيان بن حرب، فقلت قد جئتك بنصيحة فاكتم علي، قال: أفعل، قلت: تعلم أن قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وأرادوا إصلاحه ومراجعته، فأرسلوا إليه وأنا عندهم إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلاً من أشرافهم نسلمهم إليك، تضرب أعناقهم ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم - يعني بني النضير - فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً واحذروهم، ثم أتى غطفان، فقال لهم مثل ذلك، وكان رجلاً منهم فصدقوه، وأرسلت قريظة إلى قريش: إنا والله ما نخرج فنقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً منكم يكونون عندنا، فإنا نتخوف أن تنكشفوا وتدعونا ومحمداً، فقال أبو سفيان: صدق نعيم. وأرسلوا إلى غطفان بمثل ما أرسلوا إلى قريش، فقالوا لهم مثل ذلك، وقالوا جميعاً: إنا والله ما نعطيكم رهناً ولكن أخرجوا فقاتلوا معنا. فقالت اليهود: نحلف بالتوراة أن الخبر الذي قال نعيم لحق، وجعلت قريش وغطفان يقولون: الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء، وهؤلاء من نصر هؤلاء. واختلف أمرهم وتفرقوا في كل وجه، وكان نعيم يقول: أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه، وأنا أمين رسول الله على سره.

قال علماء السير: فلما استوحش كل فريق من صاحبه، اعتلت قريظة بالسبت، فقالوا: لا نقاتل، وهبت ليلة السبت ريح شديدة، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله لستم بدار مقام، لقد هلك الخف والحافر، وأجدب الجناب وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، فأصبح رسول الله وليس بحضرته أحد من العساكر قد انقشعوا، فبعث رسول الله حذيفة لينظر ما فعل القوم.

فروى مسلم في أفراده من حديث إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، عن أبيه، قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك، لقد رأيتنا مع رسول الله ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله **ألا رجل يأتينا نجبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**ـــ فسكتنا فلم يجبه أحد، ثم قال: **ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة**ـــ فسكتنا ولم يقم قائم، فقال: **قم يا حذيفة**ـــ فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي إلا أن أقوم، قال: **اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي**ـــ، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهمي في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله : **لا تذعرهم علي**ـــ فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته أخبرته خبر القوم وفرعت وقررت، فألبسني رسول الله من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، قال : **قم يا نومان**ـــ.

وقد رواه ابن إسحاق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله صحبتموه، قال: نعم يا ابن أخي، قال: كيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، فقال الفتى: والله لو أدركناه ماتركناه يمشي على وجه الأرض ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي؟ والله لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق يصلي هوياً من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: **من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع**ـــ وشرط له انه إذا رجع أدخله الله الجنة، فما قام رجل، ثم صلى رسول الله هوياً من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثل ذلك، ثم قال: **أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة**ـــ. فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله فلم يكن لي بد من القيام، فقال: **يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون**ـــ. فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله، تفعل بهم ما تفعل فلا تترك قدراً ولا ناراً، ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ جليسه، فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان ابن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم، والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. فرجعت، فأخبرت النبي . قال ابن إسحاق: لم يقتل يوم الخندق من المسلمين إلا ستة نفر، وقتل من المشركين ثلاثة.

* * *

ومن الحوادث في هذه السنة كانت غزاة بني قريظة.

وذلك في ذي القعدة، وذلك أن رسول الله لما انصرف من الخندق جاءه جبريل عليه السلام فقال: **إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل حصونهم**ـــ.

عن عائشة ♥: أن رسول الله لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل فجاءه جبريل، فقال: أوقد وضعتم السلاح ما وضعنا أسلحتنا بعد انهض إلى بني قريظة، قالت عائشة: كأني أنظر إلى جبريل من خلال الباب قد عصب رأسه من الغبار.

عن عائشة، قالت: لما رجع رسول الله يوم الخندق، فبينا هو عندي إذ دق الباب فارتاع رسول الله ، ووثب وثبة منكرة، وخرج النبي ، فخرجت في أثره فإذا رجل على دابة والنبي متكئ على معرفة الدابة يكلمه، فرجعت فلما دخل النبي قلت: من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: ورأيته؟ قلت: نعم، قال: **ومن تشبهينه؟**ـــ قلت: بدحية بن خليفة الكلبي، قال: ذاك جبريل عليه السلام، أمرني أن أمضي إلى بني قريظة.

قال علماء السير: فدعا رسول الله علياً ☺، فدفع إليه لواءه، وبعث بلالاً فنادى في الناس: إن رسول الله يأمركم أن لا تصلوا العصر إلا في بني قريظة، واستخلف رسول الله على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ثم سار في ثلاثة آلاف، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً، وذلك في يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، فحاصرهم خمسة عشر. يوماً، وقيل: خمساً وعشرين ليلة أشد الحصار ورموا بالنبل والحجر، فلم يطلع منهم أحد.

فلما اشتد الحصار عليهم أرسلوا إلى رسول الله : أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأرسله إليهم فشاوروه في أمرهم، فأشار إليهم بيده أنه الذبح، ثم ندم فاسترجع فقال: خنت الله ورسوله، فانصرف فارتبط في المسجد ولم يأت رسول الله حتى أنزل الله توبته، ثم نزلوا على حكم رسول الله فأمر بهم رسول الله محمد بن مسلمة فكتفوا ونحوا ناحية. وأخرج النساء والذرية فكانوا ناحية، وجمع أمتعتهم فكانوا ألفاً، وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وألفاً وخمسمائة ترس وحجفة، وجمالاً كانت نواضح وماشية كثيرة. وكان لهم خمر فأريق، وكلمت الأوس رسول الله أن يهبهم لهم، وكانوا حلفاءهم فجعل رسول الله الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فحكم فيهم أن يقتل كل من جرت عليه الموسى وتسبى النساء والذراري، وتقسم الأموال. فقال رسول الله : **لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات**ـــ.

ونزل ثعلبة وأسيد ابنا شعبة، وأسد بن عبيد ابن عمهم، فقالوا: إنكم لتعلمون أنه نبي، وان صفته عندنا فأسلموا، فدفع إليهم رسول الله أهليهم وأموالهم. وانصرف رسول الله يوم الخميس لتسع خلون من ذي الحجة، وأمر بهم فأدخلوا المدينة، وحفر لهم أخدوداً في السوق وجعل رسول الله معه أصحابه، وأخرجوا إليه فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة، واصطفى رسول الله ريحانة بنت عمرو لنفسه، فأسلمت وبقيت في ماله حتى توفي عنها، وأمر بالغنائم فجمعت فأخرج الخمس، وأمر بالباقي فبيع فيمن يزيد، وقسمه بين المسلمين وكانت السهمان على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً، للفرس سهمان ولصاحبه سهم. وفي هذه الغزاة: نهى رسول الله أن يفرق بين الأم وولدها.

* * *

سنة ست من الهجرة:

فمما حدث فيها سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء:

بعثه رسول الله لعشر خلون من المحرم سنة ست في ثلاثين راكباً إلى القرطاء، وهم بطن من بني بكر بن كلاب، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار وأغار عليهم فقتل نفراً منهم وأخذ ثمامة بن أثال الحنفي وهرب سائرهم واستاق نعماً وشاء ولم يعرضن للظعن، وانحدر إلى المدينة، فخمس رسول الله جاء به وفض على أصحابه ما بقي، وكانت النعم مائة وخمسين بعيراً، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وغاب تسع عشرة ليلة، وقدم لليلة بقيت من المحرم.

* * *

ثم كانت غزاة بني لحيان:

وكانوا بناحية عسفان في ربيع الأول سنة ست، وذلك أن رسول الله وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً - وكانوا قتلوا في غزاة الرجيع - فأظهر أنه يريد الشام، وعسكر لغرة هلال ربيع الأول في مائتي رجل، ومعهم عشرون رجلاً، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - وبينها وبين عسفان خمسة أميال - حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم، فسمعت بهم بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدروا منهم على أحد، ثم خرج حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعرهم، فأتوا الغميم

ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً، ثم انصرف إلى المدينة، وغاب أربع عشرة ليلة، وقال في رجوعه: آيبون تائبون لربنا حامدون فكان أول من قالها.

وفي هذه الغزوة جاز على قبر أمه . عن ابن بريدة، عن أبيه قال: كنت مع النبي إذ وقف على عسفان، فنظر يميناً وشمالاً فأبصر قبر أمه آمنة فورد الماء، فتوضأ ثم صلى ركعتين فلم يفاجئنا إلا ببكائه، فبكينا لبكاء رسول الله ثم انصرف إلينا فقال: **ما الذي أبكاكم؟ـ** قالوا: بكيت فبكينا يا رسول الله وقال: **وما ظننتم؟ـ** قالوا: ظننا أن العذاب نازل علينا، قال: **لم يكن من ذلك شيءـ**، قالوا: فظننا أن أمتك كلفوا من الأعمال ما لا يطيقون، قال: **لم يكن من ذلك شيء ولكني مررت بقبر أمي، فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين، واستأذنت ربي أن أستغفر لها، فزجرت زجراً، فعلا بكائيـ** ثم دعى براحلته فركبها فما سارت إلا هينة حتى قامت الناقة بثقل الوحي، فأنزل الله:{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسۡتَغۡفِرُوا۟ لِلۡمُشۡرِكِينَ} [التوبة: ١١٣] إلى آخر الآيتين، فقال النبي : **أشهدكم أني بريء من آمنة كما تبرأ إبراهيم من أبيهـ.**

* * *

ثم كانت غزوة الغابة:

وهي على بريد من المدينة على طريق الشام في ربيع الأول.

قالوا: كانت لقاح رسول الله - وهي، عشرون لقحة - ترعى بالغابة وكان أبو ذر فيها، فأغار عليها عيينة بن حصن ليلة الأربعاء في أربعين فارساً، فاستاقوها وقتلوا راعيها، وجاء الصريخ فنادى: الفزع الفزع، فنودي: يا خيل الله اركبي، فكان أول ما نودي بها، وركب رسول الله . فخرج غداة الأربعاء في الحديد مقنعاً، فوقف، فكان أول من أقبل إليه المقداد بن عمرو، وعليه الدرع واليه كفر، شاهراً سيفه، فعقد له رسول الله لواء في رمحه، وقال: **امض حتى تلحقك الخيول، إنا على أثركـ**، واستخلف رسول الله على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة.

قال المقداد: فخرجت فأدركت أخريات العدو وقد قتل أبو قتادة مسعدة، فأعطاه رسول الله فرسه وسلاحه، وقتل عكاشة بن محصن أثار بن عمرو بن أثار، وقتل المقداد بن عمرو: حبيب بن عيينة بن حصن، وقرفة بن مالك بن حذيفة بن بدر.

وقتل من المسلمين محرز بن نضلة، قتله مسعدة. وأدرك سلمة بن الأكوع القوم وهو على رجليه، فجعل يراميهم بالنبل، حتى انتهى بهم إلى ذي قرد ناحية خيبر مما يلي المستناخ.

قال سلمة: فلحقنا رسول الله والناس والخيول عشاء، فقلت: يا رسول الله، إن القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح وأخذت بأعناق القوم، فقال النبي : **ملكت فأسجح**، ثم قال: **إنهم الآن ليقرون في غطفان**. وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف، فجاءت الأمداد، فلم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله بذي قرد، فاستنقذوا عشر لقائح، وأفلت القوم بما بقي وهي عشر، وصلى رسول الله بذي قرد صلاة الخوف، وأقام به يوماً وليلة يتحسس الخبر، وقسم في كل من أصحابه جزوراً ينحرونها - وكانوا خمسمائة، ويقال سبعمائة - وبعث إليه سعد بن عبادة بأحمال تمر وبعشر جزائر، فوافت رسول الله بذي قرد، والثبت عندنا أن رسول الله أمر على هذه السرية سعد بن زيد الأشهلي، ولكن الناس نسبوها إلى المقداد لقول حسان بن ثابت: غداة فوارس المقداد فعاتبه سعد بن زيد، فقال: اضطرني الروي إلى المقداد.

ورجع رسول الله إلى المدينة يوم الاثنين، وقد غاب خمس ليال.

* * *

ثم كانت سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغمر غمر مرزوق.

وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد طريق الأول إلى المدينة وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجرة رسول الله .

قال ابن سعد: وجه رسول الله عكاشة بن محصن إلى الغمر في أربعين رجلاً، فخرج سريعاً يغذ السير، ونذر به القوم فهربوا فنزلوا علياء بلادهم ووجدوا دارهم خالية، فبعث شجاع بن وهب طليعة فرأى أثر النعم فتحملوا فأصابوا ربيئة لهم، فأمنوه فدلهم على نعم لبني عم له، فأغاروا عليها فاستاقوا مائتي بعير، فأرسلوا الرجل وحدروا النعم إلى المدينة. وقدموا على رسول الله ، ولم يلقوا كيداً.

* * *

ثم كانت سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة

في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله .

قال ابن سعد: بعث رسول الله ومحمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة، وبني عوال من ثعلبة - وهم بذي القصة وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً طريق الربذة - في عشرة نفر، فوردوا عليهم ليلاً فأحدق به القوم، وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم، فوقع محمد بن مسلمة جريحاً فضرب كعبه فلا يتحرك، وجردوهم من الثياب. ومر بمحمد بن مسلمة رجل من المسلمين فحمله حتى ورد به المدينة، فبعث رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارعهم فلم يجدوا أحداً ووجدوا نعماً وشاء فساقه ورجع.

* * *

ثم كانت سرية أبي عبيدة إلى ذي القصة أيضا

في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر النبي .

قالوا: أجدبت بلاد بني ثعلبة وأنمار، ووقعت سحابة بالمراض إلى تغلمين - والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة - فسارت بنو محاربة وثعلبة وأنمار إلى تلك السحاب، وأجمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى بهيفا - موضع على سبعة أميال من المدينة فبعث رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً من المسلمين حين صلوا المغرب، فمشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح، فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه، وأخذ نعماً من نعمهم، فاستاقه ورثة من متاعهم، وقدم بذلك المدينة فخمسه رسول الله وقسم ما بقي عليهم.

* * *

ثم كانت سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم

في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله .

قال ابن سعد: بعث رسول الله زيد بن حارثة إلى بني سليم فسار حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل عن يسارها - وبطن نخل من المدينة على أربعة برد - فأصابوا عليه امرأة من مزينة، يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا في تلك المحلة نعماً وشاء وأسرى. وكان فيهم زوج حليمة المزنية، فلما قفل زيد بن حارثة، بما أصاب وهب رسول الله للمرأة نفسها وزوجها.

ثم كانت سرية زيد بن حارثة أيضا إلى العيص.

وبينها وبين المدينة أربع ليال في جمادى الأولى سنة ست من مهاجر رسول الله .

قال ابن سعد: لما بلغ، رسول الله أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكباً يتعرض لها، فأخذوها وما فيها، وأخذوا يومئذ فضة كثيرة وكانت لصفوان بن أمية، وأسروا ناساً ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم إلى المدينة، فاستجار أبو العاص بن الربيع بزينب بنت رسول الله ، فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله الفجر: إني أجرت أبا العاص، فقال رسول الله : **وما علمت بشيء من هذا وقد أجرنا من أجرت**، ورد عليه ما أخذ منه.

ثم كانت سرية زيد بن حارثة أيضا إلى الطرف.

في جمادى الآخرة سنة ست من مهاجر رسول الله .

روى ابن سعد أن رسول الله بعث زيد بن حارثة إلى الطرف - وهو ماء قريب من المراض دون النخيل على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة طريق النقرة على المحجة، فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاء، وهربت الأعراب، وصبح زيد بالنعم المدينة، وهي عشرون بعيراً، ولم يلق كيداً، وغاب أربع ليال، وكان شعارهم: " أمت أمت ".

ثم كانت سرية زيد بن حارثة أيضا في هذا الشهر إلى حسمى.

وهي وراء وادي القرى في جمادى الآخرة سنة ست من مهاجر رسول الله .

ذكر ابن سعد أن دحية بن خليفة الكلبي أقبل من عند قيصر وقد أجازه وكساه، فلقيه الهنيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد، في ناس من جذام بحسمى، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه، وقدم دحية على النبي ، فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل، ورد معه دحية، وكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل له من بني عذرة، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم، فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف شاة، ومن السبي مائة من النساء والصبيان.

فرحل زيد بن رفاعة الجذامي في نفر من قومه إلى رسول الله ، فدفع إلى رسول الله كتابه الذي كتب له ولقومه ليالي قدم عليه فأسلم، وقال: يا رسول الله، لا تحرم علينا حلالاً ولا تحل لنا حراماً، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول من كان حياً ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين، فقال رسول الله : **صدق أبو يزيد**، فبعث معهم علياً ☺ إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فتوجه علي ☺ فلقي رافع بن مكيث الجهني بشير زيد بن حارثة على ناقة من إبل القوم، فردها علي على القوم، ولقي زيداً بالفحلتين، وهي بين المدينة، وذي المروة، فأبلغه أمر رسول الله ، فردوا إلى الناس كل ما كان أخذ منهم.

* * *

ثم كانت سرية زيد بن الحارث أيضا إلى وادي القرى في رجب سنة ست من مهاجر رسول الله:

ذكر ابن سعد أن النبيبعث زيداً أميراً سنة ست

* * *

ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله:

ذكر ابن سعد أن النبي دعا عبد الرحمن بن عوف، فأقعده بين يديه وعممه بيده، وقال: **اغز بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً** وبعثه إلى كلب بدومة الجندل، فقال: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم. فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبغ، فقدم بها إلى المدينة، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن.

* * *

ثم كانت سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله.

ذكر ابن سعد أن النبي بلغه أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فبعث إليهم علياً ☺ في مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى الهمج - وهو ما بين خيبر وفدك، وبين فدث والمدينة ست ليال - فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم، فقال: أخبركم على أنكم تؤمنوني فآمنوه فدلهم فأغاروا عليهم فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن ورأسهم وبر بن عليم، فعزل علي ☺ صفي رسول الله لقوحاً تدعى الحفذة، ثم عزل الخمس وقسم سائر الغنائم على أصحابه، وقدم المدينة ولم يلق كيداً.

* * *

ثم كانت سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادي القرى.

على سبع ليال من المدينة في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله . ذكر ابن سعد، أن زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب رسول الله ، فلما كان دون وادي القرى لقيه قوم من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم. ثم استبل زيد وقدم على رسول الله ، فأخبره فبعثه رسول الله ، إليهم، فكمنوا النهار وساروا الليل أو نذرت بهم بنو بدر، ثم صبحهم زيد وأصحابه فكبروا وأحاطوا بالحاضر وأخذوا أم قرفة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر، وكان الذي أخذ الجارية مسلمة بن الأكوع، فوهبها لرسول الله فوهبها رسول الله بعد ذلك لحزن بن أبي وهب.

وعمد قيس بن المحسر إلى أم قرفة - وهي عجوز كبيرة - فقتلها قتلاً عنيفاً؛ ربط بين رجليها حبلاً ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما فذهبا فقطعاها. وقتل النعمان وعبيد الله ابني مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر. وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك، فقرع باب النبي ، فقام إليه عرياناً يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسايله فأخبره بما ظفره الله عز وجل به.

* * *

ثم كانت سرية عبد الله بن عتيك إلى أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري بخيبر في شهر رمضان سنة ست من مهاجر رسول الله :

ذكر ابن سعد أنه كان أبو رافع بن أبي الحقيق قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول الله ، فبعث النبي الله عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبا قتادة، والأسود بن خزاعى، ومسعود بن سنان. وأمرهم بقتله. فذهبوا إلى خيبر، فكمنوا، فلما هدأت الرجل جاؤوا إلى محله فصعدوا درجة له، فقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن باليهودية فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشار إليها بالسيف، فسكتت فدخلوا عليه فما عرفوه إلا ببياضه كأنه قبطية، فعلوه بأسيافهم.

قال ابن أنيس: وكنت رجلاً أعشى لا أبصر، فاتكأت بسيفي على بطنه حتى سمعت خسه في الفراش، وعرفت أنه قد قضي عليه، وجعل القوم يضربونه جميعاً، ثم نزلوا فصاحت امرأته فتصايح أهل الدار، واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر، وخرج الحارث أبو زينب في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران، فلم يروهم فرجعوا. ومكث القوم في مكانهم يومين حتى سكن الطلب، ثم خرجوا مقبلين إلى المدينة كلهم يدعي قتله، فقدموا على رسول الله فقال: **أفلحت الوجوه** فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، وأخبروه خبرهم فأخذ أسيافهم فنظر إليها فإذا أثر الطعام في ذباب سيف عبد الله بن أنيس، فقال عليه الصلاة والسلام: **هذا قتله**.

* * *

ثم كانت سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن زارم اليهودي بخيبر.

في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله .

قال ابن سعد: لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، أمرت يهود عليهم أسير ابن زارم، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ، وبلغ ذلك النبي ، فوجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سراً فسأل عن خبره وغرته، فأخبر بذلك، فقدم على رسول الله ، فأخبره بذلك، فندب رسول الله الناس، فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحه، فقدموا على أسير، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له، قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك؟

فقالوا: إن رسول الله بعثنا إليك لتخرخ إليه، فيستعملك على خيبر، ويحسن إليك، فطمع في ذلك، فخرج وخرج معه ثلاثون من يهود مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كنا بقرقرة ثبار ندم أسير، فقال عبد الله بن أنيس وكان في السرية: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنت له ودفعت بعيري وقلت: غدراً أي عدو الله أفعل ذلك مرتين فنزلت فسقت بالقوم حتى انفرد لي أسير، فضربته بالسيف فأندرت عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره وبيده مخرش من شوحط فضربني فشجني مأمومة، وملنا على أصحابه، فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شداً ولم يصب من المسلمين أحد ثم أقبلنا إلى رسول الله فحدثناه الحديث فقال: **قد نجاكم الله من القوم الظالمين**.

* * *

ثم كانت سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين في شوال.

قالوا: قدم نفر من عرينة ثمانية على رسول الله ، فأسلموا واستوبؤوا المدينة، فأمر بهم رسول الله إلى لقاحه وكانت على ستة أميال من المدينة، وكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا فاستاقوها وقتلوا الراعي وقطعوا يده ورجله، وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات، وبلغ رسول الله الخبر، فبعث في أثرهم عشرين فارساً، واستعمل عليهم كرزاً فأدركوهم، وأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم حتى قدموا بهم المدينة، وكان رسول الله بالغابة، فخرجوا بهم نحوه، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبوا هناك، وكانت اللقاح خمس عشرة لقحة فردوها إلا واحدة نحروها.

عن أنس، قال: أسلم ناس من عرينة، فاجتووا المدينة، فقال لهم رسول الله : **لو خرجتم إلى ذود لنا فشربتم من ألبانها**، قال حميد: وقال قتادة، عن أنس: **وأبوالها**، ففعلوا، فلما صحوا كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي رسول الله مؤمناً أو مسلماً، وساقوا ذود رسول الله وهربوا محاربين، فأرسل رسول الله في آثارهم فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا. أخرجاه في الصحيحين.

* * *

ثم كانت سرية عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم إلى أبي سفيان بمكة.

وكان سبب ذلك أن أبا سفيان قال لنفر من قريش: ألا رجل يغتال محمداً فإنه يمشي في الأسواق، فقال له رجل من العرب: إن قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ومعي خنجر مثل خافية النسر، فأعطاه بعيراً ونفقة، فخرج ليلاً، فسار على راحلته خمساً وصبح ظهر الحرة صبح سادسة، وأقبل يسأل عن رسول الله حتى دل عليه، فعقل راحلته، ثم أقبل إلى رسول الله وهو قاعد في مسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه رسول الله ، قال: **إن هذا ليريد غدراً**، فذهب ليجني على رسول الله فجذبه أسيد بن الحضير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر فسقط في يديه، وقال: دمي دمي، فأخذ أسيد بلبته فدعته فقال رسول الله : **أصدقني**، فأخبره الخبر وأسلم، فبعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري، وسلمة بن أسلم إلى أبي سفيان وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه، فدخلا مكة فمضى عمرو يطوف بمكة ليلاً فرآه معاوية فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه فطلبوه وكان فاتكاً في الجاهلية - فهرب هو وسلمة، فلقي عمرو بن عبيد الله بن مالك فقتله، وقتل آخر من بني الديل سمعه ولقي رسولين لقريش بعثتهما يتحسسان الخبر، فقتل أحدهما، وأسر الآخر فقدم به المدينة وجعل يخبر رسول الله خبره والنبي يضحك. هذا قول محمد ابن سعد، كاتب الواقدي.

وذكر ابن إسحاق عن أشياخه: إن هذا كان في سنة أربع، وأن عمرو بن أمية قال: بعثني رسول الله بعد قتل خبيب وأصحابه، وبعث معي رجلاً من الأنصار، فقال: ائتيا أبا سفيان فاقتلاه فخرجنا وليس مع صاحبي بعير، فلما وصلنا عقلت بعيري، وقلت لصاحبي إني أريد أن أقتل أبا سفيان فإن أصبت شيئاً فالحق ببعيري فاركبه والحق بالمدينة فأخبر رسول الله . فلما دخلنا مكة قال لي صاحبي: هل لك أن تطوف، فقلت: أنا أعلم بأهل مكة منك، فلم يزل بي حتى طفنا، فمررنا بمجلس فعرفني رجل منهم، فصاح بأعلى صوته: هذا عمرو بن أمية الضمري، فتبادر أهل مكة، قالوا: والله ما جاء عمرو لخير، فقاموا في طلبي، فقلت لصاحبي: النجاء، فهذا الذي كنت أخاف، وليس إلى الرجل سبيل فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى أصعدنا في الجبل، فدخلنا غاراً فبتنا فيه ليلتنا فأعجزناهم فرجعوا، فإذا عثمان بن مالك التميمي قد وقف بباب الغار، فخرجت إليه فوجأته بخنجر معي فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فأتوا إليه، ورجعت إلى مكاني، فجاؤوه وبه رمق، فقالوا: ويلك من قال: عمرو بن أمية، ثم مات ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا

فقالوا: والله لقد علمنا أنه ما جاء لخير، فاشتغلوا بصاحبهم، فأقمنا في الغار يومين، ثم خرجنا إلى التنعيم فإذا خشبة خبيب وحوله من يحرسه، فقلت للأنصاري: إن خشيت فخذ الطريق إلى جملي فاركبه، والحق برسول الله ، فأخبره الخبر واشتددت إلى خشبته فاحتللته واحتملته على ظهري، فوالله ما مشيت به إلا نحو ذراعين حتى نذروا بي فطرحته فما أنسى وجبته حين سقط فاشتدوا في أثري فأخذت طريق الصفراء، فرجعوا وانطلق صاحبي فركب بعيري ثم أتى رسول الله ، فأخبره الخبر، وأقبلت أمشي حتى أشرفت على ضجنان، فدخلت غاراً، فدخل علي رجل من بني الديل، فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني بكر، قال: وأنا من بني بكر، ثم اضطجع معي، ثم رفع عقيرته يتغنى، فقلت: سوف تعلم، فنام فقمت فقتلته شر قتلة، وخرجت فلقيت رجلين من قريش يتحسسان أمر رسول الله ، فقلت: استأسرا، فقالا: أنحن نستأسر لك، فرمت أحدهما بسهم فقتلته، ثم قلت للآخر: استأسر، فاستأسر فأوثقته، فقدمت به على رسول الله وقد شددت إبهامه بوتر قوسي، فنظر إلي رسول الله فضحك ودعا لي بخير.

* * *

وفي هذه السنة كانت غزوة الحديبية:

وذلك أن رسول الله خرج للعمرة في ذي القعدة سنة ست، فاستنفر رسول الله أصحابه للخروج معه، فأسرعوا وتهيؤوا، ودخل رسول الله بيته فاغتسل ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء، وخرج في يوم الاثنين لهلال ذي القعدة، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، ولم يخرج بسلاح إلا السيوف في القرب، وساق بدناً، وساق أصحابه أيضاً بدناً، فصلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بالبدن التي ساق فجللت ثم أشعرها في الشق الأيمن وقلدها وأشعر أصحابه أيضاً، وهي سبعون بدنة فيها جمل أبي جهل الذي غنمه يوم بدر ليغيظ المشركين. بذلك، وأحرم ولبى، وقدم عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فرساً من خيل المسلمين، وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار، وخرج معه من المسلمين ألف وستمائة، ويقال: ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً، وأخرج معه زوجته أم سلمة ♥، وبلغ المشركين خروجه فأجمعوا رأيهم على صده عن المسجد الحرام، وعسكروا ببلدح وقدموا مائتي فارس إلى كراع الغميم، وعليهم خالد بن الوليد، ويقال: عكرمة بن أبي جهل، ودخل بسر بن سفيان الخزاعي مكة فسمع كلامهم وعرف رأيهم، فرجع إلى النبي فلقيه بغدير الأشطاط من وراء عسفان فأخبره بذلك.

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ، فأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم في خيله فأقام بإزائه وصف أصحابه، وحانت صلاة الظهر، وصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، وسار حتى دنا من الحديبية - وهي طرف الحرم على تسعة أميال من مكة - فوقفت به راحلته على ثنية تهبط على غائط القوم فبركت. فقال المسلمون: حل حل، يزجرونها، فأبت، فقالوا: خلأت القصواء؛ فقال النبي : **ما خلأت، ولكن حبسها حابس الفيل، أما والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها**ـــ ثم زجرها، فقامت فولى راجعاً عوده على بدئه حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية قليل الماء، فانتزع سهماً من كنانته فغرزه فيها فجاشت لهم بالرواء حتى اغترفوا بآنيتهم جلوساً على شفير البئر.

ومطر رسول الله بالحديبية مراراً، وكثرت المياه. وجاءه بديل بن ورقاء وركب معه فسلموا وقالوا: جئناك من عند قومك: كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العوذ والمطافيل والنساء والصبيان يقسمون يخلون بينه وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم، فقال رسول الله : **لم نأت لقتال وإنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدنا عنه قتلناه**ـــ. فرجع بديل فأخبر بذلك قريشاً، فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي فكلمه رسول الله بنحو ذلك، فأخبر قريشاً، فقالوا: نرده عن البيت في عامنا ويرجع من قابل فيدخل مكة ويطوف بالبيت. وبعث رسول الله إلى قريش خراش بن أمية ليخبرهم بما جاء له فأرادو فمنعه من هناك من قومه، فأرسل عثمان بن عفان، فقال: **اذهب إلى قريش فأخبر لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهدي وننصرف**ـــ، فأتاهم وأخبرهم، فقالوا: لا كان هذا أبداً ولا يدخلها العام.

وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل، فذلك حين دعا المسلمين إلى بيعة الرضوان فبايعهم تحت الشجرة وبايع لعثمان فضرب بشماله على يمينه لعثمان، إنه ذهب في حاجة الله ورسوله. وجعلت الرسل تختلف بينهم، فأجمعوا على الصلح فبعثوا سهيل بن عمرو في عدة رجالهم فصالحه على ذلك، وكتبوا بينهم: " وهذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، واصطلحا على الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلالاً ولا إغلال وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم فعل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وإليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا قابلاً في أصحابه فيقيم بها ثلاثاً، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر: السيوف في القرب.

شهد أبو بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف، وابن أبي وقاص وعثمان وأبو عبيدة، وابن مسلمة، وحويطب، ومكرز. وكتب علي صدر هذا الكتاب فكان هذا الكتاب عند النبي ، ونسخته عند سهيل بن عمرو. وخرج أبو جندل بن سهيل من مكة إلى النبي يرسف في الحديد، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه، فرده النبي ، وقال: يا أبا جندل، قد تم الصلح بيننا فاصبر حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً. ووثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر، فقالوا: نحن ندخل في عهد قريش وعقدها، فلما فرغوا من الكتاب انطلق سهيل وأصحابه ونحر رسول الله هديه وحلق رأسه، حلقه خراش بن أمية الخزاعي ونحر أصحابه، وحلق عامتهم وقصر الآخرون. فقال النبي: **رحم الله المحلقين** ثلاثاً. قيل: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: **والمقصرين** فأقام بالحديبية بضعة وعشرين يوماً، وقيل: عشرين ليلة، ثم انصرف ، فلما كان بضجنان نزل عليه:{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾} [الفتح: ١]. فقال: جبريل عليه السلام يهنئك يا رسول الله، وهنأه المسلمون. فلما قدم المدينة جاءه أبو بصير، رجل من قريش وقد أسلم، فبعثوا رجلين في طلبه فرده معهما، فقتل أحدهما في الطريق، وهرب الآخر، فقدم أبو بصير على رسول الله فقال: وفيت بذمتك يا رسول الله، فقال : **ويل أمه مسعر حرب**، ففهم أنه سيرده، فذهب إلى ساحل البحر فجلس في طريق قريش، وخرج إليه جماعة ممن كان محبوساً بمكة، منهم: أبو جندل. فصاروا نحواً من سبعين، وكانوا يعترضون أموال قريش، فأرسلت قريش إلى رسول الله يناشدونه أن يرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل إليهم رسول الله ، فقدموا المدينة. وفي هذه الهدنة: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - وكانت قد أسلمت وبايعت بمكة - فخرجت في زمن الهدنة، وهي أول من هاجر من النساء، فخرجت وحدها وصاحبت رجلاً - من خزاعة حتى قدمت المدينة. فخرج في أثرها أخواها: الوليد، وعمارة ابنا عقبة، حتى قدما المدينة، فقالا: يا محمد فلنا بشرطنا، فقالت أم كلثوم: يا رسول الله، أنا امرأة وحال النساء في الضعف ما قد علمت، فتردني إلى الكفار فيفتنوني عن ديني ولا صبر لي؟ فنقض الله العهد في النساء في صلح الحديبية وأنزل فيهن المحنة وحكم في ذلك بحكم رضوه كلهم، ونزل في أم كلثوم: " فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن ". فامتحنها رسول الله وامتحن النساء بعدها، يقول: " والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله والإسلام، ما خرجتن لزوج ولا مال " فإذا قلن ذلك تركن ولم يرددن إلى أهليهن.

عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء يقول: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة.

قال مؤلف الكتاب: وكذلك قول معقل بن يسار، وجابر في العدد. وقال جابر في رواية: كنا ألفاً وخمسمائة. وقال عبد الله بن أبي أوفى: كنا يومئذ ألفاً وثلاثمائة.

وفي أفراد مسلم حديث ابن الأكوع، قال: قدمت الحديبية مع رسول الله ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة ما نرويها، فقعد رسول الله على جباها فإما دعا وإما بزق، فجاشت، فسقينا واستقينا.

عن طارق، قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع النبي بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع النبي تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها.

قال سعيد: إن كان أصحاب رسول الله لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم. عن نافع، قال: كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها: شجرة الرضوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها، وأمر بها فقطعت. وفي عمرة الحديبية: أصاب كعب بن عجرة الأذى في رأسه، وأمر رسول الله صاحب هديه واسمه ناجية بما عطب من الهدي أن ينحره، وأن يغمس نعله في دمه.

وفيها: صاد أبو قتادة حمار وحش.

وفيها: مطر الناس، فقال رسول الله : **أصبح الناس رجلان: مؤمن بالله كافر بالكواكب، وكافر بالله مؤمن بالكواكب**.

وفى هذه السنة: بعث رسول الله الرسل؛ ستة نفر، فخرجوا مصطحبين في ذي الحجة: حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، ودحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى، وعمرو بن أمية إلى النجاشي، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وسنيط بن عمر والعامري إلى هوذة بن علي الحنفي.

وفي هذه السنة اتخذ الخاتم، وذلك أنه قيل له: إن الملوك لا تقرأ كتاباً إلا مختوماً فاتخذ الخاتم.

* * *

ذكر ما جرى من هؤلاء الملوك حين بعث إليهم.

قال مؤلف الكتاب: أما المقوقس فإنه لما وصل إليه حاطب بن أبي بلتعة أكرمه وأخذ كتاب رسول الله وكتب في جوابه: " قد علمت أن نبياً قد بقي، وقد أكرمت رسولك "، وأهدى إلى رسول الله أربع جوار، منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ، وحماراً يقال له: عفير، وبغلة يقال لها: الدلدل، ولم يسلم.

فقبل رسول الله هديته، وقال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه ". واصطفى مارية لنفسه، وأما الحمار فنفق في منصرفه من حجة الوداع، وأما البغلة فبقيت إلى زمن معاوية.

أخبر عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: لما رجع رسول الله من الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية، وكتب إليه معه كتاباً يدعوه إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب قال له خيراً، وأخذ الكتاب - وكان مختوماً - فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له، وكتب إلى النبي جواب كتابه ولم يسلم وأهدى إلى رسول الله .

قال مؤلف الكتاب: إلا أن هذه الهدية وصلت في سنة سبع، وسنذكر هذا.

وأما قيصر وهو هرقل ملك الروم فإنه كان قد ظهر على من كان بأرضه من فارس؛ وأخرجهم منها، وانتزع له منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه، فخرج من حمص يمشي على قدميه. شكراً لله حين رد عليه ما رد تبسط له البسط، وتلقى عليها الرياحين حتى انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته، وأنه أصبح يوماً مهموماً يقلب طرفه في السماء، فقالت له بطارقته: لقد أصبحت أيها الملك مهموماً، قال: أجل أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر، قالوا: ما تعلم أمة تختتن إلا يهود؛ وهم في سلطانك وتحت يدك؛ فابعث إلى من لك عليه سلطان في بلادك، فمره أن يضرب أعناق من تحت يده من يهود، واسترح من هذا الهم، فبينما هم في ذلك من رأيهم أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده، فقال: أيها الملك إن هذا من العرب يحدث عن أمر يحدث ببلاده عجب، قال هرقل لترجمانه: سله ما هذا الحدث الذي كان ببلاده؟ فسأله فقال: خرج من بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي فاتبعه ناس وخالفه آخرون، وكانت بينهم ملاحم فتركتهم على ذلك، فقال: جردوه، فجردوه، فإذا هو مختون، فقال هرقل: هذا والله الذي رأيت، أعطوه ثوبه، انطلق عنا ثم دعى صاحب شرطته، فقال: قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل - يعني النبي .

قال أبو سفيان: وكنت قد خرجت في تجارة في زمان الهدنة، فهجم علينا صاحب شرطته، فقال: أنتم قوم هذا الرجل؟ قلنا: نعم فدعانا.

أخبر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره: أن رسول الله كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى، وكان قيصر لما كشف الله عز وجل عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيليا، على الزرابي تبسط له. قال عبد الله بن عباس: فلما جاء قيصر كتاب رسول الله قال حين قرأه: التمسوا لي من قومه من أسأله عن رسول الله . قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان صخر بن حرب أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تجاراً وذلك في المدة التي كانت بين رسول الله وبين كفار قريش.

فقال أبو سفيان: فأتى رسول قيصر، فانطلق بي وبأصحابي، حتى قدمنا إيليا فأدلجنا عليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه، عليه التاج، وإذا حوله عظماء الروم، فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت: أقربهم إليه نسباً، قال: ما قرابتك منه؟ قال: قلت: هو ابن عمي. قال أبو سفيان: وليس في الركب يومئذ من بني عبد مناف غيري. قال: فقال قيصر: أدنوه مني، ثم أمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه.

قال أبو سفيان: فوالله لو لا استحيائي يومئذ أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني، ولكني استحييت أن يأثروا عني الكذب، فصدقته عنه، ثم قال لترجمانه قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قال: قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: قلت: لا، قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة، ونحن نخاف ذلك.

قال: قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً أنتقصه به غيرها، لا أخاف أن أثروا عني. قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قال: قلت: نعم. قال: كيف كانت حربكم وحربه؟ قال: قلت: كانت دولا سجالاً أتدال عليه المرة، ويدال علينا، الأخرى، قال: فبم يأمركم؟ قال: قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة قال: فقال لترجمانه حين قلت له ذلك: قل له إني سألتك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال هذا القول أحد منكم قط قبله فزعمت أن لا. فقلت: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت: رجل يأتم بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله تعالى، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب لا يسخطه أحد، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل، وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه يكون دولاً يدال عليكم المر الدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبتلى ويكون لها العاقبة، وسألتك بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله عز وجل وحده لا تشركوا به شيئاً وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصدق والصلاة، والعفاف، والوفاء، بالعهد، وأداء الأمانة، وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، فإن يكن ما قلت فيه حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، والله لو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقيه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله فأمر به، فقرئ فإذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل، عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد. فإني أدعوك بداعية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين - يعني الأكارة.{يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ } [آل عمران: ٦٤].

قال أبو سفيان، فلما قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من علماء الروم، وكثر لغطهم فلا أدري ماذا قالوا. وأمر بنا فأخرجنا. قال أبو سفيان: فلما خرجت مع أصحابي وخلصت قلت لهم: أمر أمر ابن أبي كبشة، هذا ملك بني الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: فوالله ما زلت ذليلاً مستيقناً أن أمره سيظهر، حتى أدخل الله عز وجل قلبي الإسلام وأنا كاره.

قال مؤلف الكتاب: وروينا عن الزهري، قال: حدثني أسقف النصارى: أن هرقل قدم عليه كتاب رسول الله ، فجعله بين فخذيه وخاصرته. ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرؤونه يخبره بما جاء إليه صاحب رومية: إنه للنبي الذي كنا ننتظر؛ لا شك فيه؛ فاتبعه وصدقه. فأمر ببطارقة الروم؛ فجمعوا له في دسكرة، فأشرجت أبوابها عليهم، ثم اطلع عليهم من علية له، وقد خافهم على نفسه، وقال: يا معشر الروم، إنه قد أتاني هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله للنبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا، فهلموا فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

فنخروا نخرة رجل واحد؛ ثم ابتدروا أبواب الدسكرة فوجدوها قد أغلقت، فقال: ردوهم، ثم قال: يا معشر الروم، إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم على دينكم، وقد رأيت منكم الذي أسر به، فوقعوا له سجوداً؟ وانطلقوا.

وروى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم، أن هرقل قال لدحية: والله إني لأعلم إن صاحبك نبي مرسل، وإنه الذي كنا ننتظره، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولو لا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى فلان الأسقف فاذكر له أمر صاحبك، فهو والله أعظم في الروم مني.

فجاءه دحية، فأخبره، فقال له: صاحبك والله نبي مرسل نعرفه. ثم دخل فألقى ثياباً سوداً كانت عليه، ولبس ثياباً بيضاء، ثم خرج، فقال: قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله. فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فرجع دحية فأخبر هرقل، فقال: قد قلت ذلك، إنا نخافهم على أنفسنا. وذكر ابن إسحاق، عن خالد ابن يسار، عن رجل من قدماء أهل الروم، قال: لما أراد هرقل الخروج من أرض الشام إلى القسطنطينية، لما بلغه من أمر رسول الله جمع الروم، وقال: إني عارض عليكم أموراً؛ فانظروا فيم قد أردتها قالوا: وما هي؟ قال: تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل نجده في كتبنا ونعرفه بصفته، فهلم نتبعه.

فقالوا: نكون تحت أيدي العرب، قال: فأعطيه الجزية كل سنة، اكسروا عني شوكته وأستريح من حربه، قالوا: نعطي العرب الذل والصغار، لا والله، قال: فأعطيه أرض سورية وهي فلسطين، والأردن، ودمشق، وحمص، وما دون الدرب - قالوا: لا نفعل، قال: أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه في مدينتكم. ثم جلس على بغل له، فانطلق حتى إذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام، فقال: السلام عليك أرض سورية سلام الوداع، ثم ركض يطلب القسطنطينية.

وأما كسرى فإن رسول الله بعث إليه بكتاب مع عبد الله بن حذافة.

عن ابن عباس، قال: بعث رسول الله عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى، فدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى خرقه. قال ابن شهاب: فحسبت ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله بأن، يمزقوا كل ممزق.

أخبر إبراهيم بن سعد، بن محمد بن إسحاق، قال: بعث رسول الله عبد الله بن حذافة بن قيس إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام الله على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بداعية الله عز وجل، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت؟ فإن إثم المجوس عليك ".

فلما قرأ كتاب رسول الله شققه، وقال: يكتب إلي بهذا الكتاب وهو عبدي. فبلغني أن رسول الله قال: " مزق ملكه حين بلغه أنه شقق كتابه. ثم كتب كسرى إلى باذان؟ وهو على اليمن، أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به، فبعث باذان قهرمانه، وهو ابن بابويه - وكان كاتباً حاسباً - وبعث معه برجل من الفرس يقال له: خرخسره، وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ويلك انظر ما الرجل؟ وكلمه وأتي بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف، فسألا عنه، فقالوا هو بالمدينة واستبشروا، وقالوا: قد نصب له كسرى ملك الملوك، كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما على رسول الله ، فكلمه بابويه، وقال له: إن شاهانشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك بأمره أن يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك، ومخرب ديارك. وكانا قد دخلا على رسول الله

وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما، فكره النظر إليهما، وقال: **ويلكما**، من أمركما بهذا؟ـــ قالا: أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله : **لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي**ـــ. ثم قال لهما: **ارجعا حتى تأتياني غداً**ـــ. وأتى رسول الله الخبر من السماء: أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؟ فقتله في شهركذا وكذا من ليلة كذا وكذا من الليل.

فلما أتيا رسول الله قال لهما: **إن ربي قد قتل ربكما ليلة كذا وكذا من شهر كذا وكذا بعد ما مضى من الليل، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله**ـــ، فقالا: هل تدري ما تقول؟، إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا، فنكتب بها عنك، ونخبر الملك. قال: **نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر**ـــ، قولا له: **إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء، ثم أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك**ـــ. فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول ولتنظرن ما قد قال ولئن كان ما قد قال حقاً ما في كلام إنه لنبي مرسل وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه أما بعد، فإني قد قتلت أبي كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان، قال: إن هذا الرجل لرسول الله، فأسلم الأبناء من فارس من كان منهم باليمن.

عن المقبري، قال: جاء فيروز الديلمي إلى رسول الله قال: إن كسرى كتب إلى باذان: بلغني أن في أرضك رجلاً نبياً فاربطه وابعثه إلي، فقال: إن ربي غضب على ربك فقتله ودمه يثخن الساعة، فخرج من عنده، فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه.

وأما النجاشي فقال ابن إسحاق: بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى النجاة في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة، فحملت بعيسى، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى ". فكتب النجاشي إلى رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً؛ إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك يا نبي الله فإن شئت أن آتيك يا رسول الله فعلت، وإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال ابن إسحاق: وذكر أنه بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة حتى إذا توسطوا البحر غرقتهم سفينتهم فهلكوا.

وقال الواقدي عن أشياخه: إن أول رسول بعثه رسول الله عمرو بن أمية إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأخذ كتاب رسول الله فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره وجلس على الأرض متواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته، وكتب إلى رسول الله بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب.

وفي الكتاب الآخر يأمره، أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي، فتنصر هناك ومات، وأمره في الكتاب أن يبعث لمن قبله من أصحابه وعلمهم، ففعل ذلك.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني فروى الواقدي عن أشياخه، قالوا: بعث رسول الله شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً، قال شجاع: فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقيصر، وهو جاء من حمص إلى إيلياء، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله إليه، فقال: لا تصل إليه حيث يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه - وكان رومياً - يسألني عن رسول الله وما يدعو إليه، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله وما يدعو إليه، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه، فأنا أؤمن به وأصدقه، وأخاف من الحارث أن يقتلني، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي. وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي، فدفعت إليه كتاب رسول الله ، فقرأه ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي، أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته. علي بالناس. فلم يزل يعرض حتى قام، وأمر بالخيول تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى.

وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر ألا تسير إليه وأله عنه ووافني بإيلياء؛ فلما جاء جواب كتابه دعاني فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غداً، فأمر لي بمائة مثقال ذهب، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال: أقرئ على رسول الله مني السلام، فقدمت على رسول الله ، فأخبرته فقال: " باد ملكه ". ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح.

وأما هوذة بن علي الحنفي قال مؤلف الكتاب: كان من الملوك العقلاء، إلا أن التوفيق عزيز، دخل على كسرى أبرويز، فقال له: أي أولادك أحب إليك، قال: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يبرأ، فقال: ما غذاؤك؟ قال: الخبز، فقال كسرى: هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر. وكان من يأكل الخبز عندهم ممدوحاً.

وروى الواقدي عن أشياخه، قال: بعث رسول الله سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً فقدم عليه فأنزله وحباه، وقرأ كتاب رسول الله ، وكتب إليه وقال: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليط بن عمرو جائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على رسول الله وأخبره عنه بما كان وما قال، وقرأ كتابه، وقال: " لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه ". فلما انصرف رسول الله يوم الفتح جاءه جبريل عليه السلام، وأخبره أنه قد مات.

وفي هذه السنة: أهدى ابن أخي عيينة لرسول الله ناقة يقال لها السمراء، فأثابه ثلاثاً، فسخط وقال: " لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي، أو ثقفي، أو دوسي ".

وفي هذه السنة: أجدبت الأرض فاستسقى رسول الله للناس في رمضان.

وفيها: سبق رسول الله بين الإبل، فسبقت القصواء، وسبق بالخيل فسبق فرس أبي بكر.

وفيها: استجار أبو العاص بن الربيع بزينب بنت رسول الله فأجارته.

قال مؤلف الكتاب: وردها إليه على ما أشرنا إليه في ذكر غزوة بدر، وقد ذكرنا فيما تقدم أنه استجار بها، فلعله أشير إلى هذه الحالة.

وفيها: جاءت خولة بنت ثعلبة، وكان زوجها أوس بن الصامت، فأخبرت رسول الله أنه ظاهر منها.

وفيها: تزوج عمر بن الخطاب ☺ جميلة بنت ثابت، فولدت له عاصماً، طلقها عمر. وفيها: وقف عمر بن الخطاب ☺ أمواله بثمغ.

سنة سبع من الهجرة:

في جمادى الأولى. وذلك أن رسول الله أمر بالتهيؤ لغزوة خيبر، وخرج واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وأخرج معه أم سلمة زوجته، فلما نزل بساحتهم أصبحوا وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم، وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحي والكرازين والمكاتل، فلما نظروا إلى رسول الله قالوا: محمد والخميس - يعنون بالخميس الجيش - فولو هاربين إلى حصونهم، وجعل رسول الله يقول: " الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ". ووعظ الناس وفرق عليهم الرايات، ولم تكن الرايات إلا يوم خيبر إنما كانت الألوية، فكانت راية النبي السوداء من بحرد لعائشة ♥ تدعى العقاب، ولواؤه أبيض ودفعه إلى علي بن أبي طالب ☺، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سعد بن عبادة، وكان شعارهم: يا منصور أمت. وكان مع رسول الله مائتا فرس، فقاتل المشركين وقاتلوه أشد قتال، وقتلوا من أصحابه، وقتل منهم، وفتحها حصناً حصناً، وهي حصون ذوات عدد، منها: النطاة، ومنها حصن الصعب بن معاذ، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، والشق وبه حصون، منها: حصن أبي، وحصن النزار، وحصون الكتيبة، منها: القموص والوطيح وسلالم، وهو حصن ابن أبي الحقيق، وأخذ كنز آل أبي الحقيق - وكانوا قد غيبوه في خربة - فدله الله عليه فاستخرجه وقتل منهم ثلاثة وتسعين رجلاً من يهود، منهم: الحارث أبو زينب، ومرحب، وأسير، وياسر، وعامر، وكنانة بن أبي الحقيق، وأخوه.

واستشهد من أصحاب النبي بخيبر أبو ضياح بن النعمان في خمسة عشر رجلاً، وأمر بالغنائم فجمعت واستعمل عليها فروة بن عمر البياضي، ثم أمر بذلك فجزئ خمسة أجزاء، وكتب في سهم منها لله، وأمر ببيع الأربعة أخماس في من يزيد، فباعها فروة وقسم ذلك بين أصحابه. وكان الذي ولي إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفاً وأربعمائة، والخيل مائتي فرس، وقدم الدوسيون فيهم أبو هريرة، وقدم الأشعريون ورسول الله بخيبر، فلحقوه بها، فكلم رسول الله أصحابه أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا، وقدم جعفر بن أبي طالب وأهل السفينتين من عند النجاشي بعد فتح خيبر، فقال رسول الله : **أما أدري بأيهما أسر**: بقدوم جعفر، أو بفتح خيبر ؟▬ وكانت صفية بنت حيي ممن سبى رسول الله بخيبر فأعتقها وتزوجها.

قال ابن عمر: قاتلهم حتى ألجأهم إلى قصرهم وغلبهم على الأرض والنخل، فصالحهم على أن تحقن دماءهم ولهم ما حملت ركابهم، وللنبي الصفراء والبيضاء والسلاح ويخرجهم، وشرطوا للنبي أن لا يكتموه شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، فلما وجد المال الذي غيبوه في مسك الجمل سبى نساءهم، وغلبهم على الأرض والنخل ودفعها إليهم على الشطر، فكان ابن رواحة يخرصها عليهم ويضمنهم الشطر.

أخبر إياس بن سلمة بن الأكوع، قال: أخبرني أبي، قال: بارز عمي يوم خيبر مرحب اليهودي، فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فوقع السيف على ساقه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه، فقال ناس من أصحاب رسول الله : بطل عمل عامر قتل نفسه. قال سلمة: فجئت إلى رسول الله أبكي فقلت: يا رسول الله، أبطل عمل عامر؟ قال: " ومن قال ذاك "، قلت: ناس أصحابك، قال: " كذب من قال ذاك، بل له أجره مرتين "، إنه حين خرج إلى خيبر جعل يرتجز بأصحاب رسول الله ، وفيهم النبي يسوق الركاب

فقال رسول الله: **من هذا ؟**ـــ قالوا: عامر، قال: **غفر لك ربك**ـــ، قال: وما استغفر لإنسان قط يخصه إلا استشهد، فلما سمع ذلك عمر بن الخطاب ☺، قال: يا رسول الله، لو لا متعتنا بعامر، فتقدم فاستشهد.

قال سلمة: ثم إن نبي الله أرسلني إلى علي، وقال: **لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**ـــ فجئت به أقوده أرمد، فبصق رسول الله في عينيه، ثم أعطاه الراية، فخرج مرحب يخطر بسيفه

ففلق رأس مرحب، وكان الفتح على يديه.

قال ابن سعد: وروي عن ابن عباس، قال. لما أراد رسول الله أن يخرج من خيبر، قال القوم: الآن نعلم أسرية صفية أم امرأة، فإن كانت امرأة فإنه سيحجبها، وإلا فهي سرية، فلما خرج أمر بستر يستر دونها، الناس أنها امرأة، فلما أرادت أن تركب أدنى فخذه منها لتركب عليها، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه ثم حملها، فلما كان الليل نزل فدخل الفسطاط ودخلت معه، وجاء أبو أيوب فبات عند الفسطاط، فلما أصبح رسول الله سمع الحركة، فقال: **من هذا** فقال: أنا أبو أيوب، فقال: **ما شأنك؟**ـــ قال: يا رسول الله جارية شابة حديثة عهد بعرس، وقد صنعت بزوجها ما صنعت، فلم آمنها، قلت إن تحركت كنت قريباً منك. فقال: **رحمك الله يا أبا أيوب** مرتين.

عن أنس، قال: وقعت صفية في سهم دحية - وكانت جارية جميلة - فاشتراها رسول الله بسبعة أرؤس ودفعها إلى أم سليم تصنعها وتهيئها، وجعل رسول الله وليمتها التمر والأقط أو السمن، قال: ففحصت الأرض أفاحيص وجيء بالأنطاع فوضعت فيها ثم جيء بالأقط والسمن والتمر، فشبع الناس.

قال ابن سعد: قال أنس: كان في ذلك السبي صفية بنت حيي، فصارت إلى دحية الكلبي، ثم صارت بعد إلى النبي فأعتقها ثم تزوجها، وجعل عتقها صداقها. قال محمد بن حبيب: في هذه الغزاة أسهم رسول الله النساء والصبيان سهماً، وأسهم لمن غزا معه من اليهود.

وفيها: سم رسول الله ، سمته زينب امرأة سلام بن مشكم، أهدت له شاة مسمومة، فأكل منها، فدعاها رسول الله، فاعترفت فقتلها، ويقال: بل عفى عنها.

* * *

غزوة وادي القرى

ولما انصرف رسول الله عن خيبر ذهب إلى وادي القرى، وهي غزاة أيضاً. وبعضهم يعدها مع خيبر واحدة؛ لأن رسول الله لم يعد إلى منزله، ولما نزل بوادي القرى حط رحله غلام له أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي، فأتاه سهم غرب، فقتله، فقالت الصحابة: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله : **كلا والذي نفسي بيده إن شملته الآن لتلتهب عليه ناراً**ـــ. وكان غلها يوم خيبر.

وفيها: نام رسول الله عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس حين أحد على وادي القرى.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله حين قفل من غزاة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى أعرس، وقال لبلال: أكلأنا الليلة، فصلى بلال ما قد رآه، ونام رسول الله وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته فلم يستيقظ رسول الله ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله أولهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ، فقال: **أي بلال ما هذا؟**ـــ قال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: **اقتادوا**ـــ، فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة، قال: **من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها**، فإن الله عز وجل قال:{وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ } [طه: ١٤]ـــ.

* * *

ومن الحوادث في هذه السنة أن رسول الله كتب إلى النجاشي أن يزوجه أم حبيبة.

وكانت قد خرجت مهاجرة إلى الحبشة، وأن يبعث إليه من بقي من أصحابه من الذين هاجروا إلى الحبشة، ففعل فقدموا المدينة، فوجدوا رسول الله قد فتح خيبر، فكلم المسلمون أن يدخلوهم في سهامهم، ففعلوا.

* * *

ومن الحوادث في هذه السنة وصول هدية المقوقس.

فإنها وصلت في سنة سبع، وهي: مارية، وسيرين، ويعفور، والدلدل. وكانت بيضاء، فاتخذ لنفسه مارية، ووهب سيرين لحسان بن ثابت.

عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: بعث المقوقس صاحب الإسكندرية إلى رسول الله في سنة سبع من الهجرة مارية وأختها سيرين، وألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً ليناً، وبغلته الدلدل، وحماره يعفور: وقال يعقوب: ومعهم خصي يقال له: مابور شيخ كبير كان أخا مارية، وبعث بذلك كله مع حاطب بن أبي بلتعة، فعرض حاطب على مارية الإسلام ورغبها فيه، فأسلمت وأسلمت أختها وأقام الخصي على دينه حتى أسلم بالمدينة في عهد رسول الله ، وكان رسول الله معجباً بأم إبراهيم وكانت بيضاء جميلة، فأنزلها رسول الله في العالية في المال الذي يقال له اليوم مشربة أم إبراهيم، وكان رسول الله يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين، فلما حملت ووضعت هناك وقبلتها سلمى مولاة رسول الله فجاء أبو رافع زوج سلمى فبشر رسول الله بإبراهيم فوهب له عبداً، وذلك في ذي الحجة سنة ثمان، وتنافست الأنصار في إبراهيم، وأحبوا أن يفرغوا مارية لرسول الله لما يعلمون من هواه فيها.

* * *

ومن الحوادث سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان.

وذلك أن رسول الله بعث عمر ☺ في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة - وهي بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران - وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر ☺ محالهم فلم يلق كيداً، فانصرف راجعاً إلى مكة.

* * *

ومن الحوادث سرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب بنجد ناحية ضرية.

حدث إياس بن سلمة الأكوع، عن أبيه، قال: بعث رسول الله أبا بكر إلى فزارة، وخرجت معه حتى إذا ما دنونا من الماء عرس أبو بكر حتى إذا ما صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل ونحن معه - وكان شعارنا: أمت أمت - فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين، ورأيت عنقاً من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فأدركتهم فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم قاموا، فإذا امرأة من فزارة فيهم عليها قشع من أدم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت أسوقهم إلى أبي بكر فنفلني ابنتها فلم أكشف لها ثوباً حتى قدمت المدينة، ثم باتت عندي فلم أكشف لها ثوباً حتى لقيني رسول الله في السوق، فقال: **يا سلمة هب لي المرأة** فقلت: يا نبي الله، والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً فسكت حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله في السوق ولم أكشف لها ثوباً، فقال: **يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك** قال: فقلت: هي لك يا رسول الله. فبعث بها رسول الله إلى أهل مكة، ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين.

* * *

ومن الحوادث سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى فدك في شعبان.

وذلك أن رسول الله بعث بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك، فخرج يلقى رعاء الشاة، فسأل عن الناس، فقيل: في بواديهم، فاستاق النعم والشاء وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ فأخبرهم فأدركه الدهم منهم عند الليل، فأتوا يرامونهم بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير وأصبحوا، فحمل المريون عليهم فأصابوا أصحاب بشير، وقاتل بشير حتى ارتث وضرب كعبه فقيل قد مات، ورجعوا بنعمهم وشائهم. وقدم علبة بن زيد الحارثي بخبرهم على رسول الله ، ثم قدم من بعده بشير بن سعد.

* * *

ومن الحوادث سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة في رمضان.

وذلك أن رسول الله بعثه إلى الميفعة - وهي وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد وبينها وبين المدينة ثمانية برد - في مائة وثلاثين رجلاً، ودليلهم يسار مولى رسول الله ، فهجموا عليهم جميعاً ووقعوا وسط مجالهم، فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا نعماً وشاء فحدروه إلى المدينة ولم يأسروا أحداً.

ومن الحوادث: في هذه السرية: قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا الله، فقال النبي : **ألا شققت عن قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب؟** فقال أسامة: لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله. ويروى أن قتل أسامة هذا الرجل كان في غير هذه السرية.

ومن الحوادث سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار في شوال.

وذلك أنه بلغ رسول الله أن جمعاً من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله ، فدعا رسول الله بشير بن سعد فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمائة رجل، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا إلى يمن وجبار، فدنوا من القوم فأصابوا لهم نعماً كثيراً وتفرق الرعاء، فحذروا الجمع فتفرقوا ولحقوا بعلياء بلادهم، وخرج بشير في أصحابه حتى أتى محالهم فيجدها وليس فيها أحد، فرجع بالنعم وأصاب منهم رجلين فأسروهما وقدم بهما إلى رسول الله ، فأسلما فأرسلهما.

وفي هذه السنة قدم وفد الأشعريين.

حدث محمد بن سعد عن أشياخه، قال: قدم وفد الأشعريين على رسول الله ، وهم خمسون رجلاً فيهم أبو موسى الأشعري، وأخوة لهم ومعهم رجلان من عك، وقدموا في سفن في البحر، وخرجوا بجدة، فلما دنوا في المدينة جعلوا يقولون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه، ثم قدموا فوجدوا رسول الله في سفره، بخيبر، ثم لقوا رسول الله فبايعوا وأسلموا، فقال رسول الله : **الأشعرون في الناس كصرة فيها مسك**.

* * *

وفي هذه السنة قدم الدوسيون.

قالوا: ولما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي دعا قومه فأسلموا، وقدم معه منهم المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت، وفيهم: أبو هريرة، وعبد الله بن إزيهر الدوسي، ورسول الله بخيبر، فساروا إليه فلقوه هناك، ثم قدموا معه المدينة، فقال أبو هريرة في هجرته حين خرج من دار قومه:

طولهـــا مـــن ليلـــة وعناءهـــا   أنهـــا مـــن بلـــدة الكفـــر نجـــت

* * *

ومن الحوادث عمرة رسول الله القضية:

وذلك أن رسول الله أمر أصحابه حين رأوا هلال ذي القعدة أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد إلا من استشهد بخيبر ومن مات.

وخرج مع رسول الله قوم من المسلمين عماراً، فكانوا في عمرة القضية ألفين، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق رسول الله ستين بدنة، وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي، وحمل رسول الله السلاح البيض والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال وأخلوا مكة، ودخل رسول الله من الثنية التي تطلعه على الحجون وعبد الله ابن رواحة آخذ بزمام راحلته، فلم يزل رسول الله يلبي حتى استلم الركن بمحجنه وعبد الله بن رواحة

عن أنس: أن رسول الله دخل مكة في عمرة القضية وابن رواحة يمشي بين يديه وهو فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول شعراً، فقال: النبي : **خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**—. وأمر النبي بلالاً فأذن على ضهر الكعبة، وأقام بمكة ثلاثاً، فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو؛ وحاطب بن عبد العزى، فقالا: قد انقضى أجلك فاخرج عنا، فأمر أبا رافع فنادى بالرحيل، وقال: " لا يمسين بها أحد من المسلمين ". وخرجت بنت حمزة فاختصم فيها علي وجعفر وزيد، فقضى بها النبي لجعفر لأن خالتها أسماء بنت عميس عنده.

وركب رسول الله عنه حتى نزل بسرف - وهي على عشرة أميال من مكة - فتزوج ميمونة بنت الحارث، زوجه إياها العباس وكان يلي أمرها، وهي أخت أم ولده، وكانت آخر امرأة تزوجها وبنى بها في سرف.

* * *

ومن الحوادث في هذه السنة سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم في ذي الحجة:

وذلك أن رسول الله بعث ابن أبي العرجاء السلمي في خمسين رجلاً إلى بني سليم، فخرج وتقدمه عين لهم كان معه فحذرهم فجمعوا، فأتاهم وهم معدون له، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا فتراموا بالنبل، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً، وقدموا المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان.

* * *

سنة ثمان من الهجرة وفي هذه السنة تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه.

عن الأوزاعي، قال: حدثني الزهري وسألته: أي أزواج النبي استعاذت منه؟ فقال: أخبرني عروة عن عائشة: أن ابنة الجون الكلابية لما دخلت على رسول الله فدنا منها فقالت: أعوذ بالله منك، فقال رسول الله : **عذت بعظيم الحقي بأهلك**.

ومن الحوادث سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بالكديد في صفر.

قال جندب بن مكيث الجهني: بعث رسول الله غالب بن عبد الله الليثي في سرية وكنت فيهم، فأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوح. فخرجنا حتى إذا كنا بالكديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي، فأخذناه فقال: إنما جئت أريد الإسلام، قلنا إن تكن مسلماً فلا يضرك رباطنا يوماً وليلة. فشددناه وثاقاً وخلفنا عليه رويجلا منا أسود وقلنا: إن ناوشك فجز رأسه، فسرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، وكمنا في ناحية الوادي، وبعثني أصحابي ربيئة لهم، فخرجت حتى آتي مشرفاً على الحاضر يطلعني عليهم إذ خرج رجل فقال لامرأته: إني لأرى على هذا الجبل سواداً ما رأيته أول من يومي هذا فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئاً، فنظرت فقالت: لا، فقال: فناوليني قوسي وسهمي، فأرسل سهما فوالله ما أخطأ بين عيني، فانتزعته وثبت مكاني، ثم أرسل آخر فوضعه في منكبي فانتزعته ووضعته وثبت مكاني، فقال: والله لو كان ربيئة لقد تحرك. ثم دخل وراحت الماشية، فلما احتلبوا وعطنوا واطمأنوا فناموا شننا عليهم الغارة واستقنا النعم. فخرج صريخ القوم في قومهم فجاء ما لا قبل لنا به، فخرجنا بها نحدرها حتى مررنا بابن البرصاء فاحتملناه وأدركنا القوم ما بيننا وبينهم إلا الوادي، إذ جاء الله بالوادي من حيث شاء، والله ما رأينا سحاباً يومئذ فامتلأ جنباه ماء، ولقد رأيتهم وقوفاً ينظرون إلينا.

وفيها سرية غالب أيضا إلى مصاب أصحاب بشير من سعد بفدك في صفر.

حدث عبد الله بن الحارث بن الفضيل، عن أبيه، قال: هيأ رسول الله الزبير بن العوام، وقال له: **سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم** وهيأ معهم مائتي رجل، وعقد لواء، فقدم غالب بن عبد الله الليثي من سريته من الكديد فقال رسول الله للزبير: **اجلس**، وبعث غالب في مائتي رجل، وخرج أسامة بن زيد فيها حتى انتهى إلى مصاب أصحاب بشير وخرج معه علبة بن زيد فيها، فأصابوا نعماً وقتلوا منهم قتلى.

وفيها سرية شجاع بن وهب إلى بني عامر في ربيع الأول.

قال عمر بن الحكم: بعث رسول الله شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غارون، فأصابوا نعماً كثيراً وشاء واستاقوا ذلك، وغابوا خمس عشرة ليلة:

* * *

ومن الحوادث سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح .

وهي من وراء وادي القرى - في شهر ربيع الأول. قال الزهري: بعث رسول الله كعب بن عمير الغفاري في خمسة عشر رجلاً حتى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام، فوجدوا جمعاً فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا ورموهم بالنبل فقاتل أصحاب النبي حتى قتلوا وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فتحامل حتى أتى النبي فأخبره، فشق عليه.

* * *

ومن الحوادث اتخاذ المنبر لرسول الله.

وقيل: في سنة سبع، والأول أصح.

عن جابر، قال: كان رسول الله يخطب إلى جذع نخلة، قال: فقالت امرأة من الأنصار كان لها غلام نجار: يا رسول الله، إن لي غلاماً نجاراً أفلا آمره أن يتخذ لك منبراً تخطب عليه؟ قال: بلى. قال: فاتخذ له منبراً، قال: فلما كان يوم الجمعة خطب على المنبر، قال: فأن الجذع الذي كان يقوم عليه كما يئن الصبي، فقال النبي : **إن هذا بكى لما فقد من الذكر**. رواه أحمد في المسند، وأخرجاه في الصحيحين.

عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال: كان رسول الله يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشاً، فكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، هل لك أن أعمل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة حتى يراك الناس وتسمعهم خطبتك؟ قال: نعم. فصنع له ثلاث درجات هن اللاتي على المنبر أعلى المنبر، فلما صنع المنبر ووضع في موضعه، وأراد رسول الله أن يقوم على المنبر فمر إليه، خار الجذع حتى تصدع وانشق فنزل رسول الله ، فمسحه بيده حتى سكن، ثم رجع إلى المنبر، وكان إذا صلى صلى إلى ذلك الجذع، فلما هدم المسجد وغير، أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب، فكان عنده في داره حتى بلي وأكلته الأرضة وعاد رفاتاً.

* * *

وفي هذه السنة سرية مؤتة.

وهي بأدنى البلقاء دون دمشق في جمادى الأولى سنة ثمان.

قال علماء السير: بعث رسول الله الحارث بن عمرو الأزدي أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله رسول غيره، فشق ذلك على النبي وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف، وهم ثلاثة آلاف، فقال النبي : أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً، وعقد لهم لواء أبيض، وخرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم، وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير.

فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم وقام فيهم، شرحبيل فجمع أكثر من مائة ألف، فمضوا إلى مؤته ووافاهم المشركون بما لا قبل لهم به، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل، ثم أخذه جعفر فقاتل حتى قتل، ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد نصفيه أحد وثلاثون جرحاً، ثم أخذه عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل، فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل ثمانية ممن يعرف من المسلمين، ورفعت الأرض لرسول الله حتى نظر إلى معترك القوم. فلما أخذ اللواء خالد بن الوليد قال رسول الله : **الآن حمي الوطيس** فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب، ويقولون: يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟ فقال رسول الله : **ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله تعالى**

* * *

ومن الحوادث سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل.

وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام في جمادى الآخرة سنة ثمان.

قال علماء السير: بلغ النبي أن جماعة من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف النبي فدعا عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً، فسار الليل النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين، وعقد له لواء، وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر، فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت علي مدداً وأنا الأمير، فأطاعه ثم لقي جمعاً فهربوا ثم قفل.

وفي هذه السرية: أجنب عمرو فصلى بأصحابه وهو جنب:

عن عمرو بن العاص ☺، أنه قال: لما بعثه رسول الله عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك. فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ذكرت ذلك له، فقال: **يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب** — قال: قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله عز وجل:{وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا} [النساء: ٢٩] فتيممت ثم صليت فضحك رسول الله ولم يقل شيئاً.

* * *

ومن الحوادث سرية الخبط.

قالوا: بعث رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمر بن الخطاب ☺ في رجب إلى حي من جهينة بالقبلية مما يلي ساحل البحر، وبينها وبين المدينة خمس ليال، فأصابهم في الطريق جوع شديد، فأكلوا الخبط، وألقى لهم البحر حوتاً عظيماً، فأكلوا منه وانصرفوا ولم يلقوا كيداً.

أخبرنا يحيى بن علي المدبر، أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن محمد السمناني، أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي بن عبد الله بن مهدي، حدثنا عثمان بن محمد بن أحمد السمرقندي، حدثنا أحمد بن شيبان، حدثنا سفيان، سمع عمر، وجابر بن عبد الله يقول: بعثنا النبي في ثلاثمائة راكب، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح في طلب عير قريش، فأقمنا على الساحل حتى فني زادنا وأكلنا الخبط، ثم أن البحر ألقى إلينا دابة يقال لها العنبر، فأكلنا منها نصف شهر حتى صلحت أجسامنا، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فنصبها ونظر إلى أطول بعير في الجيش وأطول رجل، فحمله عليه فجاز تحته. وقد كان رجل يجر ثلاث حرائر، ثم نهاه عنه أبو عبيدة. وكانوا يرونه قيس بن سعد.

قال المصنف: هو قيس بن سعد بلا شك، وله في ذلك قصة قد ذكرتها في ترجمته.

* * *

ومن الحوادث سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة.

وهي أرض محارب بنجد في شعبان وذلك أن رسول الله بعث أبا قتادة ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، فهجم على حاضر منهم عظيم فأحاط بهم وقاتل منهم رجال، فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا النعم، فكانت، الإبل مائتي بعير، والغنم ألفي شاة، وسبوا سبياً كثيراً، وجمعوا الغنائم، فأخرجوا الخمس فعزلوه " وقسموا ما بقي على أهل السرية، فأصاب كل رجل اثنا عشر بعيراً، فصار في سهم أبي قتادة جارية وضيئة فاستوهبها منه رسول الله، فوهبها لي، فوهبها النبي لمحمية بن جزء. وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة.

* * *

ومن الحوادث سرية أبي قتادة الأنصاري إلى بطن إضم في رمضان.

وذلك أن رسول الله لما هم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم - وبينها وبين المدينة ثلاثة برد - ليظن ظان أن رسول الله توجه إلى تلك الناحية وتذهب بذلك الأخبار، وكان في السرية محلم بن جثامة، فمر عامر بن الأضبط فسلم بتحية الإسلام، فأمسك عنه القوم، وحمل عليه مسلم، فقتله وأخذ سلبه، فلما لحقوا برسول الله نزل فيهم القرآن:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا } [النساء: ٩٤]. ولم يلقوا جمعاً فانصرفوا فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة فلقوه بالسقيا.

* * *

ومن الحوادث غزاة الفتح وكانت في رمضان.

قال علماء السير: لما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية كلمت بنو نفاثة - وهم من بني بكر - أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح، وعدوهم ووافوهم بالوتير متنكرين فيهم صفوان بن أمية، وحويطب، ومكرز فبيتوا خزاعة ليلاً وهم غارون، فقتلوا منهم عشرين رجلاً. ثم ندمت قريش على ما صنعت وعلموا أن هذا نقض للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه، فقام وهو يجر رداءه، ويقول: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي—.

وقدم أبو سفيان بن حرب فسأله أن يجدد العهد فأبى فانصرف فتجهز رسول الله وأخفى أمره، وقال: **اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة**، فلما أجمع السير كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بذلك، فبعث رسول الله علياً والمقداد فأخذا كتابه ورسوله.

قال مرة: إن عبيد الله بن أبي رافع أخبره أنه سمع علياً ☺ يقول: بعثني رسول الله أنا والزبير والمقداد، فقال: " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ". فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بمتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله .

فقال رسول الله : **يا حاطب ما هذا؟** قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من كان، معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله : **إنه قد صدقكم**. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: **إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**. رواه أحمد وأخرجاه في الصحيحين.

قال العلماء في السير: وبعث رسول الله إلى من حوله من العرب فجلهم أسلم وغفار ومزينة، وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه في الطريق وكان المسلمون في غزاة الفتح عشرة آلاف، واستخلف رسول الله المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وخرج يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر، وقد أقام الزبير في مائتين وعقد الألوية والرايات بقديد، ونزل مر الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف ناراً، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان يتحسس الأخبار، وقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً.

فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فلما رأوا العسكر أفزعهم، وقد استعمل النبي على الحرس تلك الليلة عمر بن الخطاب، فسمع العباس بن عبد المطلب صوت أبي سفيان، فقال: أبا حنظلة، فقال: لبيك. قال: فما وراءك؟ قال: هذا رسول الله في عشرة آلاف، فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك، فأجاره وخرج به وبصاحبيه حتى أدخلهم على رسول الله ، فأسلموا وجعل لأبي سفيان أن من دخل داره فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

ثم دخل رسول الله مكة في كتيبته الخضراء وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير، فقال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال: ويحك إنه ليس بملك ولكنها نبوة، قال: نعم. وأمر رسول الله سعد بن عبادة أن يدخل من كداء، والزبير أن يدخل من كدى، وخالد بن الوليد من الليط، ودخل رسول الله من أذاخر، ونهى عن القتال غير أنه أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة بن أبي جهل فهرب ثم استأمنت له امرأته أم حكيم بنت الحارث فأمنه رسول الله ، وهبار بن الأسود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فاستأمن له عثمان وكان أخاه من الرضاعة، ومقيس بن ضبابة قتله نميلة بن عبد الله الليثي، والحويرث بن نفيل بن قصي قتله علي بن أبي طالب ☺، وعبد الله بن هلال بن حطل قتله أبو برزة وقيل سعيد بن حريث، وهند بنت عتبة فأسلمت، وسارة مولاة عمرو بن هاشم قتلت، وقريبة قتلت، وفرتنا أومنت حتى ماتت في خلافة عثمان. وكل الجنود لم يلقوا جمعاً غير خالد فإنه لقيه صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، وعكرمة في جمع من قريش بالخندمة، فمنعوه من الدخول وشهروا السلاح ورموه بالنبل، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم فقتل أربعة وعشرين رجلاً من قريش وأربعة أنفر من هذيل، فلما ظهر رسول الله على ثنية أذاخر رأى البارقه فقال: **ألم أنه عن القتال؟** فقيل: خالد قوتل فقاتل. وقتل من المسلمين رجلان أخطآ الطريق: كرز بن جابر، وخالد الأشقر. وضربت لرسول الله قبة بالحجون، ودخل مكة عنوة، فأسلم الناس طائعين وكارهين، وطاف بالبيت على راحلته، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب في يده ويقول: " جاء الحق وزهق الباطل " فيقع الصنم لوجهه، وكان أعظمها هبل وهو وجاه الكعبة، فجاء إلى المقام وهو لاصق بالكعبة فصلى خلفه ركعتين ثم جلس ناحية من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة أن يأتي بمفتاح الكعبة

فجاء به عثمان فقبضه رسول الله وفتح الباب ودخل الكعبة فصلى فيها ركعتين، وخرج يدعي عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح، وقال: **خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم**. ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب، وأذن بلال بالظهر فوق الكعبة، وكسرت الأصنام، وصلى رسول الله الضحى يومئذ ثمان ركعات.

عن أبن أبي ليلى، قال: ما أخبرني أحد أنه رأى رسول الله يصلي الضحى غير أم هانئ، فإنها حدثته: أن النبي دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثمان ركعات ما رأته صلى صلاة قط أخف منها، غير أنه كان يتم الركوع والسجود.

أخرجاه في الصحيحين.

وخطب رسول الله في اليوم الثاني، فقال: **إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض..**. وخطب على الصفا، وجلس رسول الله على الصفا يبايع الناس على الإسلام، ثم بايع النساء، فجاءت هند متنكرة فبايعت، وجعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك في غرور. وما صافح امرأة في البيعة، وإنما كان يقول بلسانه، وقال يوم الفتح: **لا هجرة ولكن جهاد ونية**.

عن ابن عباس، قال: قال رسول الله يوم فتح مكة: **لا هجرة ولكن جهاد ونية** وجلس على الصفا.

عن أبي هريرة: أن رسول الله حين سار إلى مكة ليفتحها صعد الصفا، فخطب الناس، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أما ا الرجل فأخذته الرأفة بقومه والرغبة في قربته، فأنزل الله تعالى الوحي بما قالت الأنصار، فقال: **يا معشر الأنصار، تقولون أما الرجل فقد أدركته الرأفة بقومه والرغبة في قربته، فمن أنا إذن، كلا والله إني عبد الله ورسوله حقاً المحيا محياكم والممات مماتكم** قالوا: والله يا رسول الله ما قلنا ذلك إلا مخافة أن تفارقنا، قال: **أنتم صادقون عند الله وعند رسوله**. قال: والله ما فيهم إلا من أبحر بالدموع.

وهرب يومئذ عبد الله بن الزبعرى، ثم عاد فأسلم، وهرب هبيرة بن أبي وهب وأقام كافراً. وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان فأقام بها خمس عشرة ليلة يصلي ركعتين ثم خرج إلى حنين، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يصلي بهم ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه.

عن عائشة ♥: أن رسول الله دخل مكة يوم الفتح من أعلى مكة، وخرج من أسفل مكة.

* * *

ومن الحوادث في رمضان هذه السنة سرية خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من رمضان.

وذلك أن رسول الله بعثه إلى العزى ليهدمها، فخرج حتى انتهى إليها ثلاثين رجلاً فهدمها ثم رجع إلى رسول الله ، فقال: **هل رأيت شيئاً؟**— قال: لا، قال: **فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها**— فرجع متغيظاً فجرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجز لها باثنتين ورجع فأخبر النبي ، فقال: **تلك العزى وقد أيست أن تعبد ببلادكم أبداً**— . وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بنو شيبان. قال مؤلف الكتاب: وقد اختلف العلماء في العزى على قولين؟ أحدهما: أنها شجرة كانت لغطفان يعبدونها. قاله مجاهد. والثاني: صنم. قاله الضحاك.

* * *

وفي رمضان أيضا كانت سرية عمرو بن العاص إلى سواع.

وذلك أن رسول الله بعثه حين فتح مكة إلى سواع، وهو صنم لهذيل، ليهدمه، قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله أن أهدمه، قال: لا تقدر على هدمه، قلت: ولم؟ قال: تمنع، قلت: ويحك هل يسمع أو يبصر، فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته وقلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله عز وجل.

* * *

ومن الحوادث سرية سعد بن زيد الأشهلي في رمضان أيضا إلى مناة بالمشلل.

بعثه رسول الله حين فتح مكة إلى مناة ليهدمها، وكانت المشلل للأوس والخزرج وغسان، فخرج في عشرين، فقال السادن: ما تريد؟ قال: هدمها، قال: أنت وذاك؟ ! فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل الثبور وتضرب صدرها، فبصر بها سعد فقتلها وهدموا الصنم.

قال مؤلف الكتاب: وسعد هذا قد شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله .

* * *

ومن الحوادث سرية خالد بن الوليد المخزومي إلى بني جديمة بن كنانة وكان أسفل مكة على ليلة ناحية يلملم.

وذلك أن خالداً لما رجع من هدم العزى بعثه رسول الله إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، ولم يبعثه مقاتلاً، وذلك في شوال، فخرج في ثلاثمائة وخمسين، فلما وصل إليهم قال لهم: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبنينا المساجد في ساحاتنا، وأذنا فيها قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا معهم، قال: فضعوا السلاح، فوضعوه، فقال: استأسروا، فاستأسروا، فأمر بعضهم يكتف بعضاً وفرقهم في أصحابه، فلما كان السحر نادى خالد: من كان معه أسير فليجهز عليه بالسيف؟ فأما بنو سليم من أصحابه فقتلوا من كان معهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فبلغ ذلك النبي ، فقال: **اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**. وبعث علي بن أبي طالب ☺ فودى قتلاهم.

وفيها: أسلم أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، والحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وهشام بن الأسود، وحويطب بن عبد العزى، وشيبة بن عثمان، والنضر بن الحارث.

* * *

ومن الحوادث غزوة حنين وحنين واد بينه وبين مكة ثلاث ليال وهي غزوة هوازن.

وذلك أن رسول الله لما فتح مكة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض وحشدوا وبغوا. وجمع أمرهم مالك بن عوف النصري، فأمرهم فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأمهاتهم حتى نزلوا بأوطاس، وجعلت الأمداد تأتيهم، وأخرجوا معهم دريد بن الصمة وهو أعمى ابن سبعين ومائة سنة يقاد وهو في شجار، وهو مركب من أعواد يهيأ للنساء، فقال: بأي وادهم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم، مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس - أي لين - ما لي أسمع رغاء الإبل ويعار الشاء، قيل له: ساق مالك بن عوف مع الناس الظعن والأموال، فقال: ما هذا يا مالك؟ قال: أردت أن أحفظ الناس - يعني أذمرهم من الحفيظة أن يقاتلوا عن أهاليهم وأموالهم فانقض به - أي صفق بيده - وقال: راعي الضأن ماله وللحرب، وقال: أنت محل بقومك وفاضح عورتك - أي قد أبحت شرفهم - لو تركت الظعن في بلادهم والنعم في مراتعها، ولقيت القوم بالرجال على متون الخيل، والرجال بين أضعاف الخيل، ومقدمة ذرية، أما الخيل كان الرأي، والذرية مقدمة الخيل.

فأجمع القوم السير إلى رسول الله ، فخرج إليهم رسول الله من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال في اثني عشر ألفاً من المسلمين: عشرة آلاف من المسلمين من أهل المدينة، وألفان من المسلمين من أهل مكة. فقال رجل: لا نغلب اليوم من قلة. وخرج مع رسول الله ناس من المشركين كثر؛ منهم: صفوان بن أمية، وكان رسول الله استعار منه مائة درع بأداتها، فانتهى إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال، فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب.

ووجه رسول الله عبد الله بن أبي حدرد، فدخل عسكرهم فطاف به وجاء بجبرهم، فلما كان من الليل عمد مالك إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، فأوعز إليم أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة، وعبأ رسول الله أصحابه في السحر وصفهم صفوفاً ووضع الألوية والرايات في أصحابه، فمع المهاجرين لواء حمله علي بن أبي طالب، وراية يحملها سعد بن أبي وقاص، وراية يحملها عمر بن الخطاب، ولواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير، وركب رسول الله بغلته البيضاء التي تسمى الدلدل، ولبس درعين والمغفر والبيضة، فاستقبلهم من هوازن شيء لم يروا مثله قط من الكثرة، وذلك في غبش الصبح، وحملوا حملة واحدة، فانهزم الناس، فجعل رسول الله يقول: **يا أنصار الله وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله**. ورجع رسول الله إلى العسكر وثاب إليه من انهزم، وثبت معه يومئذ علي، والفضل والعباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، وأبو بكر، وعمر، وأسامة ابن زيد في ناس من أهل بيته وأصحابه.

أخبر كثير بن عباس بن عبد المطلب، عن أبيه العباس، قال: شهدت مع رسول الله حنيناً قال: لقد رأيت النبي وما معه إلا أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فلزمنا رسول الله فلم نفارقه وهو على بغلة شهباء، - وربما قال معمر: بيضاء - أهداها له فروة بن نعامة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، وطفق رسول الله يركض بغلته قبل الكفار.

قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفها، وهو لا يألو ما أسرع نحو المشركين، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بغرز رسول الله ، فقال رسول الله : **يا عباس، ناد يا أصحاب السمرة**. قال: وكنت رجلاً صيتاً، فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البكر على أولادها. فقالوا: يا لبيك يا لبيك. يا لبيك، ووافاهم المسلمون فاقتتلوا هم والكفار، فنادت الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار. ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنادوا: يا بني الحارث بن الخزرج. قال: فنظر رسول الله وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله : **هذا حين حمي الوطيس**. قال: ثم أخذ رسول الله حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: " انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة ". قال: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلاً، وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله. قال: وكأني أنظر إلى النبي يركض خلفهم على بغلته.

عن أبي عبد الرحمن الفهري، قال: كنت مع رسول الله في غزوة حنين، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال شجرة، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حان الرواح، فقال: **أجل يا بلال** فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك، فقال: **أسرج لي فرسي**، فأخرج سرجاً دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر، شال: فأسرج فركب وركبنا، فصادفناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله عز وجل.

فقال رسول الله : **يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله**. ثم قال: **يا معشر المهاجرين، أنا عبد الله ورسوله** قال: ثم اقتحم رسول الله عن فرسه فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدق إليه مني أنه ضرب به وجوههم، وقال: **شاهت الوجوه**، فهزمهم الله عز وجل.

قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الحديد.

قال علماء السير: لما انهزموا أمر رسول الله أن يقتل من قدر عليه منهم فحنق المسلمون عليهم فجعلوا يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فنهى رسول الله عن قتل الذرية، وكان سيماء الملائكة يوم حنين عمائم حمر قد أسدلوها بين أكتافهم. وعقد رسول الله لأبي عامر الأشعري لواء ووجهه في طلبهم، فمنهم من ذهب إلى الطائف ومنهم من ذهب إلى نخلة، وقتل أبو عامر ممن لحق تسعة ثم قتل، واستخلف أبو عامر أبا موسى الأشعري، فقاتلهم.

وبعث رسول الله خلف من سلك طريق نخلة قوماً فلقي منهم ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة، فقال له: ما تريد؟ قال: قتلك، ثم ضربه ربيعة فلم يغن شيئاً، فقال دريد: بئسما سلحتك أمك، خذ سيفي من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أقتل الرجال، فإذا أتيت أمك فقل: قتلت دريد بن الصمة، فقتله.

وكان في تلك الغزوة أم سليم معها خنجر.

عن أنس، قال: جاء أبو طلحة يوم حنين يضحك رسول الله من أم سليم، قال: يا رسول الله، ألم تر إلى أم سليم معها خنجر، فقال لها، رسول الله: **ما تصنعين به يا أم سليم؟—** قالت: أردت إن دنا مني أحد منهم طعنته به. ثم إن رسول الله رحل فانتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً، وأحرم بعمرة ودخل مكة وطاف وسعى وحلق رأسه، ثم رجع إلى الجعرانة من ليله كبايت، ثم انصرف يوم الخميس إلى المدينة.

وجاء وفد هوازن فسألوا رسول الله ، قال عبد الله بن عمرو: سألوا رسول الله : أمنن علينا، فقام رجل منهم من بني سعد بن بكر بن هوازن - وبنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله - يقال له: زهير بن صرد: لو أنا سألنا الحارث ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ورجونا عطفه، ثم أنشد في أبيات أخر، فقال رسول الله : **أيما أحب إليكم أبناؤكم ونساؤكم أم أموالكم—**، فقالوا: نساؤنا وأبناؤنا، فقال: **أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فإذا أناصليت بالناس، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم وأسأل لكم—**، فقاموا وقالوا، فقال: **أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم—**، فقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأنصار كذلك، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال رسول الله : **من أمسك حقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم—**.

عن عبد الله بن جعفرقال: قدم وفد هوازن على رسول الله بالجعرانة بعد ما قسم الغنائم، وفي الوفد عم رسول الله من الرضاعة أبو برقان، فقال يومئذ: يا رسول إنما في هذه الحظائر من كان يكلأوك من عماتك وخالاتك وحواضنك، قد حضناك في حجورنا وأرضعناك ثدينا، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت خيراً منك، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك، ورأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك، فامنن علينا من الله عليك، فقال رسول الله : **قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون**ــــ وقد قسم رسول الله السبي، وجرت فيه السهمان، وقدم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين، وجاءوا بإسلام من وراءهم من قومهم، وكان رأس القوم والمتكلم أبو صرد زهير بن صرد، فقال يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك، ولو ملحنا للحارث بن شمر أو النعمان بن المنذر ثم نزلا منا مثل الذي نزلت به رجونا عطفهما علينا وأنت خير المكفولين، فقال رسول الله : **إن خير الحديث أصدقه، وعندي من ترون من المسلمين، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**ــــ قالوا: ما كنا نعدل بالأنساب شيئاً، فرد علينا أبناءنا ونساءنا، فقال: " أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا صليت الظهر بالناس فقولوا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله، وإني سأقول لكم ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وسأطلب لكم إلى الناس ". فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بما قال لهم، فرد عليهم: " ما كان لي ولبني عبد المطلب " ورد المهاجرون ورد الأنصار، وسأل قبائل العرب فاتفقوا على قول واحد بتسليمهم برضاهم، ودفع ما كان بأيديهم من السبي إلا قوم تمسكوا بما في أيديهم فأعطاهم رسول الله إبلاً عوضاً عن ذلك.

قال علماء السير: وسأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف، فقالوا: هو بالطائف، فقال: " إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل " فبلغه فأتى وأسلم، فأعطاه رسول الله واستعمله على قومه وعلى من أسلم من حول الطائف. فلما فرغ رسول الله ورد السبي ركب وتبعه الناس يقولون: اقسم علينا الإبل والغنم حتى ألجأوه إلى شجرة فخطفت رداءه، فقال: **ردوا علي ردائي، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً لقسمتها عليكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً**ــــ. ثم أمر رسول الله بالغنائم فجمعت، فكان السبي ستة آلاف رأس.

وقال مؤلف الكتاب: وقد ذكرنا أنه رد ذلك، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة، فأعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم، وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية، ومائة من الإبل، قال: ابني يزيد، قال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**، قال: ابني معاوية، قال: **أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل**، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى فأعطاه، أو أعطى النضر بن الحارث مائة من الإبل، وكذلك أسيد بن حارثة، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وقيس بن عدي، وحويطب، والأقرع بن حابس، وعيينة، ومالك بن عوف. وأعطى العلاء بن حارثة خمسين بعيراً، وكذلك مخرمة بن نوفل، وعثمان ابن وهب، وسعيد بن يربوع، وهشام بن عمرو، وذلك كله من الخمس، وأعطى العباس بن مرداس أباعر، فلم يرض والعنيد اسم فرسه فزاده حتى رضي.

وكانت هذه القسمة بالجعرانة، وحينئذ تكلمت الأنصار، وقالوا: أما عند، القتال فنحن، وحينئذ قام ذو الخويصرة فقال: أعدل فإنك لم تعدل.

روى جابر، قال: كان رسول الله بالجعرانة وهو يقسم الغنائم والتبر وهو في حجر بلال، فقام رجل فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله : **إن هذا في أصحاب له، وإن أصحاباً لهذا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**. قال مؤلف الكتاب: وهذا الرجل يعرف بذي الخويصرة.

* * *

ومن الحوادث بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي بالبحرين يدعوه إلى الإسلام.

إن رسول الله لما انصرف من الجعوانة بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر ابن ساوي العبدي وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام، وكتب له كتاباً، فكتب إلى رسول الله بإسلامه: إني قد قرأت كتابك على أهل هجر، فمنهم من أعجبه الإسلام ودخل فيه ومنهم من كرهه، وما رضي يهود ومجوس، فأحدث إلي في ذلك أمرك. فكتب إليه رسول الله : " إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ".

* * *

ومن الحوادث سرية الطفيل بن عمرو السدوسي إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسي.

وذلك أن رسول الله لما أراد المسير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج فهدم ذا الكفين، وأخذ من قومه أربعمائة فوافوا النبي بالطائف، وقدم على رسول الله وفد ثعلبة فأجارهم.

ومن الحوادث في شوال غزوة الطائف.

وذلك أن رسول الله خرج من حنين يوم الطائف، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته، وقد كانت ثقيف رموا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة، وتهيؤوا للقتال. وسار رسول الله ، فنزل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل حتى أصيب ناس من المسلمين، ورمي عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتقض به بعد ذلك فمات منه، فحاصرهم رسول الله ثمانية عشر يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً، ونصب عليهم المنجنيق، ونادى منادي رسول الله : " أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ". فخرج بضعة عشر رجلاً فيهم أبو بكرة فنزل في بكرة، فقيل أبو بكرة ولم يؤذن للنبي في فتح الطائف، فأذن بالرحيل، فقال المسلمون: نرحل ولم يؤذن بفتح لنا، قال: **فاغدوا على القتال**، فقاتلوا وأصابتهم جراحات، فقال رسول الله : **إنا قافلون** فسروا بذلك.

عن مكحول: أن رسول الله نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً.

ومما جرى في هذا الحصار.

عن أم سلمة، قالت: كان النبي جالساً في بيت أم سلمة وعنده مخنث جالس، فقال لعبد الله بن أبي أمية أخي أم سلمة: يا عبد الله، إن فتح الله عليكم الطائف غداً أدلك على بنت غيلان امرأة من ثقيف تقبل بأربع وتدبر بثمان - يعني عكناها، فقال رسول الله : **لا يدخل هذا عليكن**.

قال مؤلف الكتاب: اسم هذا المخنث هيت وقيل: ماتع. وكان المخنثون على عهد رسول الله : ماتع، وهدر، وهيت.

* * *

إسلام عروة بن مسعود الثقفي

عن عبد الله بن أبي يحيى الأسلمي، عن من أخبره، قالوا: لم يحضر عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة حصار الطائف، كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات، فقدما وقد انصرف رسول الله عن الطائف، فنصبا المنجنيق والعرادات والدبابات، واعتدا للقتال، ثم ألقى الله في قلب عروة بن مسعود الإسلام وغيره عما كان عليه، فخرج إلى رسول الله ثم استأذن في الخروج إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فقال: إنهم إذا قاتلوك؟ قال: لا أنا أحب إليهم من أبكار أولادهم، ثم استأذنه الثانية ثم الثالثة، فقال: إن شئت فاخرج. فخرج إلى الطائف فقدم عشاء فدخل منزله فجاء قومه فحيوه بتحية الشرك، فقال: عليكم بتحية أهل الجنة السلام، ثم دعاهم إلى الإسلام، فخرجوا من عنده يأتمرون به، فلما طلع الفجر أوفى على غرفة له فأذن بالصلاة، فخرجت ثقيف من كل ناحية، فرماه رجل من بني مالك، يقال له أوس بن عوف فأصاب أكحله فلم يروا دمه، وقام غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد يا ليل، والحكم بن عمرو، ووجوه الأحلاف فلبسوا السلاح وساروا، فلما رأى ذلك عروة، قال: قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بذلك بينكم، وهي كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ومات فدفنوه معهم، وبلغ رسول الله خبرهم، فقال: **قتله كقتل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه**.

* * *

ومما جرى في مسير رسول إلى الطائف أنهم مروا بقبر أبي رغال

عن إسماعيل بن أمية بن أبي بكير يقول: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: **هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، كان من ثمود، وكان هذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، فإن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه**. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن.

* * *

طلاق رسول الله سودة:

أن رسول الله طلق سودة، فجعلت يومها لعائشة فراجعها. كذا قال ابن حبيب الهاشمي. وقال غيره: أراد طلاقها، فقالت: دعني أحشر في نسائك، واجعل يومي لعائشة.

عن أنس بن مالك، قال: غلا السعر على عهد رسول الله ، فقالوا: يا رسول الله، لو سعرت لنا؟ قال: **إن الله هو الخالق القابض الباسط الرازق المسعر، وإني لأرجو أن ألقى الله عز وجل ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال**.

* * *

وفي هذه السنة ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية وذلك في ذي الحجة:

عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قالوا: ولدت مارية لرسول الله ، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول الله ، فخرجت إلى زوجها أبي رافع فأخبرته بأنها قد ولدت غلاماً، فجاء أبو رافع إلى رسول الله فبشره، فوهب له عبداً وسماه إبراهيم، وعق عنه بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، وتنافست فيه نساء الأنصار أيتهن ترضعه، فدفعه رسول الله إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد، وزوجها البراء ابن أوس، وكان رسول الله يأتي أم بردة فيقيل عندها ويرى إبراهيم. وغار نساء رسول الله واشتد عليهن حين رزق منها الولد.

سنة تسع من الهجرة:

وذلك أن رسول الله بعث عيينة في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري. فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم فهربوا، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبياً فحبسوا بالمدينة، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم منهم: عطاود بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس.

فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري، فعجلوا فجاءوا إلى باب النبي ، فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فنزل فيهم:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾} [الحجرات: ٤] فرد عليهم الأسراء والسبي.

عن سعيد بن عمرو، قال: بعث رسول الله بشر بن سفيان ويقال: النحام على صدقات بني كعب فاستكبر ذلك بنو تميم وشهروا السيوف، فقدم الصدق على رسول الله فأخبره فقال: من هؤلاء القوم، فانتدب لهم عيينة فبعثه رسول الله في خمسين فارساً من الحرب لير فيهم مهاجري ولا أنصاري، فأغار عليهم فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً، فجلبهم إلى المدينة فقدم فيهم عدة من رؤساء بني تميم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس ابن عاصم بن الحارث، ونعيم بن سعد، والأقرع بن حابس، ويقال: كانوا تسعين أو ثمانين، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله فعجلوا واستبطأوا فنادوه: يا محمد اخرج إلينا، فخرج فأقام بلال الصلاة فصلى رسول الله صلاه الظهر ثم أتوه، فقال الأقرع: ائذن لي فوالله إن حمدي لزين وإن ذمي لشين، فقال رسول الله : **كذبت ذاك الله تعالى**. ثم خرج رسول الله فجلس فخطب خطيبهم وهو عطارد بن حاجب، فقال رسول الله لثابت بن قيس: أجبه، فأجابه ثم قالوا: يا محمد ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد فقال رسول الله لحسان بن ثابت: **أجبه**، فأجابه بمثل شعره، فقالوا والله لخطيبه أبلغ من خطيبنا ولشاعره أبلغ من شاعرنا، ولهم أحلم منا، فنزل فيهم:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾}[الحجرات: ٤].

وقال رسول الله في قيس بن عاصم: **هذا سيد أهل الوبر**، ورد عليهم رسول الله الأسرى والسبي، وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفود.

* * *

وفي هذه السنة تتابعت الوفود.

قدوم وفد فزارة. عن أبي وجزة السعدي، قال: لما رجع رسول الله من تبوك - وكانت سنة تسع - قدم عليه وفد بني فزارة بضعة عشر رجلاً - فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس - أو قيل الجد بن قيس - بن حصن - على ركاب عجاف، فجاؤوا مقرين بالإسلام، وسألهم رسول الله عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربك، فصعد رسول الله المنبر، ودعا فقال: **اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً مطبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار، اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء**. فمطرت فما رأوا السماء ستاً، فصعد رسول الله المنبر، فدعا، فقال: **اللهم حوالينا ولا علينا، على الآكام، والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**. قال: فانجابت السماء عن المدينة انجياب الثوب.

وفد تجيب على رسول الله :

عن أبي الحويرث، قال: قدم وفد تجيب على رسول الله سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلاً، وساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسر رسول الله ، وقال: **مرحباً بكم**ــ وأكرم منزلتهم وحياهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم، وأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفد، وقال: **هل بقي منكم أحد؟**ــ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً قال: **أرسلوه إلينا**ــ، فأقبل الغلام إلى رسول الله ، فقال: إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي، قال: **ما حاجتك؟**ــ، قال: أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فقال: **اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه**ــ ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ثم وافوا رسول الله في الموسم بمنى سنة عشر، فسألهم رسول الله عن الغلام، فقالوا: ما رأينا مثله أقنع منه بما رزقه الله، فقال رسول الله : **إني لأرجو أن نموت جميعاً**ــ.

وفيها قدم وفد بني أسد.

وقالوا: أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث لنا بعثاً، فنزلت فيهم:{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا} [الحجرات: ١٧].

وفيها قدم وفد كلاب فيهم لبيد بن ربيعة، وجبار بن سلمى، قالوا: إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته، ودعانا إلى الله عز وجل فاستجبنا لله ولرسوله وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا.

وفيها قدم وفد بلي في ربيع الأول، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوي.

وفيها قدم وفد عروة بن مسعود الثقفي فأسلم، وقد سبق خبره فيما ذكرنا.

وفيها قدم وفد الداريين من لخم وهم عشر: هانئ بن حبيب، والفاكه بن النعمان وجبلة بن مالك، وأبو هند بن ذر، وأخوه الطيب سماه رسول الله ، وتميم بن أوس، ونعيم بن أوس، ويزيد بن قيس، وعزيز بن مالك سماه رسول الله عبد الرحمن، وأخوه مرة. وفيها قدم وفد الطائف مع عبد يا ليل بن عمرو، فأسلموا، وذلك في رمضان. وفيها قدم وفد بهراء ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو. وفيها قدم وفد البكاء وفيها قدم وفد طيء ووفد سعد هزيم وهم من أهل اليمن. عن فروة بن سعيد بن عفيف بن معدي كرب، عن أبيه، عن جده

قال: كنا عند رسول الله فجاءه وفد أهل اليمن، فقالوا: يا رسول الله، لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس، فقال: **وما هما؟**، قالوا: أقبلنا نريدك إذا كنا بموضع كذا وكذا أخطأنا الماء، فكنا لا نقدر عليه، فانتهينا إلى موضع طلح وسمر، فانطلق كل رجل منا إلى أصل شجرة ليموت في ظلها، فبينا نحن في آخر رمق إذا راكب قد أقبل، فقال الراكب: من يقول هذا الشعر؟ فقال بعضنا: امرؤ القيس، فقال: هذه والله ضارج أمامكم، وقد رأى ما بنا من الجهد، فرجعنا إليها فإذا بيننا وبينها نحو من خمسين ذراعاً، وإذا هي كما وصف امرؤ القيس: عليها العرمض يفيء عليها الظل، فقال رسول الله : **ذاك رجل مشهور في الدنيا خامل في الآخرة، مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء يقودهم إلى النار**.

* * *

وفيها بعث رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة يصدقهم.

وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنوه خرج منهم عشرون يتلقونه بالجزر والغنم فرحاً به، فلما رآهم ولى راجعاً إلى المدينة، فأخبر رسول الله أنهم لقوه بالسلاح، فهم أن يبعث من يغزوهم، فقدموا لما بلغ الخبر، ونزلت:{إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ} [الحجرات: ٦] وبعث معهم رسول الله الحارث بن عباد بن بشر يأخذ صدقاتهم.

وروي عن ضرار الخزاعي، قال: قدمت على رسول الله فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، ارجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته، فيرسل رسول الله رسولاً لا تأت كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة. فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الأبان الذي أراد رسول الله أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخط من الله ورسوله، فدعى بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله كان وقت لي وقتاً يرسل رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله .

وبعث رسول الله الوليد بن عقبة ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع، فأتى رسول الله ، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث وقد فصل من المدينة، فلقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله كان بعث الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله قال: " منعت الزكاة وأردت قتل رسولي قال: والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ولا أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله خشيت أن تكون قد كانت سخطة من رسول الله قال: فنزلت:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ} [الحجرات: ٦] الآية.

* * *

وفيها سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم في صفر

روى كعب بن مالك، قال: إن رسول الله بعث قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم بناحية تبالة، وأمره أن يشن الغارة عليهم، فانتهوا إلى الحاضر وقد ناموا وهدأوا، فكبروا وشنوا الغارة، فوثب القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجراح في الفريقين جميعاً وكسرهم أصحاب قطبة فقتلوا من قتلوا وساقوا النعم والشاء إلى المدينة، فأخرج منه الخمس، ثم كانت سهامهم بعد ذلك أربعه أبعرة لكل رجل، والبعير يعدل بعشر من الغنم. وكانت هذه السرية في صفر سنة تسع.

قال ابن سعد: قال أبو معشر: رمى قطبة بن عامر يوم بدر بحجر بين الصفين، ثم قال: لا أفر حتى يفر هذا الحجر، وبقي قطبة حتى توفي في خلافة عثمان بن عفان ☺، وليس له عقب.

* * *

وفيها سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول

وذلك أن رسول الله بعث جيشاً إلى القرطاء عليهم الضحاك بن سفيان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم.

* * *

وفيها سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة في ربيع الآخر.

وذلك أنه بلغ رسول الله أن ناساً من الحبشة قد أتاهم أمل جدة، فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة فهربوا منه، فتعجل بعض القوم: إلى أهلهم، وكان فيمن تعجل عبد الله بن حذافة، فأمره رسول الله على من تعجل، وكانت فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً فقال: عزمت عليكم إلا تواثبتم في هذه النار، فهم بعضهم بذلك، فقال: أنا كنت أضحك معكم، فذكروا ذلك لرسول الله ، فقال: **من أمركم بمعصية فلا تطيعوه**.

عن علي ☺، قال: بعث رسول الله سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، قال: فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فهم القوم بدخولها. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا النبي ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله فأخبروه، فقال لهم: **لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة بالمعروف**.

* * *

وفيها سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس وهو صنم طيئ ليهدمه.

وذلك أن رسول الله بعث علياً في خمسين ومائة من الأنصار في مائة بعير وخمسين فرساً إلى صنم طيئ ليهدمه في ربيع الآخر، وبعث معه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة وخربوا الفلس، وأخذوا سيفين كانوا في بيت الصنم، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم، وكان في السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام وروى محمد بن إسحاق، عن شيبان بن سعد الطائي، قال: كان عدي بن حاتم يقول: ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله حين سمع به مني أما أنا فكنت نصرانياً، وكنت شريفاً في قومي، فلما سمعت بجيوش محمد احتملت أهلي وولدي لألحق بأهل ديني من النصارى وخلفت ابنة حاتم في الحاضر فأصيبت فيمن أصيب، فقدم بها على رسول الله في سبي طيئ، فجعلت في حظيرة بباب المسجد كانت تحبس بها السبايا، فلما مر بها رسول الله قامت إليه، فقالت: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك، قال: **فمن وافدك؟** قالت: عدي بن حاتم، قال: " الفار من الله ورسوله "، ثم مضى، ثم عاد من الغد، فقالت مثل ذلك، فقال: " قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك "

فلما رأت ثقة أخبرت رسول الله ، فكساها وحملها وأعطاها نفقة، فقدمت على عدي فجعلت تقول: القاطع الظالم احتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك، قال: والله مالي عذر، ما ترين في هذا الرجل، قالت: أرى والله أن تلحق به، فأتيته فقال: **من الرجل؟**— فقلت: عدي بن حاتم، فانطلق بي إلى بيته، فلقيته امرأة ضعيفة فوقف لها طويلاً، فقلت: ما هذا بملك. ثم مضى حتى دخل بيته، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إلي وجلس على الأرض، فقلت: ما هذا بأمر ملك، فأسلمت.

ومن الحوادث سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الجناب أرض عذرة وبلي وذلك في ربيع الآخر.

وفيها هجر رسول الله نساءه، وقال: ما أنا بداخل عليكن شهراً. قال مؤلف الكتاب: وفي سبب ذلك قولان: أحدهما: أنه حين حرم أم إبراهيم أخبر بذلك حفصة واستكتمها، فأخبرت بذلك. والثاني: أنه ذبح ذبحاً فقسمته عائشة بين أزواجه، فأرسلت إلى زينب بنت جحش بنصيبها، فردته، فقال: زيدوها، فزادوها ثلاثاً كل ذلك ترده، فقال: **لا أرضى عليكن شهراً**—. فاعتزل في مشربة له، ثم نزل لتسع وعشرين، فبدأ بعائشة ♥ فقالت: يا رسول الله، كنت أقسمت ألا تدخل علينا شهراً، وإنما أصبحت من تسع وعشرين أعدها عداً، فقال: " لم الشهر تسع وعشرون " وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين.

وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك وذلك في رجب.

وذلك أن رسول الله بلغه أن الروم قد جمعت جموعاً كبيرة، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله الناس، وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب ليستنفرهم، وذلك في حر شديد، وخلف علي بن أبي طالب على أهله، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وجاء البكاؤون يستحملونه. واختلف في عددهم وأسماءهم، فروى أبو صالح عن ابن عباس، قال: هم ستة: عبد الله بن معقل، وصخر بن سلمان. وعبيد الله ابن كعب، وعلية بن زيد، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة.

وذكر محمد بن مسلمة مكان صخر بن سلمان، سلمة بن صخر، ومكان ثعلبة ابن غنمة، عمرو بن غنمة، قال: وقيل منهم معقل بن يسار.

وروى ابن إسحاق عن أشياخ له: أن البكائين سبعة من الأنصار: سالم بن عمير، وعلية بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحمام، وعبد الله بن معقل، وبعض الناس تقول عبد الله بن عمرو المؤني، وعرباض بن سارية، وهرمي بن عبد الله.

وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن، وهم سبعة وقد ذكرهم محمد بن سعد، فقال: النعمان بن عمرو بن مقرن، وسنان بن مقرن، وعقيل بن مقرن، وعبد الرحمن بن مقرن، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن، وقال لهم رسول الله : **لا أجد ما أحملكم عليه** فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً.

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله في التخلف من غير علة فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلاً، وجاء المعذرون من الأعراب، فاعتذروا فلم يعذرهم، وهم اثنان وثمانون رجلاً، وكان عبد الله بن أبي قد عسكر في حلفائه من اليهود والمنافقين على ثنية الوداع، واستخلف النبي على المدينة محمد بن مسلمة، وجاء واثلة بن الأسقع فبايعه ثم لحق به، فلما سار تخلف عبد الله بن أبي ومن معه، وبقي نفر من المسلمين، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر الغفاري فقدم تبوكاً في ثلاثين ألفاً من الناس، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس، وكان على حرسه عباد بن بشير، ولقوا في الطريق شدة.

قيل لعمر بن الخطاب ☺: حدثنا عن ساعة العسرة، قال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلن منزلاً أصابنا فيه عطش شديد ظننا أن رقابنا ستقطع حتى أن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تتقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر ☺: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: " تحب ذلك "، قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

وفي هذه السفرة: اشتد بهم العطش ومعهم أداوة فيها ماء فصبه رسول الله في إناء ففاضت حتى روي العسكر وهم ثلاثون ألفاً، والإبل اثنا عشر ألفاً، والخيل عشرة آلاف.

وفيها: مر رسول الله بالحجر من أرض ثمود، واستقى الناس من أبيارهم فنهاهم.

قال ابن عمر: إن الناس نزلوا مع رسول الله أرض ثمود الحجر فاستسقوا من أبيارها وعجنوا به، فأمرهم رسول الله أن يهريقوا ما استقوا من أبيارها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من النهر التي كانت ترده الناقة.

فصل

قال علماء السير: أقام رسول الله بتبوك عشرين ليلة، ولحقه أبو خيثمة وأبو ذر، وكان أبو خيثمة قد رجع من بعض الطريق، فوجد امرأتين لـه، قد هيأت كل واحدة منهما عريشاً وبردت فيه ماء وهيأت طعاماً، فوقف فقال: رسول الله في الضح والريح وأبو خيثمة في ظلال وماء بارد، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله . فلحقه ثم انصرف رسول الله ولم يلق كيداً، وكان هرقل يومئذ بحمص.

* * *

فصل

فبعث رسول الله خالد بن الوليد في أربع مائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، وكان أكيدر قد ملكهم وكان نصرانياً، فانتهى إليه خالد بن الوليد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد فاستأسر أكيدر، وامتنع أخوه حسان فقاتل حتى قتل وهرب من كان معه، فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، فعزل لرسول الله صفياً خالصاً، ثم قسم الغنائم، فأخرج الخمس ثم قسم ما بقي فقدم به وبأخيه على النبي ، فقدم أكيدر على رسول الله فأهدى له هدية وصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما وكتب لهما كتاباً فيه أمانهم. وفي طريق رجوع رسول الله إلى المدينة من تبوك قال من قال من المنافقين: إنما كنا نخوض ونلعب. وروى صالح عن ابن عباس: أن جد بن قيس، ووديعة بن خدام والجهير بن جمير كانوا يسيرون بين يدي رسول الله مرجعه من تبوك، فجعل رجلان منهم يستهزئان برسول الله والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون به ويضحكون منه، فقال لعمار بن ياسر: " إذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم أحرقكم الله " ولما سألهم وقال لهم: أحرقكم الله، وعلموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ، وقال الجهير: والله ما تكلمت بشيء وإنما ضحكت تعجباً من قولهم، فنزل قوله:{ لَا تَعۡتَذِرُواْ} [التوبة: ٦٦] - يعني جد بن قيس ووديعة - أن نعف عن طائفة منكم - يعني الجهير - نعذب طائفة " - يعني الجد ووديعة.

وفي طريق رجوعه من تبوك، قال: إن بالمدينة أقواماً.

عن أنس، قال: رجعنا من غزاة تبوك فلما دنونا من المدينة قال رسول الله : **إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيرا ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: **نعم حبسهم العذر**.

فقدم رسول الله المدينة في رمضان، وجاءه من تخلف فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحبيه حتى نزلت توبتهم وجعل الناس يبيعون أسلحتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد، فبلغ ذلك رسول الله فنهاهم، وقال: **لا تزال طائفة من أمتي يجاهدون على الحق حتى يخرج الرجال**.

* * *

فأما قصة كعب وصاحبيه.

أخبر عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها لأنه إنما خرج رسول الله يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أشهر في الناس منها وأذكر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله في غزوة تبوك لأني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله قلما يريد غزاة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزاة، فغزاها رسول الله في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمره ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، فقال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل، وغزا رسول الله تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل، وأما النهار أصعر، فتجهز إليها رسول الله والمؤمنون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل كذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين

ثم ألحقهم، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارض الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ، فطفت فيهم يحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله، ولم يذكرني رسول الله حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: " ما فعل كعب بن مالك "، قال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله .

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتفكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه، غداً أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه، وصبح رسول الله ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي: " تعال "، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: " ما خلفك؟ ألم تكن قد استمر ظهرك؟ قال: فقلت: يا رسول الله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً ولكنه والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم، بكذب ترضى به عني ليوشكن الله تبارك وتعالى يسخطك علي، ولئن حدثتك اليوم بصدق تجد علي فيه إني لأرجو قرة عيني عفواً من الله تعالى، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول الله : **أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله تبارك وتعالى فيك**. فقمت وبادرت رجالاً من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر به المتخلفون، لقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله لك، ثم قال: والله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: فقلت لهما: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فقلت: لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، قال: وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكنا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله في مجلسه بعد الصلاة فأسلم فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا أطال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله، قال: فسكت، قال: فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي ونزلت حتى تسورت الحائط. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا بنبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد. فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك.

قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها فلا تقربها. قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله فقالت له: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائر ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: " لا ولكن لا يقربنك " قالت: فإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه

قال: فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ، وما أدري ما يقول رسول الله إذا استأذنته وأنا رجل شاب. قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تبارك وتعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي يبشرون، وركض إلي رجل راكب فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشارته، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ، فأستعرت ثوبين، فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بالتوبة يقولون يهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس في المسجد حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره.

قال فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ، قال وهو يبرق وجهه من السرور: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**ـــ قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله، قال: **لا بل من عند الله**ـــ. قال: وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أتخلع من مالي صدقة إلى الله تعالى، وإلى رسوله، قال رسول الله : **أمسك بعض مالك فهو خير لك**ـــ. قال: فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله إنما نجاني الله تعالى بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني الله تبارك وتعالى، والله ما تعمدت كذباً منذ قلت ذلك لرسول الله: إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: وأنزل الله تبارك وتعالى:{ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾} [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

قال كعب: فوالله ما أنعم الله تبارك وتعالى علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه حين كذبوه، فإن الله تبارك وتعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما يقال لأحد، فقال الله تعالى:{ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾} [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

قال: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم فأرجئ رسول الله أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه، فبذلك قال الله تعالى:{وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟} [التوبة: ١١٨] وليس تخليفه إيانا، وإرجاءه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

قال مؤلف الكتاب: أخرجاه في الصحيحين.

* * *

ومن الحوادث إسلام خريم بن أوس.

ومن الحوادث: بعد قدوم رسول الله من تبوك إسلام خريم بن أوس وامتداح العباس رسول الله بأبياته المعروفة.

قال خريم بن أوس: هاجرت إلى رسول الله ، فقدمت عليه منصرفه من تبوك، فأسلمت، وسمعت العباس يقول: يا رسول الله. إني أريد أن أمتدحك " فقال رسول الله : **قل لا يفضض الله فاك**، فأنشأ العباس.

ومن الحوادث فيها بعد مقدمه من تبوك قدم عليه كتاب ملوك حمير بأسلامهم.

عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدم على رسول الله كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ورسولهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر؛ وبعث إليه زرعه بن ذي يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك، فكتب إليهم رسول الله : " بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر أما بعد، فإني أحمد الله إليكم الله، الذي لا إله إلا هو، فإنه وقع إلينا رسولكم مقفلنا من أرض الروم

فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم وخبر ما قلتم، وأنبأنا بإسلامكم وإسلام من قبلكم من المشركين، وأن الله قد هداكم بهدايته، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خمس الله، وخمس نبيه وصفيه، وما كتب الله على المؤمنين من الصدقة، ومن كان على يهوديته ونصرانيته فإنه لا يغير عنها وعليه الجزية.

أما بعد فإن رسول الله محمداً أرسل إلى زرعة بن ذي يزن أن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة ابن مالك، وأميرهم معاذ بن جبل، فلا يتقلبن إلا راضياً، ثم إن مالك بن مرة حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً.

* * *

وفي هذه السنة حج أبو بكر بالناس في ذي الحجة:

قاله محمد، وقال مجاهد: وافقت حجة أبي بكر ذي القعدة، ثم حج رسول الله في العام القابل في ذي الحجة، وذلك حين قال: **إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض**ـــ وذلك أن العرب كانوا يستعملون النسيء فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم كذلك حتى تتدافع الشهور فيستدير التحريم على السنة كلها، فوافقت حجة أبي بكر ذي القعدة.

وذلك أن رسول الله استعمله على الحج، فحج في ثلاثمائة رجل، وبعث معه رسول الله عشرين بدنة، فلما كان بالعرج لحقه علي بن أبي طالب ☺ على ناقته القصواء، فقال أبو بكر: استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده، فمضى أبو بكر فحج بالناس. وقرأ علي ☺ براءة، وقال: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم رجعا قافلين إلى المدينة.

روى أبو سعيد الخدري، قال: بعث رسول الله أبا بكر على الموسم، وبعث بسورة براءة وأربع كلمات إلى الناس، فلحقه علي بن أبي طالب ☻ في الطريق، فأخذ علي ☺ السورة والكلمات وكان يبلغ وأبو بكر على الموسم، فإذا قرأ السورة نادى: لا تدخل الجنة إلا نفس مسلمة ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى مدته. فلما رجعا قال أبو بكر ☺: ما لي هل نزل في شيء؟ قال: لا إلا خيراً، قال: وما ذاك؟ قال: إن علياً ☺ لحق بي فأخذ مني السورة والكلمات. قال: أجل لم يكن يبلغها إلا أنا أو رجل مني.

وفيها أمر رسول الله بهدم مسجد الضرار:

وذاك أنه لما اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله فصلى فيه حسدهم أخوتهم بنو غنم بن عوف، وكانوا من منافقي الأنصار، فقالوا نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله فيصلي فيه وليصلي أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فأخبر الله عز وجل رسوله فأمر بهدمه وإحراقه.

* * *

وفيها رجم الغامدية:

حدث عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: إني كنت جالساً عند النبي فجاءته امرأة من غامد، فقالت: يا نبي الله، إني قد زنيت وأنا أريد أن تطهرني، فقال لها النبي : **ارجعي**. فلما أن كان من الغد أتته أيضاً فاعترفت عنده بالزنا، فقالت: يا رسول الله، إني زنيت وأنا أريد أن تطهرني، فقال لها النبي : **ارجعي**، فلما أن كان من الغد أتته أيضاً فاعترفت عنده بالزنا، فقالت: يا نبي الله، طهرني فلعلك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك، فوالله إني لحبلى، فقال لها النبي : **ارجعي حتى تلدي**.

فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله، فقالت: يا نبي الله، ها قد ولدت، قال: **فاذهبي فارضعيه حتى تفطميه**، فلما فطمته جاءت بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: يا نبي الله، ها قد فطمته، فأمر النبي بالصبي فدفعه إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها حفيره فجعلت فيها إلى صدرها، ثم أمر الناس أن يرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجنة خالد فسبها، فسمع النبي سبه إياها، فقال: **مهلاً يا خالد بن الوليد، لا تسبها، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له** فأمر بها فصلي عليها ودفنت.

وفيها لاعن رسول الله بين عويمر بن الحارث وبين امرأته بعد العصر في مسجد النبي وكان قد قذفها بشريك بن سحماء

* * *

سنة عشر من الهجرة:

فروى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، قال: بعث رسول الله خالد ابن الوليد في ربيع الآخر - أو في جمادى الأولى - في سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا لك فاقبل منهم، وعلمهم كتاب الله وسنة رسوله، ومعالم الإسلام، فإن لم يقبلوا فقاتلهم.

فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون الناس إلى الإسلام، ويقولون: يا أيها الناس أسلموا تسلموا. فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه، وأقام خالد فيهم وعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة رسوله، ثم كتب خالد إلى رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبي رسول الله من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد يا رسول الله ، إنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام فإن أسلموا قبلت منهم، وإني قدمت عليهم ودعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وبثثت فيهم ركباناً: يا بني الحارث، أسلموا فتسلموا، فأسلموا وأنا مقيم أعلمهم معالم الإسلام.

فكتب رسول الله بعد البسملة: " إلى خالد بن الوليد السلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن كتابك جاءني مع رسولك يخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، فبشرهم وأنذرهم، واقبل منهم وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ". فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب وفيهم: قيس بن الحصين، فسلموا عليه وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأن لا إله إلا الله، فقال رسول الله : " وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله "، وأمر عليهم قيساً، فلم يمكثوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله . وكان رسول الله بعث إلى بني الحارث بن كعب بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حرام الأنصاري يفقههم ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم. قال الواقدي: فتوفي رسول الله وعمرو بن حرام عامله على نجران.

* * *

وفيها قدم وفد سلامان في شوال على رسول الله.

حدث محمد بن سهل بن أبي حثمة، قال: وجدت في كتب أبي أن حبيب بن عمرو السلاماني كان يحدث، قال: قدمنا وفد سلامان على رسول الله ونحن سبعة، فصادفنا رسول الله خارجاً من المسجد إلى جنازة دعي إليها، فقلنا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: **وعليكم، من أنتم؟**، قلنا: نحن من سلامان، قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه، فقال: **أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الولد**، فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبيته، فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام، وعن الرقى وأسلمنا، وأعطى كل رجل منا خمس أواق، ورجعنا إلى بلادنا، وذلك في شوال سنة عشر.

وفيها قدم وفد محارب في حجة الوداع على رسول الله:

عن أبي وجزة السعدي، قال: قدم وفد محارب سنة عشر في حجة الوداع وهم عشرة نفر: سواء بن الحارث، وابنه خزيمة بن سواء، فأسلموا ولم يكن أحد قط أفظ ولا أغلظ على رسول الله ، وكان في الوفد رجل منهم يعرفه رسول الله ، فقال: الحمد لله الذي أبقاني حتى صدقت بك، فقال رسول الله : **إن هذه القلوب بيد الله** ومسح وجه خزيمة بن سواء، فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز الوفد وانصرفوا.

وفيها قدم وفد الأزد رأسهم صرد بن عبد الله الأزدي في بضعة عشر

عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدم على رسول الله صرد بن عبد الله فأسلم فأمره على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

وفيها قدم وفد غسان ووفد عاملة كلاهما في رمضان.

وفيها قدوم وفد زبيد على رسول الله لإسلامهم، عن عبد الله بن أبي بكر، قال: قدم عمرو بن معدي كرب في أناس من بني زبيد فأسلموا، فلما توفي رسول الله ارتد عمرو ثم عاد إلى الإسلام.

* * *

وفيها قدوم وفد عبد القيس.

قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله الجارود بن عمرو في وفد عبد القيس، وكان نصرانياً فأسلموا.

وفيها قدم الأشعث بن قيس في وفد كندة فأسلموا .

وفيها قدم وفد بني حنيفة على رسول الله ، وفيهم مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض علمائنا: أن بني حنيفة أتت بمسيلمة إلى رسول الله تستره بالثياب، ورسول الله جالس في أصحابه ومعه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات، فلما انتهى إلى رسول الله وهم يسترونه بالثياب، كلم رسول الله وسأله، فقال له رسول الله : **لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك**.

وروى ابن إسحاق، عن شيخ من بني حنيفة، قال: كان حديث مسيلمة على غير هذا: أتى وفد بني حنيفة رسول الله وخلفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له مكانه، وقالوا: إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله بمثل ما أمر به القوم، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وادعى النبوة.

قال مؤلف الكتاب: وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى.

وفيها قدم وفد بجيلة .

حدث عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: قدم جرير بن عبد الله البجلي سنة عشر ومعه من قومه مائة وخمسون رجلاً، فقال رسول الله : **يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن على وجهه مسحة ملك**. فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا.

قال جرير: فبسط رسول الله فبايعني وقال: " على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتنصح للمسلمين، وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً " فقال: نعم. وكان رسول الله يسأله عما وراءه، فقال: يا رسول الله، قد أظهر الله الإسلام، وأظهر الله الإسلام، والآذان في مساجدهم وساحاتهم وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد، قال: " فما فعل ذو الخلصة؟ " قال: هو على حاله، فبعثه رسول الله إلى هدم ذي الخلصة وعقد له لواء، فقال: إني لا أثبت على الخيل، فمسح رسول الله صدره، وقال: **اللهم اجعله هادياً مهدياً** فخرج في قومه وهم زهاء مائتين، فما أطال الغيبة ، فقال رسول الله : " أهدمته؟ " قال: نعم، والذي بعثك بالحق، وأحرقته بالنار، فتركته كما يسوء أهله، فبرك رسول الله يومئذ على خيل أحمس ورجالها.

وفي سنة عشر من الهجرة أيضاً قدم العاقب والسيد من نجران :

وكتب لهم رسول الله كتاب صلح. وفيها قدم وفد خولان وهم عشرة. وفيها قدم وفد الرهاويين ووفد تغلب قال ابن حبيب الهاشمي: وكان رسول الله إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمر أصحابه بذلك. وفيها قدم وفد بني، عامر بن صعصعة روي عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: قدم على رسول الله وفد بني عامر فيهم: عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وحيان بن سليم، وهؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، وقد كان قال لعامر قومه: أسلم فإن الناس قد أسلموا، قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى، ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فأنا أشغل وجهه عنك، فأعله بالسيف. فلما قدموا على رسول الله ، جعل عامر يكلم رسول الله وينتظر من أربد ما أمره به، فلم يحر شيئاً، فقال له: واللّه لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجلاً مرداً، فلما ولى، قال رسول الله : **اللهم اكفني عامر ابن الطفيل**—، فقال عامر لأربد: ويلك، أين ما أوصيتك به؟ قال: واللّه ما هممت بالذي أمرتني إلا دخلت بيني وبين الرجل " حتى ما أرى غيرك " أفأضربك بالسيف. وخرجوا راجعين إلى بلادهم، فبعث الله الطاعون على عامر في بعض طريقهم فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يقول: أغدة كغدة البعير، وأرسل على أربد صاعقة فأحرقته، وكان أربد أخا لبيد بن ربيعة من أمه.

وروى الزبير بن بكار بإسناده، أن عامر بن الطفيل أتى رسول الله فوسده وسادة، وقال له: " أسلم يا عامر " قال: على أن لي الوبر ولك المدر، فأبى رسول الله ، فقام عامر مغضباً وقال: واللّه لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً، ولأربطن بكل نخلة فرساً، فقال النبي : **لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريشاً في منابرها**—. ثم عاد رسول الله ، وقال: " لا يا قوم آمنوا "، ثم قال: " اللهم اهد بني عامر. واشغل عني عامر بن الطفيل كيف وأنّى شئت "، فخرج فأخذته غدة مثل غدة البعير في بيت سلولية، فقال: يا موت ابرز لي، وأقبل يشتد وينزو إلى السماء، ويقول: غده كغدة البعير وموت في بيت سلولية.

قال الحسن بن علي الحوماري: كان الطفيل بن مالك بن جعفر يكنى أبا علي، وكان من أشهر فرسان العرب بأساً ونجمة وأبعدها اسماً حتى بلغ به ذلك أن قيصر كان قدم عليه قادم من العرب، قال له: ما بينك وبين عامر بن الطفيل، فإن ذكر نسباً عظم به عنده.

ولما مات عامر منصرفه عن رسول الله نصب عليه بنو عامر نصاباً ميلاً في ميل حمي على قبره ولا تسير فيه راعية ولا ترعى ولا يسلكه راكب ولا ماشٍ.

وفيها: كان قد خرج ابن أبي مارية مولى العاص بن وائل في تجارة إلى الشام وصحبه تميم الداري، وعدي بن بدا، وهما على النصرانية، فمرض ابن أبي مارية وقد كتب وصيته وجعلها في ماله، فقدموا بالمال والوصية، ففقدوا جاماً أخفه تميم وعدي فأحلفهما رسول الله بعد العصر ثم ظهر عليه فحلف عبد الله بن عمرو ابن العاص والمطلب بن وداعة واستحقا.

وفيها سرية علي بن أبي طالب إلى اليمن في رمضان.

بعثه رسول الله وعقد له لواء وعممه بيده، وقال: **امض ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك**. فخرج في ثلاثمائة فارس، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة، فصف أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي، ثم حمل عليهم بأصحابه فقتلوا عشرين ثم أسلموا.

وفيها كانت حجة الوداع.

قال المؤلف: لما عزم رسول الله على الحج أذن بالناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير ليأتموا برسول الله في حجته، فخرج رسول الله من المدينة مغتسلاً مدهناً مترجلاً متجرداً في ثوبين إزار ورداء، وذلك في يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة، فصلى الظهر بذي الحُليفة ركعتين، وأخرج معه نساءه كلهن هوادج، وأشعر هديه وقلده، ثم ركب ناقته، فلما استوى بالبيداء أحرم من يومه ذلك وكان يوم الاثنين بمر الظهران فغربت له الشمس بسَرِف، ثم أصبح واغتسل ودخل مكة نهاراً وهو على راحلته، فدخل من أعلى مكة من كداء حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فلما رأى البيت رفع يديه، وقال: " اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة، وزد مَنْ عَظَمَه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً ". ثم بدأ فطاف بالبيت، ورَمَل ثلاثة أشواط من الحجر إلى الحجر وهو مضطبع بردائه، ثم صلى خلف المقام ركعتين، ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته من فوره ذلك.

وخطب بمكة خطباً في أيام حجه.

* * *

ومما جرى بعد حجه:

أن باذام والي اليمن مات، ففرق رسول الله عمالها بين شهر بن باذام وعامر بن شهر الهمداني، وأبي موسى الأشعريِ، وخالد بن سعيد بن العاص، ويعلى بن أمية، وعمرو بن حزم، وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت، وعكاشة بن ثور على السكاسك والسكون.

وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين: اليمن وحضرموت، وقال له: " يا معاذ إنك تقدم على قوم أهل كتاب وإنهم سائلوك عن مفاتح الجنة فأخبرهم أن مفاتح الجنة لا إله إلا الله، وأنها تخرق كل شيء حتى تنتهي إلى الله عز وجل، لا تحجب دونه، من جاء بها يوم القيامة مخلصاً رجحت بكل ذنب " فقال: أرأيت ما سئلت عنه واختصم إلي فيه مما ليس في كتاب الله ولم أسمع منك سنة؟ فقال: " تواضع لله يرفعك، ولا تقضين إلا بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسل ولا تستحي، واستشر ثم اجتهد، فإن الله إن يعلم منك الصدق يوفقك، فإن التبس عليك فقف حتى تتبينه أو تكتب إليَّ فيه، واحذر الهوى فإنه قائد الأشقياء إلى النار وعليك بالرفق ".

وروى الإمام أحمد في المسند، قال: أن معاذ بن جبل لما بعثه رسول الله إلى اليمن خرج معه رسول الله يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله يمشي تحت راحلته، فلما فرغ، قال: **يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك تمر بمسجدي هذا وقبري**، فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ثم التفتَ وأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: **إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا**. وروي عن عبيد بن صخر، قال: أمر رسول الله عمال اليمن جميعاً، فقال: تعاهدوا الناس بالتذكرة واتبعوا الموعظة فإنها أقوى للعاملين على العمل بما يحب الله.

وفيها كتب رسول الله إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله وأهدى له هدية ثم لم يزل مسلماً حتى كان في زمن عمر بن الخطاب ☺ فارتد. قال المؤلف: سنذكر قصته عند ذكر موته سنة ثلاث وخمسين من الهجرة.

* * *

وفيها رسول الله بعث جرير بن عبد الله البجلي.

إلى ذي كلاع بن باكور بن حبيب بن مالك بن حسان بن تبع فأسلم وأسلمت امرأته ضريبة بت ابرهة بن الصباح، واسم ذي الكلاع سميفع بن حوشب.

أخبرنا محمد بن ناصر، قال: أنبأنا علي بن أحمد بن السري، عن أبي عبد الله ابن بطة، حدثنا أبو بكر الأنباري، أخبرنا أبو الحسن بن البراء قال: حدَّثني أبو عبد الله الوصافي، حدَّثنا سليمان بن معبد أبو داود المروزي، حدَّثنا سعيد بن عفير، حدَّثنا، علوان بن داود، عن رجل من قومه، قال: بعثني قومي بهدية إلى ذي الكلاع في الجاهلية، قال: فمكثت سنة لا أصل إليه، ثم إنه أشرف بعد ذلك من القصر فلم يره أحد إلا خر له ساجداً، ثم رأيته بعد ذلك في الإسلام قد اشترى لحماً بدرهم، فسمطه على فرسهوروى الرياشي عن الأصمعي، قال: كاتب رسول الله ذا الكلاع من ملوك الطوائف على يد جرير بن عبد الله يدعوه إلى الإسلام، وكان قد استعلى أمره حتى دعى إلى الربوبية فأطيع، ومات النبي قبل عود جرير، وأقام ذو الكلاع على ما هو عليه إلى أيام عمر بن الخطاب، ثم رغب في الإسلام، فوفد على عمر ☺ ومعه ثمانية آلاف عبد، فأسلم على يديه وأعتق من عبيده أربعة آلاف، فقال عمر ☺: يا ذا الكلاع بعني ما بقي من عبيدك حتى أعطيك ثلث أثمانهم ها هنا، وثلثاً باليمن، وثلثاً بالشام، قال: أجلني يومي هذا حتى أفكر فيما قلت. ومضى إلى منزله فأعتقهم جميعاً، فلما غدا على عمر قال له: ما رأيك فيما قلت لك في عبيدك؟ قال: قد اختار الله لي ولهم خيراً مما رأيت، قال: وما هو؟ قال: هم أحرار لوجه الله، قال: أصبت يا ذا الكلاع، قال: يا أمير المؤمنين لي ذنب ما أظن الله يغفره لي، قال: ما هو؟ قال: تواريت مرة عن من يتعبد لي ثم أشرفت عليهم من مكان عال، فسجد لي زهاء عن مائة ألف إنسان، فقال عمر: التوبة بإخلاص، والإنابة بإقلاع يرجى معها رأفة الله عز وجل والغفران.

وفيها أسلم فروة الجذامي.

عن واصل بن عمرو الجذامي، قال: كان فروة بن عمرو الجذامي عاملاً للروم فأسلم، فكتب إلى رسول الله بإسلامه، وبعث به رجلاً من قومه يقال له مسعود بن سعيد، وبعث إليه ببغلة بيضاء وفرس وحمار وأثواب وقباء سندس مخوص بالذهب، فكتب إليه رسول الله : **أمن محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو، أما بعد فقد قدم علينا رسولك وبلغ ما أرسلت به وخبر عما قبلكم وأتانا بإسلامك وإن الله هداك بهداه**، وأمر بلالاً فأعطى رسوله اثني عشر أوقية ونشا. وبلغ ملك الروم إسلام فروة فدعاه فقال له: ارجع عن دينك نملكك، فقالي: لا أفارق دين محمد وإنك تعلم أن عيسى قد بشر به، ولكنك تضن بملكك، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه.

وفي هذه السنة أن رسول الله بعث عمرو بن العاص بعد رجوعه من الحج لأيام بقين من ذي الحجة إلى جيفر وعبد ابني الجلندي بعمان يدعوهما إلى الإسلام. وكتب معه كتاباً إليهما وختم الكتاب، قال عمرو: فلما قدمت عمان عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال أخي، المقدم بالسرّ والملك: وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك، فمكثت أياماً ببابه ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختوماً ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى أخرة، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه، إلا أني رأيتَ أخاه أرق منه فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غدا، فلما كان الغد رجعت إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، قلت: فإني خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا بالنبي وخليا بينِي وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لي عوناً على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم، فرددتها في فقرائهم، ولم أزل مقيماً بينهم حتى بلغنا وفاة النبي . وذكر الواقدي إن هذا كان في سنة ثمان.

* * *

سنة إحدى عشرة

للنصف من المحرم وهم مائتا رجل مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل باليمن.

ومن الحوادث استغفار رسول الله لأهل البقيع

عن أبي مويهبة مولى رسول الله ، قال: أهبني رسول الله في المحرم مرجعه من حجته وما أدري ما مضى من الليل أكثر أو ما بقي فقال: " انطلق، فإني قد أمرت أن استغفر لأهل البقيع "، فخرجت معه فاستغفر لهم طويلاً، ثم. قال: " ليهنكم ما أصبحتم فيه، أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، يا أبا مويهبة إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيرت بين ذلك والجنة وبين لقاء ربي والجنة "، فقلت: بأبي أنت وأمي خذ خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: " لا واللّه يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربيِ والجنة ".

ورجع رسول الله واشتكى بعد ذلك بأيام.

عن أبي مويهبة مولى رسول الله ، قال: أمر رسول الله أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم في ليلة ثلاث مرات، فلما كانت الليلة الثالثة، قال: " يا أبا مويهبة أسرج لي دابتي "، حتى انتهى إليهم، فلما انتهى إليهم نزل عن دابته وأمسكت الدابة ووقفت ووقف عليهم ثم قال: ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس، أتت الفتن كقطع الليل المظلم، يركب بعضها بعضاً، الآخرة شر من الأولى، فليهنكم ما أنتم فيه " ثم رجع وقال: " يا أبا مويهبة إني أعطيت أو خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتي من بعدي والجنة أو لقاء ربي قال: قلت: بأبي وأمي يا رسول الله فاخترنا، قال: لا " لأن ترد على عقبها ما شاء الله فاخترت لقاء ربي ". فما لبث بعد ذلك الاستغفار إلا سبعاً أو ثمانياً حتى قبض .

* * *

ومن الحوادث سرية أسامة بن زيد بن حارثة إلى أهل أبنى، وهي أرض السراة ناحية البلقاء.

وذلك أن رسول الله أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم في يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة، فلما كان من الغدا دعا أسامة بن زيد، فقال: " سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل ابْنَى وحَرِّقْ عليهم، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.

فلما كان يوم الأربعاء بدىء برسول الله فحُمَّ وصُدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده، ثم قال: " اغز بسم الله في سبيل الله، فقاتل من كفر بالله ". فخرج وعسكر بالجرف فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزاة، فيهم أبو بكر الصديق، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة، وقتادة بن النعمان، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين، فغضب رسول الله غضباً شديداً، فخرج وقد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، فلئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في تأميري من قبله، وايم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أُحب الناس إلي، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم ".

ثم نزل فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر ليال خلون من ربيع الأول، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ويمضون إلى العسكر بالجرف، وثقل رسول الله ، فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله وجعه فدخل أسامة من معسكره والنبي مغمور وهو اليوم الذي لدوه فيه - فطأطأ أسامة فقبله رسول الله ، فجعل يرفع يديه إلى السماء، ثم يضعها على أسامة. قال: فعرفت أنه يدعو لي، ورجع إلى معسكره، ثم دخل إلى رسول الله يوم الاثنين، فقال له: اغد على بركة الله، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل.

فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاءه يقول: إن رسول الله يموت، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة، فانتهوا إلى رسول الله وهو يموت، فتوفي عليه السلام حين زالت الشمس يوم الإثنين، فدخل المسلمون الذين عسكروا إلى المدينة، وكان لواء أسامة مع بريدة بن الخصيب، فدخل بريدة بلواء أسامة حتى غرزه عند باب رسول الله ، فلما بويع لأبي بكر أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى أسامة ليمضي لوجهه، فمضى بريدة، إلى معسكرهم الأول، فلما ارتدت العرب كُلِّم أبو بكر في حبس أسامة فأبى، وكلم أبو بكر أسامة في عمر أن يأذن له في التخلف ففعل، فلما كان هلال ربيع الآخر سنة إحدى عشر خرج أسامة فسار إلى أهل أبنى عشرين ليلة، فشن عليهم الغارة فقتل من أشرف له وسبى من قدر عليه وقتل قاتل أبيه ورجع إلى المدينة، فخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة، يتلقونهم سروراً بسلامتهم.

ومن الحوادث: في مرض رسول الله :

مجيء الخبر بظهور مسيلمة والعنسي

قد ذكرنا أن مسيلمة قدم على رسول الله فيمن أسلم ثم ارتد لما رجع إلى بلده، وكتب إلى رسول الله : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. وكان يستغوي أهل بلدته، وكذلك العنسي إلا أنه لم يظهر أمرهما إلا في حالة مرض رسول الله وكان رسول الله قد لحقه مرض بعد عوده من الحج ثم عوفي ثم عاد فمرض مرض الموت.

قال أبو مويهبة مولى رسول الله : لما رجع رسول الله من حجه طارت الأخبار بأنه قد اشتكى، فوثب الأسود باليمن، ومسيلمة باليمامة، فجاء الخبر عنهما إلى رسول الله ، ثم وثب طليحة في بلاد بني أسد بعدما أفاق رسول الله .

روى سيف بن عمر بإسناده عن عليّ وابن عباس ☻: أول ردة كانت على عهد رسول الله وأول من ارتد الأسود العنسي، في مذحج، ومسيلمة في بني حنيفة وطليحة في بني أسد.

وقال الشعبي: قدم على رسول الله خبر مسيلمة والعنسي الكذابين بعدما ضرب على الناس بعث أسامة بن زيد.

من الحوادث في مرضه:

أنه رأى في منامه سوارين من ذهب، فخرج فحدث. فروى عكرمة عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله عاصباً رأسه من الصداع، فقال: لا إني رأيت البارحة فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين. الكذابين صاحب اليمامة وصاحب اليمن.

ذكر أخبار الأسود العنسي ومسيلمة وسجاح وطليحة:

أما الأسود فاسمه عَبْهَلة بن كعب، يقال له: ذو الخمار، لقب بذلك لأنه كان يقول: يأتيني ذو خمار. وكان الأسود كاهنا، مشعبذاً ويريهم الأعاجيب، ويسبي بمنطقه قلب من يسمعه، وكان أول خروجه بعد حجة رسول الله فكاتبته مذحج وواعدته بحران، فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزم، وخالد بن سعيد بن العاص، وأنزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد، فأجلاه ونزل منزله، فلم يلبث عَبْهلة بحران أن سار إلى صنعاء فأخذها، وكتب فروة بن مسيك إلى رسول الله يخبره، ولحق بفروة من بقي على إسلامه من مذحج ولم يكاتب الأسود رسول الله ولم يرسل إليه لأنه لم يكن معه أحد يشاغبه، وصفا له ملك اليمن وقوي أمره. واعترض على الأسود وكاثره عامر بن شهر الهمداني في ناحيته وفيروز وداذَوَيه في ناحيتهما، ثم تتابع الذين كتب إليهم على ما أمروا به.

ثم خرج الأسود في سبعمائة فارس إلى شَعُوب فخرج إليه شهر بن باذام وذلك لعشرين ليلة من خروجه، فقتل شهراً، وهزم الأبناء، وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من خروجه وخرج معاذ بن جبل هارباً حتى مر بأبي موسى وهو بمأرب، فاقتحما حضرموت، فنزل معاذ السكون، ونزل أبو موسى السكاسك، ورجع عمرو وخالد إلى المدينة، وغلب الأسود وطابقت عليه اليمن وجعل أمره يستطير إستطارة الحريق. ودانت له سواحل البحر، وعامله المسلمون بالتقية.

وكان خليفته في مذحج عمرو بن معدي كرب، وكان قد أسند أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء إلى فيروز وداذويه.

ثم استخف بهم وتزوج امرأة شهر، وهي ابنة عم فيروز، فأرسل رسول الله نفر من الأبناء رسولاً وكتب إليهم أن يجاولوا الآسود إما غيلة وإما مصادمة، وأمرهم أن يستنجدوا رجالاً سماهم لهم ممن خرجوا حولهم من حمير وهمدان، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم، فدعوا قيس بن عبد يغوث حين رأوا الأسود قد تغير عليه، فحدثوه الحديث وأبلغوه عن رسول الله ، فأجاب ودخلوا على زوجته، فقالوا: هذا قتل أباك. فما عندك؟ قالت: هو أبغض خلق الله إليّ وهو متحرز والحرس يحيطون بقصره إلا هذا البيت، فانقبوا عليه فنقبوا ودخل فيروز فخالطه فأخذ برأسه فقتله، فخار كأسد خوار ثور، فابتدر الحرس الباب، فقالوا: ما هذا؟ قالت المرأة: النبي يوحى إليه فإليكم ثم خمد. وقد كان يجيء إليه شيطان فيوسوس له فيغط ويعمل بما قال له، فلما طلع الفجر نادوا بشعارهم الذي بينهم، ثم بالأذان، وقالوا فيه: نشهد أن محمداً رسول الله وأن عبهلة كذاب، وشنوها غارة. وتراجع أصحاب رسول الله إلى أعمالهم، وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فسبق خبر السماء إليه، فخرج قبل موته بيوم أو بليلة، فأخبر الناس بذلك، ثم ورد الكتاب، ورسول الله قد مات، إلى أبي بكر، وكان من أول خروج الأسود إلى أن قتل أربعة أشهر.

عن العلاء بن زياد عن ابن عمر، قال: أتي النبي الخبر من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي فخرج ليبشرنا، فقال: " قتل العنسي الأسود البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين "، قيل: ومن هو قال: **فيروز، فاز فيروز**.

ذكر أخبار مسيلمة.

قد ذكرنا أنه قدم على رسول الله في وفد بني حنيفة، فلما عاد الوفد ارتد، وكان فيه دهاء فكذب لهم وادعى النبوة، وتسمى برحمان اليمامة، لأنه كان يقول: الذي يأتيني اسمه رحمان، وخاف أن لا يتم له مراده لأن قومه شاغبوه، فقال: هو كما يقولون إلا أنني قد أشركت معه، فشهد لرسول الله بأنه نبي، وادعى أنه قد أشرك معه في النبوة، وجعل يسجع لهم ويضاهي القرآن، فمن قوله: سبح اسم ربك الأعلى الذي يستر على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين أضلاع وحشي. يا ضفدعة بنت الضفدعين نقي ما تنقين وسبحي فحسن ما تسبحين للطين تغني سنين والماء تلبسين، ثم لا تكدرين ولا تفسدين فسبحي لنا فيما تسبحين. وكانوا قد سمعوا منه.

ومن قوله لعنه الله: والليل الأطحم، والذئب الأدلم والجذع الأزلم ما انتهكت أسيد من محرم. وكان يقصد بذلك نصرة أسيد على خصوم لهم.

وقال: والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس.

وقال: والشاة وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، ما لكم لا تمجعون.

وكان يقول: والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه.

وأتته امرأة، فقالت: ادع الله لنخلنا ولمائنا فإن محمداً دعا لقوم فجاشت آبارهم فقال: وكيف فعل محمد؟ قالت: دعى بسَجْلٍ، فدعا لهم فيه ثم تمضمض ومجه فيه، فأفرغوه في تلك الآبار، ففعل هو كذلك فغارت تلك المياه. وقال له رجل: برك على ولدي، فإن محمداً يبرك على أولاد أصحابه، فلم يؤت بصبي مسح على رأسه أو حنكه إلا لثغ وقرع. وتوضأ في حائط فصب وضوءه فيه فلم ينبت. وكانوا إذا سمعوا سجعه، قالوا: نشهد أنك نبي، ثم وضع عنهم الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك، فأصفقت معه بنو حنيفة إلا القليل وغلب على حجر اليمامة وأخرج ثمامة بن أثال، فكتب ثمامة إلى رسول الله يخبره - وكان عامل رسول الله على اليمامة وانحاز ثمامة بمن معه من المسلمين، وكتب مسيلمة إلى رسول الله : من مسيلمة رسول الله إلىِ محمد رسول الله، أما بعد، فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاَ قوم لا يعدلون ويعتدون.

وبعث الكتاب مع رجلين: عبد الله بن النواحة، وحجير بن عمير، فقال لهما رسول الله : أتشهدان أني رسول الله؟ " قالا: نعم، قال: " أتشهدان أن مسيلمة رسول الله؟ قالا: نعم قد أشرك معك، فقال: لولا أن الرسول لا يقتل لضربت أعناقكما. ثم كتب رسول الله : " من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء، والعاقبة للمتقين، وقد أهلكت أهل حجر، أقادك الله ومن صوب معك ".

* * *

ذكر أخبار سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية.

كانت قد تنَبّت في الردة بعد موت رسول الله بالجزيرة في بني تغلب فاستجاب لها الهُذيّل وترك التنصر وأقبل معها جماعة فقصدت قتال أبي بكر فراسلت مالك بن نويرة فأجابها ومنعها من قصد أبي بكر وحملها على أحياء من بني تميم، فأجابت فقالت: أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، فذهبو فكانت بينهم مقتلة، ثم قصدت اليمامة فهابها مسيلمة، وخاف أن يتشاغل بحربها فيغلبه ثمامة بن أثال وشرحبيل بن حسنة، فأهدى لها واستأمنها فجاء إليها. وفي رواية أخرى أنه قال لأصحابه: اضربوا لها قبة وجمروها لعلها تذكر الباه، ففعلوا فلما أتته قالت له: اعرض ما عندك، فقال لها: إني أريد أن أخلو معك حتى نتدارس، فلما خلت معه قالت: اقرأ عليّ ما يأتيك به جبريل، فقال لها: انكن معشر النساء خلقتن أفواجاً، وجعلتن لنا أزواجاً نولجه فيكن إيلاجاً، ثم نخرجه منكن إخراجاً، فتلدن لنا أولاداً ثجاجاً فقالت: صدقت، أشهد أنك نبي، فقال لها: هل لك أن أتزوجك فيقال نبي تزوج طبية. فقالت: نعم، فقالت: بل به أجمع فهو أجمعِ للشمل، فضربت العرب بها المثل، فقالت: " أغلم من سجاحِ ". فأقامت معه ثلاثاً وخرجتَ إلى قومها، فقالت: إني قد سألته فوجدت نبوته حقاً، وإني قد تزوجته فقالوا: مثلك لا يتزوج بغير مهر، فقال مسيلمة: مهرها أني قد رفعت عنكم صلاة الفجر والعتمة.

ثم صالحته على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة وخلفت من يقبض ذلك، فلم يفجأهم إلا دنو خالد منهم، فارفضوا.

وبعث رسول الله إلى ثمامة بن أثال ومن يجتمع معه أن يجادلوا مسيلمة وأمره أن يستنجد رجالاً قد سماهم ممن حولهم من تميم وقيس، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوه، وكانت بنو حنيفة فريقين: فرقة مع مسيلمة وهم أهل حجر، وفرقة مع ثمامة. وأنهم التقوا فهزمهم مسيلمة، ولم تزل سجاح في بني تغلب حتى نقلهم معاوية عام الجماعة في زمانه، فأسلمت وحسن إسلامها.

* * *

ذكر أخبار طليحة بن خويلد.

خرج طليحة بعد الأسود فادعى النبوة وتبعه عوام ونزل بسميراء، وقوي أمره، فكتب بخبره إلى رسول الله سنان بن أبي سنان، وبعث طلحة خبالاً ابن أخيه إلى رسول الله يخبره خبره، ويدعوه إلى الموادعة وتسمى بذي النون يقول إن الذي يأتيه يقال له ذو النون، فقال النبي لرسوله: **قتلك الله** ورده كما جاء، فقتل خبال في الردة، وأرسل رسول الله إلى عوف أحد بني نوفل بن ورقاء، وإلى سنان بن أبي سنان وقضاعا أن يجادلوا طليحة، وأمرهم أن يستنجدوا رجالاً قد سماهم لهم من تميم وقيس، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم، ففعلوا ذلك ولم يشغل رسول الله عن مسيلمة وطليحة غير مرضه، وأن جماعة من المسلمين حاربوا طليحة وضربه مخنف ابن السليل يوماً بسيف فلم يهلك، لكنه غشي عليه، فقال قوم: إن السلاح لا يحيك في طليحة، فصار ذلك فتنة، وما زال في نقصان والمسلمون في زيادة إلى أن جاءت وفاة رسول الله فتناقص أمر المسلمين وانفض جماعة إلى طليحة مع عيينة بن حصن، وتراجع المسلمون إلى أبي بكر فأخبروه الخبر وهو يسمع ولا يكترث.

وكان من كلام طليحة: إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ولا فتح أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً. ومن كلامه: والحمام واليمام. والصرد الصوام، قد ضمن من قبلكم أعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام، والله لانسحب ولا نزال نضرب حتى نفتح يثرب. وخرج إلى بزاخة وجاء خالد بن الوليد فنازله، فجاء عيينة إلى طليحة فقال: ويلك، جاءك الملك؟ قال: لا فارجع فقاتل فرجع، فقاتل، ثم عاد فقال: جاءك الملك؟ قال: لا فعاد فقال: جاءك الملك. قال: نعم قال ما قال، قال: إن لك حديثاً لا تنساه، فصاح عيينة: الرجل والله كذاب، فانصرف الناس منهزمين، وهرب طليحة إلى الشام فنزل على كلب فبلغه إن أسداً وغطفان وعامر قد أسلموا فأسلم.

وخرج نحو مكة معتمراً في إمارة أبي بكر، فمر بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، قال: ما أصنع به خلوا عنه فقد أسلم وقد صح إسلامه وقاتل حتى قتل في نهاوند.

وكان مما جرى في مرض رسول الله أواخر صفر قال الواقدي: لليلتين بقيتا منه، وقال غيره: لليلة، وقيل: بل في مفتتح ربيع. قالت عائشة: بدأ رسول الله يتأوه وهو في بيت ميمونة فاشتد وجعه، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له فخرج إلى بيتها تخط رجلاه.

عن عائشة: أن رسول الله كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا؟ " يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها. أخرجه البخاري.

ومن الحوادث: أن أبا بكر طلب أن يمرضه : عن سالم، عن أبيه، قال: جاء أبو بكر ☺ إلى النبي فقال: يا رسول الله ائذن لي فأمرضك وأكون الذي أقوم عليك، فقال: **يا أبا بكر إني إن لم أحتمل أزواجي وبناتي وأهل بيتي علاجي ازدادت مصيبتي عليهم عظماً، وقد وقع أجرك على الله تعالى**ـــ وقد اختلف في مدة مرضه، فذكرنا ثلاث عشرة ليلة، وقيل اثنتي عشرة ليلة.

ومن الحوادث: أن في مرضه الوجع اشتد عليه قالت عائشة: جعل يشتكي ويتقلب على فراشه، فقلت له: لو صنع هذا بعضنا لوجدت عليه، فقال: **إن المؤمنين يشدد عليهم، إنه لا يصيب المؤمن نكبة من شوكة فما فوقها إلا رفع الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة**ـــ.

عن عائشة، قالت: ما رأيت أحداً اشتد عليه الوجع من رسول الله . عن أبي سعيد الخدري، قال: جئنا إلى النبي فإذا عليه صالبٌ من الحمى ما تكاد تَقَرَيَدُ أحدنا عليه من شدة الحمى، فجعلنا نسبح، فقال لنا: " ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء، كما يشدد علينا البلاء كذلك يضاعف لنا الأجر ".

* * *

ومن الحوادث أنه قال، أهريقوا علي الماء،

أخبرعبد الله بن عبد الله، أن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله اشتد عليه، وجعه فقال: أهريقوا عليَّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس فأجلسناه في مخضب لحفصة ثم طفقنا نصب عليه حتى جعل يشير علينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى الناس فصلى بهم وخطبهم.

ومن الحوادث: أنه خرج عاصباً رأسه فقام على المنبر وقال: إن عبداً خيره الله فبكى أبو بكر ☺ : عن أبي سعيد الخدري، قال: خطب رسول الله الناس، فقال: **إن الله عز وجل خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله عز وجل**ـــ قال: فبكى أبو بكر فعجبنا من بكائه أن خبر رسول الله عن عبد خير، وكان رسول الله المخير وكان أبو بكر أعلمنا به.

ومن الحوادث: أنه خرج فاقتص من نفسه: عن ابن عباس، عن أخيه، الفضل بن العباس قال: جاءني رسول الله فخرجت إليه فوجدته موعوكاً قد عصب رأسه، فقال: **خذ بيدي فضل،** **فأخذت بيده فانطلق حتى جلس على المنبر، ثم قال: " ناد في الناس فلما اجتمعوا إليه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقدْ منه، ومنْ كنتُ أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذه، ومنْ كنتُ شتمتُ له عِرْضاً فهذا عرضي، فليستقدْ منه ولا يقولن أحد إني أخشى الشحناء من رسول الله ، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليَ مَنْ أخذ شيئاً كان له أوحللني فلقيت الله وأنا طيب النفس وإني أرى أن هذا غير مُغْن عني، حتى أقوم فيكم مراراً—.**

ثم نزل فصلى الظهر، ثم جلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقام رجل فقال: إذن والله لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: " أما أنا لا نكذب قائلاً ولا نستحلف، فبم كانت لك عندي؟ " فقال: يا رسول الله، تذكر يوم مر بك المسكين فأمرتني فأعطيته ثلاثة دراهم، قال: أعطه يا فضل، فأمر به فجلس ثم قال: لا أيها الناس من كان عليه شيء فليؤده فلا يقولن رجل فضوح الدنيا، فإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة، فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله، قال: " ولم غللتها؟ " قال: كنت محتاجاً، قال: **خذها منه يا فضل—**، ثم قال رسول الله : **أيها الناس، من خشي من نفسه شيئاً فليقم فلندع له—** فقام رجل فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب إني لفاحش، وإني لنوام، فقال: **اللهم ارزقه صدقاً وأذهب عنه النوم إذا أراد—.**

ثم قام آخر، فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب وإني لمنافق، وما من شيء من الأشياء إلا وقد جنيته، قال عمر: فضحت نفسك أيها الرجل، فقال رسول الله : **يا بن الخطاب فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة—**، ثم قال: **اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً، وصيِّرْ أمره إلى خير—** قال: فتكلم عمر رضيِ الله عنه بكلام فضحك رسول الله وقال: **عمر معي وأنا مع عمر، والحقّ مع عمر حيث كان—.**

قال مؤلف الكتاب: في هذا الحديث إشكال، والمحدثون يروونه ولا يعرف أكثرهم معناه، وهو قوله عليه السلام: " من كنت جلدت له ظهراً فليستقد ".

وقد أجمع الفقهاء أن الضرب لا يجري فيه قصاص، وإنما أراد أن يعرف الناس أن من فعل ذلك ظلماً فينبغي تأديته، وإلا فهو منزه عن الظلم.

ومن الحوادث أنه كان يصلي بالناس في مدة مرضه.

وإنما انقطع ثلاثة أيام، وقيل: سبع عشرة صلاة، فلما أذن بالصلاة في أول ما امتنع قال: **مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**.

عن عائشة، قالت: لما ثقل رسول الله جاءه بلال ليؤذنه بالصلاة، فقال: **مروا أبا بكر فليصل بالناس** قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، قال: **مروا أبا بكر فليصل بالناس**، قالت: فقلت لحفصة: قولي له، فقالت له حفصة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى، يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: **إنكن صويحبات يوسف**، مروا أبا بكر فليصل بالناس.

قالت: فأمروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله من نفسه خفة فقام يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض حتى دخل في المسجد، فلما سمع أبو بكر حسه ذهب ليتأخر، فأومأ إليه رسول الله أن قم كما أنت فجاء رسول الله حتى جلس عن يسار أبي بكر، وكان رسول الله يصلي بالناس قاعداً وأبو بكر قائماً يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله . والناس يقتدون بصلاة أبي بكر. أخرجاه في الصحيحين.

" ومنها أن وجعه اشتد به يوم الخميس فأراد أن يكتب كتاباً، عن عائشة، قالت: لما ثقل رسول الله ، قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: " إئتني بكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه "، فذهب عبد الرحمن ليقوم، قال: أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر. رواه الإمام أحمد في المسند، وأخرجاه في الصحيحين.

ومنها أنه أخرج شيئاً من المال كان عنده: عن سهل بن سعد، قال: كانت عند رسول الله سبعة دنانير وضعها عند عائشة، فلما كان في مرضه قال: **يا عائشة ابعثي بالذهب إلى عليّ**، ثم أغمي عليه، وشغل عائشة ما به، فبعثت به إلى عليّ فتصدق به، ثم أمسى رسول الله ليلة الاثنين في جديد الموت، فأرسلت عائشة إلى امرأة من النساء بمصباحها، فقالت: اقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن، فإن رسول الله أمسى في جديد الموت.

عن المطلب بن عبد الله بن حنطب: أن رسول الله قال لعائشة وهي مسندته إلى صدرها: **يا عائشة، ما فَعَلَتْ تلك الذهب؟** قالتَ: هي عندي، قال: **فأنفقيها** ثم غشي على رسول الله وهو على صدرها فلما أفاق قال: **أنفقتيه يا عائشة؟**. قالت: لا. قالت: فدعى بها فوضعها في كفه فعدها فإذا هي ستة، فقال: **ما ظن محمد بربه إن لو لقي الله وهذه عنده** فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم .

ومن الحوادث: أنه أعتق في مرضه جماعة من العبيد عن سهل بن حنيف قال: اعتق النبي في مرضه أربعين نفساً.

ومن الحوادث: في مرضه أنه جمع أصحابه فأوصاهم.

عن ابن مسعود، قال: نعى لنا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، بأبي هو وأمي ونفسي له الفداء، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة وتشدد لنا، فقال: **مرحباً بكم حياكم الله بالسلام**، رحمكم الله، حفظكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، أحلكم الله، وقاكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم وأحذركم الله إني لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم:{ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾} [القصص: ٨٣]، وقال:{أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ } [العنكبوت: ٦٨] قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟ قال: **دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى جنة المأوى وإلى سدرة المنتهى وإلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والحظ والعيش الهني** قلنا: يا رسول الله، مَنْ يَغْسلك، فقال: **رجال من أهلي الأدنى فالأدنى** قلنا: يا رسول الله، ففيم نكفنك؟ قال: **في ثيابي هذه إن شئتم أو ثياب مصْرَ أو في حلة يمانية**، قلنا: يا رسول الله من يصلي عليك؟ وبكينا وبكى، فقال: **مهلاً رحمكم الله وجزاكم عن نبيكم خيرا، إذا أنتم غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري في بيتي هذا، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي عليَ حبيبي وخليلي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت معه جنود من الملائكة بأجمعهم، ثم ادخلوا فوجاً فوجاً. فصلوا عليَ وسلموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكية ولا برَنَّة، وليبتدىء بالصلاة على رجال أهلي ثم نساؤهم ثم أنتم بعد، واقْرَؤوا السلام على من غاب من أصحابي، واقرؤوا السلام على من تبعني كل ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة** لما قلنا: يا رسول الله، فمن يدخلك في قبرك؟ قال: **أهلي مع ملائكة كثير يرونكم ولا ترونهم**.

ومن الحوادث: أنه خير عند موته: عن عائشة، قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة، قالت: فأصاب رسول الله بحة شديدة في مرضه، فسمعته يقول:{مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا } [النساء: ٦٩] فظننت أنه خير.

من الحوادث: في مرضه ما جرى له مع ابنته فاطمة ♥. عن عائشة ♥، قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ، فقال **مرحباً بابنتي**ـــ ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أنه أسر إليها حديثاً فبكت، فقلت لها: استخصك رسول الله حديثه ثم تبكين. ثم انه أسر إليها حديثاً، فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ، حتى إذا قبض النبي ، سألتها، فقالت: إنه أسر إلي فقال: " إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني به العام مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك فبكيت لذلك، ثم قال: **ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين**ـــ، قالت: فضحكت لذلك.

أخرجاه في الصحيحين.

ومن الحوادث: في مرضه تردد جبريل عليه السلام إليه ثلاثة أيام قبل أن يموت برسالة من الله عز وجل يقول له: كيف تجدك، وكان ذلك في يوم السبت والأحد والإثنين، واستئذان ملك الموت عليه في يوم الإثنين. عن أبي هريرة: أن جبريل أتى النبي في مرضه الذي قبض فيه، فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول كيف تجدك؟. قال: لا أجدني وجعاً يا أمين الله ". ثم جاء من الغد، فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول: كيف تجدك؟ قال: " أجدني يا أمين الله وجعا " ثم جاءه اليوم الثالث ومعه ملك الموت، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: كيف تجدك. قال: " أجدني يا أمين الله وجعاً، من هذا معك؟ " لما قال: هذا ملك الموت، وهذا آخر عهدي بالدنيا بعدك، وآخر عهدك بها، ولن آسى على هالك من ولد آدم بعدك، ولن أهبط إلى الأرض إلى أحد بعدك أبداً، فوجد النبي سكرة الموت وعنده قدح فيه ماء، فكلما وجد سكرة الموت أخذ من ذلك الماء فمسح به وجهه ويقول: " اللهم أعني على سكرة الموت ".

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: لما بقي من أجل رسول الله ثلاث نزل جبريل مغموماً، فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصة بك يسألك عما هو أعلم به منك يقول لك: كيف تجدك؟. قال: أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً ". فلما كان في اليوم الثاني هبط إليه جبريل، فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة بك يسألك عما هو أعلمِ به منك، يقول: كيف تجدك؟ قال: " أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً ". فلما كان اليوم الثالث نزل عليه جبريل، وهبط معه ملك الموت، ونزل، معه ملك يقال له إسماعيل يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض منذ يوم كانت الأرض على سبعين ألف ملك ليس منهم ملك إلا على سبعين ألف ملك، فسبقهم جبريل، فقال: يا أحمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك، وخاصة بك، يسألك عما هو أعلم به منك، ويقول لك: كيف تجدك. قال: أجدني يا جبريل مغموماً وأجدني يا جبريل مكروباً، ثم استأذن ملك الموت، فقال جبريل: يا أحمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: " ائذن له "، فدخل ملك الموت فوقف بين يدي رسول الله ، فقال: يا رسول الله يا أحمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، قال: " وتفعل يا ملك الموت؟ " قال: أمرت بذلك أن أطيعك في كل ما تأمرني به، فقال جبريل: " يا أحمد، إن الله قد اشتاق إليك، قال: **فامض يا ملك الموت لما أمرت به**، قال جبريل: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر مواطئي الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا.

فتوفي رسول الله وجاءت التعزية يسمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته،{كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ} [آل عمران: ١٨٥] **ومن الحوادث**: استعماله للسواك قبل موته .

أخبر ابن أبي مليكة أن عائشة كانت تقول: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله توفي في بيتي، وفي يومي وبين سحري ونحري، وان الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، ودخل عليّ عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله ، فرأيته ينظر إليه، فعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ وأشار برأسه أن نعم، فناولته فاشتد عليه، فقلت: ألينه لك فأشار برأسه أن نعم، فلينته وأخذه فأمره وبين يديه ركوة، - أو علبة يشك عمرو - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، ويقول: " لا إله إلا الله، إن للموت سكرات "، ثم يصب يده فجعل يقول: **في الرفيق الأعلى**، حتى قبض ومالت يده.

ومن ذلك أنه عاتب نفسه على كراهة الموت.

عن أبي الحويرث: أن رسول الله لم يشتك شكوى إلا سأل الله العافية حتى كان في مرضه الذي توفي فيه، فإنه لم يكن يدعو بالشفاء، وجعل يقول: " يا نفس مالك تَلوذين كل ملاذ ".

ومن الحوادث: عند موته وصيته بالصلاة: عن أنس، قال: كانت وصية رسول الله حين حضره الموت: **الصلاة وما ملكت أيمانكم** حتى جعل رسول الله يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه.

ذكر وقت موته

توفي رسول الله يوم الإثنين نصف النهار، وربما قيل عند اشتداد الضحى لاثنتي عشرة خلتَ من ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

عن ابن عباس، قال: ولد النبي يوم الإثنين، واستنبيء يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثَنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين ".

ذكر الثياب التي توفي فيها رسول الله

عن أبى يرده، قال: أخرجت إلينا عائشة كساء ملبدا، وإزاراً غليظاً، فقالتَ: قبض رسول الله في هذين. أخرجاه الصحيحين.

ومن الحوادث: اختلاف أصحابه هل مات أو لا فأعلمهم بموته أبو بكر والعباس ☻: عن ابن شهاب، قال: أخبرني أنس، قال: لما توفي رسول الله بكى الناس بكاءً شديداً، فقام عمر بن الخطاب في المسجد خطيباً، فقال: لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران. فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

وقال عكرمة: ما زال عمر ☺ يتكلم ويوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه، فقال له العباس: إن رسول الله يأسن كما يأسن البشر، وإنه قد مات، فادفنوا صاحبكم، أيميت أحدكم إماتة ويميته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك، فإن كان كما يقولون فليس على الله بعزيز أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله.

أخبر أبو سلمة، أن عائشة أخبرته: أن أبا بكر ☺ أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس أحداَ حتى في دخل على عائشة فتيمم رسول الله وهو مغشى بثوبٍ حِبْرَة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى. ثمِ قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فَقَدْ مِتَهَا.

عن عبد الله بن عباس: أن أبا بكر ☺ خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ☺، فقال أبو بكر: " أما بعد، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، قال الله:{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾} [آل عمران: ١٤٤] قال: واللّه لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً إلا يتلوها. وأخبر سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب، قال: واللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله قد مات.

ذكر سنّه يوم مات : عن ابن عباس، قال: توفي رسول الله ، وهو ابن ثلاث وستين. أخرجاه في الصحيحين.

* * *

ذكر غسله وتكفينه.

عن ابن عباس، قال: لما اجتمع القوم لغسل رسول الله وليس في البيت إلا أهله: عمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد بن حارثة؟ وصالح مولاه، فلما اجتَمعوا لغسله ناس من وراء الباب أوس بن خولي الأنصاريِ ثم أحد بني عوف بن الخزرج ـ وكان بدرياً - عليِ بن أبي طالب، فقال له: يا علي، نشدتك الله، وحظنا من رسول الله . قال: فقال له علي: ادخل، فدخل فحضر غسل رسول الله ولم يل من غسله شيئاً؟ قال: فأسنده علي إلى صدره وعليه قميصه، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه مع علي، وكان أسامة وصالح يصبان الماء، وجعل علي يغسله، ولم يَرَ من رسول الله شيئأ مما يرى من الميت، وهو يقول: بأبي وأمي ما أطيبك حياَ وميتاَ. حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله وكان يغسل بالماء والسدر، جففوه، ثم صنع به يصنع بالميت، ثم أدرج في ثلاثة أثواب، ثوبين أبيِضين، وبرد حبرة

ثم دعا العباس رجلين فقال: ليذهب أحدكما إلى أبي عبيدة ابن الجراح وكان أبو عبيدة يَصْرَخُ لأهل مكة وليذهب الآخر إلى أبي طلحة بن سهل الأنصاري وكان أبو طلحة يلحد لأهل المدينة. قال: ثم قال العباس لهما حين سَرحَهما: اللهم خِرْ لرسولك قال: فذهبا، فلم يجد صاحب أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به، فلحد لرسول الله .

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: غسل رسول الله علي، والفضل، والعباس، وأسامة بن زيد، وغسل ثلاث غسلات بماء وسدر من بئر لسعد بن خيثمة كان يشرب منها.

عن عائشة، قالت: كفن رسول الله في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة.

عن عائشة، قالت: لما أرادوا غسل رسول الله اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري ما نصنع؟ أنجرد رسول الله كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السنة، حتى واللهِ ما من القوم من رجل إلا ذقنه في صدره نائماً.

قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت لا يدرون من هو، فقال: اغسلوا النبي وعليه ثيابه. قالت: فثاروا إليه فغسلوا رسول الله وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، وتدلكه الرجال بالقميص. وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله إلا نساؤه.

عن جعفر بن محمد قال: كان الماء يستنقع في جفون رسول الله وكان علي يحسوه.

ذكر الصلاة عليه عليه السلام: عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: صلي على رسول الله بغير إمام، يدخل عليه المسلمون زمراً فيصلون عليه ويخرجون، فلما صلي عليه نادى عمر ☺: خلوا الجنازة وأهلها.

حدَّث أُبَيُ بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، قال: لما توفي رسول الله وضع في أكفانه، ثم وضع على سريره، فكان الناس يصلون رفقاً رفقاً ولا يؤمهم عليه أحد، دخل الرجال فصلوا عليه ثم النساء.

* * *

ذكر قبره.

أخبر ابن جريج، قال: أخبرني أبي. أن أصحاب رسول الله لم يدروا أين يقبرون النبي حتى قال أبو بكر ☺: سمعت رسول الله يقول: " لم يقبر نبي إلا حيث يموت " فأخروا فراشه وحفروا له تحت فراشه.

عن عائشة، قالت: لما مات النبي قالوا: أين ندفنه؟ فقال أبو بكر: في الموضع الذي مات فيه. قال أبو بكر: وحدَّثنا شجاع بن مخلد، حدَّثنا هشيم عن منصور، عن الحسن، قال: جعل في قبر رسول الله قطيفة حمراء كان أصابها يوم خيبر، قال: جعلوها لأن المدينة أرض سبخة.

عن علي بن أبي طالب ☺: أن نزل في حفرة النبي هو وعباس وعقيل بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي، وهم الذين ولوا كفنه.

عن ابن عباس، قال: نزل في حفرة رسول الله علي بن أبي طالب، والفضل، وشقران.

عن عائشة، قالت: ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا صوت المساحي ليلة الثلاثاء في السحر.

عن جابر بن عبد الله، قال: رش على قبر النبي الماء.

ندب فاطمة ♥: عن أنس، قال: لما ثقل النبي جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: " ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، فلما دفن قالت فاطمة عليها السلام: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله وسلم التراب. أخرجاه في الصحيحين.

ندب أبي بكر ☺: عن عائشة، قالت: لما توفي رسول الله جاء أبو بكر فدخل عليه، ورفع الحجاب فكشف الثوب عن وجهه فاسترجع، فقال: مات والله رسول الله، ثم تحول من قِبَل رأسه، فقال: وانبياه، " ثم حدر فمه فقبل وجهه، ثم رفع رأسه فقال: واخليلاه، ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم رفع رأسه، فقال: واصفياه، ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم سجاه بالثوب ثم خرج.

ذكر ما جرى من الخلاف في المبايعة يوم موته.

عن الضحاك بن خليفة، قال: لما توفى الله عز وجل رسولَهُ وصلى أبو بكر الظهر بلغ المهاجرين أن الأنصار قد أقعدوا سعد بن عبادة وبايعوه بالخلافة، فدخل المهاجرين من ذلك وحشة، وأطاف كل بني أب برجل منهم وأبو بكر ☺ جالس لا يشعر حتى خرج العباس ☺ على الناس، فقال: إنه بلغني أن سعد بن عبادة بنيت له وسادة، ودعى إلى نفسه وأجابه من أجابه نقضاً لعهد رسول الله ، انهض يا أبا بكر إلى هؤلاء القوم، وكان رسول الله حين دعا القبائل ووعدهم الظهور، قالوا: لمن الخلافة بعدك؟ فإذا قال لقريش تركوه، وكان أول من أجابه إلى ذلك الأنصار.

عن ابن عباس، قال: صلى أبو بكر ☺ الظهر للناس يوم توفى الله نبيه ، وقد جاء عويم بن ساعدة إلى العباس، فأخبره أن الأنصار قد أمرت سعد بن عبادة، ولما انصرف الناس من الظهر تخلفوا وأقبل العباس حتى قام عليهم، فقال: يا أيها الناس ما لي أراكم عزين، إن مخبراً أخبرني وأخبرهم الخبر، فانهض إليهم يا أبا بكر، فقالوا: إنه ليدلنا على صدق الذي أتاك يا أبا الفضل أنه لم يصل معنا منهم أحد.

* * *

ذكر خلافة أبي بكر الصديق وأحواله

ذكر بيعة أبي بكر.

ذكر الواقدي عن أشياخه: أن أبا بكر ☺ بويع يوم قبض رسول الله .

وقال ابن إسحاق: بويع أبو بكر ☺ يوم الثلاثاء من الغد الذي قبض فيه رسول الله في سقيفة بني ساعدة. عن ابن عباس، قال: قال عمر بن الخطاب، كان من خبرنا حين توفي رسول الله أن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة ♥، بنت رسول الله ، وتخلفت عن الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ☺، فقلت له: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم، وقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم، لا تقربوهم، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين. فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مُزمَل فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ وجع. فلما جلسنا قام خطيبهم، فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله، وقال: أما فنحن أنصار الله عز وجل وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تخزِلونا من أصلنا، وتحصنُونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورْت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر ☺، وقد كنت أداري منه بعض الحد، وهو كان أحلم مني وأوقر فقال أبو بكر ☺: على رسلك. فكرهت أن أغضبه، وكان أحلم مني وأوقر، والله ما ترك كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها فيِ بديهته وأفضل، حتى سكت: قال: أما بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم له أهلِ، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراَ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم أبو بكر ☺، إلا أن تغر نفسي عند الموت، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعُذَيْقها المرخب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش قال فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى خشيت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار.

عن إبراهيم التيمي، قال: لما قبض رسول الله أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح، فقال: ابسط يدك فلأبايعك فإنك أمين هذه الأمة على لسان محمد رسول الله ، فقال أبو عبيدة لعمر: ما رأت لك فَهة قبلها منذ أسلمت، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟.

قال ابن سعد: أخبرنا وكيع، عن أبي بكر الهذلي، عن الحسن، قال: قال علي ☺: لما قبض النبي نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي عليه السلام قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله لديننا، فقدمنا أبا بكر.

عن محمد. أن أبا بكر قال لعمر: ابسط يدك نبايع لك، فقال له عمر: أنت أفضل مني، قال له أبو بكر: أنت أقوى مني، فقال له عمر: إن قوتي بك مع فضلك.

وقال ابن إسحاق: بايع أبا بكر المهاجرون والأنصار كلهم غير سعد بن عبادة.

عن جابر، قال: قال سعد بن عبادة يومئذ لأبي بكر: إنكم يا معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقوميِ أجبرتموني على البيعة، فقال: أما لو أجبرناك على الفرقة فصرت إلى الجماعة كنت في سعة ولكنا أجبرناك على الجماعة فلا إقالة لها، لأن نزعت يداً من طاعة، أو فرقت جماعة لأضربن الذي فيه عيناك.

وأخبر وهب بن جرير، قال: لما بويع أبو بكر قام خطيباً، ولا واللهّ ما خطب خطبته أحد بعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني وليت هذا الأمر، وأنا له كاره، والله لوددت أن بعضكم كفانيه، ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم مثل عمل رسول الله لم أقم به، كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي، وعصمه، الا وإنما أنا بشر ولستَ بخير من أحدكم، فراعوني فإن رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإذا رأيتموني، زغتَ فقوموني. واعلموا أن لي شيطانا يعتريني، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني، لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم.

* * *

من الحوادث التي كانت حين استخلف أبو بكر:

من ذلك أنه خرج عقيب ولايته ليتجر في السوق على عادته:

حدث عطاء بن السائب قال: لما استخلف أبو بكر ☺، أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ فقال: من أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

عن حميد بن هلال، قال: لما ولِي أبو بكر ☺ قال أصحاب رسول الله : افرضوا لخليفة رسول الله ما يغنيه، قالوا: نعم، بُرْدَاهً إذا اخْلَقَهما وضعهما واخذ مثلهما، وظهره إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف، قال أبو بكر: رضيت.

عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، قال: لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، فقال: زيدوني فإن لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة، قال: فزادوه خمسمائة.

قال: وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا مناتح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلى لعمري، لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم.

وروى الواقدي عن أشياخه، قال: كان منزل أبي بكر بالسنْح عند زوجته حبيبة بنت خارجة، وكان قد حجر عليه حجرة من شعر، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة، فأقام بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى منزله بالمدينة، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشق فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح، وكان إذا لم يحضر صلى بهم عمر، وكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح، يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح إلى الجمعة.

وكان رجلاً تاجراً، وكان كل يوم يغدو إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، أو كان يحلب للحي أغنامهم، وأنه نزل المدينة، وقال: ما يصلح أمر الناس والتجارة، واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه أو يصلح عياله، يوماً بيوم، وكان الذي فرضوا له في السنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة، قال: أرضي التي بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر، ولقوح، وعبد صيقل، وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أَتْعَبْ مَنْ بعده.

وفي رواية أخرى أنه قال: انظروا كم أنفقت منذ وليت من بيت المال فاقضوه، فنظر عمر فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف في ولايته.

ومن ذلك أنه أنفذ جيش أسامة بن زيد وارتد من ارتد

أبيه، عن عاصم بن عدي، قال: نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من يوم توفي رسول الله ليتم بعث أسامة ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف وقام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله يطيق؟ إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات.

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: لما بويع أبو بكر وجمع الأنصار على الأمر الذي افترقوا عنه، قام ليتم بعث أسامة وقد ارتدت العرب، ونجم النفاق، واشرأبت اليهودية والنصرانية، والمسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم، فقال له الناس: إن هؤلاء جُلّ المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين. فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته.

فلما فصل أسامة ارتدت العرب وتروخي عن مسيلمة وطليحة، فاستغلظ أمرهما وارتدت غطفان إلا ما كان من أشجع وخواص من الأفناء، وقدمت هوازن رجلاً وأخرت أخرى، أمسكوا الصدقة إلا ما كان من ثقيف، وارتدت خواص من سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان، وقدمت رسل رسول الله من اليمن واليمامة وبلاد بني أسد، فكان أول من صادم أبو بكر عبساً وذبيان، عاجلوه فقاتلهم قبل رجوع أسامة. قال ربيعة الأسدي: قدمت وفود أسد وغطفان وهوازن وطيئ فعرضوا الصلاة على أن يعفوا من الزكاة، واجتمع جماعة من المسلمين على قبول ذلك منهم، فأتوا أبا بكر فأبى إلا ما كان رسول الله يأخذ، وأجلهم يوماً وليلة، فتطايروا إلى عشائرهم.

قال الشعبي: قال أبو بكر لعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد وأمثالهم: أترون ذلك يعني قبول الصلاة منهم دون الزكاة - قالوا: نعم حتى تسكن الناس وترجع الجنود، فقام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: لو منعوني عقالاً مما أعطوه رسول الله ما قبلت منهم ألا برئت الذمة من رجل من هؤلاء الوفود وجد بعد يومه وليلته، فتواثبوا يتخطون رقاب الناس، ثم أمر علياً ☺ بالقيام على نقب من أنقاب المدينة، وأمر الزبير بالقيام على نقب، وأمر طلحة بالقيام على نقب آخر، وأمر عبد الله بن مسعود بالعسيس بالليل وجد في أمره وقام على رجل.

وقال إبراهيم النخعي: أول ما ولي أبو بكر ولى عمر القضاء وأمر ابن مسعود بعسس المدينة.

قال علماء السير: وجاء المشركون فطرقوا المدينة بعد ثلاث، فوافقوا أنقاب المدينة محروسة فبهتوهم، وخرج أبو بكر في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفشَّ العدو فاتبعهم المسلمون فإذا للمشركين رد بأنحاء قد نفخوها، ثم دهدوها بأرجلهم في وجوه الإبل، فنفرت بالمسلمين وهم عليها حتى دخلت بهم المدينة، فلم يصرع مسلم ولم يصب.

وبات أبو بكر ليلتئذ يتهيأ، فعبى الناس، وخرج على تعبيته في آخر الناس يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا المسلمين حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فما ذَرّ قَرْن الشَّمس حتى ولى المشركون الأدبار. واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة، ونزل بها النعمان بن مقرن في عدد، ورجع إلى المدينة فدك بها المشركون، فوثب بنو ذبيان وعبس على من كان فيهم من المسلمين، فقتلوهم.

وقدم أسامة بعد أن غاب شهرين وأياماً، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وارعوا ظهوركم. ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القصة، والذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً، فإن أصيب أمرت آخر، فقال: والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي، فخرج في تعبيته إلى ذي القصة، فنزلها وهي على بريد من المدينة فقطع فيها الجنود.

فلما أراح أسامة وجنده ظهرهم وحَمُوا قطع أبو بكر البعوث، وبلغ عقد الألوية، أحد عشر لواء على أحد عشر جندا، وأمر أمير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين من أصل القوة، فعقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة، وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة، وللمهاجربن أبي أمية وأمره بجنود العنسي، ومعونة الأبناء على قيس بن المشكوح، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت. ولخالد بن سعيد بن العاص إلى الشام، ولعمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة والحارث، وما زال يعين لكل أمير قوماً يقصدهم.

وقال ابن إسحاق: ارتدت بعد رسول الله عامة العرب، فأشار الناس على أبي بكر ☺ بالكف عنهم، وأن يقبل منهم أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة، وقالوا: نخاف أن تلج العرب كلها في الرجوع عن الإسلام، فقال: والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يؤدون إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ووالله لو كان الناس كلهم كذلك لقاتلتهم بنفسي حتى تذهب أو يكون الدين لله.

قال عمر بن الخطاب: ما بقي أحد من أصحاب رسول الله لا أنا ولا غيري إلا وقد داخله فشل وطابت نفسه على ترك الزكاة لمن منعها غير أبي بكر، فو الله ما هو إلا أن رأيت ما شرح الله صدر أبي بكرمن القيام بأمر الله، فعرفت أنه الحق.

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله بعث الزبرقان بن بدر السعدي على صدقات قومه بني سعد بن زيد مناة، وبعث مالك بن نويرة الحنظلي على صدقات بني حنظلة وبعث بن حاتم على صدقات طيء، فبلغهم وفاة رسول الله وقد كانوا قبضوا الصدقات.

فأما مالك بن نويرة فإنه ردها إلى قومه، وأما عدي والزبرتان فإن قومهما سألوهما أن يرداها عليهم فأبيا وقالا: لا نرى إلا أنه سيقوم بهذا الأمر قائم بعد رسول الله فإن كان ذلك دفعناها إليه، وإن كان غير ذلك فأموالكم في أيديكم. فأمسكا الصدقة حتى قدما أبي بكر، فلم يزل لهما بذلك شرف على من سواهما من أهل نجد، وكانت تلك الصدقة مما قوي بها أبو بكر على قتال أهل الردة.

فلما أراد أن يتجهز لحرب أهل الردة خرج بالناس حتى نزل بذي القصة، فعبأ هنالك جنوده، فبعث خالد بن الوليد في المهاجرين والأنصار، وجعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمره إلى خالد، وأمره أن يصمد لطليحة وعيينة، وكانا على بزاخة وهي ماء فسار خالد حتى إذا دنا من القوم بعث عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم وكان طليحة وأخوه مسلمة قد خرجا ليستخبرا، فإذا هما بعكاشة وثابت، فقتلاهما فلما مر بهما خالد مقتولين اشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سيدان من سادات المسلمين وفرسانهم.

فمال خالد إلى طيء فاستعان بهم على الحرب، فسار حتى أتى بزاخة، وبها عيينة في بني فزارة وطليحة في بني أسد، وكانت بنو عامر في ناحية ينتظرون الدبرة على من تكون وكان طليحة متلففاً في كساء له قد غطى وجهه ليجيئه الوحي زعم، وعيينة في الحرب، فكان إذا أضجرته الحرب جاء إلى طليحة فيقول: هل جاءك جبريل. فيقول: لا إلى أن قال عيينة: يا بنيِ فزارة، إن هذا كذاب فاجتنبوه، فتفرقوا عنه، فقال له قومه: ما تأمرنا، فقال طليحة: اصنعوا مثل ما أصنع، ثم جال في متن فرسه، وحمل امرأته ثم مضى هارباً إلى الشام، فشد خالد بمن معه على بني فزارة فقتل من قتل منهم، وأخذ عيينة أسيراً، ثم كر على بني عامر ففضهم، وأخذ قرة بن هبيرة أسيراً، فأوثقه مع عيينة، ثم بعث بهما إلى أبي بكر، ومضى طليحة وأصحابه إلى الشام فأصابهم في طريقهم عطش شديد، فقالوا: يا عامر، هلكنا عطشاَ فما بقي من كهانتك، فقال لرجل منهم: يا محراق اركب فرساً وييالا، ثم شن عليه إقبالا، فإنك سترى فارات طوالا، ثم تجد عندها حلالا فركب مخراق فرأى الفارات وعندها عين، فشربوا وسقوا دوابهم، ثم مضى إلى الشام، فلما علم من هناك من المسلمين بطليحة أخذوه فأوثقوه ثم وجهوا به إلى أبي بكر، فتوفي أبو بكر وطليحة في الطريق، فقدم به على عمر فأسلم وحسن إسلامه.

* * *

قصة أهل اليمامة.

قال المصنف: ولما فرغ خالد من البطاح أقبل إلى المدينة فدخل المسجد وعليه ثياب عليها صدأ الحديد، وعليه عمامة قد غرز فيها ثلاثة أسهم، فلما رآه عمر ☺ قال: أرثاء يا عدو الله، عدوت على رجل من المسلمين فقتلته ثم تزوجت امرأته، لئن أمكنني الله منك لأرجمنك، ثم تناول الأسهم فكسرها وخالد ساكت لا يرد عليه شيئاً يظن أن ذلك عن رأي أبي بكر، فلما دخل على أبي بكر أخبره الخبر واعتذر إليه فصدقه وقبل عذره، وكان عمر يحرض أبا بكر على عزله، وأن يقيد منه، فقال أبو بكر: مه يا عمر، ما هو بأول من أخطأ، فارفع لسانك عن خالد، ثم ودى مالكاً وأمر خالداً أن يتجهز للخروج إلى مسيلمة الكذاب، ووجه معه المهاجرين والأنصار، وكان ثمامة بن أثال الحنفي قد كتب إلى أبي بكر ☺ يخبره أن أمر مسيلمة قد استغلظ. فبعث أبو بكر عكرمة بن أبي جهل واتبعه شرحبيل بن حسنة، وقال: الحق بعكرمة فاجتمعا على قتال مسيلمة وهو عليك، فإن فرغتم فانصرفا إلى قضاعة، وأنت عليه، فلما أحس عكرمة بذلك أغذَ السير فقدم على ثمامة فأنهضه، فقال ثمامة: لا تفعل فإن أمر الرجل مستكثف وقد بلغني إن خلفك جنداً فيتلاحقون، فأبى عكرمة وعاجلهم مسيلمة فالتقوا فاقتتلوا فأصيب من المسلمين، فبعث أبو بكر إلى عكرمة فصرفه إلى وجه آخر. فلما قدم خالد من البطاح أمره أبو بكر بالسير إلى مسيلمة، فخرج حتى إذا كان قريباً من اليمامة تقدمت خيل المسلمين، فإذا هم بمجاعة بن مرارة الحنفي في ستة نفر من بني حنيفة، فجاءوا بهم إلى خالد، فقال لهم: يا بني حنيفة ما تقولون؟ فقالوا: منا نبي ومنكم نبي، فعرضهم على السيف، فبقي منهم مجاعة ورجل يقال له: سارية بن عامر. فلما قدم سارية ليقتل قال لخالد: إن كنت تريد بأهل هذه القرية خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل يعني مجاعة، ففعل ذلك، وأوثقه في الحديد ثم دفعه إلى امرأته، وقال: استوصي به خيراً، ثم مضى حتى نزل منزلاً من اليمامة، فعسكر به، فخرج إليه مسيلمة، وكان عدد بني حنيفة أربعين ألف مقاتل، وقدم مسيلمة أمامه الرَّحَال بن عُنْفوة، وقد كان الرحَّال قدم على رسول الله فأسلم وقرأ سورة البقرة.

فلما رجع إلى مسيلمة شهد له في جماعة من بني حنيفة أنه سمع رسول الله في الأمر، وأنه قد أعطي النبوة كما أعطيها، وكان قوله أشد على أهل اليمامة من فتنة مسيلمة.

قال أبو هريرة: جلست في رهط عند رسول الله ، فقال رسول الله : **إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار مثل أحد**. فهلك القوم وبقيت أنا والرحال فكنت متخوفاً لها حتى خرج الرحال مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة قالوا: الرجال.

فخرج يومئذ في مقدمة مسيلمة ومعه محكم اليمامة، وهو محكم بن طفيل، والتقى الناس، فكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، فقالوا له: انظر كيف تكون؟ إياك أن تفر، قال: بئس حامل القرآن أنا إذن، فقاتل حتى قتل. وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالأفعال، وحمل فأنفذهم حينئذ وقتل.

وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، واقتتل الناس قتالاً شديداً، فقتل الرحال ومحكم اليمامة؟ أما الرحال فقتله زيد بن الخطاب، وأما محكم فقتله عبد الرحمن بن أبي بكر، وثبت مسيلمة، ثم جال المسلمون حوله فتراجعوا، فدخلت بنو حنيفة في فسطاط خالد فرعلوه بسيوفهم، وحمل رجل منهم على أم تميم بالسيف، فألقى مجاعة عليها رداءه، وقال: إنها في جواري فنعم الحرة ما علمت، فأصيب من المسلمين ألف ومائتا رجل، وانكشف باقيهم. فلما رأى ذلك ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، قال: يا معشر المسلمين، بئس ما عودتم أنفسكم، ثم قال: اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء يعني المشركين وأعتذر إليك مما فعل هؤلاء يعني المسلمين ثم قاتل وجالد بسيفه حتى قتل. وكان قد ضرب فقطعت رجله فرمى بها قاتله. فقتله. وقاتل زيد بن الخطاب أخو عمر حتى قتل. فلما رجع عبد الله بن عمر، فقال له: هلا هلكت قبل زيد، فقال: قد عرضت على ذلك ولكن الله كرمه بالشهادة.

وفي رواية أخرى أنه قال له: ما جاء بك وقد هلك زيد؟ ألا واريت وجهك عني؟ وكان البراء بن مالك أخو أنس إذا حضر الحرب أخذته العدواء يعني الرعدة حتى يقعد عليه الرجال، ثم ينهم ى لأسد، فلما رأى ما أصاب الناس أخذه ما كان يأخذه، فثاب إليه ناس من المسلمين، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى انحازت بنو حنيفة واتبعهم المسلمون حتى أصاروهم إلى حديقة فدخلوها ثم أغلقوا عليهم، فقال البراء: احملوني والقوني إليهم، فألقوه إليهم ففتح الباب للمسلمين وقد قتل عشرة، فقتل في هذه الحديقة وفي هذه المعركة بضعة عشر ألف مقاتل. وكانت بنو حنيفة تقول لمسيلمة حين رأت خذلانها: أين ما كنت تعدنا؟ فيقول: قاتلوا عن أحسابكم. وقتل الله عز وجل مسيلمة، اشترك في قتله رجلان: رجل من الأنصار، ووحشي مولى جبير بن مطعم. وكان وحشي يقول: وقعت فيه حربتي وضربه الأنصاري والله يعلم أينا قتله. وكان يقول: قتلت خير الناس وشر الناس، حمزة ومسيلمة. وكانوا يقولون: قتله العبد الأسود، فأما الأنصاري فلا شك أن أبا دجانة سماك بن خرشة قتله.

فلما أخبر خالد بقتل مسيلمة خرج بمجاعة يرسفُ في حديده ليدله على مسيلمة، فمر بمحكم بن الطفيل، فقال خالد: هذا صاحبكم؟ قال: لا هذا والله خير منه وأكرم، ثم دخل الحديقة، فإذا رُوَيْجل أصَيْفر أخَيْنس، فقال له مجاعة: هذا صاحبكم قد فرغتم منه، فقال خالد: هذا فعل بكم ما فعل، قال: قد كان ذلك يا خالد، وإنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس، وإن جماهير الناس لفي الحصون. قال: ويلك ما تقول؟ قال: هو والله الحق، فهلم لأصالحك على قومي. فدعني حتى آتيهم وأصالحهم عنك، فإنهم يسمعون مني، ودخل الحصن، فأمر الصبيان والنساء فلبسوا السلاح ثم اشرفوا عليه وخالد يظنهم رجالاً، فلما نظر إليهم وقد قتل أكثر أصحابه صالح مجاعة عنهم الربع من السبي والحمراء والبيضاء والحلقة، ثم علم بعد ذلك أنهم كانوا صبياناً ونساء، فقال لمجاعة: خدعتني، فقال: قومي أفنتهم الحرب، فلا تلمني فيهم. فلما فرغ من صلحهم إذا كتاب من أبي بكر ☺ قَد جاءه أن يقتل منهم كل من أنبت، فجاءه الكتاب بعد الصلح، فمضى عليهم الصلح، فلم يقتلوا، ثم خطب خالد إلى مجاعة ابنته، فقال له: مهلاً أيها الرجل إنه قاطع ظهري وظهرك عن صاحبك تزوج النساء وحول أطنابك دماء ألف ومائتي رجل من المسلمين، فقال: زوجني لا أبالك، فزوجه فبلغ ذلك أبا بكر ☺، فكتب إليه: لعمري يا ابن أم خالد، إنك لفارغ حين تتزوج النساء وحول حجرتك دماء المسلمين لم تجف بعد، فإذا جاءك كتابي فالحق بمن معك من جموعنا بأهل الشام، واجعل طريقك على العراق، فقال وهو يقرأ الكتاب: هذا عمل الأعَيْسر يعني عمر بن الخطاب.

قال علماء السير: قتل من المسلمين يوم اليمامة أكثر من ألف، وقتل من المشركين نحو عشرين ألفاً، وكانت حرب اليمامة سنة إحدى عشرة في قول جماعة منهم أبو معشر. فأما ابن إسحاق فإنه قال: فتح اليمامة واليمن والبحرين، وبعث الجنود إلى الشام في سنة اثنتي عشرة.

* * *

سنة اثنتـي عشرة

لما فرغ خالد من أمر اليمامة كتب إليه أبو بكر الصديق ☺ وهو مقيم باليمامة: إنـي قد وليتك حرب العراق، فاجسر على من ثبت على إسلامه، وقاتل أهل الردة، ممن بينك وبين العراق من تميم وأسد وقيس وعبد القيس، وبكر بن وائل، ثم سر نحو فارس فادخل بهم العراق من أسفلها، فابدأ بفرج الهند، وهي يومئذ الأبلَّة، وكان صاحبها بساحل أهل السند والهند في البحر، وبساحل العرب في البر، فسار في المحرم إلى أرض الكوفة وفيها المثنى بن حارثة الشيباني، وجعل طريقه البصرة، وفيها قطبة بن قتادة السدوسي. قال الواقدي: من الناس من يقول: مضى خالد من اليمامة إلى العراق، ومنهم من يقول: رجع من اليمامة فقدم المدينة ثم سار إلى العراق، فمر على طريق الكوفة حتى انتهى إلى الحيرة. وروى ابن إسحاق، عن صالح بن كيسان: أن أبا بكر ☺ كتب إلى خالد يأمره أن يسير إلى العراق، فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقُريات من السواد، يقال لها: بانِقْيا وبارُوسْما وألَيْس، فصالحه أهلها، وكان الذي صالحه عليها ابن صَلوبا، وذلك في سنة اثنتي عشرة، فقبل منهم خالد الجزية، وكتب لهم كتاباً فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد لابن صلوبا السَّواديّ ومنزله بشاطىء الفرات إنك آمن بأمان الله إذ حقن دمه بإعطاء الجزية وقد أعطيت عن نفسك وعن أهلك خَرْجك وجزيرتك ومن كان في قريتك ألف درهم فقبلتها منك ورضي من معي من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله وذمة محمد وذمة المسلمين على ذلك. وشهد هشام بن الوليد. ثم أقبل خالد بن الوليد بمن معه حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن إياس الطائي، وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال له خالد ولأصحابه: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، فنجاهدكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم. فقال له قبيصة بن إياس: ما لنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية، فصالحهم على تسعين ألف درهم، فكانت أول جزية وقعت بالعراق هي والقريات التي صالح عليها ابن صلوبا.

وقال هشام بن الكلبي: إنما كتب أبو بكر إلى خالد وهو باليمامة أن يسير إلى الشام، وأمره أن يبدأ بالعراق فيمر بها، فأقبل خالد يسير حتى نزل النِّباج. قال: وقال أبو مخنف: حدثني حمزة بن علي، عن رجل من بكر بن وائل، أن المثنى بن حارثة سار حتى قدم على أبي بكر ☺، فقال: أمِّرْنِي على مَنْ قِبَلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك ناحيتي، ففعل ذلك فأقبل يجمع قومه وأخذ يغير ناحية كسكر مرة، وفي أسفل الفرات مرة، ونزل خالد بن الوليد النباج والمثَنَّى ابن حارثة بخَفَانَ، معسكرة فكتب إليه خالد بن الوليد ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر ☺ يأمره فيه بطاعته، فانقض إليه جواداً، حتى لحق به. فأقبل خالد يسير، فعرض له جابان صاحب ألّيْس، فبعث إليه المثنى بن حارثة، فقاتله فهزمه، وقتل جُل أصحابه، إلى جانب نهر، فدعي نهر دم لتلك الوقعة، وصالح أهل أَلَّيْس، وأقبل حتى دنا من الحيرة، فخرجت إليه خيول آزاذبه صاحب خيل كسرى التي كانت في مسالح ما بينه وبين العرب، فلقوهم بمجتمع الأنهار، فتوجه إليهم المثنى بن حارثة، فهزمهم الله. ولما رأى ذلك أهل الحيرة خرجوا يستقبلونه وفيهم عبد المسيح بن عمرو بن بُقيلة، وهاني بن قبيصة، فقال خالد لعبد المسيح: من أَثَرُك؟ قال: من ظهر أبي، قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: ويحك على أي شيء أنت؟ قال: على الأرض، قال: ويلك في أي شيء أنت؟ قال: في ثيابي، قال: ويحك، تعقل. قال: نعم وأقيِّد، قال: إنما أسألك، قال: وأنا أجيبك، قال: أسلم أنت أم حرب. قال: بل سلم، قال: فما هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه، قال خالد: إني أدعوكم إلى الإسلام، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم قاتلتكم، قالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق. وفي رواية أخرى: أن عبد المسيح لما حضر عند خالد وجد معه شيئاً يقلبه في كفه، فقال: ما هذا؟ قال: سم، قال: وما تصنع به؟ قال: إن كان عندك ما يوافق قومي حمدت الله وقبلته، وإن كانت الأخرى لم أكن أول من ساق إليهم ذلاً أشربه وأستريح من الحياة، قال: هاته. فأخذه خالد، وقال: بسم الله، وبالله رب الأرض والسماء الذي لا يضر مع اسمه شيء، ثم أكله فجللته غشية، ثم ضرب بذقنه صدره طويلاً ثم عرق وأفاق كأنما نشط من عقال، فرجع ابن بُقَيلة إلى قومه، فقال: جئتكم من عند شيطان أكل سم ساعة فلم يضره فصانعوا القوم وادرؤوهم عنكم فإنهم مصنوع لهم، فصالحوهم على مائة ألف درهم. قال مؤلف الكتاب: وهذا عبد المسيح هو ابن عمرو بن قيس بن حبان بن بقيلة، واسم بقيلة ثعلبة

وقيل: الحارث، وإنما سمي بقيلة، لأنه خرج على قومه في بردين أخضرين، فقالوا: ما أنت إلا بقيلة. وعاش عبد المسيح ثلاثمائة وخمسين سنة، وكان نصرانياً، وخرج بعض أهل الحيرة يخط ديراً في ظهرها، فلما حفر وأمعن وجد كهيئة البيت، ووجد رجلاً على سرير من زجاج وعند رأسه كتابة: أنا عبد المسيح ابن بقيلة ومكتوب بعده:

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلتَ من المنى فوق المزيد وكافحتَ الأمور وكافحتوني ولم أجعل بمعضلة كؤود وكدت أنال في الشرف الثرياولكن لا سبيل إلى الخلود

روى مجالد، عن الشعبي: أقرأني بنو بقيلة كتاب خالد إلى أهل المدائن: من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فالحمد لله الذي سلب ملككم، ووهن كيدكم، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم الذي له مالنا وعليه ما علينا أما بعد، فإذا جاءكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرهُن، بالتي هي أحسن، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فو الذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون الموت كما تحبون الحياة. فلما قرؤوا الكتاب أخذوا يتعجبون، وذلك في سنة اثنتي عشرة. قال الشعبي: ولما فرغ خالد من اليمامة، كتب إليه أبو بكر ☺: إن الله فتح عليك فعارق حتى تلقى عياضاً. وكتب إلى عياض بن غنم وهو بين النباج والحجاز: أن سر حتى تأتي المصَيخَ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها وعارق حتى تلقى خالداً. واذَنَا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره.

فلما أذنا للناس ارفضوا، فاستمد خالد أبا بكر ☺، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي وحده، فقيل أتمده برجل واحد؟ فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا، فأمد عياضاً بعبد بن عمرو الحميري، وكتب إليهما أن استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأي، فلم يشهد الأيام مرتد. فقدم خالد الأبله وحشر من بينه وبين العراق، فلقي هرمز في ثمانية عشر ألفاً، وكتب خالد إلى هرمز: أما بعد، وأسلم تسلم، واعقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. وقال المغيرة بن عيينة وهو قاضي الكوفة: فرق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرح عدي بن حاتم، وعاصم بن عمرو ودليلهما مالك بن عباد، وسالم بن نصر، أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج ودليله رافع، فوعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادفوا عدوهم، وكان فرج الهند أعظم فروج فارس شأناً وأشده شوكة

وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر. ولما قدم كتاب خالد على هرمز، كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى، وإلى أردشير بن شيري، وجمع جموعه وتعجل وجعل على مجنبتيه قباز والنوشجان، ونزلوا على الماء، فجاء خالد، فقال لأصحابه: جالدوهم على الماء، فليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وتنازل هرمز وخالد وانهزم أهل فارس وأفلت قباز والنوشجان. وأول ملوك فارس قاتله المسلمون شيري بن كسرى، وبعث خالد بالنفل إلى أبي بكر ☺ ومعه فيل، فكان يطاف به في المدينة، وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، وكان هرمز قد تم شرفه فنفل أبو بكر ☺ خالداً قلنسوته، وكانت مفصصة بالجوهر.

فصل، خبر ما بعد الحيرة.

ولما فتح خالد الحيرة قام شويل، فقال: سمعت رسول الله يذكر فتح الحيرة، فسألته كرامة بنت عبد المسيح، فقال: " هي لك إذا فتحت عنوة ". وشهد له بذلك، وعلى ذلك صالحهم، فدفعها إليه، وكان يهزأ، بها دهرا، فاشتد ذلك على أهلها، فقالت: ما تخافون على امرأة قد بلغت ثمانين سنة، وإنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي، فظن أن الشباب يدوم، فلما أخذها قالت: ما أربك إلى عجوز كما ترى، فَادِنِي، فقال: لست لأمِّ شوي إن نَقَصْتُك، من ألف درهم، فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها. فلما سمع الناس ذلك عنفوه، فقال: ما كنت أرى عدداً يزيد على ألف. ولما صالح خالد أهل الحيرة خرج إليه صلوبا صاحب قُسِّ النَّاطف، فصالحه على بانِقْيا وَبَسْما على ألوف في كل سنة. وبعث خالد بن الوليد عماله وبعث آخرين على ثغور، ثم إن خالداً كتب إلى أهل فارس وهم في المدائن مختلفون لموت أردشير، وكتب كتابين: كتاباً إلى الخاصة، وكتاباً إلى العامة، وقال لرجل: ما اسمك؟ قال: مُرّة قال: خذ هذا الكتاب فأت به أهل فارس، لعل الله أن يُمِرَّ عليهم غيشهم، وقال لآخر: ما اسمك؟ قال: هرقيل، قال: خذ هذا الكتاب؟ وقال: اللهم أرهق نفوسهم، وكان في أحد الكتابين: بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووهَن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ".

وكان في الكتاب الآخر: " بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد فالحمد لله الذي فرق كلمتكم، وفلّ حدّكم، وكسر شوكتكم، فاسلموا تسلموا، وإلا فأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت، كما تحبون الخمر ".

وكان أهل فارس لموت أردشير مختلفين في الملك، وكانوا بذلك سنة، والمسلمون يمخرون ما دون دجلة وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر وأمر خالد رسوليه أن يأتياه بالخبر، وأقام في عمله سنة، ومنزله الحيرة، ويصعد ويصوب، وأهل فارس يخلعون ويملكون، وذلك أن شيري بن كسرى قتل كل من كان يناسبه إلى كسرى بن قباذ، ووثب أهل فارس بعده وبعد أردشير، وبعد أردشير ابنه، فقتلوا كل مَنْ بين كسرى بن قباذ وبين بهرام جور، فبقوا لا يقدرون على من يملكونه ممن يجتمعون عليه. واستقام لخالد من أسفل الفلاليج إلى أسفل السواد، وفرق سواد الحيرة على جماعة من أصحابه، وفرق سواد الأبُلَّة على جماعة من أصحابه.

* * *

سنة ثلاث عشرة

بعد منصرفه من حجه أن أبا بكر ☺ جهز الجيوش إلى الشام بعد منصرفه من حجه، فبعث عمرو بن العاص قِبَلَ فلسطين، وبعث أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام. وأول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص، ثم عزله قبل أن يسير، وولى يزيد بن أبي سفيان، فكان أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام، وخرجوا في سبعة آلاف. أخبرنا أبو منصور القزاز، أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، أخبرنا ابن حيوية، حدثنا البغوي، حدَثنا أبو نصر بن التمار، حدَّثنا ابن الحكم، عن نافع، عن ابن عمر قال: بعث أبو بكر ☺ يزيد بن أبي سفيان إلى الشام ومشى معهم نحواً من ميلين، فقيل: يا خليفة رسول الله، لو انصرفت، فقال: لا، إني سمعت رسول الله يقول: **من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار**. ثم بدا له الانصراف، فقام في الجيش، فقال: أوصيكم بتقوى الله، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تهدموا بيعة، ولا تعرقوا نخلاً، ولا تحرقوا زرعاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخاً كبيراً ولا صبياً صغيراً، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم للذي حبسوا أنفسهم له فذروهم وما حبسوا أنفسهم له، وستردون بلداً يغدو عليكم ويروح فيه ألوان الطعام فلا يأتيكم لون إلا ذكرتم اسم الله عليه.

* * *

ذكر خبر اليرموك

لما اجتمع القوم باليرموك أخذ الرهبان يحرضونهم وينعون إليهم النصرانية، فخرجوا للقتال في جمادى الآخرة، فقام خالد في الناس، فقال: اجتمعوا وهلموا فلنتعاور الإمارةَ، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدا، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني اليوم إلى أمركم، فإنا إن رددنا القوم إلى خندقهم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها.

فأمروه، فخرجت الروم في تعبية لم ير الراؤون مثلها، وخرج خالد في ستة وثلاثين كردوساً إلى أربعين، فجعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وكان على كردوس من كراديس العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كردوس مذعور بن عدي، وعياض بن غنم على كردوس، وهاشم بن عتبة على كردوس، وزياد بن حنظلة على كردوس، وخالد في كردوسٍ. وعلى فالَّة خالد بن سعيد دحية بن خليفة على كردوس، وأبو عبيدة في كردوس، وسعيد بن خالد على كردوس، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس، وابن ذي الخمار على كردوس، وفي الميمنة عمارة بن مخشي بن خويلد على كردوس وشرحبيل على كردوس ومعه خالد بن سعيد، وعبد الله بن قيس على كردوس، وعمرو بن عبسة على كردوس، والسمط بن الأسود على كردوس، وذو الكلاع على كردوس، ومعاوية بن جديج على كردوس، وجندب ابن عمرو بن حُمَمَة على كردوس، وعلى هذا بقية الكراديس.

وكان قاضي القوم أبا الدرداء، وكان القاص فيهم أبو سفيان بن حرب، يسير فيهم فيقف على الكراديس فيقول: الله الله، إنكم أنصار الإسلام، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك. وكان على الطلائع قباث بن أشيم، وعلى الأقباض عبد الله بن مسود. فشهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله ، فيهم نحو مائة من أهل بدر.

ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة، وهو محمية بن زُنَيم، فأخذته الخيول، وسألوه الخبر، فلم يخبرهم، لا بسلامة وأخبرهم عن إمدادة وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فأبلغوه خالداً، فأسر إليه خبر أبي بكر فأخبره بما قال للجند، فقال: أحسنت، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر عليه أمر الخيل، فوقف محمية بن زُنَيم مع خالد.

أخبرنا ابن الحصين، قال: أخبرنا ابن المذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدَثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدَثني أبي، قال: حدَّثنا محمد بن جعفر، قال: حدَّثنا شعبة، عن سماك، قال: سمعت، عياض الأشعري، قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض وليس عياض هذا بالذي حدث سماكاً عنه قال: وقال عمر ☺: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه. فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمداً قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني.

قال: فقتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ. قال: وأصبنا أموالا، فتشاوروا، فأشار علينا عياض: أن نعطى عن كل رأس عشرة، قال: وقال أبو عبيدة: من يراهني؟. فقال شاب: أنا إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتيِ أبي عبيدة تنفران وهو خلفه على فرس عربي.

قال علماء السير: وخرج جَرَجة، حتى كان بين الصفين، ونادى: ليخرج إليَّ خالد، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه، فوافقه بين الصفين، حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة: يا خالد، أصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه. فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا، قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه، فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه، ثم بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وقاتله، ثم إن الله تعالى أخذ بقلوبنا فهدانا به، فتابعناه. فقال: **أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين**، ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين. فقال: صدقتني يا خالد، أخبرنيِ إلامَ تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، قال: فمن لم يُجبْكم؟ قال: فالجزية، قال: فإن لم يجبكم ويعطها، قال: نؤذنه بحرب، ثم نقاتله، قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة، قال: هل لمن دخل فيه اليوم مثل ما لكم من الأجر. قال: نعم، قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه، قال: إنا دخلنا في هذا الأمر ونبينا حي بين أظهرنا يأتيه خبر السماء، وحق لمن رأى ما رأينا أن يسلم ويتابع، وإنكم أنتم لم تروا ما رآينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحُجَج

فمن دخل في هذا الأمر بنية حقيقية كان أفضل، فقال له: صدقتني وقلب الترس ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه، فشن عليه ماء، ثم صلى به ركعتين وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها منه حيلة، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، عليهم عكرمة والحارث بن هشام.

وركب خالد ومعه جرجة لم وتراجعت الروم إلى مواقفهم فزحف خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ثم أصيب جرجة، ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما، وصلى الناس الظهر والعصر إيماء، وتضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم وهربوا، فانفرج المسلمون لهم، فذهبوا في البلاد، وأقبل المسلمون على الرّجْل ففضوهم، فاقتحموا في خندقهم، فتهافت عشرون ومائة ألف، وكان الفيقار قد بعث رجلاً عربياً، فقال: ادخل في هؤلاء القوم يوماً وليلة، ثم ائتني بخبرهم، فجاء فقال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنا رجم لإقامة الحق فيهم، فقال: لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، فلما أقبلوا تجلجل الفيقار وأشراف من الروم برانسهم، ثم جلسوا وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية فأصيبوا في تزملهم.

وقال عكرمة بن أبي جهل يومئذ: قاتلت رسول الله في كل موطن، وأفرُ منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً. وأتى خالد بعد ما أصبحوا بعكرمة جريحاً، فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه، وجعل يمسح عن وجوههما، ويقطر في حلوقهما الماء، ويقول: كلا، زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد.

وأصيبت يومئذ عين أبي سفيان، فأخرج السهم من عينه أبو حثمة. وقاتل النساء يومئذ منهن جويرية بنت أبي سفيان.

وقتل الله أخا هِرَقْل، وأخذ التَّذارق، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون مدينة حِمْص، فارتحل فجعل مدينة حمص بينه وبينهم. كانت وقعة اليرموك في سنة ثلاث عشرة، وكانت أول فتح فتح على عمر بعد عشرين ليلة من متوفى أبي بكر ☺.

وأما الواقدي فإنه يقول في سنة خمس عشرة. أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك، ومحمد بن ناصر، قالا: أخبرنا ابن المبارك بن عبد الجبار، أخبرنا أبو محمد الجوهري، أخبرنا أبو عمرو بن حيوية، أخبرنا أبو بكر بن الأنباري، قال: حدَّثني أبي، قال: حدَثنا أحمد بن عبيد، عن ابن الأعرابي، قال: استشهد باليرموك عكرمة ابن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتي عكرمة بالماء، فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأوا بذا، فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه، فقال: ابدؤوا بذا، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد، فقال: بنفسي أنتم. كذا في هذه الرواية عن ابن الأعرابي. فأما عكرمة فاستشهد، وأما الحارث وسهيل فاستشهدا بعد ذلك بزمان. قال علماء السير: وأتى خالد دمشق فجمع له صاحب بصرى، فسار إليه هو وأبو عبيدة، فظفروا بالعدو، وطلب العدو الصلح فصولحوا على كل رأس دينار في كل عام، وجريب حنطة، ثم رجع العدو على المسلمين، فتوافت جنود المسلمين والروم بأجنادين، فالتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، فظهر المسلمون على المشركين، وقتل خليفة هرقل في رجب.

وكان من الحوادث: في هذه السنة وقعة جرت بالعراق بعد مجيء خالد إلى الشام، أنه استقام أمر فارس على شَهْرَبَراز بن أردشير بن شهريار، فوجه إلى المثنى الذي استخلفه خالد على العراق جنداً عظيماً عليهم هُرْمُز بن جاذَوَيْه في عشرة آلاف، ومعه فيل، وكتب مسالح المثنى إليه بإقبال العدو، فخرج المثنى من الحيرة نحوه، وضم إليه المسالِح وأقام ببابل، وأقبل هرمز بن جاذوية، وكتب إلى المثنى: إني قد بعثت إليك جنداً من وخش أهل فارس، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، فلست أقاتلكم إلا بهم. فأجابه المثنى: إن الذي يدل عليه الرأي أنكم اضطررتم إلى ذلك، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير. فجزع أهل فارس من كتابه وقالوا: جرأت علينا عدونا. فالتقوا ببابل، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم أن ناساً من المسلمين قصدوا الفيل وقتلوه، فانهزم أهل فارس، واتبعتهم المسلمون يقتلونهم، ومات شهربراز حين انهزم هرمز بن جاذوية. ثم اجتمع أهل فارس على دُخْت زنان ابنة كسرى، فلم ينفذ لها أمرٌ فَخُلِعَتْ. ومُلِّكَ سابور بن شهربراز، وقام بأمره الفَرُّ خزاذ بن البِنْدوان، فسأله أن يزوجه آزَرْمِيدُخْت بنت كسرى، ففعل فغضبت من ذلك، وقالت: يا ابن عم أتزوجني عبدي. فقال: استحي من هذا الكلام ولا تعيديه، فإنه زوجك. فشكت إليه الذي تخاف

فقال لها: قولي له، ليقل له فليأتك فأنا أكفيكه. فلما كانت ليلة العرس أقبل الفرخزاذ حتى دخل، فثار به سياوَخْش، فقتله ومن معه، ثم نهد بها إلى سابور فحضرته ثم دخلوا عليه فقتلوه. وملكت آزر ميدختَ بنت كسرى، وأبطأ خبر المسلمين على أبي بكر ☺، فخلف المثنى على المسلمين بشير بن الخصاصية، فخرج إلى أبو بكر ☺ ليخبره خبر المسلمين والمشركين ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة، فقدم المدينة وأبو بكر ☺ مريض، فقال لعمر: إني أرجو أن أموت من يومي هذا، فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه، ولا تشغلنكم مصيبة عن دينكم، وقد رأيتني متوفى رسول الله وما صنعت. فمات أبو بكر ☺ وندب عمر الناس مع المثنى.

ومن الحوادث في هذه السنة: مرض أبي بكر ☺ وحدث في مرضه أنه عقد الخلافة من بعده لعمر ☻. ولما أراد ذلك دعا عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال: هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن، فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذاك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه، ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر، فقال: أنت أخبرنا به، فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمي به، أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر ☺: يرحمك الله، والله، لو تركته ما عَدَوْتُكَ. ثم قال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حين يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم. ثم أغشي عليه، فكتب عثمان: إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب. فلما أفاق أبو بكر قال: إقرأ علي، فقرأ عليه، فكبر وقال: أراك خِفْتَ أن يختلف الناس إن أفلتت نفسي في غشيتي؟ قال: نعم، قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر ☺، وأمره فخرج على الناس بالكتاب، فبايعوه لمن فيه، قد علموا أنه عمر، ودخل عليه قوم، فقالوا: ما تقول لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وأنت ترى غلظته، فقال: أجلسوني، تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول اللهم استخلفت عليهم خير أهلك. ثم دعا عمر وأوصاه. أخبرنا محمد بن أبي طاهر، قال: أخبرنا الجوهري، قال: أخبرنا أبو عمرو بن حيوية، قال: أخبرنا أحمد بن معروف، قال: أخبرنا الحسين بن الفهم، قال: حدَّثنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا عبد الله بن نمير

قال: حدَّثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عائشة، قالت: لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، فإني قد كنت استصلحته جهدي، وكنت أصيب من الودك نحوا مما كنت أصيب في التجارة، قالت عائشة: فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح كان يسقي بستاناً له، فبعثنا بهما إلى عمر، قالت: فأخبرني حربي يعني رسولي أن عمر بكى وقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أَتْعَبَ مَنْ بَعْده تَعَبَاً شَدِيداً. قال محمد، بن سعد: وأخبرنا عاصم بن عمر الكلابي، قال: حدَّثنا سلمان ابن المغيرة، عن ثابت، عن أنس، قال: أطفنا بغرفة أبي بكر الصديق في مرضه الذي قبض فيه، فقلنا له: كيف أصبح أو كيف أمسى خليفة رسول الله ؟ فاطَّلع علينا اطلاعة، فقال: ألستم ترضون بما أصنع؟ قلنا: بلى قد رضينا، قال: وكانت عائشة هي تمرضه، قال، فقال: أما إني قد كنت حريصاً على أن أوَفَر للمسلمين فيئهم مع أني قد كنت أصبت من اللحم واللبن، فانظروا إذا رجعتم ما كان عندنا فأبلغوه عمر. قال: فذاك حين عرفوا أنه استخلف عمر. قال: وما كان عنده دينار ولا درهم، ما كان إلا خادم ولقْحة ومِحْلَب، فلما رأى ذلك عمر يُحمَلُ إليه، قال: يرحم الله أبا بكر لقد أَتْعَبَ مَنْ بَعدَه.

قال، ابن سعد: أخبرنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا ابن عون، عن محمد قال: توفي أبو بكر وعليه ستة آلاف درهم كان، أخذها من بيت المال، فلما حضرته الوفاة، قال: إن عمر لم يَدَعْني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها، فلما توفي ذكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكر لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً، وأنا والي الأمر من بعده وقد رددتها عليكم. قال ابن سعد: وأخبرنا عمرو بن عاصم، قال: حدثنا همام، عن يحيى، عن قتادة، قال: قال أبو بكر: لي من مالي ما رضي ربي من الغنيمة، فأوصى بالخمس. قال ابن سعد: وأخبرنا الفضل بن دكين، قال: حدَّثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: لما حضرت أبا بكر الوفاة جلس فتشهد ثم قال: أما بعد يا بنية، فإن أحب الناس غِنَى إليَّ بعدي أنت، وإن أعز الناس عليَ فقراً بعدي أنت، وإني كنت نَحَلْتُكِ جداد عشرين وسقاً من مالي فوددت والله إنك حزتيه وأخذتيه، فإنما هو مال الوارث، وهما أخواك وأختاك. قالت: قلت: هذان أخواي فمن أختاي؟ قال: ذو بطن ابنة خارجة فإني أظنها جارية. قال، ابن سعد: وأخبرنا وكيع، قال: حدَثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما ترك أبو بكر ديناراً ولا درهماً ضرب الله سكتة. قال محمد بن سعد: وأخبرنا الفضل بن دكين، قال: حدَّثنا مالك بن المغول، عن أبي السفر، قال: مرض أبو بكر، فقالوا: ألا تدعو الطبيب؟ فقال: قد رآني فقال إني فعال لما أريد.

ذكر موت أبي بكر الصديق :

قال مؤلف الكتاب، في سبب موته قولان: أحدهما: أن اليهود سمته في حريرة، أكل منها هو والحارث بن كلدة، فأخذ منها الحارث لقمة ثم قال: كف فقد أكلت طعاماً مسموماً سم سنة فماتا جميعاً للسنة يوم مات أبو بكر. وروى ابن سعد عن عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، عن الليث بن سعد، عن عقيل، عن ابن شهاب: أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان حريرة أهديت لأبي بكر، فقال الحارث: ارفع يدك يا خليفة رسول الله، والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت في يوم واحد. فلم يزالا عليلين حتى ماتا في يوم واحد عند انتهاء السنة.

والقول الثاني: ذكره الواقدي عن أشياخه: أن أبا بكر ☺ اغتسل في يوم بارد فَحُمّ خمسة عشر يوماً، فكان لا يخرج إلى الصلاة، وأمر عمر أن يصلي بالناس، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه.

فقال أبو بكر ☺: ليس كما قلت، بل: " وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ". قال: أي يوم هذا. قلت يوم الإثنين، قال: فإني أرجو من الله فيما بيني وبين الليل، فلم يتوف حتى أمسى من تلك الليلة. قالت: ثم دفن قبل أن يصبح. قالت: ثم قال: في كم كفن رسول الله قالت: فيِ ثلاثة أثواب بيض يمانية. قالت فنظر إلى ثوب كان عليه يمرض فيه، فيه درع زعفران أو مشق، فقال: اغسلوا هذا وزيدوا عليه ثوبين وكفنوني، قلت: إن هذا خلق، قال: إن الحي أحق بالجديد، وإنما هو للمُهْلة يعني الصديد. قالت: فغسلناه وكفناه فيه. توفي أبو بكر في مساء ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء، ودفن ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال. وقال أبو معشر: أربعة أشهر إلا أربع ليال، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وغسلته امرأته أسماء بنت عميس، أوصاها بذلك، فقالت: لا أطيق، فقال: يعينك عبد الرحمن. ولما توفي حمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ، وصلى عليه عمر في مسجد رسول الله بين القبر والمنبر، وكبر عليه أربعاً، ودخل قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وكان قد أوصى أن يدفن إلى جنب رسول الله ، فحفر له، فجعل رأسه عند كتفي رسول الله ، وألصقوا اللحد باللحد. قال، محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدَثني ربيعة بن عثمان، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: رأس أبي بكر عند كتفي رسول الله ، ورأس عمر عند حقوي أبي بكر. ولما توفي أبو بكر ☺ نعي إلى أبيه أبي قحافة فقال: رَزْءٌ جليل، وورث أبو قحافة السدس من ماله، وقال: قد رددت ذلك على ولد أبي بكر ☺.

ومن الحوادث في هذه السنة: خلافة عمر باب خلافة عمر بن الخطاب ☺.

لما ولي الخلافة، قال: ورب الكعبة لأحملنهم على الطريق. عن أبي عثمان بن مكنف، قال: سُلم على عمر في صدر إمارته: يا خليفة خليفة رسول الله، فجمع الناس بعد، وقال: إني أراكم لمن بعدكم خير من رأيهم لأنفسهم، وإني أخاف أن يلحدوا في هذا الاسم، أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، فقبلت.

* * *

فصل: ومن أول الحوادث في ولاية عمر

اليرموك.

وكانت بداية أمر اليرموك في حياة أبي بكر ☺، ثم إن المسلمين ذهبوا بعد اليرموك إلى أجنادين.

* * *

ذكر فتح دمشق.

كان عمر ☺ قد عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس، فالتقى المسلمون والروم حول دمشق فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم هزم الله الروم، فدخلوا دمشق فتحصنوا بها فرابطهم المسلمون ستة أشهر حتى فتحوا دمشق وأعطوا الجزية، وكان الصلح على يدي خالد، وكان قد قدم على أبي عبيدة كتاب بتوليته وعزل خالد، واستحى أبو عبيدة أن يقرئه الكتاب. فلما فتحت أظهر أبو عبيدة ذلك، وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وكان حصارها ستة أشهر. وقال ابن إسحاق: بل كانت في سنة ثلاث عشرة.

وروى سيف عن أشياخه: أن أبا عبيدة استخلف على اليرموك بشير بن كعب، وخرج حتى نزل بالصُّفَر يريد اتباع الفالَّة، فأتاه خبرهم أنهم أرَزوا إلى فِحْل. وأتاه الخبر أن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فلم يدر أيبدأ بدمشق أم بفحل، فكتب بذلك إلى عمر، ولما جاء فتح اليرموك إلى عمر أقر الأمراء على ما استعملهم عليه أبو بكر ☺ إلا خالد بن الوليد فإنه ضمه إلى أبي عبيدة، وعمرو ابن العاص فإنه أمره بمعونة الناس، حتى يصير الحرب إلى فلسطين ثم يتولى حربها. وكتب إلى أبي عبيدة: ابدأوا بدمشق فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تَكون بإزائهم.

فحاصروا دمشق نحوا من سبعين ليلة حصاراً شديداً، وقاتلوهم بالمجانيق، فكان أبو عبيدة على ناحية، ويزيد على ناحية، وعمرو على ناحية. وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع، وكان بين دمشق وحمص، وهرقل يومئذ بحمص، وقد استمدوه، وجاءت خيل هرقل مغيثة لأهل الشام، فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع. فأيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم، فأبلسوا، فصعد قوم من أصحاب خالد بالأوهاق إلى السور فكبروا. وجاء المسلمون إلى الباب، وقتل خالد البوابين ودخل عنوة ودخل غير مصالحاً، وكان صلح دمشق على المقاسمة في الدينار والعقار، ودينار عن، كل رأس، وبعثوا بالبشائر إلى عمر. وقال ابن إسحاق: كانت وقعة فحل قبل دمشق، وكانت في سنة ثلاث عشرة ذي القعدة.

* * *

ذكر ما هيج أمر القادسية

اجتمع أهل فارس إلى رستم والفيرزان، فقالوا: قد وهنتما أهل فارس، وأطمعتما فيهم عدوهم، وما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت. فقال رستم والفيرزان لبوران بنت كسرى: اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه، ونساء آل كسرى وسراريهم. ففعلت، فأرسلوا في طلبهن، فاجتمعن فسألوهن عن ذكر من أبناء كسرى، فلم يوجد عندهن، فقال بعضهن: لم يبق إلا غلام يدعى يَزْدَجِرْد من ولد شَهْريار بن كسرى، وأمه من أهل بادوريا. وكانت في أيام شيري حين قتل الذكور، دلَّته في زَبيل إلى أخواله، فجاؤوا به فملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واطمأنت فارس واستوثقت، فكتب بذلك إلى عمر ☺، فكتب عمر إلى عمال العرب وذلك في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة مخرجه إلى الحج أن لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه، ثم وجهتم إلي، والعجل العجل. وحج بالناس عامئذ عبد الرحمن بن عوف، وكان عامل عمر في هذه السنة على مكة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يعلى، وعلى عمان واليمامة حذيفة بن مِحْصَن، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي، وعلى الشام أبو عبيدة، وعلى فرج الكوفة وما فتح من أرضها المثنى بن حارثة، وكان على القضاء علي بن أبي طالب.

* * *

سنة أربع عشرة

وذلك أن عمر بن الخطاب ☺ خرج في أول يوم من، المحرم من سنة أربع عشرة، فنزل على ماء يدعى صراراَ، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد، أيسير أم يقيم؟ وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف، ب وكان عثمان يدعى في زمان عمر رديفاً، وكانوا إذا لم يقدر هذان على شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس، قال: فقال عثمان لعمر: ما بلغك. ما الذي تريد. فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فأخبرهم الخبر الذي اقتصصناه في ذكر ما هيج أمر القادسية من اجتماع الناس على يزدجرد، وقصد فارس إهلاك العرب فقال عامة الناس: سر وسر بنا، فقال: استعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من هذا. ثم بعث إلى أهل الرأي، فاجتمع إليه، أصحاب رسول الله وأعلام العرب، فقال: أحضروني الرأي، فاجتمع ملؤهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ويقيم، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي من الفتح، فهو الذي يريد، وإلا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر.

فأرسل إلى عليّ ☺ ، وكان قد استخلفه على المدينة، وإلى طلحة، وكان قد بعثه على المقدمة، وجعل على المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف، فقال له عبد الرحمن: أقم وابعث جنداً، فليس انهزام جندك كهزيمتك، فقال: إني كنت عزمت على الخروج، فقد رأيت أني أقيم وأبعث رجلاً، فمن تَرونه؟ فقالوا: سعد ابن مالك، وكان سعد على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر أن ينتخب ذوي الرأي والنجدة، فانتخب ألف فارس ثم أرسل إليه، فقدم.

وكتب عمر إلى المثنى: تنح إلى البر، وأقم من الأعاجم قريباً على حدود أرضك وأرضهم حتى يأتيك أمري. وعاجلتهم الأعاجم، فخرج المثنى بالناس حتى نزل العراق، ففرق الناس في مسالحه، وكانوا كالأسد ينازعون فرائسهم، وكانت فارس منزعجة. ولما قدم سعد ولاه عمر حرب العراق، وقال: يا سعد لا يغرنك إن قِيل: خال رسول الله وصاحبه، فإنه ليس بين أحد وبين الله نسب إلا الطاعة، وإنك تقدم على أمر شديد، فالصبر الصبر على ما أصابك. ثم سرحه فيمن اجتمع معه، فخرج قاصداً إلى العراق في أربعة آلاف، ثم أمده عمر بثلاثة آلاف. وكتب إلى جرير بن عبد الله والمثنى أن يجتمعا إلى سعد، وأمره عليهما، فمات المثنى من جراحة كان قد جرحها.

وبعض الناس يقول: كان أهل القادسية ثمانية آلاف وبعضهم يقول: تسعة آلاف، وبعضهم يقول: اثني عشر ألفاً. وخرج سعد في ثمانية آلاف، ثم أضيف إليه خلق، فشهد القادسية مع سعد بضعة وثلاثون ألفاَ. وكتب عمر إلى سعد: إذا جاءك كتابي هذا، فعشر الناس وأمر على أجنادهم، وواعد الناس القادسية، واكتب إليَّ بما يستقر أمر الناس عليه. فجاءه الكتاب وهو بشراف، ثم كتب إليه: أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله، واعلم أنَّك تقدم على قوم علاهم كثير، وبأسهم شديد، فبادروهم بالضرب ولا يخدعنكم، فإنهم خدعة مكرة، وإذا انتهيت إلى القادسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهو منزل حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فلتكن مسالحك على انقابها، فإنهم إذا أحسوك رموك بجمعهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم ونويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم، وإن تكن الأخرى انصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم حتى يرد الله لكم الكرة.

ثم قدم عليه كتاب جواب عمر: أما بعد، فتعاهد قلبك، وحادث جندك بالموعظة والصبر الصبر، فإن المعونة تأتَي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحِسْبَة، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وصف لي منازل المسلمين كأني أنظر إليها وقد ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فإن منحك الله أكتافهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنها خرابها إن شاء الله. ومضى سعد حتى نزل القادسية وأصاب المسلمون في طريقهم غنائم من أهل فارس عارضوها في طريقهم، وجاء الخبر إلى سعد أن الملك قد ولى رستم الأرمَنّي حربه، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: لا يكربنَّك ما يأتيك عنهم، واستعن بالله وتوكل عليه. فعسكر رستم بساباط دون المدائن، وزحف بالخيول والفيول، وبعثوا إلى سعد أنه لا بد لكم منا، ولا سلاح معكم، فما جاء بكم؟ وكانوا يضحكون منهم ومن نبلهم، ويقولون هذه مغازل. فلما أبوا أن يرجعوا عن حربهم، قالوا لهم: ابعثوا لنا رجا منكم عاقلاً يبين لنا ما جاء بكم، فقال المغيرة بن شعبة: أنا، فعبر إليهم، فقعد مع رستم على السرير، فصاحوا عليه، فقال: إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم، فقال رستم: صدق، ثم قال: ما جاء بكم. فقال: إنا كنا قوماً في ضلالة، فبعث الله فينا نبي فهدانا الله به، فإن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلتم دخلتم النار، فقال: أو ماذا؟ قال: أو تؤدون الجزيِة، فلما سمعوا نخروا وصاحوا

وقالوا: لا صلح بيننا وبينكم، فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم. فقال رستم: بل نعبر إليكم، فاستأخر المسلمون حتى عبر منهم من عبر فحملوا عليهم فهزموهم، فأصاب المسلمون فيما أصابوا جراباً ومن كافور فحسبوه ملحاً فألقوا منه في الطبيخ، فلما ذاقوه قالوا: لا خير في هذا. وانهزم القوم حتى انتهوا إلى الصَّراةَ، فطلبوهم فانهزموا حتى انتهوا إلى المدائن، ثم انهزموا حتى أتوا شاطئ دجلة، فمنهم من عبر من كَلْواذىَ، ومنهم من عبر من أسفل المدائن، فحاصروهم حتى ما يجدون طعاماً يأكلونه إلا كلابهم وسنانيرهم، فخرجوا ليلاً فلحقوا بجلولاء، فأتاهم المسلمون، وعلى مقدمة سعد هاشم بن عتبة، وهي الوقعة التي كانت، فهزم المشركون حتى ألحقهم سعد بنهاوند. وبعث سعد بجماعة من المسلمين إلى يزدجرد يدعونه إلى الإسلام، فلما دخلوا عليه، قال: ما الذي دعاكمِ إلى غزونا، والولوع ببلادنا؟ فقال له النعمان بن مقرن: إن الله تعالى أرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، فأمرنا أن ندعو الناس إلى الإنصاف، ونحن ندعوكم إلى ديننا، فإن أبيتم فالمناجزة، فقال يزدجرد: إني لا أعلم في الأرض أمة أشقى منكم، فقال المغيرة بن زرارة الأسير: اختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئت السيف، أو تسلم، فقال: أتستقبلني بمثل هذا؟ فقال: ما استقبلتَ إلا من كلمني، فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك لا شيء لكم عندي، ثم قال: ائتوني بوقر من تراب واحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أني مرسل إليهم رستم حتى يدفنه وجنده في خندق القادسية، ثم أورده بلادكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

ثم قال: من أشرفكم؟ فسكت القوم، فقال عاصم بن عمرو: أنا، فحملنيه فحمله على عنقه، فأتى به سعداً، فقال: ملكنا الله أرضهم تفاؤلاً بأخذ التراب. وأقام سعد بالقادسية شهرين وشيئاً حتى ظفر وعج أهل السواد إلى يزدجرد، وقالوا: العرب قد نزلوا القادسية فلم يبقوا على شيء، وأخربوا ما بينهم وبين الفرات، ولم يبق إلا أن يستنزلونا، فإن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا. فبعث إليهم رستم، وجاء الخبر إلى سعد، فكتب بذلك إلى عمر، وكان من رأي رستم المدافعة والمناهلة، فأبى عليه الملك إلا الخروج، وقال له: إن لم تسر أنت سرت بنفسي، فخرج حتى نزل بساباط، وجمعِ أداة الحرب، وبعث على مقدمته الجالنوس في أربعين ألفاً، وخرج في ستين ألفاً، واستعمل على ميمنته الهرمزان. وعلى ميسرته مهران بن بهرام، وعلى ساقته النبدوان في عشرين ألفاً ولهم أتباع، فكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف.

فلما فصل رستم من ساباط أخذ له رجل من أصحاب سعد، فقال له: ما جئتم تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إذ أبيتم أن تَسلموا، قال: فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: في موعود الله أن من قتل منا قبل ذلك دخل الجنة، وينجز لمن بقي منا ما قلت لك، فقتله. ثم خرج حتى نزل ببُرس، فغصب أصحابه الناس أموالهم، ووقعوا على النساء، وشربوا الخمور، فقام إلى الناس، فقال: إن الله كان ينصركم على عدوكم لحسن السيرة، وكف الظلم والوفاء بالعهد، فأما إذا تحولتم عن هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم. ثم نزل مما يلي الفرات، ودعا أهل الحيرة، فقال: فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عوناً لهم علينا، وقويتموهم بالأموال، فقالوا: والله ما فرحنا بمجيئهم، وما هم على ديننا، وأما قولك: كنتم عوناً لهم، فما يحوجهم إلى ذلك وقد هرب أصحابكم منهم وخلّوا لهم القرى، وقولك: " قويناهم بالأموال "، فإنا صانعنا هم بالأموال عن أنفسنا. فارتحل رستم فنزل النجف، وكان بين خروجه من المدائن إلى أن لقي سعداً أربعة أشهر لا يُقدِم ولا يقاتل، رجاء أن يضجروا بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم، فطاولهم والملك يستعجله، وعهد عمر إلى سعد والمسلمين أن ينزلوا على حدود أرضهم وأن يطاولهم، فنزلوا القادسية، وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة، فكانوا يغيرون على السواد، فانتسفوا ما حولهم وأعدوه للمطاولة. وكان عمر يمدهم، وقال بعض الناس لسعد: قد ضاف بنا المكان فأقدم، فزبره وقال: إذا كفيتم الرأي فلا تكلفوه، وخرج سواد وحُمْيضة في مائة مائة فأغاروا على النهرين، وقد كان سعد نهاهما أن يَمعِنا، وبلغ ذلك رستم، فبعث خيلاً، فبعث سعد إليهم قوماً فغنموا وسلموا. ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم، وبات فيه يحرسه وينتظر.

فلما أدبر الليل أتى أفضل من توسم في ناحية العسكر، فإذا فرس لهم لم ير في خيل القوم مثله، فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه، فخرج يعدو، ونذر به الرجل والقوم، فركبوا الصعب والذلول وخرجوا في طلبه، فلحقه فارس، فعدل إليه طليحة فقصم ظهره بالرمح، ثم لحق به آخر، ففعل به مثل ذلك، ثم لحق به آخر فكر عليه طليحة ودعاه إلى الأسار فاستأسر، فجاء به إلى سعد فأخبره الخبر، فقال للأسير: تكلم، فقال: قد باشرت الحروب وغشيتها، وسمعت بالأبطال ولقيتها، ما رأيت ولا سمعت بمثل هذا؟ أن رجلاً قطع عسكرين لا يجترىء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفاً

فلم يرض أن يخرج حتى سلب فارس الجند، وهتك أطناب بيته، فطلبناه فأدركه الأول، وهو فارس الناس، يعدل بألف فارس فقتله، ثم أدركه الثاني وهو نظيره فقتله، ثم أدركته ولا أظنني خلفت بعدي من يعدلني، فرأيت الموت فاستأسرت. ثم أخبرهم بأن الجند عشرون ومائة ألف، وأن الأتباع مثلهم خدام لهم، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلماً، وعاد إلى طليحة وقال: والله لا يهزمون على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح، لا حاجة لي في صحبة فارس، فكان من أهل البلاء يومئذ.

وقال سعد لقيس بن هبيرة: أخرج حتى تأتيني بخبر القوم، فخرج وسرح عمرو ابن معدي كرب، وطليحة، فإذا خيل القوم، فأنشب قيسٌ القتال وطاردهم، فكانت هزيمتهم، وأصاب منهم اثني عشر رجلاَ وثلاثة أسراء وأسلاباً، فأتوا بالغنيمة سعداً. فلما أصبح رستم تقدم حتى انتهى إلى العتيق فتباسر حتى إذا كان بحيال قديس خندق خندقاً بحيال عسكر سعد، وكان رستم منجماً، فكان يبكي مما يرى من أسباب تدل على غلبة المسلمين إياهم، ومما رأى أن عمر دخل عسكر فارس ومعه ملك، فختم على سلاحهم ثم حزمه ودفعه إلى عمر. وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً، في القلب ثمانية عشر، وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً، منها فيل سابور الأبيض، وكان أعظم الفيلة. فلما أصبح رستم من ليلته التي بات بها في العتيق، ركب في خيله، فنظر إلى المسلمين، ثم صعد نحو القنطرة وحرز الناس، وراسل زُهرة، فخرج إليه وأراد أن يصالحهم، وجعل يقول: إنكم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونوليهم المرافق، الكثيرة، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا وإنما يريد بذلك الصلح ولا يصرح، فقال زهرة: ليس أمرنا أمر أولئك إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبنا الآخرة، كنا نضرع إليكم فنطلب ما في أيديكم، فبعث الله إلينا رسولاً فأجبناه إلى دين الحق. فدعا رستم رجال أهل فارس، فذكر لهم ذلك، فأنفوا، فقال: أبعدكم الله فمال الرُّفَيل إلى زهرة فأسلم وأسلم.

وأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة، وبسر بن أبي رهم، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وربعي بن عامر، وقرفة بن زاهر التيمي، ومذعور بن عدي العجلي، والمضارب بن يزيد العجلي، ومعبد بن مرة العجلي، وكان من دهاة العرب، فقال: إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟. قالوا جميعاً:، نتبع ما تأمرنا به، وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس، فكلمناهم به.

فقال سعد: هذا فعل الحَزَمة، اذهبوا فتهيَّؤوا. فقال ربعي بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، متى ما نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا لهم، فلا تزيد على رجل، فسرحوني. فخرج ربعي ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم بمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس، فقال: ما ترون، أنتهاون أم نباهي؟ قالوا: نباهي، فأظهروا الزبرجد، وبسطوا البسط والنمارق، ووضع لرستم سرير ذهب، عليه الوسائد المنسوجة بالذهب. وأقبل ربعي وغمد سيفه لفافة ثوب خلق، ورمحه معلوب بقِدّ، معه حَجَفة من جلود البقر، فجاء حتى جلس على الأرض، وقال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم، فكلمه وقال: ما جاء بكم. قال: الله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، من جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ومن أبى قاتلناه حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله؟ قال: وما هو موعود الله. قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظَفَر لمن بقي.

فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر لننظر فيه وتنظروا؟ قال: إنا لا نؤجل أكثر من ثلاث. فخلص رستم برؤساء أهل فارس، وقال: ما ترون؟ هل رأيتم قط كلاماً أوضح وأعز من كلام هذا؟ قالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى إلى ثيابه، فقال: ويحكم لا تنظرون إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب. فرجع ربعي إلى أن ينظروا في الأجل، فلما كان في الغد بعثوا: أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن، فلما جاء إلى البساط قالوا: انزل، قال: ذاك لو جئتكم في حاجتي، الحاجة لكم لا لي، فجاء حتى وقف ورستم على سريره، فقال له: انزل، قال: لا أفعل، فقال: ما بالك ولم يجئ صاحبنا بالأمس. قال: أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي، فتكلم بنحو ما تكلم به ربعي، ورجع. فلما كان من الغد أرسلوا: ابعث لنا رجلاً، فبعث إليهم المغيرة بن شعبة، فجاء حتى جلس مع رستم على سريره فترتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال: كانت تبلغنا عنكمِ الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاَ، فظننت أنكَم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، فقال رستم: لم نزل متمكنين من الأرض والبلاد، ظاهرين على الأعداء، ننصر على الناس، ولا ينصرون علينا، ولم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم، ولا نراكم شيئاً ولا نعدكم

وكنتم إذا قحطت أرضكم استعنتم بأرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقرتي تمر وثوبين، وتنصرفون عنا، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم. فتكلم المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: لسنا ننكر ما وصفت به نفسك وأهل بلادك من التمكن في البلاد، وسوء حالنا، غير أن الأمر غير ما تذهبون إليه، إن الله تعالى بعث فينا رسولاً فذكر نحو كلام ربعي إلى أن قال: فكن لنا عبداً تؤدي الجزية وأنت صاغر، وإلا السيف إن أبيت، فنخر نخرة، واستشاط غضباً، ثم حلف بالشمس: لا يِّرتفع الضحى غداً حتى أقتلكم أجمعين.

فانصرف المغيرة، وخلص رستم بأشراف فارس، فقال: إني أرى لله فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم، ثم قال رستم للمسلمين: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم. فقالوا: لا بل أعبر إلينا، فأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، فأراد المشركون العبور على القنطرة، فأرسل إليهم سعد ولا كرامة، متى قد غلبناكم عليها لن نردها عليكم تكلفوا معبراً غير القناطر، فباتوا يسكرون العتيق والقصب حتى الصباح بأمتعتهم، فجعلوه طريقاً.

* * *

ليلة القادسية

فأصبحوا صبيحة ليلة الهرير وهي تسمى ليلة القادسية والناس حَسْرَى لم يغمضوا ليلتهم كلها، ثم اقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة، وهبت ريح عاصف الغبار على المشركين، فانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم، وقد قام عنه، فاستظل في ظل بغل عليه مال، فضرب هلال بن عُلَّفة الحِمْل الذي رستم تحته، فقطع حباله، ووقع عليه احدى العِدْلين، فأزال من ظهره فقاراً، ومضى رستم نحو العتيق فرمى نفسه فيه، واقتحمه هلال فأخذ برجله ثم خرج به، فقتله ثم جاء به حتى رمى به بين أرجل البغال، وصعد السرير، ثم نادى: قتلت رستم ورب الكعبة إليّ إليّ، فأطافوا به، فانهزم المشركون وتهافتوا في العتيق، فقتل المسلمون منهم ثلاثين ألفاً، وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى من قتل قبل ذلك وكان المسلم يدعو الكافر فيأتي إليه فيقتله، وثبت جماعة من المشركين استحياء من الفرار، فقتل المسلمون. وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية من المسلمين ستة آلاف.

ولما انهزموا أمر سعد زُهرة بن الحوِيةِ باتباعهم، فتبعهم والجالنوس يحميهم، فقتله زهرة وقتل خلقاً كثيراً منهم، ثم رجع بأصحابه فبات بالقادسية، واستكثر سعد سلب الجالنوس، فكتب إلى عمر، فكتب إليه: إني قد نفَّلت مَنْ قتل رجلاً سلبه، فأعطاه إياه، فباعه بسبعين ألفاً، وجمع من الأسلاب والأموال ما لم يجمع مثله. وكان أهل فارس قد خرجوا بأموالهم ليردوا بها إلى المدينة ليغزوا عمر بن الخطاب ☺، فقضى الله بها للمسلمين. وكان مع رستم ستمائة ألف ألف، وأصاب صاحب الفرسين يومئذ سبعاً وعشرين ألفاً، ولم يعبؤوا بالكافور لأنهم ما عرفوه، فباعوه من قوم مروا بهم كيلاً من الكافور بكيل من الملح الطيب، وقالوا: ذاك ملح مرّ. عن حبيب بن صهبان، قال: شهدت القادسية، قال: فانهزموا حتى أتوا المدائن، قال: وسبقناهم فانتهيا إليها، هي تطفح، فأقحم رجل منا فرسه وقرأ:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥]. قال: فعبر ثم تبعوه الناس أجمعون، فعبروا فما فقدوا عقالاً ما خلا رجلاً منهم انقطع منه قدح كان معلقاً بسرجه، فرأيته يدور في الماء. قال: فلما رأونا انهزموا من غير قتال. قال: فبلغ سهم الرجل ثلاث عشرة دابة، وأصابوا من الجامات الذهب والفضة. قال: فكان الرجل منا يعرض الصحفة الذهب يبدلها بصحفة من فضة يعجبه بياضها فيقول: من يأخذ صفراء ببيضاء.

قال علماء السير: وخرج صبيان العسكر في القتلى ومعهم الأداوي يسقون من به رمق من المسلمين، ويقتلون من به رمق من المشركين، ثم إن الفرس قصدوا المدائن يريدون نهاوند، فاحتملوا معهم الذهب والفضة والديباج والسلاح وبنات كسرى، وخلوا ما سوى ذلك، واتبعهم سعد بالطلب، فبعث خالد بن عرفطة، وعياض بن غنم في آخرين، فلما صلح مرض سعد اتبعهم بمن بقي معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة على بَهُرَسِير، فطلبوا المخاضة فلم يهتدوا لها، فدلهم رجل من أهل المدائن على مخاضة بقَطْرَبَّلَ، فخاضوا ثم ساروا حتى أتوا جلولاء، فكانت بها وقعة هزم الله فيها الفرس، وأصاب المسلمون بها من الفيء أفضل ما أصابوا بالقادسية، ثم كتب سعد إلى عمر بالفتح، فكتب إليه عمر: قف مكانك ولا تتبعهم، واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد، ولا تجعلن بيني وبين المسلمين بحراً، فنزل الأنبار فاجتواها، فنزل موضع الكوفة اليوم، وخط مسجدها، وخط فيه الخِطَط للناس. وقيل: إن بقيلة قال له: ألا أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة، فدله على موضع الكوفة اليوم. وقيل: كان ذلك في سنة خمس عشرة.

عن مجالد بن سعيد، قال: لما أتى عمر بن الخطاب ☺ الخبر بنزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف، النهار، ثم يرجع إلى أهله، فلما لقيه البشير سأله: من أين جاء؟ فأخبره، قال: يا عبد الله، أخبرني، قال: هزم الله العدو، وعمر يحث معه ويستخبره، والبشير يسير يحث ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين؟ فجعل عمر ☺ يقول: لا عليك يا أخي. وهذه وقعة القادسية قد ذكرنا أنها كانت سنة أربع عشرة. وقال ابن إسحاق: كانت سنة خمس عشرة، وقال الواقدي: سنة ست عشرة. قال ابن جرير: وهو الثبت عندنا.

وفي هذه السنة، أعني سنة أربع عشرة. أمر عمر بن الخطاب ☺ بالقيام في المساجد في شهر رمضان، وكتب إلى الأمصار يأمر المسلمين بذلك.

عن الزهري، أن عروة بن الزبير، حدثه أن عبد الرحمن بن عبد القاري، أخبره: أن عمر بن الخطاب ☺، خرج ذات ليلة في رمضان ومعه عبد الرحمن بن عبد القاري، فرأى الناس يصلون متفرقين أوزاعاً في المسجد، فقال عمر: لو جمعناهم على رجل واحد كان أمثل، فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرج وهم يصلون خلف أبي بن كعب جميعاً، فقال: نعمت البدعة والتي ينامون عنها أفضل، وهي آخر الليل، وكتب بها إلى الأمصار. أخبرنا المبارك بن علي، أخبرنا أحمد بن الحسين بن طاهر، أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فضالة، حدَّثنا الفضل بن العباس الهروي، أخبرنا أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدَّثنا عبد الله بن أبي زياد القطواني، حدَثنا سنان بن جاثمة، حدَّثنا جعفر بن سليمان، حدَّثنا قطر يعني ابن كعب القطيعي، عن أبي إسحاق الهمذاني، قال: خرج علي بن أبي طالب في أول ليلة من شهر رمضان، فسمع القراءة في المساجد، ورأى القناديل تزهر، فقال: نور الله لعمر بن الخطاب قبره كما نور مساجد الله تعالى بالقرآن.

* * *

سنة خمس عشرة

وذلك أن أبا عبيدة بن الجراح خرج بجنوده ومعه خالد بن الوليد فنزل بمرج الروم، فبلغ الخبر هرقل، فبعث توذرا البطريق، ثم أمده بشنس مدداً له، فنزل في جبل على جدة، ثم رحل فتبعه خالد، فاستقبله يزيد بن أبي سفيان، فاقتتلوا، ولحق بهم خالد فأخذهم من خلفهم، فأبادهم فلم يفلت إلا الشريد، وقسموا غنائمهم بين أصحاب يزيد وخالد، وقتل توذرا، وانصرف يزيد إلى دمشق، وخالد إلى أبي عبيدة بعد خروج خالد في أثر توذرا وشنس، فاقتتلوا بمرج الروم، فقتل شنس وخلق عظيم من أصحابه حتى امتلأ المرج من قتلاهم، فأنتنت الأرض، وهرب من هرب منهم، فركب أكتافهم إلى حمص.

وفيها كانت وقعة حمص الأولى أقبل أبو عبيدة فنزل على حمص، وأقبل بعده خالد فنزل عليها، فلقوا من الحصار أمراً عظيماً، وكان البرد شديداً، ولقي المسلمون شدة وكان أهل حمص يقولون عن المسلمين إنهم حفاة فصابروهم ليقطع البرد أقدامهم، وأن المسلمين كبروا تكبيرة، فاتفق معها زلزلة فصدعت المدينة والحيطان، ثم كبروا الثانية، فتهافتت منها دور كثيرة، فأشرفوا على الهلاك، فنادوهم: الصلح الصلح، فأجابوهم، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بالفتح.

وفيها وقعة قنسرين بعث أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين، فزحف لهم الروم وعليهم مِيناس، وهو أعظم الروم بعد هرقل، فالتقوا فاقتتلوا فقتل ميناس ومن معه ولم يبق منهم أحد، وتحصن أهل قنسرين، ثم ذكروا ما جرى لأهل حمص فصالحوه على صلح حمص، فأبى إلا على إخراب المدينة، فأخربها، ثم إن هرقل خرج نحو القسطنطينية في هذه السنة على قول ابن إسحاق. وقال سيف: إنما كان خروجه سنة ست عشرة. وقد سبق أن هرقل سأل عن المسلمين، فقال له رجل: هم فرسان بالنهار، ورهبان بالليل، فقال: إن كنت صدقتني فليرثن ما تحت قدمي هاتين. وقال هرقل: عليك السلام أيها البلاد، سلاماً لا اجتماع بعده. ومضى حتى نزل قسطنطينية.

* * *

فتح بيت المقدس،

ثم شخص عمر من الجابية إلى بيت المقدس، فرأى فرسه يتوجى، فنزل عنه وأتى ببرذون فركبه فهزه، فنزل فضرب وجهه بردائه، ثم قال: فتح الله من علمك هذا، ثم دعا بفرسه فركبه، فانتهى إلى بيت المقدس، ولحق أرطبون والتذارق بمصر حينئذ، فقدم عمر الجابية، ثم قتل أرطبون بعد ذلك، وأقام عمر بإيلياء، ودخل المسجد، ومضى نحو محراب داود، وقرأ سجدة داود فسجد. وبعث عمرو بن العاص إلى مصر، وبعث في أثره الزبير مدداً، وبعث أبا عبيدة إلى الرمادة.

ومن الحوادث: في سنة خمس عشرة: فرض العطاء، وعمل الدواوين، أن عمر فرض الفروض، ودون الدواوين، وأعطى العطاء على مقدار السابقة في الإسلام، فكلمه صفوان بن أمية، وسهيل، والحارث بن هشام في تقليل عطائهم، فقال: إنما أعطيكم على السابقة في الإسلام لا على الأحساب، فقالوا: فنعم إذاً، وأخذوا، ثم أعطى سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام أربعة آلاف معونة على جهادهما، فلم يزالا مجاهدين حتى أصيبا في بعض تلك الحروب. وقال ابن إسحاق: إنما ماتا في طاعون عمواس. وقيل: بل دون الدواوين في سنة عشرين. ولما كتب عمر الدواوين قال له عبد الرحمن وعثمان وعلي: إبدأ بنفسك، فقال: لا بل أبدأ بعم رسول الله ، ثم الأقرب فالأقرب من رسول الله ، فبدأ بالعباس، ففرض له خمسة وعشرين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفَاَ، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف، وأدخل في أهل بدر من غير أهلها الحسن والحسين فأبا ذر وسلمان.

ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، ولمن ولي الأيام قبل القادسية وأصحاب اليرموك ألفين ألفين، ثم فرض لأهل البلاء البارع ألف وخمسمائة ألف وخمسمائة، وللروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية واليرموك ألفاً ألفَاَ، ثم لمن ردف الروادف خمسمائة خمسمائة، ثم لمن ردف أولئك ثلاثمائة ثلاثمائة، وسوى كل طبقة في العطاء ليس بينهم تفاضل، قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم، ثم فرض لمن ردف أولئك خمسين ومائتين، ولمن ردفهم مائتين، وكان آخر من فرض له أهل هجر على مائتين. وفرض لأزواج رسول الله عشرة آلاف عشرة آلاف، ووصل عائشة بألفين فأبت، فقال: هذا بفضل منزلتك عند رسول الله فإذا أخذتيها فشأنك. وجعل نساء أهل بدر على خمسمائة خمسمائة، ونساء ما بعد بدر إلى الحديبية على أربعمائة

ونساء ما بعد ذلك على ثلاثمائة، ونساء أهل القادسية مائتين. والصبيان من أهل بدر وغيرهم مائة. وقال قائل: يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال عدة تكون لحادث، فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله عز وجل شرها، وهي فتنة لمن بعدي، بل أعد لهم طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله، فهما عدتنا التي أفضينا بها إلى ما ترون، فإذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم. أخبرنا محمد بن ناصر، قال: حدَّثنا طراد ابن محمد، قال: أخبرنا علي بن محمد بن بشران، قال: أخبرنا ابن صفوان، قال: حدَّثنا أبو بكر القرشي، قال: حدَّثنا أبو خيثمة، قال: حدَّثنا يزيد بن هارون، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: أنه قدم على عمر ☺ من البحرين قال: فغدوت عليه فصليت العشاء معه، فلما رآني سلمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: قدمت بخمسمائة ألف، قال: أتدري ما تقول؟ قلت: مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف حتى عددت له خمساً، قال: إنك ناعس ارجع إلى بيتك فنم ثم اغد عليَ، قال: فغدوت عليه، فقال: بماذا جئت؟ قلت: خمسمائة ألف، قال: أطيب؟ قلت: نعم، لا أعلم إلا ذلك، فقال للناس: إنه قد قدم علي مال كثير، فإن شئتم أن نعده لكم عدداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، فقال له رجلاً: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً، لم فدون الدواوين، ففرض للمهاجرين في خمسة آلاف، والأنصار في أربعة آلاف، وفرض لأزواج رسول الله في إثني عشر ألفاً. أخبرنا محمد بن عبد الباقي، أخبرنا الجوهري، أخبرنا ابن حيوية، حدَّثنا أحمد بن معروف، حدَّثنا ابن الفهم، حدَّثنا محمد بن سعد، حدَّثنا الحسن بن موسى، حدَّثنا زهير، حدَّثنا أبو إسحاق، عن مصعب بن سعد: أن عمر ☺ فرض لأهل بدر والمهاجرين والأنصار ستة آلاف ستة آلاف، وفرض لأزواج رسول الله ، ففضل عليهن عائشة، ففرض لها في اثني عشر ألفاً، ولسائرهن في عشرة آلاف غير جويرية وصفية، فرض لهما في ستة آلاف، وفرض للمهاجرات الأول أسماء بنت عميس، وأسماء بنت أبي بكر، وأم عبد أم ابن مسعود ألفاَ ألفاً. عن محمد، والمهلب، وعمرو، وطلحة، وسعيد، قالوا: لما فتح الله على المسلمين وقتل رستم، وقدمت على عمر ☺ فتوح من الشبام، جمع المسلمين وقال: ما يحل للوالي من هذا المال فقالوا: أما لخاصته فقوته وقوت عياله، لا وكس ولا شطط، وكسوته وكَسوتهم للشتاء والصيف، ودابتان لجهاده وحوائجه وحملانه إلى حجه وعمرته والقسم بالسوية، وأن يعطي أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور المسلمين بعده، ويتعاهدهم في الشدائد والنوازل حتى تنكشف، ويبدأ بأهل الفيء.

وعن نافع عن ابن عمر، قال: جمعِ عمر الناس بالمدينة حتى انتهى إليه فتح القادسية ودمشق، فقال: إني كنت امرأً تاجراً يغني الله عز وجل عيالي بتجارتي، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فأكثر القوم وعلي ☺ ساكت، فقال: يا علي، ما تقول؟ فقال: ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من الأمر غيره، فقال: القول ما قال علي بن أبي طالب. وعن سيف، عن مبشر بن الفضيل، عن سالم بن عبد الله، قال: لما ولي عمر ☺ قعد على رزق أبي بكر ☺ الذي كانوا فرضوا له، فكان بذلك فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير، فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه، فقال علي: وددنا أنه فعل ذلك فانطلقوا بنا، فقال عثمان: إنه عمر، فهلموا فلنسترىء ما عنده من ورائه، نأتي حفصة فنكلمها ونستكتمها أسماءنا، فدخلوا عليها وسألوها أن تخبر وبالخبر عن نفر لا تسمي له أحداً إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها، فلقيت عمر في ذلك، فعرفت الغضب في وجهه، فقال: من هؤلاء؟ قال: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم ما رأيك، فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم، أناشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشقين، كان يلبسهما للوفد، ويخطب فيهما الجمع، قال: وأي طعام ناله من عندك أرفع؟ قالت: خبزنا خبزة شعير، فصببت عليها وهي حارة أسفل عُكَّة، فجعلناها دسماً حلوة، فأكل منها. قال: وأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف، فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء ابتسطنا نصفه وتدثرنا نصفه، قال: يا حفصة، فأبلغيهم عني أن رسول الله قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالتَّزجية، وإني قدرت، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، ولأتبلغن بالتزجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة نفر سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتبعهما الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما أبداً.

وفي هذه السنة حج بالناس عمر بن الخطاب، وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف يعلى بن أمية وعلى الكوفة وأرضها سعد بن أبي وقاص، وعلى قضائها أبو قرة، وعلى البصرة وأرضها المغيرة بن شعبة.

* * *

سنة ست عشرة

أخبرنا القزاز، قال: أخبرنا الخطيب، قال: والمدائن على جانبي دجلة شرقاً وغرباً، ودجلة تشق بينهما، وتسمى المدينة الشرقية العتيقة، وفيها القصر الأبيض القديم الذي لا يدرى من بناه، ويتصل بها المدينة التي كانت الملوك تنزلها، وفيها الإيوان وتعرف بأسبانير. وأما المدينة الغربية فتسمى بَهُرسير، وكان الإسكندر قد بنى بالمغرب الاسكندرية، وبخراسان العليا سمرقند ومدينة الصُغد، وبخراسان السفلى مرو، وهراة، وجال في الأرض، فلم يختر منزلاً سوى المدائن فنزلها. وبنى بها مدينة عظيمة، وجعل عليها سوراً أثره باقٍ إلى الآن، وهي المدينة التي تسمى الرومية في جانب دجلة الشرقي، وأقام الإسكندر بها ومات، فحمل منها إلى الاسكندرية لمكان أمه. وكل الملوك اختاروا المدائن، وإنما سميت المدائن لكثرة من بنى بها من الملوك الأكاسرة. والذي بنى الإيوان هو شابور بن هرمز المعروف بذي الأكتاف، وكان ملكه اثنتين وسبعين سنة.

قال علماء السير: أمر عمر بن الخطاب ☺ سعد بن أبي وقاص بعد القادسية بالمسير إلى المدائن، وعهد إلية أن يخلف النساء والعيال بالعتيق، ويجعل معهم من يحرسهم من الجند ويسهم لأولئك الجند من المغنم ما داموا يحفظون عيال المسلمين، فأقام سعد بعد الفتح شهرين بالقادسية، ثم ارتحل بعد الفراغ من أمرها لأيام بقين من شوال، ولقي جماعة من أصحابه جموعاً من فارس يوم برس فهزموهم إلى بابل، فلحقوهم فقتلوا منهم.

وأقام سعد ببابل أياماً ثم جاء إلى كوثى، وأتى المكان الذي حبس فيه إبراهيم عليه السلام، وقدم سعد زهرة بن الحوية إلى بهرسير، فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجزية، فبعثه إلى سعد، ولحق سعد بزهرة فنزلوا بهرسير، وبث سعد الخيل فأغارت ما بين دجلة إلى من له عهد من أهل الفرات، فأصابوا مائة ألف فلاح، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب عمر: إذا كان الفلاحون مقيمون لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به. فخلى سبيلهم، وتحصنت العجم ببهرسير، ونصب عليهم سعدُ عشرين منجنيقاً. وحصروهم شهرين حتى أكلوا الكلاب والسنانير، وربما خرج الأعاجم يمشون على المُسَنَّيات المشرفة على دجلة لقتال المسلمين فلا يقومون لهم، ثم تجردوا يوماً للحرب، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم، فنزلوا، ووقع سهم في زهير بن الحوية، فقال زهرة: أخرجوه، فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دام فيّ لعلي أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة، فمضى نحو العدو، فضرب بسيفه شهربراز فقتله، ثم أحيط به فقتل.

كل هذا وملكهم متحصن في مدينته، فبعث إلى المسلمين رسولاً يقول لهم: إن الملك يقول لكم هل لكم في المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم. فكلمه الأسود بن قطبة بكلمات فولى فقيل له: ما قلت له؟ قال: والله ما أدري وإنما هي كلمات جرت على لساني. فخرج من القوم رجل يستأمن، فأمنوه، فقال: والله ما بقي في المدينة أحد فما يمنعكم، فتسورها الرجال وقالوا له: لأي شيء هربوا؟ فقال: بعث الملك يعرض عليكم الصلح فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينك صلح حتى نأكل من عسل أفريذين بأترج كوثى. فلما دخل سعد والمسلمون بهرسير وهي المدينة الدنيا طلبوا السفن ليعبروا إلى المدينة القصوى، وهي المدائن، فلم يقدروا على شيء ووجدوا القوم قد ضموا السفن ولاح للمسلمين الأبيض، فكبروا وقالوا: هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله. فأقاموا ببهرسير أياماً من صفر، ثم جاء أعلاج، فدلوهم على مخاضة، فتردد سعد في ذلك، ثم فاجأهم المدّ، فرأى رؤيا، أن خيول المسلمين قد اقتحمت، فعبرت، فقال للناس: إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم، فقالوا: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل. وأتى بعض العلوج فقال لسعد: إن أقمت ثلاثاً ذهب يزدجرد بكل شيء من المدائن، فهيجه على العبور.

فقال سعد: من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج. فانتدب له عاصم بن عمرو أول الناس، وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات، فسار فيهم عاصم حتى وقف على شاطىء دجلة، ثم اقتحموا. فجاءت الأعاجم فقال عاصم: الرماح، فطعنوا القوم فلحقوهم فقتلوا عامتهم. فحينئذ أذن سعد للناس في الاقتحام، فاقتحموا دجلة، وإنها لترمى بالزَّبد، وإن الناس ليتحدثون في عومهم كما يتحدثون على وجه الأرض، فكان الفرس يقوم براكبه، فربما لم يبلغ الماء الحزام، وربما أعيا الفرس فتظهر له تلعة فيستريح عليها. وكان سعد يقول في عومه: حسبنا الله ونعم الوكيل، وسلمان يحادثه في عومه حتى خرجوا فلم يفقدوا شيئاً، ولم يغرق إلا رجل وقع من فرسه في الماء، فعاد إليه رجل، فأخذ بيده فعبر. ووقع من رجل قدح، فأخذه آخر، فجاء به إلى العسكر فعرفه صاحبه. فلما رأى العدو ذلك هربوا لا يلوون على شيء، وجعلوا يقولون: إنما تقاتلون الجن لا الإنس، وتركوا جمهور أموالهم، وكان في بيوت الأموال ثلاثة ألف ألف، فأخذوا نصف ذلك وهربوا وتركوا الباقي، وخرجوا من المتاع بما يقدرون عليه، وتركوا من الثياب والمتاع والأواني، وما أعدوا للحصار من البقر والغنم والطعام ما لا يحصى قيمته.

وكان يزدجرد قد أخرج عياله إلى حلوان، فلحق بعياله، فدخل المسلمون المدائن وليس فيها أحد إلا أنه قد بقي في القصر الأبيض قوم قد تحصنوا به، فعرض عليهم المسلمون الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختاروا الجزية. ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذ الإيوان مصلى وجعل يقرأ:{كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾} [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وأتم الصلاة، ثم دخلها لأنه كان على نية الإقامة، وصلى الجمعة، وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعة المدائن. عن جابر بن سمرة، عن النبي ، أنه قال: ليفتتحن رهط من المسلمين كنز كسرى التي في الأبيض. فكنت أنا وأبي منهم، فأصبنا من ذلك ألفي درهم.

ومن الحوادث في هذه السنة وقعة جلولاء.

لما توطن المسلمون المدائن، وبعثوا إلى عمر بالأخماس، أتاهم الخبر بأن مهران قد عسكر بجلولاء وخندق، وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت. فكتب سعد بذلك إلى عمر ☺، فكتب إليه: أن سرح هاشم بن عتبة إلى جَلُولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سعد بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، وعلى ساقته عمرو بن مرة الجهني. وكان الأعاجم لما هربوا من المدائن إلى جلولاء، قالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا، فاحتفروا الخندق واجتمعوا على مهران الرازي، ونفذ يزدجرد إلى حلوان فنزل بها، ورماهم بالرجال والأموال. ففصل هاشم بن عتبة بالناس من المدائن في صفر سنة ست عشرة في اثني عشر ألفاً، فيهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب فقدم جلولاء فحاصرهم فخرجوا، على المسلمين، فاقتتلوا، وبعث الله عز وجل عليهم ريحاً أظلمت عليهم البلاد، فتهافتت فرسانهم في الخندق، ثم اقتتلوا قتالاً شديداً لم ير مثله وانهزموا، واتبعهم المسلمون وقتل منهم يومئذ مائة ألف، فجللت القتلى المجال، وما بين يديهما حوله، فسميت جلولاء لما جللها من قتلاهم. وطلبهم القعقاع حتى بلغ خانقين، فأدرك مهران فقتله، ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الجبل، واقتسم في جلولاء على كل فارس سبعة آلاف وتسعة من الدواب. عن أبي سلمة، قال: لما قدم على عمر بالأخماس من جلولاء، فلما أصبح عمر جاء فكشف عنه الأنطاع، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده ولؤلؤه وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، والله إن هذا لموطن شكر، فقال عمر: واللّه ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم.

* * *

سنة سبع عشرة

وتحول سعد بن أبي وقاص إليها وقد كان مكان الكوفة معروفاً أخبرنا أبو المناقب حيدرة بن عمر بن إبراهيم بن محمد بن حمزة الكوفي، أخبرنا أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمن الحسني، أخبرنا محمد بن الحسين بن جعفر السلمي، أخبرنا عبد الله بن زيدان العجلي، أخبرنا إبراهيم بن قتيبة، عن عمرو بن شبيب، عن صدقة، بن المثنى النخعي، قال: إن إبراهيم خليل الرحمن خرج من كوثي مهاجراً إلى الله عز وجل على حمار، ومعه ابن أخيه لوط يسوق غنماً ويحمل دلواً على عنقه حتى نزل بانقيا، وكان بها قرية طولها اثنا عشر فرسخاً، وكانوا يزلزلون كل ليلة، فلما بات بها إبراهيم لم يزلزلوا تلك الليلة، فمشى بعضهم إلى بعض، فقالوا: بتم بمثل هذه الليلة قط؟ فقالوا: لا، فقال صاحب منزل إبراهيم عليه السلام: إن كان دفع عنكم بشيء فبشيخ بات عندي البارحة لم يزل يصلي حتى أصبح، فأتوه فقالوا: إنما خرجت لطلب المعيشة، فأقم فينا ونقاسمك شطر أموالنا فتكون أكثر الناس مالاً، قال: ليس لذلك خرجت، إنما خرجت مهاجراً إلى الله، فخرج حتى نزل القادسية، فأتته عجوز، فقالت: إني أراك شيخاً حسن الهيئة وأراك شعثاً، فهل لك أن آتيك بغسول تغسل به رأسك ولحيتك. قال: ما شئت، فأتته بغسول، فغسل رأسه ولحيته، فأفاض عليه من الماء وأخذ فضل ما بقي من الإناء فأبعد وقال: كوني مقدسة للقادسية منك يخرج وفد الله، وفيك موضع رحالهم، فسمت بدعوة إبراهيم القادسية. ثم خرج نحو الشام فمر بالنجف فرأى فيه علامات وكان يقرأها في الكتب، فقال: لمن هذا الجبل؟ فقالوا: لأهل القرية التي بت فيها يعنون بانقيا فأتاهم إبراهيم فظنوا أنه أتاهم للذي عرضوا عليه، فقال: بيعوني أرضكم هذه يعني ظهر الكوفة فقالوا هي لك، ما ملكنا أرضاً هي أقل خيراً منها، ما تنبت رعياً، ولا لنا فيها منفعة، فاشتراها منهم بغنمه.

عن علي ☺، قال: من مسجد الكوفة فار التنور، وكان بيت نوح عليه السلام ومسجده، ثم جاء إبراهيم خليل الرحمن إلى كوثى وبها ابن أخيه، فأقام عنده غير كثير ثم خرج حتى جاء إلى مسجد الكوفة، فكلم ملكاً كان عليها، وقال له: إني أحب أن تبيعني هذا المكان لمسجد الكوفة وكان ذلك الملك تزلزل به كل ليلة الأرض، فلما صار إبراهيم إليه كف الله عز وجل تلك الزلزلة، فقال: الملك يدعو لك، فقال: ما أريد أخذه إلا بثمن، قال: فاشتره بما شئت، قال: فإني آخذه بأتاني هذه وشاتي، قال: أما الشاة فليس معك زاد إلا لبنها تشربه

وأما الأتان فهلمها نحن نأخذها، فاشتراها بالأتان. فبدأ أساس نوح، وبناه بناء لاطياً على نحو من ذراع أو ذراعين، ثم سار هو ولوط إلى الشام. عن قيس بن أبي حازم، قال: لما نزل المسلمون المدائن إصفرت ألوانهم، وعظمت بطونهم، ودقت عظامهم، وذلك لما اجتووها، فكتب عمر بن الخطاب ☺ أن يطلبوا منزلاً غيره، فنزلوا الكوفة، فوفدنا إلى عمر، فقال: إني لأعرف فضل منزلكم هذا على الآخر فصفوه لي، فقلنا: هي آخر السواد في العرب، وهي أرض برية بحرية، أرض شيح وقيصوم، وأرض ضب وحوت. قال حسين بن حميد: ذكر أنه قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً، وثلثي ميل، وذكر أن فيها خمسة آلاف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة عشر ألف دار لسائر العرب، وستة وثلاثين ألف دار لليمنيين. أخبرني بذلك في سنة أربع وستين ومائتين.

وفي هذه السنة إعانة أهل حمص من المسلمين في المحرم: عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعد، قالوا: خرجت الروم وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص، فضم أبو عبيدة إليه مسالحه، فعسكر بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليه، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة والتحصن إلى مجيء الغِياث، فكان خالد يأمره أن يناجزهم، وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب إلى عمر، فأطاعهم وعصى خالداً، وكتب عمر إلى سعد: أندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم في يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص، فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدم إليهم في الجد والحث. وكتب إليه أيضاً: أن سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص. فمضى القعقاع في أربعة آلاف نحو حمص، وخرج عمر من المدينة مغيثاً لأبي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية، وخرج أبو عبيدة ففتح الله عليه، وانفض العدو، وقدم القعقاع بعد ثلاث من يوم الوقعة، وكتب إلى عمر بالفتح وهو بالجابية، فكتب عمر: أشركوهم فإنهم نفروا إليكم، وتفرق بهم عدوكم.

وانتهى سهيل بن عدي إلى أهل الرقة، وقد ارفض أهل الجزيرة فحاصرهم فصالحوه، وخرج عبد الله بن عبد الله بن عتبان إلى نصيبين فصالحوه كما فعل أهل الرقة، وسار عياض مع سهيل وعبد الله إلى حران، فأخذ ما دونها، فلما انتهى إليها اتقوه بالجزية فقتل منهم. ومضى سهيل وعبد الله إلى الرهاء فأجابوه بالجزية، واستعمل عمر حبيب بن سلمة على عجم الجزيرة وحربها، واستعمل الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة.

وقد ذكرنا أن عمر أتى الشام أربع مرات مرتين في سنة ستة عشر، ومرتين في سنة سبعة عشر، فأما هذه المرة فإنه لم يدخلها لأجل الطاعون، والخرجة الرابعة أذن له بلال حين حضرت الصلاة، فبكى الناس عند ذكر رسول الله ﷺ فكان أشدهم بكاء عمر ☺.

* * *

وخطب عمر خطبة بليغة بالجابية:

حدَّث موسى بن عقبة، قال: هذه خطبة عمر بن الخطاب الناس يوم الجابية، فقال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي بطاعته يكرم أولياؤه، وبمعصيته يضل أعداؤه، فإنه ليس لهالك هلك معذرة في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا في ترك حق حسبه ضلالة، وإن أحق ما تعاهد الراعي من رعيته أن يتعاهدهم بالذي لله عليهم من وظائف دينهم الذي هداهم الله له، وإنما علينا أن نأمركم بما أمركم الله به من طاعته، وننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته، وأن نقيم فيكم أمر الله عز وجل في قريب الناس وبعيدهم، ثم ولا نبالي على من مال الحق، وقد علمت أن أقواماً يتمنون في دينهم فيقولون: نحن نصلي مع المصلين ونجاهد مع المجاهدين، وننتحل الهجرة، وكل ذلك يفعله أقوام لا يحملونه بحقه، وإن الإيمان ليس بالتحلي، وإن للصلاة وقتاً اشترطه الله فلا مصلح إلا به، فوقت صلاة الفجر حين يزايل المرء ليله، ويحرم على الصائم طعامه وشرابه.. فذكر أوقات الصلوات، قال: ويقول الرجل: قد هاجرت ولم يهاجر، وإن المهاجرين الذين هجروا السيئات، ويقول أقوام: جاهدنا، وإن الجهاد في سبيل الله مجاهدة العدو واجتناب الحرام، فإن الرجل ليقاتل بطبيعته من الشجاعة فيحمي، فأفهموا ما توعظون به، فإن الجرب من جرب دينه، وإن السعيد من وعظ بغيره، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإن شر الأمور مبتدعاتها، وإن الاقتصاد في سنة خير من الإجتهاد في بدعة، وإن للناس نفرة من سلطانهم، فعائذ بالله أن تحركني، فإياكم وضغائن مجبولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة، عليكم بهذا القرآن فإن فيه نوراً وشفاء، فقد قضيت الذي علي فيما ولاني الله عز وجل من أموركم ووعظتكم نصحاً لكم، وقد أمرنا لكم بأرزاقكم، فلا حجة لكم على الله عز وجل، بل الحجة له عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وفي هذه السنة حمى عمر الربدة لخيل المسلمين، وقيل: في سنة ست عشرة.

وفيها اتخذ عمر دار الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزيت، وما يحتاج إليه المنقطع والضيف الذين ينزلون بعمر، ووضع عمر في طريق السبيل ما بين مكة والمدينة ما يصلح لمن ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء.

ومن الحوادث في هذه السنة: أن عمر ☺ كتب التاريخ وذلك في سنة خمس من ولايته، وسنذكر سبب ذلك. قال الشعبي: لما هبط آدم من الجنة، وانتشر ولده أرخ بنو آدم من هبوط آدم، فكان التأريخ حتى بعث الله نوحا، فأرخوا من مبعث نوح حتى كان الغرق، وكان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم، فلما كثر ولد إسماعيل افترقوا، فأرخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى أن بعث رسول الله وعليهم أجمعين. وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم إلى بناء البيت، ومن بناء البيت حتى تفرقت معد، وكانت للعرب أيام وأعلام يعدونها، ثم أرخوا من موت كعب بن لؤي إلى الفيل، وكان التأريخ من الفيل حتى أرخ عمر بن الخطاب من الهجرة. وإنما أرخ عمر بعد سبع عشرة من مهاجرة رسول الله ، وذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ. قال: فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرخ لمبعث رسول الله ، وقال بعضهم: أرخ لمهاجر رسول الله ، فقال عمر: لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل. وقال ميمون بن مهران: رفع إلى عمر صك محله في شعبان، فقال عمر: أي شعبان؟ الذي هوآت أو الذي نحن فيه؟ قال: ثم قال لأصحاب النبي : ضعوا للناس شيئَاَ يعرفونه، فقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الروم، فقيل: إنهم يكتبون من عهد في القرنين، فهذا يطول. وقال بعضهم: اكتبوا على تاريخ الفرس، فقيل: إن الفرس كلما قام ملك طرح ما كان قبله، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله بالمدينة، فوجدوا عشر سنين، فكتب التاريخ من هجرة رسول الله .

قال ابن سيرين: قام رجل إلى عمر فقال: أرخوا، فقال عمر: ما أرخوا. قال: شيء تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، قال عمر: حسن فأرخوا، فقال: من أي السنين نبدأ. فقالوا: من مبعثه، وقالوا: من وفاته، ثم أجمعوا على الهجرة، ثم قال: فبأي الشهور نبدأ، فقالوا: من رمضان، ثم قالوا: المحرم فإنه منصرف الناس من حجهم، وهو شهر حرام، فأجمعوا على المحرم.

وقال سعيد بن المسيب: جمع عمر الناس فسألهم فقال: من أي يوم نكتب؟

فقال علي ☺: من يوم هاجر رسول الله ، وترك أرض الشرك. ففعله عمر ☺. وقال عثمان ☺: أرخوا المحرم أول السنة.

قال مؤلف الكتاب: فقد قدموا التأريخ شهرين وبعض الآخر لأن رسول الله قدم المدينة لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول. وقد قيل: إنما كتب عمر التاريخ في سنة ست عشرة. وقال قدامة بن جعفر الكاتب: تاريخ كل شيء آخره، وهو في الوقت غايته والموضع الذي انتهى إليه، يقال: فلان تاريخ قومه، أي إليه انتهى شرفهم. ويقال: ورخت الكتاب توريخاً، وأرخته تأريخاً، اللغة الأولى لتميم، والأخرى لقيس، ولكل مملكة وأهل ملة تأريخ، وقد كان الروم أرخوا على حسب ما وقع من الأحداث إلى أن استقر تأريخهم على وفاة ذي القرنين، وكانت الفرس تؤرخ بأعدل ملك لها إلى أن استقر تأريخها على هلاك يزدجرد الذي كان آخر ملوكهم، وكانت العرب تؤرخ بتفرق ولد إسماعيل وخروجهم عن مكة، ثم أرخوا بعام العذرة، وقال: إن ملكاً من ملوك حمير وجه إلى الكعبة بكسوة وطيب، فاعترض قوم من بني يربوع بن حنظلة الرسل فقتلوهم، فانتهبوا ذلك، وكانوا لا يفعلون ذلك في الأشهر الحرم، فسمي عام العذرة. ثم أرخوا بعام الفيل، وكان في اليوم الثاني عشر من شباط سنة ثمانمائة واثنين وثمانين لذي القرنين، ثم أرخ بسني الهجرة، ابتدأ بذلك عمر بن الخطاب.

والتواريخ العربية إنما هي على الليالي، وسائر تواريخ الأمم على الأيام لأن سنيهم تجري على أمر الشمس، وهي نهارية، وسنو العرب يعمل فيها على القمر، وابتداء رؤيتنا له الليل، فيقال في أول ليلة مستهل، ولا يقال ذلك في النهار، ويقال في آخر الشهر يوم كذا: انسلاخ شهر كذا، لأن الشهر يبتدىء بابتداء الليل وينقضي بانقضاء النهار، وما قبل الخامس عشر يعرف بالليالي المواضي، وإذا كان بعده عرف بالليالي البواقي.

ومن الحوادث في هذه السنة: أن عمر عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة لأن قوماً من بني أسد من أهل الكوفة تكلموا على سعد وقالوا: اعفنا منه، فبعث عمر من يسأل أهل الكوفة عنه، فقالوا: لا نعلم عنه إلا خيراً، وسكت قوم فلم ينطقوا بشيء. وقال رجل يقال له أسامة: انه لا يقسم بالسوية. وقيل: إنما عزله في سنة عشرين، وقيل: بل في سنة اثنتين وعشرين، فعزله وأمّر أبا موسى الأشعري، فشكوا منه، فصرفه إلى البصرة، وأمّر عليهم المغيرة. أخبرنا عبد الأول، أخبرنا الداودي، أخبرنا ابن أعين

حدَّثنا الفربري، حدَثنا البخاري، حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدَّثنا أبو عوانة، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، قال: شكى أهل الكوفة سعداً إلى عمر فقالوا: لا يحسن أن يصلي، فذكر عمر له ذلك، فقال: أما صلاة رسول الله فقد كنت أصلي بهم أركد في الأولتين وأحذف في الآخرين، فقال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً أو رجالاً يسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجد إلا سأل عنه ويقنون عنه معروفاً حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسوية، ولا يعدل في القضية، فقال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسمعة فأطل عمره وأطل فقره، وعرضه للفتن، فكان بعد ذلك أسامة إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن.

وفي هذه السنة حج بالناس عمر، واستخلف على المدينة زيد بن ثابت، وكان عامله في هذه السنة على مكة عتاب بن السائب، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن يعلى بن منبه، وعلى اليمامة والبحرين العلاء بن الحضرمي، وعلى عُمان حذيفة بن محصن، وعلى الشام كلها أبو عبيدة بن الجراح، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص فلما عزله عمر قيل له: من خليفتك يا سعد على الكوفة؟ فقال: عبد الله بن عبد الله بن عتبان.

وفي هذه السنة أعزل خالد بن الوليد، خرج خالد بن الوليد وعياض بن غنم فسارا في دروب المشركين فأصابا أموالاً عظيمة، فلما قفل خالد انتجعه الأشعث ابن قيس فأجازه بعشرة آلاف، وكان عمر لا يخفى عليه من عماله شيء، فكتب إليه بما يجري، فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمكم من أين إجازة الأشعث، أمن ماله، أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد باء بجناية، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، فاعزله على كل حال. فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه، فجمع له أناس وجلس لهم على المنبر، وتكلم البريد فقال: يا خالد، أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه، فقام بلال فقال: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا، وتناول عمامته فنفضها، ووضع قلنسوته ثم عقله بعمامته، وقال: ما تقول، أمن مالك أم من إصابة، قال: لا بل من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته فقال عمر: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسُّهمان، فقال عمر: لا تغلبني بعد اليوم، وكتب عمر إلى الأمصار: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس قد فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أن الله عز وجل هو الصانع.

سنة ثمان عشرة

تفانى فيه الناس، ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً.

قال سيف: إنما كان في سنة سبع عشرة. أخبرنا ابن الحصين، قال: أخبرنا ابن المذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن شهر بن حوشب الأشعري، عن رابة رجل من قومه، وكان قد خلف على أمه بعد أبيه، كان شهد طاعون عمواس - قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه، قال: فطعن فمات، واستخلف على الناس معاذ بن جبل، فقام خطيباً بعده، فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظه، قال: فطعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثم قام فدعا ربه لنفسه فطعن في راحته، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبل ظهر كفه، ثم يقول: ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا. فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص، فقام فينا خطيباً، فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبلوا منه في الجبال، فقال له وائلة الهذلي: كذبت، والله لقد صحبت رسول الله وأنت شر من حماري هذا، قال: والله ما أرد عليك ما تقول، وايم الله لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا، ورفعه الله عنهم، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو، فوالله ما كرهه.

عن يزيد بن عبد الله، قال: علق عمرو بن العاص بعمود خبائه سبعين سيفاً كلها ورثه عن كلالة عام طاعون عمواس، ولم يكن أحد يقول لأحد: كيف أصبحت ولا كيف أمسيت حين كثر فيهم الموت.

عن الهيثم بن عدي، قال: افتتح غار بجبل لبنان فإذا فيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وإلى جانبه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية: أنا سابا بن بوناس بن سابا، خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهراً طويلاً، ورأيت عجباً كثيراً، فلم أر أعجب من غافل عن الموت وقد عاين مصارع آبائه، ووقف على قبور أحبائه، وعلم أنه صائر إلى الموت لا محالة، والذي بعد الموت من حساب الديان أعظم، ورد حق المظلومين أعظم من الموت حقَاَ، حفرت قبري هذا قبل أن أصل إليه بمائة وخمسين عاماً

ووضعت سريري هذا فيه أغدو وأروح، وقد علمت أن الحفاة الأجلاف الجاهلية يخرجوني من غاري هذا وينزلوني عن سريري وهم يومئذ مقرون بربوبية الديان الأعظم، وعند ذلك يتغير الزمان، ويتأمر الصبيان، ويكثر الحدثان، ويظهر البهتان، فمن أثرك ذلك الزمان عاش قليلاً، ومات ذليلاً، وبكى كثيراً، ولا بد مما هو كائن أن يكون، والعاقبة للمتقين، وقد رأيت الثلج والبرد في تموز مراراً، فإن رأيتم ذلك فلا تعجبوا.

ومن الحوادث في هذه السنة ذكر الرمادة.

أن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب، فكتب أبو عبيدة إلى عمر، كتاباً وذكر فيه: إنا سألناهم فتأولوا، وقالوا: خيرنا فاخترنا، قال:{فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة: ٩١]. فكتب إليه عمر ☺ إن المراد فانتهوا. فادعهم، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين جلدة، فسألهم فقالوا: حرام، فجلدهم ثمانين ثمانين، فندموا على لجاجتهم، وقال: ليحدثن فيكم يا أهل الشام حادث، فحدثت الرمادة في هذه السنة. وذلك أن الناس أصابهم جدب وقحط وجوع شديد حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس، وكانت الريح تسفي تراباً كالرماد، فسمي ذلك العام عام الرمادة، وكان الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمعسر. فآلى عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيى الناس، وإن غلاماً لعمر اشترى عكة من سمن ورطباً من لبن بأربعين، ثم أتى بهما عمر، فقال عمر ☺: تصدق بهما فإني أكره أن آكل إسرافاً، كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم.

ومن الحوادث: أن عمر ☺ استسقى للناس عن عبد الرحمن بن كعب، قال: أقبل بلال بن الحارث المزني فاستأذن على عمر ☺، فقال: أنا رسول رسول الله إليك، يقول لك رسول الله : **لقد عهدتك كيساً**، وما زلت على رِجْل فما شأنك؟ فقال: متى رأيت هذا؟ فقال: البارحة، فخرج فنادى في الناس: الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين، ثم قام، فقال: أيها الناس، أنشدكم بالله هل تعلمون مني أمراً غيره خيرٌ منه؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإن بلال بن الحارث يزعم ذَيّة وذَيّة، فقالوا: صدق بلال، فاستغثت الله تعالى والمسلمون، فقال عمر: الله أكبر، بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن الله لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء، فكتب إلى أمراء الأمصار: أن أغيثوا أهل المدينة ومن حولها، وأخرج الناس إلى الاستسقاء، خرج وخرج معه بالعباس ماشياً، فخطب فأوجز، ثم صلى، ثم جثا لركبتيه، وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنّا. ثم انصرف، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا الغدران.

وحدَّثنا سيف، عن محمد بن عبيد الله، قال: خرج عمر ☺ بالناس إلى الاستسقاء، وخرج بالعباس وبعبد الله، فخطب، وصلى بالناس ركعتين، فلما قضى صلاته تأخر حتى كان بين العباس وعبد الله، ثم أخذ بعضديهما، وقال: اللهم هذا عم نبيك نتقرب إليك به، فما بلغوا بيوتهم حتى خاضوا الماء، وإنه لبين العباس وعبد الله. وحدَّثنا سيف، عن ابن شبرمة، ومجالد، عن الشعبي، قال: صعد عمر ☺ المنبر سنة الاستسقاء بعدما صلى ركعتين تطوعاً بالناس، وقال: استغفروا ربكم، إنه كان غفاراً، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، ثم نزل ولم يذكر: اسقنا، فقالوا: لم لم تستسق يا أمير المؤمنين، فقال: لقد دعوت بمخارج السماء التي نسقى بها المطر الاستغفار.

ومن الحوادث: أن عمر كتب في عام الرمادة إلى أمراء الأمصار يستمدهم حدَث، سيف، عن أشياخه، قالوا: كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ ورجع إلى المدينة أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين؟ إنما أردت الله وما قبله، فلا تدخل عليَ الدنيا، فقال: خذها فلا بأس بذلك إذا لم تطلبه، فأبى، فقال: خذها فإني وقد وليت لرسول الله مثل هذا فقال لي مثل ما قلت لك، فقلت له كما قلت لي فأعطاني. فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله، وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز، وأحيوا مع أول الحيا. وجاء كتاب عمرو بن العاص إلى عمر: إن البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله ، حفيراً، فصب في بحر العرب، فسده الروم والقبط، فإن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعر مصر، حفرت لهم نهراً وبنيت لهم قناطر، فكتب له عمر: أن افعل، وعجل ذلك، فقال له أهل مصر: خراجك زاج، وأمرك راض، وإن تم هذا انكسر الخراج، فكتب إلى عمر بذلك، فذكر أن فيه انكسار خراج مصر وخرابها. فكتب إليه عمر: اعمل فيه وعجل، أخرب الله خراج مصر في عمران المدينة وصلاحها، فعالجه عمرو وهو القلزم، وكان سعر المدينة كسعر مصر، ولم يزد مصر ذلك إلا رخاء. وكان عمر إذا بلغه عن ناحية من نواحي المسلمين غلاء حط نفسه على قدر ما يبلغه، ويقول: كيف يكونون مني على بال إذا لمِ يمسسني ما مسهم، وإنه غلظ على نفسه وأقبل على خبز الشعير فقرقر في بطنه يوماَ، فقال: هو ما ترى حتى يحيى أهل مدينة كذا.

ومن الحوادث في هذه السنة: فتح جرجان وقد قيل: إنما سميت جرجان لأنه بناها جرجان بن لاوذ بن سام بن نوح. ولما قتل النعمان بن مقرن، ولى أخاه سويد بن مقرن، وكاتب ملك جرجان، ثم سار إليها ففتحها وصالحوه على أخذ الجزية منهم. ومن الناس من يقول: كان فتحها في سنة اثنتين وعشرين. وقال المدائني: إنما فتحت في زمان عثمان سنة ثلاثين.

وفيها فتح أذربيجان على يدي عتبة وكتب لهم كتاب أمان، وهذا في رواية سيف. وقال أبو معشر: كانت أذربيجان في سنة اثنتين وعشرين. وفي هذه الغزاة: بعث عتبة إلى عمر بخبيص أهداه إليه. ن عتبة بن فرقد، قال: قدمت على عمر ☺ بسلال من خبيص، فشهدت غداه، فأتى بجفنة من ثريد، فأخذ وأخذنا، فجعلت أرى عليه الشيء أحسبه سناماً، فإذا لكته وجدته علياً، فأتطلب غفلته حتى أجعله بين الخوان والقصعة ففعلت ذلك مراراً، وكففت. ثم دعى بعس من عساس العرب فيه نبيذ شديد، فشرب ثم ناولني فلم أطقه، ثم قال: نأكل من هذا اللحم، ونشرب عليه من هذا النبيذ الشديد فيقطعه في بطوننا، إنا لننحر للمسلمين الجزور فنطعم المسلمين أطايبها، ويأكل عمر وآل عمر عنقها، فقلت له: إنك مشغول بحوائج المسلمين وقد أهديت لك طعاماً يعصمك ويقويك، قال: فاعرضه علي، قال: فأديت له تلك السلال وكشفت له عنها، فقال: أقسمت عليك، لما لم تدع أحداً من المسلمين إلا أهديت له مثل هذا، فقلت: يا أمير المؤمنين، والله لو جمع مال قيس بن عيلان ما وسع لذاك، فقال: ضم هديتك إليك، فإنه لا حاجة لي في شيء لا يشبع المسلمين.

وفي هذه السنة فتح طبرستان وقيل: إنه كان في سنة اثنتين وعشرين.

وفيها: استقضى عمر شريح بن الحارث الكندي على الكوفة. وعلى البصرة كعب بن سور الأزدي.

وفي هذه السنة حج عمر بالناس وكانت ولاته على الأمصار الولاة الذين كانوا في سبع عشرة. وفيها: حول عمر المقام في ذي الحجة إلى موضعه اليوم، وكان ملصقاً بالبيت قبل ذلك.

* * *

سنة تسع عشرة

قال ابن إسحاق: كانت في سنة إحدى وعشرين، وقال غيره: في سنة ثماني وكان من حديث نهاوند أن النعمان بن مقرن كتب إلى عمر يخبره أن سعد بن أبي وقاص استعمله على جباية الخراج وأنه قد أحب الجهاد، فكتب عمر إلى سعد. ابعث به إلى نهاوند، ثم كتب عمر إلى النعمان: أما بعد، فقد بلغني أن جموعاً كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله، وبعون الله وبنصر الله، بمن معك من المسلمين. عن معقل بن يسار: أن عمر بن الخطاب ☺ شاور الهرمزان، فقال: ما ترى؟ أن أبدأ بفارس أو بأذربيجان أو بأصبهان. قال: إن فارس وأذربيجان الجناحان، والرأس أصبهان، فإن قطعت أحد الجناحين يأتي الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان، فابدأ بالرأس أصبهان. فدخل عمر المسجد والنعمان بن مقرن يصلي، فقعد إلى جنبه، فلما قضى صلاته قال: إني أريد أن أستعملك، قال: أما جابياً فلا، ولكن غازياً، قال: وأنت غازٍ. فوجهه إلى أصبهان، وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدوه. فأتاهم العدو وبينه وبينهم النهر، فأرسل إليهم المغيرة بن شعبة فأتاهم، فقيل لملكهم وكان يقال له ذو الجناحين: إن رسول العرب على الباب، فشاور أصحابه، فقال: ما ترون؟ أقعد له في بهجة الملك، وهيئة الملك أو أقعد له في، هيئة الحرب؟ فقالوا أقعد له في هيئة الملك، فقعد على سريره ووضع التاج على رأسه، وقعد أبناء الملوك نحو السماطين، عليهم القرط وأسورة الذهب وثياب الديباج، ثم أذن له، فدخل ومعه رمحه وفرسه، فجعل يطعن برمحه في بسطهم ليتطيروا، وقد أخذ بضبعيه رجلان، فقام بين يديه، فتكلم ملكهم فقال: إنكم معشر العرب أصابتكم مجاعة وجهد فإن شئتم أمرناكم ورجعتم، فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنا معشر العرب كنا نأكل الجيف والميتة، ويطأونا الناس ولا نطأوهم، وأن الله ابتعث منا نبياً كان أوسطنا نسباً، وأصدقنا حديثاً فذكر النبي بما هو أهله وأنه وعدنا أشياء وجدناها كما قال، وإنا وعدنا فيما وعدنا أنَّا سنظهر عليكم ونغلب على ما ها هنا، وأني أرى عليكم بزة وهيئة، وما أرى من خلفي يذهبون حتى يصيبوها، قال: ثم قالت لي نفسي: لو جمعت جراميزك فوثبت وثبة فقعدت جمع العلج على سريره حتى يتطير. قال: فوجدت غفلة، فوثبت، فإذا أنا معه على سريره. قال: فأخذوه فجعلوا يتوجؤونه ويطؤونه بأرجلهم، قال: قلت: هكذا تفعلون بالرسل، إنا لا نفعل هذا برسلكم، إن كنت أسأت أو أخطأت فإن الرسل لا يفعل بهم هذا، قال الملك: إن شئتم قطعتم إلينا، وإن شئتم قطعنا إليكم.

قال: قلت: بل نقطع إليكم، فقطعنا إليهم، فتسلسلوا كل عشرة في سلسلة، وكل خمسة، وكل ثلاثة، قال: فصاففناهم، فرشقونا حتى أسرعوا فينا فقال يعني النعمان: إني هازٌ لوائي ثلاث هزات، فأما الهزة الأولى فقضى رجل حاجته وتوضأ، وأما الثانية فنظر رجل في سلاحه وفي شِسعه فأصلحه، وأما الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد، فإن قتل النعمان فلا يلوين عليه أحد، وإني داع الله بدعوة، فعزمت على كل امرئ منكم لما أمَّنَ عليها، اللهم اعط النعمان اليوم الشهادة في نصر المسلمين، وفتح عليهم، فهز لواؤه أول مرة، ثم هزه الثانية، ثم هزه الثالثة، ثم تمثل درعه، ثم حمل فكان أول صريع رحمه الله.

قال معقل: فأتيت عليه فذكرت عزيمته، فجعلته علماً، ثم ذهبت، فكنا إذا قتلنا رجلاً شغل عنا أصحابه، ووقع ذو الجناحين عن بغلته فانشق بطنه. قال: فهزمهم الله. ثم جئت إلى النعمان ومعي إداوة فيها ماء، فغسلت عن وجهه، فقال: من أنت؟ قال: قلت: معقل بن يسار، فقال: ما فعل الناس؟ قلت: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضتَ نفسه رحمه الله.

قال: واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وفيهم ابن عمر وابن الزبير أو الزبير وعمرو بن معدي كرب وحذيفة، فبعثوا إلى أم ولده، فقالوا: ما عهد إليك عهداً؟ فقالت: ها هنا سفط فيه كتاب، فأخذوه، وكان فيه: فإن قتل النعمان ففلان فإن قتل فلان ففلان. عن محمد، وطلحة، وعمرو، وسعيد، قالوا: كان سبب نهاوند في زمان سعد بن أبي وقاص، واجتماع الأعاجم إليها خروج، بعوث المسلمين نحوهم، وكانت الوقعة مع عزله، وقد أقر عمر ☺ على الكوفة خليفته عبد الله بن عتبان، وكانت الوقعة والفتح في إمارة عبد الله، وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يزدجرد الملك، فتوافوا إلى نهاوند، فتوافى إليها من بين خراسان إلى حلوان ومن بين الباب إلى حلوان، ومن بين سجستان إلى حلوان، فاجتمعت حَلْبة فارس والفَهْلوج أهل الجبال من، بين الباب إلى حلوان ثلاثون ألف مقاتل؟ ومن بين خراسان إلى حلوان ستون ألف مقاتل، ومن بين سجستان إلى فارس وحلوان ستون ألف مقاتل واجتمعوا على الفيرزان. قالوا: إن عمر قد تناولكم وأتى أهل فارس في عقر دارهم، وهو آتيكم إن لم تأتوه، وقد أخرب بيت مملكتكم، وليس بمنتبه إلا أن تخرجوا من في بلادكم من جنوده، وتقلعوا هذين المِصْرين، ثم تشغلوه في بلاده وقراره، فتعاهدوا على ذلك وكتبوا بينهم كتاباً. فكتب عبد الله إلى عمر أنه قد اجتمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل، فإن جاءونا قبل أن نبدأهم ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان ذلك لنا. وقدم بالكتاب قريب بن ظفر العبدي

فقال له عمر: ما اسمك؟ قال: قريب، قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر، فتفاءل بذلك وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله، ونودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ووافاه سعد فتفاءل بمجيء سعد، ثم قام عمر خطيباً، وأخبر الناس الخبر واستشارهم، وآل الأمر إلى أن ولى النعمان بن مقرن. فلما التقوا سار في الناس، فجعل يقف على كل راية، فيحمد الله ويثني عليه ويقول: قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الذين، وما وعدكم من الظهور، وقد أنجز لكم هَوادِيَ ما وعدكم وإنما بقيت أعجازه وأكارعه، والله منجز وعده، ولا يكونن على دنياهم أحنى منكم على دينكم، وإنكم تنتظرون إحدى الحسنيين: من بين شهيد حيّ مرزوقَ، أو فتح قريب، فاستعدوا، فإني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ، فإذا كبرت الثانية فليشد سلاحه وليتأهب للنهوض فإذا كبرت الثالثة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معاً، اللهم أعز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد. فلما كبر وحمل حمل الناس، فاقتتلوا قتالاً لم يسمع السامعون بمثله، فزلق فرس النعمان به في الدماء فصرعه، وأصيب النعمان حينئذ، فتناول الراية منه نعيم ابن مقرن، وسجى النعمان بثوب، وأتى حذيفة فأقام اللواء، وقال المغيرة: اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكيلا يَهِنَ الناس، فاقتتلوا حتى إذا أظلم الليل، انكشف المشركون، والمسلمون ملظُّون بهم، فتهافتوا في الحفر الذي نزلوا دونه، فمات منهم مائة ألف أو يزيدون، سوى من قتل في المعركة، ولم يفلت إلا الشَريد، ونجا الفيرزان، فهرب نحو همذان، فأتبعه نعيم بن مقرن، وقدم القعقاع قدامه، فأدركه حتى انتهى إلى ثنية همذان، والثنية مشحونة بين بغال وحمير موقرة عسلاً، فحبسته الدواب على أجَلِه، فقتله على الثنية. وقال المسلمون: إن لله جنوداً من عسل، واستاقوا العسل، ومضى الفُلال حتى انتهوا إلى همذان والخيل في آثارهم، فدخلوها، فنزل المسلمون عليهم، وحووا ما حولها، فلما رأى ذلك خُسْرَوْشُنُوم استأمنهم. على أن يضمن لهم همذان ودَسْتَبي. ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يوم نهاوند مدينة نهاوند واحتووا ما فيها وما حولها. فبينما هم يتوقعون ما يأتيهم من إخوانهم بهمذان، أقبل الهربذ على أمان، فقال لحذيفة: أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟ قال: نعم، قال: إن النَخَيْرَجان وضع عندي ذخيرة لكسرى، فأنا مخرجها لك على أماني وأمان من شئت، فأعطاه ذلك، فأخرج له جوهر كسرى كان، أعده لنوائب الزمان، فنظروا في ذلك فأجمع رأي المسلمين على رفعه إلى عمر وجعله له، فبعثوا به.

وقسم حذيفة بين المسلمين غنائمهم، فكان سهم الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين. وكان عمر يتململ في الليالي التي قدر أنهم يلتقون فيها، فبينا رجل من المسلمين قد دخل المدينة ليلاً لحق به راكب، فقال: يا عبد الله، من أين أقبلت؟ قال: من نهاوند، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير، فتح الله على النعمان، واستشهد، وقسم المسلمون الفيء فأصاب الفارس ستة آلاف، فدخل الرجل، فأصبح يتحدث، فبلغ عمر الخبر، فأرسل إليه يسأله، فأخبره، فقال: صدقت هذا بريد الجن ثم جاء الخبر والأخماس والذخيرة فرد الذخيرة إلى حذيفة، وقال: أقسمها على ما أفاءها الله عليه. قال المصنف: وقد روي لنا فتح نهاوند من طريق آخر: أنبأنا محمد بن ناصر، قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، قال: ما يأتيهم من إخوانهم بهمذان، أقبل الهربذ على أمان، فقال لحذيفة: أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟ قال: نعم، قال: إن النَخَيْرَجان وضع عندي ذخيرة لكسرى، فأنا مخرجها لك على أماني وأمان من شئت، فأعطاه ذلك، فأخرج له جوهر كسرى كان، أعده لنوائب الزمان، فنظروا في ذلك فأجمع رأي المسلمين على رفعه إلى عمر وجعله له، فبعثوا به. وقسم حذيفة بين المسلمين غنائمهم، فكان سهم الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين. وكان عمر يتململ في الليالي التي قدر أنهم يلتقون فيها، فبينا رجل من المسلمين قد دخل المدينة ليلاً لحق به راكب، فقال: يا عبد الله، من أين أقبلت؟ قال: من نهاوند، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر خير، فتح الله على النعمان، واستشهد، وقسم المسلمون الفيء فأصاب الفارس ستة آلاف، فدخل الرجل، فأصبح يتحدث، فبلغ عمر الخبر، فأرسل إليه يسأله، فأخبره، فقال: صدقت هذا بريد الجن ثم جاء الخبر والأخماس والذخيرة فرد الذخيرة إلى حذيفة، وقال: أقسمها على ما أفاءها الله عليه. عن الحسن، قال: كانت عظماء الأعاجم من أهل قومس وأهل الري وأهل همذان وأهل نهاوند قد تكاتبوا وتعاهدوا على أن يخرجوا العرب من بلادهم ويغزوهم، فبلغ ذلك أهل الكوفة ففزعوا فيه إلى عمر بن الخطاب ☺، فلما قدموا عليه نادى في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم صعد المنبر، فقال: أيها الناس، إن الشيطان قد جمع جموعاً، فأقبل بها ليطفؤوا نور الله، ألا إن أهل قومس وأهل الري وأهل همذان وأهل نهاوند قد تعاهدوا على أن يخرجوا العرب من بلادهم، ويغزوكم في بلادكم فأشيروا عليّ. فقام طلحة فقال: أنت ولي هذا الأمر، وقد أحكمت التجارب، فادعنا نجب ومرنا نطع، فأنت مبارك الأمر ميمون النقيبة

ثم جلس. فقال عمر: تكلموا، فقام عثمان فقال: أرى أن تكتب إلى أهل الشام فيسيرون من شأمهم، ولَكتب إلى أهل اليمن فيسيرون من يمنهم، وتسير أنت بنفسك من هذين الحرمين إلى هذين المصرين، من أهل الكوفة والبصرة، فتلقى جموع المشركين في جموع المسلمين. ثم قام علي بن أبي طالب ☺ فقال: إنك إن أشخصت أهل الشام سارت الروم إلى ذراريهم، وإنك إن أشخصت أهل اليمن سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك متى شخصت من هذين الحرمين انتقضت عليك الأرض من أقطارها حتى تكون ما تخلف خلفك من العورات أهم إليك مما بين يديك، ولكن أرى أن تكتب إلى أهل البصرة فيفترقون ففرقة تقيم في أهاليها، وفرقة يسيرون إلى إخوانهم بالكوفة، واما ما ذكرت من كثرة القوم فإنا لم نكن نقاتلهم فيما خلا بالكثرة ولكنا نقاتلهم بالنصر. فقال عمر ☺: صدقت يا أبا الحسن، هذا رأي ولئن شخصت من البلدة، لتنتقضن عليّ الأرض من أقطارها، وليمدنهم من لم يكن يمدهم، فأشيروا عليّ برجل أوليه ذلك الثغر، قالوا: أنت أفضلنا رأيا، قال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقياً، قالوا: أنت أعلم بأهل العراق، قال: لأولّينّ ذلك الثغر رجلاً يكون قتيلاً في أول سنة، قالوا: ومن هو؟ قال: النعمان بن مقرن ثم كتب إلى أهل البصرة بما أشار به علي ☺، ثم كتب إلى أهل الكوفة إني استعملت عليكم النعمان بن مقرن المزني، فإن قتل فعليكم حذيفة بن اليمان، فإن قتل عليكم جرير بن عبد الله البجلي، فإن قتل فعليكم المغيرة بن شعبة، فإن قتل فعليكم الأشعث بن قيس. وكتب إلى النعمان: أما بعد، فإن معك في جندك عمرو ابن معدي كرب المذحجي، وطليحة بن خويلد الأسدي، فاحضرهما الناس، وشاورهما في الحرب، ولا تولهما عملاً، ثم دعا السائب بن الأقرع، فدفع إليه الكتاب وقال: انطلق فاقرأ كتابي على الناس، وانظر ذلك الجيش، فإن الله أعزهم ونصرهم كنت أنت الذي تلي مغانمهم ومقاسمهم، ولا ترفعن إليّ باطلاً، ولا تنقص أحداً شيئاً هو له، وإن ذلك الجيش ذهب فاذهب في الأرض، ولا أراك بواحدة من عيني ما بقيت أبداً، فسار السائب حتى قدم الكوفة، وبعث إلى أهل البصرة بكتابهم، ففعلوا ما أراد، وسار الناس وأقبلت الأعاجم بمجموعها حتى نزلوا نهاوند، وسار النعمان بن مقرن بالناس حتى إذا كان ببعض الطريق بعث بكير بن شداخ الليثي وطليحة بن خويلد الأسدي، فأما بكير فرجع، فقيل له: ما وراءك؟ قال: أرض الأعاجم وأنا بها جاهل، فخشيت أن يؤخذ عليّ بمضايق الجبال، ونفذ طليحة حتى علم الخبر، وسار الناس حتى نزلوا نهاوند، فأقاموا ثلاثة أيام ولياليهن، فاجمعوا أنفسهم ودوابهم، ثم غدوا يوم الأربعاء في الحديد فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتلى في الفريقين والجراحات حتى حجز بينهم الليل

فرجع الفريقان إلى معسكرهم، فبات المسلمون يعصبون بالخرق، وتوقد لهم النيران، وبات المشركون في المعازف والخمور حتى أصبحوا، ثم غدوا يوم الخميس على البراذين وأقبية الديباج والسيوف المحلاة، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتلى في الفريقين والجراحات، وحجز بينهم الليل فرجع الفريقان إلى معسكرهم، فبات المسلمون يعصبون وتوقد لهم النيران، وبات المشركون في المعازف والخمور. ثم غدوا يوم الجمعة فركب النعمان بن مقرن وكان رجلاً قصيراً آدم فرساً أبيض، وعليه قباء أبيض وعمامة بيضاء، ورفعت الرايات، ثم قال: أيها الناس، إنكم باب بين العرب والعجم، فإن كسر ذلك الباب دخل على المسلمين من ذلك أمر عظيم، فليشغل كل رجل منكم قرينه، ألا إني أهز الراية هزة فليتعاهد الرجل حزامه وسلاحه، ثم إني هاز الثانية فلينظر الرجل إلى مصوب رمحه وموضع سلاحه ووجه مقاتله، ثم إني هاز الثالثة فكبر فكبروا، وحامل فاحملوا، ومستنصر الله برحمته فاستنصروا الله، فقال رجل: قد فهمنا ما أمرت أيها الأمير، ونحن واقفون عند رأيك، ومنتهون إلى أمرك، وأي النهار تريد، أوله أم آخره؟ فقال: لا أريد أوله ولكن أريد آخره، فإن فيه تهب الرياح وينزل النصر من السماء لمواقيت الصلاة، فلما زالت الشمس هز الراية فتعاهد الناس حزم ثوابهم وخيولهم، ثم مكث حتى مالت الشمس عن كبد السماء هزها الثانية وصلى بالناس ركعتين خفيفتين، ثم وثب الرجال على متون الخيل، فوضع كل رجل رمحه بين أذني فرسه، وشدت الرجال مناطقها وأقبيتها على ظهورها وحسروا عن شمائلهم وأخذوا السيوف بأيمانهم، ثم كبر الثالثة وهز الراية ثم صوبها كأنها جناح طائر، ثم حمل وحمل المسلمون، فكان النعمان أول قتيل، وأتى عليه أخوه وهو قتيل، فطرح عليه ثوبه لئلا يعرف، ورفع الراية فإذا هي تنضح بالدماء، وهزم الله العدو، واتبعهم المسلمون، فأتى السائب بن الأقرع بالغنائم مثل الأكام، ثمعمامة بيضاء، ورفعت الرايات، ثم قال: أيهما الناس، إنكم باب بين العرب والعجم، فإن كسر ذلك الباب دخل على المسلمين من ذلك أمر عظيم، فليشغل كل رجل منكم قرينه، ألا إني أهز الراية هزة فليتعاهد الرجل حزامه وسلاحه، ثم إني هاز الثانية فلينظر الرجل إلى مصوب رمحه وموضع سلاحه ووجه مقاتله، ثم إني هاز الثالثة فمكبر فكبروا، وحامل فاحملوا، ومستنصر الله برحمته فاستنصروا الله، فقال رجل: قد فهمنا ما أمرت أيها الأمير، ونحن واقفون عند رأيك، ومنتهون إلى أمرك، وأي النهار تريد، أوله أم آخره. فقال: لا أريد أوله ولكن أريد آخره، فإن فيه تهب الرياح وينزل النصر من السماء لمواقيت الصلاة

فلما زالت الشمس هز الراية فتعاهد الناس حزم ثوابهم وخيولهم، ثم مكث حتى مالت الشمس عن كبد السماء هزها الثانية وصلى بالناس ركعتين خفيفتين، ثم وثب الرجال على متون الخيل، فوضع كل رجل رمحه بين أذني فرسه، وشدت الرجال مناطقها وأقبيتها على ظهورها وحسروا عن شمائلهم وأخذوا السيوف بأيمانهم، ثم كبر الثالثة وهز الراية ثم صوبها كأنها جناح طائر، ثم حمل وحمل المسلمون، فكان النعمان أول قتيل، وأتى عليه أخوه وهو قتيل، فطرح عليه ثوبه لئلا يعرف، ورفع الراية فإذا هي تنضح بالدماء، وهزم الله العدو، واتبعهم المسلمون، فأتى السائب بن الأقرع بالغنائم مثل الأكام، ثم أتاه دهقان، فقال له: أنت السائب بن الأقرع؟ قال: نعم، قال: أنت صاحب غنائم العرب؟ قال: نعم، قال: فهل لك أن تؤمنني على دمي وعلى دم ذوي قرابتي وأدلك على كنز النخَيْرَجان؟ قال: ويحك إنك تسألني الأمان على دماء قوم لا أدري لعلهم يكونون أمة كثيرة ولا أدري ما كنزك؟ قال: هو كنز النخيرجان، أنه كان له امرأة ينتابها العالم، وأن كسرى كان يختلف إليها يزورها ومعه وصائف عليهن المناطق المفضضة وأقبية الديباج، وكان لكسرى تاج ياقوت، وذلك التاج والحليّ مدفون لم يطلع عليه غيري، فانطلق حتى أدلك عليه ليكون لعمر لا حق فيه لأحد لأنه دفن دفنوه ولم يجلبوا عليه في الحرب، فأخذ السائب المعول ثم خرج، فانطلق بهم حتى أدخلهم قلعة، فإذا هم بصخرة، فقال: اقلعوها فقلعوها فإذا تحتها سفطان ففتحهما، فرأى فيهما السائب شيئاً لم ير مثله، وخواتيم من ذهب. قال السائب: فكتمته الناس، وأسرعت به السير إلى عمر حتى قدمت به عليه، فلما رآني ناداني من بعيد: ويحك ما وراءك، فوالله ما بت هذه الليلة، وما أتت ليلة بعد وفاة رسول الله كانت أعظم عليَّ منها. قال السائب: فقلت: أبشر بفتح الله ونصره، التقينا بنهاوند وقص عليه القصة إلى قتل النعمان. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، يرحم الله النعمان، يرحم الله النعمان، يرحم الله النعمان، قلت: يا أمير المؤمنين: ما قتل بعده رجل فعرف وجهه، فقال: هؤلاء الضعفاء الذين لا يعرفهم عمر، وما معرفة عمر لكن الله يعرفهم، الذي رزقهم الشهادة، وساقهم إليها فهو خير لهم من معرفة عمر، ثم وضع يده على صدره، فبكى طويلاً ثم أقبل إليّ، فقال: أعطيت أبشارهم أم دفنتموهم؟ فقلت: لا بل دفناهم، تم قام عمر فأخذت بثوبه فقلت. إن لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ فجلس فأريته ذلك، وأخبرته خبر الدهقان فدعا علياً، وابن مسعود، وعبد الله بن أرقم صاحب الخزانة، فقال: ضعوا على هذه خواتيمكم، ووضع خاتمه ثم قال لعبد الله بن أرقم: ارفع هذا عندك، ثم انصرف السائب حتى قدم الكوفة، فأتاه بريد عمر يدعوه، مستعجلاً، فأتاه

فلما رآه ناداه قبل أن يصل إليه: أخبرني خبر السفطين، فقال: واللهِ لئن رددت عليك حديثهما فزدت حرفَاَ أو نقصت حرفاً لأكذبتك، قال: ويحك، إنه لما فارقتني وأخذت مضجعي من الليل لمنامي أتاني ملائكة فأوقدوا سفطيك على جمرة، ثم جعلوا يدفعونها في نحري، وأنا أنكب وأعاهد الله لأردنهما على ما أفاء الله عليه، وكاد ابن الخطاب يحترق بالنار، فانطلق بهذين السفطين فضعهما في مسجد الكوفة، فإن وجدت بهما عطاء المقاتلة والذرية فبعهما واقسمهما على ما أفاء الله عليه، فإن لم تجد بهما إلا نصف عطاء المقاتلة والذرية فبعهما. فوضعتهما في مسجد الكوفة، فمر بنا عمرو بن حريث فاشتراهما بعطاء المقاتلة والذرية، فباع أحد السفطين من أهل الحيرة، ثم اشتراهما به، وبقي الآخر ربحاً، وكان أول قريش عقد بالكوفة مالاً. عن منصور بن المعتمر، قال: عن الرسول الذي جرى بين عمر وسلمة بن قيس الأشجعي، قال: ندب عمر بن الخطاب ☺ الناس مع سلمة بن قيس الأشجعي بالحرة إلى بعض أهل فارس، فقال: انطلقوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا شيخاً هرماً، وإذا انتهيت إلى القوم فادعهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاقبل منهم وأعلمهم أنه لا نصيب لهم في الفيء، فإن أبوا فادعهم إلى الجزية، فإن قبلوا فضع عليهم بقدر طاقتهم، وضع فيهم جيشاً يقاتل من وراءهم، وخلهم وما وضعته عليهم، فإن أبوا فقاتلهم، وإن دعوكم إلى أن تعطوهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله فلا تعطوهم ذمة الله ولا ذمة محمد، ولكن اعطوهم ذمة أنفسكم ثم وفوا لهم فإن أبوا عليكم فقاتلوهم، فإن الله ناصركم عليهم. فلما قدمنا البلاد دعوناهم إلى كل ما أمرنا به، فأبوا، فلما مسهم الحصر نادوا: أعطونا ذمة الله وذمة محمد، فقلنا: لا، ولكن نعطيكم ذمة أنفسنا ثم نفي لكم، فأبوا فقاتلناهم فأصيب رجل من المسلمين، ثم إن الله فتح علينا فملأ المسلمون أيديهم من متاع ورقيق ورقة ما شاءوا، ثم إن سلمة بن قيس أمير القوم دخل، فجعل يتخطى بيوت نارهم، فإذا سفطين معلقين بأعلى البيت، فقال: ما هذان السفطان، فقالوا: شيء كانت تعظم بها الملوك بيوت نارهم، قال: أهبطوهما إلي، فإذا عليهما طوابع الملوك بعد الملوك، قال: ما أحسبهم طبعوا إلا على أمر نفيس، علي بالمسلمين، فلما جاءوا أخبرهم خبر السفطين، فقال: أردت أن أفضهما بمحضر منكم، ففضهما فإذ هما مملوءان جوهراً لم ير مثله أو قال: لم أر مثله - فأقبل بوجهه على المسلمين، فقال: يا معشر المسلمين قد علمتم ما أبلاكم الله في وجهكم هذا، فهل لكم أن تطيبوا بهذين السفطين أنفساً لأمير المؤمنين لحوائجه وأموره وما ينتابه

فأجابوه بصوت رجل واحد: إنا نشهد الله أنا قد قبلنا وطابت أنفسنا لأمير المؤمنين، فدعاني فقال: قد عهدت أمير المؤمنين يوم الحرة وما أوصانا به وما اتبعنا من وصيته، وأمر السفطين وطيب أنفس المسلمين له بهما، فقد علمت به، فامض بهما إليه، وأصدقه الخبر ثم ارجع اليّ بما يقول لك، فقلت ما لي بد من صاحب، فقال: خذ بيدك من أحببت، فأخذت بيد رجل من القوم وانطلقنا بالسفطين حتى قدمنا بهما المدينة، فأجلست صاحبي مع السفطين وانطلقت في طلب أمير المؤمنين عمر، فإذا به يغدي الناس وهو يتوكأ على عكاز وهو يقول: يا برقي ضع ها هنا. فجلست في عرض القوم لا آكل شيئاً، فمر بي فقال: ألا تصيب من الطعام؟ فقلت: لا حاجة لي إليه، فرآني الناس وهو قائم يدور فيهم فقال: يا برقي خذ خوانك وقصاعك، ثم أدبر فاتبعته فجعل يتخلل طرق المدينة حتى انتهى إلى دار قوراء عظيمة، فدخلها فدخلت في أثره، ثم انتهى إلى حجرة من الدار فدخلها فقمت ملياً حتى ظننت أن أمير المؤمنين قد تمكن من مجلسه، فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام، ادخل، فدخلت فإذا هو جالس على وسادة مرتفقَاَ أخرى، فلما رآني نبذ إلى التي كان مرتفقاً، فجلست عليها فإذا هي تعرى، وإذا حشوها ليف، قال: يا جارية أطعمينا، فجاءت بقصعة فيها قدر من خبز يابس، فصب عليها زيتاً ما فيه ملح ولا خل، فقال: أما أنها لو كانت راضية لأطعمتنا أطيب من هذا، فقال لي: ادن، فدنوت، قال: فذهبتَ أتناول منها قدره، فلا والله لا أستطيع أن أجيزها، فجعلت ألوكها مرة من ذا الجانب ومرة من ذا الجانب فلم أقدر على أن أسيغها، وأكل هو أحسن الناس أكلاً لم يتعلق له طعام بثوب أو شعر، حتى رأيته يلطع جوانب القصعة، ثم قال: يا جارية اسقنا، فجاءت بسويق سلت، فقال: اعطه، فناولتنيه، فجعلت إذا أنا حركته ثار له غبار، فلما رآني قد بشعت ضحك، فقال: مالك؟ أرنيه إن شئتَ، فناولته، فشرب حتى وضع على جبهته هكذا، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا فأروانا وجعلنا من أمة محمد ، قلت: قد أكل أمير المؤمنين فشبع وروي، حاجتي جعلني الله فداك، قال: لله أبوك، فمن أنت؟ قلت: رسول سلمة بن قيس، قال: فبالله، لكأنما خرجت من بطنه تخفّفاً عليَ وحباً، ثم قال: لتخبرني عن من جئت من هذه، وجعل يقول وهو يزحف إليّ: لله أبوك، كيف تركت سلمة بن قيس؟ كيف المسلمون؟ ما صنعتم؟ كيف حالكم؟ قلتَ: ما تحب يا أُمير المؤمنين

وقصصت عليه الخبر على أنهم ناصبونا القتال، فأصيب رجل من المسلمين، فاسترجع وبلغ منه ما شاء الله، وترحم عليه أعني على الرجل طويلاً، قلتَ: ثم إن الله فتح علينا يا أمير المؤمنين فتحاً عظيماً، فملأ المسلمون أيديهم من متاع ورقيق ورفه ما شاءوا، قال: ويحك، كيف اللحم بها فإنها شجرة العرب لا تصلح العرب إلا بشجرتها؟ قلت: الشاة بدرهمين، فقال: الله أكبر، ثم قال: ويحك هل أصيب من المسلمين غير ذلك الرجل؟ قلت: لا، قال: ما يسرني، إنما يسركم أضعف لكم، وإنه أصيب من المسلمين رجل آخر. قال: وجئت إلى ذكر السفطين فأخبرته خبرهما، فبالله الذي لا إله إلا هو لكأنما أرسلتَ عليه الأفاعي والأساود والأراقم، ثم أقبل عليَّ بوجهه آخذاً بحقويه، وقال: لله أبوك وعلى ما يكونان لعمر، والله ليستقبلن المسلمون الظمأ والجوع في نحور العدو، وعمر يغدو بين أهله ويروح إليهم يتبع إماء المدينة، ارجع بما جئت به فلا حاجة لي فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه أبدع بي وبصاحبي، فاحملنا، فقال: لا ولا كرامة للآخر، ما جئت بما أسبر به فأحملك، قلت: يا لعباد الله أيترك رجل بين أرضين، قال: أما لولا أن قلتها قلت، يا برقي انطلق به فاحمله وصاحبه على ناقتين ظهيرتين من إبل الصدقة ثم انخس بهما حتى تخرجهما من الحرة، ثم التفت إلي فقال: أما لئن شتا المسلمون في مشتاهم قبل أن يقتسما بينهم لأعذرن منك ومن صويحبك، ثم قال: إذا انتهيت إلى البلاد فانظر أحوج من ترى من المسلمين فادفع إليه الناقتين. ثم خرجنا من عند عمر، وسرنا حتى آتينا سلمة بن قيس، فأخبرناه الخبر، فقال: ادع لي المسلمين، فلما جاؤوا قال لهم: إن أمير المؤمنين قد وفر عليكم سفطيكم، ورآكم أحق بهما منه، فاقتسموا على بركة الله، فقالوا: أصلحك الله أيها الأمير، إنه ينبغي لهما نظر وتقويم وقسمة. فقال: والله لا تبرحون وأنتم تطالبوني منها بحجر واحد. فعد القوم وعد الحجارة، فربما طرحوا إلى الرجل الحجرين، وفلقوا الحجر بين اثنين.

عن الشعبي، قال: لما قدم بغنائم نهاوند على عمر بكى، فقال عبد الرحمن بن عوف: ليس هذا مكان حزن ولا بكاء، ولكن بشرى، فافرح واحمد الله، فقال: ويحك يا ابن عوف، والله ما كثرت الصفراء والبيضاء في قوم قط إلا فتنوا فتقاتلوا وتدابروا حتى يدمر الله عليهم. قال: وجعل أبو لؤلؤة لا يلقى من السبي صغيراً إلا مسح رأسه وبكى، وقال: أكل عمر كبدي، ولا يلقى أيضاً براً إلا بكى إليه وأسعده، وكان نهاونديَاً فأسرته الروم أيام فارس. وافتتحت نهاوند في أول سنة تسع عشرة. وقد ذكر أبو معشر أن فتح جلولاء وقيسارية كان في سنة تسع عشرة. قال: وكان الأمير على فتح قيسارية معاوية بن أبي سفيان. وذكر ابن إسحاق أن فتح الحيرة والرها وحران ورأس العين ونصيبين كان في سنة تسع عشرة.

وفي هذه السنة بنى عمر ☺ مسجد رسول الله وزاد في مقدمه إلى موضع المقصورة، وزاد في ناحية دار مروان، وعمل بالجريد سقفه، وجعل عمده الخشب، وقال: هذا باب للنساء.

وفي هذه السنة فتح الجزيرة أمر سعد بن أبي وقاص، فبعث عياض بن غنم إلى الجزيرة، فنزل بجنده على الرها، فصالحه أهلها على الجزية، وصالحت حران حين صالحت الرها، ثم بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين، وسار سعد يتبعه إلى دارا فافتتحها. وفتح أبا موسى نصيبين. ثم وجه عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية، فكان هناك قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل واستشهد، ثم صالحه أهلها على كل أهل بيت دينار.

وفيها سالت حرة ليلى ناراً. فيما ذكر الواقدي، فأراد عمر الخروج إليها بالرجال، ثم أمرهم بالصدقة، فجاء عثمان وعبد الرحمن وغيرهما بأموال، فقام عمر يقسمها فانطفأت. وقال ابن حبيب: هذه النار خرجت بخيبر.

وفيها حج عمر ☺ بالناس وكان عماله على الأمصار وقضاته الذين كانوا في سنة ثمان عشرة.

* * *

سنة عشرين

ذكر ابن إسحاق أن فتح قيسارية، وهرب هرقل، وفتح مصر كان في سنة عشرين. وقد ذكرنا عن أبي معشر أن قيسارية فُتحت في سنة عشر. وقال سيف: فتحت مصر وقيسارية في سنة ست عشرة، وقال أبو معشر: فتحت إسكندرية في سنة عشرين. قال الواقدي: ومصر أيضَاَ. وقال يزيد بن أبي حبيب: فتحت مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين. وقال سيف: فتحتا سنة ست وعشرين. وقال زياد بن جراء الزبيدي: فتحتا في سنة إحدى وعشرين، أو اثنتين وعشرين.

ذكر الخبر عن فتح مصر والإسكندرية:

قال ابن إسحاق: لما فرغ عمر من الشام كلها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر، فخرج حتى افتتح باب البون في سنة عشرين، ثم افتتح القرى، فأرسل صاحب الاسكندرية إلى عمرو بن العاص: " قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إليَّ منكم: فارس والروم فإن أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد علي ما أصبتم سبايا أرضي فعلت ". فبعث إليه عمرو بن العاص: " إن ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسك عنك وتمسك عني حتى أكتب إليه ". فقال: نعم، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: " اعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تُخَيِّرُوا مَنْ في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومِهِ فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين، ومن اختار دين قومه أدَّى الجزية كقومه، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب، فبلغ مكة والمدينة واليمن، فإنه لا يقدر على ردّهم ". فقال صاحب الإسكندرية: قد فعلت، ثم فتحت لنا الإسكندرية، فدخلناها. وقال أبو عمر محمد بن يوسف التجيبي: قال سعيد بن عفير عن أشياخه:: لما جاز المسلمون الحصن يعني حصن مصر أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية، فسار إليها في ربيع الأول سنة عشرين، وأمر بفسطاطه أن يقوَّض، فإذا بحمامة وقد باضت في أعلاه فقال: لقد تحرمت بجوارنا، أقرّوها الفسطاط حتى تطير فراخها. فأقروا الفسطاط، ووكل به أن لا تهاج حتى تشتد فراخها، فبذلك سُميت الفسطاط فسطاطاً. أخبرنا محمد بن الحسين وإسماعيل بن أحمد قالا: أخبرنا ابن النقور، أخبرنا المخلص أحمد بن عبد الله، حدِّثنا السري بن يحيى، أخبرنا شعيب، حدَثنا سيف، حدَّثنا أبو عثمان، عن خالد وعبادة قالا: خرج عمرو إلى مصر بعدما رجع عمر إلى المدينة

حتى انتهى إلى باب مصر، واتبعه الزبير، فاجتمعا، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر، ومعه الأسقف الذي بعثّه المقوقس لمنع بلادهم، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجلوا لنقدر إليكم وتروا رأيكم بعد فكفوا أصحابكم. وأرسل إليهم عمرو، فإني بارز فليبرز إليَّ أبو مريم وأبو مرياهم. فأجابوه إلى ذلك، وأمن بعضهم بعضاً، فقال لهما عمرو: أنتما راهبا هذه المدينة فاسمعا: إنَّ الله عز وجل بعث محمداً بالحق، وأمره به، فأمرنا به محمد ، وأدَّى إلينا كل الذي أمر به، ثم مضى وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الاعتذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه قبلناه، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية، وقد أعلمنا أننا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، فإن لكم إن أجبتمونا إلى ذلك ذمة إلى ذمّة، ومما عهد إلينا أميرنا " استوصوا بالقبطيين خيراً " فإن رسول الله أوصاني بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة. فقالا: قرابة بعيدة، فلا يصل مثلها إلا الأنبياء وأتباع الأنبياء معروفة شريفة، كانت بنت ملكنا، فصارت إلى إبراهيم، مرحباً بك وأهلاً، أمّنا حتى نرجع إليك. فقال عمرو: إن مثلي لا يُخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثا لتنظرا أو لينظر قومكما، وإلا ناجزتكم. فقالا: زدنا. فزادهما يوماً. قالا: زدنا. فزادهما يوماً، فرجعا إلى المقوقس فهم، فأبى أرطبون ن يجيبهما، وأمر بمناجزتهم، فركب المسلمون أكتافهم، وقال أهل الفسطاط يعني مصر لملكهم: ما تريد إلى قوم قد قتلوا كسرى وقيصر، وغلبوهم على بلادهم؟ صالح القوم. وكان صلحهم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصليبهم، وعليهم أن يُعطوا الجزية، ومَنْ دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، ومَنْ أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، فدخل في ذلك أهل مصر، وقبلوا الصلح. فمصَّر عمرو الفسطاط وتركه المسلمون، وأمَّره عمر ☺ عليها، فأقام بها، ووضع مسالح مصر على السواحل وغزة، وكان داعية ذلك أن قيصر غزا مصر والشام في البحر، ونهد لأهل حمص بنفسه.

* * *

سنة إحدى وعشرين

فبعث بعضهم إلى كرمان، وأصبهان، وقد قيل: إنما كان ذلك في سنة ثمان عشرة. عن محمد، والمهلب، وطلحة، وعمرو، وسعيد قالوا: لما رأى عمر ☺ يزدجرد يبعث عليه في كل عام حرباً، وقيل لا يزال على هذا الدأب حتى يخرج من مملكته أذن للناس في الانسياح في أرض العجم حتى يغلبوا يزدجرد على ما كان في يد كسرى، فوجه الأمراء من أهل البصرة عند عمر، فمنها: أبو النعيم بن مقرن وأمره بالمسير إلى همدان، وقد كان أهلها كفروا بعد الصلح، وقالوا له: إن فتح الله عليك والي ما وراءك كذلك إلى خراسان، وبعث عتبة بن فرقد، وبكير ابن عبد الله، وعقد لهما على أذربيجان، وبعث إلى عبد الله بلواء وأمره أن يسير إلى أصبهان، وأمده بأبي موسى من البصرة، فالتقى المسلمون ومقدمة المشركين برستاق من رساتيق أصبهان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم أهل أصبهان، وصالحوا.

وفيها: سار عمرو بن العاص إلى طرابلس وهي برقة وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار.

وفيها: حج عمر بن الخطاب بالناس وخلف على المدينة زيد بن ثابت.

وفيها: ولد الحسن البصري، وعامر الشعبي.

* * *

سنة اثنتين وعشرين

عن ابن عباس قال: أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله ، فقال له الطاغية: تنصَرْ، وإلا قتلتك أو ألقيتك في النقرة النحاس. قال: ما أفعل. فدعى بنقرة نحاس فملئت زيتاً وأغليت، ودعى رجلاً من المسلمين، فعرض عليه النصرانية فأبى، فألقاه في النقرة، فإذا بعظامه تلوح. فقال لعبد الله ابن حذافة: تنصر وإلا ألقيتك. قال: ما أفعل. فأمر به أن يلقى في النقرة، فكتفوه فبكى، فقالوا: قد جزع وبكى. قال: ردُّوه. قال: فقال: لا تظن أني بكيت جزعاً، ولكن بكيت إذ ليس بي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في سبيل الله عز وجل، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيَ، ثم تُسلط عليَّ فتفعل بي هذا. قال: فأعجب به، وأحب أن يطلقه، فقال: قبّل رأسي وأطلقك. قال: ما أفعل. قال: تنصَّر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي.

قال: ما أفعل. قال: قبّل رأسي وأطلق معك ثمانين من المسلمين. فقال: أما هذا فنعم. فقبل رأسه فأطلقه وثمانين معه. فلما قدموا على عمر قام إليه عمر فقبَّل رأسه، فكان أصحاب رسول الله يمازحون عبد الله فيقولون: قبل رأس العلج.

ومن الحوادث في هذه السنة: أن عمر ☺ كتب إلى نعمي بن مقرن: أن سر حتى تأتي همدان، وابعث على مقدمتك سويد بن مقرن، وعلى مجنبتك ربعي بن عامر، ومهلهل بن زيد الطائي، فخرج حتى نزل ثنية العسل وسُميَت ثنية العسل لأجل العسل الذي أصابوا فيها عند وقعة نهاوند ثم انحدر نعيم من الثنية حتى نزل على مدينة همدان، وقد تحصنوا فيها، فحاصرهم واستولى علي بلاد همدان كلها، فلما رأى ذلك أهل همدان سألوه الصلح فأجابهم، وقبل منهم الجزية. وقال ربيعة بن عثمان: كان فتح همذان في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من مقتل عمر، وجيوشه عليها.

ومنها: فتح الري: قالوا: وخرج نعيم بن مقرن إلى الري، فبعث مَنْ دخل عليهما من حيث لا يشعرون، ثم قاتلهم وأخرب مدينتهم. قال الواقدي: إنما فتح همدان والري في سنة ثلاث وعشرين.

ومنها: فتحِ قومس: وكتب عمر إلى نعيم أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس، فذهب وأخذها سلماَ، وكتب لهم كتاب أمانٍ.

ومنها: أن عمر أمر عبد الرحمن بن ربيعة أن يغزو الترك، فقصدهم، فحال الله بينهم وبين الخروج عليه، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعهم الملائكة تمنعهم من الموت، فتحصنوا وهربوا، فرجع بالغنم والظفر في إمارة عمر. ثم غزاهم غزوات في زمن عثمان حتى قتل في بعض مغازيه إياهم، فهم يستسقون بجسده.

وفي هذه السنة: حج عمر بن الخطاب بالناس.

وفيها: ولد يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان وقيل: إنما ولد يزيد في سنة خمس وعشرين. وفي هذه السنة: خرج الأحنف بن قيس إلى خراسان، فحارب يزدجرد. وبعضهم يقول: كان ذلك في سنة ثمان عشرة. وقد ذكرنا أن الأحنف أشار على عمر بقصد يزدجرد، وأن عمر عقد الألوية، ودفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، فافتتح هراة عنوة، ثم سار نحو مرو، وأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير وكتب يزدجرد وهو بمرو إلى خاقان يستمده، وإلى ملك الصغد يستمده، وإلى ملك الصين يستعين به، ولحقت بالأحنف أمداد أهل الكوفة

فسار إلى موضع، فبلغ يزدجرد، فخرج إلى بلخ، فسار أهل الكوفة إلى بلخ، فالتقوا بيزدجرد، فهزمه الله تَعالى، فعبر النهر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة، وفتح الله عليهم، وعاد الأحنف إلى مَرْو الروذ، فنزلها، ثم أقبل يزدجرد ومعه خاقان إلى مَرْو الروذ، فخرج الأحنف ليلاً في عساكره يتسمع، هل يسمع برأي ينتفع به. فمرَّ برجلين يقول أحدهما للآخر: لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، وكان الجبل في ظهورنا أمنّا أن يأتونا من خلفنا، ورجونا أن ينصرنا الله تعالى. فارتحل، فأسندهم إلى الجبل، ثم خرج الأحنف ليلة فرأى كبيراً منهم فقتله ثم آخر ثم آخر، وانصرف إلى عسكره ولم يعلم به أحد، فخرجوا فرأوا أولئك مقتولين، فقال خاقان: ما لنا في قتال هؤلاء خير. فانصرف بأصحابه إلى بلخ، فقال يزدجرد: إني أريد أن اتبع خاقان فأكون معه. فقالوا: أتدع قومك وأرضك وتأتي قوماً في مملكتهم، عُد بنا إلى هؤلاء القوم أنصالحهم فإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا من عدوٍ يلينا في بلاده. فأبى عليهم، وأبوا عليه إلى أن قالوا له: فدع خزائننا نردها إلى بلادنا. فأبى عليهم وأبوا عليه. فقالوا: إنا لا ندعك. فاعتزلوا وتركوه في حاشيته، وقاتلوه فهزموه، وأخذوا الخزائن، واستولوا عليها وركبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالخبر، ومضى يزدجرد بالأثقال إلى فرغانة والترك، فلم يزل مقيماً زمان عمر كله، فأقبل أهل فارس إلى الأحنف بن قيس، وصالحوه، وعاقدوه، ودفعوا إليه الخزائن والأموال، ورجعوا إلى بلادهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة، وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهم الفارس يوم القادسية.

ولما رجع أهل خراسان زمان عثمان أقبل يزدجرد حتى نزل قم، واختلف هو ومَنْ معه، فقُتل ورُمي في النهر.

* * *

سنة ثلاث وعشرين

وفي هذه السنة: كان فتح كَرْمَان، وغنم المسلمون منها ما شاءوا من الشاة والبعير. وفيها: فتحت سِجِسْتَان، وصالح أهلها المسلمين.

وفيها: فتحت مكران وبَيْرُوذ. وفيها: غزا معاوية أرض الروم حتى بلغ عمورية، وكان في ذلك أبو أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، وأبو ذر، وشداد بن أوس. وفي هذه السنة: فتح معاوية عسقلان على صلح.

سنة أربع وعشرين

فمن الحوادث فيها: استخلاف عثمان بن عفان ☺.

سنة خمس وعشرين

فإن عمر كان قد أوصى أن يقرّ عماله سنة، فلما ولي عثمان أقرهم، وأقرّ المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة، ثم عزله، واستعمل سعد بن أبي وقاص، فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى، وأقرّ أبا موسى سنوات، وضم حمص، وقنسرين إلى معاوية. وتوفي عبد الرحمن بن علقمة الكناني - وكان على فلسطين - فضم عثمان عمله إلى معاوية. ومرض عمير بن سعد فاستعفى، فضم عمله إلى معاوية، فاجتمع الشام لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان، ثم بعث عثمان على خراسان عمير بن عثمان ، فصالح من لم يجب الأحنف، وأمر الناس بعبور النهر، فصالحه من وراء النهر، فجرى ذلك واستقرَّ.

فمن الحوادث: في هذه السنة: أن أهل الإسكندرية نقضوا عهدهم فغزاهم عمرو بن العاص فقتلهم.

سنة ست وعشرين

وزاد في المسجد الحرام، ووسعه، وابتاع من قوم، وأبى آخرون فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصاحوا على عثمان، فأمر بهم إلى الحبس، وقال: أتدرون ما جرَّأكم عليَّ. ما جرأكم عليَّ إلا حلمي، قد فعل هذا بكم عمر، فلم تصيحوا به. ثم كلَّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد، فأخرجوا.

وفي هذه السنة: جرت خصومة بين سعد وابن مسعود، فعزل عثمان سعداً. وقيل: كان ذلك في سنة خمس وعشرين. وقيل: في سنة ثلاث وعشرين.

عن الشعبي قال: كان أول ما نزع الشيطان من أهل الكوفة وهو أول مصر أن سعد بن أبي وقاص استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالاً، فأقرضه، فلما تقاضاه لم يتيسر عليه، فارتفع بينهما الكلام.

وحدَّثنا سيف، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: كنت جالساً عند سعد، فأتى ابن مسعود فقال لسعد: أدّ المال الذي قِبلك. فقال له سعد: هل أنت إلا عبد من هذيل. قال: وأنت ابن حمينة. فطرح سعد عوداً في يده، وكانت فيه حدة، ورفع يديه وقال: اللهم رب السموات والأرض. فقال عبد الله: قل خيراً ولا تلعن. فقال سعد: أما والله لولا اتقاء الله عليك لدعوت عليك دعوة لا تخطئك. فولى الآخر سريعاً، فخرج.

وحدِّثنا سيف، عن القاسم بن الوليد، عن المسيب بن عبد خير بن عبد الله بن حكيم قال: لما وقع بين ابن مسعود وسعد الكلام غضب عليهما عثمان، وانتزعها من سعد وعزله، وأقرّ عبد الله، واستعمل الوليد بن عقبة، فقدم الكوفة، فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة.

وفي هذه السنة: حج بالناس عثمان ☺.

* * *

سنة سبع وعشرين

عن محمد، وطلحة قالا: أرسل عثمان عبد الله بن الحصين، وعبد الله بن عبد القيس إلى الأندلس فأتياها من قبل البحر، وكتب إليهم: " أما بعد: فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن فتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر والسلام ". فخرجوا ومعهم البربر فأتوها من برها وبحرها، ففتحها الله على المسلمين.

قال يزيد بن أبي حبيب: نزع عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستعمل عبد الله بن سعد، فكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان: إن عمراً كسر الخراج، وكتب عمرو إن عبد الله كسر على مكيدة الحرب، فكتب عثمان إلى عمرو: انصرف، وولى عبد الله بن سعد الخراج والجند، فقدم عمرو مغضباً، فدخل على عثمان وعليه جَبّة له يمانية محشوة قطناً. فقال له عثمان: ما حشو جبتك هذه؟ قال عمرو: فقال عثمان: لم أرد هذا، إنما سألت أقطناً هو أم غيره.

قال الواقدي: وفي هذه السنة كان فتح اصطخر الثاني على يد عثمان بن أبي العاص.

وفيها: غزا معاوية قنسرين. وفيها: حج بالناس عثمان بن عفان.

* * *

سنة ثمان وعشرين

غزاها بأمر عثمان. هذا قول الواقدي. وقال أبو معشر: كان ذلك في سنة تسع وعشرين، كان عمر بن الخطاب يمنع من الغزو في البحر شفقة بالمسلمين، واستأذنه معاوية، فلم يأذن له، فلما ولي عثمان استأذنه فأذن له، وقال: من اختار الغزو معك طائعاً فاحمله. فغزا قبرس، فصالح أهلها، وهو أول من غزا الروم: عن جبير بن نصر قال: لما افتتح المسلمون قبرس فرق بين أهلها فجعل بعضهم يبكي إلى بعض، فبكى أبو الدرداء فقال له: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الشرك وأهله؟ قال: دعنا منك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينا هي أمة قاهرة قادرة، تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترى. وفي رواية أخرى: تركوا أمر الله فسلط الله عليهم السباء، وإذا سلط السباءُ، على القوم فليس له فيهم حاجة.

وفي هذه السنة: غزا حبيب بن سلمة سورية من أرض الروم.

وفيها: تزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص العربية. وكانت نصرانية، فتجنثت قبل أن يدخل بها، وكانت محلتها سماوة كلب. قال ابن الكلبي: كل اسم في المغرب فرافصة بضم الفاء، إلا نائلة بنت الفرافصة، فإنها بفتح الفاء.

حدَّث أبو عبيدة قال: لمَّا تزوّج عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة اهتداها فبعث بها أبوها إليه مع أخيها ضب، فلما فصلت من السماوة إلى المدينة خرجت من فراق أهلها وبلادها:

* * *

سنة تسع وعشرين

وفي هذه السنة رجم عثمان امرأة من جهينة دخلت على زوجها فولدت له في ستة أشهر، فدخل عليه علي فقال: إن الله يقول:{وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥] فأرسل في أثرها فإذا قد رجمت. قاله محمد بن حبيب.

وفي هذه السنة ضاق مسجد رسول الله على الناس، فوسعه عثمان بن عفان ☺، وابتدأ في بنائه في شهر ربيع الأول، وكانت القصة تحمل إلى عثمان من بطن نخل، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وسقفه ساجاً، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع، وجعل أبوابه على ما كانت على عهد عمر ☺ ستة أبواب.

ورأيت لأبي الوفا ابن عقيل في ذكر مسجد الرسول كلاماً حسناً، قال في قوله: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام— قال: هذا يتعلق بمسجد الرسول الذي في زمانه لا بما زيد فيه بعده.

وفي هذه السنة حج عثمان بالناس وضرب بمنى فسطاطاً، وأتم الصلاة بها وبعرفة، قال: إني اتخذت بمكة أهلاً فصرت من أهلها.

* * *

سنة ثلاثين

أنه شرب الخمر، فعزله عثمان ☺، وولى سعيد بن العاص بن أبي أحيحة.

وفي هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان

وفي هذه السنة سقط خاتم رسول الله من يد عثمان في بئر أريس.

وهي بئر على ميلين من المدينة؟ جلس عليها عثمان فجعل يعبث بالخاتم فوقع في البئر، وكانت من أقل الآبار ماءً فنزحت ولم يوجد.

* * *

وفي هذه السنة زاد عثمان النداء الثالث على الزهراء.

وهي دار له بناها في عهد النبي وأبي بكر وعمر ☻، فلما كان في خلافته وكثر الناس أمر عثمان ☺ يوم الجمعة بالآذان الثالث، فأذن به على الزوراء، فثبت الأمر على ذلك. فإن قيل: كيف صار ثلاثاً؟ قلنا: بالإقامة.

* * *

وفي هذه السنة هرب يزدجرد من فارس إلى خراسان في قول بعض الرواة.

قال: وذلك أن ابن عامر خرج إلى فارس، فهرب يزدجرد، فوجه ابن عامر في أثره من تبعه إلى كرمان، فهرب إلى خراسان.

وفي هذه السنة حج بالناس عثمان ☺.

* * *

سنة إحدى وثلاثين

التي يقال لها غزاة الصواري في قول الواقدي، وقال أبو معشر: كانت سنةأربع وثلاثين.

شرح القصة أن المسلمين لما أصابوا من الروم بإفريقية خرج الروم في جمع لم يجمع مثله قط، خرجوا في خمسمائة مركب عليهم قسطنطين بن هرقل، فباتوا يضربون النواقيس، وبات المسلمون يصلون ويدعون، ثم أصبحوا فقال المسلمون: إن شئتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم، وإن شئتم فالبحر. قال فنخروا نخرة واحدة وقالوا: الماء. والسفن بعضها إلى بعض، واقتتلوا أشد القتال، ووثب الرجال على الرجال يضربون بالسيوف على السفن، ويتواجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً حتى صارت كالخبال العظيم عند الساحل، وقتل من الفريقين خلق كثير، ثم نصر الله المسلمين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج منهم إلا الشريد، وانهزم قسطنطين. وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم، ثم أقبل راجعاً.

وفي هذه السنة: تكلم قوم في عثمان ☺، وكان محمد بن أبي حذيفة يقول بعد غزاة الروم: والله لقد تركنا الجهاد خلفنا، فيقال له: وأي جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان فعل كذا وكذا حتى أفسد الناس، فقدموا وقد أظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به، وتكلم معه محمد بن أبي بكر وذكر ما خلف به أبا بكر وعمر ☻، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فقال: لا تركبا معنا، فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين.

وفي هذه السنة: فتحت أرمينية على يدي حبيب بن مسلمة الفهري في قول الواقدي.

وفي هذه السنة: قتل يزدجرد ملك فارس: وقيل قتل في سنة ثلاثين.

وفي هذه السنة: حج بالناس عثمان ☺

* * *

سنة اثنتين وثلاثين

مضيق القسطنطينية، ومعه زوجته عاتكة بنت قرظة.

وفيها: غزا عبد الرحمن بن أبي ربيعة بَلَنْجَر: فحصروها ونصبوا عليها المجانيق والعرادات، فجعل لا يدنو منها أحد إلا هلك، فقتل مِعْضَد في تلك الأيام، ثم اجتمع أهل بلنجر والترك معهم، وأصيب عبد الرحمن، وأخذ القوم جسده، فجعلوه في سفط، فهم يستسقون به ويستنصرون، وانهزم المسلمون وفيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

وفيها: فتح ابن عامر مرو الروذ وجوزجان.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين

من أرض الروم من ناحية مَلْطَية، في قول الواقدي. وفيها: غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد. وفيها: قدم عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى خراسان حين انتقض أهلها، ونبعه ابن عامر، وفتح عليهم.

وفيها سير عثمان ☺ من أهل العراق من سير إلى الشام فسير جماعة من أهل الكوفة كانوا يذكرون عثمان ويسبون سعداً، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عثمان في أمرهم، فكتب إليه ابعثهم إلى معاوية، فلما ذهبوا إليه رأى منهم ما لا يصلح، فأبعدهم عنه، فرجعوا إلى الكوفة، فضج أهل الكوفة منهم فسيروا إلى حمص، ومن القوم مالك بن الحارث الأشتر، وثابت بن قيس النخعي، وكميل بن زياد، وزيد بن صوحان، وجندب ابن زهير، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق.

وسير جماعة من أهل البصرة إلى الشام أيضاً، منهم حمران بن أبان، وكان قد تزوج امرأة في عدتها، فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيره إلى أهل البصرة.

وفي هذه السنة: حج عثمان بالناس، وولد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ☺.

* * *

سنة أربع وثلاثين

أن المنحرفين عن عثمان تكاتبوا للاجتماع لمناظرته فيما نقموا عليه، وتذاكر قوم أعمال عثمان، فأجمعوا رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه، فأرسلوا إليه عامر بن عبد قيس، فدخل عليه، فقال: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله وانزع عنها، فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان، وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإلى سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عامر، فجمعهم فشاورهم في أمره، فقال عبد الله ابن عامر: إني أرى أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، فلا يهم أحدهم إلا نفسه. وقال ابن أبي سرح: أعطهم المال تعطف عليك قلوبهم. وقال معاوية: تأمر أجنادك يكفيك كل منهم من قبله. وقال عمرو بن العاص: اعتدل أو اعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً، فردهم عثمان إلى أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على مَنْ قبلهم، وتجمير الناس في البعوث، وورد سعيد بن العاص أميراً على الكوفة، فخرج أهل الكوفة فردوه؛ وهم يزيد بن قيس، والأشتر، وذلك يوم الجَرَعة، والجرعة مكان مشرف قرب القادسية وهناك تلقاه أهل الكوفة. فرجع إلى عثمان، وضرب الأشتر عنق غلام كان مع سعيد، فقال عثمان لسعيد: ما يريدون؟ قال: البدل، قال: فمن يريدون؟ قال: أبا موسى، فجعله عليهم.

وروى الواقدي عن أشياخه: أن جماعة اجتمعوا فكلموا علي بن أبي طالب في أمر عثمان، فدخل عليه وقال: الناس من ورائي وقد كلموني فيك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه، وقد صحبت رسول الله ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب. وأنت أقرب إلى رسول الله رحماً، وقد نلت من صهره ما لم ينالا. فقال عثمان: والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا عبت عليك إن وصلت رحماً، وسددتَ خَلة، أنشدك الله يا علي، أتعلم أن عمر ولى المغيرة أو ليس ذلك؟ قال: بلى، قال: فلم تلومني إن وليت ابن عامر في رَحِمه وقرابته؟ قال: سأخبرك، إن عمر كان كل من ولي فإنما يطأ على صِماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى غاية أنت لا تفعل رفقة بأقربائك، قال عثمان: فهل تعلم أن عمرًا ولى معاوية خلافته كلها؟ قال: نعم، قال علي: فهل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من غلامه يَرْفَأ؟ قال: نعم فهو يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيبلغك ولا تغير عليه.

ثم خرج علي، فخرج عثمان فجلس على المنبر، ثم قال: لقد عبتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فدِنْتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم، وأوطأت لكم كنفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي، فكفوا عليكم ألسنتكم، وطعنكم على ولاتكم، وما لي لا أصنع في فضل المال ما أريد، فلم كنت إماماً.

فقام مروان بن الحكم، فقال: إن شئتم حكمنا بيننا وبينكم السيف. فقال عثمان: اسكت لا سكت، دعني وأصحابي، ثم نزل عثمان.

وفي هذه السنة: حج بالناس عثمان، وحج أزواج النبي معه كما فعل عمر ☻.

* * *

سنة خمس وثلاثين

أخبرنا محمد بن الحسين، وإسماعيل بن أحمد قالا: أخبرنا ابن النقور، قال: أخبرنا المخلص، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا السري ابن يحيى، قال: حدثنا شعيب، قال: حدثنا سيف، عن عطية، عن يزيد الفَقْعَسي، قال: كان ابن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم بالشام، فلم يقدر على ما يريد، فأخرجوه حتى أتى مصر، فغمز عثمان بن عفان، وأظهر الأمر بالمعروف، وكان عمار بمصر فاستماله ابن السوداء وأصحابه، ودعوه إلى خلع عثمان فقدم المدينة.

عن محمد بن سعد بن أبي وقاص، قال: قدم عمار من مصر وأبي شاكٍ فبلغه فبعثني إليه أدعوه، فلما دخل على سعد، قال: ويحك يا أبا اليقظان، إن كنت فينا لمن أهل الخير، فما الذي بلغني من سعيك في فساد بين المسلمين والتأليب على أمير المؤمنين، أمعك عقلك أم لا؟ فأهوى عمار إلى عمامته وغضب فنزعها وقال: خلعت عثمان كما خلعت هذه، فقال سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويحك حين كبر سنك ورق عظمك ونفد عمرك، خلعت ربقة الإسلام من عنقك، فقام عمار مغضباً وأقبل سعد يبكي له، وقال، من يأمن الفتنة يا بني لا يخرجن منك ما سمعت منه.

وحدثنا سيف عن عطية، عن يزيد الفقعسي، قال: جعل أهل مصر يكتبون إلى الأمصار، قال سيف: كاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياء، فاجتمع المصريون والكوفيون بالمدينة، فخطبهم عثمان وقال: إن هؤلاء قالوا: أتم الصلاة في السفر، وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت، قالوا: وَحَمَيْتُ حمى، وإني والله ما حميت إلا ما حمي قبلي. وقالوا: إني رددت الحكم وقد سيره رسول الله إلى الطائف ثم رده. وقالوا: استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعاً مرضياً، وقد قيل لرسول الله في أسامة أشد ما قيل لي. وقالوا: أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه، وإني إنما نفلته خمس الخمس، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر، فلما كره الجند ذلك رددته، وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإنه لم يمل معي على جور، وإنما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس وما تبلغت من مال الله عز وجل بفلس فما فوقه.

وحدَّثنا سيف عن محمد وطلحة وأبي عثمان وأبي حارثة، قالوا: لما كان شوال سنة خمس وثلاثين خرج أهل مصر في أربعة رفاق على أربعة أمراء، المقلل يقول: ستمائة، والمكثر يقول: ألف. على الرفاق عبد الرحمن ابن عُدَيس البكري، وكنانة بن بشر التجيبي، وعروة بن شبيم، الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسواد بن رومان الأصبحي، وزرع بن يشكر اليافعي، وقتيرة السكوني، وسودان بن حمران السكوني. وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب؛ وإنما خرجوا كالحُجاج، ومعهم ابن السوداء. وخرج أهل الكوفة في أربعة رفاق، وعلى الرفاق زيد بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الأصم وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم، وعددهم كعدد أهل مصر، وخرج أهل البصرة في أرِبعة رفاق، وعلى الرفاق حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح بن الحطم القيسي، وابن محرش بن عبد عمرو الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر، وأميرهم جميعاً حُرقوص بن زهير السعدي، سوى من تلاحق بهم من الناس فأما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون عليَاً، وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير.

فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدم أناس من أهل البصرة، فنزلوا ذا خُشُب، وأناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص، وجاءهم أناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المرْوة. ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالا: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد.

فدخل الرجلان، فلقيا أزواج رسول الله وطلحة والزبير وعلياً، وقالا: إنما نؤم هذا البيت، ونستعفي من هذا الوالي من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك، فاستأذنوهم للناس في الدخول، فكلهم أبى ونهى، فرجعا فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً ☺، ومن البصرة نفر فأتوا طلحة، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير، وقال كل فريق منهم: إن بايعوا صَاحبنا وإلا كدناهم وفرقنا جماعتهم، ثم نبغتهم. فأتى المصريون علياً ☺ وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عند عثمان، فعرضوا له، فصاح بهم فطردهم، وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ، فارجعوا لا صحبكم الله. وأتى البصريون طلحة وقد أرسل بنيه إلى عثمان، فعرضوا له، فصاح بهم وطردهم وقال مثل قول علي. وأتى الكوفيون الزبير وقد سرح ابنه عبد الله إلى عثمان، فعرضوا له فصاح بهم وطردهم، وقال مثل طلحة. خرج القوم وأروْهم أنهم يرجعون؛ فانفشوا عن ذي خشب والأعوص حتى أتوا إلى عساكرهم، وهي ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة، ثم يكرون فافترق أهل المدينة لخروجهم، فكروا فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحي المدينة، فأحاطوا بعثمان وقالوا: من كف يده فهو آمن. وأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي، فقال علي: ما ردكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا هذا وعثمان يصلي بالناس وهم يصلون خلفه ويقولون، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا. وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم، فخرجوا على الصعب والذلول، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح معاوية بن خديج، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو. ولما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين مسجد النبي خرج عثمان ☺ فصلى بالناس، ثم قام على المنبر، فقال: يا هؤلاء، إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطايا بالصواب.

فقام محمد بن مسلمة: إنا نشهد بذلك، فأخذه حكيم بن جبلة فأقعده، فقام زيد بن ثابت فقال: ابغني الكتاب، فثار إليه محمد بن أبي قتبره فأقعده، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوهم حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه، فاحتمل فأدخل داره، وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم إلا في ثلاثة نفر، فإنهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر؛ وشمر أناس من الناس فاستقتلوا منهم سعد بن مالك، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، والحسن بن علي بن أبي طالب، فبعث إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا. ودخل علي وطلحة والزبير على عثمان يعودونه من صرعته، فصلى بهم عثمان بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً ثم منعوه الصلاة، فصلى بالناس أميرهم الغِافقي، دان له المصريون والكوفيون والبصريون، وتفرق أهل المدينة إلى حيطانهم، ولزموا بيوتهم، لا يخرج أحد، ولا يجلس أحد إلا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم، وكان الحصار أربعين يوماً، وفيها كان القتل، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح، وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفون عن الناس، ويحتملون منهم الكلام.

ولما رأى زيد وزياد وعمرو الأصم أن أصحاب رسول الله مع عثمان، وأنهم لا يجيؤونهم رجعوا من بين أهل الكوفة، وأعاد عثمان الكتاب إلى الأمراء: إن أمر هؤلاء قد بان، وأنهم جاولوا الإسلام، ومنعوا الصلاة، وحالوا بيني وبين المسجد، ولما لم يجدوا خرجاً، قالوا: لا نرضى إلا بأن يعتزلنا، فأدركوا الفتنة قبل تدفقها، فحرض العمال أهل بلادهم، وجاء سعد، وزيد، وأبو هريرة للقتال، فقال عثمان: إن كنتم ترون الطاعة، فاغمدوا أسيافكم وانصرفوا.

وجاء كثير بن الصلت، فقال لعثمان: لو أريت الناس وجهك، فقد انكسر الناس، فقال: يا كثير، رأيتني البارحة وكأني دخلت على رسول الله وأبي بكر وعمر ☻، فقال: قد صبرت فلن يدركك المسلمون حتى تقتل، فارجع فإنك مفطر عندي يوم كدا وكذا، ولن تغيب الشمس والله يوم كذا وكذا، إلا وأنا من أهل الآخرة، فقالوا: نستقيل، فقال: اخرجوا عني. ولما رأى القوم أن الناس قد ثابوا إلى عثمان وضعوا على علي بن أبي طالب رقيباً في نفر فلازمه، ورقيبه خالد ابن ملجم، وعلى طلحة رقيباً فلازمه، ورقيبه سودان بن حمران، وعلى الزبير رقيباً فلازمه، ورقيبه قتيرة وعلى نفر بالمدينة، وقالوا لهم: إن تحركوا فاقتلوهم، فلما لم يستطع هؤلاء النفر غشيان عثمان بعثوا أبناءهم إلى عثمان، فأقبل الحسن بن علي، فقال له: مرنا بأمرك، فقال: يا ابن أخي، أوصيك بما أوصي به نفسي، واصبر وما صبرك إلا بالله

وجاء ابن الزبير، فقال له مثل ذلك، وجاء محمد بن طلحة فقال له مثل ذلك. وأشرف عثمان، فقال: يا أهل المدينة إني أستودعكم الله فارجعوا، ولزم عثمان الدار أربعين ليلة، فلما مضت من الأربعين ثماني عشرة ليلة قدم ركبان من الوجوه فأخبروا خبر من قد تهيأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشام، ومعاوية من مصر، والقعقاع بن عمرو من الكوفة، ومجاشع من البصرة، فعندها حالوا بين الناس وبين عثمان؛ ومنعوه من كل شيء حتى الماء، فبعث إلى علي ☺ بأنهم قد منعونا الماء، وإلى طلح والزبيب وعائشة وأزواج النبي ، فجاء إليهم علي فقال: إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فإن الروم لتأسِرُ فتطعم وتسقي، فقالوا: لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ويشرب، فرجع. وجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة، مشتملة على أداة، فقالت لهم: إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله كيلا تهلك أموال اليتامى، فقالوا: كاذبة، وقطعوا حبل بغلتها بالسيف، فنذرت فتلقاها الناس. وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة.

وحج بالناس تلك السنة عبد الله بن عباس بأمر عثمان وهو محصور.

فلما علم المصريون أنهم مقصودون، قالوا: لا ينجينا إلا قتل هذا الرجل، فراموا الباب، فمنعهم الحسن، وابن الزبيب، ومحمد بن طلح، ومران، وسعيد ابن العاصي، وكانوا مقيمين على الباب، فناداهم عثمان: الله، أنتم في حل من نصرتي، فأبوا، ففتح الباب، وخرج ومعه الترس والسيف، فبارز المصريون، وركبهم هؤلاء فتراجعوا، وأقسم على أصحابه ليدخلن إذ أبوا أن ينصرفوا، فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين، واتخذ عثمان القرآن تلك الأيام نَجياً، يصلي وعنده المصحف، فإذا أعيا فقرأ فيه.

فجاء المصريون بنار فأحرقوا الباب، وعثمان في الصلاة قد افتتح طه، فما أترثه ما سمع، وما تتعتع حتى أتى عليها قبل أن يصلوا إليه. وبارز مران يومئذ فاختلف هو ورجل منهم ضربتين، فاجتر هذا أصحابه وهذا أصحابه، وَاقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملأها ولا يشعر الذين بالباب، فقال رجل: اخلعها وندعك، فقال: لست خالعاً قميصاً كسانيه الله، فخرج ودخل آخر فلم يقتله، وجاء ابن سلام ينهاهم، فقالوا: يا ابن اليهودية، ما أنت وهذا. فأتاه الغافي وبيده حديد فضرب بها رأسه فشجها فقطر دمه على المصحف، وضرب المصحف برجله، ثم تعاونوا عليه، فضربه سودان بن حمران، فوثبت نائلة بنت الفرافصة فصاحت وألقت نفسها عليه وأخذت السيف بيدها، فتعمدها، فقطع أصابع يدها وقتله

فوثب غلام لعثمان فقتل سودان، فقتل قتيرة الغلام، فوثب غلام آخر وقتل قتيرة، ورموا بهما فأكلتهما الكلاب. ولم يغسل عثمان ولا غلاماه لكونهم شهداء، ودفنا إلى جنب عثمان بالبيت وانتهبوا متاع البيت، ومر رجل على عثمان ورأسه مع المصحف، فضرب رأسه برجله ونحاه عن المصحف، وتنادوا في الدار: أدركوا بيت المال، لا تُسبَقوا إليه، فأتوه فانتهبوه.

وقتل عثمان يوم الجمعة قبل غروب الشمس لثماني عشرة من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

عن المغيرة بن شعبة، أنه قال لعثمان حين حصر: إنه قد نزل من الأمر ما ترى، فاختر واحدة من ثلاث: إن شئت أن نفتح لك باباً سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فلن يستحلوك بها، وإن شئت أن تلحق الشام وفيها معاوية، وإن شئت خرجت بمن معك فقاتلناهم فإنا على الحق وهم على الباطل. فقال عثمان: أما قولك آتي إلى مكة؟ فإني سمعت رسول الله يقول: **يلحد بمكة رجل من قريش عليه نصف عذاب الأمة**— فلن أكونه. وأما أن آتي إلى الشام، فلن أكون لأدع دار هجرتي ومجاورة نبي الله وآتي الشام. وأما قولك: إني أخرج بمن معي أقاتلهم فلن أكون أول من يخلف رسول الله في أمته بإراقة محجمة دم.

وروى الواقدي، عن أشياخ له، عن محمد بن مسلمة، قال: خرجت في نفر من قومي إلى المصريين، فعظمت حق عثمان وما في رقابهم من البيعة، وخوفتهم الفتنة، وأنه ينزع عن هذه الأمة الخصال التي نقمتم عليه، وأنا ضامن لذلك. قال القوم: فإن لم ينزع؟ قلت: فأمركم إليكم.

فانصرف القوم وهم راضون، ورجعت إلى عثمان، فقلت: أخلني، فأخلاني، فقلت: الله الله يا عثمان في نفسك، إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون دمك، وأنت ترى خذلان أصحابك لك، فأعطاني الرضا وجزاني خيراً.

ثم خرجت من عنده، فأقمت ما شاء الله فيهم، فعادوا له فقال لي: ارجع إليهم فارددهم، قلت: لا والله، لأني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها. فقال له: الله المستعان. وجاءني ابن عديس وسودان، فقالا: ألم تعلم أنك زعمت أن صاحبنا نازع عما نكره؟ قلت: بلى فأخرجوا صحيفة صغيرة، وإذا قصبة من رصاص، فقالوا: وجدنا جملاً من إبل الصدقة عليه غلام عثمان، ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذا الكتاب

أما بعد؛ فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة جلدة، واحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمري، وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك، وسودان مثل ذلك، وعروة مثل ذلك.

قلت: وما يدريكم أن عثمان كتب هذا؟ قالوا: فيفتات مروان على عثمان بهذا، فهذا أشر، فيخرج نفسه من هذا الأمر. ودخل علي على عثمان فأخبره بما وجدوا في الكتاب، فجعل يقسم بالله ما كتب به ولا علم ولا شور.

قال ابن مسلمة: إنه لصادق، ولكن هذا عمل مروان، فقال علي: أدخلهم إليك واعتذر إليهم، فدخلوا فما سلموا عليه بالخلافة، بل قالوا: سلام عليكم، فقلنا: وعليكم السلام، فقدموا في كلامهم ابن عديس، فذكر له أشياء من فعله، وقالوا: قد رحلنا نريد دمك فردنا علي، ومحمد بن مسلمة، وضمن لنا ابن مسلمة النزوع عما نقمناه، فرجعنا إلى بلادنا، فوجدنا غلامك وكتابك وخاتمك إلى عاملك بجلد ظهورنا والمثل بنا، فقال عثمان: والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت، قالوا: أيكتب مثل هذا غيرك؟ فليس مثلك يلي، اخلع نفسك، فقال: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل. فخرج الكل فحاصروه.

ذكر من كان يصلي بالناس وعثمان محصور اختلف الناس في ذلك، فروى الواقدي، عن ربيعة بن عثمان، عن يزيد بن رومان: أنه لما حصر عثمان جاء المؤذن. سعد القرظ إلى علي بن أبي طالب ☺، فقال: من يصلي بالناس؟ فقال: ناد خالد بن يزيد، فقام فصلى بالناس.

عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: جاء المؤذن إلى عثمان فأذن بالصلاة، فقال: لا أنزل، اذهب إلى من يصلي، فجاء إلى علي بن أبي طالب، وأمر سهل بن حنيف فصلى اليوم الذي حصر فيه الحصر الأخير، وهو ليلة رأى هلال في الحجة، فصلى بهم حتى إذا كان يوم العيد صلى علي العيد، ثم صلى بهم حتى قتل.

وقد روينا أن ابن عديس صلى بهم، وكنانة بن بشر خليفته.

عن حميد بن هلال، قال: خرج عبد الله بن سلام إلى الناس يوم الدلج، وقال: يا قوم، والله ما قتلت أمة نبياً إلا قتل منها سبعون ألفاً، ولا قتلت أمة خليفة إلا قتل منها مكانه خمسة وثلاثون ألفاً، فأحرقوا الباب، فقال عثمان: ما عندهم بعد هذا بقية، ثم دخلوا عليه فقتلوه.

* * *

ذكر من وليه بعد موته وصفة دفنه

ذكر سيف بن عمر أن عثمان قتل يوم الجمعة، ودفن ليلة السبت في جوف الليل. قال أبو بشر العابدي: نبذ عثمان ثلاثة أيام لا يدفن، ثم إن حكيم بن حزام وجبير بن مطعم كلما عليّا في أن يأذن لهما في دفنه ففعل، فلما سُمِعَ بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة، فأرسل إليهم علي يعزم عليهم ليَكفّن عنه ففعلوا.

وقال غيره: دفن بين المغرب والعتمة، ولم يشهد جنازته إلا مروان وثلاثة من مواليه، وابنته الخامسة. وقال الشعبي: صلى عليه مروان.

قال الواقدي: الثبت عندنا أنه صلى عليه جبير بن مطعم، وقال صالح بن كيسان: خرج حكيم بن حرام في اثني عشر رجلاً منهم الزبير.

وروى الواقدي: أنهم لما قتلوه أرادوا جز رأسه، فوقعت عليه نائلة وأم البنين، فمنعهم، وصحن، وضربن الوجوه، وخرقن ثيابهن، فقال ابن عديس: اتركوه، فأخرج ولم يغسل إلى البقيع، فأقبل عمير بن ضابىء، فنَزَا عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه، وقال: سجنت ضابئاً حتى مات في السجن.

وكان عمر عثمان اثنتين وثمانين سنة وأشهراً. وقيل ثلاثاً وثماثين وقيل: ستاً وثمانين. وقيل ثمانياً وثمانين.

وقتل وعامله على مكة عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن أمية، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة عبد الله بن عامر بن كرز، وعلى مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم غلب محمد بن أبي حذيفة على مصر فأخرج ابن سعد، وعلى الكوفة: على صلاتها أبو موسى، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وعلى قرقيسياء جرير بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى حلوان عتيبة بن النهاس، وعلى همذان النُّسَير، وعلى الري سعيد بن قيس، وعلى أَصفهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبذان حبيش، وعلى بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان.

وعمال معاوية على حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة، وعلى الأردن أبو الأعور بن سفيان، وعلى القضاء أبو الدرداء، وعلى قضاء عثمان زيد بن ثابت.

* * *

فصل

ولما قتل عثمان ☺ انتهبت داره ودار غيره، وانتهبت دار أبي هريرة.

عن أبي هريرة قال: أتيت النبي يوماً بتمرات، فقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة، قال: فصفهن بين يديه ثم دعا، فقال لي: **اجعلهن في مزودك وأدخل يدك ولا تنثره**. قال: فجعلت منه كذا وكذا وسقاً في سبيل الله، وآكل وأطعم، وكان لا يفارق حقوي. فلما قتل عثمان ☺ انقطع عن حقوي وسقط.

عن أبي هريرة، قال: أصبت بثلاث: بموت رسول الله وكنت صويحبه وذا يد منه، وبقتل عثمان والمزود. قالوا: وما المزود؟ قال: كنا مع رسول الله وأصابت الناس مخمصة، قال رسول الله : **يا أبا هريرة، هل من شيء؟** قلت: نعم، شيء من تمر في مزود، قال: **فآتني به**، فأتيته به فأدخل يده وأخرج قبضة، فبسطها، ثم قال: **ادع لي عشرة**، فدعوت له عشرة فأكلوا حتى شبعوا، ثم أدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ثم قال: **ادع لي عشرة**، فدعوت له عشرة، فأكلوا حتى شبعوا، فما زال يصنع ذلك حتى أطعم الجيش كله وشبعوا، ثم قال لي: **خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض ولا تكبه** قال أبو هريرة: فقبضت على أكثر مما جئت به. قال أبو هريرة: ألا أحدثكم عما أكلت، أكلت منه حياة رسول الله وحياة أبي بكر وأطعمت، وحياة عمر وأطعمت، وحياة عثمان وأطعمت، فلما قتل عثمان انتهبت بيتي وذهب المزود.

* * *

فصل

ولما ضرب عثمان بالسيف اتقت نائلة بنت الفرافصة بيدها، فقطعت إصبعان من أصابعها، فلما قتل كتبت إلى معاوية: من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد. فإني أذكركم بالله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأبعدكم عن الكفر، وأنشدكم الله فأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه، وأن أمير المؤمنين بُغِي عليه وكنت مشاهدة أمره، إن أهل المدينة حصروه يحرسونه ليلهم ونهارهم قياماً على أبوابه بسلاحهم حتى منعوه الماء، ثم إنه رُمي بالنبل والحجارة، ثم أحرقوا باب الدار، ثم دخلوا عليه وأخفوا بلحيته وضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه في صدره ثلاث طعنات

وقد أرسلت إليكم بثوبه، فحلف رجال من الشام ألا يطؤو النساء حتى يقتلوا قتلته أو تذهب أرواحهم.

فصل

وقد كان أمير المؤمنين علي يقول: إنما وهنت يوم قتل عثمان.

عن عمير بن زودي، قال: سمعت علياً ☺ يقول: هل تدرون إنما مثلي ومثلكم وقتل عثمان، كمثل ثلاثة أثواركن في أجمة: ثور أبيض، وثور أسود، وثور أحمر ومعهم فيها أسد، فكان الأسد لا يقدر منها على شيء لاجتماعهم عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: إنه لا يدل علينا في أجمتنا هذه إلا الثور الأبيض فإنه مشهور اللون، فلو تركتماني فأكلته، وصفت لي ولكما الأجمة وعشنا فيها، فقالا له: دونك وما تريد، فأكله، ثم لبث غير كثير، فقال للثور الأحمر: إنه لا يدل علينا في أجمتنا هذه إلا الثور الأسود فإنه مشهور اللون، وإن لوني ولونك لا يشتهران، فلو تركتني لآكله صفت لي ولك الأجمة وعشنا فيها، فقال له: دونك، فأكله. ثم لبث غير كثير فقال للثور الأحمر: إني آكلك، قال: دعني حتى أنادي ثلاثة أصوات، قال: ناد، فقال: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ألا إني أَكلت يوم أكل الثور الأبيض، ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، قال: يقول علي ☺ ألا وإني إنما وُهنت يوم قتل عثمان ☺.

ومن الحوادث في هذه السنة: أعني سنة خمس وثلاثين من الهجرة خلافة علي عليه السلام قال سمعت سليمان بن حرب: شهد علي بدراً وهو ابن عشرين سنة، وشهد الفتح وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

روى القزاز بإسناده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: كنت ذات يوم جالساً بين يدي أبي، فجاءت طائفة من الكوفيين فذكروا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع رأسه إليهم وقال: يا هؤلاء، قد أكثرتم القول في علي والخلافة، وإن الخلافة لم تزين علياً بل علي زينها.

قال السياري: فحدثت بهذا بعض الشيعة، فقال: قد أخرجت نصف ما كان في قلبي على أحمد بن حنبل من البغض.

* * *

باب خلافة علي رضوان الله عليه.

قال محمد بن الحنفية ☺: كنت مع أبي حين قتل عثمان ☺، فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله ، فقالوا له: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقةً، ولا أقرب من رسول الله ، فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك؟ قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون إلا عن رضا المسلمين. فدخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس. وقيل: أول من بايعه طلحة.

عن قيس، قال: رأى أعرابي طلحة يبايع علياً ☺، قال: يد شلاء وأمر لا يتم.

وقال الزهري: أرسل إلى طلحة والزبير فدعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة، فقال الأشتر وسل سيفه: والله لتبايعن أو لأضربن به بين عينيك، فقال طلحة: وأين المذهب عنه، فبايعه وبايعه الزبير. وهرب قوم إلى الشام فلم يبايعوه، ولم يبايعه قدامة بن مظعون، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة.

* * *

سنة ست وثلاثين

أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين، وأبو القاسم إسماعيل بن أحمد، قالا: أخبرنا ابن النقور، قال: أخبرنا المخلص، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله، قال: حدثنا السري بن يحيى، قال: حدثنا شعيب، عن محمد وطلحة، قالا: بعث علي ☺ عماله على الأمصار؛ بعث عثمان بن حنيف على لبصرة، وعمارة بن حسان ابن شهاب على الكوفة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام.

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل قالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أي شيء. قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان بعثكم فحيَّهلاً بك، وإن كان بعثك غيره فارجع، قال: أو ما سمعتم بالذي كان، قالوا: بلى، فرجع إلى علي. وأما قيس بن سعد، فإنه لما انتهى إلى أيلة لقيته خيل، فقالوا: من أنت؟ قال: من قالة عثمان، فأنا أطلب من آوي إليه وأنتصر به، قالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد، قالوا: امض، فمضى حتى دخل مصر

فافترق أهل مصر فرقاً؟ فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه، وفرقة وقفت واعتزلت، وقالوا: إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم، وإلا فنحن على جديلتنا، وفرقة قالوا: نحن مع علي ما لم يُقِدْ إخواننا، فكتب قيس إلى علي بذلك.

وأما عثمان بن حنيف، فسار فلم يرده أحد عن دخول البصرة، ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب، فافترق الناس فاتبعت فرقة القوم، ودخلت فرقة في الجماعة، وفرقة قالت: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا.

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان بزبالة رد وانطلق عبيد الله إلى اليمن، ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام دعا طلحة والزبير، فقال: إن الذي كنت أحدثكم قد وقع، وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي.

وكتب علي إلى أبي موسى ومعاوية، فكتب إليه أبو موسى بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم، وبين الكاره منهم والراضي، وكان الرسول إلى أبي موسى معبد الأسلمي. وكان الرسول إلى معاوية سبرة الجهني، فلما قدم على معاوية لم يكتب معه شيء ولم يجبه، حتى إذا كان في الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر، دعا معاوية برجل من بني عبس يُدْعَى قبيصة، فدفع إليه طُوماراً مختوماً، عنوانه: من معاوية إلى علي، فقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار، ثم أوصاه بما يقول، وسرح رسول عليّ معه، فخرجا فقدما المدينة في غرة ربيع الأول، فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره، وخرج الناس ينظرون إليه، فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض، ومضى الرسول حتى دخل على عليّ ☺، فدفع إليه الطومار، ففض خاتمه فلم يجد في جوفه كتابة، فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال: نعم، إن الرسل آمنة لا تقتل؟ قال: ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود، قال: ممن؟ قال من نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق، فقال: أمني يطلبون عثمان، ألست موتوراً أكره قتل عثمان، اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، اخرج، قال: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن، فخرج العبسي، فصاحت السبئِية: هذا الكلب وافد الكلاب، اقتلوه، فنادى: يا آل مضر، إني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خَصي، فانظروا كم الفحولة والركاب فمنعته مضر.

وحدَّثنا سيف، عن أبي حارثة وأبي عثمان، قالا: أتى معاوية الخبر بحصر عثمان، فأرسل إِلى حبيب بن مسلمة الفهري، فقال: إن عثمان قد حصر، فأشر عليّ برجل ينفذ لأمري ولا يقصر، قال: ما أعرف ذلك غيري، قال: أنت لها، فأشر علي برجل أبعثه على مقدمتك لا تتهم نصيحته، قال: يزيد بن شجعة الحميري، فدعا بهما فقال: النجاء، سيرا فأعينا أمير المؤمنين، وتعجل أنت يا يزيد فإن قدمت يا حبيب وعثمان حي فالأمر أمره، فانفذ لما يأمرك به، وإن وجدته قد قتل فلا تدعن أحداً أشار إليه أو أعان عليه إلا قتلته. وبعث مع يزيد ألف فارس، فسار بعض الطريق، فبلغه الخبر، ثم لقيه النعمان بن بشير ومعه القميص الذي قتل فيه عثمان مخضب بالدماء وأصابع امرأته، فأمضى حبيب إلى معاوية وأقام فأتاه برأيه فرجع حتى قدم دمشق. ولما قدم النعمان بن بشير على معاوية أخرج القميص وأصابع نائلة بنت الفرافصة إصبعان قد قطعتا ببراجمهما وشيء من الكف، وإصبعان مقطوعتان من أصلهما مفترقتان، ونصف الإبهام - فوضع معاوية القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس وبكوا سنة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه، والرجال من أهل الشام لا يأتون النساء، ولا يمسهم الغسل إلا من الاحتلام، ولا ينامون على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشيء أو يفني أرواحهم، فمكثوا يبكون حول القميص سنة، والقميص موضوع كل يوم، وفي أردافه أصابع نائلة معلقة.

استئذان طلحة والزبير عليّاً وحدثنا سيف، عن محمد وطلحة قالا: استأذن طلحة والزبير علياً في العمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة؛ وأحدث أهل المدينة أن يعلموا ما رأي علي في معاوية ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة، أيجسر عليه أو ينكل عنه، وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس، فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي - وكان منقطعاً إلى علي - فدخل عليه فجلس إليه ساعة ثم قال له علي: يا زياد، تيسر؛ فقال: لأي شيء؟ فقال: لغزو الشام، فقال زياد: الأناة والرفق أمثل، وقال هذا البيت:

فخرج زياد على الناس، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: السيف يا قوم، فعرفوا ما هو فاعل، ودعا علي محمد بن الحنفية، فدفع إليه اللواء، وولى عبد الله بن عباس ميمنة، وعمرو بن أبي سلمة - أو عمرو بن سفيان بن عبد الأسد - ولاه ميسرته، ودعا أبا ليلى بن عمرو بن الجراح؛ ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح، فجعله على مقدمته، واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكتب إلى قيس بن سعد أن يندب الناس إلى الشام، وإلى عثمان بن حنيف وإلى أبي موسى مثل ذلك، وأصر على التهيؤ والتجهز

وخطب أهل المدينة فدعاهم إلى النهوض في قتال أهل الفرقة، وقال: انهضوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم، لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق أو تقضوا الذي عليكم.

فبينا هم كذلك إذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر، فقام فيهم فقال: ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم.

ثم أتاه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والإصلاح، فتعبى للخروج نحوهم، فاشتد على أهل المدينة الأمر، فتثاقلوا، فبعث إلى عبد الله بن عمر كُمَيْلا النَخَعِي، فجاء به فقال: انهض معي، فقال: أنا مع أهل المدينة، إنما أنا رجل منهم، فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد، فرجع عبد الله إلى أهل المدينة وهم يقولون: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لمشتبه علينا، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر.

فخرجٍ من تحت ليلته وأخبر أم كلثوم بنت عليٍّ بالذي سمع من أهل المدينة، وأنه يخرج معتمرا مقيماً على طاعة علي ما خلا النهوض؟ وكان صدوقاً فاستقر ذلك عندها، وأصبح علي ☺ فقيل له: البارحة حدث حدثٌ وهو أشد عليك من طلحة والزبير وأم المؤمنين معاوية، قال: وما ذلك؟ فقال: خرج ابن عمر إلى الشام فأتى على السوق، ودعا بالظهر فحمل الرجال وأعد لكل طريق طُلاباً. وماج أهل المدينة، وسمعت أم كلثوم بالذي هو فيه، فأتت علياً فقالت: ما لك لا تَزَند من هذا الرجل؟ وحدثته حديثه وقالت: أنا ضامنة له، فطابت نفسه وقال: انصرفوا، إنه عندي ثقة فانصرفوا.

وكانت عائشة مقيمة بالمدينة تريد عمرة المحرم، فلما قضت عمرتها وخرجت سمعت بما جرى فانصرفت إلى مكة وهي لا تقول شيئاً، فنزلت على باب المسجد وقصدت الحجر فسُترَتْ فيه، واجتمع الناس إليها، فقالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول بالأمس، فبادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، فاجتماعكم عليهم ينكل بهم غيرهم، ويشرد بهم من بعدهم، فقال عبد الله بن عامر الحضرمي: ها أنا لها أول طالب، فكان أول منتدب.

عن الشعبي، قال: خرجت عائشة نحو المدينة من مكة بعد مقتل عثمان، فلقيها رجل من أخوالها، فقالت: ما وراءك. قال: قتل عثمان واجتمع الناس على علي ☺، والأمر أمر الغوغاء. قالت: ما أظن ذلك تاماً، ردوني، فانصرفت راجعة إلى مكة حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان أمير عثمان عليها - فقال: ما ردك يا أم المؤمنين؟ قالت: ردني أن عثمان قتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام.

فكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمي، وذلك أول ما تكلمت بنو أمية بالحجاز ورفعوا رؤوسهم، وقام معهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة وسائر بني أمية. وقد قدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة، ويعلى بن أمية من اليمن، وطلحة والزبير من المدينة، واجتمع ملؤهم بعد نظر طويل في أمورهم على البصرة، وقالت عائشة في مقام آخر: يا أيها الناس، إن هذا حدث عظيم وأمر منكر، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم، لعل الله عز وجل أن يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم.

عن محمد، وطلحة، قالا: كان أول من أجاب إلى ذلك عبد الله بن عامر وبنو أمية، ثم قدم يعلى بن أمية ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف، فأناخ بالأبطح معسكراً، وقدم عليهم طلحة والزبير، فلقيا عائشة ♥، فقالت: ما وراءكما؟ فقالا: إنَّا تحملنا هُراباً من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، فائتمر القوم بالشام.

فقال عبد الله بن عامر: قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته، فقال له طلحة والزبير: فأين؟ قال: البصرة، فإن لي بها صنائع، ولهم في طلحة هوى، فقالوا: يا أم المؤمنين، دعي المدينة واشخصي معنا إلى البصرة فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة، فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا، قالت: نعم.

فانطلقوا إلى حفصة، فقالت: رأي تبعٌ لرأي عائشة، حتى إذا لم يبقَ إلا الخروج، قالوا: كيف نستقل وليس معنا مال نجهز به الناس؟ فقال يعلى بن أمية: معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها، فقال ابن عامر: معي كذا وكذا فتجهزوا بها.

فنادى المنادي: إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب، ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة، فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب - وكانوا جميعاً ألفاً - وتجهزوا بالمال، ونادوا بالرحيل، واستقلوا ذاهبين.

وأرادت حفصة الخروج، فأتاها عبد الله بن عمر فطلب إليها أن تقعد فقعدت، وبعثت إلى عائشة تقول: إن عبد الله حال بيني وبين الخروج، فقالت: يغفر الله لعبد الله.

وخرج المغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص معهم مرحلة من مكة، فقال سعيد للمغيرة: ما الرأي؟ قال: الرأي والله الاعتزال، فإنهم ما يفلح أمرهم، فإن أظفره الله أتيناه فقلنا: كان صغونا معك، فجلسا.

عن الأغر، قال: لما اجتمع إلى مكة بنو أمية ويعلى بن أمية، وطلحة والزبير، ائتمروا أمرهم، واجتمع ملؤهم على الطلب بدم عثمان وقتال السبئية حتى يثأروا، وأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة، واجتمع القوم على البصرة وردوها عن رأيها، وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، فكان يصلي بهم.

عن، ابن أبي مليكة، قال: سمعت عائشة بخبر عثمان في الطريق، فرجعت فقالت: ألا إن عثمان عدت عليه الغوغاء، وضعف عنه إصحابه، فقتلوه مظلوماً، وإن علياً ☺ بويع فلم يقو عليهم، ولا ينبغي له أن يقيم معهم، فاطلبوا بدم عثمان، فخرجت لتنهض الناس وترجع.

خروج علي ☺ إلى الربذة يريد البصرة وحدَثنا سيف، عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد، قال: جاء علياً الخبر عن طلحة والزبير وأم المؤمنين، فأمر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة قُثَم بن العباس، وخرج وهو يرجو أن يأخذهم بالطريق، فاستبان له بالربذة أن قد فاتوه.

عن محمد وطلحة، قالا: خرج عليّ ☺ على تعبيته التي تعبى بها إلى الشام، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في تسعمائة رجل، وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج.

عن طارق بن شهاب، قال: خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان ☺، فلما انتهيا إلى الربذة إذا الرفاق يحدو بعضهم بعضاً، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أمير المؤمنين، فأتيته، فلما انصرف من الصلاة أتاه ابنه الحسن، فجلس فقال: قد أمرتك فعصيتني، فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك. قال علي ☺: لا تزال تَخِنّ خنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان ☺ أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود العرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله، فقال: أي بني أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان؟ فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به. وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار؛ فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر. أما قولك: حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهناً على أهل الاسلام، ولا والله ما زلت مقهوراً مذ وليت، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي. وأما قولك: اجلس في بيتك؛ فكيف لي بما قد لزمني، وإذا لم أنظر فيما قد لزمني من هذا الأمر فمن ينظر فيه. فكف يا بني.

عن ابن أبي مليكة، قال: قيل لعلي بالربذة، يا أمير المؤمنين، ما فكرتك في هذا الأمر، إن البصرة لفي يديك، وإن الكوفة لفي يديك، فقال: ويحكم ابتليت بثلاثة ما رمي بمثلهم أحد قط، ابتليت بفتى العرب وأجودهم طلحة، وبفارس العرب وأحربهم الزبير، وبأم المؤمنين أطوع الناس في الناس.

دخولهم البصرة والحرب بينهم وبين عثمان بن حنيف وحدثنا سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما كان الناس بفناء البصرة لقيهم عمير بن عبد الله التميمي، فقال: يا أم المؤمنين، أنشدك الله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحداً، فأرسلت ابن عامر وكتبت إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس، فدعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين وألزه بأبي الأسود الدؤلي، فقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها. فخرجا فانتهيا إليها، فاستأذنا فأذن لهما، فقالا: إن أميرنا بعثنا إليك يسألك عن مسيرك، فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا.

فخرجا من عندها فأتيا طلحة، فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قالا: ألم تبايع علياً؟ قال: بلى، واللج على عنقي، وما أستقيل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان، ثم أتيا الزبير فقالا له مثل ما قالا لطلحة، فقال مثل ذلك. فنادى عثمان بن حنيف في الناس وأمرهم بلبس السلاح، وقام رجل فقال للناس: يا أيها الناس، إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فقد جاءوا من المكان الذي يأمن به الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان. أطيعوني، وردوهم. فقال الأسود بن سريع: إنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان، فحصبه الناس.

فتكلم طلحة فدعا إلى الطلب بدم عثمان، فتحاصب الناس، فتكلمت عائشة وقالت: ينبغي أخذ قتلة عثمان، فتحاصب القوم.

وأقبل حكيم بن جبلة، فأنشب القتال، وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم، فغدا حكيم بن جبلة يُبَرْبر وفي يده الرمح، فقال له رجل من عبد القيس: من الذي تسب؟ قال: عائشة، قال: يا بن الخبيثة، ألأم المؤمنين تقول هذا، فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله. ثم اقتتلوا قتالاً شديداً، ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون، فقالت عائشة: لا تقتلوا إلا من قاتلكم، ونادوا: من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان، فأنشب القتال، فاقتتلوا أشد قتال.

وكانت الوقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخرة سنة ست وثلاثين.

فلما نزل علي ☺ على الثعلبية أتاه الخبر بما لقي عثمان بن حنيف ثم أتاه ما لقي حكيم بن جبلة، ولما انتهوا إلى ذي قار انتهى إليه فيها عثمان بن حنيف، وليس في وجهه شعرة. وأتاه الخبر بما لقيت ربيعة، وخروج عبد القيس، وخرج إلى علي خلق كثير من أهل الكوفة، فدعا على القعقاع بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة، وقال: الق هذين الرجلين فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظم عليهما الفرقة، فخرج القعقاع حتى أتى البصرة، فبدأ بعائشة فسلم عليها، فقال: أي أماه، ما أشخصك وما أقدمك على هذه البلدة؟ قالت: أي بني، إصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما، فبعثت إليهما، فجاءا، فقال: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها فقالت: الإصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما، أمتابعين أم مخالفين؟ قالا: متابعين، قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح، فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا يصلح، قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، وإن أعمل به كان إحياء للقرآن، فقال: قد قتلتما قتلة أمير المؤمنين من أهل البصرة، قتلتم ستمائة إلا رجلاً، قالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟ قال: أقول إن هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، ودَركٌ يثأر هذا الرجل، وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة الشر، فكونوا مفاتيح الخير، فقالوا له: قد أحسنت فارجع، فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع إلى علي، فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، وأقبلت وفودَ اَلبصرة نحو عليّ.

وجاءت وفود تميم وبكر، فجمع علي الناس وقام، فذكر إنعام الله تعالى على هذه الأمة بالاجتماع إلى أن قال: ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، وحسدوا من أفاءها الله عليه، ألا وإني راحل غداً، فارتحلوا، ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء، وليُغْنِ السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر، منهم عِلْباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة القيسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، والأشتر، في عدة ممن سار إلى عثمان، ورضي مسير من سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء، وخالد بن ملجم، وتشاوروا، فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله علي وهو أبصر الناس بكتاب الله، وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، فكيف به إذا شام القوم وشامّوه، ورأوا قتلنا، وقتلنا في كثرتهم، إياكم والله ترادون؟

فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأيُ الناس فينا واحد، وإن يصطلحوا على دمائنا فهلموا نتواثب على علي فنلحقه بعثمان؛ فتعود فتنة يُرضَى منا فيها بالسكوت. فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت، نحن نحو من ستمائة، وهذا ابن الحنظلية وأصحابه في خمسة آلاف بالأسواق، إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً.

وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم وارجعوا، فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به، وامتنعوا من الناس. قال ابن السوداء: بئس ما رأيت، ودّ والله الناس أنكم على جديلة، ولم تكونوا مع أقوام براء، ولو كان الذي تقول لتخطفكم كل شيء. وقال ابن السوداء: إذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال، ولا تدعوهم يفرغون للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع؛ فيشغل الله علياً وطلحة والزبير، ومن رأى رأيهم عما تكرهون فتفرقوا على مثل ذلك والناس لا يشعرون.

وأصبح عليّ ☺ على ظهر، فمضى ومضى الناس، وقام علي فخطبهم وقال: يا أيها الناس، كفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم فإنهم إخوانكم، ومضى حتى أطل على القوم، فبعث إليهم حكيم بن سلامة، ومالك بن حبيب، فقال: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر، فقال له الأحنف بن قيس: إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم ستقتل رجالهم وتسبي نساءهم. فقال: ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحل هذا إلا ممن تولى وكفر، وهم قوم مسلمون، فهل أنت مغن عني قومك؟ قال: نعم، فاختر مني واحدة من اثنتين؛ إما أن آتيك فأكون معك بنفسي، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف.

فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القعود وارتحل حتى نزل بحذاء القوم والناس لا يشكون في الصلح، ومع عائشة ثلاثون ألفاً، ومع علي عشرون ألفاً، فلما نزل الناس واطمأنوا خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتواقفوا، وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح ووضع الحرب، فافترقوا عن موقفهم على ذلك، ورجع علي إلى عسكره، ورجع وطلحة والزبير إلى عسكرهما.

أمر القتالَ وبعث عليّ من العشي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير، وبعثاهما من العشي محمد بن طلحة إلى عليّ، وأن يكلم كل واحد منهما أصحابه، فقالوا: نعم، فلما أمسوا، أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، ما خلا أولئك الذين هضبوا على عثمان، فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه، والنزوع عمَّا اشتهى الذين اشتهوا، وركبوا ما ركبوا، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر، واستسروا بذلك خشية أن يفطن لهم، فغدوا مع الغلس، وما يشعر بهم أحد غير جيرانهم، فخرج مُضَريهم إلى مضرِيِّهم، ورَبعيهم إلى رَبعيِّهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، حتى وضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم وخرج الزبير وطلحة فبعثا إلى الميمنة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وإلى الميسرة عبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد، وثبتا في القلب، وقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً، فقالا: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء، ويستحل الحرمة، وإنه لن يطاوعنا، ثم رجعا بأهل البصرة.

فسمع علي وأهل الكوفة الصوت، وقد وضعوا رجلاً قريباً من عليّ ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال ذلك الرجل: ما فاجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا، فرددناهم من حيث جاءوا، فوجدنا القوم على رِجْل فركبونا، وثار الناس، وقال علي لصاحب ميمنته: ائت الميمنة، ولصاحب ميسرته ائت الميسرة، ولقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء، ونادى عليّ في الناس: كفوا، فكان رأيهم جميعاً ألا يقتتلوا حتى يبدؤوا.

وأقبل كعب بن سعد حتى أتى عائشة ☻، فقال: أدركي، فقد أبى القوم إلا القتال، لعل الله يصلح بك. فركبت، وألبسوا هودجها الأدراع، ثم بعثوا جملها، فلما برزت - وكانت بحيث تسمع الغوغاء - وقفت، فقالت: ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر، قالت: بخير أم بشر؟ قالوا: بشر. قالت: وأي الفريقين كانت منهم هذه للضجة فهم المهزومون. فما فجئها إلا الهزيمة، فمضى الزبير في وجهه، فسلك وادي السباع، وجاء طلحة سهم غَرْب يخُل ركبتَه بصفحة الفرس، فلما امتلأ مَوْزَجه دماً وثقل قال لغلامه: ابغني مكاناً أنزل فيه، واقتتل الناس وأقبلوا في هزيمتهم يريدون البصرة، فلما رأوا الجمل طافت به مضر، فقالت عائشة: خل يا كعب عن البعير وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه، ودفعت إليه مصحفاً.

وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح، فاستقبلهم كعب بالمصحف، فرشقوه رشقا واحداً، فقتلوه، ثم رموا أم المؤمنين في هودجها، فجعلت تنادي: يا بَني البقية البقية - ويعلو صوتها - اذكروا الله والحساب، ويأبون إلا إقداماً، فقالت: أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم، فضجوا بالدعاء، فسمع علي، فقال: ما هذه الضجة؟ قالوا: عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم، فأقبل يدعو ويقول: اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم. وأرسلت إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث: اثبتا مكانكما، فاجتلدوا قدام الجمل، والمجنبتان على حالهما.

وكان القتال الأول يتسحر إلى انتصاف النهار، وأصيب فيه طلحة ☺، وذهب فيه الزبير، فلما أووا إلى عائشة وأبى أهل الكوفة إلا القتال، ولم يريدوا إلا عائشة، اقتتلوا حتى تحاجزوا بعد الظهر، وذلك يوم الخميس في جمادى الآخرة، فاقتتلوا صدر النهار مع طلحة والزبير، وفي وسطه مع عائشة، وتزاحف الناس، فهزمت يمن البصرة يمن الكوفة، وربيعة البصرة ربيعة الكوفة، ونهد علي بمضر الكوفة إلى مضر البصرة.

واقتتلت المجنبتان حين تزاحفتا قتالاً يشبه ما فيه القَلْبان، وأقبل أهل اليمن على راية علي فقتل على راية علي من أهل الكوفة عشرة، كلما أخذها رجل قتل قيل: وكان العشرة خمسة من همذان وخمسة من سائر اليمن.

ولما رأت الكماة من مضر الكوفة ومضر البصرة الصبر جعلوا يتوخون الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رُئيت وقعة قط قبلها ولا بعدها، ولا يسمع بها أكثر يداً مقطوعة ورجلاً مقطوعة، منها، لا يدرى من صاحبها.

فلما ظهر الخلل في العسكرين رموا الجمل، وقالوا: لا يزول القوم أو يصرع الجمل، وأزرت مجنبتا عليّ فصارت في القلب، وكانت أم المؤمنين في حلقة من أهل النجدات والبصائر، وكان لا يأخذ أحد بالزمام إلا كان كمن يحمل الراية، وكان لا يأخذه إلا معروف عند المُطيفين بالجمل، فإن القوم ليقتتلون عليه، وما رامه أحد من أصحاب علي إلا قتل أو أفلت، ثم لم يعد. ولما اختلط الناس بالقلب جاء عدي بن حاتم فحمل عليه، ففقئت عينه ونكل.

وحدثنا سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان لا يجيء رجل فيأخذ بالزمام حتى يقول: أنا فلان بن فلان، فجاء عبد الله بن الزبير، فقالت: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن الزبير، فقالت: واثكْل أسماء. وانتهى إلى الجمل الأشتر، وعدي بن حاتم، فخرج عبد الله بن حكيم بن حزام إلى الأشتر، فاختلفا ضربتين، فقتله الأشتر، ومضى إليه عبد الله بن الزبير فضربه الأشتر على رأسه، فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبد الله الأشتر ضربة خفيفة، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وخرا إلى الأرض يعتركان.

وحدثنا سيف، عن الصعب بن عطية، عن أبيه، قال: لا والله ما بقي من بني عامر يومئذ شيخ إلا أصيب قدام الجمل.

وحدثنا سيف، عن محمد وطلحة، قالا: كان من آخر من قاتل ذلك اليوم زُفَر ابن الحارث، فزحف إليه القعقاع، وقال: يا بجير بن دُلجة، صِحْ بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين، فاجتث ساق البعير وأقطع بطانه وحملا الهودج فوضعاه.

وكان رجل يومئذ يقول: يال مضر؟ علام يقتل بعضنا بعضَاً، فنادوا لا ندري إلا أنَا إلى قضاء.

عن حكيم بن جابر، قال: قال طلحة يومئذ: اللهم اعط عثمان مني حتى يرضى، فجاءه سهم غرب وهو واقف، فخلى ركبته بالسرج، فمضى به إلى دار من دور البصرة خربة، فمات فيها.

عن أبي بشير، قال: شهدت الجمل، فوالله ما سمعت دق القصارين إلا ذكرت يوم الجمل.

عن ميسرة أبي جميلة، أن محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر أتيا عائشة وقد عقر الجمل، فاحتملا الهودج، فنحياه، فقال عليّ: ادخلا بها البصرة، فأدخلاها دار عبد الله بن خلف الخزاعي.

عن محمد وطلحة، قالا: أمر علي نفراً بحمل الهودج من بين القتلى، وقد كان القعقاع وزفر بن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فوضعاه إلى جنب البعير، فأقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه نفر، فأدخل يده فيه، فقالت: من هذا؟ قال: أخوك البر، قالت: عققت، فأبرزوها بهودجها من القتلى، فوضعوها ليس قربها أحد، وكأن هودجها فرخ مقصب مما فيه من النبل. وجاء أعين بن ضبيعة المجاشعي حتى اطلع في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله، فقال: والله ما أرى إلا حُميْراء، قالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك. فقتل بالبصرة، وسلب، وقطعت يده، ورمي به عرياناً في خربة من خراب الأزد، فارتقى إليها عليّ بن أبي طالب ☺، فقال: أي أماه، يغفر الله لنا ولكم، قالت: غفر الله لنا ولكم..

وحدثنا سيف، عن الصعب بن حكيم بن شريك، عن أبيه، عن جده قال: انتهى محمد بن أبي بكر إلى الهودج ومعه عمار بن ياسر، فقطعا الأنساع عن الهودج واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده، وقال: أخوك محمد، قالت: مذمم، قال: يا أخية، هل أصابك شيء؟ قالت: ما أنت من ذلك في شيء، قال: فمن إذن، ألضلال؟ قالت: بل الهداة. وانتهى إليها علي ☺، وقال: كيف أنت يا أماه؟ قالت: بخير، قال: يغفر الله لك، قالت: ولك.

عن محمد وطلحة، قالا: لما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة، فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية ابنة الحارث بن طلحة، وهي أم طلحة الطلَحات.

من انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد ومضى الزبير في صدر يوم الهزيمة راحلاً نحو المدينة وكر عليه ابن جرموز، فطعنه فدق صلبه وأخذ رأسه. ودخلوا على عائشة، فقالت: والله لوودت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. ودخلوا على علي فقال: لوودت أني مت قبل هذا بعشرين سنة. وبلغ قتلى يوم الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب عليّ، ونصفهم من أصحاب عائشة، من الأزد ألفان، ومن سائر اليمن خمسمائة، ومن مضر ألفان وخمسمائة، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضبة، وخمسمائة من بكر بن وائل.

وقتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف، ولم ير يوم كان أكثر من يد مقطوعة، ورجل مقطوعة لا يدرى من صاحبها منه. وقتل من أهل البصرة يومئذ عشرة آلاف من أصحاب علي خمسة آلاف، وقتل من بني عدي يومئذ سبعون شيخاً كلهم قد قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن.

دخول علي ☺ على عائشة ♥ ودخل عليّ البصرة يوم الاثنين، وانتهى إلى المسجد، فصلى فيه، فأتاه الناس، ثم راح إلى عائشة على بغلته، فلما انتهى إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي وهي أعظم دار بالبصرة، وجد النساء تبكين على عبد الله وعثمان ابني خلف، قتل أحدهما مع عليَ والآخر مع عائشة، وصفية بنت الحارث تبكي مختمرة، فلما رأته قالت: يا عليّ، يا قاتل الأحبة، يا مفرق الجماعة، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه، فلم يرد عليها شيئاً.

فدخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها، وقال: جَبَهَتْنَا صفية، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم.

بيعة أهل البصرة علياً وقسمة ما في بيت المال عليهم ثم بايعه أهل البصرة، ونظر في بيت مال البصرة فإذا به ستمائة ألف وزيادة، فقسمها على من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة، وقال: لكم إن أظفركم الله بالشام مثلها إلى أعطياتكم، وخاض في ذلك السبئية، وطعنوا على علي ☺ من وراء وراء.

تجهيز علي ☺ عائشة ♥ من البصرة وجهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهز يا محمد، فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت وودعوها وودعتهم وقالت: الله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي لمن الأخيار.

وقال علي ☺: يا أيها الناس، صدقت والله وبرَت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها علي أميالاً، وسرح بنيه معها يوماً.

وقصدت عائشة مكة، فأقامت بمكة إلى الحج، ثم رجعت إلى المدينة، وانصرف مروان والأسود بن أبي البختري إلى المدينة، ورجع علي إلى منزله.

تأمير ابن عباس على البصرة وتولية زياد الخراج وأمر على البصرة ابن العباس، وولى زياداً الخراج وبيت المال، وأمر ابن العباس أن يسمع منه، وارتحلت السبئيةبغير إذن علي، فارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إِن كانوا أرادوه.

وعلم أهل المدينة بيوم الجمل يوم الخميس قبل مغرب الشمس من نَسْر مر بما حول المدينة، معه شيء متعلقة، فتأمله الناس فوقع، فإذا هو كف فيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد " وجعل من بين مكة والمدينة ممن قرب من البصرة أو بعد، يعلمون بالوقعة مما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام.

عن أبي أسماء مولى أبي جعفر، عن أبي رافع: أن رسول الله قال لعلي بن أبي طالب **إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر**، قال: أنا يا رسول الله، قال: **نعم**، قال: أنا، قال: **نعم**، قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله، قال: **لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها**.

عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ما ذكرت عائشة مسيرها قط إلا بكت حتى تبل خمارها وتقول: " ليتني كنت نسياً منسياً ".

قال سفيان: النسي المنسي: الحصاة الملقاة.

عن عائشة ♥ أنها كانت تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ولم أكن خرجت على علي ☺ كان أحب إلي من أن يكون لي من رسول الله عشرة كلهم مثل أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

عن سليمان بن صرد، قال: لما فرغ عليّ من أمر الجمل قدمت عليه البصرة فقال: بويعت ورجعت عن نصرتك، وما كنت أعرفك به، وعنده الحسن بن علي ☻، فقلت: لا تؤنبنا واستصف كدر قلوبنا، فإن السوط يطير وعمود حربك كما هو، وقد بقي من أمرك ما تعرف به الغاش من الناصح، قال: لا، ولكن وجدنا خزاعة أقل شيء شكراً، فقلت: قد نصحنا وشكرنا من هو خير منك، لله ولرسوله. ثم قمت فأتيت ولده الحسن، فقلت: لا وصلتك رحم، تسمع أمير المؤمنين يقول لي ما يقول ثم لا تعينني عليه، فقال أبا مطرف: لا يهولنك الذي سمعت، فوالله الذي لا إله غيره، لقد رأيته يوم الجمل حيث أخذت السيوف مأخذها من جماجم الرجال يتغوث بي ويقول: يا حسن، وودت أن أباك هلك قبل اليوم بعشرين سنة.

ومن الحوادث في هذه السنة: قتل محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة

وكان يحرض على عثمان، وهو الذي سير المصريين إليه، فلما خرج المصريون مع محمد بن أبي بكر أقام هو بمصر، وأخرج عنها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وضبطها، فلم يزل مقيماً بها حتى قتل عثمان وبويع لعلي ☺، فأظهر معاوية له الخلاف وتابعه على ذلك عمرو بن العاص، وسار معاوية وعمرو إلى محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى عريش مصر في ألف رجل، فتحصن بها، وجاءه عمرو فنصب المنجنيق عليه حتى نزل في ثلاثين من أصحاب، فأخذوه وقتلوه، هذا قول الواقدي.

وأما هشام بن محمد، فإنه يزعم أن محمد بن أبي حذيفة قتل بعد قتل محمد بن أبي بكر، وأنه لما دخل عمرو بن العاص إلى مصر بعث به إلى معاوية فحبسه، وكان ابن خال معاوية، وكان معاوية يحب أن يفلت فهرب من السجن، فقال معاوية: من يطلبه؟ فخرج عبد الله بن عمر الخثعمي، فوجده، فقتله وذلك في سنة ثمان وثلاثين.

* * *

فصل في إظهار معاوية الخلاف لعلي

وفي سبب إظهار معاوية مخالفة علي ☺، فإنه بلغه أن علياً ☺، قال: لا أقره على عمله، فقال معاوية: والله لا ألي له شيئاً ولا أبايعه، ولا أقدم عليه، فبعث إليه جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الطاعة فأبى، فحينئذ عزم علي ☺ على الخروج إلى صفين.

وقال سهل بن سعد: دعا عليّ ☺ قيس بن سعد الأنصاري، فقال له: سر إلى مصر فقد وليتكها، فإذا أنت قدمتها فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب وارفق بالعامة والخاصة. فلما قدم أخذ البيعة لعلي ☺، واستقامت له مصر، إلا أن قرية منها يقال لها: " خِربتا " فيها أناس قد أعظموا قتل عثمان ☺، وبها رجل يقال له: يزيد بن الحارث من بني مدلج. فبعث إلى قيس: أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس. فكتب معاوية إلى قيس بن سعد: سلام عليك، أما بعد، فإنكم كنتم نقمتم على عثمان في أثرةٍ رأيتموها، أو ضربة بسوط ضربها، فإنكم قد علمتم أن دمه لم يكن يحل لكم، فتب إلى الله يا قيس بن سعد، فإنك كنت من المجلبين على عثمان بن عفان، فأما صاحبك فقد استيقنا أنه الذي أغرى الناس به، وحملهم على قتله، فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل، تابعنا على أمرنا، ولك سلطان العراق إذا ظهرت ما بقيت، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان. وسلني غير هذا مما تحب.

فلما جاءه كتاب معاوية أحب أن يدافعه، فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغي كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان، وذلك أمر لم أفارقه، وذكرت أن صاحبي هو الذي أغرى الناس بعثمان، وهذا لم أطلع عليه، وأما ما سألتني من متابعتك وعرضت علي من الجزاء فيه فهذا أمر لي فيه نظر، ولن يأتيك شيء تكرهه.

فلما قرأ معاوية الكتاب كتب إليه: أما بعد، فإني لم أرك تدنو فأعدك سلماً، ولم أرك تباعد فاعدك حرباً، وليس مثلي ينخدع ومعه عدد الرجال، وبيده أعنة الخيل.

فلما قرأ كتاب معاوية، ورأى أنه لا يقبل منه المدافعة، كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فالعجب العجيب من اغترارك وطمعك في أن تسومني للخروج من طاعة أولى الناس بالإمارة، وأقولهم للحق، وأقربهم من رسول الله ﷺ وتأمرني بالدخول في طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلهم سبيلاً، وقولك إني مالىء عليك مصر خيلاً ورَجْلاً، فوالله لأشغلنك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك، إنك لذو جَد، والسلام.

فلما أتى معاوية كتاب قيس أيس منه، وثقل عليه مكانه.

قال الزهري: كان معاوية وعمرو بن العاص جاهدين أن يخرجا قيساً من مصر ليغلبا عليها، وكان قد امتنع منها بالدهاء والمكايدة، فلم يقدرا عليه حتى كاد معاوية قيس بن سعد من قِبَل علي، فكان معاوية يقول: ما ابتدعت مكايدة قط كانت أعجب عندي من مكايدة كدت بها قيساً من قبل علي، فكتبت إلى أهل الشام: لا تسبوا قيساً فإنه لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته سراً. ألا ترونه يحسن إلى كل راكب منكم، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم من أهل خِرِبْتَا، يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم.

فبلغ ذلك علياً فاتهم قيساً وكتب إليه يأمره بقتال أهل خِرِبْتَا، وأهل خربتا يومئذ عشرة آلاف، فأبى وكتب إلى علي: إنهم وجوه أهل مصر، وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم، وأجري عليهم أعطياتهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فأبى علي ☺ إلا قتالهم، وأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى علي: إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك، وابعث عليه غيري، فبعث الأشتر إلى مصر أميراً عليها حتى إذا صار بالقلزم سقي شربة عسل فيها سم كان فيها حتفه.

فلما بلغ علياً: وفاة الأشتر بالقلزم بعث محمد بن أبي بكر أميراً على مصر. هذا قول الزهري.

وقال هشام بن محمد: إنما بعث الأشتر بعد هلاك محمد بن أبي بكر، ولما جاء علياً مقتل محمد بن أبي بكر علم أن قيساً كان ينصحه فأطاعه في كل شيء.

قال علماء السير: وكان عليَ ☺ قد كتب عهد محمد بن أبي بكر لغرة رمضان، فلم يلبث محمد شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك الذين كان قيس وادعهم، وقال: يا هؤلاء، إما أن تدخلوا في طاعتنا، وإما أن تخرجوا من بلادنا، فبعثوا إليه: دعنا حتى ننظر، فأبى وبعث إليهم رجلاً فقتلوه، ثم بعث آخر فقتلوه.

وفي هذه السنة قدم ماهَويهِ مِرْزبان مَرْو على عليّ بن أبي طالب ☺ بعد الجمل مقراً بالصلح، فكتب له عليّ كتاباً إلى دهاقين مرو والأساورة بأنه قد رضي عنه. ثم إنهم كفروا بعد ذلك.

وفي هذه السنة بايع عمرو بن العاص معاوية ووافقه على محاربة علي ☺ وكان السبب أنه لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص من المدينة، وقال: من لم يستطع نصر هذا الرجل فليهرب، فسار وسار معه ابناه، فبينما هو في بعض الأماكن مر به راكب، فقال: ما الخبر؟ قال: تركت الرجل محصوراً، ثم مكثوا أياماً فمر بهم راكب، فقال: قتل عثمان وبويع لعلي.

فارتحل عمرو وابناه يبكي بكاء المرأة ويقول: واعثماناه، حتى نزل دمشق، وبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة، فقال: استأنِ وانظر ما يصنعون، فأتاه الخبر بأن طلحة والزبير قتلا، فارتج عليه أمره، فقيل له: إن معاوية يحرض على الطلب بدم عثمان، فقال لابنيه: ما تريان؟ فقال عبد الله: أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه، فقال محمد: أنت ناب من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر، فقال: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي، وأسلم لي في ديني. وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي هو أنبه لي في دنياي وشر لي في آخرتي.

ثم خرج عمرو حتى قدم على معاوية، فرأى أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال: عمرو أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم - ومعاوية لا يلتفت إليه - فدخل إلى معاوية فقال له: والله إن أمرك لَعَجب، لا أراك تلتفت إلى هؤلاء، أما إن قاتلنا معك فإن في النفس ما فيها حتى نقاتل من تعلم فضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا، فصالحه معاوية بعد ذلك وعطف عليه.

وفي هذه السنة خروج علي بن أبي طالب إلى صفين.

خرج عليٌّ ☺ فعسكر بالنُخَيْلَة، وقدم عبد الله بن عباس ثم نهض معه البصرة إلى الكوفة، فتهيأ منها إلى صفين، واستشار الناس فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم، وأشار آخرون بالسير بنفسه، فأبى إلا المباشرة، فجهز الناس، فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمرو بن العاص فاستشاره وقال: يا أبا عبد الله جهز الناس، فجاء عمرو فحض الناس، وضعف أمر علي، وقال: إن أهل البصرة مخالفون لعلي، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة، فالله الله في حقكم أن تضيعوه.

وجعل معاوية يتأنى في أمره ومسيره، وبعث عليّ ☺ زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف، وبعث معه شريح بن هانيء في أربعة آلاف، وخرج علي من النخَيلة بمن معه، فلما دخل المدائن شخص معه من فيها من المقاتلة، ولما عبر الفرات قدم زياداً وشريحاً أمامه، فلقيهما أبو الأعور السلمي عمرو بن سفيان في جند من أهل الشام، فأرسلا إلى علي يخبرانه، فبعث علي الأشتر إلى النضر وشريح وقال: إذا قدمت عليهم، فأنت أمير، عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك حتى تدعوهم وتسمع قولهم، واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً، وقف من أصحابك وسطا، فإني حثيت السير في أثرك إن شاء الله تعالى.

وكتب إليهما: إني قد أمرت عليكما مالكاً، فاسمعا له وأطيعا. وقدم الأشتر على القوم، وكف عن القتال حتى إذا كان المساء حمل عليهم أبو الأعور، فثبتوا له، واضطربوا له ساعة، ثم انصرف أهل الشام، ثم خرج إليهم من الغد هاشم ابن عتبة الزهري في خيل ورجال، فاقتتلوا يومهم ذلك، وحمل عليهم الأشتر فقتل عبد الله بن المنذر التنوخي، وحجز الليل بينهم، فلما أصبحوا انصرف أهل الشام تحت الليل، فقدم الأشتر بمن معه، ولحقه علي، فأمر الناس فوضعوا الأثقال وذهب شباب الناس يستقون الماء، فمنعهم أهل الشام فاقتتلوا على الماء، وكان معاوية قد اختار موضعاً سهلاً إلى جانب شريعة في الفرات، ليس ثمة غيرها، فجاء أصحاب علي فأخبروه بعطش الناس، وإنهم لم يجدوا غير شريعة القوم، فقال: قاتلوهم عليها، فقال الأشعث بن قيس: أنا أسير إليهم، فقال علي: سر.

فسار في أصحابه، فثاروا في وجوههم، فتراموا بالنبل، وتطاعنوا بالرمح، واجتلدوا بالسيوف، وأتى أهل الشام يزيد بن أسد البجلي مدداً، وخرج عمرو بن العاص في جند كثير يمد أبا الأعور ويزيد بن أسيد، وجاء الأشتر يمد الأشعث بن قيس، وشبث بن ربعي، فاشتد القتال، وأنشأ عبد الله بن عوف الأزدي مرتجزاً

* * *

دعاء علي معاوية إلى الطاعة والجماعة:

ومكث علي يومين لا يرسل إلى معاوية ولا يرسل إليه معاوية، ثم أرسل إليه علي رسولاً يدعوه إلى الله وإلى الطاعة، فأتاه فقال: إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله جازيك بما قدمت يداك، وإننا ننشدك الله أن تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها، فقال للمتكلم: هلا أوصيت صاحبك بذلك؟ فقال: إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول فقال معاوية: ونُطل دم عثمان، لا والله لا أفعل ذلك أبداً.

فاقتتلوا شهر ذي الحجة جميعه، وربما اقتتلوا في اليوم مرتين.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ☺.

* * *

سنة سبع وثلاثين

وذلك أن علياً ☺ ومعاوية توادعا على ترك الحرب في شهر المحرم طمعاً في الصلح، واختلفت بينهما الرسل، فلم تنفع.

قال عدي بن حاتم الطائي: كنا بصفين في يوم حار مع علي ☺، فقصدته وهو في سبعمائة من ربيعة، فقلت له: ألا تروح إلى القوم، فإما لنا وإما علينا، فسكت فلم يجبني، فقلت: ما لي أراك مخيماً، ألا تروح إلى القوم فأما لنا وأما علينا، فقال: ادن منا يا ابن حاتم، فتخطيت الناس إليه حتى وضعت يدي على ركبته، فقال لي: يا عدي، إن معاوية مع قوم يطيعونه، وأنا مع قوم يعصوني، فأما الذين معي فأشد مكايدة من الذين مع معاوية، فعذرته ورحمته رحمة شديدة ما رحمت أحداً مثلها قط.

قال علماء السير: فتناهدوا عند انسلاخ المحرم، وبات علي ☺ عنه يعبي الكتائب، ويقول: لا تقاتلوهم إلا أن يبدؤوكم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم.

وبعث على خيل أهل الكوفة الأشتر، وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف، وعلى رجالة أهل الكوفة عمار بن ياسر، وعلى رجالة أهل البصرة قيس ابن سعد وهاشم بن عتبة مع ابنه.

وبعث معاوية على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى مقدمته أبو الأعور السلمي، وكان على خيول الشام كلها عمرو بن العاص، ومسلمة بن عقبة على رجالة أهل دمشق، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم. وبايع رجال من أهل الشام على الموت، فعقلوا أنفسهم بالعمائم وكانوا خمسة صفوف.

ثم اقتتلوا فكانوا يتبارزون، التقوا جميعاً في بعض الأيام، لا ينصرف بعضهم عن بعض إلا إلى الصلاة، وكثرت القتلى بينهم، ثم تحاجزوا عند الليل، ثم أصبحوا على القتال، وكان عليّ ☺ يتقدم حتى أن النبل لتمر بين عاتقه ومنكبه، وكان معاوية يقول: أردت أن أنهزم، فذكرت قول ابن الإطنابة، والإطنابة امرأة من بَلْقِيْن **فيمنعني هذا القول من الفرار**

وكان عمار يقول: والله لو ضربونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على الحق وهم على الباطل. وكان يصيح بعمرو بن العاص: يا عمرو، بعت دينك بمصر تباً لك تباً طالما بغيت في الإسلامِ عوجاً. ثم قال لأصحابه: لقد قاتلت صاحب هذه الراية - يعني عمرو بن العاص - ثلاثا مع رسول الله ، وهذه الرابعة.

وكان عليَ ☺ يحمل ويضرب حتى ينثني سيفه، فقتل عمار، فقال عبد الله ابن عمرو لأبيه: يا أبه، قتلتم هذا الرجل في يومكم هذا، وقد قال فيه رسول الله : **ويحك تقتلك الفئة الباغية** فقال عمرو: أتسمع ما يقول عبد الله، فقال معاوية: إنك شيخ أخرق، ولا تزال تحدث بالحديث وأنت تدحض في بولك، أو نحن قتلنا عماراً، إنما قتل عماراً من جاء به.

عن عبد الله بن الحارث، قال: إني لأسير مع معاوية في منصرفه عن صفين بينه وبين عمرو بن العاص، فقال عبد الله بن عمرو: يا أبه، سمعت رسول الله يقول لعمار: **ويحك يا ابن سمية، تقتلك الفئة الباغية** فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع مايقول هذا؟ قال: فقال معاوية: ما تزال تأتينا بهنة تدحض بها في بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذين جاؤوا به.

قال علماء السير: ولما قتل عمار حمل عليّ ☺ وأصحابه، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وقتلوا كل من انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية، وعلي ☺ ثم نادى علي: يا معاوية، علام يقتل الناس بيننا، هلم أحاكمك إلى الله، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: أنصفك الرجل، فقال معاوية: إنك تعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله، قال له عمرو: ما يجمل بك إلا مبارزنه، فقال معاوية: طمعت فيها بعدي.

ثم اقتتل الناس ليلة إلى الصباح، وهي ليلة الهرير، حتى تقصفت الرماح، ونفذ النبل، وصار الناس إلى السيوف، وأقبل علي ☺ يسير في الناس ويحرض، والأشتر في ميمنته، وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والناس يقتتلون من كل جانب.

أخبر أبو الحسن بن البراء، قال: لما ولي علي ☺ أقام بالمدينة أربعة أشهر، ثم خرج إلى البصرة، وكانت وقعة الجمل في سنة ست وثلاثين، ثم رجع علي إلى الكوفة، ثم سار إلى صفين، وكانت الحرب سنتين، وقتل بصفين سبعون ألفاً: خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، منهم خمسة وعشرون بدرياً. وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام، وكان فيه تسعون وقعة، وفي سنة ثمان وثلاثين التقى الحكمان.

عن محمد بن سيرين، قال: قتل يوم صفين سبعون ألفاً، ما عرفت عدتهم إلا بالقصب، كان يوضع على كل قتيل قصبة.

* * *

فصل

فلما رأى عمرو بن العاص أن أمر العراق قد اشتد وخاف الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة، قال: نعم قال: نرفع المصاحف ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبل، وقال بعضهم: بل نقبل، فتكون فرقة تقع بينهم، وإن قالوا: نقبل، رفعنا هذا القتال إلى أجل.

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله ونثيب إليه، فقال علي ☺: ما رفعوها إلا خديعة، فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال: إني إنما أقاتلهم بحكم الكتاب، فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي، أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل ما فعلنا بابن عفان إنه أبى علينا أن نعمل بما في كتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك. قال: أما أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم، قالوا: فابعث إلى الأشتر فليأتك. فأرسل إليه، فقال للرسول: إني قد رجوت أن يفتح الله لي فلا تعجلني. فارتفع الرهج من قبل الأشتر

فقال القوم: ما نراك أمرته إلا بالقتال، فقال: هل رأيتموني ساررته؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا اعتزلناك فبعث إليه: أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت. فلما بلغه ذلك، قال: ألرفع المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة، فقال له الرسول: أتحب أن تظفرها هنا وتسلم أمير المؤمنين إلى عدوه؟ فأقبل حتى انتهى إليهم، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الذل والوهن، أحين قهرتم القوم رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، أمهلوني فإني قد رأيت النصر، فقالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك، فقال: خدعتم والله فانخدعتم، فسبوه وسبهم. وقال الناس: قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً.

فقال الأشعث: يا معاوية، لأي شيء رفعتم هذه المصاحف؟ قال: لنرجع إلى أمر الله به، تبعثون رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فجاء الأشعث إلى علي فأخبره، فقال الناس: قد رضينا، فقال أهل الشام: فإنا قد اخترنا عمرو بن العاص، فقال الأشعث وأولئك الذين صاروا خوارج بعد: فإنا رضينا بأبي موسى الأشعري، فقال علي: إنكم عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى، فقال أولئك: إنا لا نرضى إلا به، قال: فهذا ابن عباس، قالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر، قال: فإني أجعل الأشتر، قالوا: وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما شئتم، فقال الأحنف لعلي ☺: إنك قد رميت بحجر الأرض، فإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها. فأبى الناس إلا أبا موسى.

فكتبوا: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين. فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، وهو أميركم، أما أميرنا فلا، فقال الأحنف ابن قيس: لا تمح اسم " إمارة المؤمنين " فإني أخاف إن محوتها لا ترجع إليك أبداً، فأبى ذلك علي، فقال له الأشعث: امحُ هذا الاسم برحه الله، فَمُحِيَ، فقال علي: الله أكبر، سنة بسنة، والله إني لكاتب رسول الله يوم الحديبية إذ قالوا: لست رسول الله، ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فكتب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضي علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله وكتابه، نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل - وهما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص - وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة، وأجلا القضاء إلى رمضان، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما. وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشر خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، فإن لم يجتمعا بذلك اجتمعا من العام المقبل.

وخرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس، ويعرضه عليهم، فمر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية، فقرأه عليهم، فقال عروة: تحكمون في أمر الله الرجال، لا حكم إلا لله، ثم سل سيفه فضرب به عجز دابته، فغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن، ثم سكتوا.

وأذن علي بالرحيل، فمضى علي على طريق البر على شاطىء الفرات حتى انتهى إلى هِيتَ وعلى صَنْد ودَاء.

وقال سيف الضبي: أقاموا بصفين سبعة أو تسعة أشهر. وكان بينهم القتال نحو سبعين زحفاً، وقتل في ثلاثة أيام نحو سبعين ألفاً من الفريقين.

قال الزهري: بلغني أنه كان يدفن في القبر خمسون. قال ربيعة بن لقيط: مطرت السماء عليهما دماً كانوا يأخذونه بالآنية.

* * *

سنة ثمان وثلاثين

وفي هذه السنة بعد مقتل محمد بن أبي بكر وجه معاوية عبد الله بن عمرو بن الحضرمي إلى البصرة، فوجه علي ☺ أعين بن ضبيعة المجاشعي لإخراج ابن الحضرمي من البصرة مدداً لزياد شرح القصة: لما قتل محمد بن أبي بكر خرج ابن عباس من البصرة إلى علي بالكوفة واستخلف زياداً، وقدم ابن الحضرمي من قبل معاوية، فنزل في بني تميم، فأرسل زياداً إلى حُضَين بن المنذر، ومالك بن مسمع، فقال: أنتم يا معاشر بكر بن وائل من أنصار أمير المؤمنين، وقد نزل ابن الحضرمي حيث ترون، وأتاه من أتاه، فامنعوني حتى يأتيني رأي أمير المؤمنين، فقال حضَين: نعم، وقال مالك - وكان رأيه مائلاً إلى بني أمية، وكان مروان لجأ إليه يوم الجمل: هذا أمرٌ لي فيه شركاء، أستشير وأنظر. فلما رأى زياد تثَاقُل مالك خاف أن تختلف ربيعة، فأرسل إلى نافع بن خالد فسأله أن يمنعه، فأشار عليه نافع بصَبرة بن شَيْمان الحُداني، فأرسل إليه زياد فقال: ألا تجيرني وبيت مال المسلمين، قال: بلى إن حملته إلي ونزلت داري، ففعل وحول معه المنبر، وتحول معه خمسون رجلاً، فكان زياد يصلي الجمعة في مسجد الحداني.

وكتب زياد إلى علي ☺: إن ابن الحضرمي قد أقبل من الشام، فنزل في بني تميم، ونعى ابن عفان، ودعى إلى الحرب وبايعته تميم وجُل أهل البصرة، ولم يبق معي من أمتنع به، فاستجرت لنفسي ولبيت المال بصبرة بن شيمان، فوجه علي أعين بن ضبيعة، وكتب إلى زياد: إني قد وجهت أعين ليعرض بقومه عن ابن الحضرمي، فإن فرق جمعه فهو ما نريد، وإن ترقت إليهم الأمور فانهض إليهم وجاهدهم، وإن رأيت ممن قبلك تثاقلاً، فدارهم وطاولهم، وكأنك بجنود الله قد أظلتك.

فقدم أعين فأتى زياداً فنزل عنده، ثم أتى قومه فجمع رجالاً ونهض إلى ابن الحضرمي، فدعاهم فشتموه وناوشوه وانصرف عنهم، فدخل عليه قوم فقتلوه، فلما قتل أعين، أراد زياد قتالهم، فأرسل بنو تميم إلى الأزد: إنا لم نعرض لجاركم ولا لأحد من أصحابه، فماذا تريدون من جارنا، وكرهت الأزد القتال، وقالوا: إن عرضوا لجارنا منعناه، وإن كفوا عنا كففنا عن جارهم، فأمسكوا. وكتب زياد إلى علي بقتل أعين، وأخبره أنه لم يخف معه ممن تقوى به على قتالهم، فكتب إليه علي يصوّب رأيه، وبعث إليه حارثة بن قدامة في خمسين من بني تميم، وشريك بن الأعور في خمسمائة، فقدم حارثة البصرة، فقال له زياد: احذر أن يصيبك ما أصاب صاحبك فسار حارثة إلى قومه فقرأ عليهم كتاب عليّ ☺، فأجابه أكثرهم، فسار إلى ابن الحضرمي فحصره في داره ثم أحرق عليه الدار وعلى من معه، وكانوا سبعين رجلاً، وقيل: أربعين، وتفرق الناس، ورجع زياد إلى دار الإمارة.

سنة تسع وثلاثين

ومن ذلك: أنه وجه النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وكان بها مالك بن كعب مسلحة لعلي في ألف رجل، فأذن لهم علي فأتوا الكوفة، وأتاه النعمان ولم يبق معه إلا مائة رجل، فكتب مالك إلى علي يخبره بأمر النعمان ومن معه، فخطب علي بالناس وأمرهم بالخروج، فتثاقلوا، فقال: يا أهل الكوفة، كلما سمعتم بجيش من جيوش الشام أظلكم، انجحرى كل امرئ منكم في بيته انجحار الضب في جحره، والضبع في وجارها؛ المغرور والله من غررتموه، ولمن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب: لا أحرار عند النداء، ولا إخوان ثقة عند النخاء، إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا منيت به منكم. وواقع مالك النعمان بن بشير في تلك العصابة القليلة، فوجه إليه مخنف ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً، فانتهوا إلى مالك واصحابه، وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا، فلما رآهم أهل الشام ظنوا أن لهم مدداً وانهزموا، وتبعهم مالك، فقتل منهم ثلاثة نفر، ومضوا على وجوههم.

ومن ذلك: أنه وجه معاوية في هذه السنة سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل، وأمره أن يأتي هيت ويمضي حتى يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها. فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحداً، ثم أتى الأنبار وبها مَسلَحة لعلي تكون خمسمائة رجل، وقد تفرقوا فلم يبق منهم إلا مائة رجل، فقاتلهم، فصبر لهم أصحاب علي مع قلتهم ثم حملت عليهم الخيل والرجالة فقتلوا صاحب المسلحة، وهو أشرس ابن حسان البلوي في ثلاثين رجلاً، وحملوا ما كان في الأنبار من الأموال ورجعوا إلى معاوية وبلغ الخبر علي، فخرج حتى أتى النخَيلة، فقال له الناس: نحن نكفيك؛ قال: ما تكفونني ولا أنفسكم؛ وسرح سعيد بن قيس في أثر القوم، فخرج في طلبهم حتى جاز هيت، فلم يلحقهم فرجع.

ومن ذلك: أنه وجه معاوية في هذه السنة عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تَيْماء، وأمره أن يُصَدِّق من مر به من أهل البوادي، وأن يقتل من امتنع من عطائه صدقة ماله، ثم يأتي المدينة ومكة والحجاز يفعل ذلك. واجتمع إليه خلق كثير من قومه، فلما بلغ ذلك عليًّاً ☺ وجه المسيب بن نحية الفَزَاري في ألفي رجل، فسار حتى لحق ابن مسعدة بتيماء، فاقتتلوا حتى زالت الشمس قتالاً شديداً، فدخل ابن مسعدة وعامة من معه إلى الحصن وهرب الباقون نحو الشام، وانتهبت الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة، وحصره ومن كان معه المسيب ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب على الباب وألهب فيه النار، فلما أحسوا بالهلاك أشرفوا على المسيب فقالوا: يا مسيب، قومك، فرق لهم، فأمر بالنار فأطفئت، وخرج ابن مسعدة ليلاً بأصحابه فلحقوا بالشام.

سنة أربعين

فساروا من الشام إلى المدينة وعامل علي ☺ على المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري، ففر منهم أبو أيوب فأتى عليًا بالكوفة، ودخل بسر المدينة، فصعد منبرها، ولم يقاتله بها أحد، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه. وأرسل إلى بني سلمة فقال: والله ما لكم عندي من أمان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله، فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي، فقال لها: إني خشيت أن أقبل وهذه بيعة ضلالة، قالت: أرى أن تبايعِ فإني قد أمرت ابني عمرو بن أبي سلمة أن يبايع، فأتاه جابر فبايعه. وهدم بسر دوراً بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، ثم مضى إلى اليمن وعليها عبيد الله بن العباس عامل علي ☺ ففر إلى الكوفة حتى أتى علياً ☺، واستخلف مكانه عبد الله بن عبد المدان الحارثي، فأتاه بسر فقتله وقتل ابنه وقتل جماعة من شيعة علي.

وبلغ خبره إلى علي ☺، فوجه حارثة بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، فسار حارثة حتى أتى نجران، فأخذ ناساً من شيعة عثمان فقتلهم وهرب بسر وأصحابه فاتبعهم حتى بلغ مكة، ثم سار إلى المدينة وأبو هريرة يصلي بالناس، فهرب منه.

وفي هذه السنة قتل علي ☺ وكان عامله في هذه السنة على مكة والطائف قثم بن العباس، وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري، وقيل سهل بن حنيف حتى كان من أمر بسر بن أرطأة ما تقدم ذكره. وكان عامله على البصرة عبد الله بن العباس على خلاف قد سبق ذكره.

فلما قتل علي ☺ بويع للحسن بن علي عليهما سلام الله.

* * *

ذكر خلافة الحسن بن علي:

وكان يكنى أبا محمد، وكان يشبه رسول الله ، ولد في رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وأذن رسول الله في أذنه، وعق عنه بكبش وسماه حسناً، وكان علي ☺ قد سماه حرباً. وقال فيه رسول الله : **إن ابني هذا سيد**ـــ وحج خمس عشرة حجة ماشياً وخرج لله من ماله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات.

عن عقبة بن الحارث، قال: رأيت أبا بكر يحمل الحسن بن علي على عاتقه وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهاً بعلي، وعلي معه يتبسم.. ".

عن البراء بن عازب، قال: رأيت النبي حاملاً الحسن بن علي وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه ".

ذكر مبايعة الحسن.

أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله ، وقتال المخالفين، فقال له الحسن: على كتاب الله وسنة رسول الله، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت.

قال الزهري: كان تحت يد قيس بن سعد في زمان علي أربعون ألفاً، فلما قتل واستخلف الحسن، كان الحسن لا يريد القتال وإنما أراد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة، وعلم أن قيساً لا يوافقه على رأيه، فنزعه وأمر عبيد الله بن عباس، فلما علم عبيد الله بالذي يريد الحسن كتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي أصاب، فشرط له معاوية ذلك.

* * *

ذكر خروج الحسن لحرب معاوية.

قال إسماعيل بن راشد: لما بايع الناس الحسن خرج بالناس حتى نزل المدائن، وبعث قيس بن سعد بن عبادة على مقدمته في اثني عشر ألفاً، فأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مَسكِن، فبينا الحسن في المدائن إذ نادى منادي العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل، فانفروا، فنفروا ونهبوا، سرادق الحسن حتى نازعوه بساطاً كان تحته، وخرج الحسن حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان عم المختار بن أبي عبيد - واسمه سعد بن مسعود - عاملاً على المدائن، فقال له المختار وهو غلام شاب: هل لك في الغِنَى والشرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تُوثِق الحسن وتستأمن به إلى معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة الله. فلما رأى الحسن تفرق الناس عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح. ثم قام الحسن في أهل العراق فقال: يا أهل العراق إن شحي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي.

قال هلال بن خباب: لما قتل علي لاضي الله عنه توجه الحسن والحسين إلى المدائن، فلحقهما الناس بساباط، فحمل على الحسن رجل فطعنه في خاصرته، فسبقهم حتى دخل قصر المدائن، فاولم فيه نحواً من أربعين ليلة، ثم وجه ألى معاوية فصالحه. وحج بالناس في هذه السنة المغيرة بن شعبة، وأظهر أن معاوية أمره ذلك.

* * *

سنة إحدى وأربعين

وذلك أن الحسن لما تفرق الناس عنه بعث إلى معاوية يطلب الصلح، فبعث معاوية إليه عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة، فقدما عليه المدائن، فأعطياه ما أراد وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف في أشياء اشترطها، وكان معاوية قد أرسل إليه قبل ذلك صحيفة بيضاء وكتب إليه اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فاشترط أضعاف الشروط التي سألها معاوية قبل ذلك، وأمسكها عنده وأمسك معاوية صحيفة الحسن التي كتب إليه فيها، فلما اِلتقيا سأله الحسن أن يعطيه الشروط التي شرط في الصحيفة، فأبى معاوية وقال: لك ما كنت تسألني.

وكان الصلح بينهم بمسكن، ثم دخلوا الكوفة، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: مر الحسن أن يقوم فيخطب، فكره معاوية ذلك وقال: ما تريد بهذا؟ قال: أريد أن يبدو عيه في الناس. فخرج معاوية فخطب ثم قال: قم يا حسن فتكلم، فقام فقال: أما بعد، فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، والدنيا دوَل، وإن الله تعالى قال لنبيه :{وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾} [الأنبياء: ١١١]. فقال معاوية: اجلس.

ثم خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر من الكوفة إلى المدينة، وسلم الكوفة إلى معاوية لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين.

وقيل في ربيع الآخر، ويقال: في غرة جمادى الأولى.

ولما رحل الحسن تلقاه قوم فقالوا: يا مذل العرب.

أخبر أبو العريف، قال: كنا على مقدمة الحسن بن علي في اثني عشر ألفاً بمسكن مستميتين من الجد على قتال أهل الشام وعلينا أبو العمرطة، فلما جاءنا صلح الحسن بن علي كأنما كسرت ظهورنا من الغيظ، فلما قدم الحسن بن عليّ على الكوفة، قال له رجل منا يقال له أبو عامر سفيان بن الليل: السلام عليك يا مذل المؤمنين، فقال: لا تقل ذلك يا أبا عامر، لست بمذل المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلهم على الملك.

* * *

باب ذكر خلافة معاوية

وفي هذه السنة غلب حمران بن أبان على البصرة وذلك أنه لما صالح الحسن معاوية، وثب حمران على البصرة فأخذها، فبعث إليه معاوية بسر بن أرطأة، فصعد حمران إلى المنبر وشتم علياً ☺، ثم قال: أنشد الله رجلاً عليماً أني صادق إلا صدقني، أو كاذب إلا كذبني، فقال أبو بكرة: لا نعلمك إلا كاذباً، فأمر به يخنق، فقام أبو لؤلؤة الضبي فرمى بنفسه عليه فمنعه، فأعطاه أبو بكرة - بعد ذلك مائة جريب، فقيل لأبي بكرة: ما أردت بهذا؟ فقال: يناشدنا بالله ثم لا نصدقه، فأقام بسر بالبصرة ستة أشهر وفي هذه السنة ولي معاوية بن عامر البصرة، وحرب سجستان وخراسان وسبب ذلك أن معاوية أراد أن يوجه عتبة بن أبي سفيان على البصرة، فقال له ابن عامر: إن لي بها أموالاً وودائع فإن لم توجهني عليها ذهبت، فولاه البصرة فقدمها في آخر سنة إحدى وأربعين وإليه على خراسان وسجستان، فولى حبيب بن شهاب شرطته - وقيل: قيس بن الهيثم - واستقضى عميرة بن يثربي.

وفي هذه السنة حج بالناس عتبة بن أبي سفيان. في قول أبي معشر. وقال الواقدي: بل عنبسة بن أبي سفيان.

وفي هذه السنة ولد علي بن عبد الله بن عباس، وقيل: بل ولد في سنة أربعين.

* * *

سنة اثنتين وأربعين

إن المسلمين غزوا الروم فهزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا جماعة من بطارقتهم.

وفيها ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة. فاستقضى مروان بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام، وكان على الكوفة من قبله المغيرة بن شعبة، وعلى القضاء شريح، وعلى البصرة عبد الله بن عامر، وعلى قضائها عميرة بن يثربي، وعلى خراسان قيس بن الهيثم من قبل عبد الله بن عامر.

وفيها تحركت الخوارج الذين كانوا انحازوا عمن قتل منهم بالنهروان، ومن كان ارتُث من جرحاهم بالنهروان، فبرىء، وعفا عنهم عليّ بن أبي طالب ☺.

* * *

وفي هذه السنة قدم زياد على معاوية.

من فارس بعد أن كان قد امتنع بقلعة من قلاعها أكثر من سنة، فصالحه معاوية على مال يحمله إليه وكان سبب ذلك؛ أن عبد الرحمن بن أبي بكرة كان يلي ما كان لزياد بالبصرة، فبلغ معاوية أن لزياد أموالاً عند عبد الرحمن، وخاف زياد على أشياء كانت في يدي عبد الرحمن لزياد، فكتب إليه يأمره بإحرازها، وبعث معاوية المغيرة بن شعبة لينظر في أموال زياد، فقدم البصرة، وأخذ عبد الرحمن وكتب إلى معاوية: إني لم أصب في يدي عبد الرحمن شيئاً يحل لي أخذه، وكتب معاوية إلى زياد: علام تهلك نفسك أقبل فأعلمني علم ما صار إليك من المال وما خرج من يديك وما بقي عندك وأنت آمن فأتاه فأخبره فصدقه، ثم سأله أن يأذن له في نزول الكوفة، فأذن له فشخص إليها.

وفيها: ولد الحجاج بن يوسف.

* * *

سنة ثلاث وأربعين

حتى بلغ القسطنطينية، فيما ذكر الواقدي.

وفيها ولى معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص مصر بعد موت أبيه، فوليها له نحواً من سنتين.

وفيها قتل المستورد بن علفة الخارجي فيما ذكر هشام بن الكلبي، وقال قوم: قتل في سنة اثنتين وأربعين.

وفي هذه السنة حج بالناس مروان بن الحكم، وكان على المدينة. وكان على مكة خالد بن العاص بن هشام، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى قضائها شريح، وعلى البصرة وفارس وسجستان وخراسان عبد الله بن عامر، وعلى قضائها عمير بن يثربي.

* * *

سنة أربع وأربعين

وفيها غزا بسر بن أبي أرطأة البحر قال عبد الملك بن عمير: قرأت في ديوان معاوية بعد موته، كتاباً من ملك الصين، فيه: من ملك الصين الذي على مربطه ألف فيل، وبنيت داره بلبن الذهب والفضة، ويخدمه بنات ألف ملك، والذي له نهران يسقيان الألوة، إلى معاوية.

سنة خمس وأربعين

إن معاوية ولى الحارث بن عبد الله الأزدي البصرة، فأقام بالبصرة أربعة أشهر وعزله وولى زياداً، فقدم زياد إلى الكوفة ينتظر إلى أمر معاوية، فظن المغيرة أنه قدم والياً عليها فقال لوائل بن حجر الحضرمي: إعلم لي علمه، فأتاه فلم يقدر منه على شيء، وقدم رسول معاوية إلى زياد: أن سر إلى البصرة، فقدمها في آخر شهر ربيع الآخر أو غرة جمادى الأولى من هذه السنة، واستعمله على خراسان وسجستان، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان.

فلما قدم البصرة وجد الفسق فيها ظاهراً، فخطب فقال في خطبته: كأنكم لم تسمعوا ما أعد الله من الثواب لأهل طاعته، والعذاب لأهل معصيته، أيكونون كمن طرفَ عنه الدنيا وسدَّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية.

قال الشعبي: ما سمعت متكلماً قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا.

وما زال زياد يشدد أمر السلطان، وتجرد السيف، فخافه الناس خوفاً شديداً حتى إن الشيء كان يوجد فلا يتجاسر أحد أن يرفعه حتى يأتيه صاحبه، واستعان زياد بعدة من أصحاب رسول الله ، منهم عمران بن حصين ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وعبد الرحمن بن سمرة، وأنس بن مالك.

* * *

سنة ست وأربعين

فقيل: مالك بن عبد الله، وقيل: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وقيل: مالك بن هبيرة الفزاري.

وفيها انصرف عبد الرحمن بن خالد بن الوليد من بلاد الروم إلى حمص وكان قد عظم شأنه بالشام، ومال أهلها إليه لموضع غنائه عن المسلمين وآثار أبيه حتى خافه معاوية وخشي على نفسه. منه لميل الناس إليه، فدس إليه عدي بن أثال شربة مسمومة فقتله بها، فمات بحمص، وخرج خالد بن عبد الرحمن بن خالد فقتل ابن أثال وفيها: حج بالناس عتبة بن أبي سفيان، وكان العمال والولاة الذين كانوا في السنة التي قبلها.

* * *

سنة سبع وأربعين

وفيها عزل عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ووليها معاوية بن حُدَيج. واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة. فقال الواقدي عتبة بن أبي سفيان. وقال غيره: عنبسة بن أبي سفيان.

وكانت العمال والولاة هم الذين كانوا في السنة التي قبلها، غير مصر فإنها لمعاوية بن حديج.

سنة ثمان وأربعين

وغزوة مالك بن هبيرة اليشكري البحر، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر البحر. وفيها: وجه زياد غالب بن فضالة الليثي على خراسان، وكانت له صحبة. وفيها: حج بالناس مروان بن الحكم، وكان يتوقع العزل لموجدة كانت من معاوية عليه، وإرتجاعه، فدك منه، وكان وهبها له. وكان عمال الأمصار في هذه السنة الذين كانوا في السنة التي قبلها.

سنة تسع وأربعين

وغزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر.

وفيها: غزا يزيد بن معاوية أرض الروم حتى بلغ القسطنطينية ومعه ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري.

وفيها: عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة في ربيع الأول، وأمر عليها سعد بن أبي وقاص، وكانت ولاية مروان المدينة لمعاوية ثمان سنين وشهرين وكان على قضاء المدينة لمروان حين عزل عبد الله بن الحارث بن نوفل، فلما ولى سعد عزله واستقضى أبا سلمة بن عبد الرحمن.

وفيها: وقع الطاعون بالكوفة، فهرب المغيرة بن شعبة، فلما ارتفع الطاعون قيل لو رجعت، فقدمها، فطعن فمات. وقد قيل: مات المغيرة سنة خمسين.

وفيها: حج بالناس سعيد بن العاص، وكان العمال فيها هم العمال في التي قبلها، إلا أن في تاريخ موت المغيرة اختلافاً قد ذكرناه.

* * *

سنة خمسين

وسفيان بن عوف الأزدي أرض الروم.

وفيها: كانت غزاة فضالة بن عبيد البحر. وقيل: إنما كانت في السنة التي قبلها.

سنة إحدى وخمسين

وغزاة بُسْر بن أبي أرطأة الصائفة. وفيها: مقتل حجر بن عدي. وسببه: أن معاوية بن أبي سفيان لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة فقال له: قد أردت أن أوصيك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ويسدد سلطاني، فأقام المغيرة على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو حسن السيرة، إلا أنه لم يدع الدعاء لعثمان والوقيعة في علي وكان حجر بن عدي إذا سمع ذلك قال: أنا أشهد أن من تعيبون لأحق بالفضل وأن من تزكون لأولى بالذم، فيقول له المغيرة: ويحك اتق غضب السلطان وسطوته، فقام المغيرة يوماً فأثنى على عثمان، فصاح به حجر: إنك قد حبست أرزاقنا وأصبحت مولعاً بتقريظ المجرمين، وقام معه أكثر من ثلاثين يقولون: صدق حجر، فمر لنا بأعطياتنا، فنزل المغيرة ودخل عليه قومه فقالوا: علام تترك هذا الرجل يجترىء في سلطانك، ولو بلغ معاوية كان أسخط له عليك، فقال لهم المغيرة: إني قد قتلته، إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة، إنه قد اقترب أجلي، ولا أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة، ولكني قابل من محسنهم، وعاف عن مسيئهم، وواعظ شقيهم حتى يفرق بيني وبينهم الموت، وسيذكروني، ولو قد جربوا العمال بعدي.

فلما هلك المغيرة وولي زياد بن أبي سفيان قام فذكر عثمان وأصحابه فقرظهم وذكر قتلتهم ولعنهم، فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة، فقال: ويل أمك يا حجر، " سقط بك العشاء على سرحان ".

وفي رواية أخرى: أن زياداً خطب فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر ابن عدي: الصلاة فمضى في خطبته، ثم قال: الصلاة، فلما خشي الفوت ضرب بيده إلى كف من الحصا، وثار إلى الصلاة، وثار الناس معه، فنزل زياد فصلى بالناس، ثم كتب إلى معاوية في أمره، فاستشهد عليه جماعة من أهل مصره، منهم أبو بردة بن أبي موسى أنه خلع الطاعة ودعا إلى الفتنة. فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم احمله إلي فبعثه إليه مع جماعة ممن يرى رأيه، فاستوهب بعضهم وبقي بعضهم، فقيل لهم تبرؤوا من علي حتى يطلقكم، فلم يفعلوا.

فلما دخل حجر على معاوية قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له معاوية: لا والله لا أقيلك ولا أستقيلك، أخرجوه فاضربوا عنقه، فأخرج، فقال: دعوني أصلي ركعتين، فصلاهما، ثم قال لمن حضره من أهله: لا تطلقوا عني حديداً، ولا تغسلوا عني دماً، فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة. ثم قدم فضربت عنقه، وقتل معه جماعة من أصحابه ممن يرى رأيه. ولما لقيت عائشة أم المؤمنين معاوية قالت: يا معاوية، أين كان حلمك عن حجر؟ فقال لها: يا أم المؤمنين، لم يحضرني رشيد.

قال ابن سيرين: فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالموت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل.

* * *

سنة اثنتين وخمسين

ومشتاه بأرض الروم، وأنه توفي بها، واستخلف عبد الله بن مسعدة الفزاري. هذا قول الواقدي.

وقال غيره: بل الذي شتا بأرض الروم في هذه السنة بالناس بسر بن أبي أرطأة ومعه سفيان بن عوف، وغزا الصائفة في هذه السنة محمد بن عبد الله الثقفي. وفيها حج بالناس سعيد بن العاص، وكان العمال في هذه السنة العمال الذين كانوا في السنة التي قبلها.

* * *

سنة ثلاث وخمسين

وفيها: فتحت رُودُس، وهي جزيرة في البحر، فتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي، فنزلها المسلمون، وزرعوا، واتخذوا بها الأموال والمواشي، وكان لهم ناطور يحذرهم من يريدهم من البحر بكيد، وكانوا أشد شيء على الروم، يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم، وكان معاوية يدر لهم العطاء، فلما مات معاوية. أقفلهم يزيد بن معاوية.

* * *

سنة أربع وخمسين

وصائفة معن بن يزيد السلمي وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان وسبب ذلك أن معاوية كان يُغرِي بين مروان وسعيد بن العاص، فكتب إلى سعيد وهو على المدينة: اهدم دار مروان، فلم يهدمها، فأعاد إليه الكتاب مرة بعد مرة فلم يفعل، فعزله، فلما ولى مروان كتب إليه اهدم دار سعيد، فركب وجاء بالفَعَلة، فقال له سعيد: أتهدم داري؟ قال: كتب إلي أمير المؤمنين، ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت، قال: ما كنت لأفعل، قال: بلى والله. فجاءه بكتاب معاوية في ذلك فرجع ولم يهدمها.

* * *

سنة خمس وخمسين

في قول الواقدي. وقال غيره: بل الذي شتا هناك عمرو بن محرز. وقيل: بل عبد الله بن قيس الفزاري. وقيل: بل مالك بن عبد الله وفيها عزل معاوية عبد الله ابن عمرو بن غيلان عن البصرة وولى عبيد الله بن زياد وكان السبب في ذلك أن عبد الله خطب على منبر البصرة فحصبه رجل من بني ضبة يدعى جبير بن الضحاك، فأمر به فقطعت يده، فاجتمعت عشيرته فقالت له: لا نأمن أن نبلغ خبر صاحبنا إلى أمير المؤمنين فتأتي من عنده عقوبة تعم أو تحض، فإن رأى الأمير أن يكتب لنا كتاباً يخرج به أحدنا إلى أمير المؤمنين يخبره أنه قطعه على شبهة وأمر لم يَصِح، فكتب لهم، فأمسكوا الكتاب مدة ثم ذهبوا به إلى معاوية وقالوا: إنه قطع يد صاحبنا ظلماً وهذا كتابه. فقرأ الكتاب وقال: أما القود من عمالي فلا سبيل له، ولكن إن شئتم وديت صاحبكم، فوداه من بيت المال، وعزل عبد الله وقال: اختاروا من تحبون، فقالوا: يتخير لنا أمير المؤمنين، قال: قد وليت عليكم ابن أخي عبيد الله بن زياد. فلما ولي عبيد الله ولى أسلم بن زرعة خراسان فلم يغز ولم يفتح بها شيئاً. وولى شرطته عبد الله بن حصن والقضاء زرارة بن أوفى ثم عزله وولى القضاء ابن أذينة العبدي.

* * *

سنة ست وخمسين

وقيل: عبد الرحمن بن مسعود.

وفيها: غزا البحر يزيد بن شجرة الرهاوي، وغزا البر عياض بن الحارث.

وفيها: حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

* * *

سنة سبع وخمسين

وفيها: صرف مروان عن المدينة في ذي القعدة. واستعمل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.

وقال غيره: بل كانت المدينة في هذه السنة إلى مروان، وإنما صرفه في سنة ثمان وخمسين، واستعمل حينئذٍ الوليد بن عتبة.

وفيها: حج بالناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان العامل على الكوفة الضحاك بن قيس، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى خراسان سعيد بن عثمان.

* * *

سنة ثمان وخمسين

وقتل يزيد بن شجرة في البحر في السفن.

وقيل: إن الذي شتى بأرض الروم في هذه السنة عمرو بن يزيد الجهني، والذي غزا في البحر جنادة بن أبي أمية وفيها ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله ابن عثمان بن ربيعة الثقفي وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس.

وفي عمله في هذه السنة خرجت الطائفة التي حبسها المغيرة بن شعبة في السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد، فظفر بهم فاستودعهم السجن، فلما مات المغيرة خرجوا من السجن، فجمع حيان بن ظبيان أصحابه ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد، فمنّا من قضى نحبه ومنا من ينتظر، وأولئك هم الأبرار الفائزون بفعلهم، فمن كان منكم يريد الله وثوابه فليسلك سبيل أصحابه.

وقال معاذ بن جوين الطائي: يا أهل الإسلام، إنا والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة وإنكار الجور، كان لنا به عند الله عذر، لكان تركه أيسر علينا وأخف من ركوبه، ولكنا قد علمنا واستيقنا أنه لا عذر لنا.

ثم قال: ابسط يدك نبايعك، فبايعه وبايعه القوم، فضربوا على يد حيان فبايعوه وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله، ثم إن القوم اجتمعوا في منزل معاذ بن جوين، فقال لهم حيان: عباد الله، أشيروا برأيكم، أين تأمروني أن أخرج؟ فقال له معاذ: إني أرى أن تسير بنا إلى حلوان فإنها كورة بين السهل والجبل، وبين المصر والثغر، فمن كان يرى رأينا من أهل المصر والثغر والجبال والسواد لحق بنا. فقال له حيان: عدوك معاجلك قبل اجتماع الناس إليك، فلا يتروكم حتى يجتمع الناس إليكم

ولكن رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا، فإني والله، قد علمت أنكم لا تقدرون وأنتم دون المائة رجل أن تهزموا عدوكم، ولا أن تشتد نكايتكم فيهم، ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم كان لكم به العذر، وخرجتم من الإثم. قالوا: رأينا رأيك، فقال لهم عديس بن عرقوب: اخرجوا بجانب من مصرهم هذا فقاتلوا، فقالوا: لن يخالفك، فمكثوا حتى إذا كان آخر سنة من سني ابن أم الحكم في أول يوم من ربيع الآخر اجتمعوا إلى حيان، فقال: يا قوم، والله الذي لا إله غيره ما سررت قط في الدنيا بعدما أسلمت سروري بخروجي هذا على الظلمة، إني قد رأيت أن نخرج حتى ننزل جانب دار جرير، فإذا خِرج إليكم الأحزاب ناجزتموهم، فقال عديس بن عرقوب: إذا قاتلتهم في جوف المصر قاتلنا الرجال وصعد النساء والصبيان والإماء، فرمونا بالحجارة، فقال رجل منهم: انزلوا بنا من وراء الجسر، فقال معاذ: لا بل سيروا بنا فلننزل بانقيا فما أسرع ما يأتيكم عدوكم، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم وجعلنا البيوت في ظهورنا، فقاتلناهم من وجه واحد، فخرجوا فبعث إليهم جيش فقتلوا جميعاً.

* * *

سنة تسع وخمسين

قال الواقدي: ولم يكن عامئذ غزو في البحر. وقال غيره: غزا في البحر جنادة ابن أمية.

وفيها عزل معاوية عبد الرحمن ابن أم الحكم عن الكوفة وولى عبد الرحمن بن زياد بن سمية خراسان وذلك أن عبد الرحمن قدم وافداً على معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، أما لنا حق؟ قال: بلى، قال: فماذا توليني؟ قال معاوية: النعمان بن بشير بالكوفة، وهو رجل من أصحاب رسول الله ، وعبيد الله بن زياد على البصرة وخراسان، وعباد بن زياد على سجستان، ولست أرى عملاً يشبهك إلا أن أشركك في عمل أخيك عبيد الله بن زياد، قال: أشركني فإن عمله واسع يحتمل الشركة، فولاه خراسان.

روى أبو حفص الأزدي، قال: حدثني عمي، قال: قدم علينا قيس بن الهيثم السلمي، وقد وجهه عبد الرحمن بن زياد، فأخذ أسلم بن زرعة الكلابي فحبسه، ثم قدم عبد الرحمن، فأغرم أسلم بن زرعة ثلاثمائة ألف درهم.

وفي هذه السنة حج بالناس عثمان بن محمد بن أبي سفيان وكان الوالي على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعلى البصرة عبيد الله بن زياد، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد وعلى سجستان عباد ابن زياد، وعلى كرمان شريك بن الأعور الحارثي من قبل عبيد الله بن زياد.

* * *

سنة ستين

ودخول جنادة بن أبي أمية رودس، وهدمه مدينتها في قول الواقدي.

وفي هذه السنة: أخذ معاوية على الوفد الذين وفدوا إليه مع عبيد الله بن زياد البيعة لابنه يزيد، وعهد إلى ابنه يزيد حين مرض فيها، فقال له: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وفللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وإني لأتخوف عليك أن ينازعك في هذا الأمر الذي أسندت لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقَذَته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رَحِماً ماسة وحقاً عظيماً وأما ابن أبي بكر فليست له همة إلا في النساء واللهو، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، وأما الذي يجثم جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعلها، بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً ولما اشتد مرض معاوية كان يزيد غائباً، فدعا بالضحاك بن قيس الفهوي - وكان صاحب شرطته - ومسلم بن عقبة المري فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتي: انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن رابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم.

وفي هذه السنة توفي معاوية، وبويع لابنه يزيد

* * *

سنة إحدى وستين

فمن الحوادث فيها: مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

* * *

سنة اثنتين وستين

وكان السبب في ذلك أن يزيد لما عزل عمرو بن سعيد، وولى الوليد بن عتبة، قدم الوليد المدينة فأخذ غلماناً لعمرو، نحواً من ثلاثمائة فحبسهم، فكلمه فيهم عمرو فأبى أن يخليهم، فخرج عمرو من المدينة وكتب إلى غلمانه: إني باعث إلى كل رجل منكم جملاً وأداته، تناخ لكم بالسوق، فإذا أتاكم رسولي فاكسروا باب السجن، ثم ليقم كل رجل منكم إلى جمله فليركبه، ثم أقبلوا علي.

ففعل ذلك، فقدم على يزيد، فرحب به وعاتبه على تقصيره في أشياء يأمره بها في ابن الزبير، فقال: يا أمير المؤمنين: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن جل أهل الحجاز مالوا إليه، ولم يكن معي جند أقوى عليه لو ناهضته، فكنت أداريه لأتمكن منه، مع أني قد ضيقت عليه، فجعلت على مكة وطرقها رجالاً لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا لي اسمه واسم أبيه، وما جاء به، فإن كان ممن أرى أنه يريده رددته صاغراً، وقد بعثت الوليد وسيأتيك من عمله ما تعرف به فضل مبايعتي ومناصحتي.

فعزل يزيد الوليد، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو حدث لم يحنكه السن، وكان لا يكاد ينظر في شيء من عمله. وبعث إلى يزيد وفداً من المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، والمنذر بن الزبير، فأكرمهم وأجازهم، ثم رجعوا إلى المدينة فأظهروا شتم يزيد وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويعزف بالطنابير ويلعب بالكلاب، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه.

وقال المنذر: والله لقد أجازني بمائة ألف درهم، وإنه لا يمنعني ما صنع إلي أن أصدقكم عنه، والله إنه ليشرب الخمر، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة. ثم بايعوا عبد الله بن حنظلة.

وفيها: حج بالناس الوليد بن عتبة، وكان العمال على البلاد في هذه السنة هم العمال في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم.

* * *

سنة ثلاث وستين

وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان وخلعوا يزيد.

فذكر أبو الحسن المدائني عن أشياخه: أن أهل المدينة أتوا المنبر، فخلعوا يزيد، فقال عبد الله بن أبي عمرو بن حفص المخزومي: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي - ونزعها عن رأسه - وإني لا أقول هذا وقد وصلني وأحسن جائزتي، ولكن عدو الله سكير.

وقال آخر: قد خلعته كما خلعت نعلي، حتى كثرت العمائم والنعال، ثم ولوا على قريش عبد الله بن مطيع، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة، ثم حاصر القوم من كان بالمدينة من بني أمية ومواليهم ومن يرى رأيهم.

فكتب مروان وجماعة من بني أمية إلى يزيد: إنا قد حصرنا في دار مروان، ومنعنا العذب، فياغوثاه.

فوصل الكتاب إليه وهو جالس على كرسي واضع قدميه في ماء في طست من وجع كان به - ويقال إنه كان به نقرس - ثم قال للرسول: أما يكون بنو أمية ومواليهم بالمدينة ألف رجل؟ فقال: بلى وأكثر، قال: فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار، فقال: أجمع الناس عليهم، فلم يكن بهم طاقة، فبعث إلى عمرو ابن سعيد فأقرأه الكتاب وأمره أن يسير إليهم، فقال: قد كنت ضبطت لك البلاد وأحكمت لك الأمور، فأما الآن فإنما هي دماء قريش تهراق، فلا أحب أن أتولى ذلك.

قال: فبعثني بالكتاب إلى مسلم بن عقبة وهو شيخ كبير، فجاء حتى دخل على يزيد، فقال: أخرج وسر بالناس. فخرج مناديه فنادى: أن سيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كملاً ومعونة مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته، فانتدب لذلك اثني عشر ألفاً، وكتب يزيد إلى ابن مرجانة: أن اغز ابن الزبير، فقال: لا والله لا أجمعهما للفاسق أبداً؛ أقتل ابن بنت رسول الله ، وأغزو البيت.

وفصل ذلك الجيش من عند يزيد وعليهم مسلم بن عقبة، وقال له: إن حدث بك حادث فاستخلف في الجيش حصين بن نمير السكوني، وقال له: ادع القوم ثلاثاً، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عنهم، وانظر علي ابن الحسين فاستوص به خيراً، أدن مجلسه فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه.

وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من معهم من بني أمية فحصروهم في دار مروان، فقالوا: لا والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم، ونضرب أعناقكم، أو تعطونا عهد الله وميثاقه أن لا تبغونا غائلة، ولا تدلوا لنا على عورة، ولا تظاهروا علينا عدواً، فأعطوهم العهد على ذلك، فأخرجوهم من المدينة، فخرجوا بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادي القرى، فدعا بعمرو بن عثمان وقال له: أخبرني ما وراءك، وأشر علي، قال: لا أستطيع أن أخبرك شيئاً، أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندلك على عورة، فانتهره وقال: لولا أنك ابن عثمان لضربت، وأيم الله لا أقيلها قرشياً بعدك، فخرج بما لقي من عنده إلى أصحابه، فقال مروان لابنه عبد الملك: ادخل قبلي لعله يجتزئ بك عني، فدخل عليه عبد الملك، فقال: هات ما عندك، أخبرني خبر الناس، وكيف ترى؟ فقال له: أرى أن تسير بمن معك حتى تأتيهم من قبل الحرة، ففعل وقال: يا أهل المدينة، إن أمير المؤمنين يزيد يزعم أنكم الأصل، ويقول: إني أكره إراقة دمائكم، وإني أؤجلكم ثلاثاً، فمن راجع الحق أمنته ورجعت عنكم وسرت إلى هذا الملحد الذي بمكة، وإن أبيتم قد أعذرنا إليكم، فلما مضت الأيام الثلاثة قال: يا أهل المدينة ما تصنعون؟ قالوا: نحارب، فقال: لا تفعلوا وادخلوا في الطاعة، فقالوا: لا نفعل. وكانوا قد اتخذوا خندقاً ونزل منهم جماعة وكان عليهم عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف، وكان عبد الله بن مطيع على ربع آخر في جانب المدينة، وكان معقل بن سنان الأشجعي على ربع آخر وكان أمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري في أعظم تلك الأرباع وأكثرها عدداً.

وقيل: كان ابن مطيع على قريش، وابن حنظلة على الأنصار، ومعقل بن سنان على المهاجرين. فحمل ابن الغسيل على الخيل حتى كشفها، وقاتلوا قتالاً شديداً، وجعل مسلم يحرض أصحابه - وكان مريضاً، فنصب له سرير بين الصفين - وقال: قاتلوا عن أميركم، وأباح مسلم المدينة ثلاثاً، يقتلون الناس ويأخذون الأموال، فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم: تقول بنت عمك مر أصحابك لا يعترضوا الإبل لنا بمكان كذا، فقال: لا تبدأوا إلا بها. وجاءت امرأة إلى مسلم وقالت: أنا مولاتك وابني في الأسرى، فقال: عجلوه لمكانها، فضربت عنقه وقال: أعطوها رأسه، أما ترضين أن لا تقتلي حتى تكلمي في ابنك، ووقعوا على النساء، وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو وبنون له سبعة، وبعث برأسه إلى يزيد.

فأفزع ما جرى من كان بالمدينة من الصحابة، فخرج أبو سعيد الخدري حتى دخل الجبل، فدخل عليه رجل بسيف، فقال: من أنت؟ فقال: أبو سعيد، فتركه.

عن خالد الكندي، عن عمته أم الهيثم بنت يزيد، قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود، فعانقته وقبلته، فقلت: يا أمة الله، أتفعلين هذا بهذا الأسود؟ قالت: هو ابني وقع علي أبوه يوم الحرة، فولدت هذا.

وعن المدائني، عن أبي قرة، قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة بعد الحرة من غير زوج، ثم دعى مسلم بالناس إلى البيعة ليزيد، وقال: بايعوا على أنكم خول له، وأموالكم له، فقال يزيد بن عبد الله بن ربيعة: نبايع على كتاب الله، فأمر به فضربت عنقه، وبدأ بعمرو بن عثمان، فقال: هذا الخبيث ابن الطيب، فأمر به فنتفت لحيته.

عن حويرثة وابن جعدية: أن مسلماً نظر إلى قتلى الحرة، فقال: إن دخلت النار.. بعدها ولا إني لشقي.

وأسر مسلم أسراء فحبسهم ثلاثة أيام لم يطعموا فجاءوا بسعيد بن المسيب إلى مسلم، فقالوا: بايع، فقال: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر، فأمر بضرب عنقه، فشهد له رجل أنه مجنون فخلى عنه.

عن محمد بن عمر قال: قال ذكوان مولى مروان: شرب مسلم بن عقبة دواء بعدما أنهب المدينة، ودعا بالغداء، فقال له الطبيب: لا تعجل فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن يعمل الدواء، قال: ويحك، إنما أحب البقاء حتى أشفي قلبي - أو قال: نفسي - من قتلة عثمان، فقد أدركت ما أردت فليس شيء أحب إلي من الموت على طهارتي، فإني لا أشك أن الله قد طهرني من ذنوبي بقتلي هؤلاء الأرجاس.

وعن المدائني، عن شيخ من أهل المدينة، قال: سألت الزهري: كم كانت القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الموالي، وممن لا يعرف من عبد وحر وامرأة عشرة آلاف، وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام.

* * *

سنة أربع وستين

ومن كان على مثل رأيه في الامتناع على يزيد بن معاوية قال علماء السير: لما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جنده أموالهم ثلاثاً، شخص بمن معه من الجند متوجهاً نحو مكة، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي.

* * *

سنة خمس وستين

للطلب بدم الحسين عليه السلام وذلك أن سليمان بن صرد بعث إلى رؤوس أصحابه من الشيعة، فأتوه، فلما استهلوا هلال ربيع الآخر خرج في وجوه أصحابه إلى النخيلة فلم يعجبه عدد الناس، فبعث حكيم بن منقذ الكندي في خيل، وبعث الوليد بن غصين الكناني في خيل، فقال: اذهبا حتى تدخلا الكوفة، فناديا: يا لثارات الحسين، فخرج منها خلق كثير، فنظر لما أصبح في ديوانه، فوجد الذين بايعوه على الخروج ستة عشر ألفاً لم يجتمع منهم إلا أربعة آلاف، فقال: أما يذكرون ما أعطونا من العهود؟ فقيل له: إن المختار يثبط الناس عنك، فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعث إلى المتخلفين فيذكرهم الله عز وجل، فخرج نحو من ألف رجل، فقال له المسيب بن نجية الفزاري: إنك لا ينفعك إلا من أخرجته النية فاكمش في أمرك. فقام فقال: والله ما نأتي غنيمة نغنمها، ولا فيئاً نستفيئه، وما معنا من ذهب ولا فضة، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا، ورماحنا في أكفنا وزاد بمقدار البلغة إلى لقاء عدونا، فمن يرى غير هذا فلا يصحبنا.

فلما عزم على المسير، قال بعض أصحابه: إن قتلة الحسين بالكوفة عمر بن سعد ورؤوس القبائل، فأنى نذهب.

وقال آخرون: بل نقصد ابن زياد فهو الذي عبى الجنود إليه فإن ظهرنا عليه كان من بعده أهون شوكة، وكان عمر بن سعد في تلك الأيام لا يبيت إلا في قصر الإمارة مخافة على نفسه، وجاء عبيد الله بن يزيد والي الكوفة إلى سليمان فقال: قم حتى نبعث معك جيشاً كثيفاً، فلم يقم وأدلج عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة خمس وستين، ولم يزل يسير إلى أن أتى قبر الحسين عليه السلام، فأقام عنده يوماً وليلة، فجعل أصحابه يبكون ويتمنون لو أصيبوا معه، وجعلوا يستغيثون: يا رب إنا خذلنا ابن بنت نبيك فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا.

ووصل كتاب عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد، وفيه: هذا كتاب ناصح محب، بلغني أنكم تسيرون بالعدد القليل إلى الجمع الكثير، وإنه من يرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكل معاوله، وينزع وهو مذموم العقل والفعل، ومتى أصابكم عدوكم طمع في من وراءكم: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾} [الكهف: ٢٠]. يا قوم، إن أيدينا وأيديكم واحدة، ومتى اجتمعت كلمتنا نظهر على عدونا.

فلما قرأ الكتاب على أصحابه، قال: ما ترون؟ قالوا: إنا قد أبينا هذا عليهم ونحن في مصرنا، فالآن حين دنونا من أرض العدو، ما هذا برأي. فساروا مجدين إلى أن وصلوا عين وردة، فأقاموا بها خمساً، فأقبل أهل الشام في عساكرهم، فقدم المسيب بن نجية فلقي أوائل القوم فأصابهم بالجراح فانهزموا فأخذوا منهم ما خف، فبلغ الخبر ابن زياد، فبعث الحصين بن نمير مسرعاً في اثني عشر ألفاً، فاقتتلوا فكان الظفر لسليمان إلى أن حجز بينهم الليل فأمدهم ابن زياد بذي الكلاع في ثمانية آلاف فكثروهم، فنزل سليمان ونادى: عباد الله، من أراد البكور إلى ربه، والتوبة من ذنبه، والوفاء بعهده، فإلي؛ ثم كسر جفن سيفه، ونزل ناس كثير، فقاتلوا فقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة. فاكتنفهم القوم ورموهم بالنبل، فقتل سليمان ثم المسيب وقتل الخلق.

* * *

باب ذكر خلافة عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ويكنى أبا الوليد، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص.

ولد في سنة ست وعشرين هو ويزيد بن معاوية.

وفي هذه السنة: حج بالناس عبد الله بن الزبير، وكان على المدينة مصعب بن الزبير، وعلى الكوفة في آخر السنة عبد الله بن مطيع، وعلى البصرة عبد الله بن الحارث بن أبي ربيعة، وعلى قضائها هشام بن هبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

* * *

سنة ست وستين

وذلك أن أصحاب سليمان بن صرد لما قتلوا بعد قتل من قتل منهم كتب إليهم المختار وهو في السجن: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإن الله عز وجل أعظم لكم الأجر، وحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين، وجهاد المحلين، وإنكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله عز وجل لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة، فابشروا، فإني لو خرجت إليكم جردت فيما بين المشرق والمغرب من عدوكم السيف بإذن الله عز وجل.

فبعثوا إليه في الجواب: إنا قد قرأنا كتابك ونحن بحيث يسرك، فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا، فقال لهم: إني أخرج في أيامي هذه. وشفع فيه عبد الله ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد الأميرين على الكوفة، فضمنوه جماعة من الأكابر وأخرجوه ثم أحلفاه بالله الذي لا إله إلا هو، لا يبغيهما غائلة، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة، ومماليكه كلهم أحرار، فحلف لهما.

ثم جاء إلى داره فنزلها، فقال: قاتلهم الله، ما أحمقهم حين يرون أني أفي لهم، أما حلفي بالله عز وجل فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها أن أكفره، وخروجي عليهم خير من كفي عنهم. ولما استقر في داره اختلفت الشيعة إليه ورضيت به، فلم يزل أمره يقوى إلى أن عزل عبد الله بن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد، وبعث عبد الله بن مطيع على عملهما بالكوفة، وبعث الحارث بن أبي ربيعة على البصرة، فقدم ابن مطيع الكوفة لخمس بقين من رمضان سنة خمس وستين، فقيل له: خذ المختار واحبسه، فبعث إليه فتهيأ للذهاب، فقرأ زائدة بن قدامة ففهمها المختار، فجلس وألقى ثيابه، وقال: ألقوا علي القطيفة، ما أراني إلا قد وعكت، ثم قال: أعلموا ابن مطيع حالتي واعتذروا عنده، فأخبر بعلته، فصدقه ولهى عنه، وبعث المختار إلى أصحابه، وأخذ يجمعهم في الدور حوله، وأراد أن يثب بالكوفة في المحرم، فقال بعض أصحابه لبعض: إن المختار يريد أن يخرج بنا وقد بايعناه ولا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا، فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية، فإن رخص لنا في أتباعه تبعناه، فذهبوا إليه فأخرجوه فقال: والله لوددت أن الله انتصر لنا بمن شاء، فلما قدموا قالوا: أذن لنا، ففرح المختار، وكان قد انزعج من خروجهم وخاف أن لا يأذن لهم، وقد كان إبراهيم بن الأشتر بعيد الصوت كثير العشيرة، فأرادوه أن يخرج مع المختار، فقال: بل أكون أنا الأمير، قالوا: إن محمد بن الحنفية قد أمر المختار بالخروج، فسكت، فصنع المختار كتاباً عن ابن الحنفية إليه يأمره بالموافقة للمختار، وأقام من يشهد أنه كتاب ابن الحنفية، فبايعه وتردد إليه، فاجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين.

فأتى إياس بن مضارب عبد الله بن مطيع، فقال: إن المختار خارج عليك إحدى الليلتين، فأخرج الشرط، وأقامهم على الطريق في الجبابين خارج البلد، فخرج إبراهيم بن الأشتر، وقال: والله لأمرن على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السوق، ولأرهبن عدونا، ولأرينهم هوانهم علينا، فمر فلقيه إياس ابن مضارب في الشرط مظهرين السلاح، فقال له ولأصحابه: من أنتم؟ فقال: أنا إبراهيم بن الأشتر، فقال: ما هذا الجمع معك؟ إن أمرك لمريب وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير، فتناول إبراهيم رمحاً من بعض أصحاب إياس فطعن به إياساً فقتله، وقال لرجل من قومه: انزل فاحتز رأسه، ففعل، فتفرق أصحابه ودخل إبراهيم على المختار، وكانت ليلة الأربعاء، فقال له: إنا اتعدنا للخروج ليلة الخميس، وقد حدث أمر لا بد له من الخروج الليلة، فقال: وما هو؟ فقال: عرض لي إياس بن مضارب فقتلته، فقال المختار: بشرك الله بخير، هذا أول الفتح، قم يا سعيد بن منقذ، فأسعل في الهرادي النيران ثم ارفعها للمسلمين، وقم يا عبد الله ابن شداد، فناد: يا منصور أمت، وقم أنت يا سفيان بن ليل، وأنت يا قدامة بن مالك وقل: يا لثارات الحسين. ثم قال المختار: علي بدرعي وسلاحي، فأتي به، فأخذ يلبس سلاحه

أني غداة الروع مقدام بطل ثم إن إبراهيم قال للمختار: إن هؤلاء الذين وضعهم ابن مطيع في الجبابين يمنعون إخواننا أن يأتونا، ويضيقون عليهم، فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتي قومي، فيأتيني كل من قد بايعني، ثم سرت بهم في نواحي الكوفة، ودعوت بشعارنا، فخرج إلي من أراد الخروج، قال: فاعجل، ولا تقاتل إلا من قاتلك.

فخرج إبراهيم، واجتمع إليه جل من كان بايعه، فسار بهم في سكك الكوفة، وخرج فهزم كل من لقيه من المسالح، وخرج المختار حتى نزل في ظهر دير هند. وخرج أبو عثمان النهدي ونادى: يا لثارات الحسين، ألا إن أمير آل محمد قد خرج فنزل دير هند، وبعثني إليكم داعياً، فاخرجوا رحمكم الله، فخرجوا من الدور يتداعون: يا لثارات الحسين. فوافى المختار منهم ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفاً كانوا بايعوه، واجتمعوا له قبل انفجار الصبح. وجمع ابن مطيع الناس في المسجد وبعث شبث بن ربعي إلى المختار في نحو من ثلاثة آلاف، وبعث راشد بن إياس في أربعة آلاف من الشرط، وخرج إبراهيم بن الأشتر في جماعة كثيرة واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل راشد وانهزم أصحابه، وجاء البشير بذلك إلى المختار، فقويت نفوس أصحابه، وداخل أصحاب ابن مطيع الفشل. ودنا إبراهيم من شبث وأصحابه، فحمل عليهم فانكشفوا حتى انتهوا إلى أبيات الكوفة، ورجع الناس من السبخة منهزمين إلى ابن مطيع، وجاءه قتل راشد بن إياس، فأسقط في يده.

وخرج فحض الناس على القتال، وقال: امنعوا حريمكم وقاتلوا عن مصركم، فقال إبراهيم للمختار: سر بنا، فما دون القصر أحد يمنع، ولا يمتنع كبير امتناع، فقال المختار: ليقم ها هنا كل شيخ وكل ذي علة، وضعوا ما كان لكم من ثقل ومتاع بهذا الموضع. واستخلف عليهم أبا عثمان النهدي، وقدم إبراهيم أمامه.

وبعث عبد الله بن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفين، فبعث المختار إلى إبراهيم أن أطوه ولا تقم، وأمر يزيد بن أنس أن يصمد لعمرو. ومضى المختار في أثر إبراهيم، وأقبل شمر بن ذي الجوشن في ألفين، فبعث إليه المختار سعيد بن منقذ، فواقعه، وبعث إلى إبراهيم أن أطوه وامض على وجهك، فمضى حتى انتهى إلى سكة شبث، وإذا نوفل بن مساحق في نحو من خمسة آلاف، وقد أمر ابن مطيع سويد بن عبد الرحمن فنادى في الناس أن يلحقوا بابن مساحق.

وولى حصار القصر إبراهيم بن الأشتر، ويزيد بن أنس، ويحمر بن شميط.

وخرج ابن مطيع فاستتر في داره، وخلى القصر، وفتح أصحابه الباب، وقالوا: يا ابن الأشتر، نحن آمنون؟ قال: نعم، فبايعوا المختار.

ودخل المختار القصر، فبات به، وخرج من الغد فصعد المنبر، فقال: الحمد لله الذي وعد وليه النصر، وعدوه الخسر، ثم نزل فبايعه الناس، فجعل يقول: تبايعون على كتاب الله وسنة رسول الله ، والطلب بدماء أهل البيت، وجهاد المحلين، وأخذ المختار في السيرة الجميلة، فقيل له، إن ابن مطيع في الدار الفلانية، فسكت، فلما أمسى بعث إليه بمائة ألف درهم، وقال له: تجهز بهذه واخرج فإني قد شعرت بمكانك، وكان صديقه قبل ذلك.

* * *

سنة سبع وستين

وذلك أن إبراهيم بن الأشتر خرج يقصد ابن زياد، فالتقوا قريباً من الموصل، فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل خلق كثير من الفريقين، وقال ابن الأشتر: قتلت رجلاً وجدت منه ريح المسك تحت راية مفردة على شاطئ نهر فالتمسوه، فإذا هو عبد الله بن زياد، ضربه فقده نصفين، وقتل الحصين بن نمير، وانهزم أصحاب ابن زياد، وتبعهم أصحاب إبراهيم، فكان من غرق أكثر ممن قتل، وأصابوا عسكرهم وفيه من كل شيء وخرج المختار من الكوفة، فنزل ساباط، وجاءته البشرى بقتل ابن زياد وهزيمة أصحابه، وانصرف المختار إلى الكوفة، ومضى ابن الأشتر إلى الموصل، وبعث عماله عليها.

وفي هذه السنة: ولى عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير على البصرة فدخلها فصعد المنبر فخطب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم:{طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ } [القصص: ١ - ٣]، إلى قوله:{إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ } [القصص: ٤] - وأشار بيده إلى الشام -{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾} [القصص: ٥] - وأشار بيده نحو الحجاز -{وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ } [القصص: ٦] - وأشار بيده نحو الشام.

وفي هذه السنة: سار مصعب بن الزبير إلى المختار فقتله

سنة ثمان وستين

بعد عزله إياه، فبدأ بالبصرة فدخلها. وبعث الحارث بن أبي ربيعة على الكوفة أميراً.

سنة تسع وستين

قال الواقدي: واستخلف عمرو بن سعيد بن العاص على دمشق فتحصن بها، فبلغ ذلك عبد الملك، فرجع إلى دمشق فحاصره.

وقال غيره: خرج معه إلى بعض الطريق ثم رجع إلى دمشق فتحصن بها.

قال عوانة بن الحكم: خرج عبد الملك من دمشق يريد قرقيساء، وفيها زفر بن الحارث الكلابي حتى إذا كان في بعض الطريق رجع عمرو بن سعيد عنه ليلاً ومعه حميد بن حريث بن بحدل الكلابي حتى أتى دمشق وعليها عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي قد استخلفه عبد الملك، فلكا بلغه رجوع عمرو هرب وترك عمله، فدخلها عمرو فغلب عليها وعلى خزائنها.

سنة سبعين

فصالح عبد الملك ملك الروم على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين.

وفيها: شخص مصعب بن الزبير إلى مكة فقدمها بأموال عظيمة فقسمها في قومه وغيرهم، وقدم بدواب كثيرة وظهر وأثقال، فأرسل إلى عبد الله بن صفوان، وجبير بن شيبة، وعبد الله بن مطيع مالاً كثيراً، ونحر بدناً كثيرة.

وفيها: حج بالناس عبد الله بن الزبير، وكان عماله على أمصاره عماله في السنة التي قبلها على المعاون والقضاء، وبالشام عبد الملك بن مروان.

* * *

سنة إحدى وسبعين

لحرب ابن الزبير وكان عبد الملك لا يزال يقرب من مصعب، ويخرج مصعب ثم تهجم الشتاء فيرجع كل واحد مهنما إلى موضعه، ثم يعودان. ثم إن عبد الملك خرج من الشام يريد مصعباً من سنة سبعين ومعه خالد بن عبد الله، فقال له خالد: إن وجهتني إلى البصرة وأتبعتني خيلاً يسيرة رجوت أن أغلبك عليها، فوجهه عبد الملك، فقدمها مستخفياً في مواليه وخاصته حتى نزل على عمرو بن أصمع الباهلي، فأجاره وأرسل إلى عباد بن الحصين - وكان على شرطة ابن معمر، وكان مصعب إذا شخص عن البصرة استخلف عبيد الله بن عبد الله بن معمر - ورجا عمرو بن أصمع أن يتابعه عباد، فقال له: إني قد أجرت خالداً، وأحببت أن تعلم ذلك لتكون لي ظهراً، فوافاه رسوله حين نزل عن فرسه، فقال له عباد: قل له: والله لا أضع لبد فرسي حتى أتيك في الخيل، فقال عمرو لخالد: إني لا أغرك، هذا عباد يأتينا الساعة، ولا والله ما أقدر على منعك؛ ولكن عليك بمالك بن مسمع.

فخرج يركض، عليه قميص قوهي قد حسره عن فخذيه، وأخرج رجليه من الركابين حتى أتى مالك، فقال: إني قد اضطررت إليك فأجرني، قال: نعم. ووجه مصعب زحر بن قيس مدداً لابن معمر في ألف، ووجه عبد الملك عبد الله ابن زياد بن ظبيان مدداً لخالد، فلما وصل علم تفرق الناس فلحق بعبد الملك ودافع مالك بن مسمع عن خالد، وكانت تجري مناوشات وقتال وأصيبت عين مالك بن مسمع فضجر من الحرب، ومشت السفراء بينهم، فصولح مالك على أن يخرج خالد وهو آمن، فأخرجه من البصرة.

سنة اثنتين وسبعين

قال علماء السير: اقتتلت الأزارقة والمهلب بسولاف ثمانية أشهر أشد القتال، فأتاهم قتل مصعب بن الزبير، فبلغ ذلك إلى الأزارقة قبل المهلب، فنادت الخوارج لعسكر المهلب: ما قولكم في مصعب؟ فقالوا: إمام هدى، قالوا: فما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: نحن براء منه، قالوا: فإن مصعب قد قتل، وستجعلون غداً عبد الملك إمامكم.

فلما كان من الغد بلغ المهلب الخبر، فبايع لعبد الملك، فقالت الخوارج: يا أعداء الله، أنتم أمس تتبرأون منه وهو اليوم إمامكم. وكان عبد الملك قد ولى على البصرة خالد بن عبد الله، فبعث خالد للمهلب على خراج الأهواز، وبعث أخاه عبد العزيز على قتال الأزارقة، فهزم وأخذت زوجته بنت المنذر بن الجارود، فأقيمت فيمن يزيد، فبلغت مائة ألف، وكانت جميلة، فغار رجل من قومها كان من رؤوس الخوارج، فقال: تنحوا، ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم، فضرب عنقها.

وكتب خالد إلى عبد الملك يخبره بما جرى، فكتب إليه: قبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب يجبي الخراج وهو البصير بالحرب، فإذا أمنت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى يحضر المهلب وتستشيره فيه.

وكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان: أما بعد، فإني قد كتبت إلى خالد بن عبد الله آمره بالنهوض إلى الخوارج، فسرح إليه خمسة آلاف رجل، وابعث عليهم رجلاً ترضاه، فإذا قضوا غزاتهم تلك صرفتهم إلى الري فقاتلوا عدوهم.

فقطع على الكوفة خمسة آلاف، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقال: إذا قضيت غزاتك هذه فانصرف إلى الري، وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز، فقال له المهلب: إني أرى ها هنا سفناً كثيرة، فضمها إليك، فوالله ما أرى القوم إلا محرقيها، فما لبث إلا ساعة حتى أقبلت خيل من خيلهم فحرقتها. وبعث خالد المهلب على ميمنته، وداود بن قحذم على ميسرته، ومر المهلب على عبد الرحمن بن محمد ولم يخندق، فقال له: يا ابن أخي ما يمنعك من الخندق، فقال: والله لهم أهون علي من ضرطة الحمار، قال: فلا يهونوا عليك فإنهم سباع العرب، لا أبرح أو تضرب عليك خندقاً.

فأقاموا نحو عشرين ليلة، ثم إن خالداً زحف إليهم بالناس، فرأوا عدداً هائلاً، فولوا وأخذ المسلمون ما في عسكرهم، واتبعهم خالد وداود في جيش من أهل البصرة يقتلونهم، وانصرف عبد الرحمن إلى الري، وأقام المهلب بالأهواز، وكتب خالد إلى عبد الملك يخبره بأن المارقين انهزموا وتبعهم فقتل من قتل منهم، وقد تبعهم داود بن قحذم.

فكتب عبد الملك إلى بشر بن مروان: أما بعد فابعث من قبلك رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فليسيروا إلى فارس في طلب المارقة، فإن خالداً كتب يخبرني أنه قد بعث في طلبهم داود بن قحذم، فمر صاحبك الذي تبعث أن لا يخالف ابن قحذم إذا التقيا.

فبعث بشر عتاب بن ورقاء على أربعة آلاف من أهل الكوفة، فخرجوا فالتقوا بداود فتبعوا القوم إلى أن نفقت عامة خيولهم، ورجعوا إلى الأهواز.

وفي هذه السنة: خرج أبو فديك الخارجي فغلب على البحرين فبعث خالد بن عبد الله أخاه أمية بن عبد الله بجند، فهزمهم أبو فديك، فرجع أمية إلى البصرة.

وفي هذه السنة: وجه عبد الملك الحجاج بن يوسف إلى مكة لقتال ابن الزبير وكان السبب في توجيهه الحجاج دون غيره، أن عبد الملك لما أراد الرجوع إلى الشام قام إليه الحجاج بن يوسف فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته، فابعثني إليه وولني قتاله. فبعثه فخرج في ألفين من أهل الشام في جمادى سنة اثنتين وسبعين فلم يعرض للمدينة، فسار حتى نزل الطائف، فكان قدومه الطائف في شعبان، وقد كتب عبد الملك لأهل مكة الأمان إن دخلوا في طاعته، وكان الحجاج يبعث البعوث إلى عرفة في الخيل، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هناك، وفي كل ذلك تهزم خيل ابن الزبير ويرجع الحجاج بالظفر.

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليه، ويخبره أن شوكته قد قلت، وقد تفرق عنه عامة أصحابه ويسأله أن يمده برجال.

فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج، فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق بالحجاج، فلما دخل شهر ذي العقدة رحل الحجاج من الطائف حتى نزل بئر ميمون، وحصر ابن الزبير لهلال ذي القعدة. وكان قدوم طارق مكة لهلال ذي الحجة، ولم يطف بالبيت ولم يصل إليه وهو محرم، وكان يلبس الحجاج السلاح، ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قتل ابن الزبير.

ونحر ابن الزبير بدناً بمكة يوم النحر، ولم يحج ذلك العام ولا أصحابه لأنهم لم يقفوا بعرفة، ونحر أصحاب الحجاج وطارق فيما بين الحجون إلى بئر ميمون.

وحج الحجاج بالناس ولم يطف بالبيت، وكان العامل على المدينة طارق مولى عثمان من قبل عبد الملك، وعلى الكوفة بشر بن مروان، وعلى قضائها عبد الله ابن عتبة بن مسعود، وعلى البصرة خالد بن عبد الله، وعلى قضائها هشام بن هبيرة.

* * *

سنة ثلاث وسبعين

قد ذكرنا أن ابن الزبير حصر لهلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وما زال الحجاج يحصره ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة. وكانوا يضربونه بالمنجنيق.

قال يوسف بن ماهك: رأيت المنجنيق يرمى به فرعدت السماء وبرقت وعلا صوت كالرعد، فأعظم ذلك أهل الشام فأمسكوا أيديهم، فرفع الحجاج حجر المنجنيق فوضعه ثم قال: ارموا، ثم رمى معهم، ثم جاءت صاعقة تتبعها أخرى، فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: لا تنكروا هذا فإني ابن تهامة، هذه صواعق تهامة، هذا الفتح قد حضر، فصعقت من الغد صاعقة، فأصيب من أصحاب ابن الزبير عشرة، فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يصابون.

قال: فجاءت صاعقة فأحرقتهم، فامتنع الناس من الرمي فخطبهم الحجاج فقال: ألم تعلموا أن بني إسرائيل كانوا إذا قربوا قرباناً فجاءت نار فأكلته علموا أنه قد تقبل منهم، وإن لم تأكله قالوا لم تقبل، فما زال يخدعهم حتى عادوا فرموا.

قال علماء السير: فلم تزل الحرب إلى قبيل مقتل ابن الزبير، فتفرق عامة أصحابه وخذلوه، وخرج عامة أهل مكة إلى الحجاج في الأمان حتى ذكر أن ولديه حمزة وحبيب أخذوا لأنفسهما أماناً، فدخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء حين رأى من الناس ما رأى من الخذلان، فقال لها: خذلتني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا من ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، وقد قتل عليك أصحابك، ولا تمكن من رقبتك فينقلب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك. وإن قلت: كنت على الحق فلما وهن أصحابك ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلدوك في الدنيا! القتل القتل أحسن.

فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل أن تستحل حرمته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك في مثل ذلك، فانظري يا أمي فإني مقتول في يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمداً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله عز وجل، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي عز وجل، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني. فقالت: إني لأرجو من الله عز وجل أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، أخرج حتى أنظر ما يصير أمرك، فقال: جزاك الله يا أماه خيراً، ولا تدعي الدعاء لي قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب في الظلماء، وذلك الصوم في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم إني قد أسلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.

وفي رواية أخرى: أنه دخل عليها وعليه الدرع والمغفر، فوقف فسلم ثم دنا فتناول يدها فقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تقعد، فقال: جئت مودعاً، إني لأرى هذا آخر أيامي من الدنيا، واعلمي يا أماه أني إن قتلت فإنما أنا لحم لا يضرني ما صنع بي، قالت: صدقت يا بني، أتمم على نصرتك، ولا تمكن ابن أبي عقيل منك، ادن مني أودعك. فدنا منها فودعها وقبلها وعانقها، وقالت حيث مست الدرع: ما هذا صنيع من يريد من تريد، قال: ما لبست هذا الدرع إلا لأشد منك، قالت: فإنه لا يشد مني.

ثم إن القوم أقاموا على كل باب رجالاً وقائداً، فشحنت الأبواب بأهل الشام، وكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية، ومرة في هذه الناحية، كأنه أسد لا يقدم عليه الرجال، وقالت لابن الزبير زوجته: اخرج أقاتل معك؟ فقال: لا، وأنشد:

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة سبع عشرة من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير الأبواب، وبات ابن الزبير يصلي ليلته، ثم احتبى بحمائل سيفه فأغفى، ثم انتبه، فقال: أذن يا سعد، فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير، وركع ركعتي الفجر ثم تقدم، وأقام المؤذن، فصلى بأصحابه، فقرأ:{نٓ وَٱلۡقَلَمِ} [القلم: ١]. وقال: من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول

ثم قال: احملوا على بركة الله، ثم حمل حتى بلغ بهم الحجون، فرمي بآجرة فأصابته في وجهه فأرعش لها ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم تسيل على وجهه ولحيته، وتغاووا عليه فقتل.

وجاء الخبر إلى الحجاج فسجد وسار حتى وقف عليه ومعه طارق بن عمرو، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا فبعث الحجاج رأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو إلى المدينة، فنصبت بها، ثم ذهب بها إلى عبد الملك، وسيأتي تمام قصة ابن الزبير في ذكر من مات في هذه السنة.

* * *

سنة أربع وسبعين

واستعمل عليها الحجاج بن يوسف: فانصرف الحجاج إلى المدينة والياً عليها في صفر، فأقام بها ثلاثة أشهر يعبث بأهلها ويتعنتهم ويقول: قتلتم أمير المؤمنين، وبنى بها مسجداً في بني سلمة، فهو ينسب إليه. واستخف فيها بأصحاب رسول الله ، فختم في أعناقهم.

ودعا سهل بن سعد، فقال: ما منعك أن تنصر عثمان؟ قال: قد فعلت. قال: كذبت، ثم أمر به فختم في عنقه برصاص. وختم في عنق أنس بن مالك، وكلمه بالقبيح.

فلما جاءه كتاب عبد الملك بولاية العراقين أعطى البشير ثلاثة آلاف دينار وهو يقول: الحمد لله الذي أخرجني منها.

وفي هذه السنة: استقضى عبد الملك أبا إدريس الخولاني.

وفيها: نقض الحجاج بنيان الكعبة الذي كان بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منها وأعادها إلى بنيانها الأول.

وفيها: ولى عبد الملك المهلب لحرب الأزارقة.

وفي هذه السنة: عزل عبد الملك بكير بن وشاح، وولى أمية بن خالد بن أسد.

وفيها: حج بالناس الحجاج وهو على مكة والمدينة، وكان ولى قضاء المدينة عبد الله بن قيس بن مخرمة، وكان على الكوفة والبصرة بشر بن مروان، هذا في رواية. وقد ذكرنا أنه توفي في السنة التي قبلها.

وكان على خراسان أمية بن عبد الله بن خالد، وعلى قضاء الكوفة شريح، وعلى قضاء البصرة هشام بن هبيرة.

سنة خمس وسبعين

وقد روينا أن أول من ضرب الدراهم آدم عليه السلام.

وقد وجدوا دراهم ضرب عليها اسم أردشير بن بابك قبل الإسلام بأكثر من أربعمائة سنة، فضربها عبد الملك ونقش عليها. وكانت مثاقيل الجاهلية التي ضرب عليها عبد الملك اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي، وكانت العشرة وزن سبعة. وقيل: ضربها سنة ست وسبعين.

سنة ست وسبعين

وفي هذه السنة: دخل شبيب الكوفة وذلك أنه لما قتل صالح، كان قتله يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقين من جمادى الآخرة - فقال شبيب لأصحابه: بايعوني أو بايعوا من شئتم، فبايعوه، فخرج فقتل من قدر عليه، وبعث الحجاج جنداً في طلبه فهزمهم، فبعث إليهم سورة بن الأبجر، فذهب شبيب إلى المدائن فأصاب منها وقتل من ظهر له، ثم خرج فأتى النهروان، فتوضأ هو وأصحابه وصلوا، وأتوا مصارع إخوانهم الذين قتلهم علي بن أبي طالب، فاستغفروا لإخوانهم وتبرؤوا من علي وأصحابه، وبكوا فأطالوا البكاء، ثم خرجوا فقطعوا جسر النهروان ونزلوا في جانبه الشرقي، ثم التقوا فهزموا سورة، فمضى فله إلى الحجاج، فقال: قبح الله سورة، ثم دعا عثمان بن سعيد، فقال: تيسر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق النزق، ولا تحجم إحجام الواني الفرق: فقال: لا تبعث معي أحداً من أهل هذا الفل، قال: لك ذاك، ثم أخرج مع أربعة آلاف، فجعل كلما مضى إلى مكان رحل شبيب إلى مكان أراده أن يتعجل إليه في فل من أصحابه، فما زالوا يتراوغون ويذهبون من مكان إلى مكان، ويقتتلون إذا التقوا وينهزمون. فطال ذلك على الحجاج، فولى سعيد بن المجالد على ذلك الجيش، وقال له: اطلبهم طلب السبع، ولا تفعل فعل عثمان.

فلقوهم فانهزم أصحاب سعيد، وثبت هو، فضربه شبيب فقتله، ورجع الناس إلى أميرهم الأول عثمان، فبعث الحجاج سويد بن عبد الرحمن في ألفي فارس، وقال: اخرج إلى شبيب فالقه، فخرج فلقيه فحمل عليه شبيب حملة منكرة، ثم أخذ نحو الحيرة، فتبعه سويد، وخرج الحجاج نحو الكوفة، فبادره شبيب إليها، فنزل الحجاج الكوفة صلاة العصر، ونزل شبيب السبخة صلاة المغرب، ثم دخل الكوفة، وجاء حتى ضرب باب القصر بعموده، ثم خرج من الكوفة، فنادى الحجاج وهو فوق القصر: يا خيل الله اركبي.

وبعث بسر بن غالب في ألفين، وزائدة بن قدامة في ألفين، وأبا الضريس في ألف من الموالي. وخرج شبيب من الكوفة فأتى المردمة ثم مضى نحو القادسية، ووجه الحجاج زحر بن قيس في جريدة خيل نقاوة ألف وثمانمائة فارس، فالتقيا، فنزل زحر فقاتل حتى صرع وانهزم أصحابه.

وانعطف شبيب على الأمراء المبعوثين إليه، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الكرة لشبيب، فقال الناس: ارفعوا السيف وادعوا الناس إلى البعة، ثم إنه ارتحل، وكان الحجاج تقول: أعياني شبيب.

ثم دعا عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فقال: انتخب ستة آلاف واخرج في طلب هذا العدو، فلما اجتمع العسكر كتب إليهم الحجاج: أما بعد، فإنكم قد اعتدتم عادة الأذلاء، وقد صفحت لكم مرة بعد مرة، وإني أقسم بالله عز وجل قسماً صادقاً إن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعاً يكون أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب.

وبعث إلى عبد الرحمن عند طلوع الشمس، فقال: ارتحل الساعة، وناد في الناس: برئت الذمة من هذا البعث وجدناه متخلفاً، فخرج حتى مر بالمدائن، فنزل بها يوماً وليلة، واشترى أصحابه حوائجهم، ثم نادى بالرحيل، ودخل على عثمان بن قطن، فقال له عثمان: إنك تسير إلى فرسان العرب وأبناء الحرب، وأحلاس الخيل، والله لكأنهم خلقوا من ضلوعها، الفارس منهم أشد من مائة، فلا تلقهم إلا في تعبية أو في خندق، فخرج في طلب شبيب، فارتفع شبيب إلى دقوقاء. وكتب الحجاج إلى عبد الرحمن: أن اطلب شبيباً أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه.

وكان شبيب يدنو من عبد الرحمن فيجده قد خندق على نفسه وحذر، فيمضي عنه، فإذا بلغه أنه قد سار انتهى إليه، فوجده قد صف الخيل، فلا يصيب له غرة، فإذا دنا منه عبد الرحمن ارتحل خمسة عشر فرسخاً أو عشرين، فنزل منزلاً غليظاً خشناً.

ثم إن الحجاج عزل عبد الرحمن، وولى عثمان بن قطن، وعلى أصحابه، فخرج شبيب في مائة وواحد وثمانين رجلاً، فحمل عليهم فانهزموا، ودخل شبيب عسكرهم، وقتل نحواً من ألفين من ذلك العسكر، وقيل لابن الأشعث: قد ذهب الناس، وتفرقوا وقتل خيارهم، فرجع إلى الكوفة، فاختبأ من الحجاج حتى أخذ له الأمان بعد ذلك.

* * *

سنة سبع وسبعين

فمن الحوادث فيها: قتل شبيب عتاب بن ورقاء الرياحي وزهرة بن حيوية.

* * *

سنة ثمان وسبعين

وكان السبب أن الحجاج لما فرغ من أمر مشيب ومطرف شخص من الكوفة إلى البصرة، واستخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل، فقدم عليه المهلب وقد فرغ من الأزارقة، فأجلسه معه وأحسن أعطيات أصحابه، وزادهم، وكان الحجاج قد ولى المهلب سجستان مع خراسان، فقال له المهلب: ألا أدلك على رجل هو أعلم مني بسجستان؟ قال: بلى، قال: عبد الله بن أبي بكرة، فبعثه على سجستان، وكان العامل هناك أمية بن عبد الله.

* * *

سنة تسع وسبعين

حتى كاد الناس يفنون من شدته. ولم يغز تلك السنة. وفيها: أصابت الروم أهل أنطاكية. وفيها غزا عبيد الله رتبيل: وذلك أن الحجاج كتب إليه: لا ترجع حتى تستبيح أرضه، وتهدم قلاعه، وتقتل مقاتلته، وتسبي ذريته، فخرج بمن معه من المسلمين وأهل الكوفة والبصرة. وكان من أهل الكوفة شريح بن هانئ الحارثي، وكان من أصحاب علي ☺، فمضى حتى أوغل في بلاد رتبيل، فأصاب من الغنم والبقر والأموال ما شاء، وهدم قلاعها وحصونها، ودنوا من مدينة الترك، فأخذوا على المسلمين بالعقاب والشعاب، وخلوهم والرساتيق، فسقط في يد المسلمين، فظنوا أن قد هلكوا، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح بن هاني: إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلوا بيني وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فقال له شريح: إنك لا تصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم، فقالوا: منعنا العطاء أهون من هلاكنا، فقال شريح: والله لقد بلغت سناً وما أظن ساعة تأتي علي فتمضي حتى أموت، ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان، فأتتني اليوم، يا أهل الشام، تعاونوا على عدوكم. فقال له ابن أبي بكرة: إنك شيخ قد خرفت، فقال له شريح: إنما حسبك أن يقال: بستان ابن أبي بكرة، أو حمام ابن أبي بكرة، يا أهل الشام، من أراد الشهادة فليأت، فتبعه ناس من المتطوعة، فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه ثم خرج المسلمون من تلك البلاد.

سنة ثمانين

فسمي ذلك العام عام الجحاف لأنه جحف كل شيء مر به، حتى أنه كان يأخذ الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء ليس لأحد فيهم حيلة، وبلغ السيل الركن وجاوزه.

وفيها وجه الحجاج محمد بن الأشعث إلى سجستان لحرب رتبيل صاحب الترك.

* * *

سنة إحدى وثمانين

وقال المدائني: أغزى عبد الملك ابنه عبيد الله سنة إحدى وثمانين، ففتح قاليقلا.

وفي هذه السنة: قتل بحير بن ورقاء الصريمي وكان السبب أن بحيراً هو الذي تولى قتل بكير بن وشاح بأمر أمية بن عبد الله، فتعاقد سبعة عشر من بني عوف بن كعب على الطلب بدم بكير، فذهب بعضهم فقتله.

وفيها: خالف عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الحجاج ومن معه من جند العراق: وأقبلوا إليه لحربه، هذا قول أبي المخارق الراسبي. وقال الواقدي: إنما كان ذلك في سنة اثنتين وثمانين.

* * *

سنة اثنتين وثمانين

فمن ذلك أن ابن الأشعث كان قد دخل البصرة في آخر ذي الحجة، واقتتلوا في محرم هذه السنة، وتزاحفوا ذات يوم فاشتد قتالهم فهزمهم أهل العراق حتى بلغت هزيمتهم إلى الحجاج، فلما رأى الحجاج ذلك جثا على ركبتيه وقال: لله در مصعب ما كان أكرمه، فعلم أنه لا يريد أن يفر، ثم هزم أهل العراق فخر ساجداً، وأقبل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث نحو الكوفة وتبعه من كان معه من أهل الكوفة، وتبعه أهل القوة من أهل البصرة، فوثب أهل البصرة حينئذ إلى عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه، فقاتل بهم الحجاج أشد قتال خمس ليال، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث.

وفي هذه السنة: كانت وقعة دير الجماجم بين الحجاج وابن الأشعث وذلك في شعبان.

* * *

سنة ثلاث وثمانين

وذلك أن عبد الرحمن نزل دير الجماجم، وهو دير بظاهر الكوفة على طرف البر الذي يسلك منه إلى البصرة، وإنما سمي بدير الجماجم لأنه كان بين أياد والقين حروب فقتل من أياد والقين خلق كثير ودفنوا، فكان الناس يحفرون فتظهر لهم جماجم فسمي دير الجماجم، وذلك اليوم بيوم الجماجم.

ونزل الحجاج دير قرة - وهو مما يلي الكوفة بإزاء دير الجماجم - فقال الحجاج: ما اسم هذا الموضع الذي نزل فيه ابن الأشعث؟ قيل له: دير الجماجم، فقال الحجاج: يقال هو بدير الجماجم فتكثر جماجم أصحابه عنده، ونحن بدير قرة ملكنا البلاد، واستقررنا فيها.

واتصلت الحرب بينهما مائة يوم كان فيها إحدى وثمانون وقعة، وكان يحمل بعضهم على بعض، فحمل أهل الشام مرة بعد مرة، فنادى عبد الرحمن بن أبي ليلى: يا معشر القراء، إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إني سمعت علياً عليه السلام يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون، إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور قلبه باليقين فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق ولا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.

وقال أبو البختري: أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدن عليكم دينكم، وليغلبن على دنياكم. وقال الشعبي: يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم، فوالله ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم في الحكم.

وقال سعيد بن جبير: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم الضعفاء، وأماتتهم الصلاة. فحمل أصحاب عبد الرحمن على القوم حتى أزالوهم عن صفهم، ثم عادوا فإذا جبلة بن زحر بن قيس الجعفي الذي كان على الرجالة صريع، فانكسر القراء، وحمل رأسه إلى الحجاج، فقال: يا أهل الشام، أبشروا هذا أول الفتح، وما زالوا يقتتلون ويتبارز الرجل والرجل مائة يوم.

ثم إن أصحاب عبد الرحمن انهزموا في بعض الأيام، وأخذوا في كل وجه، وصعد عبد الرحمن المنبر، وأخذ ينادي الناس: عباد الله إلي إلي عباد الله، إلي أنا ابن محمد. وجاء إلى جماعة من أصحابه، فأقبل أهل الشام فحملوا عليهم وهو على المنبر، فقال له عبد الله بن يزيد الأزدي: انزل فإني أخاف عليك أن تؤسر، ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به بعد اليوم. وحضر مع القوم سلمة بن كهيل، وعطاء السلمي، والمعرور بن سويد، وطلحة بن مصرف. ورأى طلحة رجلاً يضحك فقال له: أما إنك تضحك ضحك من لم يحضر الجماجم، فقيل له: وشهدت الجماجم؟ فقال: نعم ورميت فيها بسهم وليت يدي قطعت ولم أرم فيها.

ثم إنه نزل من على المنبر وانهزم أهل العراق لا يلوون على شيء، ومضى عبد الرحمن في أناس من أهل بيته إلى منزله، فخرجت إليه ابنته فالتزمها، وخرج أهله يبكون، فأوصاهم بوصية، وقال: لا تبكوا، فكم عسيت أن أبقى معكم، وإن الذي يرزقكم حي، ثم ودعهم وخرج من الكوفة، فقال الحجاج: لاتتبعوهم، ومن رجع فهو آمن.

وجاء الحجاج إلى الكوفة فدخلها، فجاء الناس إليه، فكان لا يبايعه أحد إلا قال: أتشهد أنك كفرت؟ فإذا قال نعم بايعه وإلا قتله، فجاء رجل من خثعم فقال له: أتشهد أنك كافر؟ فقال: بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله عز وجل ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر، قال: إذاً أقتلك، قال: وإن قتلتني فوالله ما بقي من عمري ظمء حمار، وإني لأنتظر الموت صباحاً ومساء، فقال: اضربوا عنقه، فضربت عنقه.

ودعا بكميل بن زياد فقتله، وأتي برجل فقال الحجاج: إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر، فقال: أخادعي أنت عن نفسي، أنا أكفر أهل الأرض، وأكفر من فرعون ذي الأوتاد، فضحك الحجاج وخلى سبيله.

وأقام الحجاج بالكوفة شهراً.

* * *

سنة أربع وثمانين

وفي هذه السنة: غزا عبد الله بن عبد الملك بن مروان الروم ففتح المصيصة. وفيها: فتح يزيد بن المهلب قلعة كان يراصدها، وكتب إلى الحجاج: إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم، وقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية، وأهضام الغيطان. فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟ فقيل: يحيى ابن يعمر، فكتب إلى يزيد ليحمله على البريد، فلما دخل عليه رأى أفصح الناس، فقال: أين ولدت؟ قال: بالأهواز، فقال: من أين لك هذه الفصاحة؟ قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحاً. قال: فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً، قال: ففلان؟ قال: نعم، قال: فأخبرني عني ألحن؟ قال: نعم تلحن لحناً خفيفاً؛ تزيد حرفاً وتنقص حرفاً، وتجعل أن في موضع إن، قال: أجلتك ثلاثاً، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك. فرجع إلى خراسان.

* * *

سنة خمس وثمانين

وفي هذه السنة: بايع عبد الملك لولديه الوليد ثم سليمان بعده وجعلهما وليي عهده، فكتب ببيعتهما إلى البلدان، وكتب إلى هشام بن إسماعيل المخزومي أن يدعو الناس إلى بيعة ابنيه الوليد وسليمان، فبايعوا غير سعيد بن المسيب فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حي فضربه هشام ستين سوطاً، وطاف به في ثياب شعر وسرحه إلى ذباب - ثنية بظاهر المدينة كانوا يقتلون عندها ويصلبون - فظن أنهم يريدون قتله، فلما انتهوا به إلى ذلك الموضع ردوه، فقال: لو ظننت أنهم لا يقتلونني ما لبست سراويل مسوح. فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: قبح الله هشاماً، إنما كان ينبغي له أن يدعوه إلى البيعة فإن أبى كف عنه أو يضرب عنقه.

وقد ذكرنا أن ابن المسيب ضرب في بيعة ابن الزبير أيضاً لأنه قال: لا أبايع حتى يجتمع الناس، فضربه جابر بن الأسود، وكان عامل ابن الزبير في أيامه على المدينة.

وفي هذه السنة: ولي قتيبة بن مسلم خراسان.

* * *

سنة ست وثمانين

ويقال طاعون الفتيات، ماتت فيه الجواري، وكان بالشام والبصرة وواسط، والحجاج يومئذ بواسط. وقيل: أنه كان في سنة سبع وثمانين. وفيها: مرض عبد الملك، ومات وبويع لولده الوليد بن عبد الملك بن مروان.

* * *

باب ذكر خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان.

ويكنى أبا العباس، أمه ولادة العبسية، وكان أسمر طوالاً، حسن الوجه، وكان له تسعة عشر ابناً: عبد العزيز، ومحمد أمهما أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأبو عبيدة أمه فزارية، والعباس، وإبراهيم وليا الخلافة، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومبشر، ومسرور، وصدقة، ومنصور، ومروان، وعنبسة، وعمر وهو فحل بني مروان وكان يركب ومعه ستون من صلبه ذكوراً، وروح، وبشر، ويزيد وهو الناقص ولي الخلافة، ويحيى، لأمهات شتى.

* * *

سنة سبع وثمانين

فورد عزله عنها في ليلة الأحد لسبع ليال خلون من شهر ربيع الأول، وكانت إمارته عليها أربع سنين غير شهر أو نحوه.

وفيها: ولي عمر بن عبد العزيز المدينة.

فقدم والياً في ربيع الأول وهو ابن خمس وعشرين سنة، فقدم على ثلاثين بعيراً، فنزل دار مروان، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً استعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرج على من بلغه ذلك إلا بلغني، فجزوه خيراً وانصرفوا. وفيها: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يقف هشام بن إسماعيل للناس

وكان سيئ الرأي فيه، فقال سعيد بن المسيب لولده ومواليه: إن هذا الرجل وقف للناس فلا يتعرض له أحد ولا يؤذه بكلمة، فإنا سنترك ذلك لله وللرحم، فأما كلامه فلا أكلمه، أبداً، فوقف عند دار مروان، وكان قد لقي منه علي بن الحسين أذى كثيراً، فتقدم إلى خاصته ألا يعرض له أحد بكلمة، فمر عليه علي فناداه هشام: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

* * *

سنة ثمان وثمانين

يدعى طوانة في جمادى الآخرى، وهزموا العدو هزيمة بلغوا فيها إلى كنيستهم، ثم رجعوا فانهزم الناس حتى ظنوا أنهم لا يجتبرونها أبداً، وبقي العباس معه نفير؛ منهم ابن محيريز الجمحي، فقال العباس لابن محيريز: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك، فنادى العباس: يا أهل القرآن، فأقبلوا جميعاً، فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة، وشتوا بها.

* * *

سنة تسع وثمانين

وذكر الواقدي أن مسلمة والعباس دخلا جميعاً في هذه السنة أرض الروم غازيين، ثم افترقا، فافتتح مسلمة حصن سورية، وافتتح أذرولية، ووافق من الروم جمعاً فهزمهم، وقصد مسلمة عمورية، وغزا الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ففتح حصوناً ومدائن وغزا العباس الصائفة من ناحية البدندون.

* * *

وفيها غزا قتيبة بخارى.

ففتح بعض بلدانها، ولقيه الصغد فظفر بهم.

وفي هذه السنة: ابتدئ بالدعاء لبني العباس، وكان الدعاء لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وسمي بالإمام، وكوتب وأطيع، ثم لم يزل الأمر ينمى ويقوى ويتزايد إلى أن توفي في سنة أربع وعشرين ومائة.

* * *

سنة تسعين

وفيها: غزا العباس بن الوليد حتى بلغ الأردن، وقيل: بل بلغ سورية.

وفيها: قتل محمد بن القاسم الثقفي ملك السند، وكان على جيش من قبل الحجاج.

وفيها: ولى الوليد قرة بن شريك على مصر موضع عبد الله بن عبد الملك.

سنة إحدى وتسعين

وكان على الجيش مسلمة بن عبد الملك. وفيها: غزا مسلمة الترك. حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان، ففتح على يديه مدائن وحصون.

وفيها: سار قتيبة إلى مرو الروذ. فبلغ الخبر إلى مرزبانها، فهرب إلى الفرس، فقدم قتيبة فأخذ ابنين له فقتلهما وصلبهما، ومضى إلى الفارياب، فخرج إليه ملك الفارياب مذعناً مطيعاً فرضي عنه واستعمل عليها رجلاً من باهلة، وبلغ الخبر صاحب الجوزجان، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هارباً، وسار قتيبة إلى الجوزجان، فلقيه أهلها مطيعين، فقبل منهم واستعمل عليها عامر بن مالك، وما زال ينصب المنجنيق على بلدة، ويحرق بلدة، ويبالغ في الجهاد حتى قتل في مكان واحد اثني عشر ألفاً.

سنة اثنتين وتسعين

ففتح على يد مسلمة ثلاث حصون، وجلا خلقاً كثيراً عن بلادهم. وفيها: غزا طارق بن زياد الأندلس في اثني عشر ألفاً ففتحها وقتل الملك. وفيها: حج بالناس عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة وكان عمال الأمصار الذين كانوا في السنة التي قبلها.

سنة ثلاث وتسعين

ففتح الله على يده بعضها، وغزاها أيضاً مسلمة فافتتح بلاداً منها.

وفيها: صالح قتيبة ملك خوارزم قالوا: كان ملك خوارزم ضعيفاً فغلبه أخوه خرزاذ على أمره، وكان خرزاذ أصغر منه، فكان إذا بلغه أن عند أحد جارية أو دابة أو متاعاً فاخراً أرسل فأخذه، أو بلغه أن لأحد بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أخذها، ولا يمتنع عليه أحد، ولا يمنعه الملك

فإذا قيل له، قال: لا أقوى عليه، فلما طال ذلك عليه كتب إلى قتيبة في السر يدعوه إلى أرضه ليسلمها إليه، وبعث إليه بمفتاح البلد واشترط عليه أن يسلم إليه أخاه وكل من يضاده، يحكم فيهم بما يرى، فرجعت الرسل بما يحب، وسار قتيبة مظهراً أنه يريد الصغد، فقال الملك لأصحابه: إن قتيبة يريد الصغد، فهل لكم أن نتنعم في ربيعنا هذا، فأقبلوا على التنعم والشراب، وأمنوا، فلم يشعروا إلا بقتيبة، فقال الملك: ما ترون؟ قالوا: نقاتله، قال: لا أرى ذلك لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا، ولكن نصرفه عنا بشيء نؤديه إليه، فصالحه على مال عظيم، وأخذ أخاه فدفعه إليه، ثم أتى قتيبة الصغد فصالحوه على ألفي ألف ومائتي ألف كل عام، وأن يبنى له فيها مسجد، ويضع فيه منبراً فيخطب عليه، ففعلوا، فدخل فخطب وصلى فقال: لست ببارح فاخرجوا، وجاءوه بالأصنام فأحرقها، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال، ودخل المسلمون مدينة سمرقند فصالحوهم. ثم ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو، واستخلف على سمرقند عبد الرحمن بن مسلم، وخلف عنده جنداً كثيفاً وآلة من آلات الحرب كثيرة.

سنة أربع وتسعين

فقيل: إنه فتح أنطاكية. وغزا عبد العزيز بن الوليد، وغزا الوليد بن هشام فأوغلا، وغزا يزيد بن أبي كبشة أرض سورية. وفيها: افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند. وفيها: غزا قتيبة شاش وفرغانة حتى بلغ خجندة، وافتتح قاشان، وجاءه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها، فانصرف إلى مرو.

وفيها: أخذ عثمان بن حيان أمير المدينة جماعة من الخوارج فقتلهم، وبعث ببعضهم في جوامع إلى الحجاج، ونادى: برئت الذمة ممن آوى عراقياً. وفيها: استقضى الوليد سليمان بن حبيب.

وفيها: دامت الزلازل أربعين يوماً، وشمل الهدم الأبنية الشاهقة، وتهدمت دور مدينة أنطاكية.

وفي هذه السنة: قتل الحجاج سعيد بن جبير وكان سبب ذلك خروجه عليه مع من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث، وكان الحجاج قد جعل سعيد بن جبير على عطاء الجند حين وجه عبد الرحمن إلى رتبيل لقتاله، فلما خلع عبد الرحمن الحجاج خلعه معه سعيد بن جبير، فلما هزم عبد الرحمن وهرب إلى بلاد رتبيل هرب سعيد إلى أصفهان، فكتب الحجاج إلى واليها: أن خذه وكان الوالي يتحرج، فأرسل إلى سعيد أن اخرج وتنح عنا، فتنحى إلى أذربيجان، ثم خرج إلى مكة فأقام بها. وكان أناس ممن فعل مثله يستخفون فلا يخبرون بأسمائهم.

* * *

سنة خمس وتسعين

ففتح الله على يديه ثلاثة حصون، وفتح قنسرين. وفيها: قتل الوضاحي بأرض الروم وقتل معه نحو من ألفي رجل. وفيها: انصرف موسى بن نصير إلى إفريقية من الأندلس.

وفيها: غزا قتيبة الشاش، فلما وصل إليها جاءه موت الحجاج، فقفل راجعاً إلى مرو، فجاءه كتاب من الوليد يقول فيه: عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهادك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك ما تحب، فلا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك، والثغر الذي أنت به.

* * *

سنة ست وتسعين

وفيها أن الوليد أراد الشخوص إلى أخيه سليمان ليخلعه ويبايع لابنه عبد العزيز بعده.

وقد ذكرنا أن عبد الملك جعلهما وليي عهده، فأراد الوليد سليمان على ذلك فأبى، وعرض عليه أموالاً كثيرة فأبى. فكتب إلى عماله أن يبايعوا عبد العزيز، ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلى ذلك إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فقال له عباد بن زياد: إن الناس لا يجيبوك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمن الغدر منهم بابنك، فاكتب إلى سليمان فليقدم عليك فإن عليه طاعة فأرده على البيعة فإنه لا يقدر على الإمتناع وهو عندك، وإن أبى كان الناس عليه. فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم فأبطأ، فاعتزم الوليد على المسير إليه ليخلعه، فأمر الناس بالتأهب، فمرض فمات قبل أن يسير، فاستخلف سليمان.

* * *

باب ذكر خلافة سليمان بن عبد الملك

ويكنى أبا أيوب، بويع يوم موت أخيه الوليد، وكان بالرملة فوصل الخبر إليه بعد سبعة أيام، فبويع، وسار إلى دمشق فورد على فاقة من الناس إليه لما كانوا فيه من جور الوليد وعسفه، فأحسن السيرة، ورد المظالم، وفك الأسرى، وأطلق أهل السجون، واتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً، ثم عهد إليه.

وفي هذه السنة: عزل سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيان

* * *

سنة سبع وتسعين

وفيها: غزا مسلمة أرض الروم ففتح الحصن الذي كان الوضاح افتتحه.

وفيها: غزا عمر بن هبيرة الفزاري أرض الروم، فشتى بها.

وفيها: ولي سليمان يزيد بن المهلب خراسان وكان السبب في ذلك أن سليمان لما ولي يزيد بن المهلب حرب العراق والصلاة وخراجها، فنظر يزيد فإذا الحجاج قد أخرب العراق، فقال في نفسه: متى أخذت الناس بالخراج وعذبتهم صرت مثل الحجاج، ومتى لم آت سليمان بمثل ما كان يأتي به الحجاج لم يقبل مني. فجاء يزيد إلى سليمان فقال: أدلك على رجل بصير بالخراج توليه؟ صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم، فقبل منه، فأقبل يزيد على العراق وقد قدم قبله عبد الرحمن، فنزل واسط، فخرج الناس يتلقون يزيد، ولم يخرج صالح حتى قرب يزيد، وكان صالح لا ينفذ أمر يزيد ويضيق عليه ويعاتبه في كثرة إنفاقه، ويقول: هذا لا يرضي أمير المؤمنين.

فبينا هو كذلك إذ جاء كتاب سليمان بتولية يزيد خراسان، وكان قد وليها وكيع بن أبي الأسود بعد قتل قتيبة تسعة أشهر أو عشرة، فقدمها يزيد والياً عليها، وكان جواداً.

* * *

سنة ثمان وتسعين

فنزل دابق ووجه أخاه مسلمة إليها وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره، فشتى بها وصاف. ولما دنا من قسطنطينية، أمر كل فارس أن يحمل مدين من الطعام حتى يأتي به القسطنطينية، فأمر بالطعام فألقي ناحية مثل الجبال، ثم قال للمسلمين: لا تأكلوا منه شيئاً، أغيروا في أراضهم. وعمل بيوتاً من خشب، فشتى فيها، وزرع الناس، ومكث ذلك الطعام في الصحراء لا يكنه شيء، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات، ثم أكلوا الزرع، وأقام مسلمة بالقسطنطينة قاهراً لأهلها، معه وجوه أهل الشام: خالد بن معدان، وعبد الله بن أبي زكرياء الخزاعي، ومجاهد بن جبير، حتى أتاه موت سليمان.

* * *

سنة تسع وتسعين

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، ويكنى أبا حفص، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ☺.

روى عن ابن عمر، وأنس، وعبد الله بن جعفر، وعمر بن أبي سلمة، والسائب بن يزيد. وأرسل الحديث عن جماعة القدماء، وروى عن خلق كثير من التابعين، وكان عالماً ديناً.

قال ابن شوذب. لما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبد العزيز قال لقيمه: اجمع لي أربعمائة دينار من طيب مالي فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح. فتزوج أم عمر بن عبد العزيز.

وما زال عمر يميل إلى الخير والدين مع أنه ولي الإمارة، وكانوا يفزعون إليه في أحوالهم. ولما مرض سليمان كتب العهد لأبنه أيوب، ولم يكن بالغاً، فرده عن ذلك رجاء بن حيوة فقال له: فما ترى في ابني داود، فقال له: هو بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت، قال: فمن؟ فقال: رأيك يا أمير المؤمنين، قال: كيف ترى في عمر؟ فقال: أعلمه والله فاضلاً خيراً مسلماً، فقال: لئن وليته ولم أول أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه، فكتب له، وجعل من بعده يزيد، وختم الكتاب، وأمر أن يجمع أهل بيته، وأمر رجاء بن حيوة أن يذهب بكتابه إليهم، وأمرهم أن يبايعوا من فيه، ففعلوا، ثم دخلوا على سليمان الكتاب بيده، فقال: هذا عهدي فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا.

قال رجاء: فجائني عمر بن عبد العزيز، فقال: يا رجاء قد كنت لي بسليمان حرمة وأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئاً، فإن كان فأعلمني استعفيه، فقال رجاء: والله لا أخبرك بحرف، فمضى قال: وجاءني هشام فقال: لي حرمة وعندي شكر فأعلمني، فقلت: لا والله لا أخبرك بحرف، فانصرف هشام وهو يضرب بيد على يد ويقول: فإلى من؟ فلما مات سليمان جددت البيعة قبل أن يخبر بموته، فبايعوا، ثم قرأ الكتاب، فلما ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: والله لا نبايعه، فقال له رجاء: إذن والله اضرب عنقك، قم فبايع، فقام يجر رجليه ويسترجع إذ خرج عنه الأمر، وعمر يسترجع إذ وقع فيه.

ثم جيء بمراكب الخلافة، فقال عمر: قربوا لي بغلتي، ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال ثمنها في بيت المال ورد المظالم.

سنة مائة

فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميّد بن عبد الرحمن عامل العراق يأمره أن يدعوهم إلى العمل بكتاب الله عز زجل وسنة رسوله محمد ، فلما أعذر في دعائهم بكتاب الله وسنة نبيه بعث إليهم عبد الحميّد جيشاً فهزمتهم الحرورية، فبلغ عمر فبعث إليهم مسلمة بن عبد الملك في جيش من أهل الشام جهزهم من الرقة، فكتب إلى عبد الحميّد: قد بلغني ما فعل جيشك جيش السوء، وقد بعثت مسلمة بأهل الشام فلم ينشب أن أظهره الله عز وجل عليهم.

وذكر أبو عبيد معمر بن المثنى: أن الذي خرج على عبد الحميّد بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز ابن شوذب واسمه بسطام من بني يشكر، وكان مخرجه يجوخي في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، فكتب عمر إلى عبد الحميّد؛ ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً حازماً، فوجهه إليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك به.

فعقد عبد الحميّد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة وأمره بما أمر به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه، وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم. إنه بلغني أنك خرجت غاضباً لله عز وجل ولنبيه ولست بأولى بذلك مني، فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك.

فلم يحرك بسطام شيئاً، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك برجلين يناظرانك، فدخلا عليه فقالا: أخبرنا عن يزيد لما تعده خليفة بعدك؟ قال: صيره غيري، قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟ فقال: انتظراني ثلاثاً، فخرجا من عنده، وخاف بنو مروان أن يخرج ما في أيدهم من الأموال، وأن يخلع يزيداً، فدسوا إليه من سقاه سماً، فلم يلبث بعد خروجهم إلا ثلاثاً حتى مات.

" وفي هذه السنة: أشخص عمر بن هبيرة الفزازي إلى الجزيرة عاملاً عليها.

وفيها حمل يزيد بن المهلب من العراق إلى عمر بن عبد العزيز.

وسبب ذلك أن يزيد نزل واسطاً، ثم ركب السفن يريد البصرة، فبعث إلى عمر عدي بن أرطأة إلى البصرة فأوثقه ثم بعث به إلى عمر فدعا به عمر - وكان عمر يبغضه ويبغض بنيه ويقول جبابرة، وكان يزيد يبغض عمر - فلما وصل إلى عمر سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان، قال: إنما كتبت إليه لأسمع الناس، ولم يكن سليمان ليأخذني بشيء سمعت به، فقال له: ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدّ ما قبلك فإنها حقوق المسلمّين لا يسعني تركها فحبسه إلى أن مرض عمر.

* * *

سنة إحدى ومائة

وذلك أنه خاف من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد عذب أصهاره آل أبي عقيل، وذلك أن أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف كانت عند يزيد بن عبد الملك فولدت له الوليد بن يزيد، وكان يزيد قد عاهد الله لئن أمكنه من يزيد بن المهلب ليقطعهن منه طابقاً فكان يخشى ذلك، فبعث يزيد بن المهلب إلى مواليه فأعدوا له إبلاً، ومرض عمر فأمر يزيد بإبله فأتى بها، فخرج من محبسه فذهب وكتب إلى عمر: إني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي، ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك، فقال عمر: اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره، واردد كيده في نحره ومضى يزيد بن المهلب.

وقال الواقدي: إنما هرب من سجن عمر بعد موته ☺.

وفي هذه السنة توفي عمر بن عبد العزيز واستخلف يزيد بن عبد الملك.

* * *

باب ذكر خلافة يزيد بن عبد الملك

ويكنى أبا خالد، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، استخلف بعد وفاة عمر، وكان يومئذ ابن تسع وعشرين سنة.

عن عبيد الله بن عمرو الفهري، قال: لما توفي عمر بن عبد العزيز، قال: يزيد ابن عبد الملك: ما جعل عمر بن عبد العزيز لربه أرجى مني، فتنسك وأقام أربعين يوماً لا تفوته صلاة في جماعة، فقدم الأحوص فأرسلت له حبابة أنه ليس لي ولا لك عنده شيء ما دام على هذه الحال فقل أبياتاً أغنيها له عسى أن يترك ما هو عليه من النسك

فلما خرج يزيد للجمعة عرضت له حبابة على طريقه فحركت العود وغنت البيت الأول فسبح، فلما غنت الثاني قال: مه مه ويحك لا تفعلي، فلما غنت الثالث نفض عمامته، وقال: مروا صاحب الشرطة أن يصلي بالناس، وجلس معها، ودعي بالشراب وسألها عن قائل الشعر، فقالت: الأحوص، فأمر به فأدخل فأجازه وأحسن إليه وأنشده مديحه.

* * *

سنة اثنتين ومائة

فخرج يزيد بن من واسط للقائهما، واستخلف بها ابنه معاوية بن يزيد، وجعل عنده الخزائن وبيت المال وقدم بين يديه أخاه عبد الملك، فاستقبله العباس بسورا، فاقتتلوا فشد عليهم أهل البصرة فكشفوهم وسقط إلى يزيد ناس كثير من أهل الكوفة ومن الجبال والثغور، فقام فيهم فقال: قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء - يعني مسلمة بن عبد الملك - وعاقر ناقة صالح - يعني العباس بن الوليد، وكان العباس أزرق أحمر وكانت أمه رومية - والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلمته فأقره على نسبه، بلغني أنه ليس يهمهما إلا التماسي في الأرض، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً وليس إلا أنا، ما برحت العرصة حتى تكون لي أولهم.

وكان الحسن البصري يثبط الناس عن يزيد بن المهلب، فقام مروان بن الهلب خطيباً في الناس بالجد والجهاد، ثم قال: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يسمه - يثبط الناس عنا، والله لو أن جاره نزع من خض داره قصبة لظل يرعف أنفه. ولم يدع الحسن كلامه ذلك.

فلما اجتمع يزيد بن المهلب ومسلمة أقاما ثمانية أيام حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشر ليلة مضت في صفر عبأ مسلمة جنود الشام، ثم ازدلف بهم نحو يزيد، وبعث مسلمة فأحرق الجسر فانهزم أصحاب يزيد وتسللوا وهو يزدلف، فكلما مر بخيل كشفها، فجاءه أبو رؤبة فقال له: هل لك أن تنصرف إلى واسط فإنها حصن فتنزلها ويأتيك مدد البصرة وأهل عمان والبحرين في السفن، وتضرب خندقاً، فقال: قبح الله رأيك، إليّ تقول هذا؟ إن الموت أيسر علي من ذلك، وبرز فقتل وقتل أخوه محمد فبعث برأسه إلى يزيد بن عبد الملك، فلما بلغ خبر الهزيمة، إلى واسط أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا عنده، فضرب أعناقهم؛ منهم عدي بن أرطأة.

ثم اقبل على البصرة ومعه المال والخزائن، وجاء المفضل بن المهلب، واجتمع أهل المهلب في البصرة، فحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية، ثم لججوا في البحر ومضوا إلى قندابيل، ورجع قوم فطلبوا الأمان، وبعث مسلمة في آثارهم هلالا التميمي، فلحقهم بقندابيل، ومنعهم قندابيل الدخول، فالتقوا فقتلوا عن آخرهم سوى رجلين، ولما فرغ مسلمة من حرب يزيد بن المهلب جمع له يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة.

وفيها: غزا المسلمون الصغد والترك، وكانت الواقعة بينهم بقصر الباهلي.

* * *

سنة ثلاث ومائة

ففتح بها مدينة من مدائن الروم. وفيها: ضمت مكة إلى عبد الرحمن بن الضحاك الفهري، فجمعت له مع المدينة. وعزل عبد العزيز عن مكة.

وفيها: ولي عبد الواحد بن عبد الله البصري الطائف.

وفيها: استعمل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي على خراسان، فارتحل أهل الصغد عن بلادهم عند مقدمه، فلحقوا بفرغانة وسألوا ملكها إعانتهم على المسلمين، فبعث إليهم بن هبيرة يسألهم أن يقيموا ويستعمل عليهم من يريدون، فأبوا وخرجوا إلى خجنده.

* * *

سنة أربع ومائة

فقتل أهل الصغد واصطفى أموالهم وذراريهم، وكتب إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب إلى عمر بن هبيرة، وكان هذا فيما وجد عليه ابن هبيرة فيه، وكان على الأقباض علباء بن أحمر فاشترى رجل منه جونة بدرهمين، فوجد فيها سبائك ذهب، فرجع وهو واضع يده على عينه كأنه رمد فرّد الجونة وأخذ الدرهمين، وطلب فلم يوجد.

وفي هذه السنة: عزل يزيد بن عبد الملك عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عن مكة والمدينة، وذلك للنصف الأول من ربيع الأول، وكان عامله على المدينة ثلاث سنين، وولى المدينة عبد الواحد النضري.

* * *

سنة خمس ومائة

حتى إذا جاز مدائن وحصن وراء بلنجر وأصاب غنائم كثيرة.

وغزوة سعيد بن عبد الملك أرض الروم، فبعث سرية في نحو من ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً وغزوة مسلم بن سعيد الترك، فلم يفتح شيئاً.

وغزوة مسلم أفشين، فصالح ملكها على ستة آلاف رأس، ودفع إليه القلعة. وفيها: توفي يزيد بن عبد الملك وولي هشام.

* * *

باب ذكر خلافة هشام بن عبد الملك

كان عبد الملك قد تزوج عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومية، وكانت حمقاء، فولدت هشاماً في العام الذي قتل فيه مصعب بن الزبير، فسماه منصوراً وسمته أمه هشاماً فلم ينكر ذلك، وكان عبد الملك قد رأى في منامه أم هشام قد فلقت رأسه فلطعت فيه عشرين لطعة، فعبرها سعيد المسيب، فقال: تلد غلاماً يملك عشرين سنة، فولدت له هشاماً، ورأى هشام في منامه أن طبقاً فيه تفاح قد قدم إليه، فأكل تسع عشر تفاحة وبعض الأخرى، فسأل عن ذلك فقيل له: تملك تسع عشر سنة وكسراً، فكان لا يقدم إليه التفاح في خلافته ولا يراه.

* * *

سنة ست ومائة

وولى ذلك خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، فقدم المدينة يوم الجمعة لسبع عشر ليلة خلت في جمادي الآخرة، وكانت ولاية النضري على المدينة سنة وثمانية أشهر.

وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة، وغزا الحجاج بن عبد الملك اللاّن، فصالح أهلها وأدوا الجزية. وفيها: قدم خالد بن عبد الله القسري أميراً على العراق بعد خراسان، فاستعمل أخاه لبيد بن عبد الله على خراسان. وفيها: غزا مسلم بن سعيد الترك، فورد عليه عزله عن خراسان من خالد وقد قطع النهر لحربهم. وتولية أسد بن عبد الله أخي خالد عليها.

وفيها: استقصى هشام بن إبراهيم بن هشام الجمحي، ثم عزله واستقصى الصلت الكندي.

* * *

سنة سبع ومائة

وكان على جيش الشام ميمون بن مهران، فقطعوا البحر حتى عبروا إلى قبرص وخرج معهم البعث الذي كان هشام أمر به في حجته، وغزا البر مسلمة بن عبد الملك. وفيها: خرج عباد الرعيني باليمن، فقتله يوسف بن عمر، وقتل أصحابه كلهم، وكانوا ثلاثمائة.

وفيها: وقع طاعون شديد بالشام.

وفي هذه السنة: غزا أسد بن عبد الله جبال نمرون فصالحه الملك وأسلم على يديه، وغزا أيضاً جبال هراة، وولى بناء مدينة بلخ برمك أبا خالد بن برمك.

* * *

سنة ثمان ومائة

حتى بلغ قيسارية ففتحها الله على يديه. وفيها: غزا إبراهيم بن هشام ففتح حصناً من حصون الروم.

وفيها: وقع حريق بدابق حتى احترق الرجال والدواب.

* * *

سنة تسع ومائة

وغزوة معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصناً بها. وفي هذا السنة: عزل هشام بن عبد الملك خالد القسري عن خراسان، وصرف أخاه أسداً عنها. وكان سبب ذلك أن أسداً أخا خالد تعصب على نصر بن سيار ونفر معه زعم أنه بلغه عنهم ما لا يصلح، فضربهم بالسياط وحلقهم، وبعثهم إلى خالد وكتب إليه أنهم أرادوا الوثوب عليه، وخطب يوم الجمعة، فقال: قبح الله هذه الوجوه، وجوه أهل الشقاق والنفاق والفساد، اللهم فرق بيني وبينهم، وأخرجني إلى مهاجري ووطني، وقال: من يروم ما قبلي أمير المؤمنين خالي وخال أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يماني، فكتب هشام إلى خالد: أعزل أخاك، فعزل فقفل أسد إلى العراق في رمضان، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة.

* * *

سنة عشر ومائة

وسار إليهم نحو باب اللان حتى لقي خاقان في جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر وأصابهم مطر شديد فهزم الله خاقان. وفيها غزا معاوية أرض الروم ففتح بلده، وهو معاوية بن هشام. وغزا الصائفة عبيد الله بن عقبة الفهري، وكان على جيش البحر عبد الرحمن بن معاوية بن خديج. وفيها: دعا الأشرس أهل الذمة من أهل سمرقند من وراء النهر إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية، فأجابوا وأسلموا، فكتب غوزك إلى أشرس: إن الخراج قد أنكسر، فقال أشرس: إن الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة، إنما دخلوا في الإسلام تعوذاً من الجزية، فانظروا من أحسن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفعوا عنه الخراج، فأعادوا الجزية فامتنع الناس من أهل الصغد سبعة آلاف، فنزلوا على سبعة فراسخ من سمرقند.

وفيها: ارتد أهل كردر، فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم.

وفيها: جعل خالد بن عبد الله الصلاة بالبصرة مع الشرطة إلى بلال ابن أبي بردة.

سنة إحدى عشرة ومائة

وغزوة سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية.

وغزا على جيش البحر عبد الله بن أبي مريم.

وأمر هشام على عامة الناس من أهل مصر والشام الحكم بن قيس بن مخرمة. وفيها: سار الترك إلى أذربيجان، فلحقهم الحارث بن عمر فهزمهم.

سنة اثنتي عشرة ومائة

وفيها: سار الترك، فلقيهم الجراح بن عبد الله فيمن معه من أهل الشام، وأهل أذربيجان، فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أردبيل، وافتتحت الترك أردبيل، وبعث هشام سعيد بن عمرو الجرشي، فأكثر القتل في الترك، ثم أنفذ أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر الترك.

وفيها: قتل سورة بن الحر؛ وذلك أن الجنيد خرج غازياً يريد طخارستان، فنزل على نهر بلخ ووجه عمارة بن حريم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفاً، وإبراهيم الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر، فجاشت الترك، فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر، فكتب سورة إلى الجنيد الغوث

فهم أن ينفر، فقيل له: جندك متفرقون وصاحب خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً فلا تعجل، فقال: فكيف سورة ومن معه من المسلمين، فعبر ومضى بالناس حتى دخل الشعب وبينه وبين سمرقند أربع فراسخ، فصحبه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل الصغد وشاش وفراغانة وطائفة من الترك، فجرت في المسلمين مقتلة عظيمة، وكلت سيوف الفريقين، فصارت لا تقطع، فقيل للجنيد: اختر أن تهلك أو تهلك سورة، فقال: هلاك سورة أهون علي.

قيل: فاكتب إليه فليأتك في أهل سمرقند، فإن الترك إن بلغهم أنه متوجه إليك انصرفوا فقاتلوا. فكتب يأمره بالقدوم. فخرج في اثني عشر ألفاً، فتلقاه خاقان، فحمل سورة فوقع فاندقت فخذه وقتل أكثر ممن معه، ومضى الجنيد إلى سمرقند، وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو، وأقام بالصغد أربعة أشهر.

* * *

سنة ثلاث عشرة ومائة

وهو مع البطال بن عبيد الله بأرض الروم، وذلك أن عبد الوهاب غزا مع البطال، فكشفوا فألقى بيضته عن رأسه وصاح: أنا عبد الوهاب بن بخت، أمن الجنة تفرون؟ ثم تقدم في نحور العدو، فمر برجل يقول: واعطشاه، فقال له: تقدم فالري أمامك فخالط القوم فقتل.

ومن ذلك: غزوة مسلمة بن عبد الملك فرق الجيوش في بلاد خاقان، ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل وأسر وسبى، فحرق خلق كثير من الترك أنفسهم بالنار، ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر، وقتل ابن خاقان.

* * *

سنة أربع عشر ومائة

والتقى عبد الله البطال هو قسطنطين في جمع فهزمهم، وأسر قسطنطين، وبلغ سليمان بن هشام قيسارية.

وفي هذه السنة: عزل هشام بن عبد الملك إبراهيم بن هشام عن المدينة، وأمر عليها خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، فقدم خالد المدينة للنصف من ربيع الأول، وكانت إمرة إبراهيم على المدينة ثماني سنين. وفيها: ولي محمد بن هشام المخزومي على مكة. وفيها: وقع الطاعون بواسط.

سنة خمس عشرة ومائة

وفيها: وقع الطاعون بالشام. وفيها أصاب الناس بخراسان قحط شديد ومجاعة، فأعطى الجنيد رجلاً درهماً فاشترى به رغيفاً، فقال: تشكون الجوع ورغيف بدرهم، لقد رأيتني بالهند وإن الحب من الحبوب لتباع عدداً بالدراهم.

سنة ست عشرة ومائة

وفيها: وقع طاعون عظيم شديد بالعراق والشام، وكان أشده بواسط.

سنة سبع عشرة ومائة

من نحو الجزيرة وفرق سراياه في أرض الروم.

وفيها: بعث مروان بن محمد بن وهو على أرمينية بعثين، فافتتح أحدهما حصوناً ثلاثة، وصولح الأخر.

وفيها: عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان، وضمها على خالد بن عبد الله، فولاها أخاه أسد بن عبد الله، وقال المدائني: كان هذا في سنة ست عشرة.

وفيها: أخذ أسد بن عبد الله جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم، وحبس بعضهم، وكان فيهم موسى بن كعب، فأمر به فألجم بلجام حمار، ثم جذب اللجام فتحطمت أسنانه، ثم دق أنفه، ووجئ لحياه، وكان فيهم لا هز بن قريظ، فضربه ثلاثمائة سوط، ثم خلى سبيلهم.

وفيها: حج بالناس خالد بن عبد الملك، وكان العامل فيها على المدينة، وعلى مكة، وعلى الطائف: محمد بن هشام بن إسماعيل. وعلى العراق والمشرق: خالد ابن عبد الله القسري، وعلى أرمينية وأذربيجان: مروان بن محمد بن مروان بن الحكم.

سنة ثماني عشرة ومائة

وفيها: وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس وغير اسمه وتسمى بخداش، ودعا إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فتسارع الناس إليه وسمعوا أطاعوا، ثم غير ما دعاهم إليه وكذب وأظهر دين الخرمية، ورخص لبعضهم في نساء بعض وأخبرهم أن ذلك من أمر محمد بن علي، فبلغ خبره أسد بن عبد الله، فوضع عليه العيون حتى ظفر به، فأمر به فقطعت يده، وقلع لسانه، وسملت عينيه وقتله وصلبه بأمل.

* * *

سنة تسع عشرة ومائة

وفيها: غزا أسد بن عبد الله فملأ يديه من السبي، ولقي خاقان ملك الترك فقتله، وقتل بشراً كثيراً من أصحابه وانصرف بغنائم كثيرة. وكان الحارث بن شريح قد انضم إلى خاقان، فتبارزوا، فانهزم الحارث والترك وخاقان وتركوا قدورهم تغلي، وتبعهم الناس ثلاثة فراسخ يقتلون من قدروا عليه، واستاقوا من أغنامهم أكثر من خمسين ومائة ألف شاة ودواب كثيرة، ولحقهم أسد عند الظهر ووجل بخاقان بذدونه، فحماه الحارث بن شريح، وبعث أسد بجواري الترك إلى دهاقين خراسان، واستنفذ من كان في أيديهم من المسلمين، ومضى خاقان إلى الجوزجان فارتحل أسد فنزل بها، فهرب خاقان ورجع أسد إلى بلخ، فقتلوا من قدروا عليه منهم، ثم رجع خاقان إلى بلاده وأخذ في الاستعداد للحرب ومحاصرة سمرقند، وحمل الحارث وأصحابه على خمسة آلاف برذون.

وأن خاقان لعب مع بعض الملوك بالنرد، فتنازعا فضرب ذلك الملك يد خاقان فكسرها، فحلف خاقان ليكسرن يده، فبيت خاقان فقتله، وبعث أسد إلى خالد ابن عبد الله يخبره، فبعث إلى هشام يبشره بالفتح، فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر.

سنة عشرين ومائة

وغزوة مروان بن محمد أرض الترك. وكان قد ولاه أرمينية، فكتب إليه يستأذنه في الدخول إلى بلادهم، فكتب إليه هشام: كيف أفعل ما لم يفعله أحد قبلي. فكتب إليه: إن الناس يشتهون ذلك وأرجو أن يكون فيه خير. فأذن له، فدخل والقوم غارون فهربوا إلى الآجام، فأضرمها ناراً واقتتلوا قتالاً شديداً، وظفر المسلمون، وبعثوا إليه بالخبر.

وفي هذه السنة توفي أسد بن عبد الله، فاستخلف جعفر بن حنظلة البهراني، فعلم أربعة أشهر، وجاء عهد نصر بن سيار في رجب.

سنة إحدى وعشرين ومائة

وغزوة مروان بن محمد بلاد صاحب سرير الذهب، ففتح قلاعه، وخر أرضه، وأذعن له بالجزية في كل سنة ستة آلاف رأس يؤديها، وأخذ بذلك الرهن، وملكه مروان على أرضه.

وفي هذه السنة قتل زيد بن علي في بعض الأقوال، وفي قول: إنه قتل في سنة عشرين. وزعم هشام بن محمد أنه قتل سنة اثنتين وعشرين.

وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بالمدينة، وبويع له في الآفاق، فبعث إليه المنصور بعيسى بن موسى، وحميد بن قحطبة فقتلاه، وقتلا من أجله تحت الهدم أباه عبد الله، وعلي بن الحسن بن الحسن وجماعة، ودفن إبراهيم بن الحسن بن الحسن وهو حي بالكوفة، وكان محمد بن عبد الله وجه ولده وإخوته إلى الآفاق يدعون إليه فوجه ابنه علياً إلى مصر، فأخذ هناك وقتل، ووجه ابنه عبد الله إلى خراسان فطلب فهرب إلى السند فأخذ بها وقتل، ووجه ابنه الحسن إلى اليمن فأخذ لنفسه أماناً ثم حبس فمات في السجن، ثم وجه أخاه موسى إلى الجزيرة، فأخذ لنفسه أماناً، ووجه أخاه إدريس إلى المغرب، ووجه أخاه يحيى إلى الري، وخرج بعده أخوه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة يريد محاربة المنصور، فبعث إليه المنصور بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحارب حتى قتل ومضى أخوه إدريس بن عبدالله إلى المغرب فغلب على بلدان كثيرة وبسط العدل فيها.

* * *

سنة اثنتين وعشرين ومائة

الذي كان بعثه هشام في خيول أهل الشام إلى إفريقية حين وقعت الفتنة بالبربر.

وفيها: قتل عبد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم.

وفيها: ولد محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها وجه يوسف بن عمر بن شبرمة على سجستان، واستقضى ابن أبي ليلى.

وفي هذه السنة حج بالناس محمد بن هشام المخزومي، وكانت عمال الأمصار في هذه السنة العمال في السنة التي قبلها، وقد ذكرناهم، إلا أن قاضي الكوفة فيما ذكر محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

* * *

سنة ثلاث وعشرون ومائة

وفيها: غزا نصر فرغانة غزوته الثانية.

وفيها أوفد يوسف بن عمر الحكم بن أبي الصلت إلى هشام بن عبد الملك يسأله ضم خراسان إليه، وعزل نصر بن سيار. وذلك أن ولاية نصر طالت، ودانت له خراسان، فحسده يوسف وأمر من قدح فيه عند هشام بالكبر فلم يلتفت هشام إلى ذلك.

سنة أربع وعشرون ومائة

فأخذوا وحبسوا، وفيهم بكير بن ماهان، فرأى بكير أبا مسلم صاحب دعوة بني العباس مع عيسى بن معقل العجلي، فقال: ما هذا الغلام؟ فقال: مملوك، فقال: بعينه، فأعطاه أربعمائة ألف درهم، وبعث به إلى إبراهيم فدفعه إبراهيم إلى موسى السراج، فسمع منه وحفظ واختلف إلى خراسان.

وفي هذه السنة: غزا سليمان بن هشام الصائفة، فلقي أليُونْ ملك الروم فسلم وغنم، وفيها: حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل، وكان عمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنين التي قبلها.

* * *

سنة خمس وعشرين ومائة

وفيها: مات هشام بن عبد الملك، وولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

* * *

باب ذكر خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

عقد يزيد بن عبد الملك الخلافة لولده الوليد بعد أخي هشام بن عبد الملك، وكان يومئذ ابن إحدى عشرة سنة، فلم يمت يزيد حتى بلغ ابنه خمس عشرة سنة، فندم على استخلافه هشاماً، وولي هشام وهو للوليد مكرم معظم، فظهر من الوليد لعب وشرب للشراب، واتخذ ندماء، فولاه هشام الحج سنة ستة عشرة ومائة، فحمل معه كلاباً في الصناديق، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها، فخوفه أصحابه، فجمع المغنين بمكة، وتشاغل باللهو.

واستعمل الوليد العمال، وجاءت بيعته من الآفاق، وأقبلت إليه الوفود وأجري على زمني أهل الشام وعميانهم، وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ما كان يخرج لهم هشام، وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرات ثم زاد أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة عشرة لأهل الشام خاصة، وزاد من وفد إليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف.

* * *

سنة ست وعشرين ومائة

وكان قد عمل لهشام خمس عشرة سنة إلا ستة أشهر على العراق، خراسان، فلما ولي يوسف بن عمر أخذه وحبسه وعذبه لأحل انكسار الخراج، فكتب هشام بتخلية سبيله فخلي سبيله في شوال سنة إحدى وعشرين فخرج إلى ناحية هشام فلم يأذن له في القدوم عليه، وخرج يد بن علي فقتل. وكتب يوسف إلى هشام: إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً حتى كانت لقمة أحدهم قوت عياله. فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها، فتاقت نفوسهم إلى طلب الخلافة، وما خرج زيد إلا عن رأي خالد، فقال لرسوله: كذبت وكذب من أرسلك، لسنا نتهم خالداً في طاعة، وأقام خالد بدمشق حتى هلك هشام.

وقام الوليد فكتب إلى خالد أن أمير المؤمنين قد علم حال الخمسين ألف ألف، فأقدم على أمير المؤمنين، فقدم فقال له: أين ابنك؟ قال: كنا نراه عند أمير المؤمنين، قال: لا ولكنك خلفته للفتنة، فقال: قد علم أمير المؤمنين أنّا أهل بيت طاعة، فقال: لتأبين به أو لأزهقن نفسك، فقال له: هذا الذي أردت وعليه عولت، والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها، فأمر الوليد صاحب حرسه بتعذيبه، فعذبه فصبر فحبسه، فقدم يوسف بن عمر فقال: أنا أشتريه بخمسين ألف ألف، فأرسل الوليد إلى خالد يخبره ويقول: إن كنت تضمنها وإلا دفعتك إليه، فقال: ما عهدت العرب تباع.

فدفعه إلى يوسف فعذبه مراراً، ثم أتى بعود فوضعه على قدميه، وقامت عليه الرجال حتى كسرة قدماه، فوالله، ما تكلم ولا عبس، ثم على ساقيه حتى كسرتا، ثم على فخذيه، ثم على حقويه، ثم على صدره حتى مات.

* * *

باب ذكر خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

كان يكنى أبا خالد، وأمه أم ولد، وهي بنت فيروز بن يزدجرد. وكان أسمر طويلاً، صغير الرأس، بوجهه خال، وكان جماعة قد بايعوه قبل قتل الوليد، فلما قتل اجتمعوا عليه فنقص من أعطيات الناس ما كان زادهم الوليد، وردهم إلى أعطيات هشام، فسموه الناقص. وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد.

وقيل: بل سمي بذلك لنقصان كان في أصابع رجليه، وهو أول خليفة كانت أمه أَمَة، وكانت بنو أمية تتجنب ذلك توطيداً للخلافة، ولأنهم سقط إليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة منهم أمه أَمَة، فكان ذلك مروان بن محمد، وسيأتي ذكره بعد خلافة يزيد هذا.

ثم أن يزيداً خطب الناس بعد قتل الوليد، وقال: إني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، ولكن خرجت غضباً لله ولرسوله ولدينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه، لما هدم الوليد معالم الهدى، وأطفأ نور أهل التقى، وكان جباراً مستحلاً للحرم مع أنه ما كان يصدق بالكتاب، ولا يؤمن بيوم الحساب، فسألت الله تعالى فأراح منه العباد والبلاد، أيها الناس إن لكم علي ألا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً، ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقله من بلد إلى بلد حتى أسد ثغرة ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، ولا أغلق بابي دونكم، وإن لكم أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، فإن أنا وفيت لكم بمالكم وبما قلت فعليكم بالسمع والطاعة، وإن أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعوني، وإن علمتم أحداً ممن يعرف بالصلاح، يعطيكم منفسه مثلما أعطيتكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه. أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ثم دعا أناس إلى تجديد البيعة له، وأظهر النسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر ابن عبد العزيز وأحسن السيرة، فلما علم أهل البلاد بقتل الوليد ثارت الفتن، ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان، وكان محبوساً بها، حبسه ابن عمه الوليد، فأخذ ما فيها من الأموال، وأقبل إلى دمشق.

ووثب أهل حمص، وغلقوا أبوابها، وأقاموا النوائح على الوليد، وهدموا دار العباس بن الوليد بن عبد الملك لأنه أعان على الوليد، فكتبوا بينهم كتاباً ألا يدخلوا في طاعة يزيد، وخرجوا عليه، فبعث إليهم جيشاً فانهزموا وقتل منهم ثلاثمائة.

ووثب أهل فلسطين والأردن على عاملهم فأخرجوه.

ولما تم الأمر ليزيد بن الوليد عزل يوسف بن عمر عن العراق وولاها منصور ابن جمهور، فسار إلى العراق، فبلغ خبره يوسف بن عمر فهرب إلى البلقاء فقدم منصور الحيرة في أيام خلت من رجب فأخذ بيوت الأموال وأخرج العطاء وولي العمال، وبايع ليزيد بن الوليد بالعراق وكورها، وكتب بذلك، وأطلق من في سجون يوسف، وبلغ خبر يوسف إلى يزيد بن الوليد، فبعث من يأتيه به، فجيء به في وثاق، فأقام في الحبس ولا يزيد كلها وشهرين وعشرة أيام في ولاية إبراهيم، فلما قدم مروان الشام وقرب من دمشق ولى قتله يزيد بن خالد، فبعث مولى لاه فضرب عنق يوسف.

وفيها: امتنع نصر بن سيار بخراسان من تسليم عمله لعامل يزيد منصور بن جمهور، وكان يزيد قد ولاها منصور مع العراق.

وفيها: أظهر مروان بن محمد بن مروان الخلاف ليزيد، وانصرف من أرمينية إلى الجزيرة مظهراً أنه طالب بدم الوليد بن يزيد، فلما صار بحرّان وجمع جمعاً كثيراً وتهيأ للمسير إلى يزيد، كاتبه يزيد على أن يبايعه ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان ولى إياه من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان فبايع له بحران.

وفي هذه السنة: حج بالناس عمر بن عبد الله بن عبد الملك، بعثه يزيد بن الوليد، وخرج معه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو على المدينة ومكة والطائف والعراق. وكان على قضاء الكوفة ابن أبي ليلى، وعلى قضاء البصرة عامر بن عبيدة، وكان على خراسان نصر بن سيار.

وفيها: مات يزيد، وكان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، يكنى أبا إسحاق، وأمه أم ولد بربرية اسمها خشف، وكان يزيد بن الوليد قد جدد البيعة لإبراهيم قبل موته بثلاثة أيام غير أنه لم يتم له أمره، فكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمارة وجمعة لا يسلم عليه لا بالإمارة، ولا بالخلافة، فكان على ذلك حتى قدم مروان بن محمد فخلصه، وقتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان الذي كان يزيد عقد له البيعة من بعد إبراهيم بن الوليد.

سنة سبع وعشرين ومائة

وقد ذكرنا أنه خرج بعد مقتل الوليد بن يزيد مظهراً أنه ثائر بالوليد منكر لقتله، ثم لما كاتبه يزيد عاد فبايع له، وبعث بذلك جماعة من وجوه الجزية منهم محمد بن عُلاثة، فأتاه موت يزيد، فأرسل إلى ابن علاثة فردهم من منبج، وشخص إلى إبراهيم بن الوليد، فلما انتهى إلى قنسرين دعا الناس إلى مبايعته، ثم توجه إلى حمص، وكانوا قد امتنعوا حين مات يزيد، أن يبايعوا إبراهيم، فوجه إبراهيم لهم عبد العزيز في جند أهل دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأغذ مروان السير، فلما دنا من مدينة حمص رحل عبد العزيز عنهم، وخرجوا إلى مروان فبايعوه وساروا معه.

ووجه إبراهيم بن الوليد مع سليمان بن هشام عشرين ومائة ألف، فلقيهم مروان في نحو من ثمانين ألفاً، فاقتتلوا. وبعث مروان أقواماً قطعوا الشجر وعقدوا على نهر هناك جسوراً، فعبروا إلى عسكر سليمان من ورائهم، فلم يشعروا إلا بالخيل فانهزموا وقتل منهم نحواً من ثمانية عشر ألفاً.

باب ذكر خلافة مروان بن محمد بن مروان.

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ويكنى أبا عبد الله، وقيل بويع عبد الملك، وقيل أبا الوليد، أمه أم ولد كردية، وقيل: رومية، اسمها مارية البرما، بويع له وهو ابن إحدى وخمسين سنة، ويلقب بالجعدي، لأن الجعد بن إبراهيم كان مؤدبه، وكان الجعد متهماً بالزندقة، فقتله خالد بن عبد الله القسري، وخص مروان في ملكه بأشياء لم تكن لمن بعده، منها البقرة التي يضرب بها المثل، كان يقف تحته في الحرب يومه وليلته لا يبول ولا يروث.

* * *

سنة ثمان وعشرين ومائة

وقد ذكرنا أن يزيد بن الوليد كتب إليه يؤمنه، وأن الحارث خرج من بلاد الترك إلى خراسان، وأتى إلى نصر بن سيار، فلما ولي ابن هبيرة العراق كتب إلى نصر بعهده، فبايع لمروان، فقال الحارث: إنما أمنني يزيد بن الوليد، ومروان لا يجيء أمان يزيد، فلا آمنه. فدعي إلى البيعة، وأرسل إلى نصر فقال: اجعل الأمر شورى، فأبى نصر، فخرج الحارث وأمر جهم بن صفوان مولى بني راسب، فقرأ، كتاباً في سيرة الحارث على الناس، فانصرفوا يكبرون، وأرسل الحارث إلى نصر: اعزل فلاناً واستعمل فلاناً، فاختاروا قوماً يسمون لهم من يعمل بكتاب الله، فأختار نصر مقاتل بن سليمان، ومقاتل بن حبان، واختار الحارث المغيرة الجهضمي، ومعاذ بن جبل، وأمر نصر كاتبه أن يكتب من يرضون من السنن، وما يختارون من العمال، وعرض نصر على الحارث أن يوليه ما وراء النهر، ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل، ثم تناظر نصر والحارث فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان، وجهم بن صفوان، فحكما أن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى، فلم يقبل نصر، وكان جهم يقص في عسكر الحارث فاتهم نصر قوماً من أصحابه أنهم كاتبوا الحارث، فأمر نصر منادياً ينادي: إن الحارث عدو الله قد نابذ وحارب، فاقتتلوا فانهزم الحارث وأسر يومئذ جهم بن صفوان صاحب الجهمية وقتل. وكان يكنى أبا محرز، وآل الأمر إلى قتل الحارث، وصلب قبله رجل يقال له: الكرماني.

* * *

سنة تسع وعشرين ومائة

وكان السبب في ذلك أن الخوارج لما قتل الضحاك والخيبري بعده ولوا عليهم شيبان وبايعوه، فقاتلهم مروان تسعة أشهر، فلجأوا إلى الموصل واتبعهم مروان وخندق بإزائهم. فكتب مروان إلى يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بالمسير من قرقيسياء، بجميع من معه إلى عبيدة بن سوار خليفة الضحاك بالعراق، فلقي خيوله بعين التمر، فقاتلهم عبيدة فهزمهم، ثم تجمعوا لهم بالكوفة بالنخيلة فهزمهم، ثم اجتمعوا بالصراة ومعهم عبيدة، فقاتلهم فقتل عبيدة وهزم أصحابه، واستباح عسكرهم فلم يكن لهم بقية بالعراق، وخرج شيبان وأصحابه، من الموصل فتبعهم مروان فمضوا إلى الأهواز، فوجه مروان إلى عامر بن ضبارة ثلاثة نفر من قواده في ثلاثة آلاف، وأمره بأتباعهم إلى أن يستأصلهم، فتبعهم فوردوا فارس فمضى شيبان إلى ناحية البحرين فقتل بها.

وكان مع شيبان سليمان بن هشام، فركب مع مواليه وأهل بيته السفن إلى السند.

وقيل كان ذلك في سنة ثلاثين.

إظهار الدعوة العباسية بخراسان:

وفي هذه السنة - أعني سنة تسع وعشرين ومائة - أمر إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبا مسلم بالانصراف إلى شيعته بخراسان، وأمرهم بإظهار الدعوة العباسية، والتسويد. فقدم أبو مسلم مرو في أول شعبان. وقيل: في أول يوم من رمضان.

فدفع كتاب الإمام إلى سليمان بن كثير، وكان فيه: أن أظهر دعوتك ولا تربص. فنصبوا أبا مسلم وقالوا: رجل من أهل البيت، ودعوا إلى طاعة بني العباس، وأرسلوا إلى كل من أجابهم قريب وبعيد، فأمروه بإظهار أمرهم والدعاء إليهم.

فما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان عقد اللواء الذي بعث به للإمام على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً، وعقد الراية التي بعث بها للإمام على لواء طوله ثلاثة عشر ذراعاً. وكان اللواء يُدعى الظل، والراية تدعى السحاب - وكان تأويل الاسمين عندهم أن السحاب يطبق الأرض، وكذلك دعة بني العباس تطبق الأرض. وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً، كذلك لا تخلو الأرض من خليفة - ولبس السواد هو وسليمان بن كثير وأخوه سليمان ومواليه ومن أجاب الدعوة، وأوقد النيران، فتجمع أصحابه مُغِذين، وقدم عليه من الأماكن من أجاب.

فلما كان يوم الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة، ونصب له منبراً في العسكر، وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير آذان ولا إقامة - وكانت بنو أمية تبدأ الخطبة بأذان، ثم الصلاة بإقامة على صلاة يوم الجمعة، ويخطبون على المنابر جلوساً في الأعياد والجمع - وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر في الركعة الأولى ست تكبيران، وفي الثانية خمس تكبيرات - وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد، وفي الثانية ثلاث تكبيرات - فلما قضى سليمان بن كثير الصلاة والخطبة انصرف أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم أبو مسلم، فطعموا مستبشرين.

وكان أبو مسلم في أول الأمر يكتب إلى نصر بن سيار: الأمير نصر. فلما قوي أبو مسلم بمن معه بدأ بنفسه فكتب إلى نصر، وأمر أن يقطع مادة نصر بن سيار من مرو الروذ ومن بلخ، فوجه نصر خيلاً لمحاربة أبي مسلم وذلك بعد ثمانية عشر شهراً من ظهروه، فوجه إليه أبو مسلم بمالك بن الهيثم الخزاعي، فالتقوا بقرية فانهزم أصحاب نصر وقتل منهم جماعة وجيء برؤوسهم، فأمر أبو مسلم بنصب تلك الرؤوس، فهي أول حرب كانت بين الشيعة العباسية وشيعة بني مروان.

* * *

سنة ثلاثون ومائة

ومطابقة علي بن جديع الكرماني إياه على حرب نصر بن سيار، ودخلها لتسع خلون من جمادي يوم الخميس.

وكان سبب موافقة عليّ أبا مسلم، أن أبا مسلم وبخه وقال: أما تستحي من مصالحة نصر وقد قتل أباك في الأمس وصلبه، فرجع عنه فانتفض صلح العرب الذين اصطلحوا على قتال أبي مسلم، فتمكن لذلك أبا مسلم من دخول دار الإمارة بمرو وعبأ جنوده لقتال نصر، فأرسل إلى جماعة بالقتال، ففهم لاهز، فقرأ لا هز:{إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} [القصص: ٢٠] ففطن فهرب، وذلك يوم الجمعة لعشر خلون من جمادي الأول هذه السنة، وهو اليوم الثاني من دخول أبي مسلم دار الإمارة.

وصفت مرو لأبي مسلم، وأمر أبا منصور طلحة بن زريق أن يأخذ البيعة على الجند، وكان طلحة أحد النقباء الأثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة، أو أربع ومائة، وأمره أن يدعو إلى الرضا ولا يسمين أحداً.

* * *

سنة إحدى وثلاثين ومائة

وذلك أنه لما قتل نباته ارتحل نصر بن سيار فنزل الخوار ووجه قحطبة ابنه الحسن إلى قومس في حرم هذه السنة، ثم وجه إلى ابنه جماعة من الرؤوس في سبعمائة، فدخلوا حائطاً فوجه إليهم نصر جنداً فحصروهم، فنقبوا الحائط وخرجوا، وسار نصر حتى نزل الري، فأقام يومين ثم مرض حتى كان بساوة قريباً من همذان، فمات بها.

* * *

سنة اثنين وثلاثين ومائة

وكان السبب في ذلك أن قحطبة لما نزل بخانقين، وابن هبيرة بجلولاء، وبينهما خمسة فراسخ وأمده مروان بعشرون ألفاً من أهل الشام والتقيا، فحمل على ابن هبيرة فولى أصحابه منهزمين، وفقدوا قحطبة فبايعوا حميد بن قحطبة، فسار حتى نزل كربلاء ثم اجتمعوا على الحسن بن قحطبة، ثم وجد قحطبة قتيلاً في جدول فدفنوه. وفي رواية: أن معن بن زائدة ضرب قحطبة على حبل عاتقه فسقط في الماء، فأخرجوه فقال: إن مت فألقوني في الماء لا يعلم أحداً بقتلي، فإذا قدمتم الكوفة فوزير الإمام أبو سلمة حفص بن سليمان، فسلموا هذه الأمر إليه، ورجع ابن هبيرة إلى واسط.

وفي هذه السنة: خرج محمد بن خالد بالكوفة، وسود قبل أن يدخلها الحسن ابن قحطبة، وضبطها وأخرج عنها عامل بن هبيرة، ثم دخلها الحسن.

* * *

باب ذكر خلافة أبي العباس السفاح

قد روى في الحدث أن رسول الله أعلم العباس أن الخلافة تؤول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعونها ويتحدثون بذلك بينهم.

وكان بنو أمية يحسون بولاية بني العباس، فروى خليد بن عجلان، قال: لما خالف ابن الأشعث أرسل عبد الملك إلى خالد بن يزيد، فأخبره، فقال: أما إذا كان الفتق من سجستان فليس عليك بأس، وإنما كنا نتخوف لو كان من خراسان.

وقد ذكرنا أنه لما مات محمد بن علي جعل وصيته بعده لأبنه إبراهيم، فبعث إبراهيم أبا سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع إلى خراسان، وكتب معه إلى النقباء بها، ثم رجع إليه فرده ومعه أبو مسلم.

وبلغ الخبر مروان، فبعث إلى إبراهيم، فأخذه وقد كان عرف صفة الرجل الذي يقتلهم فلما رأى إبراهيم قال: ليس هذه صفته، فردهم في طلبه.

وفي رواية: أن مروان وصف له وصفة فجاء فرأى تلك الصفة في أبي العباس، فأخذه فقيل للرسول: إنما أمرت بأخذ إبراهيم، فترك أبا العباس وأخذ إبراهيم، فانطلق به، فأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي لعباس، وجعله خليفة من بعده، وأمر أهله بالمسير إلى الكوفة مع أخيه.

ثم إن مروان قتله، فشخص أبو العباس ومن معه من أهل بيته: عبد الله بن محمد، وداود بن علي، وعيسى، وصالح، وإسماعيل، وعبد الله، وعبد الصمد، بنو علي، ويحيى بن محمد، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي، وعبد الوهاب، ومحمد ابنا إبراهيم الإمام، وموسى بن داود، وعيسى بن جعفر بن تمام، حتى قدموا الكوفة في صفر، فأفرد لهم أبو سلمة دار الوليد بن سعد، مولى بني هاشم، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من جميع القواد والشيعة.

ونقل إنه أراد بذلك تحويل الأمر إلى آل أبي طالب لما بلغه الخبر عن موت إبراهيم بن محمد، وذهب قوم من الشيعة، فدخلوا إلى أبي العباس، وجاء أبو سلمة فمنعوه أن يدخل معه أحد، فدخل وحده فسلم بالخلافة، فقال أبو حميد: على رغم أنفك.

وبويع أبو العباس السفاح بالكوفة في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وانتقل إلى الأنبار فسكنها حتى مات. وأمه ريطة بنت عبيد الله الحارثي من بني عبد المدان، وكان مولده بالشراة سنة خمس ومائة، واستخلف وهو ابن سبع وعشرين سنة، وهو أول خلفاء بني العباس، وكان أصغر سناً من أخيه المنصور، وكان أشعر جعداً طويلاً أبيض، أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية.

وفي هذه السنة: هزم مروان بالزاب، وكتب عبد الله بن علي بالفتح إلى أمير المؤمنين أبي العباس السفاح، فلما أتاه الخبر صلى ركعتين وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة خمسمائة، ورفع أرزاقهم إلى ثمانين.

وكان مروان منذ لقيه أهل خراسان لا يدبر شيئاً إلا وقع فيه خلل، ولقد وقف يوم انهزم الناس يقتتلون فأمر بأموال فأخرجت وقال للناس: اصبروا وقاتلوا، هذه الأموال لكم، فجعل الناس يصيبون من ذلك المال، فأرسلوا إليه: إن الناس قد مالوا على هذا المال، ولا تأمنهم أن يذهبوا، فأرسل إلى ابنه عبد الله: أن سر في أصحابك فاقتل من أخذ من ذلك المال وامنعهم، فمال عبد الله برايته وأصحابه، فقال الناس: الهزيمة فانهزموا. وذلك صبيحة يوم السبت لإحدى عشر خلت من جمادى الآخرة.

أخبر أحمد بن منصور اليشكري، قال: قرئ على الصولي وأنا حاضر، قال: حدَّثنا الغلابي، قال: حدَّثنا عبد الله بن عائشة، قال: لما استقام الأمر لأبي العباس السفاح خطب يوماً فأحسن الخطبة، فلما نزل عن المنبر قام إليه: فقال له أبو العباس السفاح: سل حاجتك، قال: ترضى عن سليمان بن حبيب ابن المهلب وتوليه الأهواز، قال: قد فعلت، ثم أمر أن يكتب عهد سليمان على الأهواز، وتدفع إلى السيد، فكتب ثم أخذه السيد وقدم على سليمان بالبصرة، فلما وقعت عليه عينه فقال له سليمان: شريف وشافع، ووافد وشاعر، ونسيب، سل حاجتك، قال: جارية فارهة جميلة ومن يخدمها، وبدرة ومن يحملها، وفرس رائع وسايسه، وتخت من صنوف الثياب وحاملها، قال: قد أمرت لك بجميع ما سألت ولك عندي في كل سنة مثله.

* * *

سنة ثلاثة وثلاثين ومائة

وأعمالها وكور دجلة، والبحرين وعمان ومهرجان قذق. وتوجيه عمه إسماعيل بن علي على كور الأهواز.

وفي هذه السنة: قتل داود بن علي من كان أخذ من بني أمية بمكة والمدينة وفيها: مات داود بن علي، فلما بلغت وفاته إلى أبي العباس وجه إلى مكة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي.

* * *

سنة أربع وثلاثين ومائة

وكان من فرسان أهل خراسان خالف وخلع من عسكر أبي العباس مع جماعة بايعوه على ذلك مستبشرين بخروجهم، فأقاموا بالمدائن، فبعث إليهم أبو العباس خازم بن خزيمة، فانهزم بسام وأصحابه، وقتل أكثرهم، واستبيح عسكره.

وفيها: شخص خازم إلى عمان، فأوقع من فيها من الخوارج وغلب على ما قرب منها من البلدان، وقتل شيبان الخارجي، وكان أهل عمان ظفروا به، ثم نصب لهم الجلندى وأصحابه، وهم الأباضية، فاقتتلوا فقتل الجلندى فيمن قتل، وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف.

* * *

سنة خمس وثلاثين ومائة

فشخص أبو مسلم من مرو مستعداً للقائه وسأل عمن أفسد زياد بن صالح، فقيل له: سباع بن النعمان، فأمر بقتله فقتل زياداً قواده، فلجأ إلى دهقان، فقتله الدهقان وجاء برأسه إلى أبي مسلم، ورجع أبو مسلم إلى مرو.

وفيها: ولي سليمان بن علي البصرة، وعزل عنها محمد بن حفص، واستعمل على شرط السفاح.

* * *

سنة ست وثلاثين ومائة

وذلك أنه كتب إليه يستأذنه في القدوم، فأذن له، فقدم في جماعة عظيمة، فأمر أبو العباس الناس بالتلقي له، فلما دخل عليه اعظمن وأكرمه، فاستأذنه في الحج، فقال: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملناك على الحج والموسم، وأنزله قريباً منه، وكان يأتيه في كل يوم يسلم عليه، وكان بين أبي جعفر، وبين أبي مسلم تباعد. وكان السبب في ذلك أن أبا العباس بعث أبا جعفر إلى أبي مسلم وهو بنيسابور وقد صفت له الأمور بعهده على خراسان، وبالبيعة لأبي العباس ولأبي جعفر من بعد موته، فبايع له، وكان في مدة مقامه عنده يهون أمره، ويستخف بشأنه، فلما قدم أبو جعفر أخبر أبا العباس باستخفافه به، وقال له: أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة، فقال: يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه، فقال: إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه، فقال: وكيف نقتله؟ قال: إذا دخل عليك وحادثته دخلت إليه فتغفلته وضربته ضربة أتيت بها على نفسه، قال: وكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم؟ قال: يؤول ذلك كله إلى ما تريد، ولو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا، قال: عزمت عليك ألا كففت عن هذا، قال: والله أخاف إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غداً، قال: فدونكه، أنت أعلم. فخرج أبو جعفر عازماً على ذلك، وندم أبو العباس فأرسل إلى أبي جعفر لا تفعل ذلك الأمر.

* * *

باب ذكر خلافة المنصور

وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ويكنى أبا جعفر، ولد بالسراة في ذي الحجة سنة خمس وتسعين، وأمه بربرية يقال لها سلامة، وحكى الصولي أنه ولد يوم مات الحجاج.

حدثت سلامة أم أمير المؤمنين، قالت: لما حملت بأبي جعفر رأيت كأنه خرج من فرجي أسد فزأر، ثم أقعى، فاجتمعت حوله الأسد، فكلما انتهى إليه أسد سجد له.

عن عبد الله بن عباس، عن النبي أنه قال: **منا السفاح والمنصور والمهدي**ـــ.

ولي المنصور الخلافة وهو ابن اثنتين وأربعين سنة. بويع بالأنبار يوم مات السفاح. وولي ذلك والإرسال به في الوحدة عيسى بن علي عمه، ولقيت أبا جعفر بيعته في الطريق عند منصرفه من الحج، ومضى أبو جعفر حتى قدم الكوفة وصلى بالناس.

* * *

سنة سبع وثلاثين ومائة

فوجد عيسى بن موسى قد شخص إلى الأنبار، واستخلف على الكوفة طلحة ابن إسحاق بن محمد بن الأشعث، فدخل أبو جعفر الكوفة، فصلى الجمعة بأهلها، وخطبهم وأعلمهم أنه راحل عنهم، ثم وافاه أبو مسلم بالحيرة، ثم شخص أبو جعفر إلى الأنبار، فأقام بها، وجمع إليه أطرافه، وقد كان عيسى بن موسى قد أحرز بيوت الأموال والخزائن والدواوين حتى قدم عليه أبو جعفر، فبايع الناس له بالخلافة ثم لعيسى بن موسى من بعده، وسلم الأمر إلى أبي جعفر، وبعث يزيد بن زياد وهو حاجب أبي العباس إلى عبد الله بن علي ببيعة أبي جعفر، وذلك بأمر أبي العباس قبل أن يموت حين أمر الناس بالبيعة، فلما قدم عليه دعا الناس إلى نفسه وقال: إن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان ابن محمد دعا بني أمية فأرادهم على المسير إلى مروان وقال: من انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي، فلم ينتدب له غيري، فعلى هذا خرجت من عنده، وقبلت من قبلت، فقام أبو غانم الطائي، وخفاف المروزي في عدة من قواد أهل خراسان، فشهدوا له بذلك، فبايعه أبو غانم، وخفاف، وأبو الإصبع، وجميع من كان معه من أولئك القواد منهم حميد بن قحطبة وغيره، فلما فرغ من البيعة ارتحل فنزل حران وبها مقاتل العكي، وكان أبو جعفر استخلفه لما قدم على أبي العباس، فأراد مقاتلاً على البيعة فلم يجبه وتحصن منه، فأقام عليه وحصره.

وسرح أبو جعفر لقتال عبد الله بن علي أبا مسلم، فسار إليه وقد جمع الجنود والسلاح وخندق، وجمع الطعام والأعلاف، فسار أبو مسلم ومعه القواد كلهم، وبعث مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي، وكان معه الحسن وحميد ابنا قحطبة، وكان حميد قد فارق عبد الله بن علي، وكان عبد الله أراد قتله، فإنه كتب إلى زفر بن عاصم إلى حلب: إذا قدم عليك فاقتله. ففتح حميد الكتاب وعلم ما فيه، فلم يذهب. ولما بلغ عبد الله مسير أبي مسلم إليه أعطى العكي أماناً، فخرج إليه فيمن كان معه، ثم وجهه إلى عثمان بن عبد الأعلى إلى الرقة ومعه ابناه، وكتب إليه كتاباً، فلما قدموا على عثمان قتل العكي وحبس ابنيه، فلما بلغته هزيمة عبد الله ابن علي أخرجهما فقتلهما وكان عبد الله بن علي قد خشي أن لا تناصحه أهل خراسان فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً، ثم اقتتلوا خمسة أشهر أو ستة، وعمل لأبي مسلم عريشاً، فكان يجلس عليه إذا التقى الناس فينظر إلى القتال، فإن رأى خللاً في أصحابه أصلحه، ثم إن أصحاب عبد الله بن علي انهزموا وتركوا عسكرهم، فاحتواه أبو مسلم، وكتب بذلك إلى أبي جعفر، ومضى عبد الله وعبد الصمد بن علي، وكانا مع عبد الله. فأما عبد الصمد فقدم الكوفة، فاستأمن له عيسى بن موسى، فأمنه أبو جعفر. وأما عبد الله بن علي فأتى سليمان بن علي بالبصرة، فأقام عنده، وأمن أبو مسلم الناس، فلم يقتل أحداً.

* * *

وفي هذه السنة قتل أبو مسلم.

وكان سبب ذلك أن أبا مسلم كان قد كتب إلى أبي العباس يستأذنه في الحج في سنة ست وثلاثين، وإنما أراد أن يصلي بالناس فأذن له، وكتب أبو العباس إلى أبي جعفر وهو على الجزيرة: أن أبا مسلم سألني الحج فاكتب إلي تستأذني في ذلك، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك، فكتب إليه، فأذن له. فقال أبو مسلم: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا!! واضطغنها عليه، فخرجا فكان أبو مسلم يصلح العقاب، ويكسو الأعراب في كل منزل، ويصل كل من سأله، وحفر الآبار، وسهل الطريق، وكان الصيت له. فلما صدر الناس عن الموسم نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر فتقدمه، فأتاه كتاب بوفاة أبي العباس واستخلاف أبي جعفر، فكتب إلى أبي جعفر يعزيه ولم يهنئه بالخلافة، ولم يقم له حتى يلحقه، فغضب أبو جعفر فقال لأبي أيوب: اكتب إليه كتاباً غليظاً.

فلما أتاه كتاب أبي جعفر كتب إليه يهنئه بالخلافة. فقال يزيد بن أبي أسيد السلمي لأبي جعفر: إني أكره أن تجامعه في الطريق والناس له أطوع، وليس معك أحد فأخذ برأيه، فكان يتأخر ويتقدم أبو مسلم، وما كان في عسكر أبي جعفر غير ستة أدرع، فمضى أبو مسلم إلى الأنبار، ودعا عيسى بن موسى أن يبايع له، فأبى عيسى، فقدم أبو جعفر فنزل الكوفة، فأتاه خروج عبد الله بن علي إلى الأنبار، وعقده لأبي مسلم وقال: سر إليه. فقال أبو مسلم: إن عبد الجبار بن عبد الرحمن، وصالح بن الهيثم يعيبانني فاحبسهما. فقال أبو جعفر: إن عبد الجبار على شرطي. وكان على شرط أبي العباس وصالح بن الهيثم أخو أمير المؤمنين من الرضاعة، فلم أكن لأحبسهما لظنك بهما. فقال: أراهما آثر عندك مني. فغضب أبو جعفر. فقال أبو مسلم: لم أرد كل هذا. وقال رجل لأبي أيوب: إني قد ارتبت بأبي مسلم، يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه، ثم يلوي شدقه، ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر مالك بن الهيثم فيقرأه ويضحك استهزاءً! ؟ فقال أبو أيوب: نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي، إلا أنا نعلم أن أهل خراسان لا يحبون عبد الله بن علي، وقد قتل منهم من قتل. وكان أبو مسلم قد أصاب من عسكر عبد الله بن علي، متاعاً كثيراً وجوهراً كثيراً، فبعث أو جعفر مولاه أبا الخصيب ليحصي ذلك، فغضب وافترى عليه، وهم بقتله، فقيل له: إنما هو رسول. فلما قدم به أبو الخصيب على أبي جعفر أخبره. وقيل: إنما بعث إليه يقطين بن موسى بذلك، فقال أبو مسلم: يا يقطين، أمين على الدماء جائر في الأموال. وشتم أبا جعفر، فأبلغه يقطين، فكتب إلى أبي مسلم مع يقطين: إني قد وليتك مصر والشام، وهي خير من خراسان، فوجه إلى مصر من أحببت، وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين؛ فإن أحب لقاءك أتيته من قرب. فلما أتاه الكتاب غضب وقال: هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي! وعزم على المضي إلى خراسان مجمعاً على ذلك، فكتب بذلك يقطين إلى أبي جعفر. وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن، وكتب إلى أبي مسلم في المصير إليه، فكتب أبو مسلم، وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق حلوان: قد كنا نروي عن ملك آل ساسان أن أخوف ما يكون من الوزراء إذا سكنت الدهماء؛ فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك، حريون بالسمع والطاعة، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبد لك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك، ضناً بنفسي.

فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم: قد فهمتك كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، وإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أبعاد هذا الأمر على ما أنت به! وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين السلطان ونزغاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب فتحه عليك. ثم إن أبا جعفر وجه إلى أبي مسلم جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، وكان واحد أهل زمانه، فخدعه ورده. قال جرير: نزلت معه جسر النهروان فتغدينا، فقال: أين أمير المؤمنين؟ قلت: بالمدائن. قال: في أي المواضع؟ قلت: في صحراء. قال: فما اسم الموضع؟ قلت: رومية. فأطرق طويلاً ثم قال: سر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال جرير: وقد كان قيل له إنك تقتل أو تموت برومية. فظنها بلاد الروم. ثم قال: " إنا لله وإنا إليه راجعون " ذهبت والله نفسي بيدي. ثم جعل يخاطب نفسه ويقول: يا أبا مسلم، فتح لك من باب المكايد في عدوك وصديقك ما لم يفتح لأحد حتى إذا دان لك من بالمشرق والمغرب، خدعك عن نفسك من كان يهاب بالأمس من ينظر إليك " إنا لله وإنا إليه راجعون ". ثم تمثل: وقد كان قيل له إنك تقتل أو تموت برومية. فظنها بلاد الروم. ثم قال: " إنا لله وإنا إليه راجعون " ذهبت والله نفسي بيدي. ثم جعل يخاطب نفسه ويقول: يا أبا مسلم، فتح لك من باب المكايد في عدوك وصديقك ما لم يفتح لأحد حتى إذا دان لك من بالمشرق والمغرب، خدعك عن نفسك من كان يهاب بالأمس من ينظر إليك " إنا لله وإنا إليه راجعون ".فأقبل وتلقاه الناس وأنزله وأكرمه، وكان فيمن بعث إليه عيسى بن موسى، فحلف له بعتق كل مملوك له، وصدقة كل ما يملك، وطلاق نسائه، وقال: لو خير المنصور بين موت أبيه وموتك لاختار موت أبيه، فإنه لا يجد منك خلفاً. فأقبل معه، فلما دخل أبو مسلم المدائن قال لعيسى بن موسى: تدري ما مثلي ومثلك ومثل عمك؟ مثل ثلاثة نفر كانوا في سفرٍ فأتوا على عظام نخرة، فقال أحدهم: عندي طب إذا رأيت عظاماً متفرقة ألفتها. فقال الثاني: وأنا إذا رأيت عظاماً موصولة كسوتها لحماً. فقال الثالث: وأنا إذا رأيت عظاماً مكسوة لحماً أجريت فيها الروح. ففعلوا ذلك، فإذا الذي أحيوه أسدٌ، فقال الأسد في نفسه: ما أحياني هؤلاء إلا وهم على أن يميتوني أقدر.

فوثب عليهم فأكلهم، والله ليقتلني وليقتلن عمك، وليخلعنك أو ليقتلنك. وفي رواية: أن أبا مسلم كتب إلى أبي جعفر: أما بعد، فإني اتخذت رجلاً إماماً، فحرف القرآن عن مواضعه طمعاً في قليل قد بغاه الله عز وجل إلى خلقه، فكان كالذي ولي بغرور، فأمرني أن أجرد السيف، وأن أرفع الرحمة ولا أقيل العثرة، ففعلت توطئة لسلطانك حتى عرفكم من كان يجهلكم، ثم استنقذني الله بالتوبة، فإن يعف عني فقديماً عرف به ونسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما الله بظلام للعبيد. أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أخبرنا أبو الطيب الطبري قال: حدثنا المعافى ابن زكريا قال: حدثنا محمد بن يحيى الصولي قال: حدثنا المغيرة بن محمد قال: حدثنا محمد بن عبد الوهاب قال: حدثنا علي بن المعافى قال: كتب أبو مسلم إلى المنصور حين استوحش منه: أما بعد، فقد كنت اتخذت أخاك إماماً وجعلته على الدين دليلاً وللوصية التي زعم أنها صارت إليه، فأوطأني عشوة الضلالة، وأوثقني موثقة الفتنة، وأمرني أن آخذ بالظنة، وأقتل على التهمة، ولا أقبل المعذرة، فهتكت بأمره حرمات حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقنها، وزويت الأمر عن أهله، ووضعته منه في غير محله، فإن يعف الله عني فبفضل منه، وإن يعاقب فبما كسبت يداي، وما الله بظلام للعبيد. ثم أنساه الله هذا - يعني أبا مسلم - حتى جاءه فقتله. وفي رواية: أن أبا مسلم خرج يريد خراسان، مراغماً مشاقاً، فلما دخل أرض العراق وارتحل المنصور من الأنبار، فأقبل حتى نزل المدائن، وأخذ أبو مسلم طريق حلوان، فقيل لأبي جعفر أخذ طريق حلوان، فقال: رب أمر لله دون حلوان. وقال أبو جعفر لعيسى بن علي وعيسى بن موسى ومن حضره من بني هاشم: اكتبوا إلى أبي مسلم. فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه على ما كان منه من الطاعة، ويحذرونه عاقبة الأمور، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين، وأن يلتمس رضاه، وبعث أبو جعفر بذلك مع أبي حميد المروزي وقال له: كلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحد، ومنه، وأعلمه إني رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب، فإن أبى أن يرجع فقل له: يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس، وأنا بريء من محمد، إن مضيت مشاقاً ولم تأتني، إن وكلت أمرك إلى أحدٍ سواي، وأن لم أل طلبك وقتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك، ولا تقولن له هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه، ولا تطمع منه في خير.

فسار أبو حميد في مأمن من أصحابه ممن يثق بهم، حتى قدموا على أبي مسلم بحلوان، فدخل عليه أبو حميد، فدفع إليه الكتاب وقال له: إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله، وخلاف ما عليه رأيه فيك؛ حسداً وبغياً؛ يريدون إزالة هذه النعمة وتغييرها، فلا تفسد ما كان منك، وإنك لم تزل أمين آل محمد ، يعرفك بذلك الناس، وما ذخر الله لك من الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك، فلا تحبط أجرك، ولا يستهوينك الشيطان. فقال له أبا مسلم: متى كنت تكلمني بهذا؟ فقال: لأنك دعوتنا إلى هذا وإلى طاعة بيت أهل النبي ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك، وقلت: إن خالفتكم فاقتلوني. فعند ذلك أقبل أبو مسلم على أبي نصر فقال: يا مالك، أما أن تسمع ما يقول لي هذا، ما هذا بكلامه. فقال: لا تسمع قوله، فما هذا بكلامه، وما بعد هذا أشد منه، فامض لأمرك ولا ترجع، فو الله لئن أتيته ليقتلنك، ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبداً. فقال أبو مسلم: قوموا. وأرسل إلى نيزك فقال: ما ترى؟ فقال: ما أرى أن تأتيه، وأرى أن تأتي الري، فتقيم بها، فيصير ما بين خراسان والري لك، وهم جندك لا يخالفك أحد، فإن استقام لك استقمت له، وإن أبى كنت في جندك، وكانت خراسان من ورائك، فرأيت رأيك.

فدعا أبا حميد فقال: ارجع إلى صاحبك، فليس من رأي أن آتيه. فقال: قد اعتزمت على خلافه. قال: لا تفعل. قال: ما أريد أن ألقاه. فلما آيسه من الرجوع قال له: ما أمره أبو جعفر أن يقوله. فوجم طويلاً ثم قال: قم. فكسره ذلك القول وأرعبه. وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبي داود وهو خليفة أبو مسلم بخراسان حين اتهم أبا مسلم: إن لك إمرة خراسان ما بقيت. فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إنا لم نخرج بمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبينا ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه. فوافاه كتابه على تلك الحال فزاده رعباً وهماً، فأرسل إلى أبي حميد وإلى مالك فقال لهما: إني قد كنت عازماً على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين، فيأتيني برأيه، فإنه ممن أثق به، وكان صاحب حرس أبي مسلم، فوجهه، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب، وقال أبو جعفر: اصرفه عن وجهه؛ ولك ولاية خراسان، وأجازه. فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم فقال له: ما أنكرت شيئاً، رأيتهم معظمين لحقك، يرون لك ما يرون لأنفسهم

وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان منه، فأجمع على ذلك، فقال له نيزك: قد أجمعت على الرجوع؟ قال: نعم. وتمثل: أبا حميد فقال: ارجع إلى صاحبك، فليس من رأي أن آتيه. فقال: قد اعتزمت على خلافه. قال: لا تفعل. قال: ما أريد أن ألقاه. فلما آيسه من الرجوع قال له: ما أمره أبو جعفر أن يقوله. فوجم طويلاً ثم قال: قم. فكسره ذلك القول وأرعبه. وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبي داود وهو خليفة أبو مسلم بخراسان حين اتهم أبا مسلم: إن لك إمرة خراسان ما بقيت. فكتب أبو داود إلى أبي مسلم: إنا لم نخرج بمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبينا ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه. فوافاه كتابه على تلك الحال فزاده رعباً وهماً، فأرسل إلى أبي حميد وإلى مالك فقال لهما: إني قد كنت عازماً على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أن أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين، فيأتيني برأيه، فإنه ممن أثق به، وكان صاحب حرس أبي مسلم، فوجهه، فلما قدم تلقاه بنو هاشم بكل ما يحب، وقال أبو جعفر: اصرفه عن وجهه؛ ولك ولاية خراسان، وأجازه. فرجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم فقال له: ما أنكرت شيئاً، رأيتهم معظمين لحقك، يرون لك ما يرون لأنفسهم، وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان منه، فأجمع على ذلك، فقال له نيزك: قد أجمعت على الرجوع؟ قال: نعم. فقال: أما إذا اعتزمت على هذا فخار الله لك، احفظ عني واحدة: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت، فإن الناس لا يخالفونك. فكتب أبو مسلم إلى أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه، فبينا كتاب أبي مسلم بين أيدي أبي جعفر إذ دخل عليه أبو أيوب، فرمى أبو جعفر إليه بالكتاب، فقرأه فقال: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. فاغتنم أبو أيوب وقال في نفسه: لئن قتله لا يترك أصحابه أحداً ممن يتعلق بأبي جعفر حياً.

قال أبو إسحاق: والشعر للمنصور. ثم سار أبو مسلم، فلما دنا من المدائن أمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه، فدخل أبو أيوب على أبي جعفر فقال: هذا الرجل يدخل العشية، فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أقتله حين أنظر إليه. فقال إن دخل عليك ولم تخرج لم آمن البلاء، ولكن إذا دخل عليك فأذن له أن ينصرف، فإذا غدا عليك رأيت رأيك. فلما دخل عليه سلم وقام قائماً على قدميه بين يديه.

فقال: انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك، وادخل الحمام، فإن للسفر قشفاً، ثم أغد علي. فانصرف، ثم ندم أبو جعفر، وافترى على أبي أيوب وقال: متى أقدر على هذه الحال ولا أدري ما يحدث في ليلتي!. فلما أصبحوا جاء أبو أيوب فقال له أبو جعفر: يا ابن اللخناء؛ لا مرحباً بك، أنت منعتني منه أمس، والله ما غمضت عيني الليلة. ثم شتمه حتى خاف أن يأمر بقتله. ثم قال: ادع لي عثمان بن نهيك. فدعاه فقال: يا عثمان، كيف بلاء أمير المؤمنين عندك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنما أنا عبدك، والله لو أمرتني أن أتكىء على سيفي حتى يخرج من ظهري لفعلت. قال: كيف أنت إن أمرتك بقتل أبي مسلم فوجم ساعة لا يتكلم فقال له أبو أيوب: مالك لا تتكلم؟ فقال بصوت ضعيف: أقتله. قال: انطلق. فجيء بأربعة من وجوه الحرس أقوياء، فمضى؛ فلما كان عند الرواق ناداه: يا عثمان يا عثمان، ارجع واجلس وأرسل من تثق به من الحرس فليحضر منهم أربعة. فلما حضروا قال لهم أبو جعفر نحواً مما قال لعثمان، فقالوا: نقتله. قال: كونوا خلف الرواق. فإذا صفقت فاخرجوا فاقتلوه. فأرسل إلى أبي مسلم رسلاً بعضهم على أثر بعض، فقالوا: قد ركب إلى عيسى بن موسى. فدعا له عيسى بالغداء، ثم خرج إلى أبي جعفر وأبو نصر حاجبه بين يديه وحربته معه، فلما قربا من الباب خرج سلام الحاجب فقال: انزل. فنزل فدخل الدهليز وأغلق الباب دونه، فقال أبو مسلم: يدخل خاصة أصحابي، فقال له الربيع: لم نؤمر بذلك. فنزع سيفه من وسطه وقال: الآن عرف الرامي موضع سهمه وهو مثلٌ يضرب لمن أمكن عدوه من نفسه فلما بصر بالمنصور انحرف إلى القبلة، فخر ساجداً، ثم دنا ليقبل أطرافه، فقال له: وراءك يا ابن اللخناء. فنصب له كرسي فقعد فقال له أبو جعفر: أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي. فقال: هذا أحدهما الذي علي. قال: أرنيه. فانتضاه وناوله إياه، فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه. فقال له: اخترناك وأنت لا تدري أية بيضة انفقأت عن رأسك، ولا من أي وكرٍ نهضت، خامل ابن خامل، فل ابن فل، ذل ابن ذل، عشت أيام حداثتك، وخير يوميك، يوم تشتري فيه لعاصم بن يونس إزار قدره، ومكشحة داره، فرقأنا بك المنابر، ووطئنا أعناق العرب والعجم عقبيك، أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين.

قال: ظننت أخذه لا يحل، فكتب إلي، فلما أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم. قال: فأخبرني عن تقدمك إياي في الطريق؟ قال: كرهت اجتماعنا على الماء، فيضر ذلك بالناس، فتقدمت التماس الرفق. قال: فقولك حين أتاك الخبر بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلي: نقدم فنرى رأينا، ومضيت، فلا أنت أقمت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلي؟ قال: منعني ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس، وقلت نقدم الكوفة. قال: فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها؟ قال: لا، ولكن خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها. قال: فمراغمتك وخروجك إلى خراسان؟ قال: خفت أن يكون قد دخلك مني شيء، فقلت آتي خراسان، فأكتب إليك بعذري، ولو رأينا ذهب ما في نفسك علي؟ قال: تالله ما رأيت كاليوم قط، والله ما زدتني إلا غضباً. قال: ليس يقال لي هذا بعد بلائي، وما كان مني؟ قال: يا ابن الخبيثة، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت، إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً، ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك! ؟ ألست تخطب أمينة بنت علي، وتزعم أنك ابن سليط عبد الله ابن عباس، لقد ارتقيت لا أم لك مرتقىً صعباً. وأخذ يعتذر وأبو جعفر يعاتبه، إلى أن قال أبو مسلم: دع هذا، فما أصبحت أخاف أحداً إلا الله. فغضب وشتمه وضربه بعمود، وصفق بيديه، فخرجوا عليه، فضربه عثمان فلم يصنع شيئاً، لم يزد على قطع حمائل سيفه، وضربه آخر فقطع رجله، فصاح المنصور: اضربوا قطع الله أيديكم. فقال أبو مسلم في أول ضربة: استبقني لعدوك. فقال: وأي عدو أعدى إلي منك! ؟ فصاح: العفو. فقال المنصور: يا ابن اللخناء، العفو والسيوف قد اعتورتك؟ ! ثم قال: اذبحوه، فذبحوه، وجاء عيسى بن موسى فقال: أين أبو مسلم؟ فقال: مدرج في الكساء. فقال إنا لله، وجعل يلطم ويقول: أحنثتني في أيماني، وأهلكتني. فقال له: علي لكل شيء تخرجه ضعفاه، ويحك اسكت، فما تم سلطانك ولا أمرك إلا اليوم. ثم رمى به في دجلة. وذلك لخمس بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائةوكان أبو مسلم قد قتل في دولته ستمائة ألف صبراً.

* * *

سنة ثمان وثلاثين ومائة

وقهره لأهلها، وهدمه سورها، إلا أنه عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية. وفيها غزا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الصائفة مع صالح بن علي، فوصله صالح بأربعين ألف دينار، وخرج معهم عيسى بن علي، فوصله أيضاً بأربعين ألف دينار، وبنى صالح ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية. وقد قيل إن خروج صالح والعباس إلى ملطية للغزو كان في سنة تسع وثلاثين ومائة. وفيها بايع عبد الله ابن علي لأبي جعفر وهو مقيم بالبصرة مع أخيه سليمان بن علي.

* * *

سنة تسع وثلاثين ومائة

فمن الحادث فيها: إقامة صالح بن علي والعباس بن محمد بملطية حتى استما بناء ملطية، ثم غزوا الصائفة، فوغلا في أرض الروم. وفي هذه السنة: كان الفداء الذي جرى بين المنصور وصاحب الروم، واستنقذ المنصور منهم أسرى المسلمين. وفيها: سار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس، فملكه أهلها أمرهم، فولده ولاتها. وفيها: وسع أبو جعفر المسجد الحرام. وفيها: عزل سليمان بن علي عن ولاية البصرة وأعمالها، وولي ما كان إليه سفيان بن معاوية وذلك في رمضان. وقيل: إنما كان عزل ذلك وتوليه هذا في سنة أربعين، ولما عزل سليمان توارى عبد الله وأصحابه خوفاً على أنفسهم. فإنا قد ذكرنا أن عبد الله لما انهزم مضى إلى سليمان، فكان عنده، وكتب أبو جعفر إلى سليمان وعيسى بن علي في إشخاص عبد الله وأعطاهما الأمان ما رضيا به، فلما خرجا به أتى به وبأصحابه إلى أبي جعفر يوم الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة. ولما دخل سليمان وعيس على أبي جعفر أعلماه حضور عبد الله، وسألاه الإذن له، فأنعم لهما بذلك، وشغلهما الحديث، وقد كان هيأ لعبد الله محبساً في قصره، وأمر إليه أن يصرف إليه بعد دخول سليمان وعيسى عليه، ففعل ذلك به، ثم قال لسليمان وعيسى: سارعا بعبد الله. فخرجا، فلم يرياه في المكان الذي خلفاه فيه، فعلما أنه قد حبس، فرجعا إلى أبي جعفر، فحيل بينهما وبينه، وقتل جماعة من أصحاب عبد الله وحبسوا. وفي هذه السنة: حج بالناس العباس بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس. وكان على مكة والمدينة والطائف زياد بن عبيد الله الطائي. وعلى الكوفة وأرضها عيسى بن موسى. وعلى البصرة وأعمالها سفيان ابن معاوية المهلبي، وعلى قضائها سوار بن عبد الله. وعلى خراسان أبو داود خالد بن إبراهيم. وسميت هذه السنة بسنة الخصب، لاتصال الخصب فيها.

سنة أربعين ومائة

فأشرف عليهم من حائط المنزل الذي هو فيه، فوقع فانكسر ظهره فمات، فولى أبو جعفر عبد الجبار بن عبد الرحمن خراسان، وقدمها فأخذ بها ناساً من القواد ذكر أنه اتهمهم بالدعاء إلى ولد علي بن أبي طالب فقتلهم. وفي هذه السنة: خرج أبو جعفر المنصور حاجاً، فأحرم من الحيرة، ثم رجع بعدما قضى الحج إلى المدينة، فتوجه منها إلى بيت المقدس، فصلى في مسجدها، ثم سلك إلى الشام منصرفاً حتى انتهى إلى الرقة فنزلها، وكتب إلى صالح بن علي يأمره ببناء المصيصة، ثم خرج منها إلى ناحية الكوفة، فنزل المدينة الهاشمية بالكوفة، ثم انتقل عنها، فاختط مدينة السلام. أنبأنا الحسين بن محمد البارع قال: أخبرنا أبو جعفر بن المسلمة قال: أخبرنا المخلص قال: أخبرنا أحمد بن سليمان بن داود قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثني يحيى بن محمد قال: حدثني أبو منصور عبد الرحمن بن صالح بن دينار قال: حج أبو جعفر المنصور فأعطى أشراف القرشيين ألف دينار لكل واحد منهم، فلم يترك أحداً من أهل المدينة إلا أعطاه، إلا أنه لم يبلغ واحد ما بلغ بالأشراف، فكان ممن أعطاه الألف دينار سليم بن عروة، ويعطي قواعد قريش صحاف الذهب والفضة وكساهن، وأعطى بالمدينة عطايا لم يعطها أحد. وكان عمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة التي قبلها إلا خراسان، فإن عاملها كان عبد الجبار. وحج المنصور بالناس. وما عرفنا أحداً من الأكابر توفي في هذه السنة.

* * *

سنة إحدى وأربعين ومائة

ثم إلى بيت المقدس، فصلى فيه، ثم انحدر إلى الرقة، وقتل بها منصور بن جعونة، لأن المنصور قال: احمدوا الله يا أهل الشام، فقد رفع عنكم بولايتنا الطاعون. فقال منصور: الله أكرم من أن يجمعك علينا والطاعون. ثم انحدر من الشام إلى شط الفرات حتى نزل الهاشمية بالكوفة.

* * *

سنة اثنين وأربعين ومائة

وبنى لهم قبلتهم التي يصلون إليها في عيدهم بالحمان، واستعمل عيسى بن عمرو الكندي على البصرة، ومعن بن زائدة على اليمن. ووجه عمر بن أبي حفص بن أبي صفرة عاملاً على السند والهند، ومحارباً لعيينة بن موسى، فسار حتى ورد السند، وغلب عليها.

سنة ثلاث وأربعين ومائة

وقتلوا مقتلة عظيمة، فبعث أهل البصرة والكوفة لجهادهم. وفيها: عزل الهيثم بمن معاوية عن مكة والطائف، وولي ما كان إليه من ذلك السري بن عبد الله بن الحارث بن عباس بن عبد المطلب، فأتى السري عهده على ذلك وهو باليمامة، فسار إلى مكة. ووجه المنصور إلى اليمامة محمد بن العباس بن عبد الله ابن عباس. وفي هذه السنة: عزل حميد بن قحطبة عن مصر، ووليها نوفل، ثم عزل ووليها يزيد بن حاتم. وفي هذه السنة: حج بالناس عيسى بن موسى، وكان إليه ولاية الكوفة وسوادها، وكان عامل مكة والمدينة السري بن عبد الله، وعامل البصرة سفيان بن معاوية، وكان على قضائها سوار، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

* * *

سنة أربع وأربعين ومائة

وفيها انصرف المهدي عن خراسان إلى العراق، وشخص أبو حعفر إلى قنسرين، فلقيه بها ابنه محمد، فانصرفا جميعاً إلى الحيرة. وفيها: بنى المهدي عند مقدمه من خراسان بابنة عمه ريطة بنت أبي العباس.

* * *

سنة خمس وأربعين ومائة

وخروج أخيه إبراهيم بن عبد الله بعده بالبصرة ومقتلهما ☻.

وفيها أسست مدينة بغداد.

* * *

سنة ست وأربعين ومائة

وقد ذكر محمد بن عمران أن أبا جعفر تحول إلى بغداد في صفر سنة ست وأربعين، فنزلها.

وفيها: عزل المنصور عبد الله بن الربيع الحارثي عن المدينة، وولاها جعفر بن سليمان بن علي.

* * *

سنة سبع وأربعين ومائة

وفيها إغارة الترك على المسلمين بناحية أرمينية، وسبيهم منهم ومن أهل الذمة خلقاً كثيراً ودخلوا بهم تفليس، وقتلهم حرب بن عبد الله الذي تنسب إليه الحربية ببغداد.

وفيها خلع المنصور عيسى بن موسى وبايع لابنه المهدي فجعله ولي العهد.

* * *

سنة ثمان وأربعين ومائة

لحرب الترك الذين قتلوا حرب بن عبد الله، وعاثوا بتفليس، فسار فوجدهم قد ارتحلوا، فانصرف ولم يلق منهم أحداً. وفيها: عسكر صالح بن علي بدابق ولم يغز. وفيها: خرج الهند من البحر فأتوا دجلة البصرة. وفيها: حج بالناس جعفر ابن أبي جعفر المنصور، وكان عمال الأمصار في هذه السنة عمالها في السنة التي قبلها.

* * *

سنة تسع وأربعين ومائة

ومعه الحسن بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث، فهلك ابن الأشعث في الطريق. وفيها: استتم المنصور جميع ما أراد من البناء ببغداد، واستتم حائط بغداد.

* * *

سنة خمسين ومائة

فغلبوا على عامة خراسان، فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى المهدي، فولاه الحرب، وضم إليه اثنين وعشرين ألفاً. ثم ضم إليه ستة آلاف من الجند متخيرين، فالتقوا، فقتل من المشركين أكثر من سبعين ألفاً، وأسر أربعة عشر ألفاً، فضربت أعناقهم، ونجا ملك الأعاجم في جماعة لجأوا إلى جبل، فحاصرهم المسلمون، فنزلوا على حكمهم فحكموا بأن يؤسر الملك وأولاده ويعتق الباقون. وقد قيل: كان هذا في سنة إحدى وخمسين ومائة.

* * *

سنة إحدى وخمسين ومائة

وفيها: ولي عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة إفريقية، وعزل عن السند، وولي مكانه هشام بن عروة الثعلبي.

وفي هذه السنة: ابتدأ المنصور ببناء الرصافة في الجانب الشرقي من مدينة السلام لابنه المهدي.

سنة اثنتين وخمسين ومائة

وغزوة محمد بن إبراهيم الصائفة. وفيها: عزل المنصور جابر بن توبة عن البصرة وولاها يزيد بن منصور.

وفيها قتل أبو جعفر هاشم بن الأشتاخنج، وكان قد عصى وخالف بإفريقية، فحمل إليه فقتله بالقادسية وهو متوجه إلى مكة. وفيها: عزل يزيد بن حاتم عن مصر، وولاها محمد بن سعيد. وفيها: حج بالناس المنصور، واستعدى عليه الحمالون، وحضر معهم عند الحاكم محمد بن عمران الطلحي، فحكم لهم عليه، وسنذكر القصة في حديث ابن عمران بعد ثلاث سنين. وكان العمال على الأمصار في هذه السنة العمال في السنة الماضية إلا البصرة ومصر فإن عامل البصرة كان يزيد بن منصور، وعامل مصر كان محمد بن سعيد.

سنة ثلاث وخمسين ومائة

فجهز جيشاً إلى البحر لحرب الكرك، وكانوا أغاروا على جده، وهذه قدمته الأخيرة إلى البصرة.

سنة أربع وخمسين ومائة

ومضيه إلى بيت المقدس، وتوجيهه يزيد بن حاتم إلى إفريقية في خمسين ألفاً لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر بن حفص، وأنفق المنصور على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف ألف درهم. وفيها: غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي. وفيها: عزم المنصور على بناء مدينة الرافقة، فلما أراد بناءها امتنع أهل الرقة وأرادوا محاربته، وقالوا: يعطل علينا أسواقنا ويذهب معايشنا ويضيق منازلنا. فهم بمحاربتهم. والرافقة على شط الفرات، كانت الرقة إلى جانبها، فخربت الرقة. والرافقة تعرف اليوم بالرقة. وفيها: وقعت صاعقة في المسجد الحرام فقتلت ستة نفر.

سنة خمس وخمسين ومائة

وقتله أبا غازي، وأبا حاتم ومن كان معهما، واستقامة بلاد المغرب، ودخول يزيد القيروان. وفيها: غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي.

وفيها: وجه المنصور ابنه المهدي لبناء مدينة الرافقة، فشخص إليها فبناها على بناء مدينته ببغداد، في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها سوى سورها وخندقها، ثم انصرف إلى مدينة السلام. وفيها: خندق أبو جعفر على الكوفة والبصرة، وضرب عليهما سوراً وجعل ما أنفق في ذلك من أموال أهل المكان. وفيها: عزل عبد الملك بن أيوب عن البصرة واستعمل عليها القاسم بن معاوية العكي، وضم إليه سعيد بن دعلج وأمره ببناء سور لها يطيف بها، وخندق عليها من دون السور. قال ابن جرير: وقد ذكرنا أن المنصور لما أراد الأمر ببناء سور الكوفة وبحفر خندق لها أمر بقسمة خمسة دراهم على أهل الكوفة، وأراد بذلك علم عددهم، فلما علم عددهم أمر بجبايتهم اربعين درهماً من كل إنسان، فجبوا، ثم أمر بإنفاق ذلك على سور الكوفة وحفر الخندق،

سنة ست وخمسين ومائة

وأن الهيثم بن معاوية عامل أبي جعفر على البصرة ظفر بعمرو بن شداد عامل إبراهيم بن عبد الله على فارس، فقتل بالبصرة وصلب. وفيها: عزل أبو جعفر الهيثم بن معاوية عن البصرة وأعمالها، فاستعمل سوار بن عبد الله على البصرة وجمع له القضاء والصلاة، وولى سعيد بن دعلج شرطها وأحداثها.

* * *

سنة سبع وخمسين ومائة

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أخبرنا أحمد بن علي الخطيب، قال: أخبرنا محمد بن الحسين القطان، قال: أخبرنا عبد الله بن جعفر بن درستويه، قال: حدثنا يعقوب بن سفيان، قال: سنة سبع وخمسين ومائة نقل أبو جعفر الأسواق من المدينة الشرقية إلى باب الكرخ وباب الشعير والمحول، وفي السوق التي تعرف بالكرخ، وأمر ببنائها من ماله على يدي الربيع مولاه.

* * *

سنة ثمان وخمسين ومائة

وفتحت الطالقان وطبرستان ونهاوند على يدي عمر بن العلاء.

ومن الحوادث: توجيه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة، وأمره إياه بعزل موسى ابن كعب عن الموصل، وتولية - يحيى بن خالد بن برمك عليها. وسبب ذلك أن المنصور كان ألزم خالد بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم. ونذر دمه فيها، وأجله بها ثلاثة أيام، فقال خالد لابنه يحيى، يا بني، قد أوذيت وطولبت بنا ليس عندي وإنما يراد بذلك دمي، فانصرف - إلى حرمتك وأهلك فما كنت فاعلاً بهم بعد موتي فافعله، ثم قال: يا بني -، لا يمنعك ذلك - من - أن تلقى إخواننا، وأن تمر بعمارة بن حمزة وصالح صاحب المصلى ومبارك التركي، فتعلمهم حالنا.

فأتاهم فأخبرهم فمنهم من تجهمه وبعث المال سراً، ومنهم من لم يأذن له وبعث بالمال في أثره، واستأذن على عمارة فدخل عليه وهو في صحن داره مقابل بوجهه الحائط، فلما انصرف إليه بوجهه وسلم عليه فرد عليه رداً ضعيفاً وقال: يا بني، كيف أبوك؟ قال: بخير، يقرأ عليك السلام ويعلمك بنا قد لزمه من الغرم، ويستسلفك مائة ألف درهم، فما رد عليه قليلاً ولا كثيراً، وقال: إن أمكنني شيء فسيأتيك، فانصرف وهو يقول: لعن الله كل شيء يأتي من تيهك وكبرك. ورجع إلى أبيه وأعلمه بالخبر، فإذا رسول عمارة قد طلع بالمائة ألف، فجمعوا في يومين ألفي ألف وسبع مائة ألف، فورد على المنصور: انتقاض الموصل وانتشار الأكراد، فقال المنصور: من لها؟ فقال له المسيب: ما رميتها بنثل خالد، قال: ويحك، فيصلح لنا بعد ما أتينا إليه ما أتينا؟ قال: إنما كان ذلك تقويماً له يا أمير المؤمنين وأنا ضامن عليه، قال: فليحضر غداً، فأحضر فصفح له عن الثلاثمائة ألف وعقد له. فلم يزل خالد على - الموصل إلى - أن توفي المنصور، ويحيى على أذربيجان، وكان المنصور معجباً بيحيى، وكان يقول: ولد الناس أبناء وولد خالد آباء.

باب ذكر خلافة المهدي

واسمه محمد بن عبد الله، ويكنى أبا عبد الله، ولد بأيذج سنة سبع وعشرين ومائة، وأمه أم موسى بنت منصور الحميرية، وكان أبيض - قيل: أسمر - طويلاً جعداً، وبعينه اليمنى نكتة بياض. قيل: كان ذلك باليسرى.

عن ابن عباس، قال: منا المنصور ومنا السفاح ومنا المهدي.

سنة تسع وخمسين ومائة

حتى بلغ أنقرة وانصرفوا سالمين. وفيها: ولي حمزة بن مالك سجستان، وولي جبرئيل بن يحيى سمرقند. وعزل عبد الصمد عن المدينة عن موجدة، واستعمل مكانه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجمحي. وفيها: بني المهدي مسجد الرصافة وبنى حائطها وحفر خندقها. أخبر أبو العباس المنصوري قال: لما حصلت في يد المهدي الخزائن والأموال ودخائر المنصور أخذ في رد المظالم، وأخرج ما في الزائن ففرقه وبر أهله وأقرباءه ومواليه، وأخرج لأهل بيته أرزاقاً لكل واحد منهم في كل شهر خمسمائة درهم، وأخرج لهم في الإقسام لكل واحد عشرة آلاف درهم.

* * *

سنة ستين ومائة

منكراً هو ومن معه على رأيه على المهدي الحال التي هو بها وسيرته التي يسير بها، واجتمع معه بشر كثير من الناس، فتوجه إلى يزيد بن مزيد فاقتتلا حتى صارا إلى المعانقة، فأسره يزيد وبعث به إلى المهدي، وبعث معه من وجوه أصحابه بعده فلما انتهى بهم إلى النهروان حمل يوسف على بعير قد حول وجهه إلى ذنب البعير وأصحابه على بعير، فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال، فأدخلوا على المهدي، فأمر هرثمة بن أعين بقطع يدي يوسف ورجليه، وضرب عنقه وأعناق أصحابه وصلبهم على جسر دجلة الأعلى مما يلي عسكر المهدي، وإنما أمر هرثمة بقتله لأنه كان قتل أخاً لهرثمة بخراسان.

* * *

سنة إحدى وستين ومائة

وكان فيما ذكر يقول بتناسخ الأرواح، فاستغوى بشراً كثيراً، وسار إلى ما وراء النهر، فوجه المهدي لقتاله عدة من قواده، فيهم معاذ بن سالم وهو يومئذ على خراسان، ومعه عقبة بن سالم، وجبرئيل بن يحيى، وليث مولى المهدي، ثم أفرد المهدي، لمحاربته سعيد الحرشي، وضم إليه هؤلاء القواد، فابتدأ المقنع يجمع الطعام في قلعة بكش عدة للحصار. وفيها: ظفر بشر بن محمد بن الأشعث الخزاعي بعبد الله بن مروان بالشام، فقدم به على المهدي ولم يعرض له.

* * *

سنة اثنتين وستين ومائة

وكان قد خرج بالجزيرة وكثر بها اتباعه، واشتدت شوكته، فلقيه من قواد المهدي عدة فهزمهم، إلى أن بعث المهدي إليه جنوداً كثيرة، فهرب منهم إلي قنسرين فلحقوه فقتلوه بها.

وفيها: وضع المهدي دواوين الأزمة، وولى عليها عمر بن بزيغ مولاه، فولى عمر ابن بزيغ النعمان بن عثمان زمام خراج العراق. وفيها: أمر المهدي أن يجري على المجرمين وأهل السجون في جميع الآفاق. وفيها: خرجت الروم إلى الحدث فهدموا سورها. وفيها: غزا الحسن بن قحطبة الصائفة في ثمانين ألف مرتزق سوى المطوعة، فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يلقى جمعاً أو يفتح حصناً، ثم قفل بالناس سالمين، وكان على قضاء عسكره وما تجمع من الفيء جعفر بن عمر بن عامر السلمي. وفيها: غزا يزيد بن أبي أسيد السلمي باب قاليقلا فغنم، وافتتح ثلاثة حصون وأصابوا شيئاً كثيراً وأسرى.

* * *

سنة ثلاث وستين ومائة

وذلك أن سعيداً الحرشي حصره بكش فاشتد عليه الحصار، فلما أحس بالهلكة شرب سماً وسقاه نساءه. فمات ومتن، فدخل المسلمون قلعته فاجتروا رأسه ووجهوا به إلى المهدي. وفيها: قطع المهدي البعوث للصائفة على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم، وخرج فعسكر بالبردان فأقام بها نحواً من شهرين ويعطي الجنود، وأخرج بها صلات لأهل بيته الذين خرجوا معه. وتوفي عيسى بن علي في آخر جمادى الآخر. وخرج المهدي من الغد من البردان متوجهاً إلى الصائفة، واستخلف بمدينة السلام ابنه موسى، وكاتبه يومئذٍ أبان بن صدقة، وعلى خاتمه عبد الله بن علاثة، وعلى حرسه علي بن عيسى، وعلى شرطته عبد الله بن خازم، وإنما خرج مشيعاً لولده هارون، وضم إليه الربيع، والحسن بن قحطبة، وخالد بن برمك، والحسن وسليمان ابني برمك. ووجه معه على أمر العسكر ونفقاته والقيام مع ابنه هارون بإمرة يحيى بن خالد، وكان أمر هارون كله إليه، ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة.

* * *

سنة أربع وستين ومائة

فأقبل إليه بطريق في تسعين ألفاً، فعجز عبد الكريم فانهزم، فأراد المهدي ضرب عنقه فكلم فيه فحبسه. وفيها: بنى المهدي بعيساباذ الكبرى قصراً من لبن إلى أن أسس قصره الذي بالآجر، وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في شهر ذي القعدة. وفيها: عزل المهدي محمد بن سليمان عن أعماله ووجه صالح بن داود على ما كان إلى محمد بن سليمان. أنبأنا محمد بن عبد الملك قال: أنبأنا الحسن بن علي الجوهري قال: أخبرنا محمد بن عمران المرزباني قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: حدثنا أحمد بن سعيد قال: حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب قال: لما بنى المهدي عيساباذ نزل منزله بها، فأمر أن يكتب له أبناء المهاجرين وأبناء الأنصار، فكتبوا ودعا نقباءهم وجلس مجلساً عاماً لهم، ففرق فيهم ثلاثة آلاف ألف درهم، فأغنى كل عائل، وجبر كل كسير، وفرج عن كل مكروب، ثم قامت الخطباء فخطبت، ودخل الشعراء فأنشدوا ففرق فيهم خمسمائة ألف درهم، ثم دعا بغدائه، وحضر خاصته وبطانته، وأهل المراتب من قوداه فطعموا فلم ينصرف واحد منهم إلا بحباء وكرامة، فكثر الدعاء له في الطرقات والبوادي، وقال الناس: هذا مفتاح الخير، هذا مهدي هذه الأمة الذي بشر به النبي .

* * *

سنة خمس وستين ومائة

وجهه أبوه في يوم السب لإحدى عشر ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضم إليه الربيع مولاه فأوغل هارون في بلاد الروم فلقيته خيول فقاتلها فانهزمت، وسار هارون في خمسة وسبعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين، وحمل من الفيء مائة ألف دينار وثلاثة وسبعين ألفاً وأربع مائة وخمسين ديناراً، ومن الورق أحد وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم، وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ امرأة أليون، وذلك أن زوجها هلك وابنها صغير، فكان في حجرها فجرت بينها وبين هارون رسل وسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بنا أعطت، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان في أول سنة، وفي كل سنة في حزيران، فقبل ذلك منها، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسلمت الأسارى.

فكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً، وقتل من الأسارى ألفان وسبعون أسيراً صبراً، وأفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألفاً، وذبح من البقر والغنم مائة ألف، وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف. وفيها: عزل خلف بن عبد الله عن الري ووليها عيسى مولى جعفر.

* * *

سنة ست وستين ومائة

في المحرم لثلاث عشرة ليلة بقيت فيه. وقدمت الروم بالجزية معهم، وجاءوا مع المال بثلاثين ألف رطل من المرعزي.

وفيها: أخذ المهدي البيعة لهارون على قواده بعد موسى بن المهدي، وسماه الرشيد.

وفيها: اعتمر المهدي عمرة في شهر رمضان، وأفطر بالمدينة، وصلى بهم في الفطر، واستقضى أبا سفيان.

وفيها: عزل عبيد بن الحسن عن قضاء البصرة، وولى مكانه خالد بن طليق بن عمران بن حصين، فلم تحمد ولايته، واستعفى أهل البصرة منه.

وفيها: عزل جعفر بن سليمان عن مكة والمدينة وما كان إليه من العمل.

* * *

سنة سبع وستين ومائة

وفيها: جد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، وولى أمرهم عمر الكلواذي، فأخذ يزيد بن الفيض كاتب المنصور، فأقر فحبس فهرب من الحبس. أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال: إتهم المهدي صالح بن عبد القدوس البصري بالزندقة، فأمر بحمله إليه فأحضر، فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحسن ثيابه فأمر بتخلية سبيله، فما ولي رده فقال: ألست القائل:

قال: بلى، قال: وأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك. ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر. قال ابن ثابت: وقيل إنه بلغه عنه أبيات يعرض فيها بالنبي ، قال: ويقال إنه كان مشهوراً بالزندقة وله الهذيل العلاف مناظرات. وفيها: عزل المهدي أبا عبيد الله عن ديوان الرسائل، وولاه الربيع الحاجب، واستخلف سعيد بن واقد عليه

وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته. وفيها: أمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام، فدخلت فيه دور كثيرة، وولى بناء ما زيد فيه يقطين بن موسى، فلم يزل في بنائه حتى توفي المهدي. وفيها: عزل يحيى الحرشي عن طبرستان والرويان، وما كان إليه من تلك الناحية وولاها عمر بن العلاء، وولى جرجان فراشة مولى المهدي. وفيها: أظلمت الدنيا ظلمة شديدة لليالٍ بقين من ذي الحجة حتى تعالى النهار فكشف الله تعالى ذلك. وأصاب الناس غير مرة تراب أحمر يجدونه في فرشهم، وعلى وجوههم، وظهر سعال شديد، وفشا الموت والوباء ببغداد والبصرة.

* * *

سنة ثمان وستين ومائة

وقد تقدم ذكره، وكان بين أول الصلح وبين أول الغدر اثنان وثلاثون شهراً، فوجه علي بن سليمان وهو يومئذٍ على الجزيرة وقيس بن زيد بن المنذر بن البطال سرية في خيل إلى الروم فظفروا وغنموا.

وفيها: وجه المهدي سعيد الحرشي إلى طبرستان في أربعين ألفاً.

وفيها: قتل المهدي جماعة من الزنادقة ببغداد.

* * *

سنة تسع وستين ومائة

وكان سبب خروجه: أنه قد عزم في آخر عمره أن يقدم هارون على موسى، فبعث إلى موسى وهو بجرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ويقدم الرشيد، فلم يفعل، فبعث إليه المهدي بعض الموالي فامتنع موسى من القدوم عليه، وضرب الرسول، فخرج المهدي يريده بجرجان فأصابه ما أصابه وولي الهادي. وفيها: توفي المهدي بالله.

* * *

باب ذكر خلافة موسى الهادي

وهو موسى بن محمد المهدي بن المنصور، ويكنى أبا محمد، أمه: الخيرزان أم ولد، وكان طويلاً جسيماً أبيض مشرباً حمرة، وفي شفته العليا تقلص، ولد بالري، وكان يثب على الدابة وعليه درعان، وكان المهدي يسميه: ريحانتي.

سنة سبعين ومائة

ذكر بيعة الرشيد.

بويع للرشيد بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي أخرجه هرثمة بن أعين ليلاً فأقعده للمبايعة، وكانت تلك الليلة ليلة السبت لأربع عشر بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين.

منصرفاً عن خراسان، وكان خاتم الخلافة مع جعفر بن محمد الأشعث، فلما تقدم أبو العباس أخذه الرشيد منه ودفعه إلى أبي العباس، ثم لم يلبث أبو العباس غلا يسيراً حتى توفي، فدفع الخاتم إلى يحيى بن خالد.

* * *

سنة إحدى وسبعين ومائة

وفيها: أمر الرشيد بإخرج من كان بمدينة السلام من الطالبين إلى مدينة رسول الله خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، وكان أبو الحسن فيمن شخص.

وفيها: خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتله أبو خالد المروروذي.

ثم مرتاداً بها منزلاً ينزله، وكان قد استثقل مدينة السلام وكان يسميها البخار، فخرج على مرج القلعة فاعتل بها، وانصرف، وسميت تلك السفرة بسفرة المرتاد.

* * *

سنة اثنين وسبعين ومائة

وفيها: عزل الرشيد يزيد بن مزيد عن أرمينية وولاها عبيد الله بن محمد المهدي.

وفيها: غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي.

وفيها: وضع الرشيد عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.

وفيها: تزوج محمد بن سليمان بن علي العباسة بنت المهدي، وهي أول بنت خليفة من بني هاشم نقلت من بلد إلى بلد، نقلها إلى البصرة، وأول بنت خليفة نقلت من خلفاء بني أمية بنت معاوية، نقلت إلى البصرة إلى محمد بن زياد ذكره الصولي.

وفيها: ولي معاذ بن معاذ القضاء.

سنة ثلاث وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: أن الرشيد أقدم جعفر بن محمد بن الأشعث من خراسان وولاها ابنه العباس بن جعفر.

قال الصولي: وخرج بالناس الرشيد محرماً من بغداد.

سنة أربع وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: أن الرشيد ولَى إسحاق بن سليمان الهاشمي السِّند ومكران، واستقصى، الرشيد فيها، يوسف بن أبي يوسف وأبوه حيّ. وغزا الصائفة عبدُ الملك بن صالح. وفيها: خرج الرشيد إلى البصرة يُريد الحج، فزاد في مسجد البصرة مما يلي القبلة، وخرج فبدأ بالمدينة، فقسم في أهلها مالاً عظيماً.

ووقع الوباء في هذه السنة بمكة، فأبطأ عن دخولها، ثم دخلها فقضى طوافه وسعيه، ولم ينزل مكة.

سنة خمس وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: عَقد الرشيد لابنه محمد من بعده ولاية العهد، فأخذ له بيعة القواد والجند ببغداد، وسماه: الأمين، وله يومئذ خمس سنين، فقدَّمه على المأمون، والمأمون أكبر منه، لأن أمه زبيدة.

وقد روى أبو بكر الصولي قال: حدَّثنا سليمان بن داود المهلبي قال: حدَثنا القاسم بن محمد بن عباد، عن أبيه قال: كان الرشيد يقول: إني لأتعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، فلو أشأ أن أنسبه إلى الرابعة فَيّ لنسبته، وإني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، واستحسن سياسته، وأرى قوته وذهنه، وأمن ضعفه ووهنه، وإني لأقدم محمداً عليه، وأعلم أنه منقاد لهواه، متصرف في طريقه، مبذر لما حوته يده، مشارك للنساءِ والإماء في رأيه، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم إليه لقدّمت عبد الله عليه.

وفيها: عزل الرشيد العباس بن جعفر عن خراسان، وولاها خاله الغطريف ابن عطاء.

وفيها: غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح.

قال الواقدي: الذي غزاها عبد الله بن صالح. قال: وأصابهم في هذه الغزاة برد قطع أيديهم وأرجلهم.

سنة ست وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: تولية الرشيد الفضل بن يحيى كور الجبال، وطَبرستان، ودُنْباوند، وقُومِس، وأرمينيَة، وأذْرَبيجان.

وفي هذه السنة: هاجت العصبية بالشام بين النزارَية واليمانية، وكان رأس النزاريَّة يومئذ أبو الهيذام، وقتل بينهم خلق كثير.

وفي هذه السنة: عزل الرشيد الغطريف بن عطاء، عن خراسان، وولاها حمزة ابن مالك، بن الهيثم الخزاعي.

* * *

سنة سبعة وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: أن الرشيد عزل جعفر بن يحيى عن مصر، وولأَها إسحاق ابن سليمان. وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولاها الفضل بن يحيى إلى ما كان إليه من الأعمال. وفيها: غزا الصائفة عبد الرزاق بن عبد الحميد التَغلبي.

وكان في ليلة الأحد لأربع بقين من المحرم ظلمة وحمرة وريح، ثم كانت ظلمة ليلة الأربعاء لليلتين بقيتا من المحرم، ثم كانت ريح وظلمة شديدة يوم الجمعة لليلة خلت من صفر.

وفيها: حج الرشيد بالناس.

* * *

سنة ثمان وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: وثوب الحوْفيَّة بمصر بعامل الرشيد عليهم إسحاق بن سليمان، وقتالهم إيَّاه وتوجيه الرشيد إليه هرثمة بن أعين في عدة من القوَّاد مدداً له، حتى أذعن أهل الحَوْف، ودخلوا في الطاعة، وأدوْا ما كان عليهم من وظائف السلطان، وكان هرثمة إذ ذاك والي فلسطين، فلما انقضى أمر الحَوْفية صرف هارون إسحاق عن مصر، وولاها هرثمة نحواً من شهر، ثم صرفه عنها ولاها عبد الملك بن صالح.

وفيها: كان وثوب أهل إفريقية بعبدويه الأنباريّ ومَنْ معه من الجند هنالك، فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم، وأخرج مَنْ كان بها من آل المهلب، فوجه الرشيد إليهم هرثمة فرجعوا إلى الطاعة، وكان عبدويه قد غلب على إفريقية، وخلع السلطان فتلطف الأمير يحيى بن خالد، وكاتبه بالترغيب في الطاعة والترهيب والتجريد للمعصية، فقبل الأمان، وعاد إلى الطاعة، فولي له يحيى. وفيها: فوض الرشيد أمورَه إلى يحيى بن خالد بن برمك.

سنة تسع وسبعين ومائة

فمن الحوادث فيها: انصراف الفضل بن يحيى عن خراسان، واستخلافُه عليها عمرو بن شُرَحبيل.

وفيها: ولى الرشيد خُراسان منصور بن يزيد بن منصور الحميري، وعزل محمد ابن خالد بن برمك عن الحجبة، وولاها الفضل بن الربيع.

وفيها: خرج بخُراسان حمزة بن أترك السجستاني.

وفيها: رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة، واشتدت شوكته، وكثر تبعه، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، فراوغه يزيد، ولقيه على غرة فقتله وجماعة ممن معه وتفرَّق الباقون.

سنة ثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: عود الفتنة بالشام، فاقتتل أهلها، وتفاقم الأمر، فاغتم بذلك الرشيد، وعقد لجعفر بن يحيى على الشام، وقال له: إما أن تخرج أنت أو أنا. فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي فشخص في جلة القَواد والكراعِ والسلاح، وأتاهم فأصلح بينهم، وقتل المناصفية منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة، وانطفأت تلك الثائرة، وولى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها، واستخلف على الشام عيسى بن العتكيّ، وانصرف فازداد الرشيد له إكراماً، فلما قدم دخل على الرشيد فقبل يديه ورجليه، وقال: الحمد لله الذي آنس وحشتي وأنسأ في أجلي حتى أراني وجه سيدي وأكرمني بقربه، وردني إلى خدمته، فو الله إن كنت لأذكر غيبتي، والمقادير التي أزعجتني، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتني، ولو طال مقامي لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك وأسفاً على فراقك. وفي هذه السنة: كانتَ زلزلة بمصر ونواحيها، وسقطت رأس منارة الإسكندرية فيها.

وفيها: أخذ الرشيد من جعفر بن يحيى الخاتم، فدفعه إلى أبيه يحيى بن خالد. وفيها: ولى جعفر بن يحيى خُراسان وسجستان، فاستعمل جعفر عليها محمد بن الحسن بن عطية. وفيها: شخص الرشيد من مدينة السلام يريد الرّقة على طريق الموصل، فلما نزل البَردان، ولّى عيسى بن جعفر خراسان، وعزل عنها جعفر بن يحيى، وكانت ولاية جعفر إياها عشرين ليلة. وفيها: ولى جعفر بن يحيى الحرس.

سنة إحدى وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: غزو الرشيد أرض الروم، فافتتح بها عنوة حصن الصّفصاف

وفيها: غزا عبد الملك بن صالح الروم فبلغ أنقرة، وافتتح مطمورة.

وفيها: غلبت المحمرة على جرجان.

وفيها: أحدث الرشيد عند نزوله للرقة في صدور كتبه الصلاة على النبي محمد .

سنة اثنتين وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: انصراف الرشيد عن مكة، ومسيره إلى الرّقة، وبيعته بها لابنه المأمون بعد الأمين، فأخذ له البيعة على الجند، وضمّه إلى جعفر بن يحيى، ووجّهه إلى مدينة السلام، ومعه من أهل بيته: جعفر بن المنصور، وعبد الملك بن صالح. ومن القوّاد: علي بن عيسى، فبويع له بمدينة السلام حين قدمها، وولاه أبوه خُراسان وما يتصل بها إلى همدان، وسمَّاه المأمون.

حدَث الحسين بن الصباح الزعفراني. قال: لما قدم الشافعي إلى بغداد وافق عقد الرشيد للأمين والمأمون على العهد.

قال: فبكّر الناس ليهنئوا الرشيد، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن، قال: فجعل الناس يقولون: كيف ندعو لهما؟ فإنا إذا فعلنا ذلك كان دعاء على الخليفة، وإن لم ندع لهما كان تقصيراً، قال: فدخل الشافعي ☺، فجلس، فقيل له في ذلك، فقال: الله الموفق. فلما أذن دخل الناس، وكان أول متكلم الشافعي ☺ وفيها: غزا عبد الرحمن بن عبد الملك الصائفة فبلغ أفسوس مدينة أصحاب الكهف.

وفيها: سَملت الروم عينيْ ملكِهم قسطنطين.

وحج بالناس في هذه السنة موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: خروج الخزر على الناس. وفي سبب ذلك قولان: أحدهما: أن ابنة خاقان الملك ماتت، فقيل لأبيها إنما قتلها المسلمون غيلة. فحنق لذلك فأخذ في الأهبة لحرب المسلمين، وجاء في أكثر من مائة ألف، فانتهكوا أمراً عظيماً، وأوقعوا بالمسلمين وبأهل الذمة، وسبوا منهم.

والثاني: أن سعيد بن مسلم قتل المنجم السلمي بفارس، فدخل ابنه بلاد، فاستجاشهم على سعيد، فدخلوا أرمينية من الثُّلْمة، فانهزم سعيد، ونكحوا المسلمات، فأقاموا مدة، فوجّه الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد إلى أرمينية حتى أصلحوا ما أفسد سعيد، وأخرجوا الخزر، وسدت الثلمة.

سنة أربع وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: قدوم هارون مدينة السلام في جمادى الآخرة منصرفاً إليها من الرّقة في الفرات بالسفن، وغرق أكثر بغداد بزيادة الماء.

وولي حماد البربريّ مكة واليمن، وولي داود بن يزيد بن حاتم المهلبي السند، ويحيى الحرشيّ الجبل، ومهرويه الرازيّ طبرستان، وقام بأمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب.

وفيها: خرج أبو عمرو الشاري فقُتل.

وفيها: طلب أبو الخصيب الأمان، فأعطاه ذلك علي بن عيسى.

وفيها: حج بالناس إبراهيم بن محمد المهدي أمير المؤمنين.

سنة خمس وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: قتل أهل طبرستان مَهْرُوَيه الرازي واليها، فولّى الرشيد مكانه عبد الله بن سعيد الحَرشي.

وفيها: قتل عبد الرحمن الأبناويّ أبانَ بن قحطبة الخارجي بموج القلعة.

وفيها: أغار حمزة الشاري بباذغيس من خراسان فوثب عيسى بن علي على عشرة آلاف من أصحاب حمزة فقتلهم، وبلغ كابُل، وزابلستان.

وفيها غدر أبو الخصيب، وخرج وذهب إلى مرو، فأحاط بها، فهُزِم، ومضى نحو سرخس، وقوي أمره.

وفيها: مات يزيد بن مزيد ببَرذعة، فوُليَ مكانه أسد بن يزيد.

وفيها: شخص الرشيد إلى الرّقة على طريق الموصل.

واستأذنه فيها يحيى بن خالد في العمرة والمجاورة، فأذن له، فخرج في شعبان هذه السنة، واعتمر عمرة رمضان، ثم رابط بجدة إلى وقت الحج.

* * *

سنة ست وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: خروج علي بن عيسى بن ماهان من مَرْو لحرب أبي الخصيب إلى نَسا، فقُتل بها، وسبي نساؤه وذراريّه، فاستقامت خُراسان.

وفيها: حبس الرشيد ثمامة بن أشرس لوقوفه على كذبه في أمر أحمد بن عيسى ابن زيد.

وقد روى إبراهيم بن عبد الله الحجبي عن أبيه قال: لما رفع الكتاب ليعلق بسقف الكعبة سقط قبل أن يعلق، فقلت في نفسي: هذا أمر سريع انتقاضه. وتقدم إلى الحجبة في حفظ الكتابين ومنع من أراد إخراجهما.

* * *

سنة سبع وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: قتل الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد، وإيقاعه بالبرامكة. فأما سبب غضبه على جعفر الذي قتله لأجله فقد اختلف فيه، وفي سبب تغيره على البرامكة. فقال بختيشوع: إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد، وكان يدخل بلا إذن، فلما صار بالقرب من الرشيد وسلَّم عليه ردّ عليه رداً ضعيفاً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيَّر، ثم أقبل علي الرشيد فقال: يا بختيشوع، يدخل عليك في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، فقال: ما بالنا يدخل علينا بلا إذن. فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء خصني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ علمت فإني أكون في الطبقة الثانية من أهل الإذن والثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فأستحى، وكان من أرق الخلفاء وجهاً، وعيناه في الأرض، ما يرفع طرفه. ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون. وخرج يحيى.

وقال ثمامة بن أشرس: رفع محمد بن الليث رسالة إلى الرشيد يعظه فيها ويقول: إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يدي الله فسألك عما عملت في عباده وبلاده؟ فقلت: استكفيت يحيى أمور عبادك. أتراك تحتج بحجة يرضاها. مع كلام فيه توبيخ وتقريع، فدعى الرشيد يحيى وقد تقدم إليه خبر الرسالة، فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر به، فوضع في الحبس دهراً، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضر فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: تقول هذا! ؟ قال: نعم، وضعت رجلي في الأكبال، وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحبّ الإلحاد وأهله، فكيف أحبك؟ قال: ! صدقت. وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا واللّه يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في قلبي. فأمر أن يعطى مائة ألف درهم، فأحضرت فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت عليّ، وأحسنت إلي. قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك. قال: فقال الناس في البرامكة، فأكثروا، وإن ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم.

وقال محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك إلى الرشيد، فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان أن لا يقوموا إليه إذا دخل. فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدَ لونُه، وكان الغلمان والحجاب بعد ذلك إذا رأوه أعرضوا عنه، فكان ربما استسقى الشربة فلا يسقونه. وقال أبو محمد اليزيدي: مَنْ قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب فلا تصدّقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعى به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال له: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد ، فواللّه ما أحدثت حدثاً، ولا آويت محدثَاً. فرقَّ له وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل. فأرَدّ إليك أو على غيرك؟ فوجّه إليه من أداه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل ابن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه، فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: ما أنت وهذا، لا أمّ لك، فلعل ذلك عن أمري. فانكسر الفضل، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما كان بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال الثقيلة.

فقال: بحياتي! فأحجم جعفر، وكان من أرق الخلق ذهناً، وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به، ولا مكروه عنده. قال: نعم ما فعلت، ما عدوتَ ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك. فكان من أمره ما كان. وقال إدريس بن بحر: عرض رجل للرشيد فقال: نصيحة، فقال لهرثمة: خذ إليك الرجل وسَلْه عن نصيحته. فسأله فأبى أن يخبره وقال: هي سر من أسرار الخليفة. فأخبر هرثمة الرشيد فقال له: لا تبرح بالباب حتى أفرغ له. فلما كان في الهاجرة، وانصرف من كان عنده، دعا به، فقال: أخلني. فالتفت هارون إلى بنيه فقال: انصرفوا يا فتيان. فوثبوا، وبقي خاقان وحسين على رأسه، فنظر إليهما الرجل فقال: تنحيا عنا. ففعلا، ثم أقبل على الرجل فقال: هات ما عندك. فقال: على أن تؤمنني. قال: علي أن أؤمنك وأحسن إليك. قال: كنت بحلوان في خان من خاناتها، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله في دراعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل، ويرحلون إذا رحل، ويكونون منه برصد، يوهمون مَنْ رآهم أنهم لا يعرفونه وهم أعوانه، ومع كل واحد منهم منشور يأمن له إن عُرِض له. قال: تعرف يحيى بن عبد الله؟ قال: أعرفه قديماً، وذلك الذي حقق معرفتي به بالأمس. قال: فصفه. قال: مربوع، أسمر، رقيق البشرة، أجلح، حسن العينين، عظيم البطن. قال: صدقت هو ذلك. قال: فما سمعته يقول؟ قال: ما سمعته يقول شيئاً غير أني رأيته يصلي، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب بالخان، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب غسيل، فألقاه في عنقه، ونزع الجبة الصوف، فقال له: أحسن الله جزاءك، وشكر سعيك، فمن أنت. قال: رجل من أبناء هذه الحولة، وأصلي من مرو، ومولدي مدينة السلام. قال: فمنزلك بها؟ قال: نعم. فأطرق ملياً، ثم قال: كيف احتمالك لمكروه تمتحن به في طاعتي؟ قال: أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين. قال: كن بمكانك حتى أرجع. فدخل حجرة كانت خلف ظهره، فأخرج كيساً فيه ألفا دينار، فقال: خذ هذه ودعني وما أدبر فيك. فأخذها وضم عليها ثيابه، ثم قال: يا غلام. فأجابه خاقان وحسين، فقال: اصفعا ابن اللخناء، فصفعاه نحواً من مائة صَفْعة، ثم قال: أخرِجاه إلى مَنْ بقيَ في الدار وعمامتُه في عنقه، فقولا: هذا جزاء من يسعى ببطانة أمير المؤمنين وأوليائه ففعلا ذلك وتحدثوا بخبره، ولم يعلم بحال الرجل أحد، ولا بما ألقى إلى الرشيد حتى كان من أمر البرامكة ما كان.

حدَّثت أمية البرمكية قالت: الناس يكثرون في قصة البرامكة، وأوكد الأسباب فيما نالهم أن جعفر بن يحيى كان اشترى جارية مغنية يقال لها فتينة لم يكن لها نظير في الدنيا في حسن الخلق وسجاة وطيبة، وكان ابن جامع إذا سمعها بكى ما دامت تغني، وكان غيره من الحذاق يسلمون لها، وكان شراؤها على جعفر مائة ألف دينار، فطلبها منه الرشيد فلم يدفعها إليه، فلم يكن إلا قليلاً حتى نزل بهم ما نزل، فأخذت وأخذ جميع من معها من الجواري والعوامل، ثم جلس لنا وأدخلنا عليه وفي يد كل واحدة منا ما تعمل به، فأقبل يأمر واحدة واحدة، فتغني المغنية، وتزمر الزامرة، حتى بلغ إلى فتينة، فقال لها: غَنّي. فأمسكت، فقلنا لها ونحن نرعد: ويحك غَنّي! فأسبلت دمعها وقالت: أما بعد الساعة فلا. فحثثناها على ذلك فأبت، فنظر الرشيد إلى أقبح مَنْ على رأسه وهو الحارث بن بسيحر وقال: خذها، قد وهبتها لك. فأخذ بيدها ومضت معه، فلما ولت دعا الحارث وأسرَّ إليه شيئاً علمناه فيما بعد، أمره أن لا يقربها، إذ كان إنما أراد كسرها، ثم أمر بصرفنا فانصرفنا، ومكثنا أياماً، ثم ذكرنا فأمر بإحضارنا على السبيل التي حضرناها أولاً، فلما وقفنا بين يديه قال للحارث: ما فعلت فلانة؟ يعني: فتينة. قال: هي قبلي يا أمير المؤمنين. قال: هاتها. فأحضرها وجلست وجلسنا، فأخذنا في شأننا وقال: هيهِ غنّي. فعصرت عينيها ثم بكت وقالت: أما بعد الساعة فلا. فغضب الرشيد وقال: سيف ونطع، ثم قال لها: غني. فردَّتْ مثل قولها الأول، وأسبلت الدموع، وذهبت عقولنا نحن، ووقعت علينا الرعدة من شدة الخوف، فقال للسياف: انظر إلى يدي، فإذا عقدت لك بالخنصر اثنين فأمسك، فإذا عقدت بالوسطى ثلاثاً فاضرب. فأخذ السياف السيف ووقف وراءها شاهراً به. فقال لها الرشيد: غني، فقالت: أما بعد الساعة فلا، وهي تبكي وقد علا بكاؤها، فعقد بيده واحدة، ثم قال لها ثانية فقالت القول الأول، فعقد اثنين، ورفع يده يريها السياف وأقبل يحرك الوسطى ويقول لها: غنّي. وأقبلنا عليها نناشدها في نفسها وفينا، فوثب إليها الرشيد، فأخذ العود من يدها، وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تفتت، وأقبلت الدماء، وتطايرنا نحن، وحملت من بين يديه وقيدة، فمكثت ثلاثاً وماتت.

* * *

سنة ثمان وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة، ودخوله أرض الروم، فخرج للقائه نقفور، فجُرح وانهزم وقُتل من الروم أربعون ألفاً وسبعمائة، وأخذ أربعة آلاف دابة.

وفيها: حج بالناس الرشيد، وهي آخر حجة حجها الرشيد، ولقيه بهلول في الطريق فوعظه.

* * *

سنة تسع وثمانين ومائة

فمن الحوادث فيها: شخوص الرشيد إلى الري. وسبب ذلك: أن الرشيد كان قد استشار يحيى بن خالد في توليه خراسان علي بن عيسى بن ماهان، فأشار عليه أن لا يفعل، فخالفه وولاه إياها، فلما شخص علي بن عيسى ظلم الناس وعسفهم، وجمع مالاً جليلاً، ووجه إلى هارون بهدايا لم ير مثلها قط من الخيل، والرقيق، والثياب، والنساء، والأموال، فقعد هارون بالشماسية على دكان مرتفع حين وصلت إليه تلك الهدايا وأحضرت فعرضت عليه، فعظمت في عينه، وكان إلى جانبه يحيى بن خالد، فقال له: يا أبا علي، هذا الذي أشرت علينا أن لا نوليه هذا الثغر فخالفناك فيه، وكان في خلافك البركة. وهو كالمازح معه إذ ذاك فقال: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأي وأوافق في مشورتي، فأنا أحب أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى، وفراسته أثقب، وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما تكره. قال: وما ذاك. قال: إني أحسب أن أكثر هذا أخذ ظلماً. فوقر ذلك في نفس الرشيد، فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أشرافها، وأخذ أموالهم، واستخف برجالهم شكى الناس سوء سيرته، وسألوا أمير المؤمنين أن يبدّلهم من أحب من كفاءته، فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر علي بن عيسى وفي صرفه، وقال: أشر عليَّ برجل ترضاه لذلك الثغر، يُصلح ما أفسد ذلك الفاسق ويرتق ما فتق. فأشار عليه بيزيد بن مزيد، فلم يقبل.

وكان قد قيل للرشيد أن علي بن عيسى قد أجمع على خلافك، فشخص إلى الري من أجل ذلك عند منصرفه من مكة، فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى ومعه ابناه: المأمون والقاسم، فلما صار بقرميسين أشخص إليه جماعة من القضاة وغيرهم، وأشهدهم عليه أن جميع ماله في عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكراع، وما سوى ذلك للمأمون

وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير، وجدد البيعة له على من كان معه، ووجه هرثمة بن أعين صاحب حرسه إلى بغداد، فأخذ البيعة على الأمين، ثم مضى الرشيد عند انصراف هرثمة إلى الري، وأقام بها نحواً من أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال، والهدايا، والطُّرف، والمتاع، والمسك، والجوهر، وآنية الذهب والفضة، والسلاح، والدواب، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من أهل بيته وخدمه على طبقاتهم، فرأى منه خلاف ما كان ظن به، وغير ما كان يقال عنه، فرضي عنه، وردِه إلى خراسان، فخرج وهو مشيع له. وقدم خزيمة بن خازم على الرشيد الري، فأهدى له هدايا كثيرة.

وفي هذه السنة: قدم سعيد الحرشي بأربعمائة رجل من طبرستان، فأسلموا على يد الرشيد.

* * *

سنة تسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: خروج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند مخالفاً لهارون، وخلعه إياه، ونزعه يده من طاعته.

وكان سبب ذلك: أن يحيى بن الأشعثَ بن يحيى الطائي تزوَّج بنتاً لعمه أبي النعمان، وكانت ذات يسار، فأقام بمدينة السلام وتركها بسَمَرقند، فلما طال مقامه بها. وبلغهما أنه قد اتخذ أمهاتِ أولاد، التمست سبباً للتخلص منه، وبلغ رافعاً خبرُها، فطمع فيها وفي مالها، فدسَّ إليها مَنْ قال لها: إنه لا سبيل لها، إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله، وتحضر لذلك قوما عدولاً، وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب، فتحل للأزواج، ففعلت ذلك وتزوجها رافع. وبلغ ذلك يحيى بن الأشعث، فرفع ذلك إلى الرشيد، فكتب إلى عليِ بن عيسى يأمره أن يفرّق بينهما، وأن يجلد رافعاً الحدِّ، ويقيّده ويطيف به في مدينة سَمَرْقَنْد مقيداً على حمار، حتى يكون عظةً لمن يراه، فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد، وحمَله على حمار مقيداً حتى طلقها، ثم حبسه، فهرب من الحبْس ليلاً، فلحق بعليّ بن عيسى ببلخ، فطلب الأمان فلم يجبه علي إليه، وهمّ بضرب عنقه، فكلّمه فيه ابنه عيسى ابن علي، فأذن له في الانصراف إلى سمَرْقند، فوثب بسليمان بن حميد عامل علي ابن عيسي، فقتله، فوجه عليّ بن عيسى ابنه، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة، فرأسوه عليهم، فوثب على رافع فقيَّده، فوثب بسباعٍ، فقيدوه ورأسوا رافعاً وبايعوه، وطابقه مَنْ وراء النهر، ووافاه عيسى بن علي، فلقيه رافع فهزمه، فأخذ عليّ بن عيسى في فرض الرجال، والتأهب للحرب.

سنة إحدى وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: خروج خارجي يقال له: ثروان بن سيف، وكان يتنقَّل فيِ السواد، فوجه إليه طوق بن مالك فهزمه وجرحه، وقتل عامة أصحابه وهرب مجروحاً.

* * *

سنة اثنتين وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: شخوص هرثمة إلى خراسان والياً عليها، فأخذ علي بن عيسى وقيَّده، وأخذ ماله ومال أولاده وأصحابه، وأقامه للناس ليرد المظالم. وفيها: ولي ثابت بن نصر بن مالك الثغور، وغزا فافتتح مطمورة، وكان الفداء بين المسلمين والروم.

وفيها: خرجت الخُرمية في الجبل وناحية أذربيجان، فوجَّه إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي، فأسر منهم وقتل وسبى ذراريهم، وقدم بهم بغداد فبيعوا، وكان قد غزاهم قبله خزيمة بن خازم.

وفيها: وافى الرشيد من الرقة في السفن مدينة السلام، يريد الشخوص إلى خُراسان لحرب رافع، وكان مصيره بغداد يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الآخر، واستخلف بالرقة ابنه القاسم، وضم إليه خزيمة بن خازم، ثم شخص من مدينة السلام عشية الاثنين لخمس خلون من شعبان بعد صلاة العصر من الخيزرانية، فبات في بستان أبي جعفر، وسار من غد إلى النهروان، فعسكر هناك، ورد حماداً البربري إلى أعماله، واستخلف ابنه محمداً بمدينة السلام، وخرج وهو مريض. وفيها: أمر الرشيد بنقض جامع المنصور وبنيانه.

* * *

سنة ثلاث وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: خروج الرشيد إلى ناحية خُراسان: أخبرنا محمد بن ناصر، أخبرنا أبو المعالي، أخبرنا أحمد بن محمد البخاري، أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، أخبرنا أبو الحسن بن رزقويه، أخبرنا أبو جعفر بن برية، أخبرنا أبو بكر بن محمد بن خلف بن المرزبان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن علي التيمي، عن أحمد بن صباح الطبري مولى عيسى بن جعفر الهاشمي قال: حدَّثني أبي قال: شيعت الرشيد حين مضى إلى خُراسان فقال لي وهو يريد أن يَأرِما: يا صباح، ما أحسبك تراني بعد هذا أبداً.

فقلت: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تقول هذا، والله إني لأرجو أن يبقيك الله لأمة محمد مائة سنة. فتبسم وقال: يا صباح، أنا والله ميت بعد قريب. فقلت: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، والله إني أرى دماً ظاهراً، ولوناً ناصعاً، وشباباً زائداً، ومؤونة قوية، وروحاً طيبة، فعمرك الله أكثر مما عمَر من ملك الأرض، وفتح لك ما فتح على ذي القرنين، ولا أرى رعيتك فيك. قال: فالتفت إلى جميعة كانت من ورائه، فقال: تنحوا عني. ثم قال: مل بنا نحو تلك الشجرة حتى أسرّ إليك سراً. قال: فسرت معه منحرفاً عن الجادة نحواً من ثلثمائة ذراع، فكمن في ظل حائط ثم قال: أمانة الله في عنقك أن لا تخبر بما ألقي إليك أحداً. فقلت: يا سيدي، هذه مخاطبة الأخ أخاه، وأنا عبد يخاطبني مولاي بمثل هذا. فقال: واللّه لتقولن إني لا أقولها لأحد، وإنها أمانة حتى أؤديها إليك عند الله. قال: فعلت. فكشف عن بطنه، فإذا حرير قد عصب به بطنه وظهره، ثم حول إلى قفاه فأخذ ثيابه عن ظهره، فإذا قروح ونقابات قد واراها بخرق وأدوية، وقال: منذ كم ترى هذا بي؟ قلت: لا أدري. قال: ظهرت في أول سنة تسع وثمانين، والله ما أطلع عليها أحد من الناس إلا بختيشوع، ورجاء، ومسرور، فأما ابن بختيشوع فإنه بلغني أنه أخبر به المأمون، ووالله لئن بقيت لابن الفاعلة لأتركنه يهيم بطلب الخبز حتى يشغله ذلك عن إذاعة السر. وأما مسرور فأخبر الأمين بعلتي، وما منهم أحد إلا له علي حَيْنٌ، فأنى تصفوا لي حياة وأعز ولدي يحصي أنفاسي، ويستحب علتي، ولقد بلغ من تبرمهم بي وبحياتي أني إذا أردت الركوب جاءوني ببزدون قطوف، وليس إلا ليزيد في علتي، ويفسد علي جوارحي، فأكره أن أظهر هذا لهم، فيستوحشوا مني، ومتى استوحشوا أظهروا من العداوة ما كان باطناً، والعامة لهم أرجأ والخاصة إليهم أميل، وأنا كالخائف بينهم، أصبح فلا أطمع في المساء، وأمسي ولا أطمع في الصباح.

فقلت يا سيدي، ما أحسن الجواب عن هذا، ولكن أقول: من أرادك بكيد فأراه الله ذلك الكيد في نفسه، وأراه فيك ما يسوءه، وأطال بقاءك، وكبت أعداءك حيث كانوا.

فقال: سمع الله دعاءك، انصرف فإن أشغالك ببغداد كثيرة. فودعته، وكان آخر العهد به.

* * *

باب ذكر خلافة الأمين

هو محمد بن هارون. ويكنى: أبا موسى، ويقال: أبا عبد الله. ولد برصافة بغداد سنة إحدى وسبعين ومائة. أمه أم جعفر، واسمها: زبيدة بنت جعفر الأكبر ابن المنصور.

ذكر بيعته

توفي الرشيد بطوس، فبويع للأمين صبيحة الليلة التي مات فيها الرشيد، تولى ذلك صالح بن الرشيد، وذلك يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكتب حمويه مولى المهدي صاحب البريد من طوس إلى سلام مولاه، وخليفته على البريد ليعلمه بوفاة الرشيد، فدخل على الأمين فعزاه وهنأه بالخلافة.

وكان الأمين نازلاً ببغداد في الخلد، فتحوَّل إلى قصر المنصور بالمدينة، وأمر الناس بالحضور، فحضروا، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ونعى الرشيد إلى الناس، وعزى نفسه والناس، ووعدهم الخير وبسط الأمان للأسود والأبيض. فبايعه جلة أهل بيته وخاصة مواليه وقواده، ثم دخل ووكل ببيعته من بقي منهم سليمان بن المنصور، وأمر للجند بمدينة السلام برزق سنتين، واتخذ الفضل بن الربيع وزيراً، وابنه العباس بن الفضل حاجباً، وجعل إسماعيل بن صبيح كاتباً، وجعله على ديوان الرسائل والتوقيعات والخاتم. وجعل عيسى بن علي بن ماهان على الشرطة، وقيل: عبد الله بن حازم.

* * *

سنة أربعة وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: مخالفة أهل حمص عاملهم إسحاق بن سليمان، وكان محمد ولاه إياها، فلما خالفوه انتقل إلى سلمْيَة، فصرفه محمد عنهم، وولى عليهم مكانه عبد الله بن سعيد الحرشيّ، فقتل عدة من وجوههم، وضرب مدينتهم من نواحيها بالنار، فسألوه الأمان فأجابهم وسكنوا ثم هاجوا، فضرب أيضاً أعناق عدة منهم. وفيها: عزل محمد أخاه القاسم عن جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم، وولى مكانه خزيمة بن خازم، وأمره بالمقام بمدينه السلام. وفيها: بدأ الفساد بين الأمين والمأمون، وكان السبب في ذلك: أن الفضل بن الربيع، فكر بعد مقدمه العراق على محمد، منصرفاً عن طوس، وناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، فعلم أن الخلافة إن أفضت يوماً إلى المأمون وهو حي لم يُبْق عليه

فسعى في إغراء محمد به، وحثه على خلعه، وصرْف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه الوفاء بما ضمن، فلم يزل الفضل يُصغّر عنده شأن المأمون، وُيزل له خلعه، وأدخل معه في ذلك علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما، فأزاله عن رأيه.

فأوّل ما بدأ به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد، فلما بلغ ذلك إلى المأمون وعرف عزل القاسم وإقدامه على التدبيرعلى خلعه قطع البريد عن محمد، وأسقط اسمه من الطرز والضرب. وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيّار لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون وحسن سيرته في أهل عمله وإحسانه إليهم، بعث في طلب الأمان لنفسه، فسارع إلى ذلك هرثمة، وخرج رافع فلحق بالمأمون، وهرثمة بعدُ مقيم بسمرقند، فأكرم المأمون رافعاً، ولما دخل رافع في الأمان استأذن هرثمة المأمون في القدوم عليه، فعبر نهر بلخ بعسكره والنهر جامد، فتلقاه الناس، وولاه المأمون الحرس، فأنكر ذلك كله محمد، فبدأ بالتدبير على المأمون، فكان أول ما دبرعليه أنه كتب للعباس بن عبد الله بن مالك - وهو عامل المأمون على الري يأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري - مريداً بذلك امتحانه - فبعث إليه ما أمره به، وكتم ذلك عن المأمون وذي الرياستين، فبلغ المأمون، فعزل العباس، ثم وجه محمد إلى المأمون رسلاً ثلاثة: العباس بن موسى بن عيسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وكتب إليه كتباً معهم يسأله تقديم موسى على نفسه، ويذكر أنه قد سمّاه: الناطق بالحق، وكان ذلك بمشورة علي بن عيسى بن ماهان، فرد المأمون ذلك، وسمي المأمون في ذلك اليوم: الإمام.

* * *

سنة خمس وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: إن الأمين أمر بإسقاط الدراهم والدنانيير التي ضربت لأخيه بخراسان في سنة أربع وتسعين، وسبب ذلك: أن المأمون أمر أن لا يثبت فيها اسم محمد، فكانت لا تجوز حيناً.

* * *

سنة ست وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: أن محمداً وجه إلى المأمون أحمد بن مزيد في عشرين ألفَاً، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً، وأمرهما أن يدافعا طاهراً عن حلوان، وكان قد نزلها، فنزل بخانقَين، فكان طاهر يبعث العيون إلى عسكريهما، فيأتونهم بالأراجيف، ويحتال في وقوع الاختلاف بينهم حتى اختلفوا، وانتقض أمرهم، وقاتل بعضهم بعضَاً، فرجعوا من خانقين من غير أن يلقوا طاهراً، وأقام طاهر بحلوان، فأتاه هرثمة بن أعين بكتاب المأمون والفضل بن سهل يأمرانه بتسليم ما حوى من المدن والكور إليه، والتوجه إلى الأهواز. فسلم ذلك إليه ومضى إلى الأهواز وأقام هرثمة بحلوان.

سنة سبع وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: أن القاسم بن الرشيد، ومنصور بن المهدي خرجا من العراق، فلحقا بالمأمون، فوجه المأمون القاسم إلى جرجان.

وفيها: حاصر طاهر وهرثمة وزهير بن المسيب محمد بن هارون ببغداد.

سنة ثمان وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: استئمان خزيمة بن خازم إلى طاهر بن الحسين، ومفارقته محمداً. وسبب ذلك: أن طاهراً كتب إلى خزيمة، فشاور مَنْ يثق به، فقالوا: نرى والله أن هذا الرجل أخذ بقفا صاحبنا عن قليل، فاحتل لنفسك ولنا. فكتب إلى طاهر بطاعته، وكتب طاهر بن محمد بن علي بن عيسى بن ماهان بمثل ذلك، فلما كان ليلة الأربعاء لثمان بقين من المحرم وثب خزيمة ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه، وركبا أعلامهما عليه، وخلعا محمداً ودعوا للمأمون، وغدا طاهر يوم الخميس على المدينة الشرقية وأرباضها والكرخ وأسواقها، وهدم قنطرتي الصراة العتيقة والحديثة، واشتد عندهما القتال، وباشر طاهر القتال بنفسه، فهزم أصحاب محمد ودخل قسراً، وأمر مناديه فنادى: الأمان لمن لزم منزله. ووضع بقصر الوضاح وسوق الكرخ والأطراف قواداً وجنداً، وقصدوا مدينة أبي جعفر فأحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد ورمى، فخرج محمد بأمه وولده مما كان يصل إليه من حجارة المنجنيق إلى مدينة أبي جعفر، وتفرق عنه عامة أصحابه وخصيانه وجواريه إلى السكك والطرق لا يلوي أحد منهم على أحد، وتفرق الغوغاء والسفلة، وأمر ببسطه ومجالسه أن تحرق فأحرقت.

باب ذكر خلافة المأمون

واسمه: عبد الله بن هارون الرشيد، وكان يكنى أبا العباس في أيام الرشيد، وكان في خلافته تكَنَى بأبي جعفر تفاؤلاً بكنية المنصور والرشيد في طول العمر.

* * *

سنة تسع وتسعين ومائة

فمن الحوادث فيها: قدوم الحسن بن سهل بغداد من عند المأمون، وإليه الحرب والخراج، فلما قدمها فرق عماله في الكور والبلدان.

وفيها: شخص طاهر إلى الرقة في جمادى ومعه عيسى بن محمد بن أبي خالد، وشخص هرثمة إلى خراسان، وخرج أزهر بن زهير بن المسيب إلى الهرش فقتله في المحرم.

وفيها: خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بنَ علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة يدعو إلى الرضى من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وهو الذي يقال له ابن طباطبا. وكان القيم بأمره في الحرب وتدبيرها وجيوشها أبو السرايا، واسمه السري بن منصور، وكان يذكر أنه من ولد هانئ بن قبيصة.

* * *

سنة مائتين

فمن الحوادث فيها: أنه في أول المحرم بعدما تفرّق الحاج من مكة جلس حسين ابن حسن الأفطس خلف المقام على نُمرقة مثنيَّة، وأمر بالكعبة فجردت من الثياب حتى بقيت حجارة مجردة، ثم كساها ثوبين من قَز، كان أبو السرايا وجههما معه عليهما مكتوب: مما أمر به الأصفر ابن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد، لكسوة بيت الله الحرام، وأن يطرح عنه كُسوة الظلمة من ولد العباس ليطهره من كُسوتهم، وكتب في سنة تسع وتسعين ومائة.

ثم أمر حسين بالكسوة التي كانت على الكعبة فقسمت بين أصحابه العلويين وأتباعهم، وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه، ولم يسمع بأحد عنده وديعة لأحد من ولد العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره، فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه، وإذا لم يجد شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدي نفسه.

سنة إحدى ومائتين

فمن الحوادث فيها: مراودة أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة، فأبى، فراودوه على الإمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة. وقالوا: لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي يعنون الحسن بن سهل - فأجابهم المنصور لذلك.

حدث محمد بن سعد قال: عسكر منصور بن المهدي في سنة إحدى ومائتين بكلواذى وسمي المرتضى، ودُعي له على المنابر، وسلم عليه بالخلافة فأبى ذلك وقال: أنا خليفة أمير المؤمنين المأمون حتى يقدم أو يولي من يحب. وعزل سعد بن إبراهيم عن الجانب الشرقي، وولاه قتيبة بن زياد، وأقر محمد بن سماعة على قضاء الجانب الغربي.

وفي هذه السنة: تجرَّدت المطوّعة للإنكار على الفساق ببغداد، وكان رئيسهم خالد المريوش، وسهل بن سلامة.

* * *

سنة اثنتين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن أهل بغداد خلعوا المأمون، وبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة، وسمّوه المُبارك وفي وقت فعلهم هذا قولان: أحدهما أنه أول يوم من المحرم والثاني لخمس خلون منه. وصعد إبراهيم المنبر فكان أول من بايعه عبيد الله ابن محمد الهاشمي، ثم منصور بن المهدي، ثم سائر الناس، ثم بنو هاشم ثم القواد، وكان المتولّي لأخذ البيعة المطلب بن عبد الله بن مالك، وكان الذي سعى في ذلك وقام به: السندي، وصالح صاحب المصلى، ومنجاب، ونصير الوصيف وسائر الموالي إلا أن الذين سميناهم كانوا الرؤساء والقادة، وإنما فعلوا ذلك غضباً على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد علي، ولترك لباس آبائه من السواد ولبس الخُضرة.

ولمَا فرغ من البيعة وعد الجند أن يعطيهم أرزاقاً لستة أشهر، فدافعهم بها، فلمَّا رأوا ذلك شنعوا عليه، فأعطى كل رجل منهم مائتي درهم، وكتب لبعضهم إلى السواد بقيمة ما لهم من الحنطة، فخرجوا في قَبْضها، فلم يمرّوا بشيء إلا نهبوه وأخذوا النصيبين جميعاً: نصيب أهل البلاد ونصيب السلطان، وغلب إبراهيم مع أهل بغداد على أهل الكوفة والسواد كله، وعسكر بالمدائن، وولّى الجانب الشرقيّ من بغداد العباس، والجانب الغربيّ إسحاق بن موسى الهادي. وأمر أن يُستتاب المريسي.

أخبر طلحة بن محمد بن جعفر قال: هاجت العامة على بشر المريسي فسألوا إبراهيم بن المهدي أن يستتيبه، وأمر إبراهيم قتيبة بن زياد القاضي أن يُحضره مسجد الرصافة.

عن محمد بن خلف قال: سمعت محمد بن عبد الرحمن الصيرفي يقول: شهدت المسجد الجامع بالرصافة وقد اجتمع الناس، وجلس قتيبة بن زياد، وأقيم بشر المريسي على صندوق من صناديق المصاحف عند باب الخدم، وقام المستمليان أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس مستملي ابن عيينة، وهارون بن موسى مستملي يزيد ابن هارون يذكران: أن أمير المؤمنين إبراهيم بن المهدي أمر قاضيه قتيبة بن زياد أن يستتيب بشر بن غياث المريسي عن أشياء عمّدها منها: ذكر القرآن وغيره، وأنه تائب، فرفع بشر صوته يقول: معاذ الله، إني لست بتائب، فكثر الناس عليه حتى كادوا يقتلونه وأدخل إلى باب الخدم، وتفرّق الناس.

وفي هذه السنة: خرج مهدي بن عُلوان الحروري فوجه إليه إبراهيم بن المهدي أبا إسحاق بن الرشيد في جماعة من القواد فهزم مهدياً.

قال إسماعيل بن علي: وبايع أهل بغداد لأبي إسحاق إبراهيم بن المهدي ببغداد في داره المنسوبة إليه في ناحية سوق العطش وسموه المبارك، ويقال: سُمِّي المرضي، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين وأمه أم ولد يقال لها: شكلة وبها يعرف، فغلب على الكوفة والسواد، وخطب له على المنابر وعسكر بالمدائن، ثم رجع إلى بغداد، فأقام بها، والحسن بن سهل مقيم في حدود واسط خليفة للمأمون، والمأمون ببلاد خُراسان، فلم يزل إبراهيم مقيماً ببغداد على أمره يدعى بأمير المؤمنين، ويُخطب له على منبري بغداد، وما غلب عليه من السواد والكوفة، ثم رحل المأمون متوجهاً إلى العراق، وقد توفي علي بن موسى الرضي، فلما أشرف المأمون على العراق، وقرب من بغداد، ضعف أمر إبراهيم ابن المهدي، وقصرت يده، وتفرَّق الناس عنه، فلم يزل على ذلك إلى أن حضر الأضحى من سنة ثلاث ومائتين.

* * *

سنة ثلاث ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المأمون شخص من سرخس حتى صار إلى طوس، فأقام عند قبر أبيه أياماً، ثم إن علي بن موسى بن جعفر أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة، وذلك في آخر صفر فصلى عليه المأمون وأمر بدفنه عند قبر أبيه الرشيد، وكتب في شهر ربيع الأول إلى الحسن بن سهل يعلمه بوفاته، ويعلمه ما دخل عليه من الغم به، وكتب إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي، وإنهم إنما نقموا بيعته من بعده، ويسألهم الدخول في طاعته فكتبوا إليه بأغلظ كتاب.

ورحل المأمون من طوس يريد بغداد، فلما صار إلى الري أسقط من وظيفتها ألف ألف درهم.

* * *

سنة أربع ومائتين

فمن الحوادث فيها: قدوم المأمون العراق وانقطاع مواد الفتن من بغداد. وكان المأمون لمَا توجّه إلى العراق خلف غسان بن عباد، فولى أحمد بن أسد الساماني فرغانة وأخاه نوح بن أسد سمرقند، وأخاه يحيى بن أسد: الشاس وأشروسنة، وأخاهم إلياس بن أسد هراة، وهؤلاء أولاد أسد بن سامان، وكان سامان من أصحاب أبي مسلم لما ظهر بخُراسان، ثم توفي وخلف ابنه أسداً، ثم توفي فخلف هؤلاء وكان أحمد أحسنهم سيرة، وكان المأمون في سفره قد أقام بجرجان شهراً، ثم قدم الري، فأقام أياماً، ثم جعل يسير فيقيم اليوم واليومين، فقال له أحمد بن أبي خالد: يا أمير المؤمنين، نقدم بغداد وليس معنا سوى خمسين ألف درهم: فكيف حالنا إن هاج أمر!؟ فقال المأمون: إنما نقدم على ظالم فلا يتوقع إلا عفونا، ومظلوم فيتوقع إنصافنا فمن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يِسعه.

فلما وصل إلى النهروان وذلك يوم السبت أقام ثمانية أيام فخرج إليه أهل بيتِه والقواد ووجوه الناس، وكان قد كتب إلى طاهر بن الحسين أن يوافيه، بالنهروان، فلقيه بها ثم دخل بغداد يوم السبت لأربع عشرة ليلة، خلت من صفر سنة أربع ومائتين بعد ارتفاع النهار، ولباسه ولباس أصحابه قلانسهم وأعلامهم كلها الخضرة، ولبس أهل بغداد وبنو هاشم كلهم الخضرة وكانوا يخرقون كل شيء يرونه من السواد، فلما قدم نزل الرصافة

وأمر طاهراً بنزول الخيزرانية مع أصحابه، ثم تحول ونزل قصره على شاطئ دجلة، وقيل: بل أقام بالرصافة حتى بنى منازل على شاطئ دجلة عند قصره الأول في بستان موسى، وأمر القواد بالإقامة في العسكر فكانوا يختلفون إلى دار المأمون كل يوم، فلما مضت ثمانية أيام تكلم بنو هاشم وولده العباس خاصة، وقالوا: يا أميرِ المؤمنين، تركت لباس أهل بيتك. وكان المأمون قد أمر طاهر بن الحسين أن يسأله حوائجه، فكان أول ما سأله أن يطرح لباس الخضرة ويرجع إلى لباس السواد وزيِ دولة الآباء، فلما رأى كراهية الناس للخضرة، دعا بسواد فلبسه، ودعى بخلعة سواد فألبسها طاهراً، ثم دعا قواده فألبسهم أقبية وقلانس سوداً وطرح لباس الخضرة، وذلك يوم السبت لسبع بقين من صفر، فلم يلبس الخضرة ببغداد إلا ثمانية أَيام.

* * *

سنة خمس ومائتين

فمن الحوادث فيها: تولية المأمون طاهر بن الحسين من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق. ودخل طاهر عليه يوماً فبكى المأمون فقال له طاهر: لِم تبكي لا أبكى الله عينك؟ والله لقد دانت لك البلاد وأذعن لك العباد، فصرت إلى المحبة في كل أمرك. فقال: أبكي لأمر ذكره ذلّ، وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجو، فلما خرج طاهر أنفذ إلى حسين الخادم مائتي ألف درهم، وإلى كاتبه محمد بن هارون مائة ألف درهم، وسأله أن يسأل المأمون لِمَ بكى. فلما تغمى المأمون قال: يا حسين، اسقني ماء. قال: لا والله لا أسقيك حتى تقول لي لِمَ بكيت حين دخل عليك طاهر. قال: يا حسين، وكيف عُنِيتَ بهذا حتى سألت عنه! ؟ قال لغمي بذلك قال: يا حسين، أمر إن خرجٍ من رأسك قتلتك قال: يا سيدي، ومتى أخرجت لك سراً؟ قال: إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذل، فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهر منِّي ما يكره. قال: فأخبر حسين طاهراً بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد فقال له: إن الثناء منّي ليس برخيص، وإنّ المعروف عندي ليس بضائع فغَيبني عن عينه، فقال له: سأفعل وبكِّرْ علي غداً. وركب ابن أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل قال ما نمت البارحة. قال: ولم يحك؟ قال: لأنك ولّيت غسان بن عباد خُراسان، وهو ومَنْ معه أَكَلَةُ رأس فأخاف أن يخرج عليه خارج من الترك فتصطلحه.

قال: فمن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين فعقد له فشخص يوم الجمعة لليلة بقيت من ذي القعدة من سنة خمس.

وفي هذه السنة: ولى المأمون يحيى بن معاذ الجزيرة لما قدم عليه.

وولى عيسى بن محمد بن أبي خالد بلاد أرمينية، وأذربيجان، ومحاربة بابك. وولى بشر بن داود مصر على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم. وولى عيسى بن يزيد الجلوذي محاربة الزّط. وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن والي الحرمين وقد تقدم ذكره.

* * *

سنة ست ومائتين

فمن الحوادث فيها: المَد الذي غرق منه السواد وكَسْكر وقطيعة أم جعفر، وقطيعة العباس فذهبت غلات كثيرة، وامتلأت الآبار، وفسد الزرع، ووقع الجراد واليرقان.

* * *

سنة سبع ومائتين

فمن الحوادث فيها: خروج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب ببلاد عك من اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد، وكان سبب خروجه أن العمال باليمن أساؤوا السيرة، فبويع عبد الرحمن، فلما بلغ ذلك المأمون وجَّه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيف، وكتب معه بأمانه، فحضر دينار الموسم، فلما فرغ من الحج سار إلى اليمن، فأتى عبد الرحمن فبعث إليه أمانه من المأمون، فقبل ودخل في الأمان، ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه، وأمر بأخذهم بلبس السواد. وذلك في يوم الخميس لليلة بقيت من ذي القعدة.

وفيها: توفي طاهر بن الحسين، فولي ولده طلحة بن طاهر، فأقام والياً على خراسان سبع سنين بعد موت أبيه، ثم توفي فولي عبد الله بن طاهر خراسان مع الشام، وكان يتولى حرب بابك، فأقام بالدينور، وبعث بالجيوش، فوجَّه المأمون إلى عبد الله بيحيى بن أكثم يعزيه عن أخيه ويهنئه بولاية خراسان، وولى علي بن هشام حرب بابك.

* * *

سنة ثمان ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الحسن بن الحسين بن مصعب مضى من خُراسان إلى كرمان ممتنعاً، فمضى إليه أحمد بن أبي خالد حتى أخذه، فقدم به على المأمون فعفا عنه.

وفيها: ولى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومي قضاء عسكر المهدي في المحرم، ثم عزله في ربيع الأول وولى بشر بن الوليد الكندي.

حدث محمد بن سعد قال: سنة ثمان ومائتين فيها استعفى محمد بن سماعة القاضي من القضاء، فأعفي وأقره المأمون في صحابته، وولى مكانه - القضاء بمدينة السلام إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة وولى مكان إسماعيل حماداً على قضاء الشرقية والكرخ: عكرمة بن طارق، ولبس خلعتين.

وحج بالناس في هذه السنة صالح بن الرشيد.

وجاء سيل إلى مكة حتى نال الماء الحجر والباب، وهدم أكثر من ألف دار، ومات ألف إنسان.

* * *

سنة تسع ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن عبد الله بن طاهر حاصر نصر بن شبث، وضيَّق عليه حتى طلب الأمان، فكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون يخبره فكتب له كتاب أمان.

وفيها: ولى المأمون صدقة بن علي المعروف بزريق أرمينية، وأذربيجان، ومحاربة بابك.

* * *

سنة عشر ومائتين

فمن الحوادث فيها: وصول نصر بن شبث إلى بغداد، وكان المأمون قد أرسله في زمن محاربته بالطف فأذعن، فاشترط أن لا يطأ بساطه، فقال المأمون: لا والله حتى يطأ بساطي وما باله ينفر مني؟ ! فقيل: لأجل جرمه، فقال: أتراه أعظم جرماً عندي من الفضل بن الربيع، ومن عيسى بن أبي خالد؟ ! أما الفضل فأخذ قوادي وأموالي وجنودي وسلاحي وجميع ما أوصى لي أبي به، فذهب به إلى محمد وتركني بمرو وحيد فريداً، وأفسد عليَّ أخي حتى كان من أمره ما كان

وأما عيسى فطرد خليفتي من مدينتي، وذهب بخراجي، وخرَّب دياري، وأقعد إبراهيم خليفة. فقيل له: أما الفضل فصنيعتكم ومولاكم، وأما عيسى فمن أهل دولتكم وله ولسلفه سابقة، وأما نصر فلا يد له يحتمل لأجلها، ولا لسلفه، فقال: لا أقلع عنه حتى يطأ بساطي، فحضره عبد الله بن طاهر حتى طلب الأمان وأقدمه على المأمون في يوم الثلاثاء لسبع خلون من صفر فأنزله مدينة المنصور ووكل به مَنْ يحفظه.

وفيها: ظهر المأمون على جماعة كانوا يسعون في البيعة لإبراهيم بن المهدي، منهم: إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، الذي يقال له: ابن عائشة. ومحمد بن إبراهيم الأفريقي، ومالك بن شاهين، وفرج البغراوي، فأمر بإبراهيم بن عائشة، فأقيم في الحبس ثلاثة أيام في الشمس، ثم ضُرب بالسياط وحُبس، وضَرب مالك بن شاهين وأصحابه وحبسهم، فرفع عليهم أهل السجن أنهم يريدون أن ينقبوا السجن، فركب المأمون بنفسه فقتلهم وصلبهم على الجسر.

* * *

سنة إحدى عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن ابن طاهر سُعي به إلى المأمون وقال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه، فأنكر ذلك المأمون، ثم عاد لمثل هذا القول، فدسّ إليه رجلاً وقال: امض في هيئة القرّاء والنساك إلى مصر فادع جماعةً من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وفضله، ثم صِرْ من بعد ذلك إلى بطانة عبد الله ابن طاهر، فادْعُه ورغبّه في استجابته له، وابحث عن دفين نيّته بحثاً شافياً. ففعل الرجل، حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء، قعد يوم ما بباب عبد الله بن طاهر، وقد ركب إلى عبيد الله بن السري بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام إليه الرجل، فأخرج من كمه رقعة، فدفعها إليه، فأخذها بيده، فما هو إلا أن دخل خُرج الحاجب إليه فأدخله، فقال له: قد فهمت ما في رقعتك، فهات ما عندك فقال: ولي أمانك وذمة الله؟ قال: لك ذلك، فأظهر ما أراد، ودعاه إلى القاسم، وأخبره بفضائله، فقال له عبد الله أتنصف؟ قال: نعم قال: هل يجب شكر الله على العباد؟ قال: نعم، قال: فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان؟ قال: نعم، قال: فتجيء إليَّ وأنا على هذه الحال التي ترى لي خاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك، وفيما بينهما أمري مطاع، ثم ما التفتّ يميناً ولا شمالاً إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها علي، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعم، وهذا الإحسان

وتقول: اغدر بمن كان أولاً لهذا وآخراً واسْع في دمه، فسكت الرجل، فقال. له: ارحل عن هذا البلد، فإني أخاف عليك، فلما آيس الرجل مما عنده، جاء إلى المأمون، فأخبره، فاستبشر، وقال: ذاك غرس يدي وإلف أدبي وترْب تلقيحي ولم يُظهر لأحد من ذلك شيئاً وفي هذه السنة: قدم عبد الله بن طاهر مدينة السلام من المغرب، فتلقاه العباس ابن المأمون وأبو إسحاق المعتصم وسائر الناس، وقدم معه بالمتغلبين على الشام كابن السرْج، وابن، أبي الجمل، أو ابن أبي الصقر.

وفيها: أمر المأمون منادياً، فنادى: برئت الذمَّة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله .

وحج بالناس في هذه السنة: صالح بن العباس وهو والي مكة.

* * *

سنة اثنتي عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: توجيه المأمون محمد بن حميد الصوسي، لمحاربة بابك، فمضى على طريق الموصل، وأخذ جماعة من المتغلبة بأذربيجان فبعث بهم إلى المأمون.

وفيها: خلع أحمد بن محمد العمري المعروف بالأحمر العين باليمن.

وفيها: ولّى المأمون محمد بن عبد الحميد اليمن.

وفيها: أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وأن علي بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول الله ، وذلك في شهر ربيع الأول.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

* * *

سنة ثلاث عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: موت طلحة بن طاهر بخراسان، فولَى المأمون أخاه أبا إسحاق، الشام ومصر، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم، وأمر لهما ولعبد الله بن طاهر، لكل منهم بخمسمائة ألف دينار، وولى غسان بن عباد السند.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد.

* * *

سنة أربع عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: خروج بلال الضبابي شارياً، فشخص المأمون إلى العَلْث، ثم رجع إلى بغداد، ووجه ابنه عباساً في جماعة من القواد، فيهم هارون بن أبي خالد، فقتله هارون.

وفيها: خرج عبد الله بن طاهر إلى الدينور، فبعث المأمون إليه إسحاق بن إبراهيم، ويحيى بن أكثم يخيرانه بين خُراسان والجبال وأرمينية والجبال وأذْربيجان، ومحاربة بابك، فاختار خراسان، فشخص إليها.

وفيها: ولي علي بن هشام الجبل، وقم، وأصبهان، وأذربيجان، وعُزل عكرمة بن طارق عن قضاء الشرقية.

وحج بالناس في هذه السنة إسحاق بن العباس بن محمد.

* * *

سنة خمس عشرة ومائتين

من الحوادث: أن المأمون شخص من بغداد لغزو الروم في يوم السبت لثلاث بقين من المحرم، وكان ارتحاله من الشماسيّة إلى البرَدان يوم الخميس بعد صلاة الظهر لست بقين من المحرم، واستخلف حين رَحَل عن بغداد عليها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وولاه مع ذلك السواد وحُلْوان وكُور دِجْلة، فلما صار المأمون بتَكْريت قدم عليه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، من المدينة في صفر، فأجازه، وأمره أن يدخل بابنته أم الفَضْل، وكان زوَّجها منه، فأدخلت عليه في دار أحمد بن يوسف التي على شاطئ دجلة، فأقام بها، فلما جاءت أيام الحج خرج بأهله وعياله حتى أتى مكة، ثم أتى منزله بالمدينة، فأقام بها ثم سلك المأمون طريق الموصل، حتى صار إلى منبج، ثم إلى دابق، ثم إلى إنطاكية، ثم إلى المصّيصة، ثم خرج منها إلى طَرَسُوس، ثم دخل إلى بلاد الروم، للنصف من جمادى الأولى، فافتتح حصناً فمن على أهله، ثم أقام على حصن فتحه عنوة، وأمر بهدمه، وذلك يوم الأحد لأربع بقين من جمادى الأولى ووجه أشناس إلى حصن، فأتاه برئيسه، ووجه عجيفاً إلى صاحب حصن سنان، فسمع وأطاع وشخص المأمون إلى دمشق.

وولى علي بن هشام محاربة الخرمية، وندب عيسى بن يزيد الجلوذي في هذه السنة إلى محاربة الزط، وهم أول مَنْ سكن البطائح، والبطائح هي مغيص دجلة والفرات، وهما نهرا العراق، وكان الزط سبعة وعشرين ألفاً ومائتين، منهم المقاتلة اثنا عشر ألفاً فلما استوطنوا البطائح قطعوا الطريق ومنعوا المجتازين ما بين البصرة وواسط، فاستغاث الناس إلى المأمون، فندب إليهم عيسى بن يزيد، فجرت بينهم وبينه وقائع، ولم يظفر منهم بطائل، فاستظهروا عليه، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الفساد، وقطع الطريق، فندب المأمون غيره، فلم يظفر منهم بشيء.

سنة ست عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: رجوع المأمون إِلى أرض الروم، وفي سبب ذلك قولان: أحدهما: أنه ورد عليه الخبر بقتل ملك الروم قوماً من أهل طرسوس، والمصيصة زهاء ألف وستمائة، فرجع فدخل أرض الروم يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فأقام بها إلى نصف شعبان. والثاني: أن تَوفيل بن ميخائيل كتب إليه، فبدأ بنفسه، فلم يقرأ الكتاب وخرج، فوافته رسل توْفيل بأذَنة، ووجه خمسمائة رجل من أسرى المسلمين، فنزل المأمون فيِ أرض الروم على حصن، فخرج على صلح، وصار إلى هرقلة، فخرج على صلج، ووجه أخاه أبا إسحاق، ففتح ثلاثين حصنا ومطمورة، ووجُّه يحيى بن أكثم، فأغار وقتل وحرق، وأصاب سبياً، ثم ارتحل المأمون إلى دمشق.

سنة سبع عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: ورود المأمون إلى مصر في المحرم، فأتي بعبدوس الفهري فضرب عنقه وانصرف إلى الشام.

وفيها: قتل المأمون علي بن هشام، وأخاه حسيناً بأدنة في جمادى الأولى.

وفي هذه السنة: دخل المأمون أرض الروم، فأناخ على لؤلؤة مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً، فاختدعه أهلها، فأسروه، فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام، ثم أخرجوه، وصار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف، فصرف المأمون الجنود إليه، فارتحل توفيل قبل موافاتهم، وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان.

وفيها: كتب توفيل إلى المأمون يسأله الصلح.

وفيها: وقع حريق عظيم بالبصرة.

سنة ثمان عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المأمون أمر بتفريغ الرافقة لينزلها حشمه، فضج من ذلك أهلها، فأعفاهم. والرافقة: رقة الشام.

وفيها: وجه المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم في أول يوم من جمادى، وأمره بنزول الطوانة، وبنائها، وكان قد وجه الفعلة فابتدأ في بنائها وفرضها ميلاً في ميل، وجعل لها أربعة أبواب، وبنى على كل باب حصناً.

باب خلافة المعتصم

ذكر بيعته

لما احتضر المأمون ببلاد الروم، كان معه ولده العباس وأخوه المعتصم، فأراد الناس أن يبايعوا العباس، فأتى وسلم الأمر إلى المعتصم، وكان الجند قد شنعوا لأجله، وطلبوا الخلافة له، فبايع المعتصم، وخرج إلى الجند، فقال: ما هذا الحب البارد! قد بايعت لعمي، وسلمت الخلافة إليه فسكن الجند وبايع الناس وقبل إبراهيم بن المهدي يد المعتصم، وكان المعتصم قبل يده قبل ذلك، ولا يعلم خليفة قبل يد خليفة ثم قبل الآخر يده غيرهما، وكانت المبايعة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة، ثم خاف المعتصم من اختلاف الجند عليه، فأسرع إلى بغداد فدخلها في مستهل رمضان.

عن علي بن الحسين الإسكافي قال: قال لنا ابن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إلي، ويقول: يا أبا عبد الله، عض ساعدي بأكثر قوتك. فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك. فيقول افعل فإنه لا يضرني. فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلاً عن الأسنان وانصرف يوماً من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظماً بالخيم فيها الجند، فمر المعتصم بامرأة تبكي وتقول: ابني ابني. وإذا بعض الجند قد أخذ ابنها. فدعاه المعتصم وأمره أن يرد ابنها عليها، فأبى، فاستدناه فدنى منه، فقبض عليه بيده، فسمع صوت عظامه، ثم أطلقه من يده.

وقد بلغنا أن امرأة مسلمة ببلاد الروم أسرت في حرب جرت بينهم وبين المسلمين، فجعلت تنادي: وامعتصماه. فلما بلغه ذلك قال على فوره: لبيك لبيك. وتقدم فركب من ساعته وهو يقول: لبيك لبيك. فلحقه الناس حتى دخل أرض الروم، وأنقذ المرأة ونكأ في الروم.

قال الفضل بن مران: لم يكن في المعتصم أن يلتذ بتزيين البناء وكان غايته فيه إحكام، ولم يكن بالنفقة في شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب.

سنة تسع عشرة ومائتين

فمن الحوادث فيها: خروج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد واجتمع إليه بها ناس كثير وكانت بينه وبين قواد عبد الله بن طاهر وقعات بناحية الطالقان وجبالها، فهزم هو وأصحابه، فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان وكانوا قد كاتبوه، فدل العامل عليه، فأخذه واستوثق منه، وبعث به إلى عبد الله بن طاهر، فبعث به إلى المعتصم، فقدم به عليه يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، فحبس عند مسرور الكبير الخادم في محبس ضيق يكون طوله ثلاث أذرع في ذراعين، فمكث فيه ثلاثة أيام ثم حول إلى موضع أوسع من ذلك، وأجري عليه طعام، ووكل به قوم يحفظونه؛ فلما كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد هرب من الحبس، وذلك أنه دلي إليه حبل من أعلى البيت من كوة يدخل منها الضوء، فعلق به، فذهب، فلم يعرف له خبر.

وفي هذه السنة: قدم إسحاق بن إبراهيم من الجبل، فدخل بغداد يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، ومعه الأسرى من الخرمية والمستأمنة، وكان قد قتل منهم في المحاربة مائة ألف.

* * *

قصة ضرب الإمام أحمد :

حدث ميمون بن الأصبع قال: كنت ببغداد فسمعت ضجة، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أحمد بن حنبل يمتحن، فدخلت فلما ضرب سوطاً، قال: بسم الله، فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع قال: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فضرب تسعاً وعشرين سوطاً وكانت تكة أحمد حاشية ثوب فانقطعت فنزل السراويل إلى عانته فرمى أحمد بطرفه إلى السماء، وحرك شفتيه، فما كان بأسرع من أن بقي السراويل كأن لم نزل، فدخلت إليه بعد سبعة أيام، فقلت: يا أبا عبد الله، رأيتك تحرك شفتيك، فأي شيء قلت؟ قال: قلت: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش، إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً.

وفي رواية أخرى: أنه ضرب ثمانية عشر سوطاً. وفي رواية: ثمانين سوطاً. ولما بالغوا في ضربه ولم يجب أظهروا أنه قد عفي عنه وترك.

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا عبيد الله بن عمر بن شاهين قال: حدثنا أبي قال: سمعت عثمان بن عبد ربه يقول: سمعت إبراهيم الحربي يقول: أحل أحمد بن حنبل من حضر ضربه وكل من شايع فيه والمعتصم، وقال: لولا أن ابن أبي داود داعية لأحللته.

وحج بالناس في هذه السنة: صالح بن العباس بن محمد.

سنة عشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتصم مضى إلى سر من رأى، فابتنى بها، وكان سبب ذلك كثرة عسكره، وضيق بغداد عنه، وتأذي الناس به.

ومن الحوادث: دخول عجيف بالزط بغداد، وقهره إياهم، حتى طلبوا منه الأمان، فآمنهم، فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة تسع عشرة على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وكانت عدتهم سبعة وعشرين ألفاً؛ المقاتلة منهم اثنا عشر ألف رجل، فجعلهم عجيف في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، فأعطى صاحبه دينارين دينارين، وأقام بها يوماً، ثم عبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة عشرين، والمعتصم بالشماسية في سفينة، فمر به الزط على تعبئتهم ينفخون بالبوقات؛ فكان أولهم بالقفص، وآخرهم بحذاء الشماسية، فأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي، فدفعوا إلى بشر بن السميدع، فذهب بهم إلى خانقين، ثم نقلوا من الثغر إلى عين زربة، فأغارت عليهم الروم بعد مدة فاجتاحوهم، فلم يفلت منهم أحد.

سنة إحدى وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: الوقعة بين بابك وبغا الكبير، فهزم بغا واستبيح عسكره، ثم واقع الأفشين بابك فهزمه الأفشين. وشرح الحال: أن بغا لما تقدم بالمال الذي تقدم ذكره من عند المعتصم تجهز بغا وحمل معه الزاد من غير أن يكون الأفشين أمره بذلك، فدخل قرية بابك، فخرج عسكر بابك فقتل من عسكره وأسر، واستباح، وجاء الخبر إلى الأفشين، فكتب إلى بغا إني في اليوم الفلاني أغزو بابك فاغزه أنت يومئذ لنجتمع عليه، فهاجت ريح، فرجع بغا إلى عسكره ولقيه الأفشين فهزمه، وأخذ عسكره وخيمه، ونزل في معسكره ثم بيت بابك الأفشين ونقص عسكره، ثم عاد إلى بغا فبيته، فخرج بغا راجلاً حتى نجا، وفرق الأفشين الناس في مشاتيهم تلك السنة، حتى جاء الربيع من السنة المقبلة.

وفي هذه السنة: قتل قائد لبابك يقال له طرخان استأذنه أن يشتو في قرية له، فبعث إليه الأفشين من قتله وجاء برأسه.

وفيها: أتى أهل البصرة سيل من قبل البر، فغرق دوراً كثيرة، وزاد الماء حتى خيف الغرق. وفيها: انتقل المعتصم إلى سامراء بعسكره لأن بغداد ضاقت بهم، ونادى الناس بالعسكر فسميت سامراء العسكر.

سنة اثنتين وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتصم وجه إلى الأفشين جعفر بن دينار مدداً له، ثم أتبعه بإيتاخ، ووجه معه ثلاثين ألف ألف درهم عطاء للجند والنفقات، وذلك بعد انقضاء الشتاء، فوقعت وقعة بين أصحاب الأفشين، وقائد بابك يقال له: آذين. وانقض ليلة السبت لست خلون من ربيع الآخر نجم لم ير أعظم منه حتى نودي بالنفير في الرقة وكور الجزيرة والسابات.

وظهر في هذه السنة من الفأر ما لم يحط به الإحصاء، وأتى على غلات الناس، ثم تفانى بوقوع الموت فيه.

وفي هذه السنة: فتحت البذ وهي مدينة بابك، ودخلها المسلمون، فاستباحوها، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضين من رمضان.

سنة ثلاث وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: قدوم الأفشين على المعتصم ببابك وأخيه، وذلك في ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر في سامراء.

وكان المعتصم يوجه كل يوم إلى الأفشين من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامراء فرساً وخلعة، وأن المعتصم لعنايته بأمر بابك وأخباره، ولفساد الطريق بالثلج وغيره، جعل من سامراء إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة على رأس كل فرسخ فرساً معه مجر مرتب؛ فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه واحد إلى واحد، وكانت خريطة الكتب تصل من عسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام وأقل، فلما صار الأفشين بقناطر حذيفة تلقاه هارون بن المعتصم وأهل بيته، فلما دخل أنزل بابك في قصر، فجاء أحمد بن أبي دواد متنكراً في الليل فأبصره وكلمه ورجع إلى المعتصم فوصفه له، فركب ودخل إليه متنكراً، فتأمله وبابك لا يعرفه؛ فلما كان من الغد قعد له واصطف الناس، وأراد المعتصم أن يشهره ويريه الناس

فقال: على أي شيء يحمل هذا وكيف يشهر؟ فقال حزام: يا أمير المؤمنين، لا شيء أشهر من الفيل. فقال: صدقت؛ فأمر بتهيئة الفيل فأدخل على أمير المؤمنين، وأحضر جزار ليقطع يديه ورجليه، ثم أمر أن يحضر سياف بابك، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما فسقط، فأمر أمير المؤمنين بذبحه، ووجه برأسه إلى خراسان، وصلب بدنه بسامراء عند العقبة، فموضع خشبته مشهور، وأمر بحمل أخيه عبد الله إلى إسحاق بن إبراهيم خليفته بمدينة السلام، وأمره بضرب عنقه، وأن يفعل به مثل ما فعل بأخيه، وصلبه؛ فقال للذي معه: اضرب لي فالوذجة فعملت له، فأكل وامتلأ ثم قال: اسقيني نبيذاً، فأعطاه فشرب أربعة أرطال، ثم قدم به على إسحاق فأمر بقطع يديه ورجليه، فلم ينطق ولم يتكلم، وصلب في الجانب الشرقي بين الجسرين بمدينة السلام، وتوج المعتصم الأفشين بتاج من الذهب، وألبسه وشاحين من الجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة. وعشرة آلاف ألف يفرقها في عسكره، وعقد له على السند، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، فأمر لهم بصلات، وذلك في يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر.

وفي هذه السنة: أوقع توفيل بن ميخائيل صاحب الروم بأهل زبطرة، فأسرهم وخرب بلدهم، ومضى من فوره إلى ملطية، فأغار على أهلها وعلى حصون من حصون المسلمين، وسبى من المسلمات أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع آذانهم وآنافهم. وكان السبب في ذلك تضييق الأفشين على بابك، فلما أشرف على الهلاك، وأيقن بالعجز عن الحرب، كتب إلى توفيل ملك الروم يعلمه أن ملك الرعب قد وجه عساكره إليه حتى وجه خياطه - يعني جعفر بن دينار - وطباخه - يعني - إيتاخ - ولم يبق على بابه أحد؛ فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك، وإنما كتب هذا ليتجرد ملك الروم لذلك فينكشف عنه بعض ما هو فيه برجوع العسكر أو بعضهم، فخرج توفيل في مائة ألف، ومعه من المحمرة الذين كانوا بالجبال، فلحقوا بالروم، ففرض لهم ملك الروم وزودهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم، فدخل ملك الروم زبطرة وقتل الرجال وسبى الذراري والنساء، فبلغ النفير إلى سامراء، وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة واستعظم المعتصم ذلك، فصاح في قصره النفير، ثم ركب دابته وعسكر بغربي دجلة يوم الإثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى، ووجه عجيف بن عنبسة في جماعة من القواد إلى زبطرة، إعانة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعدما فعل ما فعل، فوقفوا قليلاً؛ حتى تراجع الناس إلى قراهم، واطمأنوا.

وأحضر القضاة والشهود، وأشهدهم على نفسه أنه قد وقف جميع أمواله فجعل ثلثها لمواليه وثلثها لولده، وثلثها للمساكين، ثم قال: أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

فخرج إلى بلاد الروم، وقيل: كان ذلك في سنة اثنتين وعشرين. وقيل: سنة أربع وعشرين، وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والحمير والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط، وجعل على مقدمته أشناس، ويتلوه محمد بن إبراهيم، وعلى ميمنته إيتاخ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار، وعلى القلب عجيف، فدخل بلاد الروم، فأقام على سلوقية قريباً من البحر، وبعث الأفشين إلى سروج، فأمره بالدخول من درب الحدث، سمى له يوماً أمره أن يكون دخوله فيه، وقدر لعسكره وعسكر أشناس اليوم الذي يدخل فيه الأفشين، ودبر النزول على أنقرة، فإذا فتحها الله تعالى صار إلى عمورية إذ لم يكن شيء مما يقصد له من بلاد الروم أعظم من هاتين المدينتين ولا أحرى أن تجعل غايته التي يؤمها.

وأمر المعتصم أشناس أن يدخل من درب طرسوس، وأمره بانتظاره بالصفاف، فكان شخوص أشناس يوم الأربعاء لثمان بقيت من رجب، وقدم المعتصم وصيفاً في أثر أشناس على مقدمات المعتصم ورحل المعتصم يوم الجمعة لست بقين من رجب.

فتقدم أشناس والمعتصم من ورائه، بينهم مرحلة، ينزل هذا ويرحل هذا، ولم يرد عليهم من الأفشين خبر، حتى صاروا من أنقرة على مسيرة ثلاث مراحل، وضاق عسكر المعتصم ضيقاً شديداً من الماء والعلف، وكان أشناس قد أسر عدة أسرى في طريقه، فأمر بهم، فضربت أعناقهم، وهرب أهل أنقرة وعظماؤها، ونزل بها المعتصم وأشناس والأفشين، فأقاموا بها أياماً. ثم صير العسكر ثلاثة عساكر: عسكر فيه أشناس في المسيرة، والأفشين في الميمنة، والمعتصم في القلب، وبين كل عسكر وعسكر فرسخان، وأمر كل عسكر منهم أن يكون له ميمنة وميسرة، وأن يحرقوا القرى ويخربوها، ويأخذوا من لحقوا فيها من السبي، وإذا كان وقت النزول توافى كل أهل عسكر إلى صاحبهم ورئيسهم، يفعلون ذلك فيما بين أنقرة إلى عمورية، وبينهم سبع مراحل؛ حتى توافت العساكر بعمورية.

وكان أول من وردها أشناس؛ وردها يوم الخميس ضحوة، فدار حولها دورة، ثم نزل بموضع فيه ماء وحشيش، فلما طلعت الشمس ركب المعتصم فدار حولها دورة، ثم جاء الأفشين في اليوم الثالث، فقسمها أمير المؤمنين بين القواد، فصير لكل واحد منهم أبراجاً منها على قدر كثرة أصحابه وقلتهم، فصار لكل قائد ما بين البرجين إلى عشرين برجاً وتحصن أهل عمورية، وكان أهل عمورية قد أسروا رجلاً فتنصر وتزوج فيهم، وحبس نفسه، فلما رأى أمير المؤمنين ظهر، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعاً من المدينة حمل الوادي عليه من مطر شديد جاءهم، فوقع السور من ذلك الموضع، وكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع، فوقع التواني حتى خرج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالي أن يمر الملك على تلك الناحية فلا يراها بنيت، فبنى وجه السور بالحجارة حجراً حجراً، وصيروا له من جانب المدينة حشواً، ثم عقد فوقه الشرف كما كان، فوقف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع، ونصب المجانيق على ذلك البناء، فانفرج السور من ذلك الموضع وسقط.

وكان المعتصم قد ساق غنماً كثيرة، فدبر أن يدفع إلى كل رجل من العسكر شاة، فإذا أكلها حشى جلدها تراباً، ثم جاء به فطرحه في الخندق، وعمل دبابات تسع كل واحدة عشرة من الرجال، فطرحت الجلود وطرح فوقها التراب، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه، فأجادوا الحرب، وكان المعتصم واقفاً على دابته بإزاء الثلمة، وأشناس وأفشين وخواص القواد معه؛ وكان باقي القواد الذين دون الخاصة وقوفاً رجالة، فلما انتصف النهار انصرف المعتصم إلى مضربه فتغدى، وانصرف القواد إلى مضاربهم يتغدون، فلما كان في اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة، والقيم بذلك إيتاخ، فقاتلوا فأحسنوا، وكثرت في الروم الجراحات، فلما كان الليل مشى القائد الموكل بالثلمة إلى الروم، فقال لهم: إن الحرب علي وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا قد خرج، فصيروا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلاً، وإلا افتضحتم وذهبت المدينة. فأبوا أن يمدوه بأحد، فقالوا: سلم السور من ناحيتنا، ونحن ما نسألك أن تمدنا فشأنك بناحيتك. فعزم هو وأصحابه أن يخرجوا إلى أمير المؤمنين، فيسألونه الأمان، ويسلموا إليه الحصن.

فلما أصبح وكل أصحابه بجنبي الثلمة، وخرج فقال: إني أريد أمير المؤمنين، وأمر أصحابه أن لا يحاربوا حتى يعود إليهم، فخرج حتى وقف بين يدي المعتصم، والناس يتقدمون إلى الثلمة، وقد أمسك الروم عن الحرب حتى وصلوا إلى السور، والروم يقولون بأيديهم: لا تحيوا وهم يتقدمون، فدخل الناس المدينة، وأخذت الروم السيوف، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه حتى امتلأ العسكر، فقتل ثلاثين ألفاً وسبى مثلهم، وكان في سبيه ستون بطريقاً، وطرح النار في عمورية من جميع نواحيها فأحرقها، وجاء ببابها إلى العراق، وهو الباب المنصوب اليوم على دار الخليفة المجاور لباب الجامع، ويسمى باب العامة.

حدث يعقوب بن جعفر بن سليمان قال: غزوت مع المعتصم عمورية فاحتاج الناس إلى ماء، فمد لهم المعتصم حياضاً من أدم عشرة أميال، وساق الماء فيها إلى سور عمورية، فقام يوماً على السور رجل منهم فصيح بالعربية، فشتم النبي باسمه ونسبه، فاشتد ذلك على المسلمين، ولم تبلغه النشابة، قال يعقوب: وكنت أرمي، فاعتمدته فأصبت نحره فهوى وكبر المسلمون، وسر المعتصم، وقال: جيؤوني بمن رمى هذا العلج. فأدخلوني عليه، فقال: من أنت؟ فانتسبت له، فقال: الحمد لله الذي جعل ثواب هذا السهم لرجل من أهل بيتي، ثم قال: بعني هذا الثواب، فقلت، يا أمير المؤمنين ليس الثواب مما يباع، فقال: إني أرغبك، فأعطاني مائة ألف درهم إلى أن بلغ خمسمائة ألف درهم، قلت: ما أبيعه بالدينار، لكن أشهد الله أني قد جعلت نصف ثوابه لك، فقال: قد رضيت بهذا، أحسن الله جزاءك، في أي موضع تعلمت الرمي؟ فقلت: بالبصرة في دار لي، فقال: بعنيها، فقلت، هي وقف على من يتعلم الرمي، وإن أحب أمير المؤمنين فهي له وكل ما أملك. فجزاني خيراً ووصلني بمائة ألف درهم، وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرض طرسوس، وكانت إناخة المعتصم على عمورية لست خلون من رمضان وقيل: بعد خمسة وخمسين يوماً.

* * *

سنة أربع وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتصم دفع خاتم الخلافة إلى ابنه هارون، وأقام مقام الخلافة عنه واستكتب له سليمان بن محمد بن عبد الملك، وفيها أجرى المعتصم الخيل، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها تزوج الحسن بن أفشين أترجة بنت أشناس، ودخل بها في قصر المعتصم في جمادى الآخرة ودخل قصرها وحضر عرسها المعتصم وعامة أهل سامراء، وكانوا يغلفون العامة بالغالية من تغار.

وفي شوال: زلزلت مدينة فرغانة، فمات منها أكثر من خمسة عشر ألفاً.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

* * *

سنة خمس وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتصم أجلس أشناس على كرسي وخلع عليه وتوجه ووشحه في شهر ربيع الأول.

وفيها: خلع المعتصم على محمد بن عبد الملك الزيات ووسمه بالوزارة، ورفع من قدره. وفيها: غضب المعتصم على جعفر بن دينار من أجل وثوبه على من كان معه من الشاكرية، وحبسه عند أشناس خمسين يوماً، وعزله عن اليمن وولاها إيتاخ، ثم رضي عن جعفر ثم عزل الأفشين عن الحرس، ووليه إسحاق بن يحيى. وفيها: غضب المعتصم على الأفشين، فحبسه لأنه رفع عنه أنه يريد قتل المعتصم. وذكر الصولي أن أحمد بن أبي دؤاد قال للمعتصم: إن الأفشين قد كاتب المازيار، وكان خارجياً، فقال المعتصم: فكيف أعلم حقيقة ذلك؟ قال: تبعث إلى كاتبه في الليل فتهدده، فإنه ضعيف القلب، وسيقر لك، ففعل وأعطاه أماناً، فأقر له. قال له: فمن كتب الكتاب؟ قال: أنا. قال: فما فيه؟ قال: كتب إليه: لم يكن في العصر فير بابك وغيرك وغيري، فمشى بابك وقد جاءك جيش، فإن هزمته كفيتك أنا الحضرة، وخلص لنا الدين الأبيض، قال: فانصرف ولا تعلم أحداً بما جرى، فإن علم الأفشين بمجيئك إلي فقل: سألني عن خدمك ومؤونتك وعيالك.

قال أحمد بن أبي دؤاد: فدخلت على المعتصم وهو يبكي، فأنكرت ذلك، فقال: يا أبا عبد الله، رجل أنفقت عليه ألف ألف دينار، ووهبت له مثلها، يريد قتلي، وقد تصدقت بعشرة آلاف ألف درهم، فخذها فأنفذها، وكان الكرخ قد احترقت، حتى كان الرجل إذا قام من ضيعة الكرخ رأى أرقال السفن. فقال أحمد ابن أبي دؤاد: إن رأى أمير المؤمنين أن يجعل النصف من هذا المال لأهل الحرمين والنصف الآخر لأهل الكرخ. قال: أفعل. وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر أن يقبض على الحسن بن الأفشين وامرأته أترجة بنت أشناس في يوم حده له، وقبض هو على الأفشين فيه وحبسه.

سنة ست وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ما ذكر ابن حبيب الهاشمي في ليلة الاثنين النصف من جمادى الآخرة مطر أهل تيماء مطراً وبرداً كالبيض، فقتل بها ثلثمائة وسبعين إنساناً، وهدم دوراً، وسمع في ذلك صوت يقول: ارحم عبادك، اعف عن عبادك، ونظروا إلى أثر قدم طولها ذراع بلا أصابع وعرضها شبرين، من الخطوة إلى الخطوة خمسة أذرع أو ست، فاتبعوا الصوت، فجعلوا يسمعون صوتاً ولا يرون شخصاً.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود بن عيسى.

سنة سبع وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: خروج أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين وخلافه للسلطان. وسبب ذلك: أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وفيها إما زوجته وإما أخته فمانعته فضربها، فلما رجع أبو حرب بكت وشكت ما فعل بها، وأرته أثر الضرب، فأخذ سيفه ومشى إلى الجندي وهو غار؛ فضربه به حتى قتله، ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف، فصار الرجل إلى جبل من جبال الأردن، فطلبه السلطان، فلم يعرف له خبر، وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً، فيراه الرائي فيأتيه، فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر السلطان ويعيبه، فاستجاب له خلق من حراثي تلك الناحية وأهل القرى؛ وكان يزعم أنه أموي، فقال الذين استجابوا له: هذا هو السفياني، فلما كثرت غاشيته وأتباعه دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية؛ فاستجاب له جماعة منهم حتى صاروا في زهاء مائة ألف، فوجه إليه المعتصم جنداً عليهم رجاء بن أيوب فطاوله رجاء حتى إذا جاء أوان عمارة الأرض، انصرف الحراثون، وبقي في نحو من ألف أو ألفين فناجزه الحرب، وأسره وجاء به إلى المعتصم.

وقيل كان خروج هذا في سنة ست وعشرين.

أخبر الحارث بن أبي أسامة قال: سنة سبع وعشرين ومائتين فيها وثب قوم يوم الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة في مسجد الرصافة على رجلين من الجهمية فضربوهما وأذلوهما، ثم مضوا إلى مسجد شعيب بن سهل القاضي يريدون محو الكتاب كان كتبه على مسجده، يذكر فيه أن القرآن مخلوق، فأشرف عليهم خادم شعيب، فرماهم بالنشاب، فوثبوا فأحرقوا باب شعيب، وانتهب ناس منزله، وأرادوا نفسه، فهرب منهم.

وهو أول قاض حرق بابه ونهب منزله فيما بلغنا، وكان يقول: جهم بن صفوان مبغضاً لأهل السنة، متحاملاً عليهم، منتقصاً لهم.

وفي هذه السنة: توفي المعتصم، وبويع الواثق.

* * *

باب ذكر خلافة الواثق

اسمه هارون بن المعتصم، ويكنى أبا جعفر، ولد بطريق مكة سنة تسعين ومائة، وأمه أم ولد رومية تسمى قراطيس، وكان أبيض يعلوه صفرة، وقيل: كان مشرباً بحمرة، جميلاً ربعة، حسن الجسم، قاتم العين، فيها نكتة بياض.

بويع الواثق بسامراء يوم توفي المعتصم، وذلك يوم الأربعاء لثمان ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع وعشرين.

* * *

سنة ثمان وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الواثق توج أشناس، وألبسه وشاحين بالجواهر وذلك في رمضان.

وفيها: غلا السعر بطريق مكة، فبلغ رطل خبز بدرهم، وراوية ماء بأربعين درهم، وأصاب الناس بالموقف حر شديد، ثم مطر شديد فيه برد، فأصابهم الحر، ثم أضر بهم البرد، وذلك كله في ساعة، ومطروا بمنى مطراً شديداً لم يروا مثله، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت عدة من الحاج. وحج بالناس في هذه السنة: محمد بن داود.

* * *

سنة تسع وعشرين ومائتين

فمن الحوادث فيها: حبس الواثق الكتاب، وإلزامهم أموالاً، فدفع أحمد بن أبي إسرائيل إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ صاحب الحرس، فضربه، فأدى ثمانين ألف دينار، وأخذ من سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار، وأخذ من نجاح ستين ألف دينار، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن أبي الوزير صالح مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار؛ سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم، ونصب محمد بن عبد الملك لابن أبي دؤاد وسائر أصحاب المظالم العداوة، فكشفوا وحبسوا، وأجلس إسحاق بن إبراهيم، فنظر في أمورهم وأقيموا للناس، ولقوا كل جهد. وفيها: ولي محمد بن صالح بن العباس المدينة. وحج بالناس في هذه السنة محمد ابن داود.

* * *

سنة ثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: توجيه الواثق بغا الكبير التركي - ويكنى أبا موسى - إلى الأعراب وكانوا قد عاثوا بالمدينة وما حولها، وكان بدو ذلك أن بني سليم كانت تتطول على الناس حول المدينة بالشر، وأوقعوا بالقوم وقتلوا، فوجه إليهم محمد ابن صالح بن العباس الهاشمي، وهو يومئذ عامل المدينة حماد بن جرير الطبري، وكان الواثق، قد وجه حماداً مسلحة للمدينة لئلا يتطرقها الأعراب في مائتي فارس، فتوجه إليهم حماد في جماعة فقاتلهم فغلبوه، وقوي أمر بني سليم، فاستباحت القرى والمناهل، فيما بينها وبين مكة والمدينة، فوجه إليهم الواثق بغا، فشخص إلى حرة بني سليم في شعبان، فواقعهم وراء السوارقية، وهي قريتهم التي كانوا يأوون إليها، وبالسوارقية حصون فقتل منهم نحو خمسين وانهزم الباقون ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق، وهربت خفاف بني سليم، وحبس عنده من أهل الشر منهم جماعة نحو ألف رجل، وقدم بأساراهم، ثم شخص إلى مكة حاجاً، ثم انصرف إلى بني هلال، فعرض عليهم مثل الذي عرض على بني سليم، وأخذ من مردتهم نحواً من ثلثمائة رجل.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود.

* * *

سنة إحدى وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن بغا الأمير كان قد حبس بالمدينة نحواً من ألف وستمائة من بني سليم، فنقبوا الدار ليخرجوا، فإذا قد وثب عليهم من يتوكل بهم فقتلوا من الموكلين بهم رجلاً أو رجلين، وخرج عامتهم، وأخذوا سلاح الموكلين بهم واجتمع أهل المدينة فمنعوهم من الخروج، فقاتلوا فظهر عليهم أهل المدينة، فقتلوهم أجمعين.

وفي هذه السنة: أخذ أحمد بن نصر الخزاعي، وسنذكر قصته عند وفاته إن شاء الله تعالى.

وفيها: أراد الواثق الحج واستعد له، فأخبر بقلة الماء في الطريق فبدا له.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: مسير بغا الكبير إلى بني نمير حتى أوقع بهم.

وسببه: أنهم كانوا يعيثون في الأرض، وكان قد انكشف عسكر بغا، ثم اجتمع فكشفوا بني نمير، ثم طلبوا الأمان فأعطاهم، ثم قيدهم وسار بهم.

وفيها: جاء السودان إلى البصرة. وفيها: ولي محمد بن إبراهيم بن مصعب فارس. وفيها: أمر الواثق بترك جباية أعشار البحر. وفيها: اشتد البرد في نيسان حتى جمد الماء لخمس خلون منه.

وكثرت الزلازل في المغرب، وكانت زلزلة بدمشق هدمت منها المنازل والدور، ومات خلق من الناس، وكذلك بحمص، وعظم ذلك في قرى أنطاكية والموصل، ويقال: إنه مات فيها عشرون ألفاً.

وفيها: أصاب الحج في العود عطش شديد في أربعة منازل إلى الربذة، فبلغت الشربة دنانير كثيرة، ومات خلق كثير من العطش.

وفيها: مات الواثق، وبويع للمتوكل.

* * *

باب خلافة المتوكل

واسمه: جعفر بن محمد بن هارون الرشيد، ويكنى أبا الفضل، وأمه أم ولد، اسمها شجاع، ولد سنة سبع ومائتين بفم الصلح، ونزل سامراء، وكان أسمر حسن العينين، خفيف العارضين، نحيفاً إلى القصر، ولا تعرف امرأة رأت ابنها خليفة وهو جد وله ثلاثة أولاد ولاة عهود إلا أم المتوكل، وكان المتوكل جداً وما كمل له ثلاثون سنة. وسلم المتوكل بالخلافة ثمانية كلهم ابن خليفة: محمد بن الواثق، وأحمد بن المعتصم، وموسى بن المأمون، وعبد الله بن الأمين، وأبو أحمد ابن الرشيد، والعباس بن المهدي، ومنصور بن المهدي، والمنصور بن المتوكل.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: غضب المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات وحبسه إياه، وسنذكر قصته عند وفاته إن شاء الله.

وفي ربيع الآخر: رجفت دمشق رجفة شديدة لارتفاع الضحى، وانتقضت منها البيوت، وتزايلت الحجارة العظيمة، وسقطت عدة منازل وطاقات في الأسواق على من فيها، فقتلت خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان، وسقط بعض شرافات المسجد الجامع، وتصدعت طاقات القبة التي في وسط الجامع مما يلي المحراب، وانقطع ربع منارة الجامع، فهرب الناس بالنساء والصبيان، وهرب أهل الأسواق إلى ذلك، فرجعوا، فأخذوا في إخراج الموتى من تحت الهدم.

وذكر بعض من كان في دير مران أنه كان يرى مدينة دمشق وهي ترتفع وتستقل مراراً، وأصاب أهل قرية من عمل الغوطة من الرجفة أنها انكفأت عليهم، فلم ينج منهم إلا رجل واحد على فرسه، فأتى أهل دمشق فأخبرهم.

وأصاب أهل البلقاء مثل ما أصاب أهل دمشق، من هدم المنازل في ذلك اليوم، وذلك الوقت، وتزايلت الحجارة من سور مدينتها، وسقط حائط لها عرضه ذراع في ستة عشر ذراعاً، وخرج أهلها بنسائهم وصبيانهم، فلم يزالوا في دعاء وضجيج حتى كف الله عنهم برحمته.

وعظمت الزلازل بأنطاكية، ومات من أهلها خلق كثير، وكذلك الموصل، ويقال: إنه مات من أهلها عشرون ألفاً.

* * *

سنة أربع وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المتوكل مرض في هذه السنة، فأرجف عليه، فقيل لابن البعيث: إنه قد توفي، فهرب إلى قلعة له حصينة.

وقيل: بل كان في الحبس، فأفلت إلى تلك القلعة، وأتاه من يريد الفتنة، فاجتمع إليه جماعات كثيرة، وبعث إليه المتوكل جيشاً بعد جيش، فلم يقدروا عليه، حتى كتب بالأمان لأصحابه، فنزل كثير منهم، وخرج هو مستخفياً، فأسر وجيء به فحبس. وفي هذه السنة: أظهر المتوكل السنة ونشر الحديث.

* * *

سنة خمس وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: قتل إيتاخ. وقد ذكرنا أنه استأذن في الحج فأذن له، ولما رجع من الحج إلى العراق، وجه إليه المتوكل سعيد بن صالح الحاجب بكسوة وألطاف، وأمره أن يتلقاه ببعض الطريق، وقد تقدم المتوكل إلى عامله على الشرطة ببغداد إسحاق بن إبراهيم بأمره فيه.

فلما خرج إسحاق وقرب إيتاخ من بغداد، أراد أن يأخذ طريق الفرات إلى الأنبار، ثم يخرج إلى سامراء، فكتب إليه إسحاق: إن أمير المؤمنين، قد أمر أن تدخل بغداد، وأن يتلقاك بنو هاشم ووجوه الناس، وأن تعقد لهم في دار خزيمة بن خازم، فتأمر لهم بجوائز.

وشحن إسحاق الجسر بالجند والشاكرية، وخرج في خاصته، فاستقبله، فلما نظر إليه أهوى إسحاق لينزل، فحلف عليه إيتاخ أن لا يفعل.

وكان إيتاخ في ثلاثمائة من أصحابه وغلمانه، فسارا جميعاً حتى إذا صار عند الجسر تقدمه إسحاق، فعبر حتى وقف على باب خزيمة بن خازم، وقال لإيتاخ يدخل. وكان الموكلون بالجسر كلما مر بهم غلام من غلمان إيتاخ قدموه، حتى بقي في خاصة غلمانه، فدخل، وقد فرشت له دار خزيمة، وتأخر إسحاق، وأمر أن لا يدخل الدار من غلمانه إلا ثلاثة أو أربعة، وأخذت عليه الأبواب وأمر بحراسته من ناحية الشط، وقطعت كل درجة في قصر خزيمة، فحين دخل أغلق الباب خلفه، فنظر فدخل، فإذا ليس معه إلا ثلاثة غلمان، فقال: قد فعلوها.

فمكث يومين أو ثلاثة، ثم ركب إسحاق حراقة وأعد لإيتاخ أخرى، ثم أرسل إليه أن يصير إلى الحراقة، وأمر بأخذ سيفه، وصاعدا إلى دار إسحاق، فأدخل ناحية منها، ثم قيد فصير في عنقه ثمانين رطلاً، فمات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخر، وأشهد إسحاق على موته أبا الحسن محمد بن ثابت صاحب البريد ببغداد والقضاة، وأراهم إياه لا ضرب به ولا أثر، فقيل إن هلاكه كان بالعطش، وحبس ابناه معه، فبقيا إلى أن ولي المنتصر فأخرجهما.

* * *

سنة ست وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن علي بن يحيى الأرمني غزا الصائفة، فلاقى صاحب الروم في ثلاثين ألفاً من الروم، وكان هو في نحو ثلاثة آلاف فارس، فهزم الرومي، وقتل من الروم أكثر من عشرين ألفاً، ثم مضى إلى عمورية، فافتتحها وغنم ما فيها، وأخرج منها أسارى من المسلمين، وكانوا خلقاً كثيراً، وضرب كنائسها، وفتح أيضاً حصناً يقال له: الفطس، فأخرج منه عشرين ألف رأس من السبي، وغنم غنيمة بلغت مائة ألف وعشرين ألف دينار.

ومن الحوادث: أن المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي عليهما السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى صاحب الشرطة في الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثالثة بعثنا به إلى المطبق، فهرب، وامتنعوا من المصير إليه، وحرث ذلك الموضع، وزرع ما حوله. وقيل: كان ذلك في سنة ثمان وثلاثين. وفيها: استكتب المتوكل عبيد الله ابن يحيى بن خاقان.

وفيها: أخرج النصارى عن الدواوين ونهى أن يستعان بهم، وعزلهم عن الولايات ونهى أن يستخدموا في شيء من أمور المسلمين.

وفيها: حج محمد المنتصر، وأقام للناس الحج، وحجت معه جدته شجاع أم المتوكل، فشيعها إلى النجف.

* * *

سنة سبع وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: غزاة علي بن يحيى الأرمني الصائفة.

وفيها: وثب أهل أرمينية بيوسف بن محمد وهو عامل أرمينية، وكان قد خرج بطريق فطلب الأمان، فأخذه يوسف، فقيده، وبعث به إلى المتوكل فأسلم، فاجتمع بطارقة أرمينية، فقاتلوا يوسف، فقتلوه، فوجه المتوكل إليهم من قتل منهم ثلاثين ألفاً.

وفيها: عزل المتوكل محمد بن أحمد بن أبي دؤاد عن المظالم لعشر بقين من صفر وولاها محمد بن يعقوب، وغضب على أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر وأمر المتوكل بقبض متاعه وحبس ابنه أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد في ديوان الخراج يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر، وحبس أخوته عبيد الله ابن السري خليفة صاحب الشرطة، فلما كان يوم الاثنين حمل أبو الوليد مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار وجوهراً قيمته عشرين ألف دينار، ثم صولح بعد ذلك على ستة عشر ألف ألف درهم، وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم، وكان أحمد قد فلج، فلما كان يوم الأربعاء لسبع خلون من شعبان أمر المتوكل بولد أحمد ابن أبي دؤاد، فحدروا إلى بغداد.

وفي يوم عيد الفطر من هذه السنة: أمر المتوكل بإنزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي، ودفعه إلى أوليائه، فحمله ابن أخيه موسى إلى بغداد، فغسل ودفن، وضم رأسه إلى جسده فاجتمع العوام يتمسحون بجنازته وبخشبة رأسه، فكتب صاحب البريد بذلك، فنهى المتوكل عن اجتماع العامة.

وفي هذه السنة: قرئ كتاب المتوكل بتخلية كل من كان حبسه الواثق في خلق القرآن في الأمصار والكور.

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الروم جاءت في ثلاثمائة مركب، فأحرقوا من ديار المسلمين، وسبوا نساء مسلمات، وانتهبوا متاعاً كثيراً، وأحرقوا المسجد الجامع بدمياط، وأحرقوا كنائس. وفيها: غزا علي بن يحيى الأرمني الصائفة. قال ابن حبيب: وفي صفر وجه طاهر بن عبد الله إلى المتوكل بحجر سقط بناحية طبرستان وزنه ثمانمائة وأربعين درهماً أبيض فيه صدع، وذكروا أنه سمع لسقوطه هذه أربع فراسخ في مثلها، وأنه ساخ في الأرض خمسة أذرع. وحج بالناس في هذه السنة علي بن عيسى بن جعفر.

سنة تسع وثلاثين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أخذ المتوكل أهل الذمة بلبس رقعتين عسليتين على الأقبية والدراريع، وكان ذلك في المحرم، وأن تصنع النساء مقانعهن عسليات، ثم أمر في صفر بأن يقتصروا في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين.

وفيها: غزا الصائفة علي بن يحيى الأرمني، فوغل في بلاد الروم، فقتل عشرة آلاف علج، وسبى عشر ألف رأس، ومن الدواب سبعة آلاف دابة، وأحرق أكثر من ألف قرية.

سنة أربع ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه أخذ أهل الذمة بتعليم أولادهم السريانية والعبرانية، ومنعوا من العربية، ونادى المنادي بذلك، فأسلم منهم خلق كثير.

وفي هذه السنة: سمع أهل خلاط صيحة من السماء، فمات خلق كثير، وكانت ثلاثة أيام، وخسف بثلاث عشرة قرية من قرى إفريقية.

وخرجت ريح من بلاد الترك، فمرت بمرو فقتلت بشراً كثيراً بالزكام، ثم صارت إلى نيسابور، وإلى الري، ثم إلى همذان وحلوان، ثم صارت إلى العراق فأصاب أهل سامراء ومدينة السلام حمى وسعال وزكام وأشار المتطببون بالحجامة.

وقال محمد بن حبيب الهاشمي: كتب تجار المغرب أن ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان خسف بها، فلم ينج من أهلها إلا اثنان وأربعون رجلاً سود الوجوه، فأتوا القيروان فأخرجهم أهلها، وقالوا: أنتم مسخوط عليكم. فبنى لهم العامل حظيرة خارج باب المدينة فنزلوها.

وفي ذي القعدة: وقع الجراد على بريد من البصرة، فخرج الناس في طلبه فأصابهم من الليل ظلمة ومطر وريح، فمات منهم ألف وثلاثمائة إنسان، ما بين رجل وامرأة وصبي.

وفي هذا الشهر: وقع ببغداد برد أعظم من الجوز، مثل بيض الحمام، مع مطر شديد، وسقط يومئذ بسامراء برد مثل بيض الدجاج.

وحج بالناس في هذه السنة عبد الله بن محمد بن دؤاد، وحج جعفر بن دينار وهو ولي الموسم.

* * *

سنة إحدى وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: إغارة الروم على عين زربة، فأسرت من كان بها من رجال الزط، وذراريهم ونسائهم وجواميسهم وبقرهم، فأخذتهم إلى بلاد الروم.

وفيها: مطر الناس بسامراء مطراً جوداً في آب.

وحج بالناس في هذه السنة جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم.

* * *

سنة اثنتين وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه وقع اضطراب بفارس، والروم، وخراسان، والشام، وخرج الروم بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة حتى قاربوا آمد، ثم خرجوا من الثغور الجزرية، فانتهبوا عدة قرى، ثم رجعوا إلى بلادهم. وفي ربيع الأول: احترق بالكرخ مائتا حانوت ونيف، واحترق بالكرخ رجال ونساء وصبيان. قال ابن حبيب الهاشمي: وفي شعبان زلزلت الدامغان، فسقط نصفها على أهلها وعلى الوالي فقتله، ويقال إن الهالكين كانوا خمسة وأربعين ألفاً.

وكانت بقومس ورساتيقها في هذا الشهر زلازل، فهدمت منها الدور، وسقطت بدس كلها على أهلها وسقطت بلدان كثيرة على أهلها، وسقط نحو من ثلثي بسطام وزلزلت الري، وجرجان، وطبرستان، ونيسابور، وأصبهان، وقم، وقاشان، وذلك كله في وقت واحد، وسقطت جبال ودنا بعضها من بعض، ونبع الماء مكان الجبال، ورجفت استراباذ رجفة أصيب الناس كلهم وسمع بين السماء والأرض أصوات عالية، وانشقت الأرض بقدر ما يدخل الرجل فيه.

قال: ورجمت قرية يقال لها: السويداء ناحية مصر بخمسة أحجار، فوقع منها حجر على خيمة أعرابي، فاحترقت ووزن منها حجر، فكان خمسة أرطال، فحمل منها أربعة إلى الفسطاط وواحد إلى تنيس.

قال: وذكر أن رجلاً باليمن عليه مزارع لأهله سار حتى أتى مزارع قوم فصاروا فيها، فكتب بذلك إلى المتوكل.

* * *

سنة ثلاث وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: شخوص المتوكل إلى دمشق لعشر بقين من ذي القعدة، فضحى ببلد، وحج بالناس في هذه السنة عبد الصمد بن موسى. وحج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم.

* * *

سنة أربع وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: دخول المتوكل دمشق في صفر، وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، فأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وعيالاتهم، فأمر لهم بما أرضاهم.

ثم استوبأ البلد، وذلك أن الهواء فيها بارد ندي والماء ثقيل، والريح تهب فيها مع العصر، ولا يزال يشتد حتى يمضي عامة الليل، وهي كثيرة البراغيث، ثم غلت بها الأسعار، وحالت الثلوج بين السابلة والميرة فأقام شهرين وأياماً، ورجع إلى سامراء، فدخلها يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة.

وفيها: وجه المتوكل بغا من دمشق إلى غزو الروم في ربيع الآخر، فغزا الصائفة وافتتح صملة.

* * *

سنة خمس وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المتوكل أمر ببناء المدينة التي بناها بالماحوزة، فأقطع أصحابه وقواده فيها، وجد في بنائها، وسماها الجعفرية، أنفق عليها ألفي ألف دينار، وبنى بها قصراً سماه اللؤلؤة، لم ير في علوه مثل، وأمر بحفر نهر يأخذه من خمس فراسخ، قدر له مائتي ألف دينار، وأقام فيه اثني عشر ألف رجل يعملون، فقتل المتوكل، وخربت الجعفرية، ولم يتم النهر.

وفي هذه السنة: بعث ملك الروم ميخائيل يسأل المفاداة بمن عنده، وبعث مع الرسول سبعة وسبعين أسيراً من المسلمين أهداهم إلى المتوكل، وكان قدومهم لخمس بقين من صفر، ولم يقع الفداء إلا في سنة ست وأربعين.

* * *

سنة ست وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن علي بن يحيى الأرمني غزا الصائفة، فأخرج عشرة آلاف رأس من الدواب والرمك. وغزا عمر بن عبد الله الأقطع الصائفة، فأخرج سبعة آلاف رأس.

وغزا الفضل بن قارن في عشرين مركباً، فافتتح حصن أنطاكية.

وفيها: تحول المتوكل إلى المدينة التي بناها بالماحوزة فنزلها يوم عاشوراء، وهو البناء الذي يسمى الحوزي ووهب لمن تولى البناء ألفي ألف درهم. وفيها: كان الفداء للمسلمين في صفر، وقيل في جمادى الأولى على يد علي بن يحيى الأرمني ففودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفساً. وفيها: مصر أهل بغداد في شعبان، ورمضان واحداً وعشرين يوماً حتى نبت العشب فوق الأجاجير. وصلى المتوكل صلاة الفطر بالجعفرية، وصلى عبد الصمد بن موسى في مسجد جامعها، ولم يصل بسامراء أحد.

* * *

سنة سبع وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: قتل المتوكل وسيأتي ذكره، وخلافة المنتصر بالله.

* * *

باب خلافة المنتصر بالله

واسمه محمد بن المتوكل، وقيل: اسمه الزبير، وفي كنيته ثلاثة أقوال: أبو جعفر، وأبو عبد الله، وأبو العباس.

ولد بسامراء في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وكان أعين، وقصيراً، أفنى، أسمر، ضخم الهامة، عظيم البطن، جسيماً، مليح الوجه، مهيباً، على عينه اليمنى أثر وقع أصابه وهو صغير، وأمه أم ولد، رومية، يقال لها: حبشية. بويع المنتصر بالله محمد بن جعفر بالخلافة في صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل أبوه، وذلك يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال بالجعفرية، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وقيل: أربع وعشرين.

* * *

سنة ثمان وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المنتصر أغزى وصيفاً التركي الصائفة - أرض الروم - وسبب ذلك أنه كان قد وقع بين وصيف وبين أحمد بن الخصيب وزير المنتصر فأشار على المنتصر أن يخرج وصيفاً من العسكر غازياً، فأمره بالغزو، وقال له: إن طاغية الروم قد تحرك، ولست آمنه على بلاد الإسلام، فإما أن تخرج أنت أو أنا. فقال: بل أنا أخرج، فخرج في عشرة آلاف. وفي هذه السنة خلع المعتز والمؤيد أنفسهما؛ وسبب ذلك: أن المنتصر لما استقامت له الأمور، قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا: إنا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين فيلي الأمر المعتز، فلا يبقي منا باقية، والرأي أن نعمل في خلع هذين الغلامين قبل أن يظفرا بنا، فجد الأتراك في ذلك، وألحوا على المنتصر، وقالوا: تخلعهما وتبايع لابنك هذا عبد الوهاب فأحضرهما وجعلا في دار، فقال المعتز للمؤيد: يا أخي لم تدى أحضرنا فقال المؤيد: يا شقي، للخلع، قال: ما أظنه يفعل. فجاءتهم الرسل بالخلع، فقال المؤيد: السمع والطاعة فقال المعتز: ما كنت لأفعل، فإن أردتم قتلي فشأنكم. فرجعوا ثم عادوا بغلظة شديدة، فأخذوا المعتز بعنف وأدخلوه إلى بيت وأغلقوا عليه الباب. فقال له المؤيد: يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك ما نالوا ثم تمتنع عليهم! اخلع ويلك ولاتراجعهم، فقال: أفعل، فقال لهم المؤيد: قد أجاب. فكتبا خطوطهما بالخلع، وأنهما عجزة عن الخلافة: وقد خلعناها من أعناقنا. ثم دخلا عليه فقال: أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له! والله ما طمعت في ذلك، ولأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي؛ ولكن هؤلاء - وأومأ إلى الموالي - ألحوا علي في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة، فيأتي عليكما، فلو قتلته ما كان دمه يفي دماكما. فقبلا يده ثم انصرفا. وكان خلعهما في يوم السبت لسبع بقين من صفر هذه السنة.

وفي هذه السنة: خرج محمد بن عمر الشار بناحية الموصل، فوجه إليه المنتصر إسحاق بن ثابت الفرغاني، فأخذه اسيراً مع عدة من أصحابه فقتلوا وصلبوا. وفيها: تحرك يعقوب من سجستان فصار إلى هراة.

وفيها: توفي المنتصر واستخلف المستعين.

* * *

باب خلافة المستعين.

واسمه أحمد بن محمد المعتصم، ويكنى: أبا العباس، وقيل: أبا عبد الله، وكان ينزل سر من رأى، ثم ورد بغداد فأقام بها إلى أن خلع، وأمه أم ولد اسمها مخارق، وكان أبيض حسن الوجه، ظاهر الدم، بوجهه أثر جدري، وسبب بيعته لما توفي المنتصر اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير، وبغا الصغير، وذلك بتدبير ابن الخصيب فحلفوا وهم كارهين أن يتولى الخلافة أحد من أولاد المتوكل لقتلهم أباه، فأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم فدعوه ليبايع له بالخلافة، فقال: أستعين بالله وأفعل. فسمي المستعين، فبايعوه بعد عشاء الآخرة من ليلة الاثنين لستٍ خلون من ربيع الآخر، وحضر يوم الثلاثاء في دار العامة، وجاء الناس على طبقاتهم، فبينا هم على ذلك جاءت صيحة من ناحية السوق، وإذا خيل ورجالة وعامة قد شهروا السلاح وهم ينادون: معتز يا منصور، فشدوا على الناس، واقتتلوا، فوقع بينهم جماعة من القتلى إلى أن مضى من النهار ثلاث ساعات، ثم انصرف الأتراك وقد بايعوا المستعين ودخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة، فانتهبوا خزانة السلاح، فجاء بغا وجماعة من الأتراك فأجلوهم عن الخزانة وقتلوا منهم عدة، وتحرك أهل السجون بسامرا في هذا اليوم، فهرب منهم جماعة.

ولما توفي المنتصر كان في بيت المال تسعون ألف ألف درهم فأمر المستعين للجند برزق خمسة أشهر وكان ألفي ألف دينار، وللعابد ألف واثنين وتسعين ديناراً.

سنة تسع وأربعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الجند والشاكرية ببغداد شغبوا في أول يوم من صفر، وكان سبب ذلك استفظاعهم أفعال الأتراك من قبل المتوكل، واستيلاءهم على أمور المسلمين، واستخلافهم من أحبوا من غير نظر في ذلك للمسلمين. فاجتمعت إليه العامة ببغداد بالصراخ، ونادوا النفير، وانضمت إليهم الأبناء والشاكرية، تظهر أنها تطلب الأرزاق، ففتحوا سجن نصر بن مالك، وأخرجوا من فيه، وقطعوا أحد الجسرين، وضربوا الآخر بالنار، وانحدرت سفنه، وانتهب ديوان قصص المحبسين وقطعت الدفاتر، وألقيت في الماء، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم ابني هارون النصرانيين، وذلك كله بالجانب الشرقي من بغداد، وكان والي الجانب الشرقي أحمد بن حاتم بن هرثمة، ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامراء أموالاً كثيرة فقووا بها من خف للنهوض للثغور لحرب الروم، وأقبلت العامة من نواحي الجبال، وفارس، والأهواز وغيرها لغزو الروم.

ولتسع بقين من شهر ربيع الأول وثب نفر من الناس لا يدري من هم يوم الجمعة بسامراء، ففتحوا السجن، وأخرجوا من فيه، فوجه بعض القواد فوثبت به العامة فهزموه، فركب بغا وعامة الأتراك، فقتلوا من العامة جماعة، ورمي وصيف بحجر، فأمر النفاطين فأحرقوا منازل الناس وحوانيت التجار هنالك.

* * *

سنة خمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ظهور أبي الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة، وسبب خروجه أنه نالته ضيقة شديدة ولزمه دين ضاق به ذرعاً، فلقي عمر بن فرح، وكان يتولى أمر الطالبيين عند مقدمه من خراسان أيام المتوكل فكلمه في صلة فأغلظ له عمر في القول، فسبه يحيى، فحبسه فلم يزل محبوساً إلى أن كفله أهله، فأطلق فشخص إلى مدينة السلام، فأقام بها بحال سيئة، ثم سار إلى سامراء فلقي وصيفاً في رزق يجري عليه، فأغلظ له وصيف في الرد، وقال: لأي شيء يجري على مثلك؟ فانصرف عنه، فخرج إلى الكوفة فجمع جمعاً كبيراً من الأعراب وأهل الكوفة، وأتى الفلوجة، فكتب صاحب البريد بخبره فكتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى أيوب ابن الحسن، وعبد الله بن محمود السرخسي يأمرهما بالاجتماع على محاربته، فدخل يحيى بن عمر إلى بيت المال بالكوفة، فوجد فيه ألفي دينار وسبعين ألف درهم، فأخذها وظهر أمره بالكوفة، وفتح السجنين فأخرج جميع من كان فيهما، وأخرج عمالهما عنها، فلقيه عبد الله بن محمود فضربه يحيى ضربة أثخنته، فانهزم وحوى يحيى جميع ما كان معه من الدواب والمال، ثم خرج يحيى من الكوفة إلى سوادها، وتبعه جماعة من الزيدية وغيرهم وكثر جمعه ووجه ابن طاهر إلى محاربته جمعاً كثيراً.

ثم دخل يحيى الكوفة ودعى إلى الرضى من آل محمد وكثف أمره وتابعه خلق كثير لهم بصائر وتدوين، ثم لقي أصحاب ابن طاهر فانهزم أصحاب يحيى، وذبح هو، ووجه برأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المستعين من الغد فنصبه بباب العامة بسامراء.

ودخل الناس يهنئون عبد الله بن طاهر، فدخل رجل فقال: أيها الأمير، إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله حياً لعزي به، فما رد عليه شيئاً.

ثم خرج من بعده الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب رضوان الله عليهم في شهر رمضان. وذلك لما جرى على يحيى بن عمر ما جرى على يد ابن طاهر أقطعه المستعين قطائع بطبرستان، فبعث وكيله فحازها وحاز معها الموات، فنفر من ذلك أهل تلك الناحية، واستعدوا لمنعه، وذهبوا إلى علوي يقال له: محمد بن إبراهيم بدعوته إلى البيعة، فأبى وقال: أدلكم على من هو أقوم مني بذلك: الحسن بن زيد. ودلهم على مسكنه بالري، فوجهوا إليه رسالة محمد بن إبراهيم من يدعوه إلى طبرستان، فشخص معه إليهم فبايعوه، ثم ناهضوا العمال فطردوهم، ثم زحف بمن معه إلى آمل وهي أول مدائن طبرستان، فدخلها وقام فيها أياماً حتى جبى الخراج من أهلها، واستعد، وخرج أصحاب ابن طاهر واقتتلوا، وهرب أصحاب ابن طاهر واجتمعت للحسن ابن زيد مع طبرستان الري إلى حد همذان، وورد الخبر إلى المستعين فبعث إليه جنوداً.

وفي هذه السنة: غضب المستعين على جعفر بن عبد الواحد لأن وصيفاً زعم أنه قد أفسد الشاكرية فنفي إلى البصرة لسبع بقين من ربيع الأول.

* * *

سنة إحدى وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه وثب بغا الصغير ووصيف على باغر التركي فقتلاه فشغبت الأتراك عند مقتله، وذلك لخمس خلون من المحرم، وهموا بقتل بغا ووصيف، فانحدر المستعين إلى بغداد لأجل الشعب، واختلف جند بغداد وجند سامراء، وبايع أهل سامراء المعتز، وأقام أهل بغداد على الوفاء ببيعة المستعين، ثم صار الجند إلى المستعين، فرموا أنفسهم بين يديه وسألوه الصفح عنهم، فقال لهم: أنتم أهل بغي وبطر وفساد، واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلي في أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عدد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة، وأدررت عليكم الأرزاق حتى سكبت لكم آنية الذهب والفضة قالوا: أخطأنا، ونحن نسأل العفو. قال: قد عفوت عنكم، فقال أحدهم: إن كنت قد صفحت فاركب معنا إلى سامراء فقال: اذهبوا أنتم وأنا أنظر في أمري، فانصرفوا وأجمعوا على إخراج المعتز، والبيعة له، وكان المعتز والمؤيد في حبس في الجوسق، فخلعوا المستعين، وأخرجوا المعتز فبايعوه بالخلافة.

* * *

ذكر خلافة المعتز بالله

واسمه: محمد بن المتوكل، وقيل اسمه: الزبير ويكنى: أبا عبد الله، وكان طويلاً، أبيضًا، أسود الشعر كثيفه، حسن الوجه والعينين والجسم، ضيق الجبهة، أحمر الوجنتين، ولد بسامراء وبقي منذ بويع أربع سنين وبعض أخرى، ولما بويع المعتز أمر للناس برزق عشرة أشهر فلم يتم المال، فأعطوا رزق شهرين، وكان المستعين خلف سامراء مالاً قدم عليه به نحواً من خمسين ومائة ألف، وكان في بيت مال المستعين ألف ألف دينار، وفي بيت مال العباس بن المستعين ستمائة ألف، وأحضر للبيعة أبو أحمد بن الرشيد محمولاً في محفة وبه نقرس، فأمر بالبيعة، فامتنع وقال للمعتز: خرجت إلينا خروج طائع فخلعتها وزعمت أنك لا تقوم بها. فقال المعتز: أكرهت على ذلك، وخفت السيف. فقال أبو أحمد: ما علمنا أنك أكرهت، وقد بايعنا هذا الرجل، أفتريد أن نطلق نساءنا، ونخرج من أموالنا، ولا ندري ما يكون إن تركتني على أمري حتى يجتمع الناس، وإلا فهذا السيف، فقال المعتز: اتركوه. فرد إلى منزله وبايع جماعة، ثم صار إلى بغداد، وولي المعتز العمال.

وبلغ الخبر المستعين، فأمر محمد بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد، فأدير عليها السور من دجلة إلى باب الشماسية، ثم سوق الثلاثاء، ورتب على كل باب قائد، وأمر بحفر الخنادق، فبلغت النفقة ثلثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، ونصبت المجانيق والعرادات، وفرض لقوم من العيارين فروضاً، وجعل عليهم عريفاً، وعمل لهم تراساً من البواري المقيرة ومخالي يملؤها حجارة، وأنفق على تلك البواري مائة ألف دينار، وأمر بقطع الميرة عن سامراء، وكتب إلى العمال أن يحملوا الأموال إلى بغداد، ثم أمر المستعين أن يكتب إلى الأتراك، والجند الذين بسامراء يأمرهم بنقض بيعة المعتز، ومراجعة الوفاء له ببيعتهم، ثم جرت بين المعتز وبين ابن طاهر مراسلات، يدعوه المعتز إلى خلع المستعين ومبايعته، وكتب المعتز والمستعين إلى موسى بن بغا وهو مقيم بأطراف الشام كل يدعوه إلى نفسه، فانصرف إلى المعتز وكان معه وقدم عبد الله بن بغا الصغير إلى بغداد على أبيه وكان قد تخلف بسامراء حين خرج أبوه منها مع المستعين، فصار إلى المستعين واعتذر إليه وقال لأبيه: إنما قدمت إليك لأموت تحت ركابك، فأقام ببغداد أياماً.

ثم إنه استأذن ليخرج إلى قرية بقرب بغداد على طريق الأنبار، فأذن له، فأقام فيها إلى الليل، ثم هرب من تحت الليل، فمضى في الجانب الغربي إلى سامراء مجانباً لأبيه، واعتذر إلى المعتز من مصيره إلى بغداد فأخبر المعتز أنه إنما صار إليها ليعرف أخبارهم فيخبره بها، فقبل ذلك منه ورده إلى خدمته.

وورد الحسن بن الأفشين إلى بغداد فخلع عليه المستعين وضم إليه جماعة كثيرة، وزاد في رزقه ستة عشر ألف درهم من كل شهر، ولم يزل أسد بن داود مقيماً بسامراء إلى أن عمل على الهرب منها، فدخل على ابن طاهر فضم إليه مائة فارس ومائتي راجل، ووكله بباب الأنبار مع عبيد الله بن موسى بن خالد.

وعقد المعتز لأخيه أبي أحمد بن المتوكل يوم السبت لسبع بقين من المحرم في هذه السنة على حرب المستعين وابن طاهر وولاه ذلك، وضم إليه الجيش وجعل إليه الأمر والنهي، فوافى حسن بن الأفشين مدينة بغداد، ثم وافى أبو أحمد وعسكر بالشماسية ليلة الأحد لسبع خلون من صفر، وجاء جاسوس إلى ابن طاهر لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر، فأخبره أن أبا أحمد قد عبأ قوماً يحرقون طلال الأسواق من جانبي بغداد فكشطت في ذلك اليوم، فلما كان في ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على توجيه الجيوش إلى القفص لمعرضهم هناك فذهب به الأتراك، فركب وركب معه وصيف وبغا، وخرج معه الفقهاء والقضاة، وعزم على دعائهم إلى الرجوع إلى الحق، وبعث يبدلهم الأمان على أن يكون أبو عبد الله ولي العهد بعد المستعين، فإن قبلوا وإلا باكرهم القتال يوم الأربعاء.

فمضى نحو باب قطربل فنزل على شاطئ دجلة هو ووصيف وبغا، ثم رجع وجاء الأتراك إلى باب الشماسية فرموا بالسهام والمجانيق والعرادات، وكان بينهم قتلى وجرحى، وانهزم عامة أهل بغداد، وثبت أهل البواري، ثم انصرف الفريقان وقد نسا ووافى للقتل والجراح.

ثم وجه المعتز عسكراً كبيراً فضربوا بين قطربل وقطيعة أم جعفر، وذلك عشية الثلاثاء لاثنتي عشرة بقيت من صفر فلما أصبحوا وجه ابن طاهر جيشاً فالتقوا فاقتتلوا، فوضعوا في أصحاب أبي أحمد السيوف فلم ينج إلا أقلهم وانتهبوا عسكرهم وأمر ابن طاهر لمن أبلى في هذا اليوم بالأسورة، وأعطى من جاءه برأس تركي خمسين درهماً، وطلبت المنهزمة فبلغ بعضهم أوانا وبعضهم سامراء.

وكان عسكر الأتراك يومئذ أربعة آلاف فقتل بينهم ألفان، ووضع فيهم السيف من باب القطيعة إلى القفص وغرق جماعة وأسر جماعة.

ووافى عيارو بغداد قطربل، فانتهبوا ما تركه الأتراك من متاع وأشير على ابن طاهر أن يتبعهم بعسكر فأبى أن يتبع مولياً، ولم يأمر أن يجهز على جريح، وقبل أمان من استأمن، وأمر أن يكتب كتاباً يذكر فيه هذه الوقعة فقرئ على أهل بغداد في الجوامع.

وركب محمد بن عبد الله بن طاهر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر إلى الشماسية فأمر بهدم ما وراء سور بغداد من الدور والحوانيت والبساتين، وقطع النخل والشجر من باب الشماسية لتتسع الناحية من حارب فيها، ووجه من ناحية فارس والأهواز مالاً إلى بغداد على نيف وسبعين حماراً، فوجه أبو أحمد بن بابك في ثلاثمائة فارس ليأخذ ذلك المال، فوجه ابن طاهر من عدل به عن الطريق، ففات ابن بابك فعدل ابن بابك حين فاته المال إلى النهروان، فأوقع بمن كان فيها من الجند، وأحرق السفن، وانصرف إلى سامراء، ورأى العوام بسامراء ضعف المعتز، فانتهبوا سوق الحلي والسيوف والصيارفة.

ولليلة بقيت من صفر صار الأتراك والمغاربة أصحاب المعتز إلى أبواب بغداد من الجانب الشرقي، فأغلقت الأبواب في وجوههم ورموا بالسهام والمجانيق، فقتل وجرح من الفريقين جماعة.

وجاء عسكر سامراء، فركب محمد بن عبد الله ومعه أربعة عشر قائداً من قواده فسار حتى جاز عسكر أبي أحمد وقتل من عسكر أبي أحمد، أكثر من خمسين، وخرج غلام لم يبلغ الحلم بيده مقلاع ومخلاة فيها حجارة، وكان يرمي فلا يخطئ وجوه الأتراك ووجوه دوابهم، وكان الأتراك يرمونه فلا يصيبونه، فجاء أربعة بالرماح فحملوا عليه فرمى نفسه إلى الماء فنجا.

وحمل إلى سامراء سبعون أسيراً ومائة وأربعون رأساً، وأمر المعتز بالرؤوس فدفنت، وأعطى كل أسير دينارين، ونهاهم عن العود إلى القتال.

وبعث ابن طاهر إلى المدائن من حصنها، وحفر خندق كسرى، وإلى الأنبار من ضبطها، فجاءت الأتراك إلى الأنبار، فهرب واليها فدخلوا فانتهبوا ما فيها.

* * *

سنة اثنتين وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ما كان من خلع المستعين نفسه من الخلافة، وبيعته المعتز على منبري بغداد ومسجدي جانبيها الشرقي والغربي، يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم، وأخذ البيعة له بها على من كان بها يومئذ من الجند، وأشهد عليه بذلك الشهود من بني هاشم، والقضاة، والفقهاء، ونقل المستعين من الموضع الذي كان فيه من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل بالمخرم هو وعياله وولده وجواريه، وأخذ منه القضيب والبردة والخاتم، ومنع من الخروج إلى مكة، فاختار البصرة، فقيل له: إنها وبية، فقال: أهي أوبى أو ترك الخلافة؟! وبعث إليه المعتز يسأله النزول عن ثلاث جوار تزوجهن من جواري المتوكل، فنزل عنهن وجعل أمرهن إليهن.

سنة ثلاث وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتز عقد في اليوم الرابع من رجب لموسى بن بغا الكبير على الخيل ومعه من الجيش يومئذ ألفان وأربع مائة وثلاثة وأربعون.

وفيها: خلع المعتز على بغا الشرابي في رمضان، وألبسه التاج والوشاحين، فخرج بها إلى منزله. وفيها استقضي ابن العنبس على مدينة السلام، وصرف أحمد ابن محمد بن سماعة.

سنة أربع وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه ولي أحمد بن طولون من قبل المعتز.

وحج بالناس في هذه السنة علي بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد ابن علي.

سنة خمس وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتز جلس في دار العامة للمظالم، فعزل وولى وأمضى الأمور، وولى سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد، لست خلون من ربيع الآخر.

وفيها: أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل، والحسن بن مخلد، وأبا نوح، وعيسى بن إبراهيم، فقيدهم وطالبهم بأموال، وقبضت أملاكهم وضياعهم ودورهم.

ولليلتين خلتا من رجب: ظهر عيسى بن جعفر، وعلي بن زيد الحسنيان بالمدينة، فقتلا بها عبد الله بن محمد بن داود بن علي.

ولثلاث بقين من رجب خلع المعتز، وكان السبب أن الكتاب الذي ذكرنا أن صالح بن وصيف أخذهم لم يقروا بشيء، فصار الأتراك إلى المعتز، وقالوا له: أعطنا أرزاقنا لنقتل لك صالح بن وصيف. فأرسل المعتز إلى أمه يسألها أن تعطيه مالاً، فقالت: ما عندي شيء. ثم وجدوا بعد ذلك في خزانتها ما يزيد على ألف ألف دينار، فلما لم يعطهم، ولا وجدوا في بيت المال شيئاً اجتمعوا على خلع المعتز، فصاروا إليه لثلاث بقين من رجب ثم بعثوا إليه: أخرج إلينا فبعث إليهم: إني قد أخذت الدواء وقد أضعفني، ولا أقدر على الكلام، فإن كان أمر لا بد منه، فليدخل إلي بعضكم، فليعلمني، فدخل إليه منهم جماعة فجروا برجله وقميصه مخرق، وآثار الدم على منكبيه، فأقاموه في الشمس في شدة الحر، فجعل يرفع قدماً ويحط قدماً من شدة الحر، ثم جاء بعضهم يلطمه ويقول: اخلعها. ثم أدخلوه حجرة وبعثوا إلى ابن أبي الشوارب فأحضروه مع جماعة من أصحابه فقال صالح وأصحابه: اكتبوا عليه كتاب خلع. فكتب وشهدوا عليه وخرجوا.

ثم دفع بعد الخلع إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، ثم جصصوا سرداباً بالجص الثخين، وأدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه، فأصبح ميتاً، وولوا بعده المهتدي بالله.

* * *

باب خلافة المهتدي بالله

واسمه محمد بن هارون الواثق بن المعتصم، ويكنى: أبا إسحاق، ويقال: أبا عبد الله. ولد بالقاطول في ربيع الأول سنة تسع عشرة ومائتين وكان منزله بسامراء وأمه أم ولد، يقال لها: قرب. وكان أسمر رقيقاً أجلى، رحب الوجه، حسن اللحية، أشهل العينين، عظيم البطن، عريض المنكبين، قصيراً، طويل اللحية، أشيب. بويع بعد المعتز، ولم يقبل المهتدي بيعة أحد حتى جيء بالمعتز فخلع نفسه وأخبر عن عجزه عن القيام بما أسندوا إليه من أمر الخلافة، ورغبته في تسليمها إلى المهتدي، ومد المعتز يده فبايع المهتدي، ثم بايعه خاصة الموالي. وكان خلع المعتز نفسه يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وبويع المهتدي ليوم بقي من رجب، ودعي للمهتدي يوم الجمعة أول يوم من شعبان ولم يدع له ببغداد حتى قتل المعتز يوم السبت ليومين من شعبان. وكان المهتدي من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجملهم طريقة، وأظهرهم ورعاً، وأكثرهم عبادة، وأسند الحديث.

عن ابن عباس قال: قال العباس: يا رسول الله، ما لنا في هذا الأمر شيء؟ قال: **لي النبوة ولكم الخلافة، بكم يفتح هذا الأمر، وبكم يختم.**

قال: وقال النبي للعباس: **من أحبك نالته شفاعتي ومن أبغضك فلا نالته شفاعتي.**

وفي هذه السنة: في سلخ رجب كان ببغداد شغب، ووثبت العامة بسليمان بن عبد الله بن طاهر صاحب الشرطة، وكان السبب في ذلك: أن المهتدي كتب إلى صاحب الشرطة سليمان أن يأخذ البيعة له ببغداد، فأحضر أبا أحمد بن المتوكل فهجم العامة وهتفوا باسم أبي أحمد، ودعوا إلى بيعته، وكانت فتنة قتل فيها قوم ثم سكنوا.

* * *

سنة ست وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن موسى بن بغا دخل سامراء يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم، والمهتدي يومئذ قد جلس للمظالم، فأقاموه عن مكانه وحملوه على دابة من دواب الشاكرية، وانتهبوا ما كان في الجوسق من دواب الخاصة، فأدخلوه داراً، فجعل المهتدي يقول لموسى: ما تريد؟ ويحك، اتق الله عز وجل، فإنك تركب أمراً عظيماً. فقال موسى: ما نريد إلا خيراً. فأخذوا عليه العهود والمواثيق أنه لا يمالي صالحاً عليهم، ولا يضمر لهم إلا مثل ما يظهر ففعل ذلك، فجددوا له البيعة ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم. وأصبحوا يوم الثلاثاء، فوجهوا إلى صالح أن يحضرهم، فوعدهم أن يحضر، ثم استتر، فأظهر النداء عليه، ثم قتل لثمان بقين من صفر.

* * *

ذكر خلافة المعتمد على الله عز وجل

واسمه: أحمد بن جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد، ويكنى أبا العباس. ولد بسامراء سنة تسع وعشرين ومائتين في أولها، وأمه أم ولد رومية، يقال لها: فتيان، وكان أسمرًا رقيق اللون أعين خفيفاً، لطيف اللحية جميلاً، بويع يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب هذه السنة، فولي الوزارة عبد الله بن يحيى بن خاقان.

* * *

سنة سبع وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه في أولها: ظفر صاحب الزنج بالأبلة، وأحرقا وقتل من الناس في ثلاثة أيام ثلاثين ألفاً.

وأنه قدم رسول يعقوب بن الليث في ربيع الآخر بأصنام من كابل، وأن المعتمد عقد لأخيه أبي أحمد على الكوفة، والبصرة، وبغداد، والسواد، وفارس، والأهواز، وطريق مكة، والحرمين، وبلاد اليمن، لاثنتي عشرة خلت من صفر، ثم عقد له لسبع خلون من رمضان على بغداد، والسواد وواسط، وكور دجلة، والبصرة، والأهواز وفارس.

وفيها أمر بغراج باستحداث سعيد الحاجب أن ينيخ بإزاء عسكر صاحب الزنج، فمضى وأوقع بهم وهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب، وأصابته جراحات. ثم عاد إلى حرب الخبيث فعبر إلى غربي دجلة فأوقع به وقعات في أيام متوالية، ثم لم يزل يحاربه باقي رجب وعامة شعبان. ثم أوقع الخبيث بسعيد وأصحابه فقتلهم.

وفيها ظهر ببغداد في بركة زلزل علي خناق، قد قتل خلقاً كثيراً من الرجال والنساء في دار كان ساكنها، فحمل إلى المعتمد، وأمر بضربه فضرب ألفي سوط وأربعمائة سوط فلم يمت حتى ضرب الجلادون أنثييه بخشب العقابين، فمات، وصلب ببغداد، ثم أحرقت جثته.

سنة ثمان وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه وصل محمد المولد إلى البصرة لقتال الزنج، فنزل الأبلة واجتمع إليه خلق كثير، فبعث إليه صاحب الزنج بعض أصحابه لقتاله، وأمره أن يبيته، ففعل وقاتله نهاراً، فولى المولد منهزماً، وغنم الزنج عسكره، وأسر أربعة عشر رجلاً من الزنج، وأخذ قاضي الزنج فضرب أعناقهم بباب العامة بسامراء.

وعقد المعتمد يوم الاثنين لعشر بقين من ربيع الأول لأخيه أبي أحمد على ديار مضر وقنسرين والعواصم.

وجلس يوم الخميس مستهل ربيع الآخر فخلع عليه، وركب طاهر فشيعه، وظهر بالأهواز، والعراق وباء، وانتشر ذلك إلى حدود فيد، وكان كل يوم يموت ببغداد خمسمائة إلى ستمائة، وكانت هدات كثيرة بالبصرة تساقط منها أكثر المدينة، ومات منها أكثر من عشرين ألف إنسان. وضرب في يوم الخميس لسبع بقين من رمضان رجل يعرف بأبي فقعس قامت عليه البينة أنه يشتم السلف ألفاً وخمسين سوطاً فمات.

وقدم في هذه السنة بسعيد بن أحمد بن مسلم الباهلي، وكان متقدم الباهليين، وكانوا قد طمعوا في البطائح بعد إخراج الزنج منها، وأظهروا فيها الفساد، فقبض على متقدمهم هذا، ونفذ به إلى بغداد فأمر به المعتمد على الله أن يضرب سبعمائة سوط، فضرب وصلب في ربيع الآخر من هذه السنة، فانضم باقي رؤسائهم إلى صاحب الزنج.

وحج بالناس في هذه السنة فضل بن إسحاق بن الحسن.

* * *

سنة تسع وخمسين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه رجع الموفق من حرب الزنج متعللاً بالمرض، فبعث المعتمد موسى بن بغا فشخص من سامراء نحو الزنج وذلك في ذي القعدة، وشيعه المعتمد، وخلع عليه في الطريق، وقامت بينه وبينهم حروب يطول ذكرها في بضعة عشر شهراً، ثم انصرف موسى عن الحرب، ووجه في هذه السنة بجماعة من الزنج أسرى إلى سامراء، فوثبت بهم العامة فقتلوا أكثرهم، ودخل الزنج الأهواز في هذه السنة فقتلوا زهاء خمسين ألفاً. وحج بالناس في هذه الستة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي.

* * *

سنة ستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن قائد الزنج قتل علي بن زيد العلوي صاحب الكوفة.

وفيها: اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام فأجلي عن مكة من كان مجاوراً بها من شدة الغلاء إلى المدينة وغيرها من البلدان، ورحل عنها العامل الذي كان بها، وبلغ كر الحنطة ببغداد خمسين ومائة دينار ودام ذلك شهوراً.

وفيها: أمر مفلح التركي أن تزداد في جامع المنصور الدار المسماة بدار القطان، وكان قديماً ديواناً للمنصور فتقدم مفلح إلى صاحبه القطان ببنائها، وجعلها في الجامع ليصلي فيها، فنسبت إلى القطان.

وحج بالناس في هذه السنة: إبراهيم بن محمد الذي حج بهم في التي قبلها.

* * *

سنة إحدى وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتمد جلس في دار العامة لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال فولى جعفر ابنه العهد وسماه المفوض إلى الله تعالى وولاه المغرب وضم إليه موسى بن بغا وولاه إفريقية، ومصر والشام، والجزائر، والموصل، وأرمينية، وطريق خراسان، ومهرجان قذق، وحلوان. وولى أبا أحمد أخاه العهد بعد جعفر، وولاه المشرق. وضم إليه مسرور البلخي، وولاه بغداد، والسواد، والكوفة، وطريق مكة والمدينة، واليمن، وكسكر، وكور دجلة، والأهواز، وفارس، وأصبهان، وقم، والكرخ، والدينور، والري، وزنجان، وقزوين، وخراسان، وجرجان، وطبرستان، وكرمان، وسجستان، والسند. وعقد لكل واحد منهما لوائين اسود وأبيض، وشرط إن حدث به حدث الموت وجعفر لم يكمل للأمر أن يكون لأبي أحمد، ثم لجعفر، وأخذت البيعة على الناس بذلك، وفرقت نسخ الكتاب بذلك وبعثت نسخة مع الحسن بن محمد بن أبي الشوارب ليعلقها في الكعبة فعقد جعفر المفوض لموسى بن بغا على المغرب في شوال، وسار مسرور البلخي مقدمه لأبي أحمد من سامر السبع بقين من ذي الحجة.

وحج بالناس في هذه السنة الذي حج بهم في التي قبلها.

* * *

سنة اثنتين وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: خرج المعتمد إلى حرب يعقوب بن الليث الصفار، وكان يعقوب قد عصى وتجبر، فعسكر المعتمد يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، واستخلف على سامراء ابنه جعفراً، ثم سار وقدم أخاه أبا أحمد لحربه فجعل أبو أحمد على ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته مسروراً، والتقى العسكران يوم الأحد العاشر من رجب مع الظهر، فشدت ميسرة يعقوب على ميمنة أبي أحمد فهزمتها وقتلت منها جماعة وقتل من أصحاب يعقوب جماعة وكره أصحابه القتال إذ رأوا السلطان قد حضر لقتاله فحملوا على يعقوب، فانهزم أصحابه أقبح هزيمة. وقرئ على الناس كتاب فيه " ولم يزل المارق المسمى يعقوب ابن الليث الصفار ينتحل الطاعة حتى أحدث الأحداث المنكرة من مصيره إلى فارس مرة بعد مرة واستيلائه على أموالها وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مظهر المسألة أمور أجابه أمير المؤمنين فيها إلى ما لم يكن ليستحقه استصلاحاً له فولاه خراسان، والري، وفارس، وقزوين، وزنجان، والشرطة ببغداد، وأمر أن يكنى في كتابه، وأقطعه الضياع النفيسة

فما زاده ذلك إلى طغياناً وبغياً، وأمره بالرجوع فأبى، فنهض أمير المؤمنين لدفع الصفار، ثم غلب يعقوب بن الليث على فارس ثم رجع المعتمد إلى معسكره وعاد إلى المدائن.

وفي هذه السنة: ولي القضاء علي بن محمد بن أبي الشوارب، وولي إسماعيل ابن إسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد، وجمع له الجانبان.

* * *

سنة ثلاث وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان هلك، فاستوزر من الغد الحسين بن مخلد، فقدم موسى بن بغا، فهرب الحسين بن مخلد إلى بغداد، واستوزر مكانه سليمان بن وهب لست خلون من ذي الحجة.

وحج بالناس في هذه السنة: الفضل الذي حج بهم في التي قبلها.

* * *

سنة أربع وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن سليمان بن وهب خرج من بغداد إلى سامراء ومعه الحسن بن وهب، فشيعه عامة القواد، فلما صار بسامراء غضب عليه المعتمد، وحبسه وقيده، وانتهب داره ودار ابنيه: وهب، وإبراهيم، واستوزر الحسن بن مخلد.

وفيها: ولي أبو عمر القاضي قضاء مدينة المنصور، والأعمال المتصلة بها، وجلس في الجامع.

وفيها: دخل الزنج واسطاً، فخلى الناس البلد، وخرجوا عنه حفاةً على وجوههم، وكانوا يدخلون المنازل فيجدونها مفروشة، ومضى الناس وكان يأخذ أحدهم عمامته أو رداءه فيشد بها رجليه ويمشي، وضربت واسط بالنار.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق الكوفي الهاشمي.

* * *

سنة خمس وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الزنج جاءوا في ثلاثين سميرية إلى جبل، فأخذوا منها أربع سفن فيها طعام، ثم انصرفوا، ثم دخلوا النعمانية فأحرقوا سوقها، وأكثرمنازل أهلها، وسبوا، وصاروا إلى جرجرايا، فدخل أهل السواد بغداد.

وفيها: ولي أبو أحمد عمرو بن الليث خراسان، وفارس وأصبهان، وسجستان، وكرمان، والسند، وأشهد له بذلك، ووجه كتابه إليه بتوليته مع الخلع.

وحج بالناس في هذه السنة: هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

سنة ست وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن عمرو بن الليث ولى عبد الله بن طاهر خلافته على الشريط، ببغداد، وسامرا في صفر.

وفيها: وردت سرية من سرايا الروم ديار ربيعة، فقتلت من المسلمين، وأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنساناً وعادت.

وفيها: مات أبو الساج، فولي ابنه محمد الحرمين وطريق مكة.

وفيها: وثب الأعراب على كسوة الكعبة فانتهبوها، وأصر بعضهم إلى صاحب الزنج، وأصحاب الحاج شدة شديدة، ودخل الزنج رامهرمز، فأحرقوا مسجدها، وقتلوا وسبوا، ثم تتابعت الأخبار، فأقبل الموفق بالله لقتال الزنج.

وحج بالناس في هذه السنة هارون الذي حج بهم في السنة التي قبلها.

سنة سبع وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الزنج دخلوا واسطاً، واتصل الخبر بأبي أحمد الموافق، فندب ولده أبا العباس لحربهم، فخرج في عشرة آلاف فبالغ في حربهم، وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً، واستنقذ من النساء اللواتي كن في أيدي الزنج خلقاً كثيراً، فردهن إلى أهلهن، وأقام حتى وافاه أبوه أبو أحمد لحرب الزنج، فحاربهم واستنقذ من المسلمات زهاء خمسة عشر ألف ألف امرأة، فأمر بحملهن إلى واسط ليدفعهن إلى أوليائهن، ثم اجتمع أبو أحمد وولده على قتالهم، وألجؤوهم إلى مدينة قد بنوها وحصنوها، وحفروا حولها الخنادق، ثم أجلوهم عن المدينة، واحتوى أبو أحمد وأصحابه على كل ما كان فيها من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي

وبعث جنداً في طلبهم حتى جاوزوا البطائح، ثم ارتحل أبو أحمد إلى الأهواز، وكتب إلى رئيس الزنج كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، مما ركب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله عز وجل له أهلاً من النبوة والرسالة، وإن نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله عز وجل، ودخل في جماعة المسلمين، يمحي ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظ الجزيل في دنياه.

فلما وصل الكتاب إليه لم يزده ذلك إلا نفوراً وإصراراً، ولم يجب عنه بشيء فسار أبو أحمد بأصحابه، وهم زهاء ثلثمائة ألف إلى مدينته التي سماها المختارة من نهر أبي الخصيب، فرأى من تحصينها بالسور والخنادق، وما قد عور عن الطريق المؤدية إليها، وإعداد المجانيق والعرادات ما لم ير مثله، فأمر أبو أحمد ابنه بالتقدم إلى السور، ورمي من عليه بالسهام، ففعل، ثم نادى بالأمان، ورمى بذلك رقاعاً إلى عسكر القوم، فمالت قلوبهم، فجاء منهم كثير، وعلم أبو أحمد أنه لا بد من المصابرة، فعسكر بالمدينة التي سماها الموفقية، وجهز التجار إليها، واتخذت بها الأسواق.

وقد كانت هذه المدينة انقطعت سبلها بأولئك الأعداء، وبنى أبو أحمد مسجد الجامع، واتخذ دور الضرب، فضربت الدنانير والدراهم، وأدر للناس العطاء. وفي ذي الحجة لست بقين منه: عبر أبو أحمد بنفسه إلى مدينة القوم لحربهم، وكان السبب أن الرؤساء من أصحاب الفاسق لما رأوا ما قد حل بهم من القتل والحصار، مالوا إلى الأمان، وجعلوا يهربون في كل وجه، فوكل الخبيث بطريق الهرب أحراساً، فأرسل جماعة من قواده إلى الموفق يسألونه الأمان، وأن يوجه لمحاربتهم جيشاً ليجدوا إلى المصير إليهم سبيلاً، فأمر أبا العباس بالمصير في جماعة إلى ناحيتهم، فالتقوا فاحتربوا، وظفر أبو العباس وصار إلى القواد الذين طلبوا الأمان، وعبر الموفق بجيشه للمحاربة يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة، وقصد ركناً من أركان المدينة، فغلبوا عليه، ونصبوا عليه علماً، وأحرقوا ما كان على سورهم من منجنيق وعرادة، ثم ثلموا في السور عدة ثلم، ومد جسراً على خندقهم، فعبر الناس فحملوا على الزنج فكشفوهم.

* * *

سنة ثمان وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: استئمان جعفر بن أحمد السجان إلى الموفق يوم الثلاثاء غرة المحرم، وكان هذا السجان أحد ثقات الخبيث الزنجي، فأمر له أبو أحمد بخلع وصلات، فكلم أصحاب الزنجي وقال: إنكم في غرور، وإني قد وقفت على كذب هذا الرجل وفجوره. فاستأمن يومئذ خلق كثير، وما زال الموفق ينظر في كل يوم موضعاً يجلب منه الميرة إلى بلد القوم فيمنعها، حتى ضاق الأمر بهم، حتى أكلوا لحوم الناس، ونبشوا القبور فأكلوا لحوم الموتى، وكان المستأمن منهم يسأل: كم عهدكم بالخبز؟ فيقول: سنة وسنتان، فلما رأى الموفق ما قد جرى عليهم، رأى أن يتابع الإيقاع بهم ليزيدهم بذلك ضراً وجهداً. فخرج إلى الموفق في هذا الوقت في الأمان خلق كثير، واحتاج من كان مقيماً مع أولئك إلى الاحتيال في القوات، فتفرقوا عن معسكرهم إلى القرى والأنهار النائية، فأمر الموفق جماعة من قواده وغلمانه والسودان أن يقصدوا القوم، ويستميلوهم، فمن أبى قتلوه، فواظبوا على ذلك فحصلوا جماعة كثيرة.

* * *

سنة تسع وستين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن الأعراب قطعوا على قافلة الحاج قريباً من سميراء، فاستاقوا نحواً من خمسة آلاف بعير مع أحمالها.

واجتمع في المحرم من هذه السنة كسوف الشمس والقمر، وغابت الشمس منكسفة. ويوم السبت النصف من جمادى الأولى: شخص المعتمد يريد اللحاق بمصر، فأقام يتصيد بالكحيل، فلما صار المعتمد إلى عمل إسحاق بن كنداج، وكان العامل على الموصل وعامة الجزيرة، وكان قد كتب إليه أبو أحمد بالقبض على المعتمد، وعلى قواده، فأظهر أنه معهم، وقد كان قواد المعتمد حذروا المعتمد من المرور به، فأبى وقال: إنما هو غلامي. فلما صار في عمله لقيهم، وصار معهم حتى نزل المعتمد منزلاً قبل وصوله إلى عمل ابن طولون، فلما أصبح ارتحل الأتباع والغلمان الذين مع المعتمد والعسكر، وبقي معه القواد فقال لهم: إنكم قد قربتم من عمل ابن طولون والمقيمين بالرقة من قواد، وأنتم إذا صرتم إلى ابن طولون فالأمر أمره، وأنتم من تحت يده، أفترضون بذلك وقد علمتم إنما هو كواحد منكم.

وجرت بينهم وبينه في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار، ولم يرتحل المعتمد لاشتغال القواد بالمناظرة لبنهم، ولم يجتمع رأيهم على شيء. فقال لهم ابن كنداج: قوموا بنا حتى نتناظر في غير هذا الموضع، وأكرموا مجلس أمير المؤمنين عن ارتفاع الأصوات فيه. فأخذ بأيديهم وأخرجهم من مضرب المعتمد، وأدخلهم مضرب نفسه، لأنه لم يكن بقي مضرب غير مضربه، فلما دخلوا حضر بالقيود، فشد غلمانه عليهم، فقيدوهم ثم مضى إلى المعتمد فعذله في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، وفراقه أخاه على الحال التي هو بها، ثم رده إلى سامراء في شعبان، فخلع على ابن كنداج، وسمي ذا السيفين.

* * *

سنة سبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: وقعة كانت بين أبي أحمد وصاحب الزنج في المحرم، أضعفت أركان صاحب الزنج، واسمه بهبوذ وفي صفر قتل؛ وشرح القصة: أن أبا أحمد ألح على حربه، ورغب الناس في جهاد العدو، وصار معه جماعة من المطوعة، ورتب الناس وأمرهم أن يزحف جميعهم مرة واحدة، وعبر يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرم سنة سبعين، فنصر ومنح أكتاف القوم، فولوا منهزمين، واتبعهم الناس يقتلون ويأسرون، فقتل ما لا يحصى وخربت مدينة الخبيث بأسرها، واستنقذوا ما كان فيها من الأسارى من الرجال والنساء والصبيان، وهرب الخبيث وخواصه إلى موضع قد كان وطأه لنفسه ملجأ إذا غلب على مدينته، فتبعه الناس، فانهزم أصحابه، وغدا أبو أحمد يوم السبت لليلتين خلتا من صفر فسار إلى الفاسق، وكان قد عاد إلى المدينة بعد انصراف الناس، فلقي الناس قواد الفسق فأسروهم، وجاء البشير بقتل الفاسق، ثم جاء رجل معه رأس الفاسق، فسجد الناس شكراً لله تعالى، وأمر أحمد فرفع على قناة فارتفعت أصوات الناس بحمد الله تعالى وشكره، وأمر أبو أحمد أن يكتب إلى أمصار المسلمين بالنداء في أهل البصرة، والأبلة، وكور دجلة، والأهواز وكورها، وأهل واسط، وما حولها مما دخله الزنج بقتل الفاسق، وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم.

وفيها: بنى أحمد بن طولون أربعة أروقة على قبر معاوية بن أبي سفيان وأمر أن يسرج هناك، وأجلس أقواماً معهم المصاحف يقرؤون القرآن.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

* * *

سنة إحدى وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ورود الخبر في غرة صفر بدخول محمد وعلي ابني الحسن ابن جعفر بن موسى بن محمد بن علي بن الحسين المدينة، وقتلهما جماعة من أهلها، ومطالبتهما أهلها بمال، وأن أهل المدينة لم يصلوا في مسجد رسول الله أربع جمع لا جمعة فيها جماعة.

ولثمان بقين من شعبان: شخص صاعد من عسكر أبي أحمد بواسط إلى فارس لحرب عمرو بن الليث.

ولعشر خلون من رمضان: عقد لأحمد بن محمد الطائي على المدينة وطريق مكة.

وفيها: وثب العامة على النصارى، وخربوا الدير العتيق الذي وراء نهر عيسى، وانتهبوا كل ما كان فيه من متاع، وقلعوا الأبواب والخشب، وهدموا بعض حيطانه وسقوفه، ونبشوا الموتى، فصار إليهم الحسين بن إسماعيل صاحب شرطة بغداد من قبل محمد بن طاهر، فمنعهم من هدم ما بقي منه، وكان يتردد إليه أياماً والعامة تجتمع في تلك الأيام حتى كاد يكون بينهم قتال، ثم بنى ما كانت العامة هدمته، وكانت إعادة بنائه فيما ذكر بقوة عبدون بن مخلد النصراني أخي صاعد بن مخلد.

* * *

سنة اثنتين وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن العامة تجمعوا في ربيع الآخر فهدموا ما كان بني من البيعة التي ذكرنا خرابهم إياها في السنة الخالية، وانتهبوا مالاً عظيماً منها؛ لأنهم أنكروا عليهم ركوب الدواب.

وورد الخبر في جمادى الآخرة أن مصر زلزلت زلزالاً أخربت الدور ومسجد الجامع، وأنه أحصي بها في يوم واحد ألف جنازة.

وفيها: تحركت الزنج بواسط، وكان رؤساؤهم في حبس ابن طاهر، فقتل رؤساؤهم وصلبوا.

وفيها: قدم المعتمد بغداد لخمس بقين من شوال، فنزل الزعفرانية ومحمد بن عبد الله بن طاهر بين يديه بالحربة. وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

* * *

سنة ثلاث وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن ثلاثة بنين كانوا لطاغية الروم وثبوا عليه فقتلوه وملكوا أحدهم.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي، وهذه السنة العاشرة من حجه بالناس، ولم يحج بالناس بعد عمر بن الخطاب عشر سنين متتابعة سواه.

سنة أربع وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: شخوص أبي أحمد لحرب عمرو بن الليث في ربيع الأول.

وفيها: غزا يازمان في رمضان وأسر، وغنم، وسلم.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

سنة خمس وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن يازمان غزا في البحر، فأخذ للروم أربعة مراكب.

وفيها: حبس أبو أحمد ابنه أبا العباس، فشغب أصحابه، وحملوا السلاح، وركب غلمانه، واضطربت بغداد لذاك، فركب أبو أحمد حتى بلغ الرصافة، وقال لأصحاب أبي العباس وغلمانه: ما شأنكم، أترونكم أسفق على ابني مني؟ هو ولدي وقد احتجت إلى تقويمه. فانصرفوا وكان ذلك في يوم الثلاثاء لست خلون من شوال.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

سنة ست وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ضم الشرطة في بغداد إلى عمرو بن الليث، وكتب فيها على الأعلام والمطارد والترسة التي تكون في مجلس الشرطة اسمه، وذلك في المحرم ثم طرح ذلك في شوال وأسقط ذكره وفيها: ورد الخبر بانفراج تل بنهر الصراة ويعرف بتل بني شقيق عن شبه حوض من حجر في لوح المسن، عليه كتابة لا يدري ما هي، وفيه سبعة أقبر فيها سبعة أبدان صحيحة، عليها أكفان جدد لينة، لها أهداب تفوح منها رائحة، وفيها رائحة المسك، أحدهم شاب له جمة وجبهته وأذناه وأنفه وشفتاه ورقبته وأشفار عينيه صحاح، وعلى شفته بلل كأنه شرب ماء، وكأنه قد كحل، وبه ضربة في خاصرته، فردت عليه أكفانه وجذب بعض الحاضرين من شعر بعضهم فوجده قوي الأصل كنحو شعر الحي.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد، وكان والياً على مكة، والمدينة، والطائف.

سنة سبع وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه ولي أبو محمد يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد ابن يزيد المظالم بمدينة السلام، فقويت يده، فنادى: من كانت له مظلمة من قبل الأمير الناصر فمن دونه من الناس فليحضر، وظهر من صرامته وقيامه بالأمر ما لم ير مثله.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

* * *

سنة ثمان وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه في المحرم وافى أبو أحمد الموفق من الجبل إلى العراق، فتلقاه الناس بالنهروان، فركب الماء وسار في النهروان، ثم في نهر ديالي، ثم في دجلة، وكان مريضاً بالنقرس، ودخل داره في أوائل صفر، ثم توفي بعد أيام، وطلع لليلتين بقيتا من المحرم كوكب ذو جمة، ثم صارت الجمة ذؤابة، وخلع على عبد الله بن سليمان بن وهب وولي الوزارة.

وفي هذه السنة: غار ماء النيل، وكان شيئاً لم يعهد مثله، ولا بلغ في الأخبار السالفة.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد الهاشمي.

وفيها: وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة وهم الباطنية، وهؤلاء قوم تبعوا طريق الملحدين، وجحدوا الشرائع، وأنا أشير إلى البدايات التي بنوا عليها، ثم إلى الباعث لهم على ما فعلوا من نصب دعوتهم، ثم إلى ألقابهم، ثم إلى مذاهبهم وعلومهم.

فأما البدايات التي بنوا عليها: فإنه لما كان مقصودهم الإلحاد تعلقوا بمذاهب الملحدين مثل: زرادشت، ومزدك، فإنهما كانا ينتحلان المحظورات، وقد سبق في أوائل هذا الكتاب شرح حالهما، وما زال أكثر الناس مع إعراضهم لا يدخلون في حجر يمنعهم إياها، فلما جاء نبينا محمد فقهر الملل وقمع الإلحاد، أجمع جماعة من الثنوية، والمجوس، والملحدين، ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين، فأعلموا آراءهم وقالوا: قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا وتخرقوا على أممهم، وأعظم كل بلية علينا محمد فإنه تبع من العرب الطغام فخدعهم بناموسه، فبذلوا أموالهم وأنفسهم، ونصروه وأخذوا ممالكنا، وقد طالت مدتهم، والآن قد تشاغل أتباعه، فمنهم مقبل على كسب الأموال، ومنهم على تشييد البنيان، ومنهم على الملاهي، وعلماؤهم يتلاعبون، ويكفر بعضهم بعضاً

وقد ضعفت بصائرهم، فنحن نطمع في إبطال دينهم، إلا أنا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم، فليس الطريق إلا إنشاء دعوة في الدين والانتماء إلى فرقة منهم، وليس فيهم فرقة أضعف عقولاً من الرافضة فندخل عليهم، ونذكر ظلم سلفهم الأشراف من آل نبيهم، ودفعهم عن حقهم، وقتلهم، وما جرى عليهم من الذل لنستعين بها، ولا على إبطال دينهم، فتناصروا وتكاتفوا وتوافقوا وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد بن الصادق، وكان لجعفر أولاد منهم: إسماعيل هذا، وكان يقال له: إسماعيل الأعرج.

ثم سول لهم الشيطان آراء ومذاهب وأخذوا بعضها من المجوس، وأخذوا بعضها من الفلاسفة وتخرقوا على أتباعهم، وإنما قصدهم الجحد المطلق، لكنهم لما لم يمكنهم، توسلوا إليه فقد بان لك بما ذكرت. ومن البدايات التي بنوا عليها، والباعث لهم على ما فعلوا من نصب الدعوة.

وأما ألقابهم: فإنهم يسمون الإسماعيلية، والباطنية، والقرامطة، والخرمية، والبابكية، والمحمرة، والسبعية، والتعليمية.

فأما تسميتهم بالاسماعيلية: فانتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر على ما ذكرناه.

وأما تسميتهم بالباطنية: فإنهم ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن، تجري مجرى اللب من القشر، وأنها توهم الأغبياء صوراً، وتفهم الفطناء رموزاً، وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف، واستراح من إعيائه، واستشهدوا بقوله تعالى:{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ } [الأعراف: ١٥٧] قالوا: والجهال بذلك هم المرادون بقوله تعالى:{فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ} [الحديد: ١٣] وغرضهم فيما وضعوا من ذلك: إبطال الشرائع؛ لأنهم إذا صرفوا العقائد عن غير موجب الظاهر فحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين.

وأما تسميتهم بالقرامطة: ففي سبب ذلك ستة أقوال: أحدها: أنهم سموا بذلك؛ لأن أول من أسس لهم هذه المحنة محمد الوراق المقرمط، وكان كوفياً.

والثاني: أن لهم رئيساً من السواد من الأنباط، يلقب، بقرموطويه فنسبوا إليه.

والثالث: أن قرمطاً كان غلاماً لإسماعيل بن جعفر فنسبوا إليه؛ لأنه أحدث لهم كقالاتهم.

والرابع: أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرمية، فلما رحل تسمى قرمط ابن الأشعب، ثم أدخله في مذهبه.

الخامس: أن بعض دعاتهم رجل يقال له: كرمية فلما رحل تسمى باسم ذلك الرجل، ثم خفف الاسم فقيل: قرمط، قال أهل السير: كان ذلك الرجل الداعي من ناحية خوزستان، وكان يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص، ويأكل من كسبه، ويحفظ القوم ما صرموا من نخلهم في حظيرة، ويصلي أكثر الناس، ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطلاً من التمر فيفطر عليه، ويجمع نواه فيدفعه إلى البقال، ثم يحاسبه على ما أخذ منه، ويحط من ذلك ثمن النوى. فسمع التجار الذين صرموا نخلهم فوثبوا عليه وضربوه، وقالوا: لم ترض بأن أكلت التمر حتى بعت النوى. فأخبرهم البقال في الحال، فندموا على ضربه، وسألوه الإحلال، فازداد بذلك نبلاً عند أهل القرية، وكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، ثم أعلم الناس أنه يدعو إلى إمام أهل بيت رسول الله ، ثم مرض ومكث مطروحاً على الطريق، وكان في القرية رجل يحمل على أثوار له، وكان أحمر العينين، وكان أهل القرية يسمونه كرميته لحمرة عينيه، وهو بالنبطية: حار العينين، فكلم البقال كرميته هذا في أن يحمل هذا العليل إلى منزله، ويوصي أهله الإشراف عليه والعناية به، ففعل، فأقام عنده حتى برئ، ثم كان يأوي إلى منزله ودعا أهل القرية إلى أمره فأجابوه، وكان يأخذ من الرجل إذا دخل في دينه ديناراً، ويزعم أنه يأخذ ذلك الإمام، فمكث أهل القرى فيجيبونه، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى دينه، وقال لهم: أنتم كحواري عيسى ابن مريم عليهما السلام، فشغل أكرة تلك الناحية على أعمالهم بما رسمه لهم من الخمسين صلاة التي ذكر أنها فرضت عليهم.

وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع، فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل عن ذلك، فأخبر أن رجلاً قدم عليهم فأظهر لهم مذهباً من الدين، وأعلمهم أن الله عز وجل قد افترض عليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة، وقد اشتغلوا بها فوجه إليه فجيء به، فسأله عن أمره، فأخبره بقصته، وأقفل عليه، وترك المفتاح تحت وسادته، ونام، فرقت له جارية، فأخذت المفتاح، وفتحت وأخرجته، ثم أعادت المفتاح إلى موضعه، فلما أصبح الهيصم فتح الباب، فلم يجده فشاع ذلك الخبر، فعبر به أهل تلك الناحية وقالوا: قد رفع.

ثم ظهر في موضع آخر ولقي جماعة من أصحابه فسألوه عن قصته، فقال: ليس يمكن أحداً أن يؤذيني. ثم خاف على نفسه، وخرج إلى الشام، وتسمى باسم الرجل الذي كان في منزله كرميته، ثم خفف فقيل: قرمط، وفشا أمره وأمر أصحابه، وكان قد لقي صاحب الزنج فقال له: أنا على مذهب ورائي مائة ألف سيف، فناظرني، فإن اتفقنا ملت بمن معي إليك، وإن تكن الأخرى انصرفت، فناظره فاختلفا ففارقه.

السادس: أنهم لقبوا بهذا نسبة إلى رجل من دعاتهم يقال له: حمدان بن قرمط، وكان حمدان هذا من أهل الكوفة يميل إلى الزهد، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريق، وهو متوجه إلى قرية، وبين يديه بقر يسوقها، فقال حمدان لذلك الداعي وهو لا يعرفه: أين تقصد؟ فسمى قرية حمدان، فقال له: اركب بقرة من هذه البقر لتستريح من المشي. فقال: إني لم أؤمر بذلك، قال: كأنك لا تعمل إلا بأمر؟ قال: نعم! فقال حمدان: وبأمر من تعمل؟ قال: بأمر مالكي ومالكك، ومالك الدنيا والآخرة، فقال: ذلك الله عز وجل، قال: صدقت قال: وما غرضك في هذه البقعة؟ قال: أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، وأستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم ما لا يستغنون به من التعب والكد، فقال له حمدان: أنقذني أنقذك الله، وأفض علي من العلم ما تحييني به، فما أشد حاجتي إلى ذلك؛ فقال: ما أمرت أن أخرج السر المكنون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به، والعهد إليه، فقال له: فاذكر عهدك، فإني ملتزم به. فقال: أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه أن لا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك ولا تفشي سري أيضاً. فالتزم حمدان عهده، ثم اندفع الداعي في تعليمه فنون جهل، حتى استدرجه واستغواه واستجاب له في جميع ما دعاه إليه، ثم انتدب للدعوة، وصار أصلاً من أصول هذه البدعة فسمى أتباعه القرمطية.

وأما تسميتهم بالخرمية: فإن خرم لفظ أعجمي ينبئ عن الشيء المستلذ الذي يشتهيه الآدمي، وكان هذا لقباً للمزدكية وهم أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قباذ على ما ذكرنا، فأباحوا المحظورات فلقب هؤلاء بلقب أولئك لمشابهتهم وإياهم في اعتقادهم ومذهبهم.

وأما تسميتهم بالبابكية: فإن طائفة منهم تبعوا بابك الخرمي، وكان قد خرج في ناحية آذربيجان في أيام المعتصم واستفحل، فبعث إليه المعتصم الأفشين فتخاذل عن قتاله، وأضمر موافقته في ضلاله فاشتدت وطأة البابكية على المسلمين، إلى أن أخذ بابك وقتل على ما سبق شرحه.

وقد بقي من البابكية جماعة يقال إن لهم في كل سنة ليلة يجتمع فيها رجالهم ونساؤهم، فيطفؤون المصابيح، ويتناهبون النساء، ويزعمون أن من أخذ امرأة استحلها بالاصطياد.

فأما تسميتهم بالمحمرة: فيذكر عنهم أنهم صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك، وكانت شعارهم.

وأما تسميتهم بالسبعية: فإنهم زعموا أن الكواكب السبعة مدبرة للعالم السفلي.

وأما تسميتهم بالتعليمية: فإن مبدأ مذاهبهم إبطال الرأي، وإفساد تصرف العقل، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم، وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم.

سنة تسع وسبعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن السلطان أمر أن ينادى ببغداد أن لا يقعد على الطريق، ولا في مسجد الجامع قاص، ولا صاحب النجوم، ولا زاجر، وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة.

وفي هذه السنة: خلع جعفر المفوض من العهد لثمان بقين من المحرم، وفي ذلك اليوم بويع المعتضد بولاية العهد بأنه ولي العهد من بعد المعتمد، وانتشرت الكتب بخلع جعفر، وتولية المعتضد، ونفذت إلى البلدان، وخطب للمعتضد، ونفذت إلى البلدان، وخطب للمعتضد بولاية العهد، وأنشئت عن المعتضد كتب إلى العمال، بأن أمير المؤمنين ولاه العهد، وجعل إليه ما كان الموفق يليه من الأمر والنهي والولاية والعزل.

وفي هذه السنة توفي المعتمد وبويع المعتضد.

باب ذكر خلافة المعتضد بالله

واسمه: أحمد بن أبي أحمد الموفق بالله، واسم أبي أحمد: محمد وقيل: طلحة بن جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد، ويكنى: أبا العباس، وأمه أم ولد.

قال الصولي: كان اسمها ضرار، ثم سميت: تحقين، وتوفيت قبل خلافته بيسير، وكان مولده بسر من رأى سنة ثلاث وأربعين ومائتين. وقيل: اثنتين وأربعين ومائتين وكان أسمر، نحيف الجسم، معتدل الخلق، وقد وخطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي مقدم رأسه شامة بيضاء، وكان نقش خاتمه " حامده أحمد يؤمن بالله الواحد " وكان له من الولد علي المكتفي، ومحمد القاهر، وجعفر المقتدر.

سنة ثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتضد أخذ محمد بن الحسن بن سهل المعروف بشيلمة، وكان شيلمة مع صاحب الزنج إلى آخر أيامه، ثم لحق بأبي أحمد في الأمان، فرفع عنه إلى المعتضد أنه يدعو إلى رجل لم يوقف على اسمه، وأنه قد أفسد جماعة، فأخذ المعتضد فقرره، فلم يقر، وسأله عن الرجل الذي يدعو إليه فقال: لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه فقتله وصلبه لسبع خلون من المحرم.

ولليلة خلت من صفر شخص المعتضد من بغداد يريد بني شيبان، فقصد الموضع الذي كانوا يتخذونه معقلاً، فأوقع بهم، وقتل وسبى وعاد، وكان معه دليل طيب الصوت، وكان يأمره أن يحدو به، فأشرف على جبل يقال له نوباذ فتغرغرت عين المعتضد وقال: ما سلم أحد من الحدثان! ودخل بيوت الأعراب في عدة قليلة، فلحقه بدر فقال: لو عرفك الأعراب وأقدموا عليك كيف كانت تكون حالك؟ فقال: لو عرفوني تفرقوا أما علمت أن الرصافية وحدها عشرون ألفاً.

واصطفى المعتضد من الأعراب عجوزاً فصيحة، فجاءت يوماً فجلست فقال لها الحاجب: قومي إلى أن نأمرك تجلسين بين يدي أمير المؤمنين! فقالت: أنت لم تعرفني ما أعمل؟ ثم قامت فتغافل عنها المعتضد، فقالت: أقيام إلى الأبد فمتى ينقضي الأمد! فضحك، وأمرها بالجلوس.

* * *

سنة إحدى وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المسلمين دخلوا بلاد الروم، ففتحوا بعضها، ثم عادوا فغزوهم فغنموا وظفروا.

وفيها: غارت المياه بالري، وطبرستان، وأصاب الناس بعد ذلك جهد جهيد، وقحط حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وأكل إنسان منهم ابنته.

ولليلتين خلتا من رجب شخص المعتضد إلى الجبل، فقصد ناحية الدينور، وولى أبا محمد علي بن المعتضد الري، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، وهمذان، والدينور، وقلد عمر بن عبد العزيز بن أبي دلف أصبهان، ونهاوند، والكرخ، وتعجل المعتضد الانصراف من أجل غلاء الأسعار، وقلة الميرة، فوافى المعتضد بالله بغداد يوم الأربعاء لست خلون من رمضان.

ولست بقين من ذي القعدة: خرج المعتضد إلى الموصل عامداً لحمدان بن حمدون، وذلك أنه بلغه أنه مال إلى هارون الشاري، ودعا له فلما صار المعتضد بالله بنواحي الموصل كتب إلى إسحاق بن أيوب وإلى حمدان أن يتلقاه فأسرع إسحاق، وتحصن حمدان في قلاعه. وورد كتاب المعتضد يذكر أن الله نصره على الأكراد، والأعراب، فقتل منهم خلقاً كثيراً.

ثم خرج المعتضد عامداً لقلعة ماردين، وكانت في يد حمدان، فهرب وخلف ابنه بها فنزل المعتضد عليها، وحاربهم من فيها يومهم، فلما كان من الغد ركب المعتضد وصعد القلعة، حتى قرب من الباب ثم صاح: يا ابن حمدان فأجابه فقال: افتح الباب. ففتحه فقعد المعتضد في الباب، ونقل ما في القلعة، ثم أمر بهدمها فهدمت. وحمل خمارويه بن أحمد ابنته إلى المعتضد، وقد كان المعتضد تزوجها في آخر رمضان هذه السنة، بعثها مع ابن الجصاص، وبعث معه بعد كل شيء عمله مائة ألف دينار، وقال: لعل بالعراق ما نحتاج إليه مما ليس عندنا فاشتر شيئاً إن أردت بهذه فأخذها إليه فاشترى منها شيئاً.

* * *

سنة اثنتين وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتضد أمر بإنشاء الكتب إلى العمال في النواحي بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك اليوم إلى الحادي عشر من حزيران، وسمى ذلك النيروز المعتضدي، فأنشئت الكتب بذلك من الموصل، والمعتضد بها، وإنما أراد الترفيه على الناس والرفق بهم. وفي هذه السنة: قدم ابن الجصاص من مصر ببنت أبي الجيش خمارويه بن أحمد لالتي يزوجها المعتضد، ومعها أحد عمومتها، وكان دخوله بغداد يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم، وأدخلت الحرة ليلة الأحد، فنزلت في دار صاعد، وكان معتضد غائباً بالموصل ثم نقلت إلى المعتضد لأربع خلون من ربيع الأول، فنودي بجانبي بغداد أن لا يعبر أحد دجلة في يوم الأحد، وغلقت أبواب الدروب التي يلين الشط، ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع، ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس أن يظهر في دورهم على الشط، فلما صليت العتمة وافت سفينة من دار المعتضد فيها خدم، معهم الشمع، فوقفت بإزاء دار صاعد، وكانت قد أعدت أربع حراقات شدت مع دارصاعد، فلما جاءت تلك السفينة أحدرت الحراقات وصارت تلك السفينة بين أيديهم، وأقامت الحرة يوم الاثنين في دار المعتضد، وجليت عليه يوم الثلاثاء لخمس خلون من ربيع الأول.

سنة ثلاث وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: شخوص المعتضد لثلاث عشرة بقيت من المحرم بسبب هارون الشاري إلى ناحية الموصل، فظفر به، وكان سبب ظفره: أنه وجه الحسين ابن حمدان إليه في جماعة، فقال الحسين: إن أنا جئت به يا أمير المؤمنين في ثلاث حوائج. قال: اذكرها! قال: أولها إطلاق أبي، وحاجتان أسألهما بعدمجيء به إليك. فقال المعتضد: لك ذلك فامض! فمضى فجاء به، فخلع المعتضد عليه وطوقه بطوق من ذهب، وأمر بحل قيود أبيه إلى أن يقدم فيطلقه، وكتب المعتضد إلى بغداد بالظفر.

وفي هذه السنة: خرج عمرو بن الليث من نيسابور فخالفه رافع بن هرثمة إليها، فدخلها وخطب بها لمحمد بن زيد الطالبي، وأبيه، فقال: اللهم أصلح الداعي إلى الحق. فرجع عمرو إلى نيسابور فعسكر خارج المدينة وخندق على عسكره لعشر خلون من ربيع الآخر، فناظر أهل نيسابور ثم تواقعا فهزم رافعاً ثم جاء الخبر بقتله.

ولعشر بقين من جمادى الأولى أمر المعتضد بالكتاب إلى جميع النواحي برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام، فنفذت الكتب بذلك، وقرئت الناس، وكان السبب في ذلك أنه استفتى القضاة في ذلك، فكتب أبو خازم القاضي، وعلي بن محمد بن أبي الشوارب بردها على ذوي الأرحام فصدرت الكتب بذلك وذكرا أنه اتفاق الصحابة عمر وعلي وابن مسعود وغيرهم، وإنما خالفهم زيد بن ثابت، فإنه رأى ردها إلى بيت المال، ولم يتابعه أحد على ذلك، وأفتى يوسف بن يعقوب بقول زيد، فأمر المعتضد بالعمل بما كتب به أبو خازم والإعراض عن فتيا يوسف، وكتب بذلك إلى الآفاق.

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة شخص الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب إلى الجبل لحرب ابن أبي دلف بأصبهان فاستأمنه، فأمنه فصار إليه فقدم به فجلس له المعتضد، وخلع عليه.

* * *

سنة أربع وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: قدوم رسول عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة في يوم الخميس لأربع بقين من المحرم على المعتضد، فأمر بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر، ثم أمر بتحويله إلى الجانب الغربي، ونصبه هناك إلى الليل.

وفي يوم الخميس لأربع عشرة خلت من ربيع الأول: خلع على أبي عمر محمد ابن يوسف بن يعقوب، وقلد قضاء مدينة أبي جعفر، مكان علي بن محمد بن أبي الشوارب، وقعد للخصوم في الجامع، ومكثت مدينة المنصور من لدن مات ابن أبي الشوارب، إلى أن وليها أبو عمر بغير قاض، وذلك خمسة أشهر وأربعة أيام.

سنة خمس وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: خروج صالح بن مدرك الطائي على الحاج بالأجفر يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من المحرم، فأخذ الأموال والتجارات والنساء والحرائر والمماليك، وذكر أنه أخذ من الناس ألفي ألف دينار.

ولسبع بقين من المحرم قرئ على جماعة من حاج خراسان في دار المعتضد كتاب بتولية عمرو بن الليث الصفار ما وراء النهر - نهر بلخ - وعزل أحمد بن إسماعيل.

سنة ست وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ورود الخبر في ربيع الآخر أن المعتضد وصل إلى آمد، فأناخ بجنده عليها، وحاصرها، ونصب المجانيق عليها واقتتلوا، فبعث رئيسها يطلب الأمان فأمنه، فخرج إليه فخلع عليه، ووصل رسول من هارون بن خمارويه إلى المعتضد وهو بآمد يخبره أنه قد بذل أنه إن سلمت إليه أعمال قنسرين والعواصم حمل إلى بيت المال في كل سنة أربعمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار وأنه يسأل أن يجدد له ولاية مصر والشام، فأجيب إلى ذلك، فأقام المعتضد بآمد بقية جمادى الأولى وعشرين يوماً من جمادى الآخرة، ثم ارتحل عنها، وأمر بهدم سورها، فهدم بعضه ولم يقدر على هدم الباقي.

سنة سبع وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن المعتضد دخل من متنزهه ببراز الروز إلى بغداد وأمر ببناء قصر في موضع اختاره من براز الروز، فحملت إليه الآلات، وابتدئ بعمله.

وفي شهر ربيع الأول غلظ أمر القرامطة بالبحرين، وأغاروا على نواحي هجر، وقرب بعضهم من نواحي البصرة فوجه أمير المؤمنين المعتضد إليهم جيشاً.

وفي شهر ربيع الآخر ولى المعتضد عباس بن عمرو الغنوي اليمامة والبحرين، ومحاربة أبي سعيد القرمطي، وضم إليه زهاء ألفي رجل، فسار نحو القرامطة فاقتتلوا، فأسر العباس، وقتل أصحابه، فانزعج أهل البصرة وهموا بالجلاء عنها ثم أطلق العباس.

ومن العجائب أنه كان مع العباس عشرة آلاف في محاربة أبي سعيد القرمطي فقبض عليهم أبو سعيد فنجا العباس وحده وقتل الباقون، وأن عمرو بن الليث مضى في خمسين ألفاً إلى محاربة إسماعيل بن أحمد، فأخذ هو ونجا الباقون.

ولإحدى عشرة ليلة خلت من رجب، ولي حامد بن العباس الخراج والضياع بفارس، وكانت في يد عمرو بن الليث، ودفعت كتبه بالولاية إلى أخيه أحمد بن العباس، وكان حامد مقيماً بواسط لأنه كان يليها.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عباد بن داود.

* * *

سنة ثمان وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: ورود الخبر بوقوع الوباء بأذربيجان، فمات به خلق كثير إلى أن فقد الناس ما يكفنون به الموتى، وكفنوا في الأكيسة والجلود واللبود ثم صاروا إلى أن لم يجدوا من يدفن الموتى، فكانوا يتركونهم في الطريق على حالهم.

وفيها: غزا نزار بن محمد عامل الحسن بن علي على كورة الصائفة، ففتح حصوناً كثيرة للروم، وأدخل طرسوس مائة علج ونيفاً وستين علجاً من الشمامسة وصلباناً كثيرة وأعلاماً.

ولا ثنتي عشرة خلت من ذي الحجة وردت كتب التجار من الرقة أن الروم قد وافوا في مراكب كثيرة، وجاء منهم قوم على الظهر إلى ناحية كيسوم، فاستاقوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألف إنسان، ما بين رجل وصبي، فمضوا بهم وأخذوا فيهم قوماً من أهل الذمة.

سنة تسع وثمانين ومائتين

فمن الحوادث فيها: انتشار القرامطة بسواد الكوفة، فوقع بعض العمال بجماعة منهم وبعث رئيساً لهم إلى المعتضد، فأمر به فقلعت أضراسه، ثم خلعت عظام يده، ثم قطعت يداه ورجلاه، وقتل، وصلب.

باب ذكر خلافة المكتفي بالله

واسمه علي بن المعتضد، ويكنى أبا محمد، وليس في الخلفاء من يكنى أبا محمد إلا الحسن بن علي وموسى الهادي، والمكتفي، والمستضيء بأمر الله، ولا من اسمه علي غير بن أبي طالب ☺ والمكتفي.

ولد في رجب سنة أربع وستين، وكان المعتضد لما اشتدت علته أمر بأخذ البيعة لابنه علي بالخلافة من بعده، فأخذت البيعة بذلك على الناس ببغداد. في عشية يوم الجمعة لإحدى عشرة بقيت من ربيع الآخر من هذه السنة قبل موت المعتضد بأربعة أيام، ثم جددت له البيعة صبيحة الليلة التي مات المعتضد فيها، وكان المكتفي بالرقة، فلما بلغه الخبر أخذ البيعة على من عنده، ثم انحدر إلى بغداد.

سنة تسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه ورد كتاب من الرقة يذكر فيه أن يحيى بن زكرويه بن مهرويه، المكنى بأبي القاسم، المعروف بالشيخ - وكان من دعاة القرامطة - وافى الرقة في جمع كثير، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان، فهزمهم، وقتل رئيسهم.

وورد الخبر أن جيشاً خرجوا من دمشق إلى القرمطي، فهزمهم وقتل رئيسهم، فوجه أبو الأغر لحرب القرمطي في عشرة آلاف.

ولعشر بقين من جمادى الآخرة خرج المكتفي بعد العصر عامداً إلى سامرا يريد البناء بها، للانتقال إليها، فدخلها يوم الخميس لخمس بقين من جمادى، ثم انصرف إلى مضارب ضربت له بالجوسق، فدعا القاسم بن عبيد الله والقوام بالبناء فقدروا له ما يحتاج إليه من المال، وأكثروا عليه، وطولوا مدة الفراغ، وجعل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك فثناه عن عزمه فعاد.

ووقع ثلج ببغداد يوم الرابع والعشرين من كانون الثاني منذ أول النهار إلى العصر.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد.

سنة إحدى وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: وقعة بين أصحاب السلطان وبين القرامطة فهزموا القرامطة وأسروا وقتلوا، وتفرق الباقون في البوادي، وتبعهم أصحاب السلطان، ثم وقعوا بالقرمطي، فأخذوه، وكان يقال له صاحب الشامة، فحمل إلى الرقة ظاهراً للناس وعليه برنس، ثم إن المكتفي رحل إلى بغداد، وحمل معه القرمطي في أول صفر فعزم أن يصلب القرمطي على دقل، ويجعل الدقل على ظهر فيل، فأمر بهدم طاقات الأبواب لئلا ترده.

ثم استسمح فعل ذلك، ثم جعل له كرسياً ارتفاعه ذراعان ونصف على ظهر الفيل، ودخل المكتفي إلى بغداد والأسرى بين يديه مقيدون، ورئيس القوم قد جعل في فيه خشبة مخروطة، وشدت إلى قفاه كهيئة اللجام، وأمر المكتفي ببناء دكة في المصلى العتيق من الجانب الشرقي ارتفاعها عشرة أذرع، وبني لها درج فلما كان يوم الاثنين لسبع بقين من ربيع الأول أمر المكتفي القواد والغلمان بحضور الدكة، فحضر الناس وجيء بالأسارى وهم يزيدون على ثلثمائة، وجيء بالقرمطي الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة فصعد به إلى الدكة، وقدم له أربعة وثلاثون إنساناً من الأسارى، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وضربت أعناقهم واحداً بعد واحد، ثم قدم كبيرهم فضرب مائتي سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وكوي، ثم أحرق ورفع رأسه على خشبة، ثم قتل الباقون، وصلب بدن القرمطي في طرف الجسر الأعلى.

ولثلاث بقين من رجب قرئ كتاب من خراسان يذكر فيه: أن الترك قصدوا المسلمين في جيش عظيم، وكان في عسكرهم سبعمائة قبة تركية، ولا يكون ذلك إلا للرؤساء منهم، فخرج من المسلمين خلق كثير فكبسوهم مع الصبح، وانهزم الباقون.

* * *

سنة اثنتين وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: الفداء بين المسلمين والروم، وكانت جملة من فودي به من المسلمين ألفاً ومائتي نفس، ثم غدر الروم فانصرفوا، ورجع المسلمون بمن بقي معهم من الأسارى للروم.

وخرج محمد بن سليمان إلى مصر، فزحف هارون بن خمارويه لقتال محمد بن سليمان، فدخل محمد الفسطاط، وأخذ آل طولون، وكانوا بضعة عشر رجلاً فقتلهم وحبسهم، واحتوى على دورهم، وجبى الخراج.

وزادت في هذه السنة دجلة زيادة مفرطة فانهدمت المنازل على شاطئيها من الجانبين، ونبعت المياه من المواضع القريبة منها.

وطلع كوكب الذنب وقت المغرب لعشر خلون من رجب في آخر برج الحوت.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن العباس بن محمد.

سنة ثلاث وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر أن أخا الحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ظهر بالدالية من طريق الفرات، واجتمع إليه جماعة من الأعراب والمتلصصة، وانه قد عاث بتلك الناحية، وحارب أهلها، فخرج إليه الجند. ثم ورد الخبر أنه صار إلى طبرية، فامتنعوا من إدخاله، فحاربهم حتى دخلها فقتل عامة من بها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية.

وفي شهر ربيع الآخر ورد الخبر بأن الداعية الذي بنواحي اليمن صار إلى مدينة صنعاء، فحاربه أهلها، فظفر بهم فقتلهم إلا القليل وتغلب على سائل مدن اليمن.

ثم نبغ قوم من القرامطة فنهبوا بلد هيت، وقتلوا خلقاً من أهلها، وأخذوا ما قدروا عليه من المال، وأوقروا ثلاثة آلاف راحلة، فبعث السلطان إليهم فتفرقوا، وجاؤوا برأس رئيسهم فسلموا. ثم نبغ منهم آخرون وجرت لهم حروب، ودخلوا الكوفة حين انصرف الناس من صلاة عيد الأضحى وهم ثماني مائة فارس، ونادوا: يالثارات الحسين - يعنون الحسين بن زكرويه المصلوب على الجسر - وشعارهم يا أحمد يا محمد - يعنون المقتولين معه - وأظهروا الأعلام البيض، فقتلوا من أدركوا، وسلبوا، وبادر الناس إلى المدينة، فدخلوها ودخل من القرامطة خلفهم نحو من خمسمائة، فرماهم العوام بالحجارة وألقوا عليهم الستر فخرجوا بعد أن قتل منهم نحو من عشرين.

ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طوله خمس وعشرون ذراعاً، على كل ذراع علامة مدورة، وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة، مكتوب عليها بحديدة علامة الأذرع تعرف بها مبالغ الزيادات.

وضمن محمد بن جعفر بادوريا بعشرة آلاف كر حنطة وشعير نصفان وبألف ألف وستمائة ألف درهم.

وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

سنة أربع وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أن القرامطة اعترضوا قافلة الحاج في طريق مكة بالعقبة فقتلوهم وسبوا من النساء ما أرادوا واحتووا على ما في القافلة، فأخذوا ما قيمته ألفي دينار، فلما ورد الخبر على السلطان أشخص أبا عبد الله محمد بن داود الهاشمي الكاتب إلى الكوفة لتسريح الجيوش منها إلى القرمطي لحربه فأعطى مالاً كثيراً ليفرقه في الجند ومعه محمد بن سعيد الأزرق كاتب الجيش، ثم صار القرمطي إلى الشقوق، فأقام بها بموضع يعرف بالطليح ينتظر القافلة الأخرى، فلما وافته لقيهم بالهبير فحاربوه يومهم إلى الليل، ثم انصرف عنهم، فلما أصبح عاودهم القتال، فلما كان في اليوم الثالث عطش أهل القافلة وهم على غير ماء فاقتتلوا ثم استسلموا، فوضع فيهم السيف فلم يفلت إلا اليسير منهم وأخذوا جميع ما في القافلة.

فأرسل السلطان من بني شيبان ألفين ومائتي فارس إلى القرمطي لحربه، وسار زكرويه إلى فيد وراسل أهلها فلم يظفر منهم بشيء، فتنحى إلى النباج، ثم إلى حفر أبي موسى، ثم أنهض المكتفي وصيف بن صوارتكين ومعه جماعة من القواد، فنفذوا من القادسية على طريق خفان فلقيهم وصيف يوم السبت لثمان بقين من ربيع الأول، فاقتتلوا يومهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وخلصوا إلى زكرويه فضرب بالسيف ضربة خالطت دماغه، وأسروا جماعة من أهله وأصحابه، وعاش خمسة أيام ثم مات، فشق بطنه وقدم به والأسارى فقتلوا.

سنة خمس وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: المفاداة بين المسلمين والروم أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز، أخبرنا أبو بكر بن ثابت الخطيب، قال: فودي من الرجال والنساء في سنة خمس وتسعين ومائتين ثلاثة آلاف نفس.

وفي ذي القعدة من هذه السنة توفي المكتفي بالله، وبويع المقتدر بالله.

ذكر خلافة المقتدر بالله

اسمه جعفر بن المعتضد بالله، ويكنى أبا الفضل، وأمه أم ولد يقال لها شغب أدركت خلافته وسميت السيدة، وكانت لأم القاسم بنت محمد بن عبد الله بن طاهر فاشتراها منها المعتضد.

ولد ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وقيل: ولد يوم الجمعة وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، جميل الوجه، أبيض مشرباً بالحمرة، حسن الخلق، حسن العينين، بعيد ما بين المنكبين، جعد الشعر، مدور الوجه، كثير الشيب في رأسه، أخذ في عارضيه أخذاً كثيراً.

ذكر بيعة المقتدر ولما اشتدت علة المكتفي في ذي القعدة سنة خمس وتسعين، سأل عن أخيه أبي الفضل جعفر، فصح عنده أنه بالغ فأحضر في يوم، الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة القضاة فأشهدهم أنه قد جعل العهد إليه، وبويع بالخلافة بعد وفاة المكتفي سحر يوم الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة من هذه السنة. ولما أراد الجلوس للبيعة صلى أربع ركعات، وما زال يرفع صوته بالدعاء والاستخارة فبويع ولقب المقتدر بالله وهو ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وعشرين يوماً ولم يكن ولي الخلافة قبله أحد أصغر منه.

* * *

سنة ست وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: اجتماع جماعة القواد والكتاب والقضاة على خلع المقتدر بالله، وتناظرهم فيمن يجعل مكانه، فاجتمع رأيهم على عبد الله بن المعتز، فأجابهم إلى ذلك على أن لا يكون في ذلك سفك دم، فأخبروه أن الأمر يسلم إليه عفواً، وأن جميع من وراءهم من القواد والجند قد رضوا به، فبايعهم على ذلك، فأصبحوا وقد خلعوا المقتدر بالله، وبايعوا ابن المعتز.

ذكر ثابت بن سنان في تاريخ، قال: كانت فتنة عبد الله بن المعتز بالله في شهر ربيع الأول، لأن التدبير وقع من محمد بن داود بن الجراح مع الحسين بن حمدان على إزالة المقتدر بالله، ونصب ابن المعتز بالله، فواطأ على ذلك جماعة من الكتاب والقواد والقضاة، فلما كان يوم السبت لعشر بقين من ربيع الأول أوقع الحسين بن حمدان بالوزير أبي أحمد العباس، وهو على دابته عند انصرافه من دار الخلافة فقتله، وكان إلى جانبه فاتك المعتضدي يسايره، فصاح بالحسين منكراً عليه، فعطف عليه الحسين فقتله، ووقع الاضطراب وركض الحسين بن حمدان قاصداً إلى الحلبة مقدراً أن يفتك بالمقتدر بالله لأنه كان قد عرف أنه قد خرج إليها ليضرب بالصوالجة، فلما سمع المقتدر الضجة بادر بالدخول إلى داره فأغلقت الأبواب، فانصرف الحسين إلى الدار بالمخرم المعروفة بسليمان بن وهب

وبعث إلى عبد الله ابن المعتز يعرفه تمام الأمر وانتظامه، فنزل عبد الله بن المعتز من دار إبراهيم بن أحمد المادرائي الراكبة للصراة ودجلة، وعبر إلى دار المخرم، وحضر القواد والجند والقضاة ووجوه أهل بغداد سوى أبي الحسن بن الفرات، وخواص المقتدر، فبايعوا عبد الله، وخوطب بالخلافة ولقب بالمرتضي بالله. وقال الصولي: المنتصف بالله واستوزر أبا عبد الله محمد بن داود الجراح، ووجه إلى المقتدر يأمره بالانصراف إلى دار عبد الله بن طاهر لينتقل هو إلى دار الخلافة، فقاتله من فيها من الخدم والغلمان، ودفعوه فانصرف، فحمل ما قدر عليه من ماله ومتاعه وحرمه، وسار إلى الموصل، فقالت الجماعة الذين سمعوا رسالة ابن المعتز بالله إلى المقتدر بالانصراف إلى دار ابن طاهر؛ يا قوم نسلم أنفسنا هكذا! لولا نتجرد فيما قد أظلنا لعل الله تعالى يكشفه عنا فلبسوا الجواشن، وأصعدوا إلى المخرم، فهرب الناس من بين أيديهم، وخرج ابن المعتز قاصداً سرمن رأى ليتم هناك أمره، فلم يتبعه أحد فدخل إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص، واستجار به، ووقع النهب والغارة ببغداد، ووجه المقتدر بالله فقبض على أصحاب ابن المعتز بالله واعتقلهم وقتل أكثرهم.

* * *

سنة سبع وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: غزو القاسم بن سيما الصائفة، وتم الفداء في بلد الروم على يدي مؤنس الخادم، وتأخرت الأمطار في هذه السنة، وزاد السعر.

قال ثابت بن سنان المؤرخ: ورأيت في صدر أيام المقتدر ببغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين، وكان لها كفان بأصابع تامة متعلقان في رأس كتفيها لا تعمل بهما شيئاً، وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها ورأسها تغزل برجليها وتمد الطاقة وتسويها وتسرح امرأة وتغلفها برجليها ورأيت امرأة أخرى بعضدين وذراعين وكفين إلا أن كل واحد من الكفين ينخرط ويدق إذا فارق الزندين حتى ينتهي إلى رأس دقيق يمتد فيصير إصبعاً واحدة، وكذلك رجليها على هذه الصورة، ومعها ابنة لها على مثل صورتها.

وفي هذه السنة تولى القاسم بن سيما غزاة الصائفة، وورد الخبر أن أركان البيت غرقت من السيول، وأن زمزم فاضت ولم ير ذلك قبلها. وحج بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

* * *

سنة ثمان وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه قدم القاسم بن سيما من غزوة أرض الروم الصائفة ومعه خلق كثير من الأسارى، وخمسون علجاً قد شهروا على الجمال، بأيدي بعضهم أعلام الروم، عليها صلبان من ذهب وفضة.

وفيها: فلج القاضي عبد الله بن علي بن أبي الشوارب، فقلد مكانه ابنه محمد.

سنة تسع وتسعين ومائتين

فمن الحوادث فيها: أنه ظهرت ثلاثة كواكب مذنبة. ظهر أحدها ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في برج الأسد، وظهر الثاني في ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة في المشرق، وظهر الثالث ليلة الأربعاء لعشر بقين من ذي القعدة في برج العقرب، وبقيت أياماً ثم اضمحلت.

وغضب الخليفة على علي بن محمد بن الفرات لأربع خلون من ذي الحجة، وحبس ووكل بدوره، وأخذ كل ما وجد له ولأهله وأصحابه، وانتهبت دورهم اقبح نهب، وادعى عليه أنه كتب إلى الأعراب أن يكبسوا بغداد، واستوزر أبو علي محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وكان قد ضمن لأم ولد المعتضد بالله مائة ألف دينار فعملت في توليته.

وورد الخبر من فارس بطاعون حدث فيها مات فيه سبعة آلاف إنسان، ووردت أربع أحمال مال من مصر، وقيل: إنه وجد هناك كنز قديم، وكان معه ضلع انسان طوله أربعة عشر شبراً في عرض شبر، زعموا أنه من قوم عاد، وكان مبلغ المال خمسمائة ألف دينار، وكان معها هدايا عجيبة فذكر الصولي أنه كان في الهدايا تيس له ضرع يحلب اللبن.

ووردت رسل أحمد بن إسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر، وتاج من ذهب مرصعة فيها شمامات مسك، وعنبر كله مرصع، وعشرة أفراس بسروجها ولأحدها سرج ذهب.

ووردت هدايا ابن أبي الساج، أربعمائة دابة، وثمانون ألف دينار، وفرش أرمني لم ير مثله، فيه بساط طوله سبعون ذراعاً في عرض ستين ذراعاً عمل في عشر سنين لا قيمة له.

وورد الخبر من فارس بطاعون حدث فيها مات فيه سبعة آلاف إنسان.

وفي هذه السنة حج بالناس الفضل بعبد الملك وورد ورقاء بن محمد بن ورقاء ابن محمد بن ورقاء الشيباني، ومعه أسرى من الأعراب كل منهم كان يعني السلطان، وأصلح الطريق بأخذهم.

سنة ثلثمائة

فمن الحوادث فيها: خروج خارجي بالمغرب فنصر عليه وبعث بأعلام من أعلامه وآذان وآناف في خيوط.

وفي هذه السنة صلب الحسين بن منصور الحلاج وهو حي في الجانب الشرقي في يوم الأربعاء والخميس، وفي الغربي يوم الجمعة والسبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر.

وورد الخبر بانخساف جبل بالدينور يعرف بالتل، وخروج ماء كثير من تحته أغرق عدة من القرى.

ووصل الخبر بانخساف قطعة عظيمة من جبل لبنان وسقوطها في البحر.

وورد كتاب من صاحب البريد يذكر أن بغلة وضعت فلوة.

وفيها كثرت الأمراض والعلل والعفن ببغداد في الناس، وكلبت الكلاب والذئاب في البادية، وكانت تطلب الناس والدواب والبهائم، فإذا عضت إنساناً أهلكته.

* * *

سنة إحدى وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: غزو الحسين بن حمدان الصائفة، ففتح حصوناً كثيرة، وقتل من الروم خلقاً كثيراً.

وفيها: عزل المقتدر بالله محمد بن عبيد الله عن الوزارة، وحبسه أياماً مع ابنيه عبد الله، وعبد الوهاب. وقلد الوزارة علي بن عيسى، وكان من أفضل الوزراء وأيامه أبهى من غيرها، وكان يجتهد في العدل والإحسان.

وفيها: كثرت الأمراض الدموية بالناس ببغداد، وكان ذلك في آخر تموز وآب وكان من ذلك المرض نوع سموه الماشري، وكان طاعوناً قاتلاً.

وفيها: وصلت هدايا صاحب عمان إلى السلطان، وفيها ببغة بيضاء، وغزال أسود.

وركب المقتدر في شعبان على الظهر إلى باب الشماسية على طريق الصحراء، ثم انحدر إلى داره في دجلة، وهي أول ركبة ظهر فيها للعامة.

ولما ولي الوزارة علي بن عيسى شاوره المقتدر في أمر القرامطة، فأشار بمكاتبة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي المتغلب على هجر، فتقدم إليه بمكاتبته، فكتب كتاباً طويلاً يتضمن الحث على طاعة الخلفاء، ويعاتبه على تركه الطاعة، ويوبخه على ما يحكى عن أصحابه من إعلان الكفر وإنكارهم على من يسبح الله عز وجل ويقدسه، واطراحهم الصلوات والزكوات، واستهزائهم بأهل الدين واسترقاقهم الأحرار، ثم تواعده فيه بالحرب إن لم يطع فوصل الكتاب إليه، وقد قتل أبو سعيد، وثب عليه خادم له صقلابي فقتله، ثم دعا رجلاً من رؤساء أصحابه فقال له: السيد يدعوك، فلما دخل قتله، ثم دعا آخر فقتله إلى أن دعا الخامس فرأى القتلى فصاح، واطلع النساء فصحن فقبضن عليه قبل أن يقتل الخامس، وقد كان أبو سعيد عهد إلى ابنه سعيد فلم يضطلع بالأمر فغلبه عليه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد فتوقفت الرسل الذين حملوا الكتاب عن إيصاله، وكاتبوا الوزير علي بن عيسى، فأمرهم بإيصال الكتاب إلى أولاده ومن قام مقامه، فأوصلوه فكان من جوابهم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على رسوله ، وتعظيم الخليفة، وشكر ما يبلغهم عن الوزير من العدل، وقالوا: إنا لم نخرج من الطاعة ولكنا كنا قوماً مستورين فنقم علينا ذلك فجار من الناس لا دين لهم فشنعوا علينا وقذفونا بالكبائر، ثم خرجوا إلى سبنا وضربنا، ثم نادوا قد أجلناكم ثلاثة أيام فمن أقام بعدها أحل بنفسه العقوبة، فخرجنا فوثبوا علينا قبل الأجل، وضربونا وأغرمونا الأموال، فسألناهم أن يؤمنونا على أنفسنا فلم يفعلوا، وأمر صاحب البلد بقتلنا فهربنا، فأخذوا حرمنا وسلبوهم سلباً قبيحاً، وانتهبوا منازلنا فلجأنا إلى البادية، فخرج ناس إلى المعتضد بالله فشنعوا علينا، فصدق مقالتهم وبعث إلينا من يخاصمنا، فدافعنا عن أنفسنا فقويت وحشتنا من الخلق، وأما ما ادعى علينا من ترك الصلاة وغيرها، فلا يجوز قبول دعوى إلا ببينة، وإذا كان السلطان ينسبنا إلى الكفر بالله تعالى فكيف يسألنا أن ندخل في طاعته.

فلما وصل كتابهم كتب الوزير إليه كتاباً جميلاً يعدهم فيه بالخير.

وفيها حج بالناس الفضل بن عبد الملك.

ووقع وباء في آخر السنة ببغداد، خصوصاً في الحربية حتى غلقت أكثر دورها.

* * *

سنة اثنتين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في أول يوم من المحرم ورد كتاب أبي الحسن نصر بن أحمد صاحب خراسان، أنه واقع عمه اسحاق بن إسماعيل، فأخذه أسيراً، فخلع على رسوله وحملت إليه الخلع لولاية خراسان.

وفي صفر قرئ على المنابر كتاب بفتح بلاد الروم، وورد من بشر الخادم كتاب يذكر فيه ما فتح من حصون الروم وما غنم وسبى وأنه أسر من البطارقة مائة وخمسين.

* * *

سنة ثلاث وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن المقتدر بالله وقف كثيراً من المستغلات السلطانية على الحرمين، وأحضر القضاة والعدول واشهدهم على نفسه بذلك.

وفي يوم الأربعاء لتسع خلون من رمضان انقطع كرسي الجسر والناس عليه فغرق خلق كثير.

وفي ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان انفض كوكب عظيم وبقي ضوؤه ساعة كالمقباس.

وفيها: أوقع ورقاء بن محمد بالأعراب بناحية الأجفر، فقتل جماعة واستأسر جماعة وقدم بهم فوثبت العامة على الأسارى فقتلتهم، وضرب رجل منهم بالسياط في باب العامة، وقيل: أنه صاحب حصن الحاجر وأن الحاج استجاروا به فوصل إليه من أمتعتهم شيء كثير. ووقع حريق في سوق النجارين بباب الشام، فاحترقت السوق بأهلها، ووقعت شرارات في منارة الجامع بالمدينة فاحترقت.

* * *

سنة أربع وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه اضطرب أمر أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح، وجرت بينه وبين أم موسى القهرمانة نفرة شديدة، فامتنع من كلامها وواصل الاستعفاء، فقبض عليه وعلى أنسابه، ونهبت دورهم دونه ولم يتعرض لشيء من أملاكه.

وأخرج أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات، فقلد الوزارة وخلع عليه يوم التروية سبع خلع، وحمل إليه من دار السلطان ثلثمائة ألف درهم، وعشرون خادماً، وثلاثون دابة لرحله وخمسون دابة لغلمانه وخمسون بغلاً لنقله وبغلان للعمارية بقبابها وثلاثون جملاً، وعشر تخوت ثياب. وركب معه مؤنس الخادم وغلمان المقتدر بالله وصار إلى داره بسوق العطش، وردت عليه ضياعه، وأقطع الدار التي بالمخرم فسكنها، وسقى الناس في داره في ذلك اليوم وتلك الليلة أربعون ألف رطل من الثلج، وزاد ثمن الشمع والكاغد يومئذ، فكان هذا من فضائله، وكان بين اعتقاله وبين رجوعه إلى الوزارة خمس سنين وأربعة أيام، وسمع بعض العوام يوم خلع عليه يقول: والك خذ إليك أخذوا منا مصحفاً وأعطونا طنبوراً فبلغ ذلك الخليفة، فكان ذلك سبب الاحسان إلى علي بن عيسى، وحسن النية فيه إلى أن أخرج عن الحبس.

* * *

سنة خمس وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه قدم رسول ملك الروم في الفداء، والهدنة. وكان الرسول غلاماً حدث السن ومعه شيخ وعشرون غلاماً، فأقيمت له الأنزال الواسعة، ثم أحضروا بعد أيام دار السلطان، وأدخلوا وقد عبيء لهم العسكر وصف بالأسلحة التامة، وكانوا مائة وستين ألفاً ما بين فارس وراجل، وكانوا من أعلى باب الشماسية إلى الدار، وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم والخواص بالسمة الظاهرة، والمناطق المحلاة وكانوا سبعة آلاف خادم منهم أربعة آلاف بيض، وثلاثة آلاف سود، وكان الحجاب سبعمائة حاجب، وفي دجلة الطيارات والزبازب والسميريات بأفضل زينة، وسار الرسول، فمر على دار نصر القشوري الحاجب، فرأى منظراً عظيماً، فظنه الخليفة، فداخلته له هيبة حتى قيل له: انه الحاجب، وحمل إلى دار الوزير، فرأى أكثر مما رأى ولم يشك أنه الخليفة، فقيل له: هذا الوزير، وزينت دار الخليفة، فطيف بالرسول فيها فشاهد ما هاله، وكانت الستور ثمانية وثلاثين ألف ستر، والديباج المذهب منها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة وكانت البسط اثنين وعشرين ألفاً، وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من أيديهم، وكان هناك مائة سبع كل سبع بيد سبا

ثم أخرج إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركة فيها ماء صاف، والشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، وهي تتمايل، ولها ورق مختلف الألوان وكل شيء من هذه الطيور يصفر، ثم أدخل إلى الفردوس، وكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى، وفي دهاليزه عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة، ويطول شرح ما شاهد الرسول من العجائب، إلى أن وصل إلى المقتدر وهو جالس على سرير من آبنوس قد فرش بالدبيقي المطرز، وعن يمنة السرير تسعة عقود معلقة، وعن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر، يعلو ضوؤها على ضوء النهار، فلما وصل الرسولان إلى الخليفة وقفا عنده على نحو مائة ذراع، وعلي بن محمد بن الفرات قائم بين يديه، والترجمان واقف يخاطب ابن الفرات، وابن الفرات يخاطب الخليفة، ثم أخرجا وطيف بهما في الدار حتى أخرجا إلى دجلة، وقد أقيمت على الشطوط الفيلة مزينة والزرافة والسباع والفهود، ثم خلع عليهما وحمل إليهما خمسون سقروقاً في كل سقروق بدرة عشرة آلاف درهم.

وورد من مرو كتاب على السلطان أن نفرا عثروا من سور مدينة مرو على نقب، فكشفوا عنه الكيس فوصلوا إلى أزج فأصابوا فيه ألف رأس، وفي أذن كل رأس رقعة كتب فيها اسم صاحبه.

* * *

سنة ست وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن في أول يوم من المحرم فتح سنان بن ثابت الطبيب مارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى على دجلة، وجلس فيه ورتب المتطببين، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار، وأشار سنان على المقتدر باتخاذ مارستان فاتخذه بباب الشام فولاه سنان وسمي المقتدري، وكانت النفقة عليه في كل شهر مائتي دينار.

وقرئت الكتب على المنابر في صفر بما فتح الله عز وجل على يد يسر الأفشيني ببلاد الروم، وقرئت على المنابر في ربيع الأول بما فتح الله على ثمل الخادم في بحر الروم.

وفي ربيع الآخر: توفي محمد بن خلف وكيع، فتقلد أبو جعفر ابن البهلول ما كان يتولاه من القضاء بمدينة المنصور وقضاء الأهواز.

أخبرنا ابن ناصر، قال: أخبرنا أبو عبد الله الحميدي، قال: أخبرنا أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الحافظ، قال: قعدت ثمل القهرمانة في أيام المقتدر للمظالم، وحضر مجلسها القضاة والفقهاء، وفيها حج بالناس الفضل بن عبد الملك.

سنة سبع وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ابتيعت دار محمد بن إسحاق بن كنداج لإبراهيم بن المقتدر بثلاثين ألف دينار، واتخذت للأمراء من أولاد الخليفة دور.

وفي صفر: وقع حريق بالكرخ في الباقلائيين هلك فيه خلق كثير.

وفي ربيع الآخر: ادخل إلى بغداد مائة وخمسون أسيراً من الكرخ انفذهم بدر الحمامي.

وفي ذي القعدة انقض كوكب عظيم غالب الضوء، وتقطع ثلاث قطع، وسمع بعد انقضاضه صوت رعد عظيم هائل من غير غيم.

وفي هذه السنة: دخلت القرامطة البصرة، وصرف حامد عن الوزارة، وتقلد أبو الحسن بن الفرات الدفعة الثالثة.

سنة ثمان وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن حامد بن العباس خرج من مدينة السلام إلى واسط للنظر في الأعمال التي قد ضمنها، وكان قد ضمن بلداناً من الخليفة بألوف، ثم انحدر إلى الأهواز، وعاد فخلع عليه.

وتحركت الأسعار في آخر هذه السنة، فاضطربت العامة لذلك، فقصدوا باب حامد، فخرج إليهم غلمانه فحاربوهم، فقتل من العوام جماعة. ومنعوا يوم الجمعة الإمام من الصلاة، وهدموا المنابر، وأخربوا مجالس الشرطة، وأحرقوا الجسور، وأمر السلطان بمحاربة العوام، فأخذوا وضربوا، وفسخ ضمان حامد، وبيع الكر بنقصان خمسة دنانير فسكنوا.

وفي تموز هذه السنة برد الهواء حتى نزل الناس من السطوح، وتدثروا باللحف، ثم كان في الشتاء برد شديد، أضر بالنخل والشجر، وسقط ثلج كثير. وفيها حج بالناس أحمد بن العباس.

* * *

سنة تسع وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه وقع في شهر ربيع الأول حريق كثير بباب الشام، وفي سويقة نصر، وفي الحذائين بالكرخ، وبين القنطرة الجديدة، وطاق الحراني، ومات خلق كثير. وقتل رجل من الزنادقة، فطرح بسببه حريق في باب المخرم هلك فيه خلق كثير.

وفي شهر ربيع الآخر: لقب مؤنس المظفر، وأنشئت الكتب بذلك عن المقتدر إلى أمراء النواحي، وعقد له في جمادى الأولى على مصر والشام، وخلع على أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان، وقلد أعمال الحرب وطريق مكة.

وفيه ابتدىء بهدم باب دار علي بن الجهشيار ببغداد في الفرضة، وكان هذا الباب علماً ببغداد في العلو والحسن، وبني موضعه مستغل.

وفي رمضان كبس اللصوص منزل أبي عيسى الناقد الصيرفي، فأخذوا له عيناً، وورقاً وأثاثاً قيمته ثلاثون ألف دينار ثم وقعوا على اللصوص وهم سبعة فارتجع من المال اثنان وعشرون ألف دينار ثم قتلوا.

* * *

سنة عشر وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن يوسف بن أبي الساج أطلق في المحرم، وحمل إليه مال، وخلع عليه وقرر أن يحمل في كل سنة خمسمائة ألف دينار من أعمال ضمنت إليه، فبعث إلى مؤنس يطلب منه إنفاذ أبي بكر ابن الآدمي القارئ، فخاف أبو بكر لأنه كان قد قرأ بين يديه يوم شهر: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة فقال له مؤنس: لا تخف فأنا شريكك في الجائزة فمضى، فدخل عليه، فقال: هاتوا كرسياً لأبي بكر، فجلس فقال: اقرأ، فقرأ: وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فقال: لا أريد هذا بل أريد لتقرأ ما قرأته بين يدي حين شهرت: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، فقرأ فبكى، وقال: هذه الآية كانت سبب توبتي من كل محظور، ولو أمكنني ترك خدمة السلطان لتركت، وأمر له بمال.

قال مؤلف الكتاب: وقد ذكرنا أنه شهر في سنة إحدى وسبعين ومائتين وحينئذ قرأ بين يديه:{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ } [هود: ١٠٢] وذلك في خلافة المعتمد، وفي هذه السنة استزاره فأكرمه وذلك في خلافة المقتدر.

* * *

سنة إحدى عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن بغلة وردت من مصر إلى بغداد ومعها فلو، وقد وضعت مهراً في ربيع الأول، وكان يرتضع منها.

وأنه ظهر الجراد وعظم أمره، وكثر إفساده للغلات.

وأنه قلد أبو عمرو حمزة بن القاسم الصلاة في جامع المدينة، وشغب الجند في المحرم، فلما أطلقت أرزاقهم سكنوا.

وخلع على مؤنس المظفر وعقد له على الغزاة للصائفة في هذه السنة.

وقرىء كتاب على المنبر بالفتح على المسلمين من طرسوس. وكان نازوك أمر بضرب غلامين كان أحدهما غلاماً لبعض الرجالة المصافية، فحمل الرجالة السلاح وقصدوا دار نازوك، ووقعت بينهم حرب، وقتل جماعة، فركب المقتدر وبلغ إلى باب العامة، ثم أشار عليه نصر الحاجب بالرجوع فرجع، ووجه القواد للتسكين وشغلهم بإطلاق أرزاقهم فسكنوا.

وصرف حامد بن العباس عن الوزارة، وعلي بن عيسى عن الدواوين والأعمال، لأنه أخر أرزاق الجند.

وقبض على علي بن عيسى وأنسابه، والمتصرفين في أيامه، وقرر علياً ثلثمائة ألف دينار.

* * *

سنة اثنتي عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنهم وجدوا رجلاً أعجمياً واقفاً على سطح مجلس من دار السر التي كان المقتدر يكثر الجلوس فيها عند والدته عليه ثياب دبيقي وتحتها قميص صوف ومعه محبرة ومقلمة وسكين وأقلام، وقيل: انه دخل مع الصناع فحصل في الموضع وبقي أياماً، فعطش، فخرج يطلب الماء، فظفر به وسئل عن حاله، فقال: ليس يجوز أن أخاطب غير صاحب هذه الدار، فأخرج إلى أبي الحسن بن الفرات، فقال: أنا أقوم مقام صاحب الدار، فقال: ليس يجوز غير خطابه فضرب فعدل إلى أن قال: ندانم، ولزم هذه اللفظة، فضرب حتى مات، فأخرج، فصلب، ولطخ بالنفط، وضرب بالنار وأرجف الناس بأن ابن الفرات دسه ليوهم المقتدر أن نصر الحاجب أراد أن يحتال ليفتك به لأنهم أرادوا مصادرة نصر.

سنة ثلاث عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن بني هاشم ضجوا في الطرقات لتأخر أرزاقهم عنهم، وذلك لثمان من المحرم.

ولليلة بقيت من المحرم انقض كوكب قبل مغيب الشمس من ناحية الجنوب إلى ناحية الشمال، فأضائت الدنيا منه إضاءة شديدة، وكان له صوت كصوت الرعد الشديد.

ولم يزل أبو القاسم الخاتاني في أيام وزارته يبحث عمن يدعي عليه من أهل بغداد أنه يكاتب القرمطي ويتدين الإسماعيلية إلى أن تظاهرت عنده الأخبار، بأن رجلاً يعرف بالكعكي ينزل في الجانب الغربي رئيس للرافضة، وأنه من الدعاة إلى مذهب القرامطة، فتقدم إلى نازوك بالقبض عليه، فمضى ليقبض عليه فتسلق من الحيطان وهرب، ووقع برجل في داره كان خليفته، ووجد في الدار رجالاً يجرون مجرى المتعلمين، فضرب الرجل ثلثمائة سوط وشهره على جمل، ونودي عليه هذا جزاء من يشتم أبا بر وعمر ☻ وحبس الباقين.

وعرف المقتدر أن الرافضة تجتمع في مسجد براثا فتشتم الصحابة، فوجه نازوك للقبض على من فيه، وكان ذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر، فوجدوا فيه ثلاثين إنساناً يصلون وقت الجمعة، ويعلنون البراءة ممن يأتم بالمقتدر، فقبض عليهم، وفتشوا فوجدوا معهم خواتيم من طين أبيض. يختمها لهم الكعكي عليها: محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولي الله فأخذوا وحبسوا وتجرد الخاقاني لهدم مسجد براثا، وأحضر رقعة فيها فتوى جماعة من الفقهاء أنه مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وذكر أنه إن لم يهدم كان مأوى الدعاة والقرامطة، فأمر المقتدر بهدمه فهدمه نازوك، وأمر الخاقاني بتصييره مقبرة ندفن فيه عدة من الموتى، وأحرق باقيه وكتب الجهال من العوام على نخل كان فيه هذا مما أمر معاوية بن أبي سفيان بقبضه على علي بن أبي طالب ☺.

وفي يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر خرج مفلح الأسود لإيقاع الفداء ببلاد الروم، فتم الفداء لخمس بقين من رجب.

* * *

سنة أربع عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الروم دخلت في صفر إلى مطلية فأخربوا وسبوا وأقاموا فيها أياماً كثيرة، فوصل أهل ملطية إلى بغداد في جمادى الآخرة مستغيثين من الروم.

وفي ليلة الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الأولى: وقع حريق في نهر طابق فاحترق فيه ألف دار وألف دكان.

وفي هذا الشهر: قرئت الكتب على المنابر بموت الدمستق.

* * *

سنة خمس عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن علي بن عيسى قدم وقد جعل وزيراً، فخرج الناس لتلقيه في أول صفر، فمنهم من لقيه بالأنبار، ومنهم من لقيه دونها، فلما وصل دخل إلى المقتدر بالله فخاطبه بأجمل خطاب، وانصرف إلى منزله، فبعث إليه المقتدر بكسوة فاخرة وفرش وعشرين ألف دينار، وخلع عليه في غداة غد لسبع خلون من صفر، وفي يوم الأحد لثمان خلون من ربيع الأول: انقض كوكب عظيم له ضوء شديد على ساعتين بقيتا من النهار.

* * *

سنة ست عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن أبا طاهر الهجري دخل إلى الرحبة، فوضع السيف في أهلها، وأن أهل قرقيسيا طلبوا من الأمان فآمنهم، ونادى فيهم أن لا يظهر أحد بالنهار وأنفذ أبو طاهر سرية إلى الاعراب، فقتل منهم مقتلة عظيمة، فصاروا إذا سمعوا به هربوا، وقصد الرقة وقتل بها جماعة، ثم انصرف إلى بلده. ولما رأى علي بن عيسى تحكم الهجري في البلاد وعجز السلطان عنه استعفى من الوزارة، وكانت مدة وزارته هذه سنة وأربعة أشهر ويومين.

وكان المقتدر بالله يتشوف إلى معرفة خبر الهجري، ولم يكن أحد يكاتبه بشيء من أخباره إلا الحسن بن إسماعيل الإسكافي عامل الأنبار، فإن كتبه كانت ترد في كل أيام إلى علي بن عيسى، فينهيها فأقام أبو علي بن مقلة اطياراً وكوتب عليها بأخبار الهجري وقتاً فوقتاً، وكان ينفذها إلى نصر الحاجب، فيعرضها، فجعل نصر الحاجب يطري ابن مقلة ويقول للمقتدر إذا كانت هذه مراعاته بأمورك ولا تعلق له بخدمتك، فكيف إذا اصطنعته وتستوزره.

ولما رجع أبو طاهر القرمطي إلى بلده بنى داراً وسماها دار الهجرة، ودعا إلى المهدي، وتفاقم أمره وكثر اتباعه، وحدثته نفسه بكبس الكوفة، وهرب عمال السلطان في السواد، وكان أصحابه يكبسون القرى فيقتلون وينهبون، فبعث المقتدر إلى محاربتهم هارون بن غريب إلى واسط، وصافي البصري إلى الكوفة فقتل هارون منهم جماعة، وحمل مائة وسبعين رأساً وجماعة أسارى، وأوقع صافي بمن خرج إليه واستأسر منهم وادخلوا بغداد على الجمال مشتهرين ومعهم أعلام بيض منكسة، وعليها مكتوب:{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ } [القصص: ٥] الآية فقتلوا واستقام أمر السواد.

وزادت دجلة بغتة زيادة مفرطة قطعت الجسور ببغداد وغرق من الجسارين جماعة، وبلغت زيادة الفرات اثني عشر ذراعاً وثلاثين.

* * *

سنة سبع عشرة وثلاثمائة

فمن الحوادث فيها: أن مؤنساً المظفر دخل بغداد بعد أن لقيه عبد الله بن حمدان، ثم من يراد للإمارة، وأحكم معه ما أراد، فدخل بيته ولم يمض إلى دار السلطان، فمضى إليه أبو العباس ابن أمير المؤمنين، ومحمد بن علي الوزير، وعرفاه شوق أمير المؤمنين إليه، فاعتذلا من تخلفه بعلة شكاها، فأرجف الناس بتنكره ووثب الرجالة ببعض حاشيته، فواثبهم أصحابه، فوقع في نفس مؤنس أن هذا بأمر السلطان، فجلس في طياره وصار إلى باب الشماسية، وتلاحق به أصحابه، وخرج إليه نازوك في جيشه، فلما بلغ المقتدر ذلك صرف الجيش عن بابه، وكاتب مؤنساً وسائر الجيش بإزاحة عللهم في الأموال، وخاطب مؤنساً بأجمل خطاب، وقال: وأما نازوك فلست أدري ما سبب عتبه واستيحاشه، والله يغفر له سيئ ظنه وأما ابن حمدان فلست أعرف شيئاً أحفظ له إلا عزله عن الدينور، وإنما أردنا نقله إلى ما هو أجل منه وما لأحد من الجماعة عندي إلا ما يحب، واستظهر كل واحد منهم لنفسه بعد أن لا يخلع الطاعة ولا ينقض بيعة فإني مستسلم لأمر الله عز وجل غير مسلم حقاً خصني الله به، فاعل ما فعله عثمان بن عفان ☺، ولا آتي في سفك الدماء ما نهى الله عز وجل عنه، ولست أنتصر إلا بالله. فسمع العسكر هذا فقالوا: نمضي فنسمع ما يقول، فأخرج المقتدر جميع من كان يحمل سلاحاً وجلس على سريره في حجره مصحف يقرأ فيه، وأمر بفتح الأبواب وأحضر بنيه، فأقامهم حول سريره، فصار المظفر إلى باب الخاصة

ثم صرف الناس على حالة جميلة، فسروا بالسلامة، ورجع المظفر إلى داره، فلما كان يوم الخميس لثلاث عشرة من المحرم عاود أصحاب نازوك وسائر الفرسان الركوب في السلاح، واخرجوا المظفر على كره منه وغلبه نازوك على التدبير، وركب نازوك يوم الجمعة بعد الصلاة والناس معه في السلاح، فوجدوا الأبواب مغلقة فأحرقوا بعضها ودخلوا وقد تكاملت عدة الفرسان اثني عشر ألفاً ومبلغ مالهم في كل شهر خمسمائة ألف دينار، والرجالة عشرون ألفاً ومبلغ مالهم عشرون ومائة ألف دينار، فدخل نازوك وأصحابه الدار بخيلهم، فدخل المظفر واخرج الخليفة وولده والسيدة إلى منزله، ونهب الجند الدار ثم دخل المظفر بالقصر، وأجمع رأي نازوك وعبد الله بن حمدان على إجلاس محمد بن المعتضد، فجاؤوا به في ليلة السبت للنصف من المحرم، فسلموا عليه بالخلافة، ولقب القاهر بالله، وقلد أبو علي بن مقلة وزارته، ونازوك الحجبة مضافاً إلى الشرطة، ونهبت دار السلطان، ووجد لأم المقتدر ستمائة ألف دينار، فحملت وخلع المقتدر من الخلافة يوم السبت النصف من المحرم، واشهد على نفسه القضاة بالخلع، وسلم الكتاب بذلك إلى القاضي أبي عمر محمد بن يوسف، فسلمه إلى ولده أبي الحسين، وقال له: احفظه ولا يراه أحد من خلق الله، فلما أعيد المقتدر إلى الخلافة بعد يومين أخذ القاضي أبو عمر الكتاب، فسلمه إلى المقتدر من يده إلى يده وحلف له أنه ما رآه أحد من خلق الله غيري، فحسن موقع ذلك من المقتدر وشكره وقلده بعد مديدة قضاء القضاة.

ولما كان من غد بيعة القاهر، وهو يوم الأحد، جلس القاهر بالله، وحضر الوزير أبو علي بن مقلة فكتب ابن مقلة إلى العمال بخبر تقليده الخلافة، ثم شغب الجند يطلبون الأرزاق، فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا وطالبوا وهجموا فقتلوا نازوك وصاحوا: مقتدر يا منصور فهرب الوزير والحجاب والحشم، وجاء المقتدر فجلس، وجيء بالقاهر إليه فأجلسه بين يديه واستدناه وقبل جبينه، وقال: يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك قهرت والقاهر يقول الله الله، نفسي نفسي يا أمير المؤمنين. فقال له: وحق رسول الله لا جرى عليك مني سوء أبداً، وعاد ابن مقلة فكتب إلى الأماكن بخلافة المقتدر.

وفيها بذرق الحاج منصور الديلمي وسلموا في طريقهم، فلما وصلوا إلى مكة وافاهم أبو طاهر الهجري إلى مكة يوم التروية، فقتل الحاج في المسجد الحرام وفي الفجاج من مكة، وقتلهم في البيت قتلاً ذريعاً. وكان الناس في الطواف وهم يقتلون، وكان في الجماعة علي بن بابويه يطوف، فلما قطع الطواف ضربوه بالسيوف

واقتلع الهجري الحجر الأسود، وقلع قبة بئر زمزم، وعرى الكعبة، وقلع باب البيت وأصعد رجلاً من أصحابه ليقلع الميزاب، فتردى الرجل على رأسه ومات، وقتل أمير مكة، وأخذ أموال الناس، وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن باقيهم في مصاعهم وفي المسجد الحرام من غير أن يصلى عليهم، وانصرف إلى بلده، وحمل معه الحجر الأسود فبقي عندهم أكثر من عشرين سنة إلى أن ردوه.

* * *

سنة ثمان عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه هبت ريح من المغرب في آذار حملت رملاً أحمر يشبه رمل الصاغة، فامتلأت منه أسواق بغداد الجانبين وسطوحها ومنازلها، وقيل: أنه من جبلي زرود.

وفيها: قبض المقتدر على أبي علي ابن مقلة، وكانت مدة وزارته سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام، واستوزر سليمان بن الحسن بن مخلد، وجعل علي بن عيسى ناظراً معه.

وفي جمادى الأولى: احترقت دار أبي علي ابن مقلة التي في وجه الزاهر، وكان قد أنفق عيها مائة ألف دينار، وانتهب الناس الخشب والرصاص والحديد.

وفيها حج بالناس عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي، وخرجوا بخفارة وبذرقة.

* * *

سنة تسع عشرة وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه قدم مؤنس يوم الخميس لعشر خلون من صفر بالحاج من مكة سالمين، وسر لناس بتمام الحج وانفتاح الطريق، وتلقوه بأنواع الزينة، وضربوا له القباب، وكان مؤنس قد بلغه في انصرافه من مكة ارجاف بقصد أبي طاهر الهجري طريق الجادة، فعدل بالقافلة عنه فتاه في البرية، ووجد فيها آثاراً عجيبة، وعظاماً مفرطة في الكبر، وصور الناس من حجارة، وحمل بعضها إلى الحضرة، وحدث بعض من كن معه أنه رأى امرأة قائمة على تنور وهي من حجر والخبز الذي في التنور من حجر، وقيل: هي بلاد عاد، وقيل: ثمود: وفيها قبض على سليمان بن الحسن الوزير، وكانت مدة وزارته سنة وشهرين وتسعة أيام، ثم استوزر المقتدر أبا القاسم عبيد الله بن محمد المكلواذي، ثم عزل، وكانت وزارته شهرين وثلاثة أيام، ثم استوزر الحسين بن القاسم، ثم عزل.

سنة عشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه كانت شتوتها دفيئة ولم يجمد فيها الماء، وكان هواؤها كهواء الربيع، فلما جاء الربيع كثرت الأمراض الحادة منذ شباط، وكثر الموت، وعرض لأكثر الناس ذرب.

وكان قد ورد إلى طريق مكة صاحب لأبي طاهر الهجري ليجبي الحاج، فلم يخرج من الحاج إلا نفر يسير رجالة، فلما فاته من جباية الحاج ما قدر عطف على الأعراب فاجتاحهم.

وحضر من ناظر عن مرداويج بن زياد الديلمي، والتمس أن يقاطع عن الأعمال التي غلب عليها من أعمال المشرق، فكتب له عهده وأنفذ له لواء وخلعة.

وفي رمضان توفي قاضي القضاة أبو عمر، واستخلف ابنه أبو الحسين في سائر أعماله سوى قضاء القضاة.

وفي شوال قتل المقتدر بالله، وولي القاهر بالله.

باب ذكر خلافة القاهر بالله

لما قتل المقتدر وانحدر مؤنس رأى رأس المقتدر، قال: إن قتلتموه والله لنقتلن كلنا فأقل الأشياء أن تظهروا أن ذلك جرى عن غير قصد وأن تنصبوا في الخلافة ابنه أبا العباس، فإنه إذا جلس في الخلافة سمحت نفسه ونفس جدته والدة المقتدر بإخراج الأموال، فغيروا رأيه وعدلوا به إلى محمد بن المعتضد، فأحضر وسنه ثلاثة وثلاثون سنة، وحلف لهم، وبايعه من حضر من القضاة والقواد، ولقب القاهر بالله، وذلك في سحر يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال.

سنة إحدى وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في يوم السبت لاحدى عشرة خلت من صفر جلس القاهر بالله في الميدان وأحضر رجلاً قطع الطريق في دجلة، فضرب بحضرته ألف سوط، ثم ضربت عنقه، وضرب جماعة من أصحابه وقطعت أيديهم وأرجلهم.

وفي يوم الخميس لسبع بقين من صفر خلع القاهر بالله على الوزير أبي علي ابن مقلة وكناه، وكتب إليه: يا أبا علي أدام الله أمتاعي بك، محلك عندي جليل، ومكانك من قلبي مكان مكين، وأنا حامد لمذهبك، مرتض لأفعالك، عارف بنصيحتك، ولم أجد مع قصور الأحوال مما أضمره لك ما يزيد في محلك وكمال سرورك غير تشريفك بالكنية، وأنا أسأل الله عوناً على ما أحبه لك.

وفي جمادى الآخرة وقع الإرجاف بأن الأمير علي بن يلبق، والحسن بن هارون كاتبه قد عملا على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، فاضطربت العامة من ذلك.

وتقدم علي بن يلبق حاجب القاهر بالقبض على أبي محمد البربهاري رئيس الحنابلة، فهرب واستتر، وقبض على أصحابه وأحدروا إلى البصرة. ثم خالف علي بن يلبق من القاهر إلى أن فتش لبناً قد اشتري مخافة أن يكون فيه رقعة، وطالب علي بن يلبق القاهر بأن يسلم إليه كل محبوس عنده من والدة المقتدر وغيرها، فسلمهم إليه ونقلهم إلى داره، واجتمع ابن مقلة وعلي بن يلبق على منع القاهر أرزاق حشمه، وأكثر ما كان يقام له، فطالبه ابن يلبق أن يسلم إليه ما بقي في يده من الفرش وامتعة والدة المقتدر، فسلم ذلك وبيع، ومكثت والدة المقتدر عند والدة علي بن يلبق مكرمة عشرة أيام وتوفيت. ولما تمكن التضييق من القاهر علم فساد نية طريف السبكري وبشرى ليلبق وابنه علي ومنافستهما لهما على المراتب، فكاتبهما وراسل قوماً من الجند، وضمن لهم زيادة العطاء، وحرضهما على مؤنس ويلبق، وبلغ أبي علي ابن مقلة أن القاهر قد جد قي التدبير عليه وعلى مؤنس ويلبق وابنه، فحذرهم وحملهم على الجد في التدبير على القاهر وخلعه من الخلافة، ثم عقدوا الأمر سراً لأبي أحمد بن المكتفي، ودبروا على القبض على القاهر فأحس القاهر فاحتال عليهم حتى قبض على يلبق ومؤنس، واستتر علي بن يلبق وأبو علي ابن مقلة، فوجه القاهر إلى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله، فاستحضره في يوم الأحد مستهل شعبان، فقلده وزارته وخلع عليه من الغد، وطرحت النار في دار أبي علي ابن مقلة ووقع النهب ببغداد، وقبض على أبي أحمد بن المكتفي، وأقيم في باب وسد عليه بالآجر والجص وهو حي، ثم وقع علي بن يلبق وأبوه فأقر بعشرة آلاف دينار، ثم قتل مؤنس وعلي ابن يلبق وأبوه. واستقامت الأمور للقاهر، وتقدم بالمنع من القيان والخمر والنبيذ ومنع أصحاب الناطف أن يعيروا قدورهم لمن يطبخ فيها التمر والزبيب للأنبذة، وقبض على المغنين من الرجال والنساء والحرائر والإماء، وقبض على جماعة من الجواري المغنيات، وتقدم ببيعهن في النخاسين على أنهن سواذج.

* * *

سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد في يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من المحرم كتاب من أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي، وكان يتقلد أعمال الخراج والضياع بالبصرة والأهواز، بمصير جماعة من الديلم من أصحاب مرداويج إلى أصبهان وتسلمهم إياها لمرداويج الديلمي، وأنه قد خرج قائد جليل من قواده كان يتقلد له بالبصرة، وأنه فاز بمال جليل وهرب وصار إلى أرجان يقال له علي بن بويه، وأنه كتب إليه بأنه في طاعة السلطان، وأنفذ منه كتاباً إلى الوزير الخصيبي يسأله في الورود إلى الحضرة، أو النفوذ إلى شيراز لينضم إلى ياقوت مولى أمير المؤمنين القاهر بالله المتولي لأعمال المعادن بفارس وكرمان، وكان أبو علي ابن مقلة قد استتر من القاهر لخوفه منه، وكان القاهر بطاشاً، وكان ابن مقلة في مدة استتاره يراسل الجند ويغريهم على القاهر، ويوحشهم منه، ويعرفهم أنه قد بنى لهم المطامير، وعمل على حبسهم فيها، واحتال من جهة منجم يعرف بسيما، وكان يخوفهم من القاهر من طريق النجوم، فاجتمع الجند وذكروا أنه قد صح عندهم أن القاهر قد عمل حبوساً يحبسهم فيها فأنهي ذلك إلى القاهر، فحلف أنه ليم يفعل ذلك فاتفقوا على القبض على القاهر، وتحالفوا فقال لهم سيما: إن كنتم على هذا العزم فقوموا بنا الساعة، فقالوا: بل نؤخره إلى غد، فإنه يوم موكب يجلس فيه للسلام ويظهر لنا فنقبض عليه، فقال: إن تفرقتم الساعة وأخرتم إمضاءه إلى ساعة أخرى بطل ما دبرتموه، فركبوا معه وصاروا إلى الدار، ورتب على أبوابها غلماناً، ووقف هو على باب العامة، وأمر بالهجوم فهجموا كلهم من سائر الأبواب في وقت واحد، فبلغ الخبر الوزير الخصيبي فخرج في زي امرأة واستتر، فلما دخلوا على القاهر هرب إلى سطح حمام فاستتر فيه، فوجدوه فقبضوا عليه وصاروا به إلى موضع الحبوس فحبسوه، ووكلوا بباب البيت جماعة.

باب ذكر خلافة الراضي بالله

اسمه محمد ويكنى أبا العباس ابن المقتدر، ولد ليلة الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، وأمه أم ولد رومية تسمى ظلوم، أدركت خلافته، وكان قصير القامة، نحيف الجسم، أسمر رقيق السمرة، دري اللون أسود الشعر سبطه، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعرها رقة، بويع له وأقيم القاهر بين يديه، فسلم عليه بالخلافة، وبعث الراضي إلى أبي بكر الصولي، فقال له: اختر لي لقباً، فاختار له المرتضي بالله، فبعث إليه يقول: كنت أنت قد عرفتني أن إبراهيم بن المهدي أراد له أن يكون له ولي عهد، فأحضروا منصور بن المهدي وسموه المرتضى، وما اختار أن أتسمى باسم وقع لغيري ولم يتم أمره، وقد اخترت الراضي بالله.

ولما بويع الراضي بالله كتب كتاباً لأبي علي ابن مقلة، وكان قد اختفى في داره فكبست فاستتر في بئر فسلم وظهر ومضى إلى الراضي، فقلده الوزارة وتقدم إلى علي بن عيسى بمعاونته، وأمر الراضي بإطلاق كل من كان في حبس القاهر، وصودر عيسى طبيب القاهر على مائتي ألف دينار، وكان القاهر قد أودعه عشرين ألف دينار ومائة وخمسين ألف درهم وألف مثقال عنبر، فاعترف وأداها. وولي أبو بكر بن رائق إمارة الجيش ببغداد، وكان الحجاب أصحاب المناطق أربعمائة وثمانين حاجباً.

* * *

سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة

من الحوادث فيها: أنه في ربيع الأول بلغ الوزير أبا علي ابن مقلة أن رجلاً يعرف بابن شنبوذ يغير حروفاً من القرآن، فاستحضره واستحضر القاضي أبا الحسين عمر بن محمد، وأبا بكر بن مجاهد، ونوظر بحضرة الوزير فأغلظ القول بمناظرته، فضرب بين الهنبازين سبع درر، فدعا علي ابن مقلة أن تقطع يده ويشتت شمله، ثم عرضت عليه الحروف التي قرأ بها فأنكر ما كان شنيعاً، وقال: فيما سوى ذلك قد قرأ به قوم، وذلك مثل قوله: فامضوا إلى ذكر الله كالصوف المنفوش يأخذ كل سفينة صالحة غصباً فاستتابوه فتاب وكتب خطه بذلك، فحمل إلى المدائن في الليل ليقيم بها أياماً ثم يدخل منزله مستخفياً ولا يظهر لئلا تقتله العامة، وقيل: أنه نفي إلى البصرة، ثم إلى الأهواز فمات بها.

* * *

سنة أربع وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الجند أحدقوا بدار الخلافة وضربوا خيمهم فيها وحولها وملكوها، وطولب الراضي بأن يخرج فيصلي بالناس ليراه الناس معهم، فخرج وصلى، وقال في خطبته: اللهم إن هؤلاء الغلمان بطانتي وظهارتي فمن أرادهم بسوء فأرده، ومن كادهم بكيد فكده. وقبض الغلمان على الوزير وسألوا الخليفة أن يستوزر غيره، فرد الخيار إليهم، وقالوا: علي بن عيسى، فاستحضره وعرضت عليه الوزارة فأبى وأشار بأخيه أبي علي عبد الرحمن بن عيسى، فقلد الوزارة وخلع عليه.

واحترقت دار ابن مقلة وحمل إلى دار عبد الرحمن بن عيسى، فضرب حتى صار جسمه كأنه الباذنجان. وأخذ خطه بألف ألف دينار، ثم عجز عبد الرحمن بن عيسى عن تمشية الأمور، وضاق الحال فاستعفى، فقبض عليه لسبع خلون من رجب، فكانت وزارته خمسين يوماً، وقلد الوزارة أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي، ثم عزل، وقلد سليمان بن الحسن وكان هذا كله من عمل الأتراك والغلمان.

* * *

سنة خمس وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه خرج الراضي إلى واسط في المحرم، وجرت حرب بين الأتراك استظهر فيها عليهم بجكم، وعاد الراضي في صفر، وخلع على بحكم في ربيع الأول، وولي إمارة بغداد، وعقد له لواء الولاية للمشرق إلى خراسان.

* * *

سنة ست وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه خرج الراضي متنزهاً إلى أن حاذى بزوغي، فأقام يومين، ثم رجع، وفي هذه السنة: ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضي، وكانت الكتابة بالرومية بالذهب، والترجمة بالعربية بالفضة، يطلب منه الهدنة، وفيه: ولما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء، حمدنا الله تعالى إذ جعل في كل أمة من يمتثل أمره، وقد وجهنا شيئاً من الألطاف وهي اقداح، وجرار من فضة وذهب، وجوهر وقضبان فضة، وسقور وثياب سقلاطون، ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة فكتب إليهم الجواب بقبول الهدية، والإذن في الفداء، وهدنة سنة.

وتحدث الناس في شوال هذه السنة: أن رقعة جاءت من ابن مقلة إلى الراضي يضمن فيها ابن رائق وابني مقاتل بألفي ألف دينار، وأنه يقبض عليهم بحيلة لطيفة، فقال الراضي: صر إلي حتى تعرفني وجه هذا، فجاء فعلم ابن رائق فركب في جيشه إلى الدار وقال: لا أبرح إلا بتسليم ابن مقلة، فأخرج فأمر بقطع يده اليمنى، وقيل: هذا سعى في الأرض بالفساد.

* * *

سنة سبع وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: انه خرج الراضي إلى الموصل لمحاربة الحسن بن عبد الله بن حمدان، وخرج بجكم فكان ينزل بين يديه بقليل، فاستولى ابن رائق على بغداد فدخلها في ألف من القرامطة.

أخبر طلحة بن محمد بن جعفر، قال: لما كان في المحرم سنة سبع وعشرين وثلثمائة خرج الراضي إلى الموصل، وأخرج معه قاضي القضاة أبا الحسين عمر بن محمد بن يوسف، وأمره أن يستخلف على مدينة السلام بأسرها أبا نصر يوسف ابن عمر، لما علم أنه لا أحد بعد أبيه يجاريه ولا إنسان يساويه، فجلس يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم سنة سبع وعشرين في جامع الرصافة وقرأ عهده بذلك، وحكم فتبين للناس من أمره ما بهر عقولهم، ومضى في الحكم على سبيل معروفة له ولسلفه، وما زال أبو نصر يخلف أباه على القضاء بالحضرة من الوقت الذي ذكرنا إلى أن توفي قاضي القضاة.

قال أبو بكر الصولي: ومضى الراضي عاجلاً إلى الموصل، وقد تقدم بجكم فواقع الحسن بن عبد الله فهزمه، ثم خرج ابن رائق من بغداد وعاد الراضي إليها.

وجاء في جمادى الأولى وهو أول يوم من آذار بعد المغرب مطر عظيم وبرد كبار، في كل بردة نحو الأوقيتين، ودام وسقط بذلك حيطان كثيرة من دور بغداد، وظهر جراد كثير.

* * *

سنة ثمان وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في غرة المحرم ظهرت في الجو حمرة شديدة من ناحية الشمال والمغرب، وظهرت فيها أعمدة بيض عظيمة كثيرة العدد.

وفيها أن الخبر ورد بأن أبا علي الحسن بن بويه الديلمي صار إلى واسط، فانحدر الراضي وبجكم فانصرف أبو علي من واسط، ورجع الراضي إلى بغداد.

وفيها: أن بجكم تزوج سارة بنت أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يعقوب البريدي على صداق مبلغه مائتا ألف درهم.

وفيها في شعبان: بلغت زيادة الماء في دجلة تسعة عشر ذراعاً، وبلغت زيادة الفرات إحدى عشرة ذراعاً.

سنة تسع وعشرين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الفرات زادت أحد عشر ذراعاً وانبثق بثق من نواحي الأنبار، فاجتاح القرى وغرقها وغرق الناس والبهائم والوحش والسباع وصب الماء في الصراة إلى بغداد وغرق شارع الجانب الغربي وغرق شارع باب الأنبار، فلم يبق منه منزل إلا وسقط، وتساقطت الأبنية على الصراة، وسقطت قنطرة الصراة الجديدة، وانقطع بعض العتيقة، وزادت دجلة ثمانية عشر ذراعاً في أيار وحزيران.

ومرض الراضي، فقام في يومين أربعة عشر رطلاً من الدم، كذلك قال الصولي ولما اشتدت علته أرسل إلى بجكم وهو بواسط يعرفه شدة علته، ويسأله أن يعقد ولاية العهد لابنه الأصغر، وهو أبو الفضل وتوفي الراضي، وتولى الخلافة المتقي لله أخوه.

باب ذكر خلافة المتقي بالله

واسمه إبراهيم بن المقتدر ويكنى أبا إسحاق، وأمه أم ولد تسمى حلوب، أدركت خلافته، وولد في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين، وكان قد اجتمع الأشراف والقضاة في دار بجكم وشاوروه فيمن يولون، فاتفقوا عليه، فحمل من داره - وكانت بأعلى الحريم الظاهري - إلى دار الخلافة، فصعد إلى رواق التاج فصلى ركعتين على الأرض وجلس على السرير، وبايعه الناس. وكان استخلافه يوم الأربعاء لعشر بقين من ربيع الأول من هذه السنة.

ولم يغدر بأحد قط، ولا تغير على جاريته التي كانت له قبل الخلافة، ولا تسرى عليها، وكان حسن الوجه، مقبول الخلق، قصير الأنف، أبيض مشرباً بحمرة، في شعره شقرة وجمودة، كث اللحية، أشهل العينين، أبي النفس، لم يشرب النبيذ قط.

وكان يتعبد ويصوم جداً، وكان يقول: المصحف نديمي، ولا أريد جليساً غيره، فغضب الجلساء من هذا، حتى قال أبو بكر الصولي - وأودع هذا الكلام في كتابه المسمى بالأوراق، فقال: ما سمع بخليفة قط قال: أنا لا أريد جليساً، أنا أجالس المصحف، سواه، أفتراه ظن أن مجالسة المصحف خص بها دون آبائه وأعمامه الخلفاء، وأن هذا الرأي غمض عنهم وفطن له.

قال المصنف: فأعجبوا لهذا المنكر للصواب، وهو يعلم أنه كان هو والجلساء لا يكادون يشرعون فيما ينفع، وأقله المدح، فليته إذ قال هذا لم يثبته في تصنيف.

وفي يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى: فرغ من مسجد براث وجمع فيه الجمعة.

سنة ثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ظهر في المحرم كوكب مذنب رأسه إلى الغرب وذنبه إلى الشرق، وكان عظيماً جداً منتشر الذنب، وبقي ثلاثة عشر يوماً إلى أن اضمحل.

وفي نصف ربيع الأول: بلغ الكر الحنطة مائتين وعشرة دنانير والكر الشعير مائة وعشرين ديناراً، وأكل الضعفاء الميتة، ودام الغلاء، وكثر الموت، وشغل الناس بالمرض والفقر، وتقطعت السبل، وترك التدافن للموتى، واشتغل الناس عن الملاهي واللعب.

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شهر ربيع الآخر: قام رجل من العامة في جامع الرصافة والإمام يخطب، فلما دعا للمتقي لله قال له العامي: كذبت، ما هو بالمتقي، فأخذ وحمل إلى دار السلطان، وخرج المتقي، فلقي ناصر الدولة أبا محمد ابن حمدان حين دخل بغداد، وجاء مطر كأفواه القرب، وامتلأت البلاليع وفاضت، ودخل دور الناس، وبلغت زيادة دجلة عشرين ذراعاً وثلثاً.

ووقعت حرب بين الأتراك والقرامطة بناحية باب حرب، وقتل فيها جماعة، فانهزم القرامطة وخرجوا عن بغداد، وزاد البلاء على الناس ببغداد وكبست منازلهم ليلاً ونهاراً وافتقر أهل اليسار، واستتر أكثر العمال لأجل ما طولبوا به مما ليس في السواد.

وخرج أصحاب السلطان إلى ما قرب من بغداد فأغاروا على ما استحصد من الزرع، حتى اضطر أصحاب الضياع إلى حمل ما حصدوه بسنبله، ووقع بين توزون وكورتكين التركيين، فأصعد توزون إلى الموصل، وأنفذ في طلبه فلم يلحق.

سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه أول المحرم، وهو النصف من أيلول قوي الحر أخذ بالأنفاس، وخرج أيلول كله عن حر شديد، ودخل تشرين بمثل ذلك، وكان في اليوم الثامن منه حر لم يكن مثله في آب وتموز.

وفي صفر: ورد الخبر بورود الروم إلى أرزن، وميافارقين، وأنهم سبوا وأحرقوا. وفي ربيع الآخر: عقد نكاح لأبي منصور إسحاق بن المتقي بالله على علوية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان على مائة ألف دينار وخمسمائة درهم، وجرى العقد بحضرة الخليفة وولي العقد على الجارية أبو عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي، ولم يحضر ناصر الدولة وضرب ناصر الدولة سكة فزاد فيها عند ذكر رسول الله وضيق ناصر الدولة على المتقي بالله في نفقاته، وانتزع ضياعه وضياع والدته.

سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في ربيع الأول دخل الروم رأس العين وسبوا من أهلها ثلاثة آلاف إنسان، ونهبوا البلاد، وكان الذي قصدها الدمستق في ثمانين ألفاً.

وفي جمادة الأولى: كثرت الأمطار فتساقطت منازل الناس، ومات خلق كثير تحت الهدم، وما زالت قيمة العقار ببغداد تنقص، وزاد الأمر بسبب الغلاء، وبلغ الخبز الخشكار ثلاثة أرطال بدرهم، والتمر رطلان بدرهم، وأغلقت عدة حمامات، وتعطلت أسواق ومساجد، حتى صار يطلب من يسكن الدور بأجرة يعطاها ليحفظها، وكثرت الكبسات بالليل من اللصوص بالسلاح والشمع، وتحارس الناس بالليل بالبوقات، وجاء في شباط مطر عظيم سيل وبرد كبار، وجمعه الثلاجون وكبسوه، وتساقطت الدور، وبرد الهواء في آذار، ووقع جليد كثير فاحترق أكثر الزرع، ولم يجمد الماء في شتوة هذه السنة.

وورد الخبر في شوال بموت أبي طاهر سليمان بن الحسن الهجري في منزله بهجر، وأنه جدر في رمضان هذه السنة ومات، ولم يحج في هذه السنة أحد من بغداد ولا من خرسان لأجل موت الهجري، فلم يحضر أحد من أهل هجر يبذرق الحاج فخاف الناس فأقاموا، وكان الذي بقي من أخوة أبي طاهر ثلاثة: أبو القاسم سعيد وهو الرئيس الذي يدبر الأمور، وأبو العباس وكان ضعيف البدن كثير الأمراض مقبلاً على قراءة الكتب، وأبو يعقوب يوسف وكان مقبلاً على اللعب، إلا أن الثلاثة كانت كلمتهم واحدة، والرياسة لجميعهم، وكانوا يجتمعون على رأي واحد فيمضونه، وكان وزراؤهم سبعة كلهم من بني سنبر.

وفي هذه السنة: قتل أبو عبد الله البريدي أخاه أبا يوسف، وكان أبو يوسف يتكبر على أخيه ويؤذيه، ودفنه بالأبلة من غير أن يغسله أو يكفنه، وأخذ من ماله ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار وعشرة آلاف ألف درهم، وأخذ من الكسوة والفرش والآلة ما قيمته ألف دينار، وألف رطل ند وعشرين ألف رطل عود، منها ألفا رطل هندي، وصادر العمال على ألف ألف دينار.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن توزون التركي كان رئيس الجيش وأمير الأمراء، وتقلد الشرطة ببغداد، وكانت بينه وبين المتقي وحشة فخرج المتقي إلى ناحية الموصل ودخل توزون من واسط إلى بغداد، فأخذ أموال أهل بغداد، وأخذ من دعلج العدل مائة ألف درهم، وأقام المتقي عند بني حمدان واستدعاهم لحرب توزون، فلما أقبلوا على حربه خرج توزون فكسرهم، ثم كاتب المتقي يسأله أن يرجع إلى بغداد فلم يقبل، وأقام بالرقة، ثم ظهر له من بني حمدان تضجر به، فبعث إلى توزون يطلب الصلح فتلقى توزون ذلك بأتم رغبة فبعث إليه المتقي من يستحلفه، فحلف أيماناً مؤكدة ثم أعاد إليه الأرض وقبل يده، ثم ركب وسار معه وقد وكل به وبجماعته الديلم، وحصرهم في مضربه وقبض عليهم، واستحضر عبد الله بن المكتفي فبويع له، ولقب: المستكفي بالله، وبايعه المتقي بعد أن أشهد على نفسه بالخلع في يوم السبت لعشر بقين من صفر هذه السنة، وسلم إليه المتقي فأخرج إلى جزيرة بين يدي السندية على نهر عيسى، فسمل في يوم خلعه، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً، ولم يحل الحول على توزون بعد أن فعل ذلك.

* * *

باب ذكر خلافة المستكفي بالله

واسمه عبد الله بن علي المكتفي بن المعتضد ويكنى: أبا القاسم، ولد في صفر سنة اثنتين وتسعين ومائتين، وولي الخلافة وسنه إحدى وأربعون سنة وسبعة أيام، في سن المنصور حين ولي، وكان مليح الشخص، ربعة من الرجال، ليس بالطويل ولا بالقصير، معتدل الجسم، حسن الوجه، أبيض مشرباً بالحمرة، أسود الشعر، سبطاً، خفيف العارضين، أكحل، أقنى الأنف ولما ولي المستكفي طوق توزون وسوره وخلع عليه، وجلس بين يدي المستكفي بالله على كرسي، ولم يحج من الناس في هذه السنة إلا القليل مع البكريين ووقف بالناس بمكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي.

* * *

سنة أربع وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في المحرم لقب المستكفي بالله نفسه إمام الحق، وضرب ذلك على الدنانير والدراهم، فكان يخطب له بلقبين: إمام الحق، والمستكفي بالله.

وفي صفر: أدخل من السواد رجل يعرف بابن أبي علي يقطع الطريق ويقتل، فشهر على جمل فقتله العامة قبل أن يصل إلى دار السلطان.

وورد الخبر بأن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه قد نزل بباجسري فاضطرب الناس، واستتر المستكفي بالله، وعبر الأتراك إلى الجانب الغربي، وساروا إلى الموصل، وبقي الديلم ببغداد، ووجه المستكفي بألطاف وفاكهة وطعام لأبي الحسين بن بويه ودخل أبو الحسين فلقي المستكفي بالله ووقف بين يديه طويلاً وأخذت عليه البيعة للمستكفي، واستحلف له بأغلظ الأيمان ولخواصه، وحلف المستكفي لأبي الحسين بن بويه وأخويه، وكتب بذلك كتاب، ووقعت فيه الشهادة عليهما، ولبس أبو الحسين الخلع، وطوق، وسور، وعقد له لواء، وجعل أمير الأمراء وهو أول ملوك بني بويه، ولقب أخواه الأكبر علي عماد الدولة، وأخوه الأوسط أبو علي الحسن ركن الدولة، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم، ونزل الديلم والأتراك دور الناس، ولم يكن يعرف ببغداد قبل هذا التنزل، فصار من هذا اليوم رسماً.

* * *

باب ذكر خلافة المطيع لله

ويسمى الفضل بن المقتدر، ويكنى أبا القاسم، وأمه أم ولد يقال لها: مشغلة أدركت خلافته، وكان له يوم بويع: ثلاث وثلاثون سنة، وخمسة أشهر، وأيام، ولما بويع أحضر المستكفي فسلم عليه بالخلافة، وأشهد على نفسه بالخلع، وصودر خواص المستكفي فأخذ منهم ألوف كثيرة، ووصل المطيع العباسيين العلويين في يوم بنيف وثلاثين ألف دينار على إضافته، ووصل خادم المدينة فذكر ما يلحق حجرة رسول الله من التفريط، وقطع مواد الطيب وغيره عنها، فأمر للخادم بعشرين ألف درهم، وتقدم بحمل الطيب وضم إليه خمسة من الخدم ليكونوا في خدمة الحجرة، ونفذ مع أبي أحمد الموسوي قنديلاً من ذهب وزنه ستمائة مثقال، وتسع قناديل من فضة ليعلقها في الكعبة.

قال المطيع لله: وقد أحدق به خلق كثير من الحنابلة حزروا ثلاثين ألفاً فأراد أن يتقرب إليهم فقال: سمعت شيخي ابن بنت منيع يقول: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذل.

وفي يوم الأربعاء لأربع خلون من شعبان: وجدت امرأة هاشمية قد سرقت صبياً فشوته في تنور وهو حي وأكلت بعضه، وأقرت بذلك، وذكرت أن شدة الجوع حملها على ذلك، فحبست ثم أخرجت وضربت عنقها، ووجدت امرأة أخرى هاشمية أيضاً قد أخذت صبية فشقتها بنصفين فطبخت النصف سكباجاً، والنصف الآخر بماء وملح، فدخل الديلم فذبحوها، ثم وجدت ثالثة وقد شوت صبياً وأكلت بعضه فقتلت.

وكان قد بلغ المكوك من الحنطة خمسة وعشرين درهماً، واضطر الناس إلى أكل البزر قطوناً، كان يؤخذ فيضرب بالماء ثم يبسط على الطابق ويشعل تحته، فإذا حمي أكلوه. وأكلوا الجيف، وإذا راثت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث فالتقطوا ما فيه من حب الشعير فأكلوه، وكانت الموتى مطرحين، فربما أكلت الكلاب لحومهم، وخرج الناس إلى البصرة خروجاً مسرفاً فمات أكثرهم في الطريق، ومات بعضهم بالبصرة وصار الضعفاء يغنى أكثرهم وصار العقار والدور تباع بالرغفان من الخبز، ويأخذ الدلال بحق دلالته بعض الخبز.

* * *

سنة خمس وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: ما قد ذكرنا أن معز الدولة أبو الحسين بن بويه حصر المطيع لله، ووكل به، وأن ناصر الدولة أبو محمد بن حمدان جاء إلى بغداد يخاصم عن الخليفة، فدخل إلى بغداد، وحارب معز الدولة، فعبر معز الدولة إلى الجانب الشرقي، فملكه في أول يوم من المحرم، فانهزم ناصر الدولة، ونهب الديلم باب الطاق وسوق يحيى، وقتل من العامة جماعة، وخرج نساء وصبيان من بغداد هاربين في طريق عكبرا، لأنه وقع للناس أن الديلم إذا ملكوا الجانب الشرقي وضعوا السيف تشفياً من العوام؛ لأنهم كانوا يشتمون معز الدولة والديالمة شتماً مسرفاً واستعمل معز الدولة الحلم، ومنع من القتل، إلا من هرب من الرجال والنساء والصبيان، وتلف في طريق عكبرا من الحر والعطش خلق كثير؛ لأنهم خرجوا مشاة حفاة.

* * *

سنة ست وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ظهر كوكب مذنب في صفر من ناحية المشرق طوله نحو ذراعين فمكث عشرة أيام ثم اضمحل.

وسار الخليفة ومعز الدولة من واسط في البرية على الطفوف، فلما صار في البرية ورد على معز الدولة رسول من الهجريين القرامطة من هجر بكتاب منهم إليه باللوم على سلوكه البرية، بغير أمرهم، إذ كانت لهم، فلم يجبهم عن الكتاب، وقال للرسول يقول لهم: ومن أنتم حتى تستأذنوا في سلوك البرية، وكأني أنا أقصد البصرة قصدي إنما هو بلدكم وإليكم أخرج من البصرة بعد فتحي إياها بإذن الله تعالى وستعرفون خبركم.

ولما افتتح معز الدولة البصرة قطع عن الخليفة الألفي درهم التي كان يقيمها له في كل يوم لنفقته، وعوضه عنها ضياعاً من ضياع البصرة وغيرها، زيادة على قدر ضياع الخليفة بنحو مائتي ألف دينار في السنة ثم نقص ارتفاعها على ممر السنين حتى صار خمسين ألف دينار في السنة.

وورد الكتاب بتقلد القاضي أبي السائب عتبة بن عبيد الله القضاء في الجانب الغربي ومدينة أبي جعفر مكان القاضي أبي الحسين محمد بن صالح، فاجتمعت له مدينة السلام.

* * *

سنة سبع وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم تفرغ الناس بالليل وتحارسوا وكان سبب ذلك: خيل إليهم حيوان يظهر في الليل في سطوحهم فتارة يظنونه ذئباً، وتارة يظنون غيره، فبقوا على ذلك أياماً كثيرة ثم سكنوا، وكان ابتداء ذلك من سوق الثلاثاء إلى غيره ثم انتشر في الجانبين.

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من رمضان: انتهت زيادة دجلة إلى إحدى وعشرين ذراعاً وثلث، فغرقت الضياع والدور التي عليها، وأشفى الجانب الشرقي على الغرق، وهمّ الناس بالهرب منه.

* * *

سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في آخر ربيع الأول وقعت فتنة بين أهل السنة والشيعة ونهبت الكرخ.

وفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة تقلد القاضي أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمذاني قضاء القضاة.

* * *

سنة تسع وثلاثين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة: بأن سيف الدولة غزا فأوغل في بلاد الروم، وفتح حصوناً كثيرة من حصونهم وسبى خلقاً كثيراً، فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه الدرب الذي أراد أن يخرج منه، فتلف كل من كان معه من المسلمين، أسراً وقتلاً، وارتجع الروم ما أخذه من السبي، وأخذوا خزانته وكراعه وسلاحه وأفلت في عدد يسير، وقد كان معه ثلاثون ألف رجل.

وفي ذي القعدة: رد الحجر الأسود الذي كان أبو طاهر سليمان بن الحسن الهجري أخذه من الكعبة، وعلق على الاسطوانة السابعة من مسجد الكوفة، وقد بجكم بذل في رده خمسين ألف دينار فلم يرد، وقيل: أخذنا بأمر، وإذا ورد الأمر برده رددناه، فلما كان في ذي القعدة كتب أخوة أبي طاهر الهجري كتاباً يذكرون فيه أنهم ردوا الحجر بأمر من أخذوه بأمره، ليتم مناسك الناس وحجهم. فرد إلى موضعه.

* * *

سنة أربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر بمسير صاحب عمان إلى الأبلة يريد البصرة وورود أبي يعقوب الهجري لمعاونة صاحب عمان على فتح البصرة، فانهزم صاحب عمان من البصرة، واستؤثر جماعة من أصحابه، وأخذ منه خمسة مراكب، ودخل في ربيع الآخر أبو محمد المهلبي إلى بغداد ومعه المراكب والأسارى.

وفي رمضان: وقعت فتنة عظيمة بالكرخ بسبب المذهب.

* * *

سنة إحدى وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر بحرب جرت بين أبي عبد الله أحمد بن يحيى العلوي وبين المصريين بمكة، وكانت على المصريين، وقتل أمير مكة، وتم الحج في هذه السنة على طمأنينة، وأقام أهل مصر الخطبة للمصري ووقت الظهر يوم عرفة، وأقام العلوي الخطبة بعد الظهر لركن الدولة ومعز الدولة، ورفع إلى أبي محمد الحسين بن محمد المهلبي أن رجلاً يعرف بالبصري مات بمدينة السلام، وكان إماماً للعزاقرية، وهو صاحب أبي جعفر محمد بن علي المعروف: بابن أبي العزاقر، وكان يدعي حلول روح أبي جعفر بن أبي العزاقر فيه، وأنه قد خلف مالاً جزيلاً، وأن له أصحاباً وثقات يعتقدون فيه الربوبية، وأن أرواح الأنبياء والصديقين حلت فيهم، فتقدم بالختم على منزله والقبض على هذه الطائفة، وكان في الطائفة شاب يعرف: بابن هرثمة يدعي له أن روح علي بن أبي طالب حلت فيه، وامرأة يقال لها: فاطمة، تدعي أن روح فاطمة عليها السلام حلت فيها، وأخرى يقال لها فاطمة الصغرى تدعي أن روح فاطمة الصغرى حلت فبها وخادم يدعى ميكائيل، وحصل من قبلهم عشرة آلاف درهم، وعين تقارب قيمة ذلك وكان المهلبي يسمي هذا المال مال الزنادقة وخلي القوم لئلا ينسب المهلبي إلى الانحراف عن الشيعة.

* * *

سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في ربيع الأخر بغزاة لسيف الدولة، وأنه غنم وقتل وسبى واستأثر قسطنطين بن الدمستق، وجرت حروب بمكة لأجل الخطبة فانهزم المصريون.

* * *

سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر بوقعة كانت بين الدمستق وسيف الدولة عظيمة، وقتل خلق من أصحاب الدمستق ورؤساء بطارقته.

وفي هذه السنة: عم الناس أمراض وحميات ونزلات وأوجاع الحلق.

وفي ذي الحجة: عرض لمعز الدولة مرض وهو الإيقاظ الدائم، فأرجف به، فاضطربت بغداد اضطراباً شديداً، واضطر إلى الركوب مع علته حتى رآه الناس فسكنوا.

* * *

سنة أربع وأربعين وثلاثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه حدث في ابتداء المحرم بأصبهان علة مركبة من الدم والصفراء، فشملت الناس، فربما هلك جميع من في الدار، وكان أصلح حالاً من تلقاها بالفصد، وكانت بقية العلة قد طرأت على الأهواز، وبغداد، وواسط والبصرة واقترن بها هناك وباء حتى كان يموت كل يوم ألف نفس.

وظهر جراد كثير في حزيران، فأتى على الغلات الصيفية والأثمار، وأضر بالشجر والثمار.

وفي هذه السنة: عقد معز الدولة لابنه أبي منصور بختيار الرياسة وقلده إمرة الأمراء في محرم هذه السنة لأجل مرضه. وحج الناس قي هذه السنة من غير بذرقة.

سنة خمس وأربعين وثلاثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه وزر أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي لمعز الدولة في جمادى الآخرة، وورد الخبر في هذا الشهر أن الروم أوقعوا بأهل طرسوس في البحر، وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل، وأحرقوا القرى التي حولها، وسبوا أهلها.

سنة ست وأربعين وثلاثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ركب الخليفة ومعه معز الدولة، فسارا في الصحراء، ثم رجعا إلى داريهما.

وفي آخر المحرم: كانت فتنة للعامة بالكرخ.

وفي التشرينين: أصاب الناس أورام الحلق، والماشرى، وكثر موت الفجأة، وكان من افتصد في هذين الشهرين انصبت إلى ذراعه مادة حادة عظيمة، ثم ما سلم مفتصد إما أن يموت أو يشفى على التلف.

ونقص البحر في هذه السنة ثمانين ذراعاً، وظهرت فيه جبال وجزائر لا تعرف ولا سمع بها.

وفي ذي الحجة: ورد الخبر بأنه كان بالري ونواحيها زلزلة عظيمة، مات فيها خلق كثير من الناس.

أخبرنامحمد بن أبي الطاهر البزاز، عن أبي القاسم علي بن المحسن، عن أبيه قال: أخبرني أبو الفرج الأصبهاني: أن لصاً نقب ببغداد في زمن الطاعون الذي كان في سنة ست وأربعين وثلثمائة فمات مكانه وهو على المنقب، وأن إسماعيل القاضي لبس سواده ليخرج إلى الجامع فيحكم، ولبس أحد خفيه وجاء ليلبس الآخر فمات.

* * *

سنة سبع وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه كانت زلزلة ببغداد في نيسان، وكانت زلازل عظيمة في حلوان، وبلدان الجبل، وقم، وقاشان، فقتلت خلقاً كثيراً وأخربت.

وظهر في آخر نيسان وأيار جراد أتلف الغلات الصيفية والثمار ببغداد، وأتلف من الغلات الشتوية بديار مضر شيئاً عظيماً، واجتاحت الرطاب والمباطخ.

وورد الخبر بأن الروم خرجوا إلى آمد، وميافارقين، وفتحوا حصوناً كثيرة، وقتلوا من المسلمين ألفاً وخمسمائة رجل.

وفي آخر هذه السنة: فتح الروم سميساط، وأخربوها.

* * *

سنة ثمان وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في جمادى الأولى اتصلت الفتن بين الشيعة والسنة، وقتل بينهم خلق كثير، ووقع حريق كثير في باب الطاق.

وفي هذه السنة: غرق من الحاج الوارد من الموصل بضعة عشر زورقاً كان فيها من الرجال والنساء والصبيان ستمائة نفس.

* * *

سنة تسع وأربعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان وقعت فتنة بين السنة والشيعة في القنطرة الجديدة، وتعطلت الجمعة من الغد في جميع المساجد الجامعة في الجانبين سوى مسجد براثا، فإن الصلاة تمت فيه، وقبض على جماعة من بني هاشم، واعتقلوا في دار الوزير، لأنهم اتهموا بأنهم كانوا سبب الفتنة، وأطلقوا من الغد.

وفي هذا الشهر: ورد الخبر بأن ابناً لعيسى بن المكتفي بالله ظهر بناحية أرمينية وموقان، وأنه يلقب: بالمستجير بالله، يدعو إلى المرتضى من آل رسول الله ، وأنه لبس الصوف، وأمر بالمعروف، وتبعه جماعة فسار إلى آذربيجان، فغلب على عدة بلدان منها، ثم حورب فأخذ.

وفي نصف شوال: عرضت لمعز الدولة علة في الكلى، فبال الدم، وقلق منها قلقاً شديداً ثم بال بعد ذلك الرمل، ثم الحصى الصغار والرطوبة التي ينعقد منها الرمل والحصى.

وأسلم في هذه السنة من الأتراك مائتا ألف خركاه.

* * *

سنة خمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه اشتدت علة معز الدولة ليلة السبت لأربع خلون من المحرم، وامتنع عليه البول كله، واشتد قلقه وجزعه، ثم بال على ساعة باقية من الليل دماً بشدة، ثم تبعه البول وخرج مع البول رمل كثير وحصى صغار، وخف الألم، فلما أصبح سلم داره وغلمانه وكراعه إلى ابنه الأمير أبي منصور بختيار، وفوض الأمر إليه، وخرج في عدة يسيرة من غلمانه وخاصته ليمضي إلى الأهواز، ثم أشير عليه بالتوقف فتنقل من مكان إلى مكان إلى أن عاد إلى داره، ثم انتقل في جمادى الأولى من داره بسوق الثلاثاء إلى البستان المعروف ببستان الصميري، وأخذ في أن يهدم ما يليه من العقار والأبنية إلى حدود البيعة، وأصلح ميداناً وبنى داراً على دجلة في جوار البيعة، ومد المسناة، وبنى الاصطبلات، وقلع الأبواب الحديد التي على مدينة أبي جعفر المنصور، وأبواب الرصافة، وقصر الرصافة، ونقلها إلى داره. وهدم سور الحبس المعروف بالجديد، ونقل آجره إلى داره، وبنى به، ونقض المعشوق بسر من رأى وحمل آجره، وانفق على البناء إلى أن مات مائة ألف دينار، وقبض على جماعة فصودروا على مال عظيم، فأمر أن يصرف إلى بناء الدار والاصطبلات، ولحق الناس في هذا الصقع شدة شديدة من التنزل عليهم.

وفي يوم الأحد لثمان بقين من شعبان: تقلد أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب القضاء بالحضرة من جانبي بغداد والمدينة، وقضاء القضاة، وخلع عليه من دار السلطان، لأن الخليفة امتنع من أن يصل إليه وضرب بين يديها الدبادب على أن يحمل إلى خزانة معز الدولة كل سنة مائتي ألف درهم، وامتنع الخليفة من أن يصل إليه هذا القاضي أو غيره.

سنة إحدى وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في المحرم بدخول الروم عين زربة في مائة وستين ألف رجل، فطلب المسلمون الأمان فأمنهم ملك الروم، فلما دخل البلد نادى في أول الليل بأن يخرج جميع الناس إلى المسجد الجامع، وأن من تأخر في منزله قتل. فخرج من أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجاله، فمن وجدوه في منزله قتلوه فقتلوا خلقاً من الرجال والنساء والأطفال، وأمر بقطع نخل البلد فقطع منه أربعون ألف نخلة، ونادى فيمن حصل في الجامع أن يخرجوا حيث شاءوا وأن من أمسى فيه قتل، فخرج الناس مبادرين وتزاحموا في الأبواب، فمات بالضغط خلق كثير، ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يدرون أين يتوجهون، فمات أكثرهم في الطرقات، ثم أخذ الأسلحة والأمتعة، وأمر بهدم الجامع وكسر المنبر، وهدم سور البلد، والمنازل، وبقي مقيماً في بلاد الإسلام واحداً وعشرين يوماً، وفتح حول حصن زربة أربعة وخمسين حصناً، بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، وقتل خلقاً كثيراً من المسلمين، ثم إن سيف الدولة أعاد بناء عين زربة.

سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في اليوم العاشر من المحرم أغلقت الأسواق ببغداد، وعطل البيع، ولم يذبح القصابون ولا طبخ الهراسون ولا ترك الناس أن يستقوا الماء، ونصبت القباب في الأسواق، وعلقت عليها المسموح، وخرجت النساء منتشرات الشعور يلطمن في الأسواق، وأقيمت النائحة على الحسين عليه السلام.

وفي نصف ربيع الأول: ورد الخبر بأن ألف رجل من الأرمن ساروا إلى الرها، فاستاقوا خمسة آلاف رأس من الغنم، وخمسمائة من البقر والدواب، واستأسروا عشرة أنفس، وانصرفوا موقرين.

وفي جمادى الآخرة: قلد أبو بشر عمر بن أكثم القضاء بمدينة السلام بأسرها، على أن يتولى ذلك بلا رزق، وخلع عليه، ورفع كان يحمله أبو العباس بن أبي الشوارب، وأمر أن لا يمضي شيئاً من أحكام أبي العباس، وفي شعبان: قلد قضاءالقضاة.

وفي شعبان: مات الدمستق الذي فتح بلدة حلب، واسمه: نقفور.

وفي ليلة الخميس ثامن عشر ذي الحجة: وهو يوم " غدير خم " أشعلت النيران، وضربت الدبادب والبوقات، وبكر الناس إلى مقابر قريش.

سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن عمل في عاشوراء مثل ما عمل في السنة الماضية من تعطيل الأسواق وإقامة النواح، فلما أضحى النهار يومئذ وقعت فتنة عظيمة في قطيعة أم جعفر وطريق مقابر قريش بين السنة والشيعة، ونهب الناس بعضهم بعضاً، ووقعت بينهم جراحات.

وورد الخبر بنزول جيش ضخم من الروم على المصيصة وفيه الدمستق، وأقام عليها سبعة أيام، ونقب في سورها نيفاً وستين نقباً ولم يصل، ودافعه أهلها وانصرف، إذ قصرت به الميرة بعد أن أقام ببلاد الإلام خمسة عشر يوماً، وأحرق الدمستق المصيصة وأذنة، وطرطوس، وذلك لمعاونتهم أهل مصيصة على الروم، فظفر بهم الروم، فقتلوا نحو خمسة آلاف رجل، وقتل أهل أذنة وأهل طرسوس من الروم عدداً كثيراً، وقال الدمستق قبل انصرافه عن المصيصة: يا أهل المصيصة، إني منصرف عنكم لا لعجز عن فتح مدينتكم، ولكن لضيق العلوفة، وأنا عائد إليكم بعد هذا الوقت، فمن أراد منكم الهرب فليهرب قبل رجوعي، فمن وجدته قتلته.

وورد الخبر في ربيع الأول: أن الغلاء بأنطاكية وسائر الثغور اشتد حتى لم يقدر على الخبز، وانتقل من الثغور إلى دمشق وغيرها خمسون ألفاً هرباً من الغلاء.

وفي جمادى الأولى: ورد الخبر بأن الهجريين أنفذوا سرية إلى طبرية واستمدوا من سيف الدولة حديداً فقلع أبواب الرقة - وكانت من حديد - وأخذ كل حديد وجد حتى أخذ صنجات الباعة والبقالين، فبعثها إليهم حتى كتبوا إليه: إننا قد استغنينا.

وفي جمادى الآخرة: أراد معز الدولة الإصعاد إلى الموصل، فانحدر إلى الخليفة فودعه وخرج.

وروى هلال بن المحسن الصابي، عن أبي الحسن ابن الخراساني حاجب معز الدولة، قال: كنت مع معز الدولة بحضرة المطيع، فلما تقوض المجلس قال لي: قل للخليفة: أريد أن أطوف الدار وأشاهدها، وأتأمل صحونها وبساتينها، فيتقدم إلي من يمشي معي ويطيفني. فقلت له ذلك، فتقدم إلى خادمه شاهك وحاجبه ابن أبي عمرو، فمشيا بين يديه وأنا وراءهما بعدنا عن حضرة الخليفة، فقالا له: لا يجوز أن نتخرق الدار في أكثر من نفسين أو ثلاثة، فاختر من تريد واردد الباقين، فأخذ أبا جعفر الصيمري معه، ونحن عشرة من غلمانه وحجابه

ووقف باقي الجند والحواشي في صحن السلام، ودخلنا ومضى الأمير مسرعاً فلحقته وجذبت قباءه من خلفه، فالتفت إلي، فقلت له بالفارسية وأصحاب الخليفة لا يعرفونها: في أي موضع أنت حتى تسترسل هذا الاسترسال، وتعدو من غير تحفظ ولا استظهار، ألا تعلم أنه قد فتك في هذا الدار بألف أمير ووزير، وما كان غرضك في أن تطوف وحدك، أليس لو وقف لنا عشرة نفر من الخدم أو غيرهم في هذه الممرات الضيقة لأخذونا؟ فقال له الصميري: قد صدقك، فقال: قد كان ذلك غلطاً والآن فإن رجعنا الساعة علم أننا قد فزعنا وخفنا، وسقطنا بذلك من أعينهم وضعفت هيبتنا في صدورهم، ولكن احتفوا بي فإن مائة من هؤلاء لا يقاوموننا ونحن نسرع في رؤية ما نراه.

قال: فسعينا سعياً حثيثاً وانتهينا إلى دار فيها صنم من صفر على صورة امرأة، وبين يديه أصنام صغار كالوصائف، فرأينا من ذلك ما أعجبنا، وتحير معز الدولة، وسأل عن الصنم، فقيل له: هذا صنم حمل في أيام المقتدر بالله من بلد الهند لما فتح صاحب عمان ذلك البلد، وقيل: إنه كان يعبد هناك: فقال معز الدولة: إني قد استحسنت هذا الصنم، وشغفت به، ولو كانت مكانه جارية لاشتريتها بمائة ألف دينار على قلة رغبتي في الجواري، وأريد أن أطلبه من الخليفة ليكون قريباً مني فأراه في كل وقت، فقال له الصميري، لا تفعل، فإنه ينسبك في ذلك إلى ما ترتفع عنه.

قال: وبادرنا بالخروج، فما رجعت إلينا عقولنا إلا بعد اجتماعنا مع أصحابنا، ونزل معز الدولة الطيار، فقال لأبي جعفر الصميري: قد ازدادت محبتي للمطيع لله وثقتي به، لأنه لو كان يضمر لي سوءاً أو يريده بي لكنا اليوم في قبضة. فقال الصميري: الأمر على ذلك. وصعد معز الدولة إلى داره، وأمر بحمل عشرة آلاف درهم إلى نقيب الطالبيين ليفرقها فيهم شكراً لله على سلامته.

* * *

سنة أربع وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عمل في يوم عاشوراء ماجرت به عادة القوم من إقامة النوح، وتعليق المسوح.

وفي ليلة السبت الثالث عشر من صفر: انكسف القمر كله.

وفي ليلة الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الآخر: كبس مسجد براثا، وقتل في قوامه نفسان.

وفي نيسان: جاء برد كبار جداً، حكى بعض من يوثق به أنه وزن بردة فكان فيها مائة درهم.

وفي يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة من هذه السنة: تقلد أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي نقابة الطالبيين بأسرهم سوى أبي الحسن بن أبي الطيب وولده، فإنهم استعفوا منه، فرد أمرهم إلى أبي الحسن علي بن موسى حمولي.

* * *

سنة خمس وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عمل في عاشوراء ما جرت عادة القوم به من النوح وغيره، وورد الخبر بأن بني سليم قطعوا الطريق على قافلة المغرب، ومصر، والشام الحاجة إلى مكة في سنة أربع وخمسين، وكانت قافلة عظيمة، وكان فيها من الحاج التجار والمنتقلون من الشام إلى العراق هرباً من الروم، ومن الأمتعة نحو ألف حمل منها دق مصر ألف وخمسمائة حمل، ومن أمتعة المغرب اثنا عشر ألف حمل وأنه كان في أعدال الأمتعة من الأموال من العين والورق ما يكثر مقداره جداً، وكان لرجل يعرف بالخواتيمي قاضي طرسوس فيها مائة وعشرون ألف دينار عيناً وأن بني سليم أخذوا الجمال مع الأمتعة، وبقي الناس رحالة منقطعاً بهم، كما أصاب الناس في الهبير سنة القرمطي، فمن الناس من عاد إلى مصر ومنهم من تلف وهم الأكثرون.

وفي جمادى الآخرة نودي برفع المواريث الحشرية وغيرها.

وفي رجب: تم الفداء بين سيف الدولة والروم، وتسلم سيف الدولة أبا فراس ابن سعيد بن حمدان، وأبا الهيثم بن أبي حصين بن القاضي.

وفي ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة من شعبان: انكسف القمر كله وغاب منكسفاً.

وكتب معز الدولة إلى طاهر بن موسى أن يبني موضع الحبس الجديد ببغداد مارستاناً، وعمل على أن يقف عليه وقفاً، وأفراد لذلك مستغلاً بالرصافة ببغداد، وضياعاً بكلواذى، وقطربل، وجرجرايا ترتفع بخمسة آلاف وابتداء طاهرك، فبنى المسناة وأتمها، وابتدأ بالبناء داخلها فمات معز الدولة قبل أن يستتم ذلك.

و في هذه السنة حج بالناس أبو أحمد النقيب وهو الذي حج بهم في السنة الخالية.

سنة ست وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عمل في يوم عاشوراء ما يعمله القوم من النزح وغيره، زتوفي معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه، وتولى ابنه عز الدولة أبو منصور بختيار.

وفي يوم الخميس لسبع خلون من شعبان: خلع على القاضي أبي عبيد الله بن أحمد معروف، وقلد القضاء بالجانب الغربي من بغداد، ومدينة المنصور، وحريم دار السلطان، وقلد القاضي أبو بكر بن سيار القضاء فيما بقي من الجانب الشرقي من بغداد وخلع عليهما وبعد مديدة قلد القاضي أبو محمد بن معروف الأشراف على الحكم والحكام.

سنة سبع وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عمل ببغداد يوم عاشوراء ما جرت به عادة القوم من تعطيل الأسواق وتعليق المسوح والنوح، وفي غدير خم ما جرت به عادتهم أيضاً.

وفي يوم الاثنين لثلاث بقين من ربيع الآخر: صرف القاضي أبو محمد عبيد الله ابن معروف عن القضاء في حريم دار السلطان، وتقلده القاضي أبو بكر أحمد بن سيار مضافاً إلى ما كان إليه من الجانب الشرقي، وأزيد ما كان إلى ابن معروف من الإشراف على الحكام والأحكام.

وفي ذي القعدة: ورد الخبر بأن الروم سبوا من سواد أنطاكية اثني عشر ألفاً من المسلمين.

وورد خبر الحاج بأن أكثر أهل الخراسانية هلكوا، وهلكت جمالهم بالعطش، ومن سلم منهم وهم الأقل ولم يلحق يوم عرفة، ولم يتم لهم الحج، وإنما تم لنفر يسير من أهل بغداد، ولم يرد من مصر غير الإمام ونفرين معه، ولم يحج من أهل الشام أحد، وورد من اليمن نفر يسير.

وفي تشرين الثاني: عرض للناس الماشرا، ووجع الحلق، وكثر الموت فجاءة.

* * *

سنة ثمان وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه جرى في يوم عاشوراء ما جرت به عادة الشيعة من تعطيل الأسواق، وإقامة النوح وغير ذلك وكذلك فعلوا في يوم غديرخم.

وفي هذه السنة: وقع الغلاء، وبيع الكر بتسعين دينار، وكان الخبز يعدم. وورد الخبر بأن الروم دخلوا كفرتوثا، فسبوا وقتلوا ثمانمائة إنسان، ومضوا إلى حمص، فوجدوا أهلها قد انتقلوا عنها، فأحرقوها ونكسوا في الثغور وسبي نحو من مائة ألف إنسان فارسي.

وفي جمادى الأولى خرج أبو عبد الله بن أبي بكر الآدمي القاري من منزله، وأخذ من بعض الصيارف فوق عشرة آلاف درهم، وفقد أربعة أيام لم يعرف له خبر، فلما كان يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى وجد ميتاً مطروحاً في الصراة، بساويله وخاتمه في إصبعه، وليس به جراحة، ولا أثر خنق، ولا غرق، وإنما طرح في الماء بعد أن مات.

ودخل جوهر إلى مصر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين، وخطب لبني عبيد في الجامعين بفسطاط مصر، وسائر أعمالهما يوم الجمعة لعشر ليال بقين من شعبان هذه السنة، وكان الخاطب في هذا اليوم عبد السميع بن عمر العباسي.

وفي ذي الحجة نقل الأمير عز الدولة، معز الدولة من داره إلى تربة بنيت له في مقابر قريش.

* * *

سنة تسع وخمسين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في يوم عاشوراء فعلت الشيعة ما هي عادتهم من تعطيل الأسواق، وإقامة النوح واللطم.

وورد الخبر في المحرم بأن الروم وردوا مع نقفور، فأحاطوا بسور أنطاكية، وملكوا البلد، وأخرجوا المشائخ والعجائز والأطفال من البلد، وقالوا لهم: امضوا حيث شئتم، وأخذوا الشباب من النساء والغلمان والصبيان. فحملوهم على وجه السبي، وكانوا أكثر من عشرين ألف رجل وكان نقفور ملك الروم قد عثى وقهر بلاداً كثيرة من بلاد الإسلام، وعظمت هيبته، وكان قد تزوح امرأة الملك الذي قبله على كره منها، وكان لها ابنان من الملك، فعمل نقفور على أن يخصيهما ويهديهما إلى البيعة ليستريح منهما، ومن أن يكون لهما نسل للملك، فبلغ ذلك زوجته، فقلقت وأرسلت في أن يسيرا إليهما في زي النساء، ومعهما جماعة تثق بهم في مثل زيهما، وأوهمت زوجها أن نسوة من أهلها زوارها في ليلة الميلاد، فجاءوا وهو نائم، فقتلوه وأجلس في الملك الأكبر من ولديها.

وفي ربيع الأول: صرف القاضي أبو بكر أحمد بن سيار عن القضاء في حريم دار السلطان، ورد إلى أبي محمد بن معروف.

وفي ربيع الآخر: ورد الخبر بأن الهجريين نادوا أن لا تخرج قافلة من البصرة إلى بلد هجر، ولا إلى الكوفة في البرية، ولا إلى مكة، فمن فعل ذلك فلا ذمام له.

ونقصت دجلة في هذه السنة نقصاناً مفرطاً، وغارت الآبار.

وفي ذي الحجة: انقض كوكب عظيم في أول الليل له شعاع أضاءت منه الدنيا حتى صار كأنه شعاع الشمس، وسمع بعد انقضاضه صوت كالرعد الشديد. وحج بالناس أبو أحمد النقيب.

سنة ستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في يوم عاشوراء فعلت الشيعة ماجرت به عادتهم من النوح، واللطم، وتعطيل الأسواق.

وورد كتاب أبي أحمد الحسين بن موسى نقيب الطالبيين من مكة، بتمام الحج في سنة تسع وخمسين، وأنه لم يرد أحد من قبل المغرب، وأن الخطبة أقيمت للمطيع لله وللهجريين من بعده، وأنه علق القناديل التي حملها معه خارج البيت، وكان واحد منها ذهب وزنه ستمائة مثقال، والباقي فضة، مدة خمسة أيام حتى رآها الناس، ثم أدخلت إلى البيت، وأنه نصب الأعلام الجدد التي حملت معه، وعليها اسم الخليفة.

وفي أول صفر: لحق المطيع لله سكتة آل الأمر فيها إلى استرخاء جانبه الأيمن وثقل لسانه.

وفي جمادى الآخرة: ظهر جراد صغار، فنسفتها الريح، فصارت دجلة مفروشة به.

وفي شعبان: تقلد أبو محمد بن معروف قضاء القضاة، وصرف أبو بكر ابن سيار عن الجانب الشرقي، وركب معه الوزير أبو الفضل الشيرازي، وكان هذا الوزير قد أطلق من حبسه، وخلع عليه خلع الوزارة، وقبل ابن معروف شهادة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي واستخلفه على الحكم من الجانب الشرقي، وقبل أيضاً شهادة أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي، ووثبت العامة بالمطهر بن سليمان في جامع المدينة، ونسبوه إلى القول بخلق القرآن.

سنة إحدى وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عمل ببغداد ما قد صار الرسم به جارياً في كل يوم عاشوراء من غلق الأسواق، وتعطيل البيع والشراء، وتعليق المسوح.

وانقض في ليلة الأربعاء تاسع صفر كوكب عظيم له دوي كدوي الرعد.

وفي جمادى الآخر: مات أبو القاسم سعيد بن أبي سعيد الجنابي بهجر، وقام من بعده بالأمر أخوة أبو يعقوب يوسف، ولم يبق من أولاد أبي سعيد الجنابي غيره، وعقد القرامطة الأمر بعد أبي يعقوب لستة نفر من أولادهم شركة بينهم.

وفي هذه السنة: وردت كتب الحاج بأن بني هلال اعترضهم، فقتلوا خلقاً كثيراً، فتعطل الحج، ولم يسلم إلا من مضى مع الشريف أبي أحمد الموسوي على طريق المدينة وتم حجهم.

* * *

سنة اثنتين وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: دخول جموع الروم إلى بلاد الإسلام فانهم دخلوا نصيبين واستباحوا وقتلوا كثيرا من رجالها وسبوا من نسائها وصبيانها وأقاموا بها نيفا وعشرين يوما وغلبوا على ديار ربيعة بأسرها وورد الى بغداد خلق كثيرمن أهل تلك البلاد فانتشروا فى الجوامع وكسروا المنابر ومنعوا الخطبة وحاولوا الهجوم على دار المطيع لله واقتلعوا بعض شبابيكها حتى غلقت ابوابها ورماهم الغلمان بالنشاب من رواشنها وحيطانها وخاطبوه بما نسبوه فيه الى العجز عن ما أوجبه الله على الأئمة وأفحشوا القول ووافق ذلك شخوص عز الدولة من واسط للزيارة فخرج إليه أهل الستر والصيانة من أهل بغداد منهم أبو بكر الرازى الفقيه وأبو الحسن على بن عيسى النحوى وابو القاسم الداركى وابن الدقيق الفقيهان وشكوا إليه ما طرق المسلمين من هذه الحادثة فوعدهم بالغزو واستنفر الناس فخرج من العوام عدد الرمل ثم نفذ جيشا فهزم الروم وقتل منهم خلق كثير وأسر أميرهم وجماعة من بطارقته وأنفذت رؤوس القتلى إلى بغداد وكتب معهم كتاب إلى المطيع لله يبشر بالفتح.

وفى شهر رمضان قتل رجل من صاحب المعونة فى الكرخ فبعث أبو الفضل الشيرازى وكان قد اقامه معز الدولة مقام الوزير من طرح النار من النخاسين إلى السماكين فاحترقت أموال عظيمة وجماعة من الرجال والنساء والصبيان فى الدور والحمامات فأحصى ما احترق فكان سبعة عشر الف وثلثمائة دكان وثلثمائة وعشرين دارا اجرة ذلك فى الشهر ثلاثة وأربعون ألف دينار ودخل فى الجملة ثلاثة وثلاثون مسجدا فقال رجل لأبى الفضل: أيها الوزير أريتنا قدرتك ونحن نؤمل الله تعالى أن يرينا قدرته فيك فلم يجبه وكثر الدعاء عليه فوزر بعد معز الدولة لابنه عز الدولة فقبض عليه وسلمه للشريف أبى الحسن محمد بن عمر العلوى فأنفذه إلى الكوفة فسقى ذراريح فتقرحت مثانته فمات فى ذى الحجة من هذه السنة.

وفى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان دخل أبو تميم معد بن إسمعيل الملقب بالمعز لدين الله مصر ومعه توابيت ابائه وكان قد مهد له ابو الحسن جوهر

لامور وأقام له الدعوة وبنى له القاهرة فنزلها وكان جوهر قد دخل إلى مصر سنة ثمان وخمسين ووطأ الأمر للمعز وأقام له الخطبة

* * *

سنة ثلاث وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه تقلد أبو الحسن محمد بن ابن أم شيبان الهاشمي قضاء القضاة، صارفاً لأبي محمد بن معروف، وكان أبو محمد قد طولب ببيع دار أبي منصور الشرابي على أبي بكر الأصبهاني الحاجب، فامتنع فقيل له: إن الوكيل الذي نصبه المطيع يبيع ذلك، وليس يراد منك إلا سماع الشهود والإسجال بها، فامتنع وأغلق بابه، وسأل الإعفاء عن القضاء فخوطب أبو الحسن بن أم شيبان فامتنع، فألزم فأجاب، وشرط لنفسه شروطاً منها: أنه لا يرتزق عن الحكم، ولا يخلع عليه، ولا يأمر ما لا يوجبه حكم، ولا يشفع إليه في إنفاق حق وفعل ما لا يقتضيه شرع، وقرر لكاتبه في كل شهر ثلثمائة درهم، ولحاجبه مائة وخمسون درهماً، وللفارض على بابه مائة درهم، ولخازن دار الحكم والأعوان ستمائة درهم، وركب إلى دار المطيع حتى سلم إليه عهده، وركب من غد إلى المسجد الجامع، فقرىء فيه عهده وتولى إنشاءه أبو منصور أحمد بن عبد الله الشيرازي، وهو يومئذ صاحب ديوان الرسائل.

* * *

باب ذكر خلافة الطائع لله عز وجل.

اسمه عبد الكريم بن المطيع لله، ويكنى: أبا بكر، وأمه أم ولد، اسمها: عتب، أدركت خلافته، وقد ذكرنا أن المطيع خلع نفسه غير مستكره، وولى الطائع في اليوم الذي خلع فيه المطيع نفسه، وكان سنه يوم ولي ثمان وأربعين سنة، وقيل: خمسين، ولم يل الأمر أكبر سناً منه، ولا من له أب حي سوى أبي بكر الصديق، والطائع، وكلاهما يكنى: أبا بكر، وكان أبو بكر الطائع أبيض، أشقر حسن الجسم، شديد القوة، وفي رواية: أنه كان في دار الخلافة أيل عظيم، فكان يقتل بقرنه الدواب والبغال، ولا يتمكن أحد من مقاومته فاجتاز الطائع لله فرآه وقد شق راويه فقال للخدم: امسكوه، فسعوا خلفه حتى ألجؤوه إلى مضيق، وبادر الطائع فأمسك قرنيه بيديه، فلم يقدر أن يخلصهما وهرب، واستدعى بنجار فقال: ركب المنشار عليهما، ففعل، فلما بقيا على يسير قطعهما بيده وهرب الإيل على وجهه، وسقطت فرجية الطائع، عن كتفيه، فتطأطأ بعض الخدم ليرفع الفرجية، فنظر إليه بؤخر عينه منكراً لفعله، فتركها ومضى الطائع، وبقيت الفرجية إلى آخر النهار لا يجسر أحد على تحريكها من موضعها، فلما أراد النجار الانصراف حضر الخادم وقال: خذ هذه الفرجية، فأخذها وكانت من الوشي القديم، فباعها بمائة وسبعين دينار.

ولما ولي الطائع وعليه البردة، ومعه الجيش، وبين يديه سبكتكين في يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة، ومن غد هذا اليوم خلع على سبكتكين الخلع السلطانية، وعقد له لواء الإمارة، ولقبه نصر الدولة، وحضر عيد الأضحى فركب الطائع إلى المصلى بالجانب الشرقي، وعليه السواد قباء، وعمامة، وخطب خطبة بليغة بعد أن صلى بالناس كانت " الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر متقرباً إليه، ومعتمداً عليه، ومتوسلاً بأكرم الخلائق لديه الذي صيرني إماماً منصوصاً عليه، ووهب لي أحسن الطاعة في ما فوضه إلي من الخلافة على الأمة، الله أكبر الله أكبر مقراً بجميل آلائه فيما أسنده إلي من حفظ الأمم وأموالها، وذراريها، وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها، وجعلني خير مستخلف على الأرض ومن فيها، الله أكبر تقرباً بنحر البدن التي جعلها من شعائره، وذكرها في محكم كتابه، وأتباعاً لسنة نبيه وخليله في فدية أبينا إسماعيل

إذ قد أمره بذبحه، فاستسلم لإهراق دمه وسفحه غير جزع فيما نابه، ولا نكل عن ما أمر به، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم العظيم بالذبائح، فإنها من تقوى القلوب، الله أكبر الله أكبر وصلى الله على محمد خيرته من خليقته، على أهل بيته وعترته، وعلى آبائي الخلفاء النجباء، وأيدني بالتوفيق فيما أتولى، وسددني من الخلافة فيما أعطى وأنا أخوفكم معشر المسلمين غرور الدنيا فلا تركنوا إلى ما يبيد ويفنى، ويزول ويبلى، وإني أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدي الله تعالى غداً، وصحفكم تقرأ عليكم، فمن أوتي كتابه بيمينه فلا يخاف ظلماً ولا هضماً، أعاذنا الله وإياكم عن الردى، واستعملنا وإياكم بأعمال أهل التقوى، واستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين.

ثم إن عز الدولة أدخل يده في إقطاع سبكتكين، فجمع سبكتكين الأتراك الذين ببغداد، ودعاهم إلى طاعنه فأجابوه، وراسل أبا إسحاق بن معز الدولة يعلمه بالحال، ويطمعه أن يعقد له الأمر، فاستشار والدته، فمنعته من ذلك، فصار إليها من بغداد من الديلم، وصوبوا لها محاربة سبكتكين، فحاربوه فقهروه واستولى على ما كان ببغداد لعز الدولة، وثارت العامة تنصر سبكتكين، وبعث سبكتكين إلى عز الدولة يقول له: إن الأمر قد خرج عن يدك، فأخرج لي عن واسط وبغداد ليكونا لي وتكون البصرة والأهواز لك، ولا تفتح بيننا باب حرب، وكتب عز الدولة إلى عضد الدولة يساعده ويستنجده، فماطله بذلك، ثم إن الناس صاروا حزبين، فأهل التشيع ينادون بشعار عز الدولة والديلم، وأهل السنة ينادون بشعار سبكتكين والأتراك، واتصلت الحروب، وسفكت الدماء، وكبست المنازل، وأحرق الكرخ حريقاً ثانيا.

سنة أربع وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في المحرم سنة أربع من المدينة أن أهل العراق، وخراسان، والكوفة، والبصرة بلغوا سميراً فرأوا هلال ذي الحجة على نقصان من ذي القعدة، وعرفوا أن لا ماء في الطريق من فيد إلى مكة، إلا صبابة لا يقوم بهم وبجمالهم، فعدلوا إلى بطن نخل يطلبون مدينة الرسول ، فوصلوا إليها يوم الجمعة سادس ذي الحجة، فبركت الجمال ولم تنهض، فعرفوا في المسجد، وخرجوا فصلوا صلاة العيد في مصلى النبي ، وكان أمير الحاج أبو منصور محمد بن عمر بن يحيى العلوي، وورد الناس الكوفة في أول المحرم، بعد أن لحقهم جهد شديد، وأقاموا بالكوفة لفساد الطريق، ثم حفروا أنفسهم وأموالهم حتى دخلوا بغداد في آخر الشهر.

وفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم: أوقع العيارون حريقاً بالخشابين من باب الشعير، فاحترق أكثر هذا السوق، وما يليها من سوق الجزارين، وأصحاب الحصر، وصف البواري، فهلك شيء كثير من هذه الأسواق من الأموال، وزاد أمر العيارين في هذه السنة، حتى ركبوا الدواب، وتلقبوا بالقواد، وغلبوا على الأمور، وأخذوا الخفائر عن الأسواق والدروب، وكان في جملة العيارين قائد يعرف: بأسود الزبد؛ لأنه كان يأوي قنطرة الزبد ويستعظم من حضر وهو عريان لا يتوارى، فلما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف فطلب سيفاً، ونهب وأغار، اجتمع إليه جماعة، فأخذ الأموال، واشترى جارية بألف دينار، فلما حصلت عنده حاول منها حاجته فمنعته، فقال: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كما أنت فقال: ما تحبين؟ قالت: أن تبيعني. قال: أو أفعل خيراً من ذلك، فحملها إلى القاضي وأعتقها، ووهب لها ألف دينار، فعجب الناس من سماحة أخلاقه إذ لم يجازها على كراهتها له. ثم خرج إلى الشام فهلك فيها.

* * *

سنة خمس وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن ركن الدولة أبا علي كتب إلى ولده عضد الدولة أبي شجاع يعرفه أنه قد كبرت سنه، وقرب منه ما يتوقعه أمر الله تعالى، وأنه يؤثر مشاهدته، واجتمعوا فقسم ركن الدولة الممالك بين أولاده، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان، وأرجان، ولمؤيد الدولة الري وأصبهان ولفخر الدولة همذان والدينور وجعل ولده أبا العباس في كنف عضد الدولة وأوصاه به. وفي يوم الثلاثاء سادس عشر رجب: جلس قاضي القضاة أبو محمد بن معروف في دار عز الدولة ونظر في الأحكام لأن عز الدولة اقترح ذلك عليه ليشاهد مجلس حكمه.

وفي ذي القعدة: خلع على أبي عبد الله أحمد بن محمد بن عبيد الله العلوي لإمارة الحاج من دار عز الدولة وحج بالناس علوي من جهة العزيز صاحب مصر وأقيمت الدعوة له بمكة والمدينة على رسم المعز أبيه، بعد أن حوصر أهل مكة فمنعوا الميرة، وقاسوا شدة شديدة.

* * *

سنة ست وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه توفي أبو علي بن بويه في المحرم، فوجد عضد الدولة طريقاً إلى ما كان يخفيه من قصد العراق.

وفي ليلة الثلاثاء، لست بقين من جمادى الأولى: نقلت بنت عز الدولة زوجة الطائع إليه.

وبلغت زيادة دجلة في رمضان، وهو الخامس والعشرين من نيسان: أحد وعشرين ذراعاً، وانفجر بالزاهر بثق وبباب التبن آخر.

* * *

سنة سبع وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في صفر إلى الكوفة بوفاة، أبي يعقوب يوسف بن الحسن الجنابي القرطمي صاحب هجر، فأغفلت أسواق الكوفة ثلاثة أيام.

وفي ربيع الأول: زلزلت بغداد.

وفي ربيع الآخر: عبر عز الدولة إلى الجانب الغربي على جسر عقدة، ودخل إلى قطربل، وتفرق عنه ديلمته، ودخل أوائل أصحاب عضد الدولة، ثم نزل عضد الدولة بالخيم في الشيفيعي، وخرج الطائع متلقياً له، وضربت القباب المزينة، ودخل البلد، ثم خرج عضد الدولة ومعه الطائع، ليقاتل عز الدولة بختيار، فلما أراد الخروج دخل عليه أبو علي الفارسي فقال له: ما رأيك في صحبتنا؟ فقال: أنا من رجال الدعاء لا اللقاء فخار الله للملك في عزيمته وأنجح قصده في نهضته، وجعل العافية زاده والظفر تجاهه، والملائكة أنصاره، ثم إنه أنشأ فقال له عضد الدولة: بارك الله فيك، فإني أثق بطاعتك، وأتيقن صفاء طويتك، فدعا له أبو علي، وقال: ائذن مولانا في نقل هذين البيتين، فأذن له فاستملاهما منه، فلما خرج للقتال التقوا فأخذ عز الدولة أسيراً، وقتل، ثم ركب بعد ذلك عضد الدولة إلى دار الطائع لله في يوم الأحد لتسع خلون من جمادى الأولى، أصناف الجند، والأشراف والقضاة والشهود والأماثل، والوجوه، فخلع عليه الخلع السلطانية، وتوجه بتاج مرصع بالجوهر، وطوقه وسوره وقلده سيفاً وعقد له لوائين بيده أحدهما مفضفض على رسم الأمراء، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود

ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره قبله، ممن يجري مجراه، ولقبه: تاج الملة، مضافاً إلى عضد الدولة، وكتب له عهداً، وقرئ العهد بحضرته، ولم تجر العادة بذلك، وإنما كانت العهود تدفع إلى الولاة بحضرة الخلفاء، فإذا أخذه الرجل منهم قال له: هذا عهدي إليك، فاعمل به وحمله على فرس بمركب ذهب، وقاد بين يديه آخر بمركب مثله، فخرج وجلس في الطيار إلى داره، وجلس من الغد بالخلع والتاج على السرير للهناء، وتقدم بإخراج عشرين ألف درهم في الصدقات، ففرقت على سائر الملل، وبعث إليه الطائع هدايا كثيرة طريفة، فبعث هو خمسمائة جمل، وحمل خمسين ألف ألف دينار، وألف ألف درهم، وخمسمائة ثوب أنواعاً وثلاثين صينية فضة فيها العنبر والمسك والنوافخ.

* * *

سنة ثمان وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الطائع تقدم في شعبان بأن تقام الخطبة لعضد الدولة على منابر الحضرة تالية للخطبة له، فوقع الابتداء بذلك في يوم الجمعة لتسع بقين منه، وبأن تضرب على بابه ببغداد الدبادب في أوقات الصلوات الثلاث: الغداة، والمغرب، والعشاء، وهذان الأمران لم يكونا من قبل ولا أطلقا لولاة العهود، ولا خطب بحضرة السلطان إلا له، ولا ضربت الدبادب إلا على بابه، وقد كان معز الدولة أحب أن تضرب له الدبادب بمدينة السلام، وسأل المطيع لله ذاك، فلم يأذن له، ودخل عضد الدولة داره بمدينة السلام عائداً من الموصل، وتلقاه الطائع بقطربل.

* * *

سنة تسع وستين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه قبض على الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي في صفر، وقلد أبو الحسن علي بن أحمد بن إسحاق العلوي نقابة الطالبين ببغداد وواسط، وأبو الفتح أحمد بن عمر بن يحيى نقابتهم بالكوفة، وأبو الحسن أحمد بن القاسم المحمدي نقابتهم بالبصرة والأهواز، وكان قد استذنب أبو أحمد بما ليس بذنب، فأري خطاً مزوراً على خطه بإفشاء الأسرار وقيل له: إن عز الدولة أعطاك عقداً في غلامه فكتمناه فقال: أما الخط فليس بخطي، وأما العقد فإنه قال: إن لم يقبل ما دفعت فادفع هذا فلم يجز لي أن أخونه.

* * *

سنة سبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الصاحب بن عباد ورد إلى خدمة عضد الدولة عن مؤيد الدولة، وعن نفسه فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد، وبالغ في إكرامه، ورسم لأكابر كتابه وأصحابه يعظمونه، وكانو يغشونه مدة مقامه، ولم يركب هو إلى أحد منهم، وكان غرض عضد االدولة تأنيسه وإكرام مؤيد الدولة، ووصلت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب ويذكر اضطراب الأمور ببعده، ثم أن عضد الدولة برز غلى ظاهر همذان في ربيع الآخر للمضي إلى بغداد، وخلع على الصاحب الخلع الجميلة، وحمله على فرس بمركب ذهب، ونصب له دستاً كاملاً في خركاه تتصل بمضاربه، وأقطعه ضياعاً جليلة، وحمل إلى مؤيد الدولة في صحبته ألطافاً وورد عضد الدولة إلى بغداد، فنزل بجسر النهروان في يوم الأربعاء حادي عشر جمادى الآخرة، وطلب من الطائع أن يلقاه، فخرج غليه الطائع من غد هذا اليوم، فتلقاه وضربت له قباب وزينت له الأسواق.

* * *

سنة إحدى وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن عضد الدولة أمر بحفر النهر من عمود الخالص، وسياقة الماء إلى بستان داره فبدئ في ذلك وحشر الرجال لعمله.

وأنه كان على صدر زبرت عضد الدولة على صورة السبع من فضة، فسرق في صفر، وعجب الناس كيف كان هذا مع هيبة عضد الدولة المفرطة، وكونه شديد المعاقبة على أقل جناية، ثم قلبت الأرض في البحث عن سارقه فلم يوقف له على خبر، ويقال أن صاحب مصر دس من فعل هذا.

وفي ربيع الأول: وقع حريق بالكرخ من حد درب القراطيس إلى بعض البزازين من الجانبين، وأتى على الأساكفة، والحذائين، واحترق فيه جماعة من الناس وبقي لهبه أسبوعاً.

وفي ذي العقدة: تقلد أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى كتابة الطائع لله، وخلع عليه.

* * *

سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد في يوم الخميس ثامن عشر المحرم فتح الماء الذي استخرجه عضد الدولة من نهر الخالص غلى داره، وبستان الزاهر.

وفي يوم الخميس لثلاث خلون من صفر وقيل بل لليلة خلت من ربيع الآخر: فتح المارستان الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربي من مدينة السلام، ورتب فيه الأطباء، والمعالجون، والخزان، والبوابون، والوكلاء، والناظرون، ونقلت إليه الأدوية، والأشربة، والفرش، والآلات.

وفي شوال توفي عضد الدولة فكتم أصحابه موته، ثم استدعوا ولده صمصام الدولة من الغد إلى دار المملكة، وأخرجوا أمر عضد الدولة بتوليه العهد، وروسل الطائع فسئل كتب عهده منه، ففعل وبعث إليه خلعاً ولواء وعهداً بإمضاء ما قلده إياه أبوه، وجلس جلوساً عاماً حتى قرئ العهد بين يديه، وهنأه الناس، واستمرت الحال على إخفاء وفاة عضد الدولة إلى أن تمهد الأمر.

وفي يوم الاثنين لعشر بقين من ذي الحجة: قلد أبو القاسم علي بن أبي تمام الزينبي نقابة العباسيين، والقضاء بالحضرة وخلع عليه.

وفي هذا الشهر: خلع على أبي منصور بن الفتح العلوي للخروج بالحاج.

* * *

سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في يوم عاشوراء وهو عاشر المحرم أظهرت وفاة عضد الدولة، وحمل تابوته إلى الشهداء الغربي، ودفن في تربة بنيت له هناك، وكتب على قبره في ملبن ساج: " هذا قبر عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ابن ركن الدولة أحب مجاورة هذا الإمام التقي لطمعه في الخلاص يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعترته الطاهرة ".

وتولى أمره، وحمله أبو الحسن علي بن أحمد بن إسحاق العلوي النقيب، وجلس صمصام الدولة للعزاء به بالثياب السود على الأرض، وجاءه الطائع لله معزياً، ولطم عليه في دوره والأسواق اللطم الشديد المتصل أياماً كثيرة، فلما انقضى ذلك، ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة يوم السبت لسبع بقين من الشهر، وخلع عليه فيها الخلع السبع والعمامة السوداء، وسور وطوق وتوج، وعقد له لواءان، ولقب شمس الملة، وحمل على فرس بمركب من ذهب وقيد بين يديه مثله، وقرىء عهده بتقليده الأمور فيما بلغته الدعوة في جميع الممالك

ونزل من هناك في الطيار إلى دار المملكة وأخذت له البيعة على جميع الأولياء بالطاعة، وإخلاص النية في المناصحة، وأطلق لها رسومها، وكوتب الولاة والعمال وأصحاب النواحي والأطراف بأخذ البيعة على من قبلهم من الأجناد.

وفي ليلة الأربعاء الحادي عشر من صفر انقض كوكب عظيم الضوء، وكانت عقيبه دوي كالرعد.

* * *

سنة أربع وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن أبا عبد الله بن سعدان شرع في إصلاح ما بين صمصام الدولة وفخر الدولة، وخوطب الطائع لله على ما يجدده لفخر الدولة من الخلع والعهد واللقب، ففعل وجلس لذلك، وأحضرت الخلع، وقرئ عهده، وبعثت إليه.

وفي شهر رجب: كان عرس في درب رباح، فوقعت الدار، فهلك كثير من النساء، وأخرجن من تحت الهدم بالحلي والزينة، فكانت المصيبة عامة.

* * *

سنة خمس وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه في يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الأول خلع الطائع على صمصام الدولة، وطوقه، وسوره، وحمله على فرس بمركب ذهب، وقاد بين يديه مثله.

وفي ربيع الأول: ورد الخبر من الكوفة بورود إسحاق وجعفر الهجريين، وهما من القرامطة الذين يدعون بالسادة، في جموع كثيرة، وكان دخولهما إياها على وجه التغلب، وأقاموا الخطبة لشرف الدولة، واعتزوا إلى ملك الجهة، فوقع الانزعاج الشديد من ذلك، لما كان تمكن من النفوس من هيبة هؤلاء القوم، وأنهم ممن لا يصطلى بنارهم، ولأن جماعة من الملوك كانوا يصانعونهك، حتى إن عضد الدولة أقطعهم بواسط ناحية، وأقطعهم عز الدولة قبله بشقي الفرات إقطاعاً، وانتشر أصحابهما في النواحي، وأكبوا على تناول الغلات، واستخرج المال، فنفذ من بغداد عسكر طردهم، وبطل ناموسهم.

* * *

سنة ست وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه كثر الموت في المحرم بالحميات الحادة، فهلك من الناس خلق كثير. وفي ليلة الثلاثاء لتسع خلون من ربيع الأول، وهي ليلة اليوم العشرين من تموز: وافى مطر كثير مفرط ببرق. وفي رجب: زاد السعر، فبيعت الكارة الدقيق الخسكار بنيف وتسعين درهماً. وفي هذا الشهر: ورد الخبر بزلزلة كانت بالموصل، هدمت كثيراً من المنازل، وأهلكت خلقاً كثيراً من الناس. وكان الأمر قد صلح بين صمصام الدولة وأخيه شرف الدولة، وجلس الطائع في صفر، وبعث الخلع إلى شرف الدولة، ثم إن العسكر مال إلى شرف الدولة وتركوا صمصام الدولة، فانحدر صمصام الدولة إلى شرف الدولة راضياً بما يعامله به، فلما وصل إليه قبل الأرض بين يديه ثلاث دفعات، ثم قبل يده فقال له شرف الدولة: كيف أنت، وكيف كانت حالك في طريقك؟ ما عملت إلا بالصواب في ورودك، تمض وتغير ثيابك وتتودع من تعبك، فحمل إلى خيمة وخركاه قد ضربا له بغير سرادق، فجلس واجماً نادماً، واجتمع عسكر شرف الدولة من الديلم تسعة عشر ألفاً، وكان الأتراك ثلاثة آلاف غلام، فاستطال الديلم فخاصمهم الأتراك، فكانت بينهم وقعة، فانهزم الديلم، وقتل منهم ثلاثة آلاف في رمضان، فأخذ الديلم يذكرون صمصام الدولة، فقيل لشرف الدولة: اقتله فما تأمنهم، وقدم شرف الدولة بغداد فركب الطائع إليه يهنئه بالسلامة، ثم خفي خبر صمصام الدولة، وذلك أنه حمل إلى القلعة، ثم نفذ بفراش ليكحله، فوصل الفراش وقد توفي شرف الدولة

وفي ذي الحجة: قبل قاضي القضاة أبو محمد بن معروف شهادة أبي الحسن الدارقطني وأبي محمد بن عقبة، وذكر ابن أبي الفوارس أن الدارقطني ندم على شهادته، وقال: كان يقبل قولي على رسول الله بانفرادي، فصار ولا يقبل قولي على بقلي إلا مع آخر.

سنة سبع وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الوزير أبو منصور محمد بن الحسن، فتلقاه القواد والحجاب، والحواشي، والكتاب، ووجوه أهل بغداد، فلما قارب تلقاه شرف الدولة بالشفيعي يوم السبت لست خلون من المحرم، ووصل في صحبته عشرون ألف ألف درهم، وثياب، وآلات كثيرة، وكان يغلب عليه الخير وإيثار العدل، وكان إذا سمع الأذان ترك جميع شغله، وتوفر على أداء فرضه، وكان يكثر التقليد والعزل ولا يترك عاملاً يقيم في ناحية سنة.

وفي يوم السبت ثامن عشر صفر: عقد مجلس حضرة الأشراف، والقضاة، والشهود، وجددت فيه التوثقة بين الطائع لله وبين شرف الدولة.

سنة ثمان وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: غلاء الأسعار، وعدم الأقوات وظهور الموت، والأغلال في المحرم، وبيعت الكارة الدقيق بستين درهماً.

وفي هذا الوقت تقدم السلطان شرف الدولة برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثل ما كان المأمون فعله في أيامه، فبنى في دار المملكة بيتاً في آخر البستان محكماً، ورصد ما كتب به محضراً أخذ فيه خطوط من يعرف الهندسة بحسن صناعة هذا الموضع لهذا البيت.

وفي شعبان: كثرت الرياح العواصف، وجاءت بفم الصلح وقت العصر من يوم الخميس لخمس بقين منه ريح شبهت بالتنين، حتى خرقت دجلة، حتى ذكر أنه بانت أرضها من ممر الريح، وهدمت قطعة من المسجد الجامع، وأهلكت جماعة من الناس، وغرقت كثيراً من السفن الكبيرة المملوءة بالأمتعة واحتملت زورقاً منحدراً وفيه دواب وعدة سفن وطرحت ذلك في أرض جوخي، فشوهد بعد أيام.

سنة تسع وسبعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد الخبر في المحرم بأن الجراح الطائي خرج على الحاج بين سميراء وفيد، ونازلهم، ثم صالحهم على ثلثمائة ألف درهم شيء من الثياب المصرية والأمتعة اليمنية، فأخذه وانصرف.

سنة ثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه قلد أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي نقابة الطالبيين، والنظر في المظالم، وإمارة الحاج، وكتب عهده على جميع ذلك، واستخلف له ولده المرتضى أبو القاسم والرضى أبو الحسن على النقابة، وخلع عليهما من دار الخلافة.

وفي هذه السنة زاد أمر العيارين في جانبي بغداد مدينة السلام، ووقعت بينهم حروب، وعظمت الفتنة، واتصل القتال بين الكرخ وباب البصرة، وصار في كل حرب أمير وفي كل محلة متقدم وقتل الناس، وأخذت الأموال، وتواترت العملات، واتصلت الكبسات وأحرق بعضهم محال بعض، وتوسط الشريف أبو أحمد الموسوي الأمر.

* * *

سنة إحدى وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن أبا الحسين محمد ابن قاضي القضاة أبي محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف، قلد ما كان إلى أبي بكر بن صير من الأعمال، وقرئ عهده على ذلك بحضرة أبيه في داره الشطانية بمشهد من الأشراف، والقضاة، والفقهاء، والوجوه.

باب ذكر خلافة القادر بالله

واسمه: أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ويكنى: أبا العباس، واسم أمه تمنى مولاة عبد الواحد بن المقتدر، وكانت من أهل الدين.

ولد في يوم الثلاثاء التاسع من ربيع الأول سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وتقلد الخلافة بعد أن قبض الطائع لله وخلع، وكان القادر حسن الطريقة، كثير المعروف، مائلاً إلى الخير والتدين، ولما رحل القادر عن البطيحة، فوصل إلى جبل في عشار رمضان، وانحدر بهاء الدولة، ووجوه الأولياء وأماثل الناس لاستقباله، فدخل دار الخلافة ليلة الأحد ثاني عشر رمضان سنة إحدى وثمانين، وجلس من الغد جلوساً عاماً، وهنىء وأنشد بين يديه المديح، وحمل إلى القادر بعض الفروش، والآلات المأخوذة من الطائع، واستكتب له أبو الفضل محمد بن أحمد الديلمي، وجعل أستاذ الدار عبد الواحد بن الحسين الشيرازي، وفي يوم الخميس لتسع بقين من شوال جمع الأشراف والقضاة والشهود في مجلس القادر، حتى سمعوا يمينة لبهاء الدولة بالوفاء، وخلوص النية ولفظه بتقليده ما وراء بابه مما تقدم فيه الدعوة، وذلك بعد أن حلف له بهاء الدولة على صدقه والطاعة والقيام بشروط البيعة.

سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن أبا الحسن علي بن محمد الكوكبي المعلم كان قد استولى على أمور السلطان كلها، ومنع أهل الكرخ وباب الطاق من النوح في عاشوراء وتعليق المسوح، ووقع من قبله أيضاً باسقاط جميع من قبل من الشهود بعد وفاة أبي محمد بن معروف، وأن لا يقبل في الشهادة إلا من كان ارتضاه. وكان السبب في هذا أنه لما توفي ابن معروف كثر قبول الشهود بالبذل والشفاعات حتى بلغت عدة الشهود ثلثمائة وثلاثة أنفس، فقيل لأبي الحسن متى تكلمت في هذا حصل لك منهم جملة، فوقع بذلك ثم عاد ووقع بقبولهم في نصف صفر.

وفي هذا الشهر شرع أبو الحسن في حفر الأنهار المخترقة لأسواق الكرخ وما يتصل به، وجبى من أرباب العقار مالاً جزيلاً.

سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن القادر بالله تقدم بعمارة مسجد الحربية وكسوته وإجرائه مجرى الجوامع في الصلاة.

وفي الأربعاء لأربع بقين من جمادى الأولى وقع الفراغ من الجسر الذي عمله بهاء الدولة في مشرعة القطانين بحضرة دار مؤنس، واجتاز عليه من الغد ماشياً وقد زين بالمطارد.

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من جمادى الآخرة شغب الديلم شغباً شديداً لأجل فساد النقد وغلاء السعر وتأخر العطاء ومنعوا من الصلاة بجامع الرصافة، فلما كان بكرة السبت قصدوا دار أبي نصر سابور بباب خراسان، وهجموا فنهبوها وافلت من بين أيديهم هارباً على السطوح، وثارت بذلك فتنة دخل فيها العامة ورجع الديلم، فراسلوا بهاء الدولة بالتماس أبي نصر سابور وأبي الفرج محمد بن علي الخازن وكان ناظراً في المال ودار الضرب، وتردد القول معهم إلى أن وعدوا بالإطلاق وتغيير النقد.

وفي يوم الخميس الثاني من ذي الحجة: عقد للخليفة القادر بالله على سكينة بنت بهاء الدولة بصداق مبلغه مائة ألف دينار، وكان الأملاك بحضرته، والولي الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي، وتوفيت قبل النقلة.

* * *

سنة أربع وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن القاضي أبا محمد عبد الله بن محمد بن الأكفاني قبل شهادة أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي في المحرم، وشهادة أبي بكر بن الأخضر في رجب.

وفي صفر قبل القاضي أبو عبد الله الضبي، شهادة أبي العلاء محمد بن علي الواسطي، وفيه قوي أمر العيارين، واتصل القتال بين أهل الكرخ وباب البصرة، وظهر العيار المعروف بعزيز من باب البصرة واستفحل أمره والتحق به كثير من الذعار، وطرح النار في المحال، وطلب أصحاب الشرط ثم صالح أهل الكرخ، وقصد سوق التمارين، وطالب بضرائب الأمتعة وجبى ارتفاع الأسواق الباقية، وكاشف السلطان وأحد أصحابه ونادى فيهم، وكان ينزل إلى السفن فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر فأمر السلطان بطلب العيارين فهربوا من بين يديه.

سنة خمس وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه عاد أبو القاسم علي بن أحمد الأبرقوني من البطيحة إلى حضرة بهاء الدولة للوزارة، واستقر ذلك بوساطة مهذب الدولة أن يمشي الأمر على يده، وإلا أعاده محروساً إلى البطيحة ثم أن أمره وقف وعاد إلى البطيحة، لأن جميع الحاشية تطابقت على فساد أمره فكاد بهاء الدولة أن يقبض عليه، فذكر الشريف أبو أحمد العهد المستقر بينه مع مهذب الدولة، وأن الغدر به مكاشفه، ولمهذب الدولة بالقبح ففسح في عوده مع الشريف أبي أحمد إلى البطيحة.

وحج هذه السنة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبيد الله العلوي، وكذلك في سنة ست وسبع وثمان، وبعث في السنة بدر بن حسنويه تسعة آلاف دينار، لتدفع إلى الأصيفر عوضاً عما كان يأخذ من الحاج، وجعل ذلك رسماً له من ماله وبعث ذلك إلى سنة ثلاث وأربعمائة.

* * *

سنة ست وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن أهل البصرة في شهر المحرم ادعوا أنهم كشفوا عن قبر عتيق، فوجدوا فيه ميتاً طرياًبثيابه وسيفه، وأنه الزبير بن العولم فأخرجوه وكفنوه ودفنوه بالمربد بين الدربين وبنى عليه الأثير أبو المسك عنبر بناء وجعل الموضع مسجداً ونقلت إليه القناديل والآلات والحصر والسمادات وأقيم فبه قوام وحفظة ووقف عليه وقوفاً.

وفي يوم الأحد ثاني شوال خلع القادر بالله على أبي الحسن ابن حاجب النعمان وأظهر أمره في كتابه له.

وفي هذه السنة قلد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن المهتدي بالله الصلاة في جامع المنصور وأبو بكر التمام بن محمد بن هارون بن المطلب الصلاة في جامع الرصافة.

وفي هذه السنة حج بالناس أبو عبد الله بن العلوي، وحمل أبو النجم بدر بن حسنوية وكان أمير الجبل خمسة آلاف دينار من وجوه القوافل من الخراسانية لتدفع إلى الأصيفرعوضاً عما كان يجبى له من الحاج في كل سنة وجعل ذلك رسماً زاد فيه من بعد حتى بلغ تسعة آلاف دينار ومائتي دينار وواصل حمل ذلك إلى حين وفاته.

* * *

سنة سبع وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة توفي بالري فرتب ولده رستم في الأمر بعده، وهو يومئذ ابن أربع سنين، وأخذت له البيعة على الجند، وحطت الأموال في الزبل للتفرقة على الجند.

* * *

سنة ثمان وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن القادر بالله قبض على أبي الحسن علي بن عبد العزيز في يوم السبت لليلة بقيت من رمضان، وقلد كتابته أبا العلاء سعيد بن الحسن بن تريك فأقام على خدمته نيفاً وسبعين يوماً، ثم صرفه وأعاد أبا الحسن.

وفي يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة وافى برد شديد، وجمد الماء منه جموداً ثخيناً لم يعهد مثله، حتى جمدت جوب الحمامات، وبول الدواب والخيل والنبيذ.

* * *

سنة تسع وثمانين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه انقض في يوم الأحد لعشر بقين من ربيع الأول كوكب كبير ضحوة النهار.

وفي يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى خلع على الشريف أبي الحسن محمد بن علي بن الحسن الزينبي، ولقب نقيب النقباء، وقد كانت جرت عادة الشيعة في الكرخ وباب الطاق بنصب القباب وتعليق الثياب وإظهار الزينة في يوم الغدير، وإشعال النيران في ليلته، ونحر جمل في صبيحته، فأرادت الطائفة الأخرى من أهل السنة أن تعمل في مقابلة هذا شيئاً فادعت أن اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذي حصل فيه النبي في الغار وأبو بكر معه، فعملت فيه مثل ما عملت الشيعة في يوم الغدير، وجعلت بإزاء يوم عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيام نسبته إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزارت قبره بمسكن كما يزار قبر الحسين عليه السلام، وكان ابتداء ما عمل يوم الغار يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة. ؟ وفي هذه السنة: وافى برد شديد مع غيم مطبق وريح معزق متصلة، فهلك من النخل في سواد بغداد ألوف كثيرة، وسلم ما سلم ضعيفاً، فلم يرجع إلى حاله وحمله إلا بعد سنين.

* * *

سنة تسعين وثلثمائة

فمــن الحــوادث فيهــا: أنـه ظهـر فـي أرض سجسـتان معـدن الـذهب، كـانوا يحفـرون فيـه آبـاراً ويخرجون من التراب الذهب الأحمر.

ومن الحوادث: أنه في يوم الخميس لسبع بقين من شوال قلد القاضـي أبـو عبد الله الحسين بـن هـارون الضبي مدينة المنصور مضافة إلـى الكرخ والكوفـة، وشـقي الفرات، وقلد القاضـي أبـو محمد عبد الله بـن محمد الأكفاني الرصافة، وأعمالها عوضاً عن المدينـة التـي كـان يليهـا، وقلد القضـاء أبـو الحسـن الخرزي الواسطي طريقي دجلة وخراسان مضافاً إلى عمله بالحضرة، وقرئت عهودهم علـى ذلك وولـي أبـو خـازم محمد ابن الحسن الواسطي القضـاء بواسط وأعمالهـا، وقـرئ عهده بالموكـب بـدار الخلافـة وكتـب الإمـام القادر بـالله لمحمد بـن عبد الله بـن الحسن وقد ولاه بـلاد جيلان كتابـاً اختصـرته وفيـه: " بسم الله الـرحمن الرحيم من عبد الله أحمد الإمام القادر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله بـن الحسـن حين بـلا حقـائق أخباره استشف مواقع آثاره، وأنهى إلى أمير المؤمنين رسوخه فـي العلم وسمته بـالفهم، فاستخار الله عـز وجل فيمـا يعتمده عليـه، وسـأله التسديد فيمـا يفوضـه إليـه، فقلده الصـلاة، والخطابـة علـى المنـابر والقضـاء والحكم ببلاد جيلان أسودها وأبيضـها، ومـا توفيـق أميـر المؤمنين إلا بـالله، عليـه توكلـه وإليـه فـي كـل حـال موئله، وحسـب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل أمره بخشية الله، فإنهـا مزيـة العلمـاء ومراقبتـه فإنهـا خاصـة الأدباء، وتقواه ما استطاع، فإنها سكة من أطاع وجنة من تجاذبه الأطماع، وأن يأخذ لأمـر الله أهبتـه ويعد له عدته، ولا يترخص فيه فيفرط، ولا يضيع وظيفـة مـن وظائفـه فيتـورط، وأن يسـتعمل نفسـه فـي المهـل، ويؤذنهـا بقـرب الأجـل ولا يغرهـا أنـه منتظـر، وإن عصـى فيغفـر، فقـد قـال الله تعـالى:{حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣} [غافر: ١ - ٣].

وأمره بقراءة القرآن وتلاوتـه والمحافظـة عليـه ودراسته، وأمـره بمداومـة الطهـر فإنـه أمـان مـن الفقر ولا يقنع بـه في الجوارح، أو أن يكون مثله فيما بين الحوائج.

فإن النقاء هنـاك هـو النقـاء الـذي يـتم بـه البهـاء، وحينئذ تكمـل الطهـارة، وتـزول الأدران، وأمـره بمراقبة مواقيت الصلاة للجمع، فإذا حانت سعى إليها، وإذا وجبت جمع عليها بـالأذان الـذي يسـمع بـه مؤذنوه الملأ، والإقامة الذي يقوم بـه فرض الله عـز وجـل، وأمـره بـالإحسـان فـي الموعظـة مستقصـياً للمناصحة، وأمره بالنداء على المنابر، وفي سائر المحافل والمعاقل بالشعار الأعلـى والفرض الأوفـى من ذكر دولة أمير المؤمنين، وحث الأمـة علـى طاعتـه أجمعين، قـال الله عـز وجـل:{أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ} [النساء: ٥٩].

وأن يديم التصفح لأحوال البلاد التي ولي فيها ما وليه من قواعد الشريعة، وليقابل نعمة الله بشكر الصنيعة، فإن وجد فيها نافراً عن فريضة الدعوة الشريفة القادرية اجتذبه إليها بالموعظة الحسنة والدلالة الصريحة، فإن استبصر لرشده وراجع المفروض بجهده فقد فاز وغنم، وإن تشاوس وعند استنفر عليه الأمم وقمعه بما يوجبه الحكم.

وأمره بصلوات الأعياد والخسوف والاستسقاء، وأمره أن يكون لأمر الله متأهباً، ولنزول الموت مترقباً ولطروقه متوقعاً، وأمره أن يخلي من فوضه إليه من ظهير يستنيبه وأمره أن يتبع شرائع الإسلام، وأن يواصل تلاوة القرآن ويستنبط منه ويهتدي به فإنه جلاء للبصائر، ومنار الحكم، ولسان البلاغة، وأمره أن يخلي ذهنه إذا انتدب للنظر، ويقضي أمامه كل وطر، ويأخذ لجوارحه بحظ يعينها فإن القلب إذا اكتنفته المآرب يعرض له التعب، وأمره بالجلوس للخصوم في مساجد الجوامع ليتساووا في لقائه، وأن يقسم لحظه ولفظه بين جمهورهم.

وأمرهم بالنظر في الأمور بالعدل، وأمره بانتخاب الشهود والفحص عن أحوالهم، وأمره بالتناهي في تفقد الأيتام، فإنهم أسراء الإسلام، وأمره بتعهد الوقوف وإجراء أحوالها على ما يوجبه التوقيف من أربابها.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته المنعم بها عليك، وتذكرته المستودعة فوائد توفيقه فانصب لمحاورته وأصغ لمخاطبته، واغرس مواعظه في قلبك تجن من ثمرها الفوز عند ربك ".

وكتب علي بن عبد العزيز بن إبراهيم في شهر ربيع الأول سنة تسعين وثلثمائة.

* * *

سنة إحدى وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن القادر بالله جلس للحاج الخراسانية وأعلمهم أنه قد جعل الأمير أبا الفضل ابنه ولي عهده، ولقبه الغالب بالله، وقرئت عليهم الكتب المنشأة بذلك، وحضر الأشراف والقضاة، والشهود، والفقهاء، وكان لهذا الولد يومئذ ثماني سنين وأربعة أشهر وأيام، وكتب إلى البلاد أن يخطب له بعده. وكان السبب في هذه العجلة أن عبد الله بن عثمان الواثقي من ولد الواثق كان من الشهود، وكانت إليه الخطابة، فحدث بينه وبين القاضي أبي علي التنوخي وحشة، فقيل له: لو استصلحته؟ فقال: أنا مفكر كيف أطفئ شمع هذا الملك وآخذ ملكه.

ثم اتفق أنه خرج إلى خراسان واستغوى بعض السلاطين، واتفق هو ورجل آخر كبير القدر على أن افتعلا كتاباً عن الخليفة بتقليد الواثقي العهد بعده، فخطب له بعد القادر وكتب إلى القادر فغاظه ذلك، ورتب أبا الفضل في ولاية العهد، وأثبت فسق الواثقي، ثم قدم بغداد مستخفياً، ثم انحدر إلى البصرة، ثم مضى إلى فارس وبلاد الترك، ونفذت كتب القادر تتبعه فهرب إلى خوارزم، ثم قصد بعض السلاطين فرقاه إلى قلعة، فلم يزل بها حتى مات.

وفي يوم الجمعة الخامس من جمادى الآخرة توفي القاضي أبو الحسن عبد العزيز ابن أحمد الخرزي، وأقر ابنه أبو القاسم على عمله، وقرئ عهده بذلك في يوم الاثنين لليلة بقيت منه، ثم صرف بعد مديدة قريبة.

وفي يوم الخميس ثامن عشر ذي القعدة ولد الأمير أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله وهو القائم.

في هذه السنة: حج بالناس أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي.

سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة

فمن الحوادث فيها: أن العوام ثاروا في يوم الاثنين سابع ربيع الآخر بالنصارى، فنهبوا البيعة بقطيعة الدقيق وأحرقوها، فسقطت على جماعة من المسلمين رجالاً وصبياناً ونساء فهلكوا.

وفي شعبان قبض على الموفق أبي على الحسن بن محمد بن إسماعيل وحمل إلى القلعة.

وفي رمضان عظمت الفتنة ببغداد، وكثرت العملات، وانتشر الدعار.

وفي ليلة الأربعاء لثمان بقين من رمضان طلع كوكب الذؤابة.

وفي ليلة الاثنين ثالث ذي القعدة انقض كوكب كضوء القمر ليلة التمام، ومضى الضياء وبقي جرمه يتموج نحو ذراعين في ذراع برأي العين، وتشقق بعد ساعة.

وفي يوم الثلاثاء الحادي عشر منه تكامل دخول الخراسانية بغداد وعبروا بأسرهم إلى الجانب الغربي، ثم توقفوا عن التوجه نحو البلاد لفساد الطريق وانتشار العرب، وعادوا إلى بلادهم، وبطل الحج من المشرق في هذه السنة.

وفي يوم الاثنين التاسع من ذي الحجة، ولد الأمير أبو الحسن وأبو علي الحسين ابنا بهاء الدولة توأمين، فعاش أبو الحسين بضع سنين ومات، وبقي أبو علي، وملك الإمرة بالحضرة، فلقب مشرف الدولة.

سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن عميد الجيوش منع أهل الكرخ وباب الطاق في عاشوراء من النوح في المشاهد، وتعليق المسوح في الأسواق فامتنعوا، ومنع أهل باب البصرة وباب الشعير من مثل ذلك فيما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير بن العوام.

وقبض بهاء الدولة على وزيره أبي غالب محمد بن خلف يوم الخميس لخمس بقين من المحرم، وقرر عليه مائة ألف دينار قاسانية.

وفي هذا الشهر قبض مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر على سابور بن أردشير لأمر اتهمه به، فأقام في الاعتقال إلى أن ملك البطيحة أبو العباس بن واصل فأطلقه.

وفي أوائل صفر غلت الأسعار، عدمت الحنطة، وبلغ الكر من الحنطة مائة وعشريين ديناراً.

وفي هذه السنة مضى عميد الجيوش إلى النجمي، ومضى إلى سورا واستدعى سند الدولة أبا الحسن علي بن مزيد، وقرر عليه أربعين ألف دينار في كل سنة عن بلاده، وأقره عليها.

سنة أربع وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الشريف أبا أحمد الحسين بن موسى قلده بهاء الدولة قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبيين، وكان التقليد له بشيراز، وكتب له منها عهد على جميع ذلك، ولقب بالطاهر الأوحد ذي المناقب، فلم ينظر في قضاء القضاة لامتناع القادر بالله من الإذن له، وترددت في هذا أقوال انتهت إلى الوقوف.

وفي هذه السنة حج بالناس أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي، وكان في جملة الحاج أبو الحسين بن الرفاء، وأبو عبد الله بن الزجاجي وكانا من أحسن الناس قراءة فاعترض الحاج الأصيفر المنتفقي، وحاصرهم بالباطنة، وعول على نهبهم، فقالوا: من يمضي إليه ويقرر معه شيئاً نعطيه؟ فندبوا أبا الحسين بن الرفاء، وأبا عبد الله الزجاجي فدخلا إليه وقرءا بين يديه، فقال لهما: كيف عيشكما ببغداد؟ فقالا: نعم العيش، يصلنا من أهلنا الخلع والصلات والهدايا، فقال: هل وهبوا لكما ألف ألف دينار في صرة؟ فقالا: لا ولا ألف دينار في موضع، فقال لهما: قد وهبت لكما الحاج وأموالهم ذلك يزيد على ألف ألف دينار، فشكروه وانصرفوا من عنده ووفى للحاج بذلك وحجوا ولما قرءا بعرفات على جبل الرحمة

قال أهل مكة وأهل مصر والشام: ما سمعنا عنكم يا أهل بغداد تبذيراً مثل هذا يكون عندكم مثل هذين الشخصين فتستصبحوا بهما معاً، فإن هلكا فبأي شيء تتجملون، كان ينبغي أن تستصحبوا كل سنة واحداً ولما حجوا عول الأمير على ترك زيارة المدينة، واعتذر بقعود الأعراب في طريقه وما يلزمه من الخفارات عند تعويقه، فتقدما الحاج ووقفا عند الجبل الذي عند يسار الراجع من مكة، ويرى من بعيد كأنه عنق طائر ومنه يعدل القاصد من مدينة الرسول ويسير في سبخة من ورائها صفينة فقرأ:{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ} [التوبة: ١٢٠] فعند ذلك ضج الناس بالبكاء ولوت الجمال أعناقها نحوهما، وقصد بهم الأمير المدينة، ولما ورد أبو الحسين بن بويه، بغداد أخذ هذين القارئين ومعهما أبو عبد الله بن البهلول، وكان قارئاً محسناً فرتبهم لصلاة التراويح به وهم أحداث، وكانوا يتناوبون الصلاة ويأتم بهم ورغب لأجلهم في صلاة التراويح.

وكان أبو الحسين بن الرفاء تلميذ أبي الحسن بن الخشاب، وكان ابن الخشاب مليح الصوت حسن التلاوة وأنه قرأ في جامع الرصافة في بعض الليالي الأحياء " ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله " فتواجد صوفي، وقال: بلى قد آن، ثم جلس وبكى طويلاً ثم سكت سكتة طالت فحرك فإذا به ميت، وكان ابن الخشاب تلميذ أبي بكر بن الآدمي، الموصوف بطيب التلاوة.

وجرى مثل هذا لأبي عبد الله ابن البهلول، قال: فأنبأنا أحمد بن علي بن المحاملي، قال: سمعت أبا الحسين محمد بن علي ابن المهتدي، يقول: قرأ أبو عبد الله ابن البهلول يوماً في دار القطان في الجامع بعد الصلاة يوم الجمعة:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} [الحديد: ١٦]، فقام رجل من أهل عكبرا فقال له: كيف قرأت يا أبا عبد الله؟ فرد عليه فقال الرجل: بلى والله فسقط ميتاً.

* * *

سنة خمس وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه ورد في ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم أوائل الحاج من مكة بعد أن أعتقهم ابن الجراح الطائي في طريقهم ولزمهم تسعة آلاف دينار مضافة إلى رسم الأصيفر الذي يقوم به بدر بن حسنويه، وقد سبق ذكر ذلك.

وفي هذه السنة: حج بالناس جعفر بن شعيب السلار، ولحقهم عطش في طريقهم، فهلك خلق كثير، ولحق قوم منهم الحج.

سنة ست وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه طلع كوكب كبير يشبه الزهرة في كبره وأصاءته عن يسرة القبلة يتموج وله شعاع على الأرض كشعاع القمر، وذلك في ليلة الجمعة مستهل شعبان، وثبت إلى النصف من ذي القعدة ثم غاب.

وفي هذه السنة: ولي أبو محمد بن الأكفاني قضاء جميع بغداد، وجلس القادر لأبي المنيع قرواش بن أبي حسان ولقبه بمعتمد الدولة، وتفرد قرواش بالإمارة.

وفي هذه السنة: حج بالناس محمد بن محمد بن عمر العلوي، وخطب بمكة والمدينة للحاكم صاحب مصر على الرسم في ذلك، وأمر الناس في الحرمين بالقيام عند ذكره، وفعل مثل ذلك بمصر وكان إذا ذكر قاموا وسجدوا في السوق ومواضع الاجتماع.

سنة سبع وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: خروج أبي ركوة وما جرى له مع الحاكم بمصر. وهذا رجل أموي من ولد هشام بن عبد الملك واسمه الوليد، وإنما كني بأبي ركوة لركوة كانت معه في أسفاره يحملها على مذهب الصوفية، وكان قد لقي الشيوخ وكتب الحديث بمصر وانتقل إلى مكة ثم إلى اليمن ثم إلى عاد الشام، وهو في خلال أسفاره يدعو إلى القائم من ولد هشام بن عبد الملك، ويأخذ البيعة على من يجد عنده انقياداً وقبولاً، ثم نزل حلة وصار معلماً واجتمع عنده صبيان العرب وتظاهر بالتنسك ودعا جماعة منهم فوافقوه، ثم أعلمهم أنه هو الإمام الذي يدعو إليه، وقد أمر بالظهور ووعد النصر فخاطبوه بالإمامة، ولقب نفسه الثائر بأمر الله المنتصر لدين الله من أعداء الله، وعرف هذا بعض الولاة فكتب إلى الحاكم يستأذنه في طلبه قبل أن تقوى شوكته، فأمره بإطراح الفكر في أمره لئلا يجعل له سوقاً، وكان يخبر عن الغائبات

فيقول أنه يكون كذا وكذا ثم لقيه ذلك الوالي في جمع فهزمهم، وحصل من أموالهم ما قويت به حاله، فدخل برقة فجمع له أهلها مائتي ألف دينار وقبض على رجل يهودي اتهمه بودائع عنده، فأخذ منه مائتي ألف دينار ونقش السكة باسمه وألقابه، وركب يوم الجمعة وخطب ولعن الحاكم، فجمع له الحاكم ستة عشر ألفاً وبعث عليهم الفضل بن عبد الله، فنهض وأخذ معه ثلثمائة ألف دينار لنفقاته ونفقات العسكر، وحمل إليه الحاكم خمسمائة ألف دينار وخمسة آلاف قطعة ثياباً، وقال له: اجعل هذا عدة معك، فلما سار تلقاه أبو ركوة فرام مناجزته والفضل يتعلل ويراوغ، فقال أصحاب أبي ركوة: قد بذلنا نفوسنا دونك ولم يبق فينا فضل لمعاودة حرب، وما دمت مقيماً بين ظهرانينا فنحن مطلوبون لأجلك، فخذ لنفسك وانظر أي بلد تريد لنحملك إليه، فقال: تسلمون إلى فارسين يصحبانني إلى بلاد النوبة فإن بيني وبين ملكهم عهداً وذماماً، فأوصلوه إلى بلاد النوبة، فبعث الفضل وراءه فسلموه فحمل إلى الحاكم، فأركبه جملاً وشهره ثم قتله، وقدم الحاكم الفضل وأقطعه قطاعات كثيرة وبلغ في إكرامه إلى أن عاده دفعتين في علة عرضت له، فلما أبل وعوفي قتله.

سنة ثمان وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أن الثلج وقع ببغداد في يوم الأربعاء الحادي عشر من ربيع الأول فعلا على وجه الأرض ذراعاً في موضع وذراعاً ونصفاً، وأقام أسبوعاً لم يذب رماه الناس عن سطوحهم بالرفوش إلى الشوارع والدروب، وابتدأ يذوب وبقيت منه بقايا في موضع نحو عشرين يوماً. وبلغ سقوطه إلى تكريت. ووردت الكتب من واسط بسقوطه فيها بين البطيحة وبين البصرة والكوفة وعبادان ومهروبان.

سنة تسع وتسعين وثلثمائة

فمن الحوادث فيها: أنه انقض في وقت المغرب من يوم الأربعاء مستهل رجب كوكب عظيم الضوء وتقطع ثلاث قطع أخذت كل قطعة جانباً.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان عصفت ريح شديدة، وألقت رملاً أحمر في الدور والطرق.

وفي هذه السنة: صرف أبو عمر بن عبد الواحد عن قضاء البصرة، وقلد أبو الحسن بن أبي الشوارب.

وفي هذه السنة: بلغ الحاج الثعلبية، فهبت عليهم ريح سوداء أظلمت منها الدنيا حتى لم ير بعضهم بعضاً، كان ذلك في شهر آب، وأصابهم عطش شديد واعتاقهم ابن الجراح الطائي فعادوا ووصلوا بغداد يوم عرفة، وأخذ بنو رعب الهلاليون، وكانوا ستمائة رجل حاج البصرة، وأخذوا منهم زيادة على ألف ألف دينار.

* * *

سنة أربعمائة

فمن الحوادث فيها: أن الماء نقص في شهر ربيع الأول من دجلة نقصاناً لم يعهد مثله، وظهرت فيها جزائر لم تكن قبل، وامتنع سير السفن فيها من أوانا والراشدية من أعالي دجلة، وأنفذ بمن كرى هذا الموضع وكان كرى دجلة مما استظرف وعجب منه لأنه لم تكر دجلة إلا في هذه السنة.

وفي جمادى الأولى بدئ ببناء السور على المشهد بالحائر، وكان أبو محمد الحسن ابن الفضل بن سهلان قد زار هذا المشهد، وأحب أن يؤثر فيه أثراً ثم ما نذر لأجله أن يعمل عليه سوراً حصيناً مانعاً لكثرة من يطرق الموضع من العرب، وشرع في قضاء هذا النذر ففعل وعمل السور وأحكم وعلا وعرض ونصبت عليه أبواب وثيقة وبعضها حديد، وتمم وفرغ منه وتحصن المشهد به وحسن الأثر فيه.

وفي رمضان أرجف بالخليفة القادر بالله، فجلس الناس في يوم جمعة بعد الصلاة وعليه البردة وبيده القضيب وحضر أبو حامد الأسفرائني، وسأل أبو الحسن ابن النعمان حاجب النعمان الخليفة أن يقرأ آيات من القرآن ليسمعها الناس، فقرأ بصوت عال مسموع:{لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾} [الأحزاب: ٦٠ - ٦١] فبكى الناس وانصرفوا ودعوا.

* * *

الخاتمة

والله تعـالى أعلـم بالصـواب، وإليـه المرجـع والمـآب، والحمـدلله وحـده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

* * *